

معجم التفسيرات القرآنية

الكاتب الإسلامي
محمد عتر يس

الدار الثقافية للنشر
القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

كافة حقوق النشر والطبع محفوظة للناشر
الدار الثقافية للنشر - القاهرة

ص.ب : ١٣٤ بانوراما اكتوبر - هاتف وفاكس ٤٠٢٧١٥٧

EEmail - fnassar@hotmail.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله، نزل القرآن الكريم، تبييناً لنبيه وتشريفاً، وهدى وموعظة للمتقين، ونوراً وذكرى للمؤمنين، وبشرى للمسلمين، وترغيباً في أعمال الخير، وترهيباً من أفعال الشر، ووعداً للمستغفرين بالجنة، ووعداً للمصرين بالنار، فالمرّ هالك، والنادم ناج، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلاة تنجينا من ظلمات الوهم، وتكرمنا بنور الفهم، وعلى آله الطيبين الطاهرين...

وبعد ...

فإن الله جلّ جلاله إذا رضى عن عبد من عباده، استعمله في طاعته، وحبب إليه النظر في كتابه الكريم، وذكره الحكيم، قارئاً متدبراً، وتالياً متأنياً، لسانه رطب بذكره، وعينه قريرة بنظره، وأذنه منصتة لسماعه، وقلبه مطمئن بفهمه، وصدوره منشرح بحفظه، وعقله كاشف لبيانه، وأعضاؤه نشطة للعمل بمحكمه، فيصبح بذلك، محبباً ومحجوباً، وناكراً ومذكوراً، وراضياً مرضياً، يلهمه الله رشده، ويسدّد مقاوله، ويعلمه من علمه، ويفهمه عنه، وينفعه بما علم، وبما فهم، فيعلم علم ما لم يكن يعلم، فيزداد يقينه، ويقبل على أحسن الحديث، مستنبطاً من تعبيراته، حكماً بالغة وأحكاماً شافية، وتشريعات راقية، وآداباً عالية، وأساليب بليغة، ومعاني سامية، تصفي النفس، وتصلح الفؤاد، وتقيم معالم الطريق أمام السالكين والراغبين في رضوان الله، والفوز بالحسنى وزيادة، ولا شك أن القرآن أعظم النعم شأناً، وأرفعها مكانة، وعليه تدور السعادة الدنيوية والأخروية، وهو المعجزة الخالدة الى يوم القيامة، وقد تكفل الله بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٤) ﴿١﴾، وقال: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ وَإِنَّا لَمُبْرُونَ﴾ (٢٩) ﴿٢﴾ ...

ثم ان المؤلف قد نال شرف النظر في فصاحة القرآن وبلاغته، ونظمه وإعجازه، وفي صحة معانيه وأحكامه، وصدقه وحكمته، وفي قصصه ومواعظه، فزكى الله به

(١) سورة «الحجر»: آية ٩ .

(٢) سورة «ص»: آية ٢٩ .

عقله، ونقى قلبه، وطهر لسانه، فوفّق الى صراط مستقيم، ونهج قويم، بتأليف كتاب «معجم التعبيرات القرآنية» الذي تقدمه بين أيدي القراء والمطلعين، دراسة مستنيرة، متعددة الجوانب، وزاداً علمياً لا ينضب، ومدداً ثقافياً لا ينفذ، فيه فقه الفقهاء، وأدب الأدباء، وبلاغة الفصحاء، وثقافة العلماء، المحدثين منهم والقدماء، فجمع الفضل، وحاز سبق، بما حوى من معارف، ومهارات، وإشارات، وإبداعات، تشفي العليل، وتروي الظمآن، وتضع أمام الباحثين والدارسين خزانة علم نافع، بأسلوب موضوعي واضح، يروق المطلع عليه ترتيبه، لتعبيراته القرآنية، التي بلغت خمسمائة وسبعة وستين تعبيراً، موزعة في مائة واثنى عشرة سورة، بحث المؤلف مفرداتها، وبيّن معانيها في النسق القرآني، فبلغ المؤلف بذلك هدفه، وحقق غرضه، بإخراج تلك الموسوعة العلمية الزاخرة، بجهد مشكور، وبحث دؤوب، وتحليل واع، وفهم وافٍ، ملتزماً صحيح الآراء، موثقاً النقول، مسجلاً لمصادرها، ضابطاً آيات القرآن بأرقامها وسورها، مخرجاً الأحاديث النبوية الشريفة، والحق أن هذا المعجم مرجع مفيد لا يستغني عنه، طالب علم، ولا قاصد معرفة . . . والله نسأل أن ينفع به مؤلفه، ومن قرأه، أو إطلع عليه . . . وصلى الله على سيدنا ومولانا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم . . . هذا وبالله التوفيق . . .

عبدالعظيم علي عبدالمجيد الحميلي

عضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

عايشت القرآن منذ الصبا الباكر عندما أرسلت الى الكتاب^(١) لتعلم القراءة وحفظ القرآن.

وبعد ذلك داومت على قراءة ما تيسر منه كل يوم، وهي عادة ما برحت تلازمي حتى اليوم.

وتدرجت في مراقبي الإنصات إليه مجوداً بأصوات القراء المحليين في قريتنا وما حولها، وبأصوات القراء العظام في الإذاعة^(٢)؛ فنمت لدي حاسة التذوق للأداء المتمكن، والمقدرة على تقييم الأصوات ومدى التزام أصحابها بأحكام التجويد.

وأورثتني معايشة القرآن بنظمه الفريد الخلاب وبتعبيراته المعجزة الأخاذة، شغفاً بالعربية وولعاً بها. فعكفت على دراسة نحوها الزاخر بحره، وعلى قراءة ما تصل إليه يدي من آثار أدبائها وكتابها.

وفي الجامعة تخصصت - عن ميل وهوى - في درس الأدب الإنجليزي ولغته، وفي الترجمة. وهكذا جمعت بين حبين: حب العربية وحب الإنجليزية، وهما حبان استغرقا مني كل الوقت والاهتمام. ولقد وجدت أنهما توأمان متشابهان، ولم لا؟ لقد انبثقتا - هما وكل اللغات - عن أصل واحد وهو: تلبية حاجة الإنسان للتعبير عن نفسه.

كما أُلجأني عملي في الترجمة الى التعامل اليومي مع عشرات المعاجم الإنجليزية والعربية. ووجدت أن المعاجم العربية قليلة قليلة، بينما المعاجم الإنجليزية كثيرة كثيرة. ووجدت كذلك أن المعاجم المتخصصة باللغة العربية لا وجود لها تقريباً بينما المعاجم الإنجليزية المتخصصة تغطي كل فروع العلم والفن والمعرفة؛ بل وهناك معاجم، للتعبيرات اللغوية الإنجليزية أقتني منها العديد. وهناك معجم للتعبيرات والمقتطفات الشيكسبيرية أي التي

(١) الكتاب: مكان لتحفيظ الصبيان القرآن وتعليمهم القراءة والكتابة.

(٢) رحم الله قراءنا العظام: محمد رفعت، عبدالباسط عبدالصمد، محمود علي البنا، كامل يوسف البهيمي، مصطفى اسماعيل، منصور الشامي الدمنهوري، محمد الصيفي ومحمد صديق المشاوي. وليت ذويم يحرصون على جمع تراثهم وتسجيله وحفظه.

وردت في مسرحيات شكسبير وشعره .

كان القرآن الكريم محيط المعارف والأسرار . مدده لا ينفد، ومن منهله يمكن للعاشقين أن يغترفوا مادة قشبية لمعاجم قرآنية متخصصة: بعضها في العقيدة، وبعضها في الأحكام، وثالث في التعبيرات القرآنية وغيرها وغيرها .

وهكذا اجتمعت على الأسباب، فتبلورت لدي فكرة تصنيف معجم للتعبيرات القرآنية . رحلت أقرأ كل يوم، وبكل تمنع مستطاع، ربعاً من القرآن وأحاول أن أستخرج منه ما أدرجه في المعجم من تعبيرات . ولم يكن الأمر سهلاً . فالقرآن كله بلاغة تسلب الأبواب، والنفس لا تطاوعني أن أدع هذا التعبير أو ذاك؛ فأعاود القراءة والتأمل، ومع المعاودة أضيف إلى ما كنت أدرجته من قبل أو أعدل عنه . وظللت على هذه الحال في التأرجح والتردد زماناً؛ وأخيراً استخرت الله واستقر عزمي - بفضلته وتيسيره تعالى - على التعبيرات الواردة في هذا المعجم، وتناهدت حُسمائة وسبعين . وحسبي أني بذلت في هذا العمل كل ما في الوسع من جهد وطاقة .

الخاصية الأولى للتعبير أن تأثيره ومعناه يتأنيان من مبناه، أي من كلماته ككل، مجتمعة لا منفردة . ففي قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ «الاعراف: ٢٦»، أضاف اللباس إلى التقوى، والتقوى هي الخشية من الله المستتعبة للأعمال الصالحة، وإضافة اللباس إليها لأنها تقي صاحبها النار، كما يقي اللباس صاحبه من الحر والبرد . فإذا اتقى العبد ربه، ستره من المعاييب في الدنيا ومن العقوبة في الآخرة .

والتعبير يتميز بالعمومية بمعنى إمكان تعميمه وإطلاقه على حالات وأوضاع غير التي وردت في القرآن: مثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ «البقرة: ٢٠٦»، فيمكن أن يقال في المزهو بنفسه عندما تحمله الأنفة والحمية على مداومة الخطأ وعدم الامتثال للنصح .

وهناك بلاغة التعبير بما فيه من مجاز وإيجاز يستلفتان الانتباه بشدة . ففي التعبير: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ «البقرة: ٢٢٣» تشبيه لأن النساء مزدراع الذرية أي مكان زرعها، ففرج المرأة كالحرث أي الأرض المحروثة المعدة للزراعة، والنطفة كالبذرة، والولد كالنبات . ورتب على ذلك ألا تؤتى النساء إلا في الفرج وحرمة الإتيان في غيره .

وهناك تعبيرات لا أثر فيها للكنايات أو الاستعارات، وإنما هي كلمات عادية وضع بعضها إلى جوار بعض بطريقة فريدة جعلت منها تعبيراً بالغ الأثر والتأثير . خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ «الإسراء: ٥٣» . الجناس والجوار بين «قل»

و«يقولوا» لا يثيران ضجراً، وإنما ترتاح إليهما النفس وتستعذبهما؛ وإضافة ضمير المتكلم (الياء) إلى (عباد) تنزل على القلب برداً وسلاماً؛ ويتبع ضمير الغيبة (هي) اسم الصلة (التي) وتأتي في أثرهما صيغة أفعل التفضيل (أحسن) ليتألق الثلاثة بهاء ورواء تصفو بهما الأرواح من كدر الإحن والثرات - تُرى أي سلام يظلل حياة العباد لو توخى كل منهم قول «التي هي أحسن»؟.

وتشيع على الألسنة بعض التعبيرات القرآنية، لكن مفاهيمها في الأذهان مشوشة أو خاطئة - ومن ثم لزم شرحها على وجوها الصحيحة. ففي التعبير: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ «البقرة: ١٥٩»، تعني التهلكة ما يتأتى نتيجة التقاعد عن الجهاد في سبيل الله، فنص الآية: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فالتقاعد عن الجهاد وعن الاستعداد له يؤدي إلى طمع العدو في ديار الإسلام عندما يجد في المسلمين الوهن والضعف والركون إلى متع الحياة.

هذه التعبيرات الخمس أوردتها كأمثلة وحسب، ولست أقصد من تقديمها أن أستقصي ما وراء كل تعبير من أسرار وأسباب - فلكل تعبير قرآني خصوصيته ودواعيه.

إن دراسة هذه التعبيرات والوقوف على شيء من أسرار بلاغتها وإعجازها - بعد تأصيل معاني كلماتها وبيان اشتقاقها - إنما تستتبعه فوائد جمّة، منها اكتساب المعارف والمهارات اللغوية من صرف ونحو وإعراب وبلاغة وترقية للأسلوب وغيرها، فضلاً عن المعلومات الفقهية والدينية والتاريخية وغير ذلك مما يرد في ثنايا شرح التعبير وتحليله، ذلك الذي يمتد ليشمل الآية، بل ويمتد ليشمل السياق ولربما شمل هذا السياق أكثر من آية - إنها سياحة إيمانية في ربوع القرآن الكريم.

أوردت التعبيرات في المعجم حسب ترتيب سورها في المصحف بادئاً بسورة الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران، وهكذا إلى سورة الناس.

وألحقت بالمعجم كشافين. أولهما: كشاف التعبيرات القرآنية على أساس الترتيب الأبجدي للكلمة الأولى من كل تعبير. فالتعبير: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ يأتي تحت حرف النون. وثانيهما: كشاف التعبيرات القرآنية على أساس الترتيب الأبجدي للكلمة الأساسية في كل تعبير. فالكلمة الأساسية في التعبير: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ هي التهلكة، فيطلب التعبير في حرف التاء. ومن الممكن أن يكون في التعبير كلمتان متساويتان في الأهمية، ففي التعبير: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ تتساوى في الأهمية كلمتا «العزة» و«الإثم»، وهنا يشير الكشاف إلى هذا التعبير مرتين: مرة في حرف العين أي الحرف الأول من كلمة

غزة، ومرة في حرف الهمزة أى الحرف الأول من كلمة إثم - على أن تحديد الكلمة الأساسية في كل تعبير إنما يخضع للاجتهاد الشخصى ، ومن ثم تباين الرأى بشأنها .

وفى الكشافين أوردت أمام كل كلمة رقم التعبير الذى جاءت فيه . ولم أورد الكلمات إلى مصادرها وفقا لما هو متبع فى معجمنا العربى ، وإنما جعلت ترتيبها على حسب مبناها وفقا لما هو متبع فى المعجم الإنجليزى راجيا أن يكون فى ذلك تيسير على الباحث .

وإنى أتوجه بالدعاء إلى الله أن ينفع به ، وأن تشيع التعبيرات القرآنية وتدور على الألسنة ، فتظل رطبة نديّة بذكر الله ﴿ أَلَا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ٢٨ - الرعد .

محمد محمد عتريس إبراهيم

١٥ شعبان ١٤١٨ هـ

القاهرة فى

١٥ ديسمبر ١٩٩٧م

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ١ - الفاتحة (١)

ذهب الجمهور إلى أن الرحمن مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة (١) ، ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها ، فلذلك لايشنى ولايجمع كمايشنى الرحيم ويجمع . وهو ممنوع من الصرف ، كما قال الزمخشري .

والرحمن : المنعم بجلائل النعم ، وهو الرحمن بما ستر فى الدنيا وأفاض من الخير على خلقه .

والله وحده المختص بصفة الرحمن ، إذ يمتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن ، ولايجوز أن يسمى به غيره . قال تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ (٢) فعادك الاسم الذى لا يشركه فيه غيره (وهو لفظ الجلالة) ، وقال : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٣) فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة جل وعز .

والرحيم صيغة مبالغة من الرحمة على وزن فعيل . والرحيم هو المنعم بدقائق النعم ، وهو رحيم بما غفر فى العقبى وجاء بالفضل على عباده .

ويصح إطلاق صفة الرحيم على المخلوقات . قال تعالى فى وصف النبي ﷺ : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) وقال فى وصف المؤمنين : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ ﴾ (٥) .

والرحمن الرحيم صفتان لله - تعالى - وصيغة كليتهما تدل على الكثرة ، وقد جمع بينهما لتأكيد كثرة رحمته جل وعلا . وفى التوكيد أعظم الفائدة وهو كثير فى كلام العرب ، قال محمد بن يزيد : إنه تفضل بعد تفضل ، وإنعام بعد إنعام ، وتقوية لمطامع الراغبين ، ووعد لا يخيب أمله .

وأصل الرحمة فى اللغة : رقة القلب وانعطافه بالشفقة . وهذا المعنى ينطبق على

(١) وما يدل على الاشتقاق ما أخرجه الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أنا الرحمن خلقت

الرحم واشتقت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » .

(٢) - الإسراء . (٣) - ٤٥ - الزخرف .

(٤) - ٢٩ (٥) - الفتح .

(٢) - ١١٠ - الإسراء .

(٤) - ١٢٨ - التوبة .

المخلوقات ، وإطلاقه على الله تعالى إنما يكون باعتبار لازمه الذى يليق به تعالى ، وهو التفضل والإحسان .

والرحمن الرحيم هو الذى وسعت رحمته كل شىء . فصفة الرحمن الرحيم تستغرق كل معانى الرحمة وحالاتها ومجالاتها . وهى تتكرر فى فاتحة الكتاب : فى البسمة ، وفى آية مستقلة هى الآية الثالثة ، لتؤكد السمة البارزة فى تلك الربوبية الشاملة ، ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه ، وبين الخالق ومخلوقاته - إنها صلة الرحمة والرعاية التى تستجيش الحمد والثناء ، وتقوم على الطمأنينة ، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية .

وقيل فى تفسير « الرحمن الرحيم » : أرحم بالعبد من نفسه وأولى بالناس من أنفسهم .

وقال الشيخ الباقورى : صفة الرحمن ، كما تقتضى صيغة « فعلان » ، تقتضى بلوغ غاية الصفة حتى لا يكون وراءها شىء منها . وصفة الرحيم ، كما تقتضى صيغة « فاعيل » ، تقتضى لزوم الصفة للموصوف بها لزوم الغرائز والسجايا التى لا تحول ولا تزول . فإذا قد جمع الله - تعالى - لذاته العلية هاتين الصفتين فى البسمة ، وفى كثير من آيات الكتاب العزيز ، فقد وعد الله عبادة بأنهم داخلون فى نطاق رحمة بالغة غاية مداها ، وملازمة للموصوف بها فى الوقت نفسه ملازمة السجايا والغرائز ، حتى لا تنفك عنه فى حال . فأعرف ذلك وتمثله وأنت تقرأ كتاب الله ، ثم تمثله كلما أصابك عنت ، أو أحاطت بك مشقة ، تعلم أنك من الله - تعالى - فى لطف لا يتناهى ، ورحمة لا يكاد يبلغها وصف .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٢ - الفاتحة (١)

العالمون (بالرفع) والعالمين (بالنصب والجر) : جمعُ عالم ، ولا يُجمع شيء على وزن فاعل بالواو والتون إلا هذا .

والعالم مشتق من العلامة لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته ، كما قال ابن المعتز :

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحدُ
وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحدُ

وجاء في « لسان العرب » : معنى العالمين كل ما خلق الله ، كما قال تعالى : ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ ، وقال : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ مُوقِنِينَ ﴿ ٢٣ ، ٢٤ - الشعراء » وقال قتادة في تفسير « رب العالمين » : رب الخلق كلهم .

وقال ابن عباس : رب الجن والإنس . وقال الأزهرى : والدليل على صحة قول ابن عباس قول الله عز وجل : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ « ١ - الفرقان » ، وليس النبي ﷺ نذيراً للبهائم ولا الملائكة ، وهم كلهم خلق الله ، وإنما بعث محمداً نذيراً للجن والإنس .

وجاء في « معجم ألفاظ القرآن الكريم » توضيح لذلك : العالم كل جنس من الخلق ، وجمع جمع العقلاء تغليبا للناس على غيرهم ، لكون الناس في جملة الكائنات ، والإنسان إذا شارك غيره في النظر غلب عليه . أو أنه جمع جمع العاقلين لأن المراد به أصناف الخلائق من الملائكة والناس دون غيرهما .

وروى عن وهب بن مُنبه قال : لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا منها عالم واحد . وما العمران في الخراب إلا كفسطاط في صحراء (الفسطاط : بيت يتخذ من الشعر) .

وقال الشيخ أحمد حسن الباقورى في كتابه « معانى القرآن بين الرواية والدراية » فى تفسير كلمة « العالمين » : إنها كلمة فاجأت العرب من جانين : جانب الجمع ، وجانب تذكير الجمع ؛ إذ كان العرب لا يعرفون إلا عالماً واحداً هو العالم الذى كانوا يعيشون فيه . . وقد جاء علم الفلك الحديث بمراقبه ومراصده وتحليلاته فبين أن المجموعة الشمسية التى نحن فيها ، ليست فى هذا العالم المجرى شيئاً مذكوراً . ثم بين علم الفلك أن هناك عوالم مجرّية أخرى مترامية المطارح لا تعد بالمئات ولا بالألوف وقد تعد بالملايين .

فحرفية اللفظ القرآنى وحقيقة الجمع الذى أورده القرآن العظيم ، يقتضيان أن تكون هناك

عواالم أخرى فيها أرض تدور حول شمس ، يتحقق فيها ما هو متحقق لنا فى هذا العالم الذى جمعه الله - سبحانه - جمع تذكير فى أول آية من كتابه العزيز (١) ينبه الناس بذلك إلى ما فى الكلمة الكريمة من أسرار ، فيطلبوها . . وهذا السر هو سر وجود الحياة فى أرض غير أرضنا فى عالم غير عالمنا .

وإذا شئت الاستزادة من هذا المعنى ، فاقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ « ٢٩ - الشورى » .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد من الدواب فى السماء إنما هم الملائكة . . وإطلاق الدابة على الملك إطلاقاً غير سائغ ؛ ولذلك ذهب الإمام القاسمى إلى أن هذه الدواب ليست هى الملائكة ، بل هى حيوانات كحيوانات الأرض ، وربما كان بين هذه الحيوانات حيوان عاقل من نوع الإنسان .

﴿ رب العالمين ﴾ : الرب هو المالك المتصرف ، ويطلق فى اللغة على السيد (٢) والمصلح (٣) . وفى الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى ، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة ، فمتى أدخلت الألف واللام على رب ، اختص الله تعالى به لأنها للعهد ؛ وإن حذفنا منه صار مشتركاً بين الله وبين عباده ، فيقال : الله رب العباد ، وزيد رب الدار . قال بعض العلماء : إن هذا هو اسم الله الأعظم لكثرة دعوة الداعين به ، وتأمل ذلك فى القرآن ، كما فى آخر آل عمران ، وسورة إبراهيم وغيرهما ؛ ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب ، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار فى كل حال (٤) .

والله سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركه هملًا (٥) . إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربیه . وكل العوالم والخلائق تُحفظ وتُتعهد برعاية الله رب العالمين . والربوبية المطلقة التى تشمل العالمين جميعاً هى مفرق الطريق بين النظام والفوضى فى العقيدة ؛ لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد ، تقر له بالسيادة المطلقة ، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة ، وعنت الحيرة بين شتى الأرباب .

والحمد لله هو الشعور الذى يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله ، فإن وجود الإنسان ابتداءً ليس إلا فيضاً من نعمة الله تستجيش الحمد والثناء . وفى كل لمحة وفى كل خطوة تتوالى آلاء الله ونعمه وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإنسان . ومع هذا يبلغ فضل الله سبحانه على عبده المؤمن أنه إذا قال : الحمد لله ، كتبها له حسنة ترجح كل الموازين .

(١) البسمة ليست آية من سورة الفاتحة فى قول مالك ، وعليه تكون ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هى أول آية فى القرآن الكريم .

(٢) ومنه قوله تعالى : ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ « ٤٢ - يوسف » ، وفى الحديث : « أن تلد الأمة ربها » أى سيدتها .

(٣) يقال لمن قام بإصلاح شئ وإتمامه ، قدره يربئه فهو رب له .

(٤) قيل إن كلمة رب مشتقة من التربية وهى تبليغ الشئ إلى كماله بحسب استعداده شيئاً فشيئاً ، فالله سبحانه وتعالى مدبر

لخلقه ومربيهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وربائبكم اللاتى فى حجوركم ﴾ فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

(٥) الهمل : المهمل المتروك ليلاً ونهاراً بلا رعاية وبلا عناية .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ٥ - الفاتحة (١)

استعان فلانٌ فلانًا واستعان به : طلب منه العونَ أى المساعدة .

« إياك » : إيا ضمير منفصل للمنصوب ، واللواحق التى تلحق به وهى الكاف والهاء والياء فى : إياك وإياه وإياى لبيان الخطاب والغيبة والتكلم ، ولا محل لها من الإعراب .

﴿ وإياك نستعين ﴾ : قدم المفعول به للاهتمام مع إفادة القصر والإختصاص ، والمعنى : ومنك وحدك يا الله أطلب العون . وشأن العرب تقديم الأهم ؛ وأيضا قدم المفعول به لثلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك ، وإنما يتبع لفظ القرآن (١) .

﴿ إياك نعبد ﴾ : العبادة فى اللغة من الذلّة ، يقال : طريق مُعَبَّدٌ ويعبر معبد أى مُدكّل . والعبادة فى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف ، وتشمل عمل القلوب وعمل الجوارح وتشمل فعلُ الأمور به وترك المنهى عنه . فلا يتحقق معنى العبادة إلا بذلك كله . والمعنى : نخصك وحدك يا ربنا بالعبادة .

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ : قدمت العبادة على طلب العون (الاستعانة) لأنها وسيلة الإجابة . وتقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة . ﴿ إياك نعبد ﴾ تبرؤ من الشرك . ﴿ وإياك نستعين ﴾ تبرؤ من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله عز وجل . وهذا المعنى موجود فى غير آية من القرآن . قال تعالى : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ وقال : ﴿ قل هو الرحمن أمنا به وعليه توكلنا ﴾ ، وقال : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ .

تحوّل الكلام عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب «إياك» ، وهذا يسمى الالتفات فى علم البيان ، وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم . وذلك على عاداتهم فى الافتنان فى الكلام والتصرف فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب ، كان ذلك تنشيطا للسامع وإيقاظا لقدرته على الاصغاء بدلا من إجرائه على أسلوب واحد .

(١) انظر « تفسير القرطبي » .

يضاف إلى ذلك أنه لما ذكر الحقيق بالحمد في قوله ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وأجرى عليه تلك الصفات العظام : ﴿ الرحمن الرحيم . ملك يوم الدين ﴾ ، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن جدير بالثناء والعبادة والاستعانة في المهمات والملمات ، فخطوب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات . فيقول المصلى : إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة ، لانعبد غيرك ولا نستعينه .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل إذا قال العبد ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله : حمدنى عبدي ، وإذا قال ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله : أثنى على عبدي ، فإذا قال ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال الله : مَجَدَّنِي عبدي ، وإذا قال ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدى ما سأل ، فإذا قال ﴿ اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل . »

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ٣ -

البقرة (٢)

إِقَامَةُ الصَّلَاةِ : أداؤها بأركانها وسننها وهيأتها في أوقاتها . وقيل : يقيمون : يديون ، وأقامه : أدامه (١) .

والصلاة أصلها في اللغة : الدعاء (٢) .

وقد قيل : إن الصلاة اسم عَلمٌ وُضِعَ لهذه العبادة، فهي لا اشتقاق لها، وهذا قول الجمهور .
والصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض . ومن شروطها : الطهارة وستر العورة .

وقد علمنا النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة في الرجل الذي علمه النبي الصلاة لما أخل بها ، فقال له : « إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، ثم كبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم ارفع ذلك في صلاتك كلها » . والجلوس الأخير فرض ، والتشهد فرض ، والسلام في نهاية الصلاة فرض . وأصل فرضها (أى الصلاة) مُجْمَلٌ يفتقر إلى البيان ، وقد بينه لنا النبي ﷺ ، عندما قال : « صلوا كما رأيتموني أصلى » .
وتكبير الإحرام فرض وركن من أركان الصلاة ، وهو الصواب وعليه الجمهور ، لما جاء في الحديث الصحيح عن عائشة وعن علي قال قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم » خرجه أبو داود والترمذي ورواه سفيان الثوري . قال القرطبي : وهذا الحديث أصل في إيجاب التكبير والتسليم ، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها باتفاق .

قال القرطبي : هذه جملة من أحكام الصلاة ، وفيما يلي من سورة البقرة يأتي ذكر الركوع ، وصلاة الجماعة ، والقبلة ، والمبادرة إلى الأوقات ، وبعض صلاة الخوف . ويأتي ذكر قصر الصلاة ، وصلاة الخوف في سورة النساء . والأوقات في سور هود وسبحان والروم . وصلاة الليل في سورة المزمل . وسجود التلاوة في سورة الأعراف . وسجود الشكر في سورة ص .
والقلب الذي يسجد لله حقا ، ويتصل به على مدار الليل والنهار خمس مرات كل يوم ، يشعر أنه موصول السبب بموجد الوجود ، ويجد لحياته غاية أعلى مما في الأرض وحاجات الدنيا القصيرة الأمد ويحس أنه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق - وهذا كله مصدر قوة للضمير ، كما أنه مصدر تخرج وتقوى .

(١) ويقال : قام الشيء أى دام وثبت ، وقام الحق أى ظهر وثبت .

(٢) لما ولدت أسماء أبنتها عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبي ﷺ ؛ قالت أسماء : ثم مسح صلى عليه ، ، أى دعاله . وقال تعالى : « وصل عليهم » أى ادع لهم .



﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴾ ٧ - البقرة (٢)

خَتَمَ يَخْتُمُ خَتْمًا وَخَتَامًا عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَغَيْرِهِمَا : غَطَّى فُوْهَةً وَعَائَةً بَطِينًا أَوْ شَمْعًا أَوْ غَيْرَهُمَا حَتَّى لَا يَدْخُلُهُ شَيْءٌ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ . فَالْخَتْمُ مَعْنَاهُ التَّغْطِيَةُ عَلَى الشَّيْءِ ، وَالِاسْتِيْثَاقُ مِنْهُ حَتَّى لَا يَدْخُلُهُ شَيْءٌ ، وَمِنْهُ خَتَمَ الْكِتَابَ وَالْبَابَ وَمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ حَتَّى لَا يُوَصَّلَ إِلَى مَا فِيهِ ، وَلَا يُوَضَعُ فِيهِ غَيْرَ مَا فِيهِ . فَالْخَتْمُ يَكُونُ مَحْسُوسًا .

وَقَدْ يَكُونُ الْخَتْمُ مَعْنَى ، يُقَالُ : خَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ أَيْ جَعَلَهُ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا كَأَنَّهُ غَطَّاهُ . فَالْخَتْمُ عَلَى الْقُلُوبِ : عَدَمُ الْوَعْيِ عَنِ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - مَفْهُومٌ مُخَاطَبَاتُهُ ^(١) وَالْفَكْرُ فِي آيَاتِهِ . وَالْخَتْمُ عَلَى السَّمْعِ : عَدَمُ فَهْمِهِمْ لِلْقُرْآنِ إِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ أَوْ دُعُوا إِلَى وَحْدَانِيَّتِهِ - « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » فَلَا يَعْقِلُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ .

فَالْإِنْسَانُ إِذَا تَمَادَى فِي اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ أَوْ ارْتِكَابِ الْمَحْظُورِ ، دُونَ تَلَفُّتِهِ إِلَى الْحَقِّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوْرثُهُ تَمَرُّنًا عَلَى اسْتِحْسَانِ الْمَعَاصِي ، وَكَأَنَّمَا يُخْتَمُ بِذَلِكَ عَلَى قَلْبِهِ - وَإِنَّمَا خَصَّ الْقَلْبَ بِالْخَتْمِ لِأَنَّهُ مَحَلُّ الْفَهْمِ وَالْعِلْمِ . وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ قَلْبْتُ الشَّيْءَ أَقْلَبْتُهُ قَلْبًا ، وَقَلْبْتُ الْإِنَاءَ : رَدَدْتُهُ عَلَى وَجْهِهِ ؛ ثُمَّ نُقِلَ هَذَا اللَّفْظُ فَسُمِّيَ بِهِ هَذَا الْعَضْوُ الَّذِي هُوَ سَيِّدُ الْجَوَارِحِ لِسُرْعَةِ الْخَوَاطِرِ إِلَيْهِ ، وَلِتَرَدُّهَا عَلَيْهِ ؛ كَمَا قِيلَ :

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقْلِبِهِ ، فَاحْذَرِ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلٍ . رَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مِثْلُ الْقَلْبِ رِيْشَةُ تَقْلِبُهَا الرِّيَّاحُ بِفَلَاةٍ » وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ « اللَّهُمَّ يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » .

وَالْجَوَارِحُ ، وَإِنْ كَانَتْ تَابِعَةً لِلْقَلْبِ ، فَقَدْ يَتَأَثَّرُ الْقَلْبُ بِأَعْمَالِهَا لِلرَّابِتَابِ بَيْنِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ؛ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ فَتَنَكْتُ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةً بِيضَاءً وَإِنْ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ الْكُذْبَةَ فَيَسْوَدُ قَلْبُهُ . » وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنْ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةٌ إِذَا صَلَّحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » .

وَالْقَلْبُ قَدْ يَعْبُرُ عَنْهُ بِالْفُؤَادِ وَالصَّدْرِ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ ^(٢) ،

(١) أى عدم فهم كلام الله .

(٢) ٣٢ - الفرقان .

وقال: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (١) يعنى فى الموضوعين قلبك . وقد يعبر به عن العقل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (٢) أى عقل .

والوقف التام على قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » فالختم على القلوب والسمع . و « غشاوة » رفع على الابتداء ، وما قبله « وعلى أبصارهم » خبره ، فالغشاوة على الأبصار .

وفى هذه الآية دليل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ؛ وإنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم فى الباطل ، فالذنوب إذا تابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا الكفر عنها مخلص .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ ٢٤ - الشورى ، وقوله : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ ٢٣ - الجاثية .

« سمعهم » : السمع مصدر سمعت ، والسمع أيضا اسم للجراحة والمسموع بها سميت بالمصدر ، فالختم على قلوبهم وأذنههم .

والتعبير موجود أيضا فى ٢٣ - الجاثية .

(١) - الشرح .

(٢) - ٣٧ - ق .

﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾



﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴾ ٧ - البقرة (٢)

الغشَاوة والغشَاء : الغطاء .

غَشَى الشَّيْءَ : جعل عليه غشاء يُعْطِيهِ . يقال : غَشَى الله على بصره .

وجمع غشَاوة : غَشَاوَى ، قاله الفراء .

« وعلى أبصارهم غشَاوة » أى عدم هداية الأبصار للنظر فى مخلوقات الله ، وعجائب

مصنوعاته . فالغشَاوة هنا غشَاوة التعامى عن آيات الله ودلائل توحيده (١) .

« غشَاوة » : مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمّة : « على أبصارهم » : خبر مقدم . والواو فى

قوله : « وعلى » عاطفة جملة على جملة . والوقف على هذا : وعلى سمعهم ، فالختم على

القلوب والسمع ، والغشَاوة على الأبصار .

وقال بعض المفسرين : الغشَاوة على السمع والأبصار والوقف : على قلوبهم .

وقرئ : غشَاوة بالنصب على معنى : وجعل ، أى جعل على أبصارهم غشَاوة . وقراءة

الرفع أحسن .

(١) قال الحارث بن خالد المخزومى .

صَحِبْتِكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا أَنْجَلْتَ قَطَعْتَ نَفْسِي أَلْوَمَهَا

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا ﴾

يَكْذِبُونَ ﴿ ١٠ - البقرة (٢)

« في قلوبهم مَرَضٌ » : مبتدأ مؤخر وخبر مقدم . والمرض كلمة مستعارة للفساد الذي في عقائدهم ، وذلك إما أن يكون شكاً ونفاقاً . وإما جحداً وتكديباً . والمعنى : فلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق ، والرعاية والتأييد (١) .
قال أرباب المعاني : في قلوبهم مرض أى بسكونهم إلى الدنيا وحبهم لها ، وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها .

وقال حسنين مخلوف : سُمي النفاق الذي في قلوبهم مرضاً لكونه مانعاً من إدراك الفضائل ؛ كالمرض المانع للبدن من التصرف الكامل . أو لكونه مانعاً من تحصيل السعادة الأخروية أو لميل النفس به إلى الاعتقادات الفاسدة ميل المريض إلى الأشياء المضرة .

قال الجُنَيْدُ : علَّل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن علَّل الجوارح من مرض البدن .
« فزادهمُ اللهُ مرضاً » أى وكلهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين ولهم عذاب أليم بما يفتنى عما يبقى . وقيل : هو دعاء عليهم ويكون معنى الكلام : زادهم الله شكاً ونفاقاً جزاء على كفرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المرض الشك الذي دخلهم في الإسلام ، وقرأ « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم (٢) » أى شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم .
التعبير موجود أيضاً في مواضع عديدة .

(١) قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حدِّ الصحة ، من علة أو نفاق أو تقصير في

أمر
(٢) من الآيتين ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة التوبة .

﴿ فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾



﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴾ ١٦ - البقرة (٢)

أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب في قولهم : ربحَ ببيعك ، وخسرت صفقتك ؛ وقولهم : ليلٌ قائم ، ونهارٌ صائم ؛ والمعنى : ربحت وخسرت في بيعك ، وقمت في ليلك وصمت في نهارك . وعلى هذا فإن التعبير « فما ربحت تجارتهم » معناه : فما ربحوا في تجارتهم .

« فما ربحت تجارتهم » : التعبير مجازى ويعنى ضلال سعيهم وخسرانهم .

كما أن الشراء في قوله « اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ » مستعار . والمعنى استحَبوا الكفرَ على الإيمان (١) ، فعبر عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتره .

(١) كما قال : « فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ » ١٧ فصلت .

﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾



﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٢٧- البقرة (٢)

نَقَضَ الشَّيْءَ يَنْقُضُهُ نَقْضًا : أَمَدَهُ بَعْدَ إِحْكَامِهِ . وَنَقَضَ الْبِنَاءَ : هَدَمَهُ وَنَقَضَ الْحَبْلَ أَوْ الْعَزْلَ : حَلَّ طَاقَاتِهِ . وَنَقَضَ الْعَهْدَ : نَبَذَهُ وَتَخَلَّى عَنْهُ .

الميثاق : العهد المؤكذ باليمين ، مفعال من الوثيقة وهى الشدة فى العقد والربط ونحوه .

وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقون بنقضه . فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه وعلى لسان رسله ؛ ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون : نزلت الآية فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم . وعهد الله الذى نقضوه هو : العمل بما فى التوراة ، واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم . ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد أن أعطوا الميثاق لبيئته للناس ولا يكتموننه . فأخبر تعالى أنهم نبذوا العهد وراء ظهورهم - وهذا اختيار ابن جرير ومقاتل .

الصفات التى وردت فى هذه الآية وردت أيضا فى سورة الرعد : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ « الآية ٢٥ » .

﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾



﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٢٧- البقرة (٢)

الْقَطْعَ معروف ، والمصدر في الرِّحِمِ : القطيعة . يقال : قَطَعَ رَحِمَهُ فهو رجل قُطِعَ مثل هُمزة .

« ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، قيل المراد به صلة الأرحام والقربان كما فسره قتادة ، كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ٢٢ - محمد ، تقطيع الأرحام كناية عن ترك المودة والتواصل وفساد العلاقات .

وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل ؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا .

وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه ، فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم .

وقيل : المراد أعم من ذلك . فالإشارة إلى دين الله وعبادته في الأرض ، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده ، فهي عامة في كل ما أمر الله تعالى بوصله ، والرحم جزء منه - هذا قول الجمهور .



﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا

تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ٣٥ - البقرة (٢)

« رَغَدًا : منصوب على الصفة لمصدر محذوف ، أى : كُلاَ مِنْهَا أَكْلاَ رَغَدًا أى أَكْلاَ طَيِّبًا .
رَغَدَ العيش يرغُد رَغَدًا : اتَّسع ونَعَمَ وطاب ، فهو رَغَدٌ ورغَدٌ .
قرأ الجمهور « رَغَدًا » بفتح الغين ، وقرأ النخعيّ وابن وثاب بسكونها . والرغَد من العيش : الكثير الواسع الذى لا يتعب فيه . ويقال : عيشة رَغَدٌ أى واسعة طيبة .
والتعبير موجود أيضا فى الآية ٥٨ من نفس السورة (البقرة) :
« وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رَغَدًا وادخلوا البابَ سُجَّدًا وقولوا حطةً نغفر لكم خطاياكم وستزيد المحسنين » .



﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

﴿ وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا

بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ ﴾ ٤١ - البقرة (٢)

يقول : لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى ، بالدنيا وشهواتها فإنها قليلة فانية . فالدنيا ومدتها وعيشها نزرٌ^(١) لا خطر له ؛ فسمى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا لأنهم جعلوه عوضًا فانطلق عليه اسمُ الثمن وإن لم يكن ثمنا .
وحدث عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى :
« وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا » إن آياته كتابه الذى أنزله إليهم ، وإن الثمن القليل الدنيا وشهواتها .

وقيل معناه : لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع فى الناس ، بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الزائلة عن قريب .

(١) يقال : شئء نزرٌ : قليل تافه .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ٤٤ - البقرة (٢)

البرّ هنا الطاعة والعمل الصالح . وأصل كل بر : الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان أحرار اليهود وعلمائهم يأمرون الناس بالطاعة والكف عن المعصية ولا يفعلون ذلك . قال ابن كثير : كان أهل الكتاب والمنافقون يأمرون الناس بالصوم والصلاة ، ويدعون (أى يتركون) العمل بما يأمرون به الناس ، فعيرهم الله بذلك ، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة .

« أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم » استفهام معناه التوبيخ ، فالله - تعالى - ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم فى حق أنفسهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه . وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم ، فإن الأمر بالمعروف واجب على العالم ؛ ولكن الأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم . فكل من الأمر بالمعروف ، وفعله ، واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر .

وفى شدة عذاب من هذه صفته مارواه أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليلة أسرى بى مررت على ناس تُقرضُ شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت يا جبريلُ من هؤلاء قال هؤلاء الخطباءُ من أهل الدنيا^(١) يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » .

وروى ابن عساكر وابن جرير الطبرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أناسا من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم فيقولون إنا كنا نقول ولا نفعل » . وروى الإمام أحمد عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله يعافى يوم القيامة ما لا يعافى العلماء » . وقد ورد فى بعض الآثار : « إنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة - ليس من يعلم كمن لا يعلم » . وقال تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

والتوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر وليس بسبب الأمر بالبر . قال أبو الأسود الدؤلى :

لأنه عن خلق وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم
وأبدأ بنفسك فانها عن غيرها	فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى	بالقول منك وينفع التعليم

(١) كذا فى مسند الإمام أحمد بن حنبل .

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان الخيري الزاهد فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير فسكت حتى طال سكوتُه ، فناداه رجل قائلاً : تُرى أن تقول في سكوتك شيئاً ؟ فأشأ يقول :

وغيرُ تقىَّ يأمر الناس بالتقى
طبيبٌ يداوى والطبيبُ مريضُ

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

لكن علينا أن نتذكر ما قاله سعيد بن جبير : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ، ما أمر أحدٌ بمعروف ولا نهى عن منكر . قال مالك : وصدق ، من ذا الذي ليس فيه شيء ؟

« أفلا تعقلون » أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواجهة هذه الحال المردية لكم؟ والعقلُ : المنع؛ ومنه عقال البعير لأنه يمنع عن الحركة ؛ ومنه العقل للديَّة لأنه يمنع وكى المقتول عن قتل الجانى؛ ومنه يقال للحصن : معقل .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴿ ٢ ، ٣ - سورة الصف .

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾



﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ٤٩ - البقرة (٢)

سامه الأمر سوماً : كلفه إياه وألزمه به .

وسامه خسفاً أو ذلاً : جشمه إياه وأراده عليه (١) .

« يسومونكم سوء العذاب » أى يجشمونكم (يكلفونكم) ، إياه . جاء فى « تفسير القرطبي » : يسومونكم معنا يذيقونكم ويلزمونكم إياه (أى سوء العذاب) وقيل : يديمون تعذيبكم ؛ والسوم : الدوام ، ومنه سائمة الغنم لمدوامتها الرعى . قال الأخفش : وجملة « يسومونكم سوء العذاب » فى موضع رفع على الابتداء ، وإن شئت كانت فى وضع نصب على الحال أى سائمين لكم .

وجاء فى « صفوة البيان لمعانى القرآن » للشيخ حسنين مخلوف :

« يسومونكم سوء العذاب » أى ييغون لكم أشد العذاب وأفظعه ، من السوم ، وهو مطلق الذهاب ، أو الذهاب فى ابتغاء الشيء . يقال : سامت الإبل فهى سائمة ، أى ذهبت إلى المرعى . وسام السلعة : إذا طلبها وابتغها .

والسوء : كل ما يعُثم الإنسان من أمر دنيوى أو أخروى .

وهو فى الأصل مصدر ، ويؤنث بالألف فيقال : السوءى .

« سوء العذاب » مفعول ثان ليسومونكم ، ومعناه أشد العذاب .

(١) قال عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أينسا أن نقر الخسف فينا

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ ﴾ ٦١ - البقرة (٢)

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ » أى أَلْزِمُوهُمَا وَقُضِيَ عَلَيْهِمَ بِهِمَا ، مأخوذ من ضرب القباب . فالذلة والمسكنة جعلتا محيطتين بهم إحاطة القبة بمن ضُرِبَتْ عليه . مجازاة لهم على كفرانهم .

وأصله : ضرب الخيمة والقبة ونحوهما : نصبها . ويقال : ضرب الليلُ بظلامه : أقبل وخيم ؛ وضرب عليه الحصار : حاطه به وضيق عليه . والذلة : الذل والصغار . والمسكنة : الفقر .

قال ابن كثير : لا يزالون (أى اليهود) مُسْتَدَلِّين ، مَنْ وَجَدَهُمْ اسْتَدَلَّهُمْ وَأَهَانَهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارَ ؛ وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء مستكينون . قال القرطبي : فلا يوجد يهودى وإن كان غنيا خاليا من زى الفقر وخضوعه ومهانتته .

قال الحسن وقتادة : الذلة فرض الجزية . وقال الزجاج : المسكنة : الخضوع ؛ وهى مأخوذة من السكون أى قَلَل الفقر حركته .

قال حسنين مخلوف : وجملتهم (أى اليهود) فى غالب الأمر فى ذلّة ومسكنة . أوهم مستحقون للذلة والهوان ؛ بسبب ارتكاب المعاصى والاعتداء على حدود الله فى كل شىء ، والإفساد فى الأرض وجحود الحق عنادا ، وقتل الأنبياء ظلما ، وبما طبعوا عليه من الكذب والنفاق والمكر السىء والخداع ، وعبادة المال وشدة الحرص على جمعه والشح به .

وأما إحاطة المسكنة بهم فلما يبدو عليهم من الاستكانة والخضوع عند الضعف ، والخوف من القهر .

والتعبير موجود فى ١١٢ / آل عمران .



﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ ﴾ ٦١ - البقرة (٢)

بَاءَ بِالشَّىءِ يَبُوءُ بُوْءًا وَبَوَاءً : رجع . وباء به : احتمله .

قال ابن جرير الطبري : يعنى بقوله « وباءوا بغضب من الله » انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال : بَاءَ إِلَّا مَوْصُولًا إِمَامًا بِخَيْرٍ وَإِمَا بَشَرٍ . . ومنه قوله تعالى : « إني أريد أن تبوءَ بإثمي وإثمك » (١) يعنى تنصرف متحملهما وترجع بهما ، قد صارا عليك دونى . فمعنى الكلام : إذا رجعوا (أى اليهود) منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سُخْطٌ .



﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا
فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ٦٣ - البقرة (٢)

« بقوة » أى بجهد واجتهاد . قاله ابن عباس وقتادة والسدى . وقيل : بنية وإخلاص .

وقيل : بقوة أى بكثرة درس .

وقال مجاهد : القوةُ العملُ بما فيه .

« خذوا ما آتيناكم بقوة » أى فقلنا خذوا ما أعطيناكم يعنى التوراة بجهد واجتهاد والعمل بما جاء به .

قال القرطبي : هذا هو المقصود من الكتب (المنزلة من عند الله تعالى) العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وحسب ، فإن ذلك بُذِّلَ لها على ما قاله الشعبي وابن عيينة . وقد روى النسائي عن أبى سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إن من شر الناس رجلا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شىء منه » . فبين ﷺ أن المقصود هو العمل . . . قال تعالى : « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » . فأمرنا باتباع كتابه والعمل بمقتضاه .

والتعبير موجود فى ٩٣ - البقرة ، ١٧١ - الأعراف .

(١) الآية ٢٩ من سورة المائدة .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هَزُورًا ﴾

قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿ ٦٧ - البقرة (٢)

هَزُورًا بِالشَّيْءِ وَمِنْهُ يَهْزَأُ هَزْءًا وَهَزُورًا : سَخِرَ بِهِ أَوْ مِنْهُ .

وَالهَزُورُ : اللَّعِبُ وَالسَّخِرِيَّةُ . وَخَفَّفَ حَفْصَ هَمْزَةِ « هَزُورًا » وَجَعَلَهَا وَاوًا مَفْتُوحَةً .

روى ابن أبي حاتم قال : كان رجل من بنى إسرائيل عقيماً لا يُؤكِّد له ، وكان له مال كثير . وكان ابن أخيه وارثه فقتله ، ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم يصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض . فقال ذوو الرأي منهم والنُّهَى (العقل) : عَلَامٌ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ فِيكُمْ ؛ فَأَتَوْا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ وَسَأَلُوهُ الْبَيَانَ ، فَسَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ فَأَمَرَهُمْ بِذَبْحِ بَقْرَةٍ ؛ فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ مُوسَى وَلَيْسَ فِي ظَاهِرِهِ جَوَابٌ عَمَّا سَأَلُوهُ عَنْهُ ، قَالُوا : اتَّخَذْنَا هَزُورًا^(١) ؟ فَأَجَابَهُمْ : « أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » لِأَنَّ الْخُرُوجَ عَنْ جَوَابِ السَّائِلِ إِلَى الْهَزْوِ جَهْلٌ ، فَاسْتَعَاذَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْجَهْلِ لِأَنَّهُ صِفَةٌ تَنْتَفِي عَنِ الْأَنْبِيَاءِ .

(١) قرأ الجحدري : أيتخذنا بالياء أى قال ذلك بعضهم لبعض .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٧٤ - البقرة (٢)

هَبَّطَ يَهْبِطُ هُبُوطًا : نزل وانحدر .

يقول القرطبي : إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم ، لخروج الماء منها وترديها (سقوطها) .

قال مجاهد : ما تَرَدَّى حجرٌ من رأس جبل ، ولا تفجر نهرٌ من حجر ، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله ؛ نزل بذلك القرآن .

وحكى الطبرى أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار فى قوله «يريد أن ينقض (١)» . وكما قال زيد الخيل :

لما أتى خبيرُ الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخُشَع

ونقل ابن كثير عن ابن أبى حاتم فى تفسير « وإن منها لما يهبط من خشية الله » قال : بكاء القلب من غير دموع العين . وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز ، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار فى قوله : « يريد أن ينقض » . قال الرازى والقرطبي وغيرهما من الأئمة : ولا حاجة إلى هذا فإن الله يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ ٧٢ - الأحزاب ؛ وقال : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » ؛ وقال : ﴿ وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ ﴾ ٦ - الرحمن ؛ وقال : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ ٢١ - الحشر ؛ وقال : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله » .

وثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « إن حجرا كان يُسلم علىّ فى الجاهلية إنى لأعرفه الآن » . وما روى عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب ، فلما تحول عنه حنّ أى صوت وصاح شوقاً (٢) . كما روى أن النبى ﷺ قال : « قال لى ثبير اهبط فإنى أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله » فناداه حراء : إلى يارسول الله .

(١) « فوجدنا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه » ٧٧ - الكهف وينقض يهدم ويسقط بسرعة .

(٢) حنّ يحنّ حينئذ : صوت . يقال : حنّت الناقة : مدّت صوتها شوقا إلى ولدها . وحنّت الرياح : صوتت صوتا يشبه حنين الإبل .

﴿ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾

﴿ أَقْتَضَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ٧٥ - البقرة (٢)

حَرْفَ الْكَلَامِ : غَيْرَهُ وَصَرَفَهُ عَنْ مَعَانِيهِ .

« ثم يحرفونه » قال مجاهد والسدى : هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة فيجعلون الحرام حلالا والحلال حراما اتباعا لأهوائهم .

ومثل ذلك قوله تعالى « يحرفون الكلم عن مواضعه » .

« من بعد ما عقلوه » أى عرفوه وعلموه - وهذا توبيخ لهم ، أى أن هؤلاء اليهود قد سلفت لأبائهم أفاعيل سوء وعناد ، وهؤلاء على سننهم وطريقتهم فكيف تطمعون فى إيمانهم !

﴿ كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾

﴿ بَلَىٰ مِنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَةُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴾ ٨١ - البقرة (٢)

كَسَبَ الْإِثْمَ : تَحَمَّلَهُ .

يقول تعالى : ليس الأمر كما تمنيتم ، ولا كما تشتبهون . بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيبته ، وهو مَنْ وَاقَى (أتى) يوم القيامة ، وليست له حسنة ، بل جميع أعماله سيئات ، فهذا من أهل النار .

وقال ابن عباس : « بلَى من كَسَبَ سَيِّئَةً » أى عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره ، فما له من حسنة . وفى رواية عن ابن عباس أن السيئة هنا : الشرك ، ورؤى نحو ذلك عن وائل وأبى العالية ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس .

﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ ﴾

﴿ بَلَىٰ مِنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴾ ٨١ - البقرة (٢)

أَحَاطَتْ الْخَطِيبَةُ بِفُلَانٍ : لَزِمَتْهُ فَلَمْ يَجْتَنِبْهَا .

« أَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ » . قال أبو هريرة وعطاء والحسن : أحاط به شركه .

وقال الأعمش والسدى وأبو رزين : هو الذى يموت على خطاياها من قبل أن يتوب .

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾



﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ٨٣ - البقرة (٢)

الحُسْنُ : حالة حسيَّة أو معنوية جميلة تدعو إلى قبول الشيء ورغبة النفس فيه . ويكون في الأقوال والأفعال والذوات والمعاني .

حَسَنُ الشيء يُحَسِّنُ حُسْنًا : صار حَسَنًا جميلاً .

« حُسْنًا » : نُصِبَ على المصدر . وضع المصدر موضع الاسم للمبالغة في تأكيد الوصف مثل قولهم : رجلٌ عدلٌ ، وفي ذلك تأكيد على إحسان القول إلى الناس .
وقيل : حُسْنًا أى قولاً هو حَسَنٌ فى نفسه لإفراط حسنه .

« وقولوا للناس حُسْنًا » : « كالموهم كلاماً طيباً ، ولينوا لهم جانباً ، ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على أن يكون هذا النهى بالمعروف أيضاً . وفى هذا حض على مكارم الأخلاق . فينبغى للإنسان أن يكون قوله لنا ووجهه منبسطة طلقامع البر والفاجر والسنى والمبتدع ، من غير مدهانة ، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضى مذهبه^(١) .
روى الإمام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تحقرن من المعروف شيئاً وإن لم تجد فائق أخاك بوجه متطلق » وأخرجه مسلم والترمذى .
قرأ حمزة والكسائى حَسَنًا بفتح الحاء والسين ؛ قال الأخفش : هما بمعنى واحد ، مثل البُخْل والبَخْل والرُّشْد والرَّشْد^(٢) .

وقال الحسن البصرى : الحُسْنُ هو كل خلق حَسَنَ رضىه الله .

قال ابن كثير : ناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حُسْنًا بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل ، فجمع بين طرفى الإحسان : الفعلى والقولى . ثم أكد الأمر بعبادته « لا تعبدون إلا الله » والإحسان إلى الناس « وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين » بالمتعنين من ذلك وهو الصلاة والزكاة « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

(١) أمر الله موسى وهارون « فقولا له قولاً لنا » ، فالقاتل ليس بأفضل من موسى وهارون ، والفاجر ليس بأخبت من فرعون - والله أمرهما باللين معه .

(٢) حكى الأخفش : حسنى بغير تنوين على فُعلَى . قال النحاس : وهذا لا يجوز فى العربية ، لا يقال من هذا شيء إلا بالألف واللام نحو الفضلى والكبرى والحسنى .

﴿ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾



﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ

تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ٨٥ - البقرة (٢)

« تَظَاهَرُونَ » : أصله تتظاهرون ، حذف الكوفيون التاء الثانية لدلالة الأولى عليها .

ومعنى تظاهرون : تتعاونون ، مشتق من الظَّهْر لأن بعضهم يقوى بعضا فيكون له كالظَّهْر والسَّنَد . ومن ذلك قوله تعالى : « إن تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبكما وإن تظَاهَرَا عليه فإن الله هو مولاة وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » ٤ - التحريم .

والإثم : الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم . والعدوان الإفراط فى الظلم والتجاوز

فيه . فأنتم تتعاونون ضدَّهم بالإثم والظلم .

كان الأوسُ والخزرجُ - وهم الأنصار - فى الجاهلية عبَادَ أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة . وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير ، وكانوا حلفاء الخزرج ، أما القبيلة الثالثة وهى بنو قريظة فكانت حليفة الأوس . وكانت الحرب إذا نشبت قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه ، فيقتل اليهودى أعداءه ، وقد قتل أخاه اليهودى من الفريق الآخر وقتل اليهودى لليهودى حرام عليهم فى دينهم ونص كتابهم - بل ويُخرج اليهودُ اليهودَ من بيوتهم ويتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال - وهذا محرم عليهم أيضا أن يخرج بعضهم بعضا من دياره . وقد قال تعالى : « ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ » ذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنین فى توادهم وتراحهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهَرِ والحُمى » ، ولهذا قال تعالى : « تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » . فكل واحد من الفريقين يُظَاهِرُ حلفاءه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة التى تحرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضا .

﴿ أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيَّ أَشَدَّ

الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ٨٥ - البقرة (٢)

في الحرب بين الأوس والخزرج ، كان يهود المدينة ينقسمون قسمين ، قسم يحارب في صفوف الأوس وقسم يحارب في صفوف الخزرج . وعلى هذا كان اليهودى يقتل اليهودى ويخرجه من بيته - وهذا محرم عليهم في التوراة .

وكانت الحرب إذا وضعت أوزارها ، افتدى اليهود أسراهم (أنقذوهم أو استفكوهم من الأسر بالمال وبغيره) تصديقا لما في التوراة وأخذابه - ولهذا قال تعالى : « أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ » وهو افتداء أسراكم « وتكفرون ببعض » وهو قتل بعضكم بعضا وإخراج بعضكم بعضا من ديارهم » .

(انظر : تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان)

﴿ وَقَالُوا قُلُوبِنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ - ٨٨ -

البقرة (٢)

غُلْفٌ يَغْلَفُ غُلْفًا : كان في غطاء خُلْقَى . يقال : غُلْفَ الصَّبِيُّ : لم يُخْتَن .
ويقال : غُلْفَ قَلْبِهِ : لم يَعْ الرُّشْدَ ، كأن على قلبه غلافًا ، فهو أَغْلَفٌ ، وهي غلفاء
والجَمْعُ : غُلْفٌ .

قال الزمخشري : قلب أغلف مستعار من الأغلف الذي لم يُخْتَن . كقولهم : قلوبنا في
أكنة مما تدعوننا إليه . ثم رد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك لأنها خُلقت على الفطرة
وَأَلْتَمَكَنَ من قبول الحق ، بأن الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم ، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما
أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة وتسببوا بذلك لمنع الألفاف التي تكون للمتوقع إيمانهم
وللمؤمنين .

قال على بن أبي طلحة « وقالوا قلوبنا غُلْفٌ » أى لا تفقه وقال العوفي : هي القلوب
المطبوع عليها . وقال مجاهد : عليها غشاوة . وقال السدي : عليها غلاف وهو الغطاء ، فلا
تعى ولا تفقه .

وقرأ ابن عباس : غُلْفٌ بضم اللام وهو جمع غلاف أى أوعية بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم
مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى عنم آخر كما كانوا يفتنون بعلم التوراة ، ولهذا قال تعالى :
« بل لعنهم الله بكفرهم فقليلًا مَّا يُؤْمِنُونَ » أى ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع
عليها . ومعنى « قليلًا مَّا يُؤْمِنُونَ » لا يؤمنون إلا بقليل مما فى أيديهم ويكفرون بأكثره ؛ وقيل
معناه لا يؤمنون قليلًا ولا كثيرًا .

﴿ وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمَعُوا
قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا
يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ٩٣ - البقرة (٢)

أَشْرَبُ فِي قَلْبِهِ حُبَّ كَذَا : أى خالط حُبَّهُ قَلْبَهُ ، كأنه شربه .
أَشْرَبَ فُلَانًا : سَفَاهُ . وَأَشْرَبَ اللَّوْنَ غَيْرَهُ : خلطه به يقال : أشرب البياضَ حمرةً ،
ويقال : أشرب قلبه حُبَّ الإيْمَانِ .

« وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ » أى حُبَّ الْعِجْلِ . والمعنى جُعِلَتْ قُلُوبُهُمْ تَشْرِبُهُ ؛ وهذا
تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم ؛ وفي الحديث : « تعرض الفتن على
القلوب كعروض الحصير عودا عودا فأما قلبٌ أَشْرَبَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكْتَةُ سُودَاءِ » خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ .
وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « حبك الشيء يعمى وَيَصُمُّ ^(١) ؛
وقال زهير :

فصحوت عنها بعد حب داخل والحب يشربه فؤادك داء

وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى
يصل إلى باطنها ، والطعام مجاور لها غير متغلغل فيها . وزاد على هذا المعنى أحدهم فقال
في زوجته التي طلقها وكان يحبها (وكان اسمها عثمة) :

تغلغل حب عثمة في فؤادي فبأديه مع الخافى يسير

تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور

أكاد إذا ذكرت العهد منها أطيرو لو أن إنسانا يطير

وقال قتادة : أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم ، وكذا قال أبو العالية والربيع بن
أنس .

وقال الزمخشري : تداخلهم حُبُّه والحرص على عبادته كما يتداخل الثوب الصبغُ .
وقوله : « في قلوبهم » بيان لمكان الإشراب .

« بكفرهم » : بسبب كفرهم .

(١) أصمُّ فلانا : أفقده حاسة السمع .

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

١٠٨ - البقرة (٢)

سَوَاءٌ^(١) تدل على معنى التوسط والتعادل

والسواء من كل شيء : وَسَطُهُ^(٢) . وقيل السَّوَاءُ الْقَصْدُ ، والقصدُ الاستقامة والتوسط من غير إفراط ولا تفريط . والسبيل : الطريق . « ضَلَّ » هنا هو المتعدى^(٣) ، « ضلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » : خَفِيَ عَلَيْهِ وَسَطُ الطَّرِيقِ ، أى حاد عن الصراط السوى وبعد عن الطريق المستقيم . وقال القرطبي : ذهب عن قصد الطريق وسمته أى طريق طاعة الله . وفي « تفسير الجلالين » : أخطأ الطريق الحق .

والتعبير موجود فى ١٢ - المائدة ، ١ - الممتحنة .

(١) مادة س وى فى المعجم .

(٢) ومنه قوله تعالى : « فرأه فى سواء الجحيم » ٥٥ - الصافات .

(٣) اللازم فى مثل ضلَّ الشئُ : خَفِيَ وَغَاب .

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ١١٢ - البقرة (٢)

أَسْلَمَ الشَّيْءُ إِلَيْهِ : دَفَعَهُ . وَأَسْلَمَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ : فَوَّضَهُ (١)

« أسلم وجهه لله » : خص الوجه بالذكر لأنه أشرف ما يرى من الإنسان ؛ ولأنه موضع الحواس ؛ وفيه يظهر العز والذل . والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء .

ويصح أن يكون معنى الوجه هنا : المقصد .

وقيل : « أسلم وجهه » : أخلص عمله لله وحده لا شريك له ، كما في قوله تعالى : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » . وقال سعيد بن جبير : بلى من أخلص دينه « وهو محسن » أى اتبع فيه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون خالصا لله وحده ، والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة . فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا ، لم يُتَقَبَلْ ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » أى مردود على فاعله . فعمل الرهبان ومن شابههم ، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله ، فإنه لا يتقبل منهم ، قال تعالى : « وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » .

وكذلك العمل الذى يكون موافقا للشريعة فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص صاحبه القصد لله ، فهو مردود كذلك على فاعله ؛ وهذا حال المرئيين والمنافقين « يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » .

والتعبير موجود فى ١٢٥ - النساء .

(١) الفعل ، أسلم ، يمكن أن يكون لازما بمعنى : دخل فى دين الإسلام وبمعنى : أخلص الدين لله .

﴿ وَمَنْ يَرِغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا

وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ١٣٠ - البقرة (٢)

أصل السَّفَهَ : الخفَّة والحركة ، ومنه قيل : ثوب سفيه ، أى خفيف النسيج ، وزمام سفيه أى كثير الاضطراب .

ثم صار السفه يستعمل فى الجهل وخفة الحلم ، والطيش والجهل فى الأمور الدنيوية والأمور الدينية .

سَفِهَ يَسْفَهُ سَفْهًا وسفاهة فهو سفيه وهى سفيهة : خَفَّ وطاش وَسَفِهَ نَفْسَهُ : حَمَلَهَا عَلَى السَّفْهِ . ويمكن أن يكون أصل التركيب : سفهت نفسه ، فلما حُوِّلَ الْفَعْلُ إِلَى الرَّجْلِ وَقَعَ الْفِعْلُ عَلَى مَا بَعْدَهُ فَانْتَصَبَ انْتِصَابَ الْمَفْعُولِ ، مَثَلُ رَشَدَ أَمْرَهُ وَبَطَرَ عَيْشَهُ .

قال حسنين مخلوف فى تفسير « سفه نفسه » : خَسِرَ نَفْسَهُ ، أَوْ جَهَلَهَا أَوْ امْتَهَنَهَا وَأَذَلَّهَا وَاسْتَخَفَّ بِهَا .

وقال ابن كثير : ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اتخذه الله خليلاً - إذ رَغِبَ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَى انصرف عنها .
وقال أبو عبيدة : المعنى أهلك نفسه .

وقال الأخفش : فعل بنفسه من السفه ما صار به سفيه .

وقال ابن بحر : جهل نفسه وما فيها من الدلالات والآيات الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شىء فيعلم به توحيد الله وقدرته .

قال القرطبي : « وَمَنْ يَرِغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » هو تقريع وتوبيخ وقع فيه معنى النفى ، أى وما يرغب . قال الزمخشري : إِذَا رَغِبَ عَمَّا لَا يَرِغَبُ عَنْهُ عَاقِلٌ قَطُّ فَقَدْ بَالِغٌ فِي إِذَالَةِ (إِهَانَةِ) نَفْسِهِ وَتَعْجِيزِهَا .

﴿ فِي شِقَاقٍ ﴾ ٣١

﴿ فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ١٣٧ - البقرة (٢)

شِقَاقَهُ مِشَاقَةً وَشِقَاقًا : خَالَفَهُ .

« فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ » قال زيد بن أسلم : الشِقَاقُ المِنَازَعَةُ ؛ وَقِيلَ : الشِقَاقُ المِجَادَلَةُ وَالمُخَالَفَةُ وَالتَّعَادَى .

وأصله من الشَّقِّ وهو الجانب ؛ فكأن كل واحد من الفريقين في شق غير شق صاحبه ؛ قال الشاعر

وإلَّا فاعلموا أَنَا وَأَنْتُمْ بُعَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقٍ

وقيل إن الشِقَاقَ مأخوذ من فعل ما يَشُقُّ وَيَصْعَبُ ؛ فكأن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يَشُقُّ على صاحبه .

وقيل « فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ » أى فى مِناوأة ومَعَانِدَة ومُخَالَفَة لله ، وليسوا من طلب الحق فى

شئء إن تولوا عن الشهادة والدخول فى الإيمان بها .

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ ٣٢

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

١٣٧ - البقرة (٢)

كفاهُ الشئءُ يَكْفِيهِ كفايَةً : اسْتغْنَى بِهِ عَن غَيْرِهِ . وكفى فلاناً الأمرَ : قام فيه مقامه .

وكفى الله فلاناً فلاناً ، أو شرَّ فلان : حفظه من كيدِه .

« فسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » أى فسَيَنْصِرُكَ عَلَيْهِمَ وَيظْفِرُكَ بِهِم ، قاله ابن كثير . وقال القرطبي :

فسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ رَسولُهُ عَدُوَّهُ ، فَالْكَافُ وَهُمُ فِي مَوْضِعِ نَصَبِ مَفْعُولَانِ . وكان هذا وعداً من

الله تعالى لِنبيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَيَكْفِيهِ مِنْ عَانِدِهِ وَمَنْ خَالَفَهُ فَأَنْجِزْ لَهُ الْوَعْدَ ، وكان ذلك فى

قتل بنى قَيْنِقَاعَ وَبنى قُرَيْظَةَ وَإِجْلَاءِ بنى النُّضَيْرِ .

وقال الزمخشري : « فسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » ضَمَانٌ مِنَ اللَّهِ لِإِظْهَارِ (١) رَسولِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ .

وقد أنجز وعده بقتل قُرَيْظَةَ وَإِجْلَاءِ بنى النُّضَيْرِ . ومعنى « السَّيْنِ » أن ذلك كائن لا محالة وإن

تأخر إلى حين .

« وهو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » : وَعِيدٌ لَهُمْ ، أى يَسْمَعُ مَا يَنْطِقُونَ بِهِ ، وَيَعْلَمُ مَا يَضْمُرُونَ مِنْ

الْغُلِّ وَالْحَسَدِ وَهُوَ مَعَابِقُهُمْ عَلَيْهِ .

(١) أَظْهَرَ فَلاناً عَلَى عَدُوِّهِ : أَعَانَهُ .

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ١٣٨ - البقرة (٢)

صَبَّغَ الثوبَ ونحوه يَصْبِغُهُ صَبْغًا : لَوَّنَهُ .

والصَّبْغَةُ : ما يُصَبَّغُ به . والصَّبْغَةُ : الهيئة المكتسبة بالصبغ . وصبغة الله : الفطرة التي خلق عليها الناس ، والدين الذي شرعه لهم وهو الإسلام ، لأن الفطرة ابتداءُ الخلق ، وابتداءُ ما خلقوا عليه الإسلام .

قال ابن عباس : سمى الله الدين صبغة استعارة ومجازا حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين ، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب (١) .

وقال القرطبي ، بعد أن أورد المعنى السابق ، إن هناك معنى آخر لصبغة الله هو غُسل الله ، أى اغتسلوا عند إسلامكم الغُسل الذى أوجبه الله عليكم . وبهذا المعنى جاءت السنة الثابتة فى قيس بن عاصم وثمامة ابن أثال حين أسلما (٢) .

ونصب « صبغة » إما على الإغراء كقوله « فطرة الله » أى الزموا ذلك وعليكم به ، وإما على تقدير اتبعوا .

وقيل « صبغة » بدل من « ملة » فى قوله تعالى : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » الآية ١٣٥ .

وقال الزمخشري فى « الكشاف » : معنى صبغة الله أى تطهير الله ، لأن الإيمان يطهر النفوس . « ومن أحسن من الله صبغة » يعنى أنه يصبغ عباده بالإيمان ، ويطهرهم به من أوضار الكفر فلا صبغة أحسن من صبغته .

(١) قال بعض شعراء ملوك همدان :

وكل أناس لهم صبغة
فأكرم بصبغتنا فى الصبغ
وصبغة همدان خير الصبغ

(٢) روى أبو حاتم البستي فى صحيح مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن ثمامة الحنفى (هو ابن أثال) أسر فمر به النبى صلى الله عليه وسلم يوما فأسلم ؛ فبعث به إلى حائط (بستان نخل عليه جدار) أبى طلحة فأمره أن يغتسل فاغتسل وصلى ركعتين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن إسلام صاحبكم » .
وخرج أيضا عن قيس بن عاصم أنه أسلم ، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يغتسل بماء وسدر (نبق) . وذكره النسائي . وقيل : الصبغة هى القرية إلى الله تعالى ، وقيل هى الحتان .

﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

الْأَسْبَابُ ﴾ ١٦٦ - البقرة (٢)

السَّبَبُ : الحبل الذى يُرْتَقَى به الشجرُ ونحوه ، ثم سُمى به كلُّ ما يُتَوَصَّلُ به إلى غيره عينا كان أو معنى . والجمع : أسباب والمراد بالأسباب هنا : وسائل النجاة ، فلا خلاص لهم ؛ إذ عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيلُ وأسباب الخلاص ، ولم يجدوا عن النار معدلا ولا مصرفا .

وقيل : الأسباب^(١) هى الوُصُلَات التى كانوا (أى الذين اتُّبعوا والذين اتبعوا) يتواصلون بها فى الدنيا من رَحْم وغيره ؛ فهى الوشائج التى كانت بين الأتباع والمتبوعين فى الدنيا من القربات والمودات والاتفاق على الدين والاتباع . وتقطيعها : فصلها فصلا شديدا . و « الذين اتُّبعوا » هم السادة والرؤساء تبرءوا ممن تبعهم على الكفر . وقيل : هم الشياطين المظلون تبرءوا من الإنس . وقيل : هو عام فى كل متبوع .

(١) وقيل أيضا : السبب هو الناحية ، ومنه قول زهير :

ولورام أسباب السماء بِسَلَمٍ

ومن هاب أسباب المنايا ينلته

﴿ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ

اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

١٦٧ - البقرة (٢)

حَسَرَ فَلَانٌ يَحْسَرُ حَسْرًا وَحَسْرًا : أسف وندم .

وَالْحَسْرَةُ : أشدَّ الندم على شىء فائت ، والجمع : حسرات .

« يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ » معناه أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم ، فلا

يرون إلا حسرات مكان أعمالهم .

والحسرة مشتقة من الشىء الحسير الذى قد انقطع وذهبت قوته . وقيل : هى مشتقة من

حَسَرَ إِذَا كَشَفَ ؛ ومنه الحاسر فى الحرب الذى لا درع معه ؛ فالانحسار الانكشاف .

« يُرِيهِمُ اللَّهُ » قيل : هى من رؤية البصر ؛ فيكون متعديا لمفعولين : هم وأعمالهم ،

وتكون « حسرات » حال . ويحتمل أن يكون من رؤية القلب ؛ فتكون « حسرات » المفعول

الثالث .

« أعمالهم » أى الأعمال الفاسدة التى ارتكبوها فوجبت لهم بها النار .

وقال ابن كثير فى تفسير « كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم » أى تذهب

وتضمحل ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (١)

وقوله : ﴿ مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (٢) وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً ﴾ (٣) .

ومعنى الآية : يتمنى الذين اتبعوا سادتهم على الكفر أو اتبعوا الشياطين المضلين ، لو أن

لهم عودة (كرة) إلى الدار الدنيا حتى يتبرءوا من هؤلاء الذين اتبعوهم ويعبدوا الله وحده

ويعملوا صالحا ؛ لكن الله يريهم أعمالهم السيئة فى الصحائف ويتيقنون الجزاء عليها

فيتحسرون ويندمون .

(١) ٢٣ - الفرقان . (٢) ١٨ - إبراهيم . (٣) ٣٩ - النور .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨]

يقال : اتبع خطواته ، ووطئ على عقبه إذا اقتدى به واستن بسنته .

والخطوات (١) جمع خطوة وخطوة ، وأصلها ما بين قدمي الخاطي ، ثم استعيرت لما دُكر . والمعنى : ولا تقفوا أثر الشيطان وعمله وطرقه التي يُحرّم بها الحلال ويحلل الحرام ، وقرئ : خطوات بضمة وسكون .

وروى عن علي بن أبي طالب وقتادة والأعرج وعمرو بن ميمون والأعمش «خطوات» بضم الخاء والطاء والهمزة على الواو ، وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطيئة من الخطأ لا من الخطو ، أي لا تتبعوا خطاياهم ، قاله مجاهد .

وقال ابن كثير : خطوات الشيطان هي طرائقه ومسالكه .

وفي معنى الآية نورد الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم «يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلال طيباً» فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« يا سعد أظب مطعمك تكن مُستجاب الدعوة والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يُقبَل منه أربعين يوماً وأما عبد نبت لحمه من السُّحت (٢) والربا فالنار أولى به »

« حلالاً » مفعول «كلوا» ، أو حال «مما في الأرض» . و«طيباً» : طاهراً من كل شبهة . قال سهل بن عبد الله : النجاة في ثلاثة ، أكل الحلال وأداء الفرائض والافتداء بالنبي ﷺ . وقال :

ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم ، ولا يكون المال حلالاً حتى يصفو من ست خصال : الربا والحرام والسُّحت وهم اسم مجمل والغُلُول (٣) والمكروه والشبهة .

وقال أبو عبد الله الساجي واسمه سعيد بن زيد : خمس خصال بها تمام العلم ؛ وهي معرفة الله عز وجل ، ومعرفة الحق ، وإخلاص العمل لله ، والعمل على السنة ، وأكل الحلال . فإن فقدت واحدة لم يُرفع العملُ .

وسمى الحلال حلالاً لأن الحلال عقدة الخطر عنه ، قاله القرطبي .

(١) قال الجوهري : جمع القلة خطوات ، وجمع الكثرة : خطأ .

(٢) السُّحت : ما خُبث وقُبِح من المكاسب ، فلزم عنه العار ، كالرشوة وغيرها .

(٣) غَلَّ فلانٌ يغُلُّ غُلُولاً : خان في المغنم وغيرها .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ ﴾

بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقلُونَ ﴿ ١٧١ - البقرة (٢)

نَعَقَ فِي الْفِتْنَةِ يَنْعِقُ نَعَقًا : رَفَعَ فِيهَا صَوْتَهُ فَهُوَ نَاعِقٌ . وَنَعَقَ الرَّاعِيَ بَغْنَمَهُ يَنْعِقُ وَيَنْعَقُ نَعَقًا وَنَعِيقًا : صَاحَ بِهَا وَزَجَرَهَا . الْمَعْنَى : مِثْلُ الْكَافِرِينَ فِي دَعَائِهِمْ أَلْهَتَهُمْ كَمِثْلِ الرَّاعِيَ الَّذِي يَصِيحُ بَغْنَمَهُ الَّتِي لَا تَسْمَعُ إِلَّا جَرَسَ النِّعْمَةِ وَدَوَى الصَّوْتِ فَهِيَ لَا تَفْقَهُ وَلَا تَعَى شَيْئًا .

وَقَالَ قَطْرَبَ : مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي دَعَائِهِمْ مَا لَا يَفْهَمُ ، يَعْنِي الْأَصْنَامَ ، كَمِثْلِ الرَّاعِيَ إِذَا صَاحَ بَغْنَمَهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ هِيَ .

وَفِي هَذَيْنِ التَّأْوِيلَيْنِ يُشَبَّهُ الْكَافِرُ بِالنَّاعِقِ وَالْأَصْنَامُ بِالْمَنْعُوقِ بِهِ .

وَيُورِدُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي « الْكِشَافِ » تَفْسِيرًا يَرْتَبِطُ بِالآيَةِ السَّابِقَةِ رَقْمَ ١٧٠ : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ » يَقُولُ : وَمِثْلُهُمْ فِي اتِّبَاعِهِمْ آبَاءَهُمْ وَتَقْلِيدِهِمْ لَهُمْ ، كَمِثْلِ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ إِلَّا ظَاهِرَ الصَّوْتِ وَلَا تَفْهَمُ مَا تَحْتَهُ . فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ يَتَّبِعُونَهُمْ عَلَى ظَاهِرِ حَالِهِمْ وَلَا يَفْقَهُونَ أَمَّهُمْ عَلَى حَقِّ أَمِّ بَاطِلٍ ؟

وَيُورِدُ الزَّمَخْشَرِيُّ تَفْسِيرًا آخَرَ يَقيِمُهُ عَلَى أُسَاسِ أَنَّ هُنَاكَ مِضَافًا مَحذُوفًا تَقْدِيرُهُ : وَمِثْلُ دَاعِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ . أَيْ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ مِثْلُهُ كَمِثْلِ النَّاعِقِ بِالْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ النَّاعِقِ الَّذِي هُوَ تَصْوِيتٌ وَزَجْرٌ لَهَا وَلَكِنهَا لَا تَفْقَهُ وَلَا تَعَى شَيْئًا ، فَهُوَ يُشَبَّهُهُم بِالْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَعَى وَلِذَلِكَ قَالَ : « صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقلُونَ » صُمُّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ، وَبُكُمْ لَا يَتَفَهَمُونَ بِهِ ، وَعُمَىٰ عَنْ رُؤْيَا طَرِيقِهِ وَمَسْلَكَهُ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : « وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أَيْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْغَىِّ وَالضَّلَالِ وَالْجَهْلِ كَالدُّوَابِّ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يَقَالُ لَهَا ، بَلْ إِذَا نَعَقَ بِهَا رَاعِيهَا أَيْ دَعَاها إِلَى مَا يَرشُدُهَا ، لَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ وَلَا تَفْهَمُهُ ، بَلْ إِنَّمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَقَطْ . هَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٍ وَعُكْرَمَةَ وَعَطَاءَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَعَطَاءَ الْخِرَاسَانِيَّ وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنَسٍ .

وَالْعَرَبُ تَضْرِبُ الْمِثْلَ بِرَاعِيِ الْغَنَمِ فِي الْجَهْلِ وَيَقُولُونَ :

« أَجْهَلُ مِنْ رَاعِي ضَأْنٍ » . قَالَ الْأَخْطَلُ يَهْجُو جَرِيرًا :

فَأَنْعَقَ يَضَأَانِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا مَتَّكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا

وَلَمْ يَكُنْ جَرِيرٌ رَاعِي ضَأْنٍ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْأَخْطَلُ أَنَّ يَصِفُهُ بِالْجَهْلِ وَيَقُولُ لَهُ : صَوْتُ لَغْنَمِكَ يَا جَرِيرُ ، وَاكْتَفَى بِذَلِكَ عَنِ الْمَفَاخِرِ فَلَسْتَ أَهْلًا لَهَا ، إِنَّمَا أَنْتَ رَاعِي غَنَمٍ مَتَّكَ نَفْسَكَ أَيْ سَوَّكْتَ لَكَ فِي الْفَضَاءِ بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ ضَلَالًا وَكُذْبًا .

﴿ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ١٧٨ - البقرة (٢)

﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأَوْلَادِ النَّاصِحِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ١٨٠ - البقرة (٢)

ووردت كلمة « بالمعروف » فى مواضع أخرى عديدة من القرآن الكريم .

والمعروف اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله والتَّقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكلُّ ما ندب (حَبَّبَ) إليه الشرعُ من الْمَحْسَنَاتِ ونهى عنه من المَقْبَحَاتِ .

والمعروف من الصفات الغالبة ، أى أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه .

والمعروف : النَّصْفَةُ (١) وحُسنُ الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس ، والمنكر : ضدُّ ذلك جميعه .

وفى الحديث : « أهلُ المعروف فى الدنيا هم أهلُ المعروف فى الآخرة » أى من بذلَ معروفه للناس فى الدنيا آتاه الله جزاءَ معروفه فى الآخرة . وقال ابن عباس فى معناه : يأتى أصحابُ المعروف فى الدنيا يوم القيامة فيُغْفَرُ لهم بمعرفهم ، وتبقى حسناتهم جامئة (٢) ، فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته ، فيُغْفَرُ له ويدخل الجنة ؛ فيجتمع لهم (أى لأهل المعروف) الإحسانُ إلى الناس فى الدنيا والآخرة .

ونمعن النظر الآن فى المواضع التى وردت فيها هذه الكلمة ، كلمة المعروف ، لنقف على بلاغتها من دراسة السياق فى كل موضع .

ففى الآية الأولى : « فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ » أى فالقاتل عمدا إذا عَفَىٰ له عن جنائته من جهة أخيه وكلى الدَّمُ بأن صفح عنه من القصاص الواجب عليه ، ورضى منه بالدية بدل الدم ، فعلى صاحب الدم اتباعُ بالمعروف فى المطالبة بالدية ، فلا يأخذ منه أكثر من حقه ولا يرهقه ، وعلى القاتل أن يؤدى إليه الدية أداء حسنا من غير مماطلة وتأخير عن الوقت .

(١) النَّصْفَةُ : الإنصاف والعدل .

(٢) كثيرة .

« ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » ففي شرع العفو تسهيل على القاتل ، وفي شرع الدية نفع لأولياء المقتول . وأهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك ، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قود^(١) ولا دية . فخير الله هذه الأمة بين القصاص والعفو وأخذ الدية ؛ توسعة عليهم .

الموضع الثانى قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذْ حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ » . « بالمعروف » يعنى بالعدل ، لاوكس فيه ولا شطط^(٢) ، وكان هذا موكولا إلى اجتهاد الميت ونظر الموصى ، ثم تولى الله سبحانه تقدير ذلك على لسان نبيه عليه السلام فقال : « الثلث والثلث كثير^(٣) » . قال ابن كثير : والمراد بالمعروف أن يوصى لأقربيه وصية لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير . وقال الحسن : لا تجوز وصية إلا فى الثلث ، وإليه ذهب البخارى واحتج بقوله تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » ، وحكمُ النبى صلى الله عليه وسلم بأن الثلث كثير هو الحكمُ بما أنزل الله ؛ فمن تجاوز ما حده الرسول صلى الله عليه وسلم وزاد على الثلث فقد أتى ما نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه .

(١) القود : القصاص .

(٢) الوكس : النقص ، والشطط : مجاوزة الحد .

(٣) ثبت فى الصحيحين أن سعدا قال : يا رسول الله إن لى مالا ولا يرثنى إلا ابنة لى أفأوصى بثلثى مالى ؟ قال : « لا » ، قال : فبالشطر (النصف) ؟ قال : « لا » قال : فالثلث ؟ قال : « الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

١٧٩ - البقرة (٢)

وردت كلمة « القصاص » أربع مرات في القرآن الكريم : في الآيات ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٤ من سورة البقرة ، وفي الآية ٤٥ من سورة المائدة .

قَاصٌ الْجَانِي يُقَاصُّهُ مُقَاصَّةٌ وَقِصَاصًا : عاقبة بمثل جريمته .

والقصاص : معاقبة الجاني بمثل ما جنى : النفس بالنفس والعين بالعين .

وهذا التعبير من الكلام البليغ الوجيز ، ففيه تعليل لإيجاب القصاص ، وتوضيح لمحاسنه على وجه بديع ، حيث جعل الشيء سببا في ضده . فقد ذكر في إيجاز معجز أن الهدف من القصاص هو حياة المجتمع في أمن وسلام .

فإذا انحرف بعض الأفراد ، اقتضت مصلحة المجتمع استئصال المنحرف محافظة على سلامة غيره ، فالقصاص من الجناة إذا أقيم وتحقق ازدجر من يريد قتل أو إيذاء آخر مخافة أن يقتص منه وامتنع عن ارتكاب جريمته . ويتسبب ذلك الامتناع في حياة نفسه وحياة من يريد قتله . كما أن في القصاص شفاءً لصدرو أهل القتل ، شفائها من الحقد والرغبة في الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية ، والذي نراه اليوم في بعض المناطق ، وتزهق بسببه أرواح كثيرة . وفي إقامة القصاص وقف لهذه المذابح فيسود الأمن والسلام بين الناس ، وتتوفر لهم الحياة .

ففي القصاص ، إذن ، حياة على معناها الأشمل والأعم ، لأن الاعتداء على حياة فرد اعتداءً على الحياة كلها واعتداء على كل إنسان حي . وإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها : ﴿ مِنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ ٣٢ - المائدة . فللناس في القصاص ، بكل هذه النتائج المترتبة عليه ، حياة .

قال ابن كثير : في شرع القصاص حكمة عظيمة هي بقاء المهج وصونها . وقال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يُقتل . وروى مثل ذلك عن مجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان .

والتعبير القرآني يعني أن في إقامة شرع القصاص إقامة نظام سليم لحياة الناس بالمعنى الشامل المطلق لكلمة « حياة » كما جاءت في النص - بمعنى أن إقامة شرع القصاص يترتب عليه انضباط حياتهم وانتظامها على الوجه الأمثل .

وقد عنى علماء البلاغة والتفسير بالموازنة بين التعبير : « ولكم فى القصاص حياة » وبين الحكمة العربية : « القتل أنفى للقتل » . إذ يمتاز التعبير القرآنى بوضوح الهدف وهو الحياة للأمة ، وأن القتل فيه للقصاص . وهو وضوح تفتقده الحكمة العربية . كما أن كلمة « القصاص » معناها أشمل من القتل ، إذ يشمل إصابة الأعضاء وليس فى الحكمة العربية تعرض لذلك (١) .

قال القرطبى : اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقّه دون السلطان ، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ، وإنما ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك .

« لعلكم تتقون » أى تتجنبون القتل فتسلمون من القصاص وتتركون محارم الله . فالتقوى ، أى حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله وتخرجه من غضبه وتطلعه إلى رضاه ، إنما تنشأ فى القلب بأداء العبادات التى فرضها الله وبالالتزام بتوجيهات الله وتنفيذ شرع الله فى جميع أمور الحياة . وبعد ذلك تكون التقوى هى الحارس اليقظ الذى يكف النفوس عن المعاصى ، والرباط الذى يعقل النفوس عن الاعتداء - فبدون الخوف من قوة أكبر من قوة الإنسان لا تفلح القوانين ولا تجدى التنظيمات .

(١) أورد السيوطى فى كتابه : « الإتقان » عشرين وجها لتفضيل التعبير القرآنى على الحكمة العربية .



﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ
عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ ١٨٧ -

البقرة (٢)

لبس الثوب ونحوه يلبسه لبسا : استتر به .
واللباس : ما يلبس ويستر الجسم ونحوه .

ويستعمل اللباس مجازا فيما يشبه الثوب ، ويشمل هذا المرء يستتر قبائح غيره أو معاييه .
وأطلق لباس على كل من الزوجين في هذه الآية ؛ لأن كلا منهما يستتر غيوب الآخر .

وقيل : لأن كلا منهما يخالط الآخر ويلامسه كما يلامس الثوب لابسَه . قال الزمخشري :
لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه ، شُبّه باللباس
المشتمل عليه . قال النابغة الجعدي :

إذا ما الضَّجِيعُ نَتَّى عَطْفَهَا تَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا (١)

قال القرطبي : أصل اللباس في الثياب ، ثم سمي امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه
لباسا ، لانضمام الجسد إلى الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيها بالثوب .

وقال بعضهم : يقال لما ستر الشيء وداراه : لباس . فجازئ أن يكون كل واحد منهما سترا
لصاحبه عما لا يحل . قال حسنين مخلوف في « صفوة البيان » : هن سكن لكم أو ستر لكم
عن الحرام . وقال أبو عبيد وغيره : يقال للمرأة هي لباسك وفراشك وإزارك . وأوضح
التفسير الوسيط « هذا المعنى المجازي فقال :

جملة « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » في قوة التعليل للإباحة ، وهي مجاز
عن أن كليهما يمنع الآخر عما لا يحل ، فكما يمنع اللباس الحرَّ والبردَ ، وكذلك كل من
الزوجين يمنع الآخر ويستره عن الفاحشة ، بما أحله الله له من مباشرة زوجته .

« هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ » مبتدأ وخبر . وهو استثناء كالبيان لسبب الإحلال ، وهو أنه إذا كانت
بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قلَّ صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنابهن ، فلذلك
رخص لكم في مباشرتهن .

(١) « ما » زائدة . والضجيع : المضاجع . والعطف ، بالكسر ، الجانب .
تننت : بالفت في مطلوبه من التعانق فكانت مشتملة عليه كاللباس .

﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧]

بَاشَرَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ : وَلَيْتَ بَشَرْتُهُ بَشَرْتَهَا ، وَيَكْنَى بِهِ عَنِ الْإِتِّصَالِ الْجِنْسِيِّ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : هُوَ كُنْيَاةٌ عَنِ الْجَمَاعِ . . . وَسُمِّيَ الْوَقَاعُ مَبَاشِرَةً لِتَلَاصُقِ الْبَشْرَتَيْنِ فِيهِ .

والمباشرة من الكنایات البديعة التي كنى (١) بها القرآن عن الجماع . ومنها قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا تَفَشَّاهَا ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ أَوْلَامِسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ فَأَتُوا حُرَّتْكُمْ ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ تَمْسُوهُنَّ ﴾ (٧) وقوله : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ (٨) ، وقوله : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ ﴾ (٩) . وسيأتي بيان كل منها في موضعه إن شاء الله تعالى .

(١) كَتَى عَنْ كَذَا يَكْنَى كُنْيَاةً : تَكَلَّمَ بِمَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَيْهِ وَلَمْ يُصْرِحْ .
 (٢) ٢١ - النساء . (٣) ١٨٩ - الأعراف .
 (٤) ٤٣ - النساء . (٥) ٢٣ - النساء .
 (٦) ٢٢٣ - البقرة . (٧) ٢٣٦ - البقرة .
 (٨) ٢٤ - النساء . (٩) ٢٢٢ - البقرة .

﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾



﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا

مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ١٨٨ - البقرة (٢)

أدلى بمال إلى الحاكم : دفعه إليه .

والمعنى : لا تدفعوا أموالكم إلى الحكام على سبيل الرشوة . أى لا تصانعوا بأموالكم الحكام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها . تدلوا من إرسال الدلو تشبيهاً بالذى يرسل الدلو في البئر . يقال : أدلى دلوهُ أرسلها ، ودلاها : أخرجها . والرشوة^(١) من الرشاء وهو الخبل ، كأنه يمد بها ليقضى الحاجة . قال ابن عطية : وهذا القول يترجح لأن الحكام مظنة الرشاء إلا من عصم .

وهناك معنى آخر لهذا التعبير هو : لا تلقوا شئون أموالكم والمخاصمة فيها عند الحكام إذا كان لديكم من ظاهر البيئة ما يقضى لكم ، وأنتم تعلمون أن الأمر غير هذا . قال القرطبي : من أخذ مال غيره على غير إذن الشرع فقد أكله بالباطل ، ومن الأكل بالباطل : أن يقضى القاضى لك وأنت تعلم أنك مبطل ؛ فالحرام لا يصير حلالاً بحكم القاضى لأنه إنما يقضى بالظاهر . روى الأئمة عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : «إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن^(٢) بحجته من بعض فأقضى له على نحو مما أسمع فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار » . وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء ، وهو نص فى أن حكم الحاكم على الظاهر لا يغير حكم الباطن . وقال الزجاج فى هذا المعنى أيضاً : تعملون ما يوجب ظاهر الأحكام وتتركون ما علمتم أنه الحق . ورؤى عن ابن عباس قال : هذا (أى القول الذى جاء فى الآية) فى الرجل يكون عليه مال ، وليس عليه فيه بيئة (دليل) ، فيجحد (ينكر) المال ، ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم أكل الحرام . ورؤى عن مجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى ومقاتل وعكرمة أنهم قالوا : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وهكذا يربط النص القرآنى الأمر فى التقاضى وفى المال بتقوى الله والخوف منه ، كما ربطه فى الآيات السابقة فى القصاص وفى الوصية وفى الصيام .

ومعنى الآية : لا تجمعوا بين أكل المال بالباطل وبين الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة

(١) رَشَاءُ الْفَرْخِ يُرْشُو : مَدَّ رَأْسَهُ إِلَى أُمَّةٍ لَتَرْفُقَهُ .

(٢) أكثر فطانه وانتباها إلى بيان حجته وتبريرها .

لتأكلوا فريقاً (أى جزءاً أو بعضاً) من أموال الناس بالباطل ^(١) . اتفق أهل السنة على أن من أخذ ما وقع عليه اسم مال ، قل هذا المال أو أكثر ، فإنه يفسقُ بذلك وأنه محرم عليه أخذه . ففي الحديث الصحيح : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » .

وأضيفت الأموال إلى ضمير المنهى فى قوله : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » لأن كل واحد منهما منهى ومنهى عنه . ويدخل فى أكل البعض مال البعض بغير الحق : القمار والخداع والغصب ^(٢) ووجد الحقوق ، ومالا تطيب به نفس مالكة ، أو حرمة الشريعة وإن طابت به نفس مالكة كمهر البغى وحلوان الكاهن وأثمان الخمر والخنازير .

وأضاف بعض العلماء الحال إلى ضمير المالكين على أساس أن معنى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » أى : فى الملاهى والقيان والشرب والبطالة .

(١) وهو كقوله : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » ٤٢ - البقرة .

(٢) غَصَبَ الشَّيْءَ يَغْصِبُهُ غَصْبًا : أَخَذَهُ قَهْرًا وَظُلْمًا .

﴿ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا
الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ١٨٩ - البقرة (٢)

كان الأنصار إذا حجوا وعادوا لا يدخلون بيوتهم من أبوابها وإنما يدخلونها من ظهورها ، وكانوا يرون هذا من النسك^(١) والبر . فبين لهم الرب أن هذا ليس من البر وإنما البر في امتثال أوامره تعالى واتباع المحارم والشهوات^(٢) فاتصل هذا بذكر مواقيت الحج لانفاق وقوع القضيتين في وقت السؤال عن الأهله وعن دخول البيوت من ظهورها ، فنزلت الآية فيهما جميعا .

وقد قيل إن الآية خرجت مخرج التنبيه من الله تعالى على أن يأتوا البر من وجهه ، وهو الوجه الذى أمر الله تعالى به ؛ فذكر إتيان البيوت من أبوابها مثلا ليشير به إلى أن تؤتى الأمور من مآتها الذى ندبنا الله تعالى إليه . قال أبو عبيدة : الآية ضَرْبٌ مَثَلٌ ، فهذا كما تقول : أتيت هذا الأمر من بابه . وقال الزمخشري : « وأتوا البيوت من أبوابها » أى وباشروا الأمور من وجوها التى يجب أن تُباشَر عليها ولا تعكسوا . فليس البر وما ينبغى أن تكونوا عليه بأن تعكسوا فى مسائلكم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره .

(١) النَّسْكَ وَالنُّسْكَ : كل حق لله تعالى .

(٢) أورد ابن كثير عدة روايات تدور حول هذا المعنى . منها ما رواه البخارى عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله الآية . وكذا رواه أبو داود الطيالسى عن البراء قال : كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه ، فنزلت الآية . وقال عطاء بن أبى رباح : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون أن ذلك أدنى إلى البر ، فقال الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » .

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْنَاكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ

مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ١٩١ - البقرة (٢)

فَتَنَ فَلَإِنَّا يَفْتِنُهُ فَتْنًا وَفِتْنًا : عَدَّبَهُ لِيُجْوَلَهُ عَنْ رَأْيِهِ أَوْ دِينِهِ . وَقَتْنٌ فَلَإِنَّا عَنِ الشَّيْءِ : صَرَفَهُ عَنْهُ (١) قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاحْذَرِيهِمْ أَن يُفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ٤٩ - المائدة . قَالَ حَسَنِينَ مَخْلُوفٌ فِي تَفْسِيرِ « وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ » إِنْ فَتَنَتْهُمْ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّخْوِيفِ وَالإِيذَاءِ وَالإِجْءَاءِ إِلَى مَفَارِقَةِ الأَهْلِ وَالوَطَنِ أَصْعَبُ مِنَ الْقَتْلِ - لِذَلِكَ أَمَرَهُمْ ، سَبْحَانَهُ ، فِي صَدْرِ الآيَةِ بِقَتْلِ الكُفَّارِ حَيْثُ وَجَدُوا وَحَيْثُ تَمَّ الظَّفَرُ بِهِمْ ، فِي حَلِّ أَوْ حَرَمِ ، وَبِالمَبَالِغَةِ فِي تَخْوِيفِهِمْ وَالتَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُضْطَرُّوا إِلَى الخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ . فَلَا تَسْتَعْظَمُوا قَتْلَهُمْ لِأَنَّ فَتْنَتَهُمْ إِيَّاكُمْ بِصَدِّكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَشَدُّ قَبْحًا مِنْ قَتْلِكُمْ إِيَّاهُمْ فِي الحَرَمِ .

وَالْفِتْنَةُ تَحْوِيلُ الإِنْسَانِ عَنِ دِينِهِ ، وَهُوَ أَشَدُّ مِنْ قَتْلِ النَفْسِ وَإِزْهَاقِ الرُّوحِ ، لِأَنَّ العَقِيدَةَ هِيَ أَقْدَسُ مَا فِي الحَيَاةِ . وَمِنَ الفِتْنَةِ كَذَلِكَ إِقَامَةُ أَوْضَاعٍ فَاسِدَةٍ تَزِينُ لِلنَّاسِ البَعْدَ عَنِ مَنَهِجِ اللّهِ .

وَجَاءَ فِي « لِسَانِ العَرَبِ » فَتَنَ الرَّجُلَ أَي أزاله عما كان عليه ، وَمِنهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ ٧٣ - الإسراء ، أَي يميلونك ويزيلونك . وَالْفِتْنَةُ : المُمِيلةُ عَنِ الحَقِّ . . .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ » مَعْنَى الفِتْنَةُ ههنا الكُفْرُ ، كَذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ . قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : الفِتْنَةُ الكُفْرُ .

وَقَالَ الجَمْهُورُ : مَعْنَى الفِتْنَةُ ههنا فَتَنَتْهُمْ المُسْلِمِينَ عَنِ دِينِهِمْ حَتَّى يَهْلِكُوا .

(١) قَالَ الأَزْهَرِيُّ وَغَيْرُهُ : جَمَاعٌ مَعْنَى الفِتْنَةُ الإِبْتِلَاءُ وَالاِمْتِحَانُ وَالاِخْتِبَارُ ، وَأَصْلُهَا مَاخُودٌ مِنْ قَوْلِكَ فَتَنْتَ الفِضَّةَ وَالمِذْبَ ، إِذَا أَذْبَتَهُمَا بِالنَّارِ لِتَمَيِّزِ الرَّدِيِّ مِنَ الجَيِّدِ . وَقَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ : الفِتْنَةُ الإِخْتِبَارُ ، وَالفِتْنَةُ المِحْنَةُ ، وَالفِتْنَةُ المَالُ ، وَالفِتْنَةُ الأَوْلَادُ ، وَالفِتْنَةُ الكُفْرُ ، وَالفِتْنَةُ اِخْتِلَافُ النَّاسِ بِالأَرَاءِ ، وَالفِتْنَةُ الإِحْرَاقُ بِالنَّارِ ، وَالفِتْنَةُ الظُّلْمُ . وَقَتْنُ الشَّيْءِ فَلَإِنَّا : أَعْجَبَ بِهِ وَأَسْتَهْوَاهُ : يُقَالُ : قَتَنَ المَالُ ، وَقَتَنَتِ المَرَأَةُ : وَكَلَّهَتْ .

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٩٥ - البقرة (٢)

التَهْلُكَةُ : الهلاك والموت . مصدر هَلَكَ يَهْلِكُ هَلَكًا وَهَلَاكًا وَتَهْلُكَةٌ .

والأيدى : كناية عن النفس ^(١) ؛ أى ولا تلقوا أنفسكم فيما فيه هلاككم بترك الجهاد والإمساك عن الإنفاق فيه لتجهيز المقاتلين . فالآية تحذر المسلمين من التقصير فى الإعداد للقاء العدو ، حتى لا يصيبهم بغتة مكروه منه يهلكون فيه .

روى يزيد بن حبيب عن أسلم أبى عمران قال : غزونا القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مه مه ^(٢) لا إله إلا الله ، ، يلقى بيديه إلى التهلكة ! فقال أبو أيوب الأنصارى (وكان معهم) : سبحان الله ^(٣) ! أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر دينه . قلنا : هلّم نقيم فى أموالنا ؛ فأنزل الله عز وجل : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها ونُدع الجهاد . فأخبرنا أبو أيوب أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد فى سبيل الله ^(٤) وأن الآية نزلت فى ذلك . ورؤى مثله عن حذيفة والحسن وقتادة ومجاهد .

وسبيل الله هنا : الجهاد واللفظ يتناول جميع سبل الجهاد .

فالنهى عن ترك الغزو والذى هو تقوية للعدو .

وقيل : التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب .

والباء فى « بأيديكم » زائدة ، والتقدير تلقوا أيديكم . وقيل تقديره : ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم ، كما يقال : أهلك نفسه بيده ، إذا تسبب فى هلاكها .

(١) عبّر بالبعض عن الكل . (٢) مه : زجر ونهى .

(٣) وفى رواية : يا أيها الناس إنكم لتأولون هذه الآية على غير التأويل ، وفى رواية ثالثة : نحن أعلم بهذه الآية .

(٤) لم يزل أبو أيوب مجاهدًا فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية .

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ١٩٦ - البقرة (٢)

أتمّ الشيء : أكمله .

« وأتموا الحج والعمرة لله » : ائتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله ، من غير توان ولا نقصان يقع منك فيهما .

وقيل : أن تكون النفقة حلالا . وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما ولهذا قال بعده : « فإن أحصرتم » أى صُدِّدتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما .

وقيل : أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من التجارة والأغراض الدنيوية . قال القرطبي : ثم سامح في التجارة بعد ذلك في الآية ١٩٨ : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » ومعناها : لا إثم عليكم في أن تبتغوا فضل الله ، وابتغاء الفضل ورد في القرآن بمعنى التجارة ، قال تعالى : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ١٠ - الجمعة . ففي الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة (١) .

وقال سفيان الثوري : تمامهما أن تخرج قاصدا لهما لا لتجارة ولا لغير ذلك . ويُقَوَّى هذا قوله : « لله » . قال القرطبي : وفائدة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتناضل والتنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق ، وكل ذلك ليس لله فيه طاعة ، ولا حظ بقصد ، ولا قرينة بمعتقد ؛ فأمر الله سبحانه بالقصد إليه لأداء فرضه وحقه .

والنية في الحج والعمرة واجبة فرضا ، لقوله تعالى : « وأتموا » ومن تمام العبادة حضور النية . قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » .

قرأ الشعبي وابن مسعود وأبو حنيفة : « وأتموا الحج والعمرة لله » برفع التاء في « العمرة » ، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب . روى الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال : سألت رجلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة والزكاة والحج : أواجب هو ؟ قال : « نعم » فسأله عن العمرة : أواجبة هي ؟ قال : « لا وأن تعتمر خير لك » . فهذه حجة من لم يوجبها . وقالوا : وأما الآية فلا حجة فيها للوجوب لأن الله سبحانه إنما قرنها في وجوب الإتمام لا في الابتداء ، فإنه ابتداء الصلاة والزكاة فقال : « وأقيموا الصلاة »

(١) والدليل على صحة هذا ما رواه البخاري عن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومجنته وذو المجاز أسواقا في الجاهلية فئاتموا أن يتجروا في المواسم فنزلت : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في موسم الحج .

وأتوا الزكاة » . وابتدأ بإيجاب الحج فقال : « ولله على الناس حج البيت » ولما ذكر العمرة أمر بإتمامها لا بابتدائها .

وقرأ الجماعة « العمرة » بنصب التاء ، وهي تدل على الوجوب إذ أمر تعالى بإتمامها كما أمر بإتمام الحج . ومن قال بوجوبها على بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس ، ومن التابعين عطاء وطاووس ومجاهد والحسن والشافعي وأحمد . فمذهب من أوجب العمرة هو تفسير « وأتموا الحج والعمرة » بأنها تعنى أداءهما والإتيان بهما ، كقوله تعالى : « ثم أتموا الصيام إلى الليل » أى اتتوا بالصيام .

وروى عن عمر أنه قال فى معنى قوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » : من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر^(١) وأن تعتمر فى غير أشهر الحج ، فإن الله تعالى يقول : « الحج أشهر معلومات » .

(١) أى من غير تمتع وقران .

﴿ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ١٩٦ - البقرة (٢) .

حاضرو المسجد الحرام : هم أهل الحرم ، والحرم : حرم مكة . وحدوده المنار^(١) (أى العلامات) القديمة التي ضربها إبراهيم الخليل ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، على أقطار الحرم ونواحيه ؛ وبها تُعرف حدود الحرم من حدود الحل . فما كان داخل المنار فهو حَرَمٌ لا يحل صيده ولا يُقطع شجره ، وما كان وراء المنار فهو من الحل . وكانت قريش تعرف المنار ، لأنهم كانوا سكان الحرم ويعلمون أن مادون المنار إلى مكة من الحرم ، وما وراء المنار ليس من الحرم .

واختلف في حاضري المسجد الحرام . بعد الإجماع على أن أهل مكة وما اتصل بها من حاضرية . فقال مالك وأصحابه : هم أهل مكة وما اتصل بها خاصة . وقال أحمد والشافعي : هم أهل مكة ومن كان بينه وبين مكة مسافة لا تُقصر فيها الصلاة^(٢) . وقال أبو حنيفة : هم أهل مكة وأهل الحل^(٣) الذين منازلهم داخل المواقيت^(٤) .

وتشير « ذلك » في قوله : « ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام » إلى التمتع ؛ فالآية تقول إن حاضري المسجد الحرام ، أى أهل الحرم ، لامتعة لهم . ومعنى التمتع بالعمرة إلى الحج هو أن يتحلل الرجل من الإحرام بعد أداء العمرة ويتمتع بكل ما لا يجوز للمحرم فعله من الطيب وإتيان الزوجة ونحوه ، ويظل متمتعا بكل هذا إلى أن يحين موعد الإحرام بالحج . وعلى التمتع أن يذبح هدياً^(٥) ، وهو معنى « فما استيسر من الهدى » أى فليذبح ما قدر عليه من الهدى ، وأقله شاة يذبحها ويعطيها للمساكين ؛ فإن لم يجد صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده .

(١) المنار جمع منارة ، وهى العلامة تُجعل بين الحدين . وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، « لعن الله من غير منار الأرض » أى أعلامها ، وربما أراد منار الحرم ، وربما أراد تخوم الأرضين ، وهو أن يقتطع جزءاً من أرض جاره أو يحول الحد من مكانه .

(٢) قَصَرَ الصلاة بقصرها قصرًا : صلى الرباعية (ذات الأربع ركعات) ركعتين بحسب ترخيص الشرع . وإنما يكون القصر فى السفر الطويل الذى تلحق به المشقة ، ومسافته فى قول الشافعى ٤٦ ميلا .

(٣) الحل : ما جاوز الحرم .

(٤) مواقيت الحج : الأماكن التى تبدأ منها مناسكه .

(٥) الهدى : ما يهدى إلى الحرم من النعم (النعم : الإبل والبقر والغنم) .

ولا خلاف بين العلماء في أن التمتع جائز ، وأن الأفراد^(١) جائز ، وأن القران^(٢) جائز .
في صحيح مسلم عن عائشة قالت : خرجنا مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال :
« من أراد أن يَهْلَ^(٣) بحج وعمره فليفعل ، ومن أراد أن يَهْلَ بحج فليهل ، ومن أراد أن يهل
بعمره فليهل » . قالت عائشة : فأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحج ، وأهل به ناس
معه ، وأهل ناس بالعمرة والحج ، وأهل ناس بعمره ، وكنت فيمن أهل بالعمرة . ولأن
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أهل بالحج فإن البعض قال بالأفراد وفضله - ومنهم عمر
وعثمان وكانا ينهيان عن التمتع لِيُتَّجَعَ البيتُ مرتين أو أكثر في العام حتى تكثر عمارته بكثرة
الزوار له ، ولإدخال الرفق على أهل الحرم بدخول الناس . وقال آخرون : إنما نهى عمر عن
التمتع لأنه رأى الناس مالوا إليه ليسارته وخفته ، فخشى أن يضيع الأفراد والقران ، وهما
سنتان للنبي صلى الله عليه وسلم .

وقال مالك : الأفراد أفضل من القران ، والقران أفضل من التمتع . وقال أبو جعفر
النحاس : المفرد أكثر تعباً من المتمتع لإقامته على الإحرام وذلك أعظم لثوابه .

(١) الأفراد : أن يُحرم بالحج .

(٢) القران : الجمع بين الحج والعمرة في الإحرام .

(٣) تقول : أهلٌ بِحَجَّةٍ أو بِعُمْرَةٍ بمعنى أحرم بها . وإنما قيل للإحرام إهلال لرفع المحرم صوتَه بالتلبية . والإهلال :
التلبية ، وأصل الإهلال رفع الصوت : وكل رافع صوتَه فهو مُهَلٌّ .

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا

جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ ١٩٧ - البقرة (٢)

« فرض فيهن الحج » : ألزم نفسه بالشروع فيه بالنية قصدا باطنا وبالإحرام فعلا ظاهرا ، وبالتلبية نطقا مسموعا (١) .

وأصل الفرض فى اللغة : الحزّ والقطع ؛ وقيل : فرض أى أبان ، وهذا يرجع إلى القطع ، لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره .

كانت أشهر الحج معلومة عندهم ، وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة كله أو بعضه على أقوال .

الرفث : الجماع ودواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك وكذلك الإفحاش للمرأة بالكلام . والفسوق : المعاصى . والجدال : المراءى مع الرفقاء والخدم والمكارين .

« فمن فرض فيهن الحج » قال فيهن ، ولم يقل فيهما ؛ قال قوم : هما سواء فى الاستعمال . وقال المازنى أبو عثمان : الجمع الكثير لما لا يعقل يأتى كالواحدة المؤنثة ، والقليل ليس كذلك .

« فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » : قال العلماء : الخبر هنا بمعنى النهى .

(١) يرى الشافعى أن التلبية ليست من أركان الحج .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

٢٠٦ - البقرة (٢)

العِزَّةُ : القوة والغلبة . والعزة : الحِمِيَّةُ والأَنْفَةُ .

أخذته بكذا حملته عليه وألزمته إياه .

ومعنى « أخذته العزة بالإثم » : حملته الأنفة والحمية التي فيه على فعل الإثم الذي يُنهى عنه ، وألزمته ارتكابه .

فإذا وعظ هذا الفاجر ليرتد عن أقواله وأفعاله الآثمة ، وإذا قيل له اتق الله وارجع إلى الحق ، امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب إلى ارتكاب الذنوب .

قال قتادة : إذا قيل له مهلا ازداد إقداما على المعصية والمعنى حملته العزة على الإثم .

وقيل : اعتر في نفسه وانتحى^(١) فأوقعته تلك العزة في الإثم حين أخذته وحملته على ارتكابه .

وهذه صفة الكافر والمنافق المزهو بنفسه . وكفى بالمرء إثما أن يقول له أخوه اتق الله ، فيقول : عليك بنفسك ؛ مثلك يوصيني !

« فحسبه جهنم وبئس المهاد » : تكفيه جهنم عقابا وجزاء وسميت مهادا لأنها مستقر الكفار ولأنها بدل لهم من المهاد^(٢) .

(١) انتحى : مال إلى ناحية .

(٢) المهاد : الموضع المهيأ للنوم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ٢٠٨ - البقرة (٢)

السَّلَامُ هنا : الإسلام ، قاله القرطبي وابن كثير ، ومن قبلهما الزمخشري في أحد قوليهِ ،
ومن بعدهما حسنين مخلوف .

المعنى : يأمر الله عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يعملوا بجميع أحكام الإسلام
وشرائعه وأوامره ، وأن يقيموا حدوده ويتركوا جميع زواجره ؛ فكلمة « كافة » معناها جميعا
وهي حال من « السَّلَامِ » - فالمؤمنون أمروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها ، وأن لا يدخلوا في
طاعة دون طاعة ، وإنما يدخلون في شَعَبِ الإسلام وشرائعه كلها ، وألا يُخَلَّوْا بشيء منها .

وقبل « كافة » حال من ضمير المؤمنين في قوله « ادخلوا » أى ادخلوا في الإسلام كلكم
واعملوا بجميع شرائعه .

والقول الآخر للزمخشري هو : السَّلَامُ بمعنى الاستسلام والطاعة ، أى استسلموا لله
وأطيعوه ، وهذا جوهر الإسلام (١) .

وأول هذه الدعوة إلى السلم أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله ، فى ذوات أنفسهم وفى
الصغير والكبير من أمرهم - استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة لليد التى تقود خطاهم وتريد لهم
الخير والنصح والرشاد .

إنه إله واحد : يتجه إليه المسلم فلا تتفرق به السبل . وهو إله قوى قادر عزيز قاهر ، إذا
اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحققة الوحيدة فى هذا الوجود وبعدها لا يخاف أحدا ولا
يخاف شيئا . وهو إله عادل حكيم ، فقوته ضمان من الظلم . وهو رب رحيم ودود ، يجيب
المضطر إذا دعاه ويكشف سوء ، فالمسلم فى كنفه آمن أنس . وهكذا يجد المسلم فى كل صفة
من صفات ربه ما يؤنس قلبه ويطمئن روحه ، ويضمن له الحماية والعزة والاستقرار
والسلام .

كما يفيض السلام على قلب المؤمن من صحة تصور العلاقة بين العبد والرب . فالله خلق
هذا الكون بالحق ، وخلق كل شيء فيه بقدر وحكمة ، وهذا الإنسان مخلوق قصدا وغير

(١) قال الطبرى : السلم هنا لا تعنى المسألة التى هى للصلح ، فالمؤمنون لم يؤمروا بالدخول فى المسألة ، وإنما قيل للنبي
صلى الله عليه وسلم أن يجنح للسلم إذا جنحوا .

متروك سدى . هو خليفة الله فى الأرض وهىأله كل الظروف الكونية المناسبة لوجوده ، والكون من حوله صديق له حين يتجه كلاهما إلى الله ربه . والإنسان مدعو إلى التعاطف مع كل شىء ومع كل حى فى هذا الوجود .

والاعتقاد بالآخرة يؤدى دورا أساسيا فى إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ، ونفى القلق والسخط والقنوط . فالحساب الختامى هناك فى الآخرة حيث العدالة المطلقة فى حساباتها - فلا قنوط إذن إذا توزعت الحظوظ فى رحلة الدنيا القصيرة على غير ما يريد الإنسان . والاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذى تداس فيه القيم وتدهس فيه الحرمات ، فالاعتقاد بالآخرة يخلع التجمل على حركات المتسابقين ، ويخفف السعار الذى ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هى فرصة هذا العمر القصير فى هذه الحياة الدنيا الفانية .

أما التكاليف التى يفرضها الإسلام على المسلم فكلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة : لا تتجاهل طبيعة الإنسان ، ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته ولا حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجسمانى والروحى ، كما لا تحمله فوق طاقته . وإنما يقدم الإسلام الضمانات التى تحيط وتحمى النفس والعرض والمال - وذلك من شأنه أن يشيع السلم وينشر روح السلام .

هذا المجتمع الإسلامى تربطه أصرة واحدة، هى أصرة العقيدة حيث تذوب الأجناس والأوطان واللغات والألوان : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ١٠ - الحجرات ؛ وفى الحديث المروى عن الإمامين أحمد ومسلم : « مثل المؤمنین فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ومن آداب المجتمع الإسلامى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ ٨٦ - النساء ، ﴿ وَلَا تَصَعَّرْ خَدَّكَ ﴾ (١) للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴿ ١٨ - لقمان ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ٣٤ - فصلت ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ﴾ ١١ - الحجرات وماتلا هذه الآية من ذات السورة من آداب أخرى : « ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب » و « ولا يغتب بعضكم بعضا » .

ومن الضمانات التى كفلها المجتمع الإسلامى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ ٢٧ - النور ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ٦ - الحجرات .

(١) صَعَّرَ خَدَّهُ : أماله عجباً وكبراً .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مالك والشيخان :

« كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » .

والمجتمع الإسلامى نظيف عفيف لا تشيع فيه الفاحشة ، ولا ينتشر فيه التبرج ، ولا تلتفت فيه الأعين على العورات ، ولا تحوم فيه الشهوات على الحرمات ، ولا ينطلق فيه سعار الجنس - ذلك أنه مجتمع تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجْبُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ١٩ - النور ، ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ٢ - النور ، ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضٌ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضٌ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴿ ٣٠ ، ٣١ - النور . ويخاطب نساء النبي ، أظهر نساء الأرض ، ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ ٣٣ - الأحزاب . فى هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها ، ويأمن الزوج على زوجته ، حيث لا تقع العيون على المفاتن ، ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم - فلا خيانة زوجية ولا رغائب مكبوتة .

والمجتمع الإسلامى يكفل لكل قادر عملا ، ولكل عاجز ضمانا للعيش الكريم - إذ يعتبر أهل كل حى مسئولين مسئولية جنائية لو مات فيهم جائع ، حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية .

كما يكفل لكل راغب فى الزواج والحصانة زوجة سالحة .

والمجتمع الإسلامى يحمى حريات الناس وحرماتهم وأموالهم وأرواحهم - فمع القصاص لا يذهب دم هدرًا ، ومع الحدود لا يضيع على أحد ماله .

وهو مجتمع يخضع فيه البشر ، حاكمين ومحكومين ، لله ولشريعته ، فيقف الجميع متساوين مساواة حقيقية أمام أحكم الحاكمين .

هذه بعض معانى السلم التى تدعو الآية إلى الدخول فيه . فبعيدا عن هذا السلم ، تنطلق الحيرة ويعربد القلق فى النفوس رغم ما يتوفر من رخاء مادي . فالبشر ، كى يعوضوا خواء الروح بعد ضياع الإيمان وما يجلبه من طمأنينة وراحة بال ، يعكفون على المسكرات والمخدرات وتفترسهم الأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بكل قاذوراته وذنسه وتدمر نفوسهم وأعصابهم ، وتودى بهم إلى الانتحار - وهذا هو الحادث فى أمريكا وروسيا والسويد وباقي بلاد الغرب .

« ولا تتبعوا خطوات الشيطان » : ولا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليه الشيطان « إنه لكم عدو مبين » أى ظاهر العداوة .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ٢١٠ - البقرة (٢)

« قُضِيَ الْأَمْرُ » : تم الفصل والحكم فيه ، وانتهى كل شيء - ولا سبيل إلى تدارك مافات ! ونظرة إلى السياق توضح معنى التعبير . هؤلاء الذين لا يدخلون في السلم (الآية ٢٠٨) ماذا ينتظرون ؟ « هل » يراد بها الجحد ، فالسؤال استنكارى . هل ينتظرون إلى يوم القيامة عندما يأتيهم أمر الله وحكمه ، وساعتها يكون كل شيء قد انتهى « وقضى الأمر » ، وطوى الزمان ، وأفلتت الفرصة ، وعزت النجاة ؟

« ينظرون » ينتظرون ، نظرتهم وانتظرته بمعنى .

« يأتيهم الله » ليس الكلام على ظاهره في حقه سبحانه ، وإنما المعنى : يأتيهم أمر الله وحكمه - فلا يجوز أن يحمل الإتيان هنا على وجه الانتقال والحركة ، لأن ذلك من صفات الأجرام والأجسام ، تعالى الله الكبير المتعال ذو الجلال والإكرام عن مماثلة الأجسام علوا كبيرا . ولهذا سكت بعضهم عن تأويل هذه الآية ، وقال ابن عباس : هذا من المكتوم الذى لا يفسر .

« ظلل من الغمام » : الظلل جمع ظلّة وهى ما أظلك من شجر وغيره والغمام : السحاب الأبيض الرقيق ولا يكون ظلة إلا حيث يكون متراكبا .

﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٢١٦ -

البقرة (٢)

« عَسَى » من الله واجبة في جميع القرآن إلا قوله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله » ، قال القرطبي .

ومعنى التعبير : عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ، ومن مات شهيدا ، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم (١) .

وإن هذا الإيحاء الذى يحمله هذا التعبير لا يقف عند حد القتال ، فالقتال ليس إلا مثلا لما تكرهه النفس ، ويكون من ورائه الخير - إن الإنسان لا يدرى أين يكون الخير وأين يكون الشر . ففى يوم بدر خرج المسلمون يطلبون غير قريش (٢) وتجارتهما ؛ ولكن الله جعل القافلة تفلت ، ولقاهم المقاتلة من قريش - فكان النصر الذى دوى فى الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام .

وكم من مطلوب كادت نفس الإنسان تذهب حسرات على فوته ، ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذا من الله أن فوت عليه هذا المطلوب فى حينه . وقال الحسن فى معنى الآية : لا تكرهوا الملمات الواقعة ؛ فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك ، ولرب أمر تحبه فيه عطبك ؛ وأنشد أبو سعيد الضرير :

رُبَّ أمرٍ تَتَّقِيهِ جَرَّ أَمْرًا تَرْتَضِيهِ
خَفَى الْمَحْبُوبُ مِنْهُ وَبَدَا الْمَكْرُوهُ فِيهِ

« والله يعلم وأنتم لا تعلمون » أى هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر (٣) بما فيه صلاحكم فى دنياكم وأخراكم - فاستجيبوا له وانقادوا لأمره وسلموا إليه الأمر كله .

« كُرْهٌ لَّكُمْ » كره يكره كُرْهًا ، فالكُرْه هنا بمعنى الكراهة ، على وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة ؛ وإما أن يكون كُرْه بمعنى مكروه ، جعل الفعل بمعنى المفعول ، كالخبز بمعنى المخبوز ، قاله الزمخشري .

(١) قال القرطبي : وهذا صحيح لا غبار عليه ؛ كما اتفق فى بلاد الأندلس ، تركوا الجهاد وجبئوا عن القتال وأكثروا من الفرار ؛ فاستولى العدو على البلاد ، وأسَرَ وقَتَلَ وسبَى واسترقَّ .

(٢) العير : ما جلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير .

(٣) صفة المقارنة من خبير ، والخبير : ذو الخبرة الذى يخبر الشئ ، بعلمه .

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ
مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴿٢١٧﴾

٢١٧ - البقرة (٢)

معنى الفتنة هنا : فتنتهم المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا ، قاله الجمهور . ومعنى فتنة
المسلمين عن دينهم : إنزال أنواع التعذيب والأذى والبلايا لـصرفهم عن دينهم ، وهذه الفتنة
أعظم وزرا من القتل .

قال ابن كثير : كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر
عند الله من القتل .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك مباشرة : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن
دينكم إن استطاعوا » وفيه إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين ، وأنهم (الكفار) لا
يتوقفون عن هذه العداوة حتى يردوهم (أى المسلمين) عن دينهم . و« حتى » معناها التعليل ،
أى يقاتلونكم كى يردوكم . وقوله « إن استطاعوا » استبعاد لاستطاعتهم .

لقد صنع الكفار كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله . ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس
يكفرون . وكفروا بالمسجد الحرام وانتهكوا حرمة وأدوا المسلمين فيه وأخرجوهم منه ، وهو
الحرم الذى جعله الله آمنا . وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام . وفتنة
الناس عن دينهم - طوال ثلاثة عشر عاما من الإيذاء والتعذيب قبل الهجرة - أكبر عند الله من
القتل . وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهن فى التحرز بحرمة البيت
وحرمة الشهر الحرام . . فكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم .

إن الإسلام منهج واقعى للحياة ، لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة ، إنه يواجه الحياة
البشرية - كما هى - بعواقبها وملاساتها الواقعية ، يواجهها بحلول عملية تكافئ واقعياتها .

وهو يمضى على هذا المبدأ . وتأخذ الغيبة مثلا : إنه يحرم الغيبة - ولكن لا غيبة لفاسق ؛
فالفاسق الذى يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه . ومثال آخر هو الجهر
بالسوء من القول الذى قال تعالى فيه : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم »
١٤٨ - النساء فهو يستثنى المظلوم الذى يحق له أن يجهر بالسوء من القول فى حق ظالمه ، لأن
السكوت عن الجهر بهذا الظلم والإعلان عنه إنما يطمع الظالم فى الاحتماء بالمبدأ الكريم الذى
لا يستحقه - فيباح للمظلوم أن يجهر بما فى ظالمه من السوء ليدفع عن نفسه شره .

﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة ١٢٩ - ٢)

الإثم : تعنى بالإضافة إلى الذنب ، الشر والضرر - فلقد اجتمع فى أئمة الحرمة الشديدة وجلب الشر وإلحاق الضرر .

إثم الخمر (١) : ما يصدر عن الشارب من المخاصمة والمشاقمة وقول الفحش والزور ، وزوال العقل الذى يعرف به ما يجب لخالفه ، وتعطيل الصلوات ، والتعوق عن ذكر الله . روى النسائي عن عثمان رضى الله عنه قال : اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث . . . والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر .

ثم إن الشارب يصير ضحكة للعقلاء ، فيلعب ببوله وعذرتة ، ورئى بعضهم يمسح وجهه ببوله . ورئى بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول له : أكرمك الله .

وقد أثبت الطب أن تعاطى المخدرات يسبب التهاب الكبد ، وضعف المعدة ، وضعف مقاومة الجسم للأمراض وثبت من بحوث عديدة أن نسبة الوفيات بالمستشفيات العامة بين المدمنين ترتفع إلى خمسين فى المائة ، بينما لا تتجاوز نسبتها - فى غير المدمنين - أربعاً وعشرين فى المائة .

وتأثيرها فى العقول ملموس . فقد تمت تجارب عديدة ثبت منها أن العول (الكحول) المتولد فى الخمر ، سبب مباشر لحُمس الإصابات فى مستشفيات الأمراض العقلية .

هذا فضلاً عما تسببه من الجرائم الخلقية : فإنها تزين القبيح وتشوه الحسن ، وتدفع صاحبها دفعا إلى ارتكاب الموبقات والآثام والاعتداء على الحرمات .

والميسر : القمار ، مصدر يَسِرُ الشئُ يُسِرُّ سِرًّا : سَهَّلَ . واشتقاقه من اليسر ، بمعنى السهولة ، لأنه أخذ الرجل مال غيره من غير كد ولا تعب . أو مشتق من اليسار (الغنى والثروة) لأنه سَلَبَ ثروة الغير وماله .

وإثم الميسر أنه يورث العداوة والبغضاء ، لأنه أكل مال الغير بالباطل . فهو يؤدي إلى إتلاف المال ، وإهمال الأعمال وتضييع الوقت ، والاتكال على الحظ ، والحرص على أكل أموال الناس بالباطل وما يترتب على هذا من إثارة العداوة والبغضاء فى النفوس . وكم من الثروات الطائلة تبددت على موائد القمار ، وفى ميادين السباق ؛ وكثيرا ما تمتد أيدى المقامرین إلى ما عندهم من أمانات فيكون مألهم السجن ، وقد يصل بهم الأمر إلى الانتحار .

(١) يلحق بالخمر المخدرات مثل : الحشيش والأفيون والهروين والكوكايين . انظر : «التفسير الوسيط» .

والدور العظيم الذى قدره الله للأمة الإسلامية لا تتلاءم معه تلك المضيعة فى الخمر والميسر ، ولا تناسبه بعشرة العمر وبعشرة الوعى وبعشرة الجهد فى عبث الفارغين ، الذين لا تشغلهم إلا لذائذ أنفسهم ، أو الذين يطاردهم الفراغ والخواء فيغرقونه فى السكر والخمر والانشغال بالميسر ؛ أو الذين تطاردهم أنفسهم فيهربون منها فى الخُمَار (١) والقمار (٢) .

وأما منفعة الخمر فهى الربح من الاتجار فيها . وقيل أيضا إنها تهضم الطعام وتقوى الضعف . ومنفعة الميسر هى أن يصير إلى الناس ما تمت المراهنة عليه بغير كد ولا تعب ، فهو أكل المال بالباطل .

« وإثمهما أكبر من نفعهما » : أعلم الله عز وجل أن الإثم أكبر من النفع وأعوذُ بالضرر فى الآخرة . ولقد لعن النبى صلى الله عليه وسلم ، الخمرَ ولَعَنَ معها عشرة : بائعَهَا ومُبتَاعَهَا والمشتَرَاةَ لَهُ وعاصِرَهَا والمعصورةَ لَهُ وساقِهَا وشارِبَهَا وحاملَهَا والمحمولةَ لَهُ وأكلَ ثمنَهَا .

والأشياء والأعمال قد لا تكون شرا خالصا ، فالخير يتلبس بالشر ، والشر يتلبس بالخير فى هذه الأرض . ولكن مدار الحلِّ والحُرْمَةِ هو غلبة الخير أو غلبة الشر ، وما فى الخمر والميسر من شر أكبر كثيرا مما فيهما من نفع . والخمر ، كما قال سيدنا عمر ، تُذهب المالَ وتُذهب العقلَ ، وهى أم الخبائث كما قال سيدنا عثمان .

ويستخدم هذا التعبير « وإثمهما أكبرُ من نفعهما » مجازا عند وصف الشئ الذى ضرره أكبر من نفعه ، أو الذى تكون مساوئه أكثر من مزاياه ، أو الذى تكون تكلفته أكبر من عائده .

وهذا التعبير كان أول خطوة من خطوات تحريم الخمر ؛ فإذا كان الإثم فى الخمر والميسر أكبرَ من النفع ، فتلک علة تحريم ومنع وإن لم يصرح هنا بالتحريم . أما الخطوة الثانية فكانت آية سورة النساء « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » والصلاة فى خمسة أوقات معظمها متقارب ، لا يكفى ما بينها للسكر والإفاقة ، وفى هذا تضيق لفرص مزاوله الشرب .

وقال سيدنا عمر : « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا » ، فنزلت الآية التى فى المائدة وفيها النهى الحازم الأخير بتحريم الخمر : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون » فقال عمر : انتهينا ، انتهينا ، إنها تذهب المالَ وتذهب العقل .

« العَفْوُ » : ما فضل عن نفقة العيال ، أو هو السهل الميسور فكل ما رآه على نفقة العيال فهو محل للإنفاق .

(١) الخُمَار : ما خالط الإنسان من سكر الخمر أو ما يصيب شارِبها من ألمها وصداعها .

(٢) القمار : كلُّ لَعِبٍ فيه مُراهنة .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ٢٢٢ - البقرة (٢)

قَرَبَ الشَّيْءَ يَقْرِبُهُ قُرْبًا وَقُرْبَانًا : دَنَا مِنْهُ . وَقَرِبَهُ : بَاشَرَهُ . وَقَرِبَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ : جَامَعَهَا .

والتعبير عن الجماع بالقرب إنما هو من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة . وهذه وأشباهها في كلام الله (١) آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ، ويتأدبوا بها ، ويتكلفوا مثلها في محاوراتهم ومكاتباتهم .

« المحيض » مصدر حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحيضاً ومحاضاً والحيض ضرر شرعاً وطباً . ولذلك أكدت الآية على وجوب اعتزال النساء في زمن الحيض : فوصفته بأنه أذى أى قَدْرٌ وضرر ، وشددت على وجوب اعتزالهن (أى تجنب مجامعتهن) بإضافة « ولا تقربوهن » وإضافة « حتى يطهرن » أى يتطهرن (٢) بالاغتسال بعد انقطاع دم الحيض . وكررت الإشارة إلى وجوب التطهر بطريقة بديعة عندما قالت « فإذا تطهرن » فأفادت اشتراط التطهر . وجاء ختام الآية تأكيداً وتشديداً سادساً على وجوب التطهر بالهتاف الجميل : « إن الله يحب المتطهرين » .

إن الإسلام دين الطهر والنقاء ، والفطرة السليمة ولذلك أمر أن يكون إتيان النساء في منبت الإخصاب دون سواه : « فأتوهن من حيث أمركم الله » وهو الفرج .

(١) من مثل ذلك قوله تعالى في وصف النساء : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ١٨٧ - البقرة ، وقوله : « نسأؤكم حرث لكم » ٢٢٣ - البقرة .

(٢) قرأ نافع وعاصم في رواية حفص عنه « يطهرن ، والطهر : انقطاع دم الحيض . وقرأ حمزة والكسائي « يطهرن » أى يتطهرن . والتطهر : الاغتسال . ورجح الطبرى قراءة تشديد الطاء وقال : هى بمعنى يغتسلن ، لإجماع الجميع على أن حراماً على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع الدم حتى تطهر .

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ ٢٢٣ - البقرة (٢)

حَرَّثَ الْأَرْضَ يَحْرِثُهَا حَرْثًا : شَقَّهَا بِالْمِحْرَاثِ لِيُزْرِعَهَا .

وَالْحَرْثُ : الْأَرْضُ الْمَحْرُوثَةُ (١) . وَاحْتَرَّثَ الْأَرْضَ : حَرَّثَهَا .

« نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » : تَشْبِيهِه لِأَنَّهُنَّ مَزْدَرَعُ الذَّرِيَةِ (أَي مَكَانَ زَرْعِهَا) ، فَفَرَجَ الْمَرْأَةَ

كَالْأَرْضَ ، وَالنُّطْفَةَ كَالْبَذْرَ ، وَالْوَلَدَ كَالنَّبَاتِ . وَأَنْشَدَ ثَعْلَبُ :

إِنَّمَا الْأَرْحَامُ أَرْضُونَ لَنَا مُحْتَرِّثَاتٌ . : فَعَلِينَا الزَّرْعَ فِيهَا وَعَلَى اللَّهِ النَّبَاتَ وَالْحَرْثَ بِمَعْنَى

الْمَحْتَرَّثِ . وَحَدَّ الْحَرْثَ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ ؛ كَمَا يُقَالُ : رَجُلٌ صَوْمٌ وَقَوْمٌ صَوْمٌ .

والتعبير بالحرث متمسق مع السياق في الآية السابقة : « فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم

الله » أى فى منبت الإخصاب دون سواه . فليس الهدف هو مطلق الشهوة ، إنما الغرض هو

امتداد الحياة . إن السياق يتحدث عن الإخصاب والتوالد والنماء . سئل مالك بن أنس : ما

تقول فى إتيان النساء فى أدبارهن ؟ قال : ما أنتم إلا قوم عرب ، هل يَكُونُ الحَرْثُ إلا موضع

الزرع ؟ لا تعدو (٢) الفرج . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « ملعون من أتى امرأته فى دبرها » . وروى الإمام أحمد عن قتادة أن النبى

صلى الله عليه وسلم قال : « الذى يأتى امرأته فى دبرها هى اللوطية الصغرى » . وروى

الثورى أن رجلا سأل عليا عن إتيان المرأة فى دبرها فقال : سفلت ، سفل الله بك ؛ ألم تسمع

قول الله عز وجل : « أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العاملين » .

فالثابت عن مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة أنهم أنكروا

ذلك أشد الانكار ، ومنهم من يطلق على فعله الكفر ، وهو مذهب جمهور العلماء . وهو

أيضا ما قال به السلف : سعيد بن المسيب وعكرمة وطاووس وعطاء وسعيد بن جبير ومجاهد

والحسن وغيرهم .

« فأتوا حرثكم أنى شئتم » : جامعوهن كيف شئتم ، قائمات قاعدات مستقلقيات مادام

ذلك فى الفرج ولا يباح الإتيان فى غيره .

(١) حرث الدنيا : متاعها من مال وبنين وغيرهما . وحرث الآخرة : العمل الصالح الباقي .

(٢) لا تعدو الفرج : لا تتجاوزة .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ البقرة ٢٢٤ - (٢)

« عُرْضَةٌ » : حاجزاً ومانعاً^(١) وأوضح « التفسير الوسيط » معنى التعبير كما يلي : ولا تجعلوا الله - لأجل حلفكم به - عرضة وحاجزاً يمنعكم عن البر والتقوى . وهو ، بهذا ، قدم كلمة « لأيمانكم » (التي فسرها بقوله : لأجل حلفكم به) على كلمة « عرضة » (التي فسرها بقوله : حاجزاً أى مانعاً أن تبروا . وبعبارة أوضح يكون معنى التعبير : ولا تجعلوا الحلف بالله مانعاً لكم من عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس . وكان أحدهم يُدعى إلى برٍ فيقول : حلفت ألا أفعل ؛ فيتعلل بيمينه ويترك فعل البر . فإذا حلف الإنسان على ترك خير ، فَلْيَفْعَلْ الخَيْر ، وليكفر عن يمينه ، ولا يجعل اليمين مانعة له من عمل المعروف .

وقال الزمخشري في « الكشاف » : « ولا تجعلوا الله عرضةً لأيمانكم » أى حاجزاً لما حلفتُم عليه ، فالإيمان هنا هى الأشياء المحلوف عليها . سُمى المحلوف عليه يميناً لتلبسه باليمين ، كما قال النبى ﷺ ، لعبد الرحمن بن سحرة : « إذا حلفت على يمين (٢) فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك » . قال ابن كثير : فالاستمرار على اليمين (أى التمسك بها فى هذه الحالة) أتم (أى أكثر إثماً وذنبا) لصاحبها من الخروج منها بالتكفير (أى عن حلفها بإخراج كفارتها) .

أخرج ابن جرير أن الآية نزلت فى الصديق رضى الله عنه ، كما حلف ألا ينفق على مسطح بن خالته ، وكان من الفقراء المهاجرين ، لأنه شارك فى حديث الإفك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ (٣) أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَيُصَفِّحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) فرجع أبو بكر عن يمينه وكفر عنها .

هذا هو التفسير الذى قال به ابن عباس ومسروق والشعبى وإبراهيم النخعى ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهرى والحسن وقتادة ومقاتل والربيع والضحاك والسدى ، رحمهم الله .

وهناك تفسير ثان أساسه أن كلمة « عرضة » تعنى : المعرَّضَ للأمر ، فيكون معنى التعبير : ولا تجعلوا الله معرَّضاً لأيمانكم^(٥) فتكثرون من الحلف به ، لأن فى ذلك جرأة على الله تعالى ؛ وعلّة النهى عن كثرة الحلف بالله هى : « أن تبروا وتتقوا وتصلحوا » فالإكثار من الحلف بالله يكون معه الحنثُ ، والبعد عن الحلف أدعى للبر والتقوى .

« لأيمانكم » : الإيمان جمع يمين . وهى هنا اسم للحلف وهى فى الأصل مصدر لا فعل له ، تقول : حلفت يميناً ؛ ثم أطلقت على المحلوف عليه .

(١) ويقال : سرتُ فَعَرَضْتُ لى فى الطريق عارض أى مانع .

(٢) أى على شئ مما يحلف عليه . وهذا الحديث أخرجه الأئمة الخمسة من رواية حسن البصرى .

(٣) ألى يأتلى أى يحلف : لا يحلف أصحاب الفضل والسعة فى المال على عدم الإحسان إلى من يستحقون الإحسان .

(٤) الآية ٢٢ - النور .

(٥) قال أبو تمام . دعونى أُنحَ وجداً كَتَوَّحَ الحمائم ولا تجعلونى عُرْضَةً لِلْوَأَسِمِ

أى لا تجعلونى معرَّضاً للوم اللاتمين .

﴿ لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وَسْعَهَا ﴾

﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وَسْعَهَا

لَا تَضَارُّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدِهِ ﴾ ٢٣٣ - البقرة (٢)

الوُسْعُ : الطاقة والاحتمال . كلّفه أمراً : أوجبه عليه .

ومعنى التعبير أن التكليف يكون في حدود الطاقة من غير إسراف ولا إقتار .

« وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » أى على والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف أى بما عُرف وجرت عليه عادة أمثالهن فى بلدهن من غير إلزام الوالد بما يشق عليه ، بل يكون الأجر فى حدود طاقته . كما قال تعالى فى سورة الطلاق : « لينفق ذو سعة ^(١) من سعته ومن قُدِرَ عليه رزقه ^(٢) فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ^(٣) الآية السابعة .

« لا تضارّ والدة بولدها » الفعل ضارّه يُضارُّ مُضارّةً وضارراً : ضرّه أى ألحق به أذى أو مكروهاً ، والمعنى : لا تضر والدة زوجها بسبب ولدها بأن تطلب منه ما ليس بعدل من الرزق والكسوة ، وأن تشغل قلبه بالتفريط فى شئون الولد .

« ولا مولود له بولده » أى لا يضر الأب (المولود له) زوجته المرضعة بسبب ولده ، بأن يمنعها شيئاً مما وجب لها عليه من رزق أو كسوة أو يأخذ منها الصبى وهى تريد إرضاعه .

وقال بعض المفسرين إن كلمة « بالمعروف » ^(٤) يفسرها التعبير « لا تكلف نفس إلا وسعها » ، وما جاء بعد التعبير يزيد المعنى وضوحاً .

قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى « تُضَارُّ » بفتح الراء المشدّدة ، وموضعه من الإعراب الجزم على النهى ؛ وأصله تضارّر على الأصل ، فأدغمت الراء الأولى فى الثانية وفتحت الثانية لالتقاء الساكنين .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير وآبان عن عاصم : « تُضَارُّ » بالرفع عطفاً على قوله : « لا تكلفُ نفسٌ » وهو خبر والمراد به الأمر .

ويحتمل أن يكون الأصل « تضارر » بكسر الراء الأولى ، وتكون « والدة » فاعل .
ويحتمل أن يكون « تضارر » بفتح الراء الأولى وتكون والدة نائب فاعل .

(١) السَّعة : الغنى والطاقة . (٢) أى كان رزقه ضيقاً .

(٣) إلا ما آتاها : إلا بقدر ما أعطاهما من الطاقة أو من الرزق .

(٤) قال الزمخشري : « بالمعروف » تفسيره ما يعقبه ، وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس فى وسعه ولا يتضارراً (أى لا يضر أحدهما الآخر) .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُونَ هُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرَبُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ٢٣٥ - البقرة (٢)

يأتي هذا التحذير « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه » في ختام الآية وما قبلها من آيات تتحدث عن التشريع . فهذا التحذير يربط بين التشريع وخشية الله المطلع على السرائر . فللهواجس المستكنة وللمشاعر المكنونة قيمتها في العلاقات بين الرجل والمرأة ، تلك العلاقات الشديدة الحساسية ، العالقة بالقلوب ، الغائرة في الضمائر - وخشية الله ، والحذر مما يحيك في الصدور أن يطلع عليه الله : هذه الخشية وهذا الحذر هما الضمانة الأخيرة لتنفيذ التشريع .

والتعبير ينطبق على كل صغيرة وكبيرة في حياة النفس البشرية ، وعلى كل ما يعتمل فيها من خواطر وعزائم . فالله مطلع على كل ما يقع في ضمائر البشر ، ما تعلق منها بأمور النساء وما تعلق بغير أمور النساء ، فاحذروه وخافوا أن تخالفوا أمره .

إنه تعبیر يهز النفوس المؤمنة هذا ، ويزلزل القلوب خشية من الذي يعلم السر وأخفى : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ٧ - طه ، والأخفى من السر هو حديث النفس وخواطرها ، أو هو المستور المخبوء في الصدور .

﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

روى ابن جرير عن عكرمة قال : أذن الله في العفو وأمر به « وأن تعفو أقرب للتقوى » : الخطاب هنا للرجال والنساء ، أى وأن تعفو المطلقات عن حقهن في النصف ، لأن الأزواج لم يدخلوا بهن (١) ، وأن يعفو الأزواج فيعطون المطلقات أكثر من النصف جبرا لخاطرهن - أقرب إلى التقوى ، والبادئ بالفضل أكرم .

عن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال : أنا أحق بالعفو . وعنه أنه دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه بنتاله فتزوجها ، فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملاً ، فقيل له : لم تزوجتها ؟ فقال : عرضها على فكرهت رده ، قيل : فلم بعث بالصداق ؟ قال : فأين الفضل ؟

« يعفون » أى يصفحون ويتركن النصف الذى وجب لهن عند الزوج . ولم تسقط النون مع « أن » لأن جمع المؤنث فى المضارع على حالة واحدة فى الرفع والنصب والجرم ، فالنون ضمير وليست علامة إعراب فلذلك لم تسقط ، ولو سقطت (أى النون) لاشتبه بالمذكر .

والعافيات ، أى اللاتى يعفون ، فى هذه الآية ، كل امرأة تملك أمر نفسها ، فأذن الله تعالى لهن فى إسقاط حقهن بعد وجوبه ، إذ جعله خالصا لهن يتصرفن فيه بالإمضاء والإسقاط كيف شئن .

« وأن تعفوا أقرب للتقوى » : ابتداء وخبر ، وهو خطاب للرجال والنساء فى قول ابن عباس ، فغلب الذكر .

والعفو هو التجاوز عن الذنب ، وأصله المحو والطمس عفاً يعفو عفوفاً فهو عاف وعفو ، والعفو من أبنية المبالغة وهو من أسماء الله تعالى أى الكثير العفو (٢) .

ويقال : عفوت له عمالى عليه إذا تركته له . روى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ ، قال :

(١) تقول المرأة : ما رأتى ولا خدمته ولا استمتع به فكيف أخذته شيئا ؟

(٢) وفى حديث أبى بكر ، رضى الله عنه : سلوا الله العفو والعافية والمعافاة . فأما العفو فهو محو الله تعالى ذنوب عبده ؛ وأما العافية فهو أن يعافيه الله من سقم أو بلية ؛ وأما المعافاة فهى مفاعلة من العفو ، وهى أن يعفو عن الناس ويعفوا هم عنه .

«كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه^(١). لعل الله أن يتجاوز عنا- فتجاوز الله عنه» .

وروى البخارى ومسلم وابن ماجه عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ : « أتى الله بعبد من عبده يوم القيامة قال : ماذا عملت لى فى الدنيا ؟ فقال : ما عملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها - قالها ثلاث مرات - قال العبد عند آخرها : يارب إنك كنت أعطيتنى فضل مال^(٢) وكنت رجلا أبايع الناس وكان من خلقى الجواز^(٣) فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر^(٤) ، قال : فيقول الله عز وجل : « أنا أحق من يسر ، ادخل الجنة » .

(٢) مالا زائدا عن الحاجة .

(٤) أمهله .

(١) اعفو عنه .

(٣) العفو عن المدين .

﴿ وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾

﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ٢٣٧ - البقرة (٢)

الْفَضْلُ : الإحسان ابتداء بلا علة .

« ولا تسأوا الفضل بينكم » أى لا تجعلوا الفضل بينكم كالشئ المنسى ، وتتركوا التعامل به بينكم . والفضل هنا فى هذه الآية هو من جانب الزوج أن يدفع كل الصداق لزوجته التى لم يدخل بها جبراً لحاظرها ، ومن جانب الزوجة أن تترك النصف الذى لها لأن الزوج لم يستمتع بها ولم تخدمه .

وروى عن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ ، قال : « ليأتين على الناس زمان عضوض ^(١) يعرض المؤمن على ما فى يديه وينسى الفضل . وقد قال الله تعالى : « ولا تسأوا الفضل بينكم » شرار يبائعون كل مضطر » . وقد نهى رسول الله ﷺ ، عن بيع المضطر وعن بيع الغرر ^(٢) فإن كان عندك خير فعُدْ به على أخيك ولا تزدده هلاكاً إلى هلاكه ، فإن المسلم أخو المسلم لا يحزنه ولا يحرمه .

يظل القرآن يلاحق القلوب كى تصفو وترف وتخلو من كل شائبة . يلاحقها باستجاشة شعور التقوى ، وباستجاشة شعور السماحة والتفضل . ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله - ليسود التجميل والتفضلُ جَوَّ العلاقات الإنسانية .
انظر : وأن تعفوا أقرب للتقوى .

(١) العَضُوضُ : الزمن الشديد الكلب .

(٢) بَيْعُ الْغَرَرِ : بيع ما يجهله المتبايعان ، أو مالا يوثق بتسلمه .

﴿ يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ

وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ٢٤٥ - البقرة (٢)

القَرْضُ : ما تعطيه غيرك من مال على أن يرده إليك .

والله يدعونا - بهذا الأسلوب الاستفهامي البليغ - إلى بذل المال في سبيله ابتغاء ثوابه ، وكأننا نقدم قرضاً إلى مقترض . شبه ، سبحانه وتعالى ، عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثواب الله في الآخرة بالقرض ، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ١١١ - براءة .

فالآية تحث على الصدقة وإنفاق المال على الفقراء المحتاجين والتوسعة عليهم ، وعلى الإنفاق في سبيل الله بنصرة الدين .

وكنى الله سبحانه عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن الحاجات ترغيباً في الصدقة ، كما كنى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام . ففي الصحيح عن الله تعالى : « يا ابن آدم مرّضتُ فلم تُعدنِي واستطعمتكَ فلم تُطعمنِي واستسقيتكَ فلم تسقنِي » قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ، قال : « استسقك عبدى فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي » . أخرجه مسلم والبخاري . وهذا كله خرج مخرج التشريف لمن كنى عنه ترغيباً لمن خوطب به .

وثواب القرض عظيم لأن فيه توسعة على المسلم وتفريجاً عنه . خرّج ابن ماجة في سننه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسرى بى على باب الجنة مكتوباً الصدقة بعشر أمثالها والقرض بشمانية عشر فقلت لجبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة قال لأن السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

والقرض الحسن : ما كان بدون ربح أو فائدة تجارية . والمقصود بالقرض الحسن في الآية أن يكون الغرض منه وجه الله ، لا الرياء ولا السمعة ، وأن يكون حلالاً طيباً ؛ وقيل : لا يمتن به ولا يؤذى .

ومع أن القرض مع الناس يؤدى بمثله ، فإنه تعالى بين لعباده أن القرض معه يؤدى مضاعفاً ، إذ قال : « فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » ، وبين الله هذه المضاعفة في أواخر السورة إذ يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١]

« فيضاعفه له » : قرأ عاصم وغيره « فيضاعفه » بالألف ونصب الفاء . وقرأ ابن عامر ويعقوب « فيضعفه » بالتشديد في العين مع سقوط الألف ونصب الفاء . ودليل من شدد العين « أضعافا كثيرة » لأن التشديد للتكثير .

أما قرض الأدمى (بنى البشر فيما بينهم) : للواحد واحد ، أى يرد عليه مثل ما أقرضه . وأجمع المسلمون نقلا عن نبيهم ﷺ أن اشتراط الزيادة في السلف ربيا ولو كان قبضة من علف أو حبة واحدة . ولا يجوز أن يهدى من استقرض هدية للمقرض ، ولا يحل للمقرض قبولها إلا أن يكون عادتهما التهادى . قال رسول الله ﷺ : « إذا أقرض أحدكم أخاه قرضا فأهدى له أو حملة على دابته فلا يقبلها ولا يركبها إلا أن يكون جرى بينه وبينه قبل ذلك » .

« والله يقبض وييسط » أى يضيق الرزق على بعض ، ويوسعه على بعض . أو يضيقه تارة ويوسعه أخرى ، حسبما تقتضى حكمته . فإذا علمتم أنه هو واهب الأرزاق وأن ما عندكم هو من بسطه وعطائه فانفقوا ولا تبالوا .

لما نزلت ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يارسول الله وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؛ قال : « نعم يا أبا الدحداح فقال أبو الدحداح فيانى أقرضت ربى عز وجل حائطى ^(١) . وكان فيه ستمائة نخلة . وأنفق عثمان بن عفان فى تجهيز جيش العسرة (جيش غزوة تبوك) ألف دينار غير الإبل والزاد .

التعبير موجود فى ١٢ / المائة و ١٨ / الحديد وغيرهما .

(١) الحائط : البستان ، والجمع : حيطان وحوائط .

﴿ وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نبيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنْتَى يَكُونُ لَهُ

الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ ٢٤٧ -

البقرة (٢)

السَّعة : الطاقة والقوة . والسَّعة : الغنى والرفاهية .

« سَعَةٌ مِنَ الْمَالِ » بَسْطَةٌ (أى زيادة) فِيهِ .

لَمَّا قَسَقَ^(١) بنو إسرائيل وقتلوا أنبياءهم ، سلَّط الله عليهم جيرانهم العبرانيين الذين استولوا على الكثير من البلاد الإسرائيلية وأسروا أشرف بنى إسرائيل واستباحوا نساءهم .

عندئذ طلب بنو إسرائيل من نبيهم يوشع ، عليه السلام أن يقيم عليهم ملكا^(٢) يوحدهم ويقودهم فى محاربة العبرانيين . فاختر لهم طالوت ملكا عليهم ، لكنهم احتجوا بأن طالوت فقير وليس عنده مال كما أنه لم يكن من سبط الملك يهوذا ولا من سبط لاوى الذى فيه الأنبياء ، والملك عندهم يتوقف على الحسب واليسار .

قال الزمخشري : كان طالوت سَقَاءً أو دَبَاغًا فقيرا . وروى أن نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكا ، فأتى بعضا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت .

(١) قَسَقَ : عَصَاً وَجَاوَزَ حُدُودَ الشَّرْعِ .

(٢) كان الملك فى بنى إسرائيل هو الذى يسير بالجموع ، أما النبى فكان يشير على الملك ويرشده ، فيطيع الملك أمره .



﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي

مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٢٤٧ - البقرة (٢)

بَسَطَ الشَّيْءَ يَبْسُطُهُ بَسْطًا : نَشَرَهُ . وَبَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ : كَثَّرَهُ وَوَسَّعَهُ ، وَ «الْبَاسِطُ»
مِنَ أَسْمَائِهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَالْبَسْطَةُ : الزِّيَادَةُ .

ومعنى التعبير أن الله أعطاه العلم الواسع والجسامة . وهذان سببان لا صطفاء الله واختياره لطالوت كى يكون ملكا على بنى إسرائيل (انظر : التعبير السابق) ولم يوت سعة من المال) . فالعلم ملاك الإنسان (١) ، والجسم معينه فى الحرب وعدته عند اللقاء . فتضمن التعبير بيان صفة الإمام ، وأن الإمامة مستحقة بالعلم والدين والقوة وليس بالنسب .

قال ابن عباس : كان طالوت يومئذ أعلم رجل فى بنى إسرائيل وكان أتمهم جسما ، وزيادة الجسم مما يهيب العدو .

وزيادة الجسم لا تعنى مجرد عظم الجسم ، وإنما هى كثرة معانى الخير والشجاعة (٢) .

(١) ملاك الأمر : قوامه وخلاصته ، أو عنصره الجوهرى .

(٢) قال العباس بن مرداس :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ . : . وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَضُورُ

وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ . : . فَيُخْلِفُ ظَنَكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ

وَقَدْ عَظُمَ الْبَعِيرُ بِغَيْرِ لَبِّ . : . فَلَمْ يَسْتَعْنِ بِالْعَظْمِ الْبَعِيرُ

الطَّرِيرُ : ذُو الرِّوَاءِ وَالْمَنْظَرِ . وَالْهَضُورُ : الشَّدِيدُ الَّذِي يَفْتَرِسُ .

﴿ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً ﴾

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ يَأِذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ٢٤٩ - البقرة (٢)

الفئة : الجماعة من الناس والقطعة منهم ؛ من قَاوَتْ رأسه بالسيف وقَايَتْهُ أى قطعته .

وكم من جماعة قليلة العَدَد والعُدَد ، استعصمت بإيمانها بالله وتوكلت عليه ، فغلبت فئة كثيرة العَدَد والعُدَد . وفى التعبير تحريض على القتال ، واستشعار للصبر واقْتِدَاءٌ بِمَن صَدَّقَ ربه .

وجاءت فى القرآن الكريم آيات عديدة تبين أسباب النصر وشروطه : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ^(١) وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ٤٥ - الأنفال ؛ ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ^(٢) إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ٤٠ - الحج ؛ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) ؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ^(٤) وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ١٢٨ - النحل ؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ^(٥) وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ٢٠٠ - آل عمران . وفى البخارى عن أبى الدرداء قوله : إنما تقاتلون بأعمالكم . وفيه قول النبى ﷺ : « هل تُرْزَقُونَ وتُصْرُونَ إلا بضغائكم » .

هذا هو طالوت قائد جيش بنى إسرائيل يواجه جيش العبرانيين الغالب القاهر ، فكيف يواجههم طالوت إلا بتفجير الإرادة الكامنة فى ضمير جيشه . ولا بد له أن يختبر هذه الإرادة وصمودها للرغبات ، وصبرها على الحرمان والمتاعب ، وإيثارها للطاعة . كان جنوده عطاشا وعندما وصلوا النهر ، أمرهم ألا يشربوا منه إلا غُرْفَةً ^(٦) تَبِلُ الْعَطَشَ ، فلم ينفذ أمره سوى القليل منهم ، أما الأكثرون فشرَبوا وارتَوَوْا وتخلَّفوا عن القتال . وسارت القلة المؤمنة مع

(١) أى لا تفروا ولا تضطربوا .

(٢) أى ينصر دينه وأوليائه . (٣) اعتمد عليه وفوض أمره إليه سبحانه مع اتخاذ الأسباب وإعداد العدة .

(٤) اتَّقَوْا : تركوا المحرمات .

(٥) رَابِطٌ يَرَابِطُ رِبَاطًا ومُرَابِطَةٌ : لازم الشجر وموضع المخافة ، كان كل فريق يربط خيله فى ثغوره استعدادا للحرب .

(٦) الغُرْفَةُ : اسم للشئ المُغْتَرَفِ ، وأما الغُرْفَةُ فهى اسم للمرة الواحدة من الغَرْفِ ، وقيل : هما لغتان بمعنى واحد . رخص لهم فى الأخذ باليد دون الكَرْعِ (والكَرْعِ تناول الماء بالفم من موضعه من غير أن يشرب بكفيه أو يئانه) .

طالوت لملاقاة الأعداء ؛ فلما نظروا إلى كثرة عدوهم وهم قليل ، أوجس بعضهم خيفة وقالوا : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ، قالوا هذا إظهارا للواقع الذى يروونه أمامهم ورجاء المعونة من الله .

أما أفضلهم وخلصاؤهم المستيقنون أنهم ملاقوا جزاء الله يوم القيامة فقالوا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » . و « كم » هنا خبرية تدل على عدد كثير ، والمعنى أنه حدث كثيرا وكثيرا أن غلبت فئة مؤمنة قليلة العدد فئة كافرة كثيرة العدد . وهذه هى القاعدة فى حس الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : الفئة المؤمنة تكون قليلة لأنها هى التى ترتقى الدرج الشاق حتى تصل إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار ، ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى - بالله الغالب على أمره القاهر فوق عباده . وهم يكلون هذا النصر لله : « بإذن الله » ويعلونه بعلته الحقيقية : « والله مع الصابرين » ، فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة .

﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾



﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا

وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ٢٥٠ - البقرة (٢)

أفْرِغِ الشَّيْءَ : ألقاه من وعائه .

وأفْرِغِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ونحوهما من المعادن المصهورة : صبها .

وأفْرِغِ اللهُ الصَّبْرَ عَلَى القلوب : أنزله .

« ربنا أفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » أى أنزلْ عَلَيْنَا من عندك صبرا عظيما غامرا يشملنا ويقوى نفوسنا - هذا التعبير يصور مشهد الصبر فيضاً من الله يفرغه عليهم فيغمرهم ، وينسكب عليهم سكينه وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة .

فالفئة القليلة الواثقة ، الصابرة الثابتة ، التى لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، هى التى تقرر مصير المعركة بعد أن تجدد عهداها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلب النصر منه وحده .

والتعبير موجود فى الآية ١٢٦ - الأعراف .

﴿ وَثَبَّتْ أقدامنا ﴾



﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا

وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ٢٥٠ - البقرة (٢)

ثَبَّتَ فلاتاً : مكثه من الثبات عند الشدة ، والثبات : الاستقرار والرزانة والحزم .

« وَثَبَّتْ أقدامنا » : فهى فى يده - سبحانه - يشبها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد . وإنما يكون تشبيته بث الطمأنينة فى النفوس عند لقاء العدو ، فإن طمأنينة النفس تهب القوة والثبات . قال ابن كثير : جَنَّبْنَا الفِرَارَ والعجز .

والتعبير موجود فى ١٤٧ - آل عمران ، ١١ - الأنفال ، ٧ - محمد .

﴿ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ

بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٢٥٦

- البقرة (٢)

اسْتَمْسَكَ : مَسَكَ بِقُوَّةِ .

وَالْعُرْوَةُ مِنَ الدَّلْوِ أَوْ الْكَوْزِ وَنَحْوَهُمَا : مَقْبِضُهُ .

وَالْعُرْوَةُ : مَا يُسْتَمْسَكَ بِهِ وَيُعْتَصَمُ (عَلَى الْمَجَازِ)

« الْوُثْقَى » : تَأْنِيتِ الْأَوْثَقِ ؛ مِنْ وَثَقَ وَثَاقَةً أَيْ قَوِيَ وَثُبَّتَ فَهُوَ وَثِيقٌ أَيْ ثَابِتٌ وَمُحْكَمٌ

وَأَفْعَلُ التَّفْضِيلِ مِنْهُ أَوْثَقَ فَالْوُثْقَى : الْأَشَدُّ وَالْأَحْكَمُ .

« اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » ثَبَتَ فِي أَمْرِهِ وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيِّ وَالسَّبَبِ الْأَوْثَقِ

الَّذِي يَصِلُهُ بِالْحَقِّ .

« لَا انْفِصَامَ لَهَا » : لَا انْقِطَاعَ لَهَا وَلَا زَوَالَ .

« فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا » : فَقَدْ اسْتَمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بِأَقْوَى سَبَبٍ ،

وَشَبِهَ ذَلِكَ بِالْعُرْوَةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْفَصِمُ ؛ فَهِيَ فِي نَفْسِهَا مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قَوِيَّةٌ وَرِبْطُهَا قَوِيٌّ

شَدِيدٌ (١) .

« الطَّاغُوتِ » : الشَّيْطَانِ ، أَوْ كُلِّ ذِي طَغْيَانٍ ، أَوْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى ، مِنْ طَغَا يَطْغَى

إِذَا جَاوَزَ الْحَدَّ بِزِيَادَةٍ عَلَيْهِ . وَمِنْهُ كُلٌّ مِنْهَجٌ أَوْ تَقْلِيدٌ أَوْ وَضْعٌ غَيْرٌ مُسْتَمَدٌّ مِنَ اللَّهِ .

الْمَعْنَى الْكُلِّيَّةُ لِلآيَةِ : مَنْ خَلَعَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبَادَةٍ كُلِّ مَا

يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَعَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي أَمْرِهِ وَاسْتَقَامَ عَلَى

الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيِّ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

(١) قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : هَذَا تَمَثُّلٌ لِلْمَعْلُومِ بِالنَّظَرِ ، وَالِاسْتِدْلَالُ بِالْمَشَاهِدِ الْمَحْسُوسِ حَتَّى يَتَصَوَّرَهُ السَّمَاعُ كَأَنَّهُ

يَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعِينَهُ ، فَيُحْكِمُ اعْتِقَادَهُ وَالتَّيَقَّنَ بِهِ .

﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ

الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿ ٢٦٧ - البقرة (٢)

يَمَمَهُ : قَصْدَهُ وَتَوَخَّاهُ وَتَعَمَّدَهُ . وَأَيْضًا : تَيَمَّمَهُ .

والتيمم (١) فى اللغة: القصد، وفى أشعار العرب شواهد على أن التيمم هو القصد (٢).

« الخبيث » الدُّون (الخسيس الحقير) والردئ .

فالتعبير يبين الأساس الذى تقوم عليه الصدقة ، وهو أن يكون الجُودُ (البذل والعطاء) بأفضل الموجود ، فلا تكون بالدون والردئ الذى يعافه صاحبه ، ولو قدم إليه مثله فى إحدى المعاملات ما قبله إلا أن ينقص من قيمته (وهذا معنى قوله تعالى : « ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه) . فالله أغنى عن تقبل الردئ الخبيث - « واعلموا أن الله غنى حميد » .

ويمكن أن يكون معنى الخبيث : الحرام .

فمعنى التعبير هو : ولا تعمدوا الى الردئ من أموالكم وممتلكاتكم ، أو الحرام منها ، لتنفقوا منه .

روى ابن جرير عن البراء بن عازب قال : نزلت فى الأنصار . كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل (٣) ، أخرجت من حيطانها (٤) البُسْرَ فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين (٥) فى مسجد رسول الله ﷺ ، فيأكل فقراء المهاجرين منه . فيعمد الرجل منهم إلى الحشَف (٦) فيدخله مع قناء البُسْر ، يظن أن ذلك جائز . فأنزل الله فيمن فعل ذلك : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » .

وفى رواية ابن أبى حاتم عن البراء أيضا قال : نزلت فىنا ، كنا أصحاب نخل ، فكان الرجل يأتى من نخله بقدر كثيره وقتله ، فيأتى رجل بالقنو ، فيعلقه فى المسجد . وكان أهل الصفة

(١) والتيمم للصلاة : مسح الوجه واليدين بالتراب فى حالة عدم وجود الماء .

(٢) من ذلك قول الشافعى : علمى معى حيث يَمَمْتُ أحمَلُهُ .: بطنى وعاء له لابطن صندوق

وقال آخر : إني كذاك إذا ماسأنى بلدٌ .: يَمَمْتُ بعبيرى غيره بلداً

(٣) قطع ثماره . (٤) أى بساتينها ، والبُسْر : تمر النخل قبل أن يُرطب .

(٥) العمودين . (٦) الحشَف : أردأ التمر .

ليس لهم طعام . فكان أحدهم إذا جاع جاء فضرب بعصاه ، فسقط منه البُسْرُ والتمر فيأكل ، وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو الحشف والشيص ، فيأتي بالقنو قد انكسر فيعلقه ، فنزلت : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه » . قال : لو أن أحدكم أهدى له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض فيه . فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده .

وفي معنى التعبير قال ابن عباس : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدق بردالة المال ودنيئه وهو خبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . وفي الآية نداء عام للذين آمنوا - في كل وقت وفي كل جيل - يشمل جميع الأموال التي تصل إلى أيديهم وتشمل ما كسبوه من حلال طيب ، وما أخرجته الله لهم من الأرض من زرع وغير زرع مما يخرج من الأرض ويشمل المعادن والبتروك .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » - قالوا وما بوائقه يا نبي الله ؟ قال : « غشه وظلمه ، ولا يكسب عبداً مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السوء بالسوء ولكن يمحو السوء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

« واعلموا أن الله غنى حميد » : فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غنى واسع العطاء ، كريم جواد ، وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافا كثيرة .

﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ٢٦٧ - البقرة (٢)

« ولستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه » : أى أنكم لا تأخذون هذا الدون والردئ (الخبث) من السلع والأشياء لو وجدتموه فى السوق يباع إلا أن يهضم لكم من ثمنه أى يترك منه شىء ، ولو أهدى لكم هذا الدون فإنكم تقبلونه استحياءً من المهدي .
أغمض فلان فى السلعة : استحط من ثمنها لرداءتها .

والإغماض فى اللغة : غَضَ البصر وإطباقُ الجفن على الجفن ، ثم استعير للتغافل والتساهل (١) ، والمراد هنا : أنكم تتسامحون فى أخذ الردئ وتقبلونه تساهلاً فى بعض حقكم - وعلى هذا فلتعطوا الناسَ مثل ما تحبون أن تأخذوا منهم ، وكان هذا عتاب للناس أى فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم .

قال ابن عباس : كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه . والله أغنى عن أن يتقبل الردئ والخبث .

(١) قال القرطبي : أغمض الرجل فى أمر كذا إذا تساهل فيه ورضى ببعض حقه وتجاوز عن البعض الآخر ، قال الطرماح :

لَمْ يَفْتِنَّا بِالْوَتْرِ قَوْمٌ وَلِلذُّ لَأَنَاسٍ يَرْضَوْنَ بِالْإِغْمَاضِ

وقد يحتمل أن يكون منتزعا من تغميض العين ، لأن الذى يريد الصبر على مكروه يغمض عينيه ، قال الشاعر :

إِلَى كَمْ وَكَمْ أَشْيَاءَ مِنْكَ تُرِيْبُنِي أَعْمَضُ عَنْهَا لَسْتُ عَنْهَا بِنْدَى عَمَى

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ
يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيْمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ

إِحْقَاقًا ﴿ ٢٧٣ - البقرة (٢)

« ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » : سعيًا فيها للتكسب و جلب الرزق . ضَرْبَ الرَّجُلُ فِي الْأَرْضِ :
ذَهَبَ وَأَبْعَدَ ، وسار في البلاد و تَقَلَّبَ فِيهَا ابْتِغَاءَ الْمَكَاسِبِ وَالْعَيْشِ ، وَسُمِّيَ السَّيْرُ ضَرْبًا لِمَا فِيهِ
من ضرب الأرض بالأرجل .

قال ابن كثير : الضرب في الأرض يعني السفر للتسبب في طلب المعاش ؛ والضرب في
الأرض هو السفر ، قال تعالى : « وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » ٢٠
- المزمّل

« لِلْفُقَرَاءِ » : اللام متعلقة بمحذوف تقديره الإنفاق أو الصدقة للفقراء الذين « أَحْصَرُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ » أى أَحْصَرَهُمُ الْجِهَادَ فَلَا « يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » للكسب لانشغالهم
بالجهاد . وقيل في معنى « أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى حبسوا أنفسهم عن التصرف في
معايشهم خوف العدو ، ولهذا قال تعالى « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » لكون البلاد كلها
كفراً مطبقاً ، وكان هذا في صدر الإسلام .

وقيل عن هؤلاء الفقراء : هم أصحابُ الصُّفَّةِ ، وهم نحو من أربعمئة رجل من مهاجرى
قريش لم يكن لهم مساكن فى المدينة ولا عشائر ، فكانوا فى صُفَّةِ الْمَسْجِدِ أى سقيفته ، وكانوا
يتعلمون القرآن بالليل ويخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله ﷺ . فمن كان عنده فضل
أتاهم به إذا أمسى .

قال صاحب « الظلال » : كان هذا الوصف الموحى ينطبق على جماعة من المهاجرين ،
تركوا وراءهم أموالهم وأهليهم ، وأقاموا فى المدينة ووقفوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله
وحراسة رسوله ﷺ ، كأهل الصُّفَّةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْمَسْجِدِ حِرْسًا لِبُيُوتِ الرَّسُولِ ﷺ لَا يَخْلُصُ
إِلَيْهَا مِنْ دُونِهِمْ عَدُوٌّ . وَأَحْصَرُوا فِي الْجِهَادِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ لِلتَّجَارَةِ وَالْكَسْبِ
- وهم مع هذا لا يسألون الناس شيئاً .

﴿ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ٢٧٣ - البقرة (٢)

« يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » : يظنهم الجاهل بحالهم مستغنين بسبب تعففهم وامتناعهم عن السؤال .

والتعفف : ترك الشيء والإعراض عنه ؛ بقهر النفس وحملها عليه . يقال عَفَّ عن الشيء يعف إذا كَفَّ عنه . وتعفف إذا تكلف الإمساك عنه . قال القرطبي : والتعفف تفعل ، وهو بناء مبالغة من عَفَّ عن الشيء إذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه .

وفى هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يُفْطَن له فيُتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا » وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضا .

والنص عام ينطبق على الكرام المعوزين في كل زمان ، أولئك الذين تكتنفهم ظروف تمنعهم من الكسب قهرا ، وتمسك بهم كرامتهم أن يسألوا العون . إنهم يتجملون كي لا تظهر حاجتهم ، يحسبهم الجاهل بما وراء الظواهر أغنياء لتعففهم عن إظهار الحاجة - لكن ذا الحسن المرهف والبصيرة المفتوحة يفتن إلى حقيقة حالهم .

[راجع تعبير : « لا يسألون الناس إلحافًا »]

﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ ﴾

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ
يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ لَا يُسْأَلُونَ النَّاسَ
إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ٢٧٣ - البقرة (٢)

السَّيِّمَاتُ (مقصورة) : العلامة ، وقد تمد فيقال : السيماء . وقد اختلف العلماء في تعيينها
وتحديددها هنا ؛ فقال مجاهد : هي الخشوع والتواضع . وقال السدي : هي أثر الفاقة والحاجة
في وجوههم وقلة النعمة . وقال ابن زيد : ركائة ثيابهم (١) .
والسَّيِّمَاتُ من الوشم بمعنى العلامة .

« تعرفهم بسيماهم » : تعرف فقرهم بما يرى عليهم من الضعف والركائة ، أو بما يبدو
عليهم من الخشوع والتواضع ، أو صمفرة الوجوه والجهد والانكسار ، فالمشاعر النفسية تبدو
عليهم وهم يدارونها في حياء .

[راجع تعبير : « لا يسألون الناس إلحافًا]

(١) أما السَّيِّمَاتُ التي هي أثر السجود ، فقد اشترك فيها جميع الصحابة رضوان الله عليهم بإخبار الله تعالى في آخر سورة
«الفتح» بقوله «سيماهم في وجوههم من أثر السجود» .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ

إِحْفَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿ ٢٧٣ - البقرة (٢)

الْحَفِّ السَّائِلُ إِحْفَافًا: الْحَفُّ، أَوْ طَلَبُ الْمَسْأَلَةِ (الصدقة) وهو مستغن عنها، فهو مُلْحَفٌ. والإحلاف: الإلحاح، وأن لا يفارق السائلُ المسئولَ إلا بشيءٍ يُعْطَاهُ. وهو من قولهم: لحفتني من فضل لحافه أى أعطاني من فضل ما عنده.

«إحفاً»: مصدر فى موضع الحال، أى مُلْحَفِينَ. واشتقاق الإحلاف من اللحاف، سُمِّيَ بذلك لا شتماله على وجوه الطلب فى المسألة كاشتغال اللحاف من التغطية، أى أن هذا السائل يعم الناس بسؤاله فيلحفهم ذلك.

وجمهور المفسرين على أن معنى «لا يسألون الناس إحفاً» أى لا يسألون البتة، فهم متعففون عن المسألة عفة تامة. وقال قوم: المراد نفى الإحلاف أى يسألون غير ملحفين، وهذا أول ما يتبادر إلى الذهن.

وفى الآية تنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إحفاً. فعن النبى ﷺ: «إن الله تعالى يحب الحىء الحليم المتعفف، ويبغض البذى السئال الملحف». وفى صحيح مسلم عن معاوية بن أبى سفيان أن النبى ﷺ قال: «لا تُلحفوا فى المسألة فوالله لا يسألنى أحد منكم شيئاً فتُخرج له مسألته منى شيئاً وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته» وفى حديث أبى سعيد الخدرى: «من استعَفَّ أَعَفَّهُ اللهُ». وحديث أبى ذر عن النبى ﷺ قال له: «تَعَفَّفْ».

والإلحاح فى المسألة والإحلاف فيها، مع الغنى عنها، حرام لا يحل. قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو لىستكثر» رواه أبو هريرة فى صحيح مسلم. وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: «لا تَرَأل المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مُزعة^(١) لحم» رواه مسلم أيضا.

وأباح النبى ﷺ، سؤال أهل الفضل والصلاح عند الحاجة إلى ذلك. روى أبو داود والنسائى وغيرهما أن الفراسى قال لرسول الله، ﷺ: «أسألُ يا رسول الله؟ قال: «لا وإن كنت سائلاً لا بد فاسأل الصالحين». وإن أوقع السائل حاجته بالله فهو أعلى. قال إبراهيم

(١) المُرْعة: القطعة. هذا المُلْحَف فى السؤال يُحشَرُ ووجهه عَظْمٌ لا لحم عليه عقوبة له.

بن أدهم : سؤال الحاجات من الناس هي الحجاب بينك وبين الله تعالى ، فأَنْزَلَ حاجتك بمن يملك الضرُّ والنفع ، وليكن مفزَعُكَ إلى الله تعالى يكفيك اللهُ مأسواه وتعيشَ مسرورا .
أما إذا جاء الإنسانَ شيءٌ من غير سؤال فله أن يقبله ولا يرده ، إذ هو رزق رزقه الله . وفى ذلك ما قاله النبي ﷺ لسيدنا عمر بن الخطاب : « ما كان من غير مسألة فإنما هو رزق رزقك الله » .

الآية ترسم صورة عميقة الإيحاء لذلك النموذج الكريم الذى يتعفف عن السؤال رغم الحاجة . وكل جملة إنما هي لمسة ريشة ترسم ملمحا وتبين سمة أو انفعالا ، وبعد إتمام قراءة الآية تتجلى الوجه نابضة بالحياة .

وختام الآية يوحى بأن يكون العطاء لهؤلاء المتعطفين فى الخفاء ويتلطف لا يخذش إياهم ولا يجرح كرامتهم ؛ فهم ، رغم فقرهم ، كرام يكتمون الحاجة كأنما يغطون العورة - لكن الله يطمئن من يبذل لهم العطاء ، بأنه عليهم بعبائهم ومجازيهم عليه ، فهو يعلم السر ولا يضيع عنده الخير : « وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

﴿ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ

الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾

٢٧٥ - البقرة (٢)

« يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ » يَتَخَبَّطُهُ وَيَصْرَعُهُ بِسَبَبِ مَسِّ إِيَّاهُ . وَفِي « الْمَعْجَمِ الْوَسِيطِ » : خَبَطَ الشَّيْطَانُ فَلَانًا وَتَخَبَّطَهُ : أَصَابَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَنُونِ وَالصَّرْعِ . كَانَ الْعَرَبُ يَزْعُمُونَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَخْبِطُ الْإِنْسَانَ فَيُصْرَعُ ، وَالخَبْطُ الضَّرْبُ عَلَى غَيْرِ اسْتِوَاءِ كَخَبْطِ الْعَشْوَاءِ ، فُورِدَ التَّعْبِيرُ عَلَى مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ .

وَالْمَسُّ : الْجَنُونُ ، وَمِنْهُ رَجُلٌ مَمْسُوسٌ ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ زَعْمَاتِ الْعَرَبِ ، يَزْعُمُونَ أَنَّ الْجَنِيَّ يَمَسُّ الرَّجُلَ فَيَخْتَلِطُ عَقْلَهُ (أَيْ يَقْسُدُ) . وَكَذَلِكَ جُنَّ الرَّجُلُ مَعْنَاهُ ضَرَبَتْهُ الْجِنُّ .

وَمَعْنَى التَّعْبِيرِ أَنَّ الْمُتَعَامِلِينَ بِالرِّبَا الْمُسْتَحْلِينَ لَهُ لَا يَقُومُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَقِيَامِ الْمَصْرُوعِ الَّذِي تَخْبِلُهُ الشَّيْطَانُ وَصْرَعَهُ ، فَهَمْ يَنْهَضُونَ وَيَسْقُطُونَ كَالْمَصْرُوعِينَ ، لِأَنَّهُمْ أَكَلُوا الرِّبَا فَأَرَبَاهُ اللَّهُ فِي بَطُونِهِمْ حَتَّى أَثْقَلَهُمْ ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِيْفَاضِ (أَيْ الْعُدُوِّ وَالْإِسْرَاعِ) - وَتِلْكَ سِيْمَاهُمْ يَعْرِفُونَ بِهَا عِنْدَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ . قَالَ الْإِمَامُ الْقِفَالُ : هُوَ تَشْبِيهُ جَاءَ عَلَى مَا تَعَارَفُوهُ (أَيْ الْعَرَبِ) مِنْ إِضَافَةِ الصَّرْعِ وَكُلِّ شَيْءٍ قَبِيحٍ إِلَى الشَّيْطَانِ .

وَجُمْهُورُ الْمُفْسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْقِيَامِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ الْمَفْزَعَةُ هُوَ الْقِيَامُ يَوْمَ الْبَعْثِ ، لَكِنَّا نَرَى فِي هَذِهِ الصُّورَةِ وَاقِعَةً وَقَائِمَةً فِي حَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تَتَخَبَّطُ كَالْمَسُوسِ فِي ظِلِّ النِّظَامِ الرَّبُوبِيِّ .

فَالْمَجْتَمَعُ الَّذِي يَقُومُ كُلُّهُ عَلَى الْأَسَاسِ الرَّبُوبِيِّ أَهْلُهُ كُلُّهُمْ مَلْعُونُونَ ، وَمَعْرُضُونَ لِحَرْبِ اللَّهِ وَمَطْرُودُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ . إِنَّهُمْ لَا يَقُومُونَ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا قِيَامَ الْمَسُوسِ الْمَضْطَّرِّ ، الْقَلْقُ الْمَتَخَبِّطُ ؛ الَّذِي لَا يَنَالُ اسْتِقْرَارًا وَلَا رَاحَةً وَلَا طَمَئِينَةً - إِنَّ الْعَالَمَ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ الْيَوْمَ هُوَ ، بِإِجْمَاعِ الْجَمِيعِ ، عَالَمُ الْقَلْقِ وَالْاضْطْرَابِ وَالْخَوْفِ ، وَالْأَمْرَاضِ الْعَصِيبَةِ وَالنَّفْسِيَّةِ . وَمَا فَائِدَةُ الْحَضَارَةِ الْمَادِيَّةِ وَالرِّخَاءِ الْمَادِيِّ إِذَا لَمْ يَنْشِءْ فِي النَفُوسِ السَّعَادَةَ وَالرِّضَى وَالْإِسْتِقْرَارَ وَالطَّمَئِينَةَ ؟ إِنَّهَا الشَّقْوَةُ الْبَائِسَةُ وَالنَّكَدُ الْمُنْكَوَدُ .

وَيَتَّفَقُ مَعَ هَذَا مَا قَالَهُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَسِّ الشَّيْطَانِ : دَعَاؤُهُ إِلَى طَلْبِ الْمَلذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ وَالِاسْتِغْثَالَ بِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمِنْ اسْتِجَابِ لَهُ كَانَ مَتَخَبَّطًا فِي أَمْرِ الدُّنْيَا .

وَالَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَيْسُوا هُمْ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الْفَائِدَةَ الرَّبُوبِيَّةَ وَحَدَّهُمْ - وَإِنْ كَانُوا هُمْ أَوَّلَ الْمُهْدِدِينَ بِهَذَا النَّصِّ الْمَرْعَبِ - وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ الْمَجْتَمَعِ الرَّبُوبِيِّ كُلِّهِمْ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، أَكَلَ الرِّبَا وَمَوْكَلَهُ ، وَشَاهِدِيهِ وَكَاتِبَهُ ، وَقَالَ : « هُمْ سِوَاءٌ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ .

﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴾ ٢٨٠ - البقرة (٢)

المعنى : وإن كان ذو عسرة أى ذو ضيق وعسر مالى لدينا لكم ، فنظرة أى فيجب إمهاله إلى ميسرة أى إلى أن يوسع الله عليه .

والعُسْرَةُ : ضيق ذات اليد ، والعجز عن الوفاء بالدين ، من الفعل عَسَرَ الأمر والزمان : صَعِبَ واشتد .

والنَّظِرَةُ : الانتظار ، من الفعل نَظَرَ ينظره نَظْرًا ونَظْرًا : أخره وأمهله .

والمَيْسَرَةُ : مصدر ميمي وهى السهولة ، وهى الغنى والثراء من الفعل يَسَرَ فلانٌ يَسَرًا وَيُسِرًا : استغنى .

يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لا يجد وفاء أى لا يجد ما يسد به الدين الذى عليه . واستنبط جمهور العلماء من هذه الآية وجوب إنظار المعسر وإمهاله حتى يُيسَّرَ الله عليه ، سواء أكان لدينا فى دين ربا أو غيره ، لأن الآية برفع « ذُو عُسْرَةٍ » معناها : وإن وقع فى الدين ذو عسرة من الناس .

وكان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه ، إذا حلَّ عليه الدين : إما أن تُقضى (أى تسدد الدين) وإما أن تُرَبَّى أى تدفع الربا زيادة على ما أخذت .

وروى فى سبب نزول الآية أن ثقيفا لما طلبوا أموالهم من بنى المغيرة ، شكابنو المغيرة العسرة . وقالوا : ليس لدينا مال ندفعه لكم ، فأمهلونا إلى وقت طيب الثمار ، فأبوا أن يمهلوهم ، فنزلت الآية بوجوب إنظار المعسر .

وتحجب الآية وتندب إلى الوضع عن المعسر أى التنازل عن بعض أو كل ما عليه من دين ، وتعدُّ على ذلك الخير والثواب الجزيل ، فقال تعالى : « وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » أى : وإن تصدقوا على المعسر بكل ما لكم عليه أو ببعضه فهو خيرٌ وأكثر ثوابا لكم من إنظاره ، فإن المعسر بحاجة إلى البر والمعونة أكثر من الإمهال ليسد عوزه ويطعم أهله ويكسوهم .

وقد وردت فى فضل ذلك أحاديث كثيرة . روى الطبرانى عن أبى أمامة أسعد ابن زرارَةَ قال قال رسول الله ﷺ : « من سرَّه أن يُظِلَّه الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه » . وروى الإمام أحمد عن بريدة قال : قلت سَمِعْتُكَ يا رسول الله تقول : « من

انظر مُعسراً فله بكل يوم مثله صدقة^(١) ، ثم سمعتك تقول : « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة » فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : « له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين^(٢) . فإذا حلّ الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة » .

وروى مسلم في صحيحه قول النبي ﷺ : « من نفّس عن غريمه^(٣) أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة » . أخرج البخارى ومسلم وابن ماجه عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال : ماذا عملت لى فى الدنيا ؟ فقال : ما عملت يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها - قالها ثلاث مرات - قال العبد عند آخرها : يارب إنك كنت أعطيتنى فضلاً^(٤) مال وكننت رجلاً أبايعُ الناس ، وكان من خلقى الجواز^(٥) فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر ، قال فيقول الله عز وجل : أنا أحق من يُيسر ، ادخل الجنة ! » وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ « من أراد أن تستجاب دعوتُهُ وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » .

إنها السماحة الندية التى يحملها الإسلام للبشرية ، إنه الظل الظليل الذى تأوى إليه البشرية المتعبة المنهكة فى هجير الأثرة والشح والطمع والتكالب والسعار ، إنها الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذى يظل الجميع .

إن المعسر - فى الإسلام - لا يُطارَد من صاحب الدين أو من المحاكم ، إنما يُنظر حتى يوسر . ثم إن المجتمع المسلم لا يترك هذا المعسر وعليه دين ، فالنص القرآنى جعل لهذا المدين المعسر - أى الغارم - حظاً من مصارف الزكاة ليؤدى دينه وييسر حياته ؛ ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ٦٠ - التوبة ، والغارمون هم أصحاب الديون الذين لم ينفقوا ديونهم على شهواتهم ولذائذهم ، إنما أنفقوها فى الطيب النظيف ، ثم قعدت بهم الظروف !

(١) حلّ الدين حُلُولاً : وَجَبَ أدَاؤُهُ . (٢) نفّس : فرّج ، والغريم : المدين ، ومحا عنه : تنازل له عن الدين .

(٣) الفضل : الزيادة .

(٤) أى التساهل والتسامح فى البيع والاقترض . أو ما يُعطاه المدين المعسر من مهلة حتى يتيسر له السداد . وفى لسان العرب : تجاوز الله عنه أى عفا وقولهم : اللهم تجاوز عنى وتجاوز عنى بمعنى .

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ

وَأَقُومٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ ٢٨٢ - البقرة (٢)

« أَقُومٌ لِلشَّهَادَةِ » : أَعُوذُ عَلَىٰ إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ . وَأَفْعَلُ التَّفْضِيلَ (أَقُومٌ) مِنْ قَوْمٍ أَيْ الْحَسَنُ الْقِيَامُ بِالْأُمُورِ ، مِنْ الْفِعْلِ أَقَامَ الشَّيْءَ : أَنْشَأَهُ مُؤَفًى حَقَّهُ .

فهذا الذى أمرناكم به من كتابة الدين أو الحق ، صغيراً أو كبيراً ، قليلاً أو كثيراً ، أعدلُ عند الله ، وأعوذُ على أداء الشهادة على وجهها . فهو أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة ، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه كما هو الواقع فى أغلب الأحيان . فالشهادة على مكتوب أقوى من الشهادة الشفوية التى تعتمد على الذاكرة وحدها .

الآية تؤكد ضرورة كتابة الدين - كبر أم صغر - وتعالج ما قد يخطر للنفس من استئصال الكتابة بحجة أن الدين صغير لا يستحق الكتابة أو لدواعى التجميل والحياء أو الكسل .

وتورد الآية أسباب التشديد فى وجوب الكتابة : « وَلَا تَسْأَمُوا » ، فيها إدراك لانفعالات النفس حين تحس أن تكاليف العمل أضخم من قيمته ؛ « ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » أى أعدل وأفضل ، وهو إحياء بأن الله يحب هذا ويؤثره ؛ « وَأَقُومٌ لِلشَّهَادَةِ » أى أصح وأحفظ ؛ « وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا » أى أقرب إلى انتفاء شككم فى جنس الدين وقدره وأجله ونحو ذلك .

« أَنْ تَكْتُبُوهُ » : فى موضع نصب بالفعل « تَسْأَمُوا » .

« صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا » : حالان من الضمير فى « تَكْتُبُوهُ » ، وقدم الصغير اهتماماً به .

﴿ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ

وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ ٢٨٢ - البقرة (٢)

« أدنى » : أقرب . « ترتابوا » : تشكوا .

أدنى أفعل من الفعل : دنا منه وإليه وله يدنوا دنواً : قُرب ، فهو دان . وترتابوا من الفعل ارتاب فيه وبه : شكَّ ، وأصله الفعل رابه الأمر يُرِيه رِيًّا ورييةً : جعله شاكا .

« وأدنى ألا ترتابوا » : أقرب إلى عدم الريية ، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذى كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريية ولا تشكك ، ولا ارتباك . والتشكك يشمل التشكك فى صحة البيانات التى تضمنها العقد (جنس الدين وقدره وأجله ونحو ذلك) والتشكك فى أنفسكم وفى سواكم إذا ترك الأمر بلا قيد وبلا كتابة .

وهكذا تتكشف حكمة هذه الإجراءات كلها ، ويقتنع المتعاملون بضرورة هذا التشريع الإلهى ودقة أهدافه بما يؤدى إلى إيجاد الثقة والطمأنينة .

(انظر : وأقوم للشهادة)

﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾

﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ

وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ٢٨٢ - البقرة (٢)

بسطت هذه الآية الكريمة تشريع الدين المسمى والتجارة الحاضرة (أى التى لا أجل فيها) ؛ والتقى كلاهما عند شرطى الكتابة والشهادة . والآن تقرر فى نهايتها حقوق الكتاب والشهداء كما قررت واجباتهم من قبل . لقد أوجبت عليهم ألا يأبوا الكتابة أو الشهادة ، والآن توجب لهم الحماية والرعاية ليتوازن الحق والواجب فى أداء التكاليف العامة .

« ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد » بسبب أدائه لواجبه الذى فرضه الله عليه . وإذا وقع فإنه يكون خروجاً منكم عن شريعة الله . وهذا احتياط لا بد منه لأن الكتاب والشهداء معرضون لسخط أحد الفريقين المتعاقدين ، فلا بد من الضمانات التى تطمئنهم على أنفسهم ، وتشجعهم على أداء واجبهم بالذمة والأمانة والحيدة .

وفى نهاية الآية ، على عادة القرآن الكريم فى إيقاظ الضمير واستجاشة الشعور عندما يأمر بالتكليفات - حتى يستمد التكليف دفعته من داخل النفس وليس من مجرد ضغط النص - يدعو المؤمنين إلى تقوى الله فى النهاية : « واتقوا الله » .

« وَلَا يُضَارَّ » من الفعل ضَارَّ مَضَارَّةً وضراراً بمعنى ضَرَّه . ويحتمل البناء للفاعل بدليل قراءة عمر ، رضى الله عنه : « وَلَا يُضَارَّرُ » بفتح الإدغام وكسر الراء الأولى ، ويكون النهى للكاتب وللشاهد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما ، وعن التحريف والزيادة والنقصان ، فإن فى ذلك مضارة وضرراً للمتدائنين .

ويحتمل الفعل « وَلَا يُضَارَّ » البناء للمفعول ، والدليل على ذلك قراءة ابن عباس « ولا يُضَارَّرُ » بفتح الإدغام وفتح الراء الأولى ، ويكون المعنى فى هذه الحالة : نهى المتعاملين عن الإضرار بالكاتب أو الشهيد بتعطيلهما عن أعمال مهمة لهما ، أو بعدم إعطاء الكاتب أجره على الكتابة ، أو تحميل الشاهد مؤونة المجئ من بلده .

قال ابن كثير : لا يضارر الكاتب فيكتب خلاف ما يُملَى ، ولا يضارر الشاهد فيشهد بخلاف ما سمع أو يكتم الشهادة بالكلية ، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما . وقيل معناه لا يُضَرُّ بهما ، أى لا يلحق بهما ضرراً أو أذى .

« وَإِنْ تَفَعَّلُوا » يعنى المضارة ، « فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ » أى معصية ، وقوله « بِكُمْ » تقديره : فسوقٌ حالُّ بكم .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ٢٨٢ - البقرة (٢)

تقوى الله تفتح القلوب للمعرفة ، وتهى الأرواح للتعليم . وهذا وعد من الله - تعالى - بأن من اتقاه علمه ، أى يجعل فى قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه .

فإذا اتقى العبد ربه . وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه وبالخوف منه ومراقبته سبحانه فى كل أعماله - وتركه الشبهات مخافة الوقوع فى المحرمات ، وشحن قلبه بالنية الخالصة وجوارحه بالأعمال الصالحة ، وتحفظ من شوائب الشرك الخفى والظاهر^(١) ، جعل الله فى قلبه ابتداء فرقانا أى فيصلا يفصل به بين الحق والباطل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ٢٩ - الأنفال . ومثله قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ ٢٨ - الحديد ؛ ومعنى كفلين : ضعفين ، والتثنية هنا للكثرة أى يضاعف لكم من رحمته . « ويجعل لكم نورا تمشون به » يعنى هدى يتبصر به من العمى والجهالة .

(١) وإنما يكون الشرك بمرعاة غير الله فى الأعمال .

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾
﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

٢٨٣ - البقرة (٢)

كَتَمَ الشَّيْءَ يَكْتُمُهُ كِتْمًا وَكِتْمَانًا سَتَرَهُ وَأَخْفَاهُ . فَهُوَ كَاتِمٌ وَكْتُومٌ وَكِتَامٌ (١) .
وَلَا تُخْفُوا الشَّهَادَةَ إِذَا دُعِيتُمْ لِأَدَائِهَا . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : « وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ » تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ :
« وَلَا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » بِمَعْنَى يَضَارُّ ، فَهِيَ الشَّاهِدُ عَنْ أَنْ يَضُرَّ بِكِتْمَانِ الشَّهَادَةِ .
وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ وَالْوَالِدِينَ
وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا . . . ﴾
وَالشَّهَادَةُ أَمَانَةٌ فِي عِنَقِ الشَّاهِدِ وَقَلْبُهُ : « وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ » . وَيَتَكَيَّ التَّعْبِيرُ هُنَا
عَلَى الْقَلْبِ ، فَيُنْسَبُ إِلَيْهِ الْإِثْمُ تَنْسِيقًا بَيْنَ الْإِضْمَارِ لِلْإِثْمِ وَالْكِتْمَانِ لِلشَّهَادَةِ ، فَكِلَاهُمَا عَمَلٌ
يَتِمُّ فِي أَعْمَاقِ الْقَلْبِ . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ عَنْ فَائِدَةِ ذِكْرِ الْقَلْبِ هُنَا : كِتْمَانُ الشَّهَادَةِ هُوَ أَنْ
يُضْمَرُهَا وَلَا يَتَكَلَّمُ بِهَا ، فَلَمَّا كَانَ إِثْمًا مَقْتَرَفًا بِالْقَلْبِ أَسَدُّ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ إِسْنَادَ الْفِعْلِ إِلَى
الْجَارِحَةِ الَّتِي يَعْمَلُ بِهَا أَبْلَغُ ؛ وَالْقَلْبُ هُوَ رَأْسُ الْأَعْضَاءِ . جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « أَلَا
وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ
الْقَلْبُ » رَوَاهُ الشَّيْخَانُ . أَلَا تَرَىٰ أَنْ أَصْلَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ الْإِيمَانَ وَالْكَفْرَ ، وَهُمَا مِنْ
أَفْعَالِ الْقُلُوبِ .

فَإِذَا جَعَلَ كِتْمَانُ الشَّهَادَةِ مِنْ آثَامِ الْقُلُوبِ فَقَدْ شَهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ مَعَازِمِ الذُّنُوبِ . وَعَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الشَّرْكَ بِاللَّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى « فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ »
وَشَهَادَةُ الزُّورِ وَكِتْمَانُ الشَّهَادَةِ .

وَإِذَا آثَمَ الْقَلْبُ آثَمَ صَاحِبُهُ ، لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِأَفْعَالِ الْقُلُوبِ . وَلِذَا رُفِعَتِ الْمَوَازِينُ عَمَّنْ يَفْعَلُ
الْمَعْصِيَةَ نَاسِيًا لِأَنَّهُ لَا قَصْدَ لَهُ فِيهَا .

وَيَعْدُ أَنْ تَنْسَبَ الْآيَةُ الْإِثْمَ إِلَى الْقَلْبِ ، تَعَقَّبَ بِتَهْدِيدِ مَلْفُوفٍ : « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » ،
فَلَيْسَ هُنَاكَ خَافَ عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ يَجْزِي عَلَيْهِ . بِمَقْتَضَىٰ عِلْمِهِ الَّذِي يَكْشِفُ الْإِثْمَ الْكَامِنَ فِي
الْقُلُوبِ . وَيَسْتَمِرُّ السِّيَاقُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ فِي تَوْكِيدِ هَذِهِ الْإِشَارَةِ ، وَاسْتِجَاشَةِ الْقَلْبِ لِلخَوْفِ
مِنْ مَالِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا ، الْعَلِيمُ بِمَكُونَاتِ الضَّمَائِرِ خَفِيَّتِ أُمَّ ظَهَرَتْ ،
الْمَجَازِيُّ عَلَيْهَا : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ .

« آثَمٌ » خَبِرَ إِنْ . وَ « قَلْبُهُ » رُفِعَ بِآثَمٍ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : فَإِنَّهُ يَأْثَمُ قَلْبُهُ . وَيَجُوزُ أَنْ
يَرْتَفِعَ قَلْبُهُ بِالْإِبْتِدَاءِ ، وَآثَمٌ خَبِرَ مُقَدَّمٌ ، وَالْجُمْلَةُ خَبِرَ إِنْ .

(١) وَرَبَّمَا عُدِّي كِتْمًا إِلَى مَفْعُولِينَ ، فَيُقَالُ : كِتْمَتَ فَلَانًا الْحَدِيثَ . وَكَاتَمَ السَّرَّ : الْأَمِينَ عَلَى عَمَلٍ ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى السَّكْرَتِيرَ .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ
مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴿ ٧ - آل عمران (٣)

« هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ » أى أصله الذى يُعَوَّلُ عليه فى الأحكام ، ويرجع إليه فى الحلال
والحرام ، ويُرد إليه ما تشابه به من آياته وأشكال من معانيها .
وَأُمُّ كُلِّ شَيْءٍ : أصله وعماده ؛ قال الخليل : كل شىء ضُمَّ إليه سائرُ ما يليه يُسمى فى لغة
العرب أُمًّا . فالآيات المحكمات هى الأصل والمرجع لأحكام القرآن ومعانيه المتشابهة ،
فأطلق عليها : أم الكتاب .

« آيات محكمات » : آيات بينات وواضحات الدلالة ، لا التباس فيها ولا اشتباه ، ولا
تحتمل من التأويل إلا وجهًا واحدًا ، وذلك لإحكام عبارتها . والمحكم اسم مفعول من
أَحْكَمَ ، والإحكام : الإتيان ؛ ولا شك فى أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردد ،
إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته وإتيان تركيبها . والمحكم أصل تُرِدُّ إليه الفروع .

« متشابهات » : محتملات لعدة معان لا يتضح مقصودها ، فاشتبه^(١) أمرها على الناس ، فهى
غير واضحة الدلالة على معانيها بنفسها ، فهذه ترجع - فى أحكامها ومعانيها - إلى ما تقرر فى الآيات
المحكمات ومن ذلك^(٢) قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ وَجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾^(٤) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿^(٥) ، فتحمّل الأولى على معنى : لا تحيط به الأبصار ، وتحمّل
الثانية على معنى أنها تنظر إليه من غير إحاطة . وبردها إلى المحكم وهو قوله تعالى : « ليس كمثله
شئ » وهو السميع البصير^(٥) ، فإنها تقتضى أن النظر إليه - سبحانه - لا يصح أن يكون فيه إحاطة
به ؛ حتى لا يماثل مخلوقاته فى ذلك ، وليتفق هذا التأويل مع ما جاء فى الآية الأولى من أن
الأبصار لا تدرکه سبحانه . وهكذا يُحمّل ما يكون متشابهًا على المحكم .

قال الزمخشري : لو كان القرآن كله محكمًا لأعرض الناس عما يحتاجون فيه إلى
الفحص والتأمل والنظر والاستدلال . ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى
معرفة الله وتوحيده إلا به (وهو التفكير العقلى والتدبر فى الآيات) . ولما فى المتشابه من
الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما فى تقادح العلماء وإتباع القرائح -
فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم - من الفوائد الجليلة والعلوم الجمّة ونيل الدرجات عند
الله . ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ، ولا اختلاف فيه - إذا رأى فيه ما يناقض
ظاهره - وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد ، ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح
الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه للمحكم ، ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة فى إيمانه .

(١) اشتبه الأمر عليه : اختلط . واشتبه فى المسألة : شك فى صحتها .

(٢) انظر : « التفسير الوسيط » ، مجمع البحوث الإسلامية .

(٣) سورة الأنعام من الآية ١٠٣ . (٤) القيامة ، الأيتان ٢٢ ، ٢٣ . (٥) الشورى ، من الآية ١١ .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ
وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ
مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ
وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ ٧ - آل عمران (٣)

« زَيْغٌ » : مِيلٌ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ .

زَاغٌ يَزُوغُ زَوْغًا وَزَوْغَانًا : مَالَ عَنِ الْقَصْدِ ، وَالْقَصْدُ : اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ .

يكشف التعبير أولئك الذين في قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة ، الذين
يتكون الحقائق القاطعة في آيات القرآن المحكمة ويجرون وراء الغيبيات التي يصعب على
الإدراك الإنساني المحدود معرفتها ، وغرضهم أن يصوغوا حولها الشبهات ، ويتعلقوا
بالمتشابهات ابتغاء فتنة الناس عن دينهم ؛ بالتشكيك في كونه من عند الله ، فيزعمون
تناقضه ، ويؤولونه إلى معان توافق مذاهبهم المبتدعة في الدين ، ليحدثوا فرقا تشق وحدة
المسلمين .

والذين يتبعون التشابه فريقتان : فريق من الكفار صرحاء مجاهرون ، يريدون هدم الدين
بزعمهم أنه متناقض مع نفسه ، وفريق منافقون ملحدون منحرفون عن جماعة المسلمين . قال
القرطبي : « الذين في قلوبهم زيغ » تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة .
« ابتغاء تأويله » : أى بغرض تفسيره بما يوافق أهواءهم ، كما قال حسنين مخلوف .

قال القرطبي : متبعو التشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلبا للتشكيك في القرآن
وإضلال العوام كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون في القرآن . فهم بتعلقهم بالآيات
المتشابهات ييغون اللبس على المؤمنين حتى يفسدوا ذات بينهم ويردوا الناس إلى ما فيه هؤلاء
الزنادقة من زيغ وانحراف وضلال .

وقد كان الأئمة من السلف يعاقبون من يسأل عن تفسير الحروف المشكلات في القرآن ،
لأن السائل إن كان ييغى بسؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم
التعزير^(١) . وإن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العتب^(٢) بما اجترم من الذنب ، إذ أوجد

(١) التعزير شرعا : التأديب الذى لا يبلغ الحد الشرعى ، والفعل عزَّره : لامه وأدبه .

(٢) العتب : مصدر عتبت عليه يعتب عتبا وعتابا : لامه وراجعه فيما كرهه منه .

للمنافقين الملحدين سبيلا إلى أن يتمصدا ضعفة المسلمين بالتشكيك والتضليل في تحريف القرآن . ومن ذلك أن صبيغ بن عسل كان يتعنّتُ الناسَ بسؤالات في مُشكَل القرآن ، ولما قدم المدينة ، جعل يسأل عن متشابه القرآن ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعد له عراجين^(١) من عراجين النخل . وقام إليه عمر فضرب رأسه بعرجون فشجه ، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه ، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين ! فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي . ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة وقذفها في قلبه فتاب وحسنت توبته .

(١) العذق ، وهو من النخل كالعنقود من العنب .

﴿ لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾

﴿ رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَّابُ ﴾ ٨ - آل عمران (٣)

زَاغَ يَزُوعٌ زَوْعًا وَزَوَّعَانَا : مال عن القَصْدِ (والقَصْدُ الاستقامة والرشاد) .
وَأَزَاعَهُ : جعله يزوع .

ويقال : إزاعة القلب فسادٌ وميلٌ عن الدين .

والمعنى : ياربنا لا تملُ قلوبنا عن نهج الحق بتأويل المتشابه تأويلا لا ترضيه ، وهذا المعنى مرتبط بما جاء في الآية السابقة من قوله تعالى : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » . ومن الممكن أن يكون المعنى : ياربنا لا تفتننا ولا تبلينا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا .

روى الترمذى من حديث شهر بن حوشب قال قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت : كان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . فقلت يا رسول الله ، ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال : « يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ » .

روى أبو داود والنسائي عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضی الله عنها أن رسول الله ﷺ ، كان إذا استيقظ من الليل قال : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك اللهم زدنى علما ولا تُرْغِ قلبي بعد إذ هديتني وهب لى من لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ .

والقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال ، قيمة الرؤية الواضحة بعد الغش ، قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة ، قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده . ويدرك القلب المؤمن أن الله منحه بالإيمان كل هذا الزاد - ومن ثم يشفق من العودة إلى الضلال ، كما يشفق السائر فى الدرب المستقيم المنير أن يعود إلى التخبط فى المنعرجات المظلمة ، وكما يشفق من ذاق نداوة الضلال أن يعود إلى قيظ الهجير ، وهكذا يتجه المؤمنون إلى ربهم بهذا الدعاء الخاشع : ﴿ رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ .

قرأ أبو واقد الجراح : ﴿ لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا ﴾ بإسناد الفعل إلى القلوب ، وهذه رغبة إلى الله تعالى (١) .

(١) وفى الموطأ عن أبى عبد الله الصنابحي أنه صلى وراء أبى بكر الصديق فسمعه يقرأ بأب القرآن وهذه الآية ﴿ رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا ﴾ الآية .

قال العلماء : قراءته بهذه الآية ضربٌ من القنوت والدعاء لما كان فيه من أمر أهل الردة . والقنوت جائز فى المغرب عند جماعة من أهل العلم ، وفى كل صلاة إذا دهم المسلمين أمر عظيم يفرعهم ويخافون منه على أنفسهم .
(انظر : تفسير القرطبي)

﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ

وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ١١ - آل عمران (٣)

دَابَّ فِي الْعَمَلِ وَغَيْرِهِ يَدَابُّ دَابًّا وَدَابًّا وَدُؤُوبًا : جَدَّ فِيهِ وَدَاوَمَ عَلَيْهِ (١) .

والدائبان : الليل والنهار .

والدَّابَّ : العادة والشأن والحال .

« كذاب آل فرعون والذين من قبلهم » أى حال هؤلاء الذين ورد ذكرهم فى الآية السابقة : ﴿إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار﴾ فى الكفر واستحقاق العذاب كحال آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم .

فالكاف فى موضع رفع تقديره : دأبهم كذاب آل فرعون . وقال ابن عرفة والأزهري : اعتاد هؤلاء الكفرة الإلحاد والإعنات للنبي ﷺ ، كما اعتاد آل فرعون من إعنات الأنبياء .

والمعنى الإجمالى للآية : أن الكافرين لن تغنى عنهم الأموال ولا الأولاد بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من الذين كذبوا الرسل وما جاءوا به من معجزات وبراهين وأدلة على وجود الله ووحدانيته .

أما قوله فى سورة الأنفال : « كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم » الآية ٥٢ فالمعنى : جوزى هؤلاء بالقتل والأسر كما جوزى آل فرعون بالغرق والهلاك .

(١) قال امرؤ القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تأسف أسى وتحمّل

كذابك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بما سأل

أم الحويرث وأم الرباب : امرأتان كان يشبب بهما فى أشعاره . ومأسل : موضع والمعنى : كما تدك فى أم الحويرث وأم الرباب حين أهلكت نفسك فى حبها وبكيت دارها ورسمها .

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ ١٤ - آل عمران (٣)

يخبر تعالى عما زُينَ للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ والشهوات .

« زَيْنَ لِلنَّاسِ » : صياغة الفعل للمجهول تشير إلى أن التركيب الفطري للناس قد تضمن هذا الميل إلى الشهوات ، فهو مُحَبَّبٌ ومُزَيَّنٌ ، وهو ضروري لحفظ الحياة البشرية وامتدادها . والإسلام لا يشير بكبت هذه الشهوات وقتلها ، ولكن يشير إلى ضبطها وتخفيف حدتها ، وإلى أن يكون الإنسان مسيطراً عليها ، لا أن تكون هي المسيطرة عليه . فالإسلام يمتاز بمراعاة الفطرة البشرية وقبولها بواقعها ؛ وهو يحاول تهذيبها ورفعها ، لا كبتها وقمعها .

ومن ثم يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان : النساء والبنين والأموال المكدسة والخيول المسمومة والأرض المخصبة والأنعام في آية وفي الآية التالية يعرض لذائد أخرى في الحياة الآخرة : جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله - هذه المتع الأخروية الخالدة ينالها من يضبطون أنفسهم في هذه الحياة الدنيا عن الاستغراق في شهواتها القريبة ؛ هؤلاء هم المتقون الذين كان خوف الله وذكره في قلوبهم ، وشعور التقوى يهذب الروح والحس معا ، فلا تغرق النفس في الشهوات ولا تنساق فيها كالبهيمة : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد (١) » بصير بحقيقة فطرتهم وما ركب فيها من ميول ونوازع ، بصير بما يصلح لهذه الفطرة من توجيهات وإيحاءات ، بصير بتصرفها في الحياة الدنيا وما بعد الحياة الدنيا .

والشهوَات جمع شهوة ، وهى المشتهيَات (٢) واتباع الشهوات مُردٌ وطاعتها مهلكة . وفى صحيح مسلم : « حُصَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُصَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تُنال إلا بقطع مفاوز (٣) المكاره والصبر عليها ، وأن النار لا يُنجى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها .

(١) الآية التالية رقم ١٥ من ذات السورة طبعاً .

(٢) قال الزمخشري : جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتتة محروصاً على الاستمتاع بها . يريد

إلحاقها بباب : رجلٌ صومٌ وفطرٌ ، مما يوضع فيه المعنى موضع الأسم مبالغة .

(٣) مَقَاوِزُ : جمع مفازة ، وهى هنا بمعنى الصحراء .

وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، كما ثبت في الصحيحين ، البخارى ومسلم ، أن الرسول ﷺ قال : « ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء » . ففتنة النساء أشد من جميع الأشياء . ولأنهن قد خلقتن من الرجل ، فهمتهن في الرجل والرجل خلق فيه الشهوة وجعلت سكنانه ؛ فغير مأمون كل واحد منهما على صاحبه . أما إذا كان القصد بهن الإعفاف بالزواج منهن وصولاً إلى العفة والبعد عما لا يحل وإلى كثرة الأولاد ، فهذا مطلوب مرغوب فيه ، مندوب إليه ، كما وردت الأحاديث بالترغيب فى التزويج والاستكثار منه ، وقوله ﷺ : « الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » . ولهذا حثَّ النبي ﷺ ، على البحث عن ذات الدين عند اختيار الزوجة ، فقال : « عليك بذات الدين تربت (١) يدك » أخرجه مسلم عن أبى هريرة .

« والبنين » : المراد الأولاد مطلقاً ، والتذكير للتغليب . وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة ، فهو داخل فى هذا ؛ وتارة يكون لتكثير النسل ، وتكثير أمة محمد ﷺ ، ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح كما ثبت فى الحديث : « تزوجوا الولود الولود فإنى مكاثركم بكم يوم القيامة » .

« والقناطير المقنطرة » : القناطير جمع قنطار ، وهى فى التعريف القاموسى مائة رطل ، ويطلق أحياناً على المال الكثير بغير عدد ، وهو المراد كما أخرجه ابن جرير عن الضحاك . ووصف القناطير بالمقنطرة للمبالغة ، فمن عادة العرب أن يصفوا الشيء بما يشق منه للمبالغة والتوكيد ، فيقولون : ألف مؤلفة ، ودرهم مُدْرَهْمَةٌ ، وظل ظليل . وصيغة « القناطير المقنطرة » تلقى ظلاً خاصاً هو النهم الشديد لتكديس الذهب والفضة ، ذلك أن التكديس ذاته شهوة . وحب المال تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الفقراء ، فهذا مذموم . وتارة يكون للنفقة فى القربات وصلة الأرحام ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح شرعاً .

« والخيل المسومة » أى الراعية فى المروج ، يقال : سَوَّم ما شَيْتَهُ إذا أرسلها فى المرعى . أو المظَهْمَةُ الحسان من السَّيْمَا بمعنى الحسن . أو المعلِّمة ذات الغُرَّة من السمَّة بمعنى العلامة . وسيمت خيلاً لاختيالها فى مشيتها . والخيل : اسمُ جَمْعٍ كرهط .

« والأنعام والحِث » أى المزروعات ، وهو مصدر حِثَّ يحِثُّ حِثًّا (٢) .

(١) تَرَبَّ الرجلُ : افتقر ، أى لصق بالتراب . وأترب إذا استغنى . وهذه الكلمة جارية على السنة العرب ، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ولا وقوع الأمر به ؛ كما يقولون : قاتله الله فى مقام الثناء والمدح .

(٢) ومعنى حَرَثَ : أثار الأرض لزراعتها . والحِثُّ مصدر سُمِّي به كل ما يُحْرَث ، ويقع اسم الحراثة على زرع الحبوب وعلى البساتين وعلى غير ذلك من أنواع الفلاحة .

« حُسْنُ الْمَأْبِ » : المرجع الحسن وهو الجنة ، فهي الأحق بالرغبة فيها لبقائها دون متع الدنيا الفانية .

روى ابن حرير عن ابن سعد قال قال عمر بن الخطاب : لما نزلت « زين للناس حب الشهوات » قلت : الآن يارب حين زيتتها لنا فنزلت ﴿ قل أُوْنِبْتُكُمْ بخير من ذلكم للذين اتقوا ﴾ الآية ١٥ ، وبهذا قال تعالى : ﴿ قل أُوْنِبْتُكُمْ بخير من ذلكم ﴾ أى قل يا محمد للناس : أخبركم بخير مما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذى هو زائل لا محالة ، ثم أخبر عن ذلك فقال : « للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ﴿ خالدین فیها ﴾ أى ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولا ، ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ أى من الدنس والخبث والأذى ، « ورضوان من الله » أى يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدا .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ ١٩ - آل عمران (٣)

المعنى : إن الملة التي يرضاها الله هي الإسلام ، فلا يُقبل من أحد دين غيره : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ٨٥ / آل عمران . فليس لأحد من أهل الكتاب أن يتمسك بملته بعدما أنزل الله القرآن ناسخا لما قبله من الأديان والشرائع .

والإسلام هو الاستسلام والانقياد إلى الله تعالى والدخول في طاعته . يقال : أسلم أى انقاد واستسلم ، وأسلم أمره لله : سلّمه إليه . قال القرطبي : والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات ، والأصل في مسمى الإيمان والإسلام التغير ، وقد يكون بمعنى المرادفة ، فيسمى كل واحد منهما باسم الآخر ؛ كما في حديث وفد عبد القيس وأنه ﷺ أمرهم بالإيمان وحده وقال : « هل تدرون ما الإيمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمساً من المغنم » .

والإسلام ليس مجرد راية ، وليس مجرد كلمة تقال باللسان ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد في الصلاة والحج والصيام ، وإنما هو - بالإضافة إلى ذلك وقبل ذلك - الاستسلام والطاعة والاتباع أى تحكيم كتاب الله في أمور العباد . فالله وحده هو الذى يتعبده الناس ، وهو وحده الذى يضع لهم القيم والموازين والتعليمات التى يقيمون حياتهم عليها . على أن يكون هذا الاستسلام لله تاما بحيث لا يبقى معه شىء فى نفوس العباد ولا فى حياتهم خارجا عن سلطان الله .

﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ ﴾



﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ ٢٠ - آل عمران (٣)

« وجهي » بمعنى : ذاتي ، وعبر بالوجه عن سائر الذات لأن الوجه أعلى وأكرم ما في الإنسان ، وأشرف الأعضاء وأجمعها للحواس ، وهو ترجمان النفس وعليه تظهر آثارها .

وإسلام الوجه كناية عن استسلام الطاعة والاتباع ، فهي صورة الانقياد الطائع الخاضع المتبع . قال ابن كثير في تفسير هذا التعبير : أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ، ولاند له ، ولا ولد ولا صاحبة له . وقال الزمخشري : أخلصت نفسي وجملتي لله وحده لم أجعل فيها لغيره شركاء .

وتسمية الذات بالوجه هو من إطلاق اسم الجزء على الكل لأهميته ؛ وقد قال حذاق المتكلمين في قوله تعالى ﴿ وَيَقِيْ وَجْهَ رَبِّكَ ﴾ ^(١) إنها عبارة عن الذات .

« وَمَنِ اتَّبَعَن » : مَنْ في محل رفع عطفًا على التاء في قوله « أسلمت » أي ومن اتبعن أسلم أيضاً ^(٢) . والتعبير بالاتباع ذو مغزى هنا ، فليس هو مجرد التصديق - إنما هو الاتباع .

(١) من الآية ٢٧ - الرحمن .

(٢) ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فتكون مَنْ مفعولاً معه .

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ٢٨ - آل عمران (٣)

وكيَ فَلَائِنَا ووالاه : أَحَبَّهُ وَنَصَرَهُ . والمُوَالاة تُطلق على الحب والصدقة والمباينة بالأسرار ، وتطلق أيضا على النصرة .
أولياء : أصدقاء ، أو أنصار .

معنى التعبير : لا يحل للمؤمنين أن يوالوا الكافرين ، بأى معنى من معانى الموالة . ومن يفعل ذلك فليس من دين الله فى شىء . وقد تكرر النهى عن موالة المؤمنين للكافرين فى عديد من آى القرآن ، لخطورة تلك الموالة على كيان المؤمنين الذين يترصب بهم الكافرون الدوائر ، ويبغونهم الفتنة . وفى المسلمين سماعون لهم ، وهم المنافقون وضعاف النفوس . من ذلك قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا (١) ... ﴾ ١١٨ - آل عمران ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٢) ﴾ ١٤٤ - النساء ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ٥١ - المائدة ، وقوله : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (٣) ﴾ ٢٢ - المجادلة ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ١ - الممتحنة .

فعلى المؤمنين أن يحذروا موالة الكافرين حتى يأمنوا شهرهم ، فإن الموتور لا تخدم فى نفسه جذوة الحقد على وتر ، ولا يبغي لواتره سوى الشر . وعلى المؤمنين أن يقصروا موالاتهم على المؤمنين ، لا يتجاوزونهم إلى الكافرين « إلا أن تتقوا منهم تقاة » أى إلا أن تخافوا من جبهتهم أمرا يجب اتقاؤه ، من الضرر فى النفس أو المال أو العرض ، وذلك إذا كان الكفار غاليين ظاهرين . (انظر تعبير : « تتقوا منهم تقاة » .

والمحبة فى الله والبغض فى الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان .

- (١) « لا يألونكم خبالاً : لا يقصرون ولا يدخرون وسعا فى إنزال الخبال (أى الشر والفساد بكم - والمعنى : لا تتخذوا من غير المسلمين أصدقاء تجعلونهم مواضع سرهم ومشورتكم لأنهم لا يدخرون وسعا فى إلحاق الشر بكم .
- (٢) سلطانا مبينا : حجة ظاهرة . والمعنى : أتريدون - بموالة الكفار - أن تكون لله عليكم حجة واضحة فى عذابكم إذ أنكم اتخذتم أعداءه أولياء لكم .
- (٣) يوادون : يكونون لهم المودة . حاد الله : عصاه .

« فليس من الله فى شىء » أى فليس من حزب الله ولا من دينه ولا من أوليائه فى شىء ،
يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً ؛ قال الزمخشرى : وهذا أمر معقول ، فإن موالة الوالى
وموالة عدوه متنافيان ، قال الشاعر :

تَوَدُّ عَدُوِّى ثُمَّ تَزَعُمُ أَنْنى صديقك ليس التَّوَكُّعُ عنك بعازب (١)

« ويحذركم الله نفسه » : فلا تتعرضوا لسخطه بموالة أعدائه ، وهذا وعيد شديد .

سبب النزول : كان بعض اليهود يباطنون (٢) نفرأ من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال
لهم بعض الصحابة : اجتنبوهم واحذروا مباططتهم ، لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبوا إلا
ملازمتهم ، فنزلت الآية . أى لا تتخذوا لكم أنصاراً وبطانة من الكافرين تاركين إخوانكم
المؤمنين .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت فى عبادة بن الصامت الأنصارى ، وكان بدرىا
نقييا . وكان له حلف من اليهود ، فلما خرج النبى ﷺ يوم الأحزاب ، قال عبادة : يا نبى الله ،
إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو ،
فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء... ﴾ الآية .

(١) التوك : الحُتمق ، بعازب : يبعيد .

(٢) كانوا لهم بطانة يظلمون على أسرارهم .

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ٢٨ - آل عمران (٣)

وَقَى الشَّيْءَ يَقِيهِ وَقِيًّا وَوَقَايَةٌ صَانَهُ عَنِ الْأَذَى وَحَمَاهُ وَاتَّقَى الشَّيْءَ : حَذَرَهُ وَتَجَنَّبَهُ .
و « تُقَاةً » مَصْدَرُ تَقَيْتُهُ - مِثْلُ رَمَيْتُهُ - بِمَعْنَى اتَّقَيْتَهُ ، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ تُقَاةٌ مَفْعُولًا مَطْلُوقًا ،
والتقدير : إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ اتَّقَاءً ، فَوَقَعَتْ كَلِمَةُ تَقَاةٌ مَوْقِعَ اتَّقَاءٍ ، وَكِلَاهُمَا مَصْدَرٌ وَالْعَرَبُ
تُنِيبُ الْمَصَادِرَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ .

ويمكن أن تكون « تُقَاةً » مفعولا به بمعنى الأمر الذي يُتَّقَى وَيُتَّجَنَّبُ وَيُحَذَرُ .
« إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تَقَاةً » : إِلَّا أَنْ تَقُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَجَنَّبُوا أَمْرًا يَجِبُ اتَّقَاؤُهُ وَتَجَنُّبُهُ كَالضَّرَرِ
فِي النَّفْسِ أَوْ الْمَالِ أَوْ الْعَرَضِ - وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْكُفَّارُ غَالِبِينَ ظَاهِرِينَ . أَوْ كُنْتُمْ فِي قَوْمٍ كُفَّارٍ ؛
فَيُرْخِصُ لَكُمْ فِي مَدَارَاتِهِمْ بِاللِّسَانِ ، عَلَى أَلَّا تَنْطَوِي قُلُوبَكُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَوَدَّتِهِمْ ^(١) ، وَعَلَى
أَلَّا تَعْمَلُوا مَا هُوَ مُحْرَمٌ كَشْرَبِ الْخَمْرِ وَإِطْلَاعِهِمْ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْإِنْحِيَازِ إِلَيْهِمْ فِي
مَجَافَاةِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَا رِخْصَةَ إِلَّا فِي الْمَدَارَاةِ بِاللِّسَانِ .

وجاء في تفسير القرطبي : إن المؤمن إذا كان قائما بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا
كان خائفا على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان .
والتَّقِيَّةُ لَا تَحِلُّ إِلَّا مَعَ خَوْفِ الْقَتْلِ أَوْ الْقَطْعِ أَوْ الْإِيذَاءِ الْعَظِيمِ .

قال معاذ بن جبل ومجاهد : كانت التقية في جدّة الإسلام قبل قوة المسلمين ؛ فأما اليوم
فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم .
وقال الحسن : التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة .
قرأ جابر بن زيد ومجاهد : « إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تَقِيَّةً » .

(١) بل تدارونهم وأنتم لهم كارهون .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ٦٤ - آل عمران (٣)

السَّوَاءُ : العدل والنَّصْفَةُ . قال زهير :

أرونى خُطَّةً لاَ عيبَ فيها يُسَوِّى بيننا فيها السَّوَاءُ

والسواء : المستوى ، سَوَّى بينهما سَوَاءً : ساوى بينهما . وكلمة سواء : كلمة يقف الجميع أمامها على مستوى واحد .

والخطاب إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم : تعالوا للعمل بكلمة ^(١) نستوى نحن وأنتم فيها ، وهى كلمة عادلة مستقيمة ، نعمل بها جميعا ولا نختلف فيها . وفسر هذه الكلمة بقوله : « ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا » . وهى كلمة لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل - إذ دعت هذه الكتب كلها إلى التوحيد ، فالتوحيد مبدأ مشترك بين جميع الأديان : قامت عليه الأدلة العقلية إلى جانب الأدلة النقلية .

معنى التعبير : قل يا محمد لأهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة عدل أو كلمة مستوية بيننا وبينكم لا تختلف فيها كتبكم (التوراة والإنجيل) وكتابنا (القرآن) ، بل هى كلمة لا اختلاف فيها فى كل الشرائع - تلکم هى كلمة التوحيد : « ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا » لا صنما ولا كوكبا ولا نارا ولا ملائكة ولا غير ذلك ، « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » فلا يتخذ اليهود عزيزا ابنا لله ، ولا يتخذ النصارى المسيح ابنا لله ، ولا يقولوا ثالث ثلاثة ، لتستوا بذلك مع المسلمين الذين لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

(١) والكلمة تطلق على الجملة المفيدة .

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ

عَلِيمٌ ﴾ ٩٢ - آل عمران (٣)

البر : الجنة : ، قاله ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد والسُّدِّي .

والبر ، فى الأعم ، هو كل خير وإحسان فى الدنيا والآخرة يمنحه الله تعالى لعباده .

والإنفاق البذل والمراد به هنا ما يشمل الزكاة ، وصدقة التطوع ، والأوقاف الخيرية ،

وسائر وجوه الإنفاق فى سبيل الله .

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ » لَنْ تَبْلُغُوا حَقِيقَةَ الْبِرِّ وَلَنْ تَكُونُوا أَبْرَارًا . وَقِيلَ : لَنْ تَنَالُوا بِرَ اللَّهِ وَهُوَ

ثَوَابُهُ « حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » حَتَّى تَكُونَ نَفَقَتِكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي تُحِبُّونَهَا وَتُؤَثِّرُونَهَا ،

كَقَوْلِهِ : « أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » ^(١) وَكَانَ السَّلْفُ ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ ، إِذَا أَحْبَبُوا شَيْئًا

جَعَلُوهُ لِلَّهِ .

معنى التعبير : لَنْ تَدْرِكُوا بَرِّي الْوَافِرَ وَإِحْسَانِي الْغَزِيرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى تُنْفِقُوا ، فِي

الْوَجْهِ الَّتِي شَرَعْتَهَا لَكُمْ ، بَعْضُ مَا تُحِبُّونَ مِنْ مَمْلُوكَاتِكُمْ - فَاللَّهُ لَا يُعْظِمُ ثَوَابَ مَنْ أَنْفَقَ مِمَّا لَا

يُحِبُّهُ ، لِقَلَّةِ مَنْفَعَتِهِ لِأَخْذِهِ ؛ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ

تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ ٢٦٧ - البقرة .

فَالْإِنْفَاقُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِمَّا لَهُ أَثْرٌ نَافِعٌ عِنْدَ مَنْ يَأْخُذُهُ ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى وَفْرَةِ الرَّغْبَةِ فِي

الْعَطَاءِ ، وَالْإِحْسَاسَ بِحَاجَةِ الْمُنْفَقِ عَلَيْهِ ، وَالرَّغْبَةَ فِي سَدِّ حَاجَتِهِ .

ولشدة عناية المولى ، سبحانه ، باختيار مال النفقة من أحسن ما عند المنفق وأعظمه نفعا ،

ختم الآية بقوله : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ وَفِي ذَلِكَ تَحْذِيرٌ مِنْ إِنْفَاقِ الرَّدَى ،

وَفِيهِ أَيْضًا حَثٌّ عَلَى إِنْفَاقِ الْجَيِّدِ - فَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى السَّرَائِرِ ، وَأَيُّ شَيْءٍ تُنْفِقُونَهُ - طَابَ أَمْرٌ

خَبْتُ - يَعْلَمُهُ وَيَجَازِي عَلَيْهِ .

وقد كان أصحاب رسول الله ، ﷺ ، يسارعون إلى ما يدعوهم إليه مولاهم على خير

وجه . فما إن نزلت هذه الآية حتى بادر المياسير منهم إلى تنفيذها . روى الإمام أحمد عن

أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بئر

حاء ^(٢) ، وكانت (أى البئر) مستقبلة المسجد ، وكان النبي ﷺ ، يدخلها ويشرب من ماء فيها

(٢) بئر حاء : موضع كان لأبى طلحة فى المدينة .

(١) ٢٦٧ - البقرة .

طيب . فلما نزلت « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قال أبو طلحة : يا رسول الله إن الله يقول « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحب أموالى إلىَّ بئرُ حاءٍ وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى فضعتها يارسول الله حيث أراك الله . فقال النبي ﷺ : « بَخْ بَخْ ^(١) ذاك مال رابح ذاك مال رابح وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها فى الأقربين » فقال أبو طلحة : أفعل يارسول الله ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه .

وكذلك فعل زيد بن حارثة . فقد عمد إلى فرس يقال له : سَبَل . وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مالٌ أحبُّ إلىَّ من فرسى هذا . فجاء بها إلى النبي ﷺ فقال : هذه فى سبيل الله ، فأجابهُ الرسول : « إن الله قد قبلها منك » .

وروى عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعري أن يتاع له جارية من سبى جُلُولاء يوم فتح مدائن كسرى ؛ فقال سعد بن أبى وقاص : فدعا بها عمر فأعجبته ، فقال إن الله عز وجل يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فأعنفها عمر رضى الله عنه .

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالا من سكر ويتصدق بها . فقيل له : هل تصدقت بقيمتها ؟ فقال : لأن السكر أحبُّ إلىَّ فأردت أن أنفق مما أحب .

(١) بَخْ : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو المدح أو الفخر .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا

وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٩٩ - آل عمران (٣)

« تبغونها عوجًا » تريدونها مُعوجةً « وأنتم شهداء » أى وأنتم تشهدون أنها سبيل

مستقيمة .

وقال القرطبي « تبغونها عوجًا » تطلبون لها العوج ، فحذف اللام ، مثل قوله تعالى :
﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ ٣ - المطففين أى كالوا لهم والعوج : الميل والزيغ فى الدين والقول والعمل .

والمعنى على هذا يكون : تطلبون (أنتم يا أهل الكتاب) لسبيل الله - وهى ملة الإسلام -
اعوجاجا وميلا عن القصد والاستقامة . أو تطلبونها مُعوجة أى مائلة زائغة عن الحق ، والمراد
تطلبون ذلك لأهلها ، وذلك بالتحريش والإغراء بينهم ، لتختلف كلمتهم ويختل أمر دينهم .
« تبغونها » من الفعل بَغَى الشئ بَغْيَةً : طلبه .

والعوج والعوج : مصدر عَوَجَ ، كَتَعَبَ .

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا

حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ ١٠٣ - آل عمران (٣)

عَصَمَ اللهُ فُلَانًا مِنَ الشَّرِّ أَوْ الْخَطَأِ عَصْمَةٌ : حَفْظُهُ وَوَقَاةُ وَمَنْعُهُ . وَاعْتَصَمَ بِهِ : امْتَنَعَ بِهِ .

وَالْحَبْلُ : أَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ السَّبَبُ الَّذِي يُوصَلُ بِهِ إِلَى الْبُعْثَةِ (الطَّلَب) وَالْحَاجَةِ . وَالْحَبْلُ : الرَّسْنُ . وَالْحَبْلُ : الْعَهْدُ ، وَهُوَ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : حَبْلُ اللَّهِ الْقُرْآنُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ ، وَرَوَى أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ » وَرَوَى الطَّبْرِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كِتَابُ اللَّهِ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمُدْوَدُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ » . وَهَنَّاكُ أَيْضًا حَدِيثُ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَرْفُوعًا فِي صِفَةِ الْقُرْآنِ : « هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ » .

وَجَاءَ فِي « التَّفْسِيرِ الْوَسِيطِ » : « بِحَبْلِ اللَّهِ » أَيُّ بَدِينِهِ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ . وَسَمَاءُ حَبْلًا لِأَنَّهُ يَرْبِطُ الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ رِبَاطًا وَثِيقًا ، كَمَا تُرْبِطُ الْأَشْيَاءُ بِالْحَبْلِ .

فَاللَّهُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِالْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ ، أَيُّ التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ مَجْتَمِعِينَ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ .

« وَلَا تَفَرَّقُوا » : وَلَا تَتَفَرَّقُوا عَنِ الْحَقِّ بِوُقُوعِ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَكُمْ كَمَا اخْتَلَفَتِ الْيَهُودُ الْإِنصَارِيُّ ، أَوْ كَمَا كُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مُتَدَابِرِينَ يِعَادِي بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، أَوْ لَا تُحَدِّثُوا مَا يَكُونُ عَنْهُ التَّفَرُّقُ وَيُزِيلُ مَعَهُ الْاجْتِمَاعَ وَالْأَلْفَةَ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ الْإِخْتِلَافِ فِي الْفُرُوعِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ اخْتِلَافًا إِذَا الْإِخْتِلَافُ مَا يَتَعَذَّرُ مَعَهُ الْإِتِّلَافُ وَالْجَمْعُ . وَأَمَّا حُكْمُ مَسَائِلِ الْاجْتِهَادِ فَإِنَّ الْإِخْتِلَافَ فِيهَا بِسَبَبِ اسْتِخْرَاجِ الْفَرَائِضِ وَدَقَائِقِ مَعَانِي الشَّرْعِ ؛ وَمَا زَالَتِ الصَّحَابَةُ يَخْتَلِفُونَ فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ . وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُتَأَلِّفُونَ .

﴿ لَنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا الْأَذَىٰ وَإِنْ يَقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ ﴾ ١١١

- آل عمران (٣)

الدُّبْرُ والدُّبْرُ . الظَّهْر . وولاهُ دُبْرَهُ : أعطاه ظهره منهزماً . ويقال : ولأه دُبْرَهُ : انهزم أمامه .

والحديث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى حين يشتبكون مع المسلمين فى قتال، فإنهم (أى اليهود والنصارى) ينهزمون مدبرين متقهقرين .

وقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية . فما وقعت معركة بين المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها النصر للمسلمين وذلك فى حالة محافظتهم على دينهم واستمساكهم بعقيدتهم وإقامة منهج الله فى حياتهم . قال القرطبى : وفى هذه الآية معجزة للنبي عليه السلام ، لأن من قاتله من اليهود والنصارى أعطاه ظهره منهزماً ما متقهقراً .

« لن يضروكم إلا أذى » : لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً ، فوقع الأذى موقع المصدر . أى لن يضروكم ضرراً بالغا وإنما أذى يسيراً لا يبالي به كالطعن والشم والسخرية والتهديد .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ١٣٥ -

آل عمران (٣)

« ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » أى جَنَوْا على أنفسهم بارتكاب أى ذنب من الذنوب الكبائر أو الصغائر . والجملة معطوفة على ما قبلها « فعلوا فاحشة » وهو من عطف العام على الخاص . والفاحشة : فَعَلَةٌ بالغة القبح كالزنا ؛ من الفَحْش وهو مجاوزة الحد فى السوء .

قال الزمخشري فى معنى « ظلموا أنفسهم » : أذنبوا أى ذنب كان مما يؤاخذون به .

وفى فضل الاستغفار جاء فى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، أنه توضع لهم وضوء النبى ، ﷺ ، ثم قال : سمعت النبى ، ﷺ ، يقول : « من توضع نحوه وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه » .

﴿ وَلِيْمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

﴿ وَلِيْمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ ١٤١ - آل عمران (٣)

مَحِّصَ الذَّهَبِ بِالنَّارِ : خَلَّصَهُ مِمَّا يَشُوبُهُ . وَمَحِّصَ اللَّهُ مَابِك : أَذْهَبَهُ .

ومن الممكن أن يكون التمحيص بمعنى الابتلاء والاختبار .

معنى التعبير : وليطهر الله نفوس المؤمنين وينقيها من الشوائب (١) التي تكون قد علفت

بها ، فيصيروا مؤمنين خالصين : يصبرون على البأساء ويثبتون عند اللقاء .

وورد في نفس السورة قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيوتِكُمْ لَبُرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى

مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيْمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ١٥٤ .

والمعنى : قل لهم يا محمد إن ما حدث من القتل قدر قدره الله عز وجل وحكم حتم لا

معيد عنه . فالذين كتب عليهم القتل لا بد وأن يخرجوا من بيوتهم إلى مصارعهم . والله

يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق ، وهو -

سبحانه - عليم بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر .

﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ

عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ

الشَّاكِرِينَ ﴾ ١٤٤ - آل عمران (٣)

يُقَالُ لِمَنْ عَادَ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ : انْقَلَبَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ (٢) . وَالْعَقَبُ : مَوْخِرُ الْقَدَمِ .

« انقلبتم على أعقابكم » : تمثيل ، ومعناه ارتددتم كفارا بعد إيمانكم .

ومعنى الآية : وما محمد إلا رسول كسائر من مضى من قبله من الرسل . مهمته التبليغ

والإزام بالحجة . وسيمضى إلى ربه كسائر من مضى من الأنبياء . أفإن مات ارتددتم عن دينكم

كما وقع من بعض المنافقين . ويمكن أن يكون المعنى في سياق الحديث عن غزوة أحد عندما

أشاع الكفار أن محمدا قتل وسرى الوهن والضعف في بعض النفوس فأنزل الله عتابا

للمنهزمين : أفإن مات محمد ، توليتم مدبرين عن القتال منهزمين أمام الكفار ، فما كان

موت الرسل من قبله سببا في ارتداد أتباعهم عن دينهم ولا في تخليهم عن جهاد أعدائهم .

وقريب من هذا التعبير ما جاء في الآية ١٤٩ من ذات السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا

الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ . ومعنى «يردوكم على أعقابكم» أى إلى

حالتكم الأولى أى إلى الكفر .

(١) الشوائب هنا مقصود بها الذنوب ، ولذلك قال ابن كثير في معنى هذا التعبير : أى يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت

لهم ذنوب ، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به - فالسياق يتحدث عما أصاب المسلمين في غزوة أحد

من القتل والجراح والآلام . (٢) ومنه نكص على عقبيه ، وتقال لكل من رجع إلى حاله السيئ الأول .

﴿ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾

﴿ سَنَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ

سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ ١٥١ - آل عمران (٣)

« سلطاناً » : حجة وبيانا ، وعدرا وبرهانا . ويقال إنه مأخوذ من السليط وهو ما يضاء به السراج ، وهو دهن السمسم ^(١) . وقيل : السليط الحديد ، والسلطة الحدة . والسلطة من التسليط وهو القهر ؛ والسلطان من ذلك فالنون زائدة . فأصل السلطان القوة .

والمعنى سيلقى الله الرعب في قلوبهم لأنهم أشركوا في عبادته آلهة ليس على صحة ألوهيتها حجة . وهل هناك حجة حتى ينزلها الله فيصح لهم الإشراك ؟ قال الزمخشري : لم يعنه أن هناك حجة ، وإنما المراد نفى الحجة ونزولها جميعا ^(٢) .

« بما أشركوا بالله » تعليل ، أى كان سبب إلقاء الرعب في قلوبهم اشراكهم ؛ فما للمصدر . ويقال : أشرك به ، أى عدل به غيره ليجعله شريكا .

﴿ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ﴾

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ

غَمًّا بِغَمِّ لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ ﴾ ١٥٣ - آل عمران (٣)

لَوَى عليه يلوى لَوِيًّا : عَطَفَ أو انتظر . ويقال : مرَّ لا يلوى على أحد أى لا يقيم عليه ولا ينتظره . « ولا تلون على أحد » : لا تعرجون على أحد منكم ، أى لا يلتفت بعضهم إلى بعض هربا ^(٣) ، فلا يلتفت أحد ليعين أحدا ولا ينجد أحداً أحداً وإنما « تصعدون » أى تبعدون في الأرض عدواً وهربا . وهو تصوير لما كان عليه حال المسلمين عند انهزامهم في أحد .

وهذه الآية مرتبطة بما قبلها : ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ أى كفكم عن المشركين بعد ما فشلتم وتنازعتهم وعصيتهم ، وألقى عليكم الهزيمة ليمتحنكم بالمصائب فيظهر ما علمه منكم من الاضطراب والفرار كى تحذروهما وتحذروا أسبابهما في المستقبل .

(١) قال امرؤ القيس :

أمال السليط بالذبال المتلَّ

ومن ذلك قيل للوالى سلطان لأن السلطان يستضاء به فى إظهار الحق وقمع الباطل .

(٢) قال ابن أحمر :

لا تفرح الأرنب أهوالها ولا ترى الضبَّ بها يتنجح

أى لا تخيف الأرنب أهوال تلك الصحراء ، أى لا هول فيها يفزعه ولا هول فيها يجعل الضب يدخل جحره .

(٣) لأن المرعج على شىء يلوى إليه عقبه أو عنان دابته .

﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ - النساء (٤)

المعنى : الذين يحذرون ويخافون على أولادهم الضعفاء العيلة والضيعة (١) من بعدهم ، ويخشون ألا يحسن إليهم من يلى أمرهم - هؤلاء عليهم أن يتقوا الله ويخافوه وأن يقولوا القول الجميل والصواب . « سديدا » من الفعل سَدَّ يَسُدُّ سَدَادًا : أصاب فى قوله وفعله فهو سديد .

تأمر الآية باتقاء الله فى الأيتام وأولاد الناس ، فعلى المسلمين أن يتعهدوهم بالرعاية وأن يسددوا إليهم القول كما يريد كل واحد منهم أن يُفعل بولده من بعده . ومن ذلك ما حكاه الشيبانى عن مجلس جماعة من أهل العلم كان يضم ابن الديلمى ، فتذكروا ما يكون من أهوال آخر الزمان . قال الشيبانى لابن الديلمى : يا أبا بشر ، وُدِّى ألا يكون لى ولد . فقال لى : ما عليك ! ما من نَسَمَة قضى الله بخروجها من رجل إلا خرجت ، أحب أوكره ، ولكن إن أردت أن تأمن عليهم فاتق الله فى غيرهم ، ثم تلا الآية .

وقيل : الآية وعظ للأوصياء ، أى افعلوا باليتامى ما تحبون أن يُفعل بأولادكم من بعدكم .
وجاء فى المثل : التقوى تنفع الذرية .
« وليخش » : اللام لام الأمر .

(١) الضيعة : الضياع والهلاك . والعيلة : الفقر والحاجة .

﴿ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا

غَلِيظًا ﴾ ٢١ - النساء (٤)

أَفْضَى إِلَى فُلَانٍ بِالسَّرِّ : أَعْلَمَهُ بِهِ . وَأَفْضَى إِلَى الْمَرْأَةِ : خَلَا بِهَا .

« أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ » الْإِفْضَاءُ إِلَى الشَّيْءِ : الْوَصُولُ إِلَيْهِ بِالْمَلَامَسَةِ . وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْإِتِّصَالُ الْجِنْسِيُّ ، أَوْ مَا يَكُونُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فِي خَلْوَةٍ .

« وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ » أَي وَكَيْفَ تَأْخُذُونَ الصَّدَاقَ ^(١) (وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ) : « وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَانَا وَإِنَّمَا مِيبِنَا » مِنَ الْمَرْأَةِ وَقَدْ أَفْضَيْتَ إِلَيْهَا وَأَفْضَتْ إِلَيْكَ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي بِذَلِكَ الْجَمَاعَ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَلَكِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يَكْنِي ^(٢) . « وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ » : اسْتَفْهَامٌ بِلَاغِيٍّ خَرَجَ بِقَصْدِ الْإِنْكَارِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْإِفْضَاءُ إِذَا كَانَ مَعَهَا فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ جَمَاعٌ أَوْ لَمْ يُجَامَعِ .

وَإِذَا كَانَ مَعْنَى « أَفْضَى » : خَلَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَمَاعٌ ، هَلْ يَتَقَرَّرُ الْمَهْرُ بِوُجُودِ الْخَلْوَةِ أَمْ لَا ؟ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ : إِذَا خَلَا بِهَا خَلْوَةً صَحِيحَةً يَجِبُ كِمَالُ الْمَهْرِ وَالْعِدَّةُ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا ؟ لَمَّا رَوَاهُ الدَّارِقُطْنِيُّ عَنْ ثُوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ كَشَفَ خِمَارَ امْرَأَتِهِ وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَجِبَ الصَّدَاقُ » . وَقَالَ عُمَرُ : إِذَا أَغْلَقَ بَابًا وَأَرَخَى سِتْرًا وَرَأَى عَوْرَةَ فَقَدْ وَجِبَ الصَّدَاقُ وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ وَلَهَا الْمِيرَاثُ .

فِي الْآيَةِ الْإِنْكَارُ الْأَخْذُ مِنَ صَدَاقِ الزَّوْجَةِ بَعْدَ إِنْكَارِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ . وَهُوَ إِنْكَارُ بَعْدَ إِنْكَارٍ ، وَتَنْفِيرٌ بَعْدَ تَنْفِيرٍ . فَبَأَى وَجْهَ تَفْعُلُونَ هَذَا ، وَتَتَنَاسُونَ أَنَّهُ جَرَى بَيْنَكُمْ ، أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ ، وَبَيْنَهُنَّ مَا يُوَكِّدُ حَقَّهُنَّ فِيمَا أَخَذَنَهُ صَدَاقًا ؟ فَقَدْ بَذَلَتِ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا لِزَوْجِهَا ، وَجَعَلَتِ ذَاتَهَا مَوْضِعَ تَمَتُّعِهِ ، وَحَصَلَتِ بَيْنَهُمَا الْأَلْفَةُ التَّامَةُ وَالْمُودَةُ الْكَامِلَةُ ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يَسْتَرِدَّ مِنْهَا شَيْئًا بَذَلَتْ لَهَا بِطَيْبِ نَفْسٍ ؟ إِنْ هَذَا لَا يَلِيقُ بِمَنْ كَانَ لَهُ طَبَعُ سَلِيمٍ .

وَقَدْ تَثَبَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ لِلْمَتَلَاعَتَيْنِ بَعْدَ فِرَاقِهِمَا مِنْ تَلَاعُتِهِمَا : « اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ ؟ » قَالَهَا ثَلَاثًا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَالِي . قَالَ : « لَا مَالَ لَكَ ، إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فِرْجِهَا وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهِمَا فَهُوَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهَا » .

(١) الصَّدَاقُ : مَهْرُ الزَّوْجَةِ . أَصْدَقَ الْمَرْأَةَ : سَمَّى لَهَا أَوْ أَعْطَاهَا صَدَاقًا .

(٢) كَتَى عَنْ كَذَا يَكْنِي كِتَابَةً : تَكَلَّمَ بِمَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَيْهِ وَلَمْ يُصْرَحْ .

ولهذا قال الزمخشري في «الكشاف» في تفسير «وأخذن منكم ميثاقا غليظا»: الميثاق الغليظ هو حق الصحبة والمضاجعة ، كأنه قيل : وأخذن به ، أى بإفضاء بعضكم إلى بعض ، ميثاقا غليظا ، ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه . فقد قالوا : صحبة عشرين يوما قرابة ، فكيف بما يجرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج ؟

وقيل : الميثاق الغليظ هو قول ولى الزوجة عند العقد : أنكحتك على ما فى كتاب الله من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس : الميثاق الغليظ هو قوله عليه الصلاة والسلام : « فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » وإن كلمة الله هى التشهد فى الخطبة . قال : وكان فيما أعطى النبىُّ ﷺ ليلة أُسرىَ به : « وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى » .

ونختم الحديث عن هذا التعبير بقول عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، لرجل أراد أن يطلق زوجته لأنه لا يحبها : « ويحك ! ألم تُبِنَ البيوتُ إلا على الحب ؟ فأين الرعاية وأين التذم ؟ » والتذمُّ : حفظ العهد .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً ﴾

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ
فَانْكَحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ
مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ ٢٥ - النساء (٤)

طَالَ عَلَيْهِ يَطُولُ طَوْلاً^(١) : أَفْضَلَ وَأَنْعَمَ . وَالطَّوْلُ : الْفَضْلُ وَالْغِنَى وَالْيُسْرُ .
وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى الطَّوْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ :

الأول : السَّعةُ وَالْغِنَى ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ .
يُقَالُ : فُلَانٌ ذُو طَوْلٍ أَيْ ذُو قُدْرَةٍ فِي مَالِهِ وَالْمُرَادُ هُنَا الْقُدْرَةُ عَلَى الْمَهْرِ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ .
وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا هُوَ : وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مِنْكُمْ - أَيُّهَا الْأَحْرَارُ الْمُؤْمِنُونَ - سَعَةً مِنَ الْمَالِ تَمَكِّنُهُ مِنَ
الْقِيَامِ بِتَكَالِيفِ الزَّوْجِ مِنْ إِحْدَى الْحَرَائِرِ الْمُؤْمِنَاتِ ، فَلْيَنْكَحْ أُمَّةً مِنَ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ ، لِحَفْظِ
تَكَالِيفِ الزَّوْجِ مِنْهُنَّ ، وَيَتَّخِذَ مِنْهَا زَوْجَةً مِنْ غَيْرِ غَضَاضَةٍ .

القول الثاني : الطَّوْلُ الْحُرَّةُ ، قَالَ أَبُو يُوسُفَ : الطَّوْلُ هُوَ وَجُودُ الْحُرَّةِ تَحْتَهُ ، فَإِذَا كَانَتْ
تَحْتَهُ حُرَّةً فَهُوَ ذُو طَوْلٍ ، فَلَا يَجُوزُ لَهُ نِكَاحُ الْأُمَّةِ ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالطَّبْرِيِّ .

القول الثالث : الطَّوْلُ الْجَلْدُ وَالصَّبْرُ لِمَنْ أَحَبَّ أُمَّةً وَهُوَ يَهَا حَتَّى صَارَ لِذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
يَتَزَوَّجَ غَيْرَهَا ، فَإِنْ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْأُمَّةَ إِذَا لَمْ يَمْلِكْ هَوَاهَا وَخَافَ أَنْ يَبْغَى بِهَا ، وَإِنْ كَانَ يَجِدُ
سَعَةً فِي الْمَالِ لِنِكَاحِ حُرَّةٍ ، هَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ وَالنَّخَعِيِّ وَعَطَاءِ وَسَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ .

« يَنْكَحُ الْمُحْصَنَاتِ » : الْمُحْصَنَاتُ هُنَا الْحَرَائِرُ

« فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الْفَتَيَاتِ » : الْإِمَاءُ

« مُحْصَنَاتٍ » : عَفِيفَاتٍ .

(١) طَالَ يَطُولُ طَوْلاً : عَلَا وَارْتَفَعَ .

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ ﴾ ٣٤ -

النساء (٤)

قَوَّامُونَ : جمع قَوَّامٍ فعَّال للمبالغة . والفعل قام على أهله : تولى أمرهم وقام بنفقتهم .
« الرجال قوامون على النساء » ابتداء وخبر ، أى يقومون بالنفقة عليهن والذب عنهن ،
أميرين ناهين كما يقوم الولاة على الرعايا . فالرجل قَيِّمٌ على المرأة أى هو رئيسها وكبيرها
والحاكم عليها والمؤدب لها إذا اعوجت .

« بما فضل الله بعضهم على بعض » يعنى إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله
بعضهم وهم الرجال ، على بعضهم وهم النساء . وقد ذكروا فى فضل الرجال : العقل .
والحزم ، والعزم ، والقوة ، والفروسية ، والرِّمى ، وأن منهم الأنبياء والعلماء ، وفيهم
الإمامة الكبرى والصغرى ، والجهاد ، والأذان ، والحُطبة ، والاعتكاف ، والشهادة فى
الحدود ، والقصاص ، والتعصيب فى الميراث ، والحَمَالَة (الدِّيَّة) ، والقَسَامَة (يمين ولى
الدم) ، والولاية فى النكاح والطلاق والرجعة ، وعدد الأزواج ، وإليهم الانتساب . قال
ﷺ : « لن يفلح قومٌ وُلِّوا أمرهم امرأة » .

« وبما أنفقوا من أموالهم » أى ولما أنفقوا على النساء فى النفقة والمهر ، جعل الله لهم قوامة
(ولاية) على زوجاتهم . وهى قوامة رابطة ومحبة : تقوم على التعاون بينهما ، والمعاشرة
بالمعروف ، بحيث يقوم كل منهم بواجبه نحو صاحبه ، وهو ما يبدو واضحاً فى قوله تعالى :
﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ ٢٢٨ - البقرة .

ولا شك أن حقوق الزوج وواجباته تختلف عن حقوق الزوجة وواجباتها تبعاً لاختلاف
التكوين الفطرى لكل منهما - ولا شك أن مصالح الأسرة ودوام استقرارها يتطلب قيام كل
منهما بوظيفته التى تلائم طبيعته مع التعاون والاحترام المتبادل بينهما .

والرجل أقدر - بطبيعته - على السعى والكدح فى سبيل تحصيل رزقه ورزق أسرته . ولهذا
ناط به الشارعُ رعاية الأسرة ، وحَمَلَهُ مسئوليتها ، وهو قوله تعالى ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ
بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ٢٢٨ - البقرة

﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ : هذا بيان للناس من الله تعالى ،
بأن النساء أمام هذه القوامة نوعان :

النوع الأول : يفهم القوامة على وجهها الصحيح ، ويقوم برسالته كما ينبغي وهن اللاتي
ورد وصفهن في هذا الجزء من الآية : صالحات يمثلن أمر الله ، فيطعن أزواجهن ، ويحفظن
على الأزواج أموالهم وأعراضهم في جميع الحالات ^(١) ، وبهن يقوم المجتمع الإسلامي
الأمثل وفق شرع المدبر الأعلى - سبحانه .

النوع الثاني فالحديث عنه في قوله ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في
المضاجع واضربوهن﴾ وبين الله الطريقة المثلى في إرجاعهن إلى الصواب حتى تؤدي الأسرة
الرسالة المنوطة بها . وهذه الطريقة هي : يعظها الزوج أولا ، فإن لم يفد يهجرها في
المضجع ، فإن لم يُجد ذلك يضربها ضربا غير مبرح متجنباً الوجه .

ومعنى ﴿نشوزهن﴾ عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم ، من النشز وهو المرتفع من الأرض .
رؤى أن سعد بن الربيع ، وكان نقيبا من نقباء الأنصار ، نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن
أبي زهير ، فلطمها . فانطلق بها أبوها إلى النبي ﷺ وقال : أفرشته كريمة فلطمها ، فقال النبي
« لتقتص منه » ، فنزلت الآية فقال ﷺ : « أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذي أراد الله خير » .

قبل : لا قصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس ، ولو شجها . وقيل :
لا قصاص إلا في في الجرح والقتل - وأما اللطمة ونحوها فلا .

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال قال رسول الله ﷺ : « إذا صلّت المرأة
خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : ادخلي الجنة من
أى الأبواب شئت » .

وروى الترمذي عن عمرو بن الأحوص أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ ، فحمد
الله وأثنى عليه وذكر ووعظ فقال : « ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم ليس
تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع
واضربوهن ضرب باغير مُبرح فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . ألا إن لكم على نسائكم حقا
ولنسائكم عليكم حقا فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذنن في
بيوتكم من تكرهون . ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن » . وقوله :
« بفاحشة مبينة » يريد لا يدخلن من يكرهه أزواجهن ولا يغضبهن ، وليس المراد بذلك الزنا ،
فإن ذلك محرم ويلزم عليه الحد .

(١) قال ﷺ : « خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها » .
في مسند أبي داود الطيالسي عن أبي هريرة .

﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ

وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ ٣٤

- النساء (٤)

« فلا تبغوا عليهن سبيلاً » أى لا تجنوا عليهن بقول أو فعل إن أطعنكم ، أى لا تظلموهن بأى طريق من طرق الظلم . على أساس أن البغى معناه الظلم والاعتداء ، والسبيل معناه الطريق .

قال ابن كثير : إذا أطاعت المرأة زوجها فى جميع ما يريد منى مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليهن بعد ذلك (أى فلا حجة ^(١) له عليها بعد ذلك) ، وليس له ضربها ولا هجرانها .

﴿ إن الله كان عليا كبيرا ﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب فإن الله العلى الكبير وليهن ، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن . وقال الزمخشري : إن الله كان عليا كبيرا وإنكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه ، ثم تتوبوا فيتوب عليكم ، فأنتم أحق بالعفو عنى يجنى عليكم إذا رجع .

(١) كلمة سبيل لها عديد من المعانى ومنها : السبيل الطريق ، والسبيل الحرج ، والسبيل الحجة يقال : ليس لك على سبيل .

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُجُورًا ﴾
٣٦ - النساء (٤)

الصاحب بالجنب : هو الذى صحبتك بأن حصل بجنبك ، إما رفيقاً فى سفر ، وإما جاراً ملاصقاً ، وإما شريكاً فى تعلم علم أو حرفة ، وإما قاعداً إلى جنبك فى مجلس أو مسجد أو غير ذلك ، من أدنى صحبة التأمّت بينك وبينه ، فعليك أن ترعى حقه .
ولاتنساه وعليك أن تحسن إليه .

وقال القرطبي : الصاحب بالجنب هو الرفيق فى السفر . وأسند الطبرى أن رسول الله ﷺ كان معه رجل من أصحابه وهما على راحلتين فدخل رسول الله ﷺ غِيْضَةً (١) ، فقطع قضيبين أحدهما معوج ، فخرج وأعطى لصاحبه القويم (أى العود المستقيم) ؛ فقال : كنت يا رسول الله أحق بهذا ؟ فقال النبى : « كلا يا فلان إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مستول عن صحابته ولو ساعة من نهار » .

وقال ربيعة بن أبى عبد الرحمن : للسفر مروءة وللحضر مروءة فأما المروءة فى السفر فبذل الزاد ، وقلة الخلاف على الأصحاب ، وكثرة المزاح فى غير مساخط الله . وأما المروءة فى الحضر فالإدمان إلى المساجد وتلاوة القرآن وكثرة الإخوان فى الله عز وجل . وقال على وابن مسعود : الصاحب بالجنب الزوجة ، وقال ابن جريج : هو الذى يصحبك ويلزمك رجاء نفعك . وقد تناول الآية الجميع بالعموم . قال حاتم الطائي :

إذا كان رفيقى لم يكن خلف ناقتى له مركبٌ فضلاً فلا حملتُ رجلى
ولم يك من زادى له شَطْرُ مزودى فلا كنتُ ذأزاد ولا كنتُ ذا فضل
شريكان فيما نحن فيه وقد أرى علىَّ له فضلاً بما نال ففضلى

أجمع العلماء على أن هذه الآية من المحكم المتفق عليه . أمر الله تعالى عباده بالتذلل له والإخلاص فيه ؛ وبالإحسان إلى الوالدين فهما أحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البر والطاعة والإذعان ؛ وإلى الأقارب واليتامى والمساكين والجار القريب والجار الغريب ، وإلى رفيق السفر أو المجلس ، وإلى المسافر الذى لا مال له ، وإلى ممالك الإنسان .

(١) الغِيْضَةُ : الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

﴿ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ ﴿ ١٠٧ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ

يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ ﴿ ١ ﴾ ٣٨ - النساء (٤)

« رِئَاءَ النَّاسِ » أى مُرَائِينَ لَهُم التماسا للجاه ، وطلباً لثناء الناس ، لا ابتغاء مرضاة الله .
رِئَاءُ مصدر الفعل : رَاءَهُ مُرَاءَةً وَرِئَاءً ، وَرِئَاءٌ وَمَعْنَاهُ : أَرَاهُ أَنَّهُ مُتَصِفٌ بِالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ .

« الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ » هم الباذلون المراءون الذين يقصدون بالعطاء السمعة ، وأن يُمدحوا بالكرم ، ولا يريدون بذلك وجهَ الله أو شكره على نعمه ، أو الاعتراف بما أوجبه عليهم من حق في أموالهم .

وفى حديث « الثلاثة الذين هم أول من تُسَجَّرُ^(٢) بهم النار وهم العالم والغايزى والمنفق المراءون بأعمالهم . يقول صاحبُ المال : ما تركتُ من شىءٍ تحب أن يُنفق فيه إلا أنفقت فى سبيلك ، فيقول الله ، كذبت ، وإنما أردت أن يُقالَ جَوَادٌ ، فقد قيل « أئى فقد أخذت جزاءك فى الدنيا وهو الذى أردت بفعلك .

قال الجمهور : نزلت فى المنافقين ، لقوله تعالى : ﴿ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ والرياء من النفاق .

(١) راجع نهاية الآية ٣٦ : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ والآية ٣٧ .

(٢) تُسَجَّرُ وَتُسَجَّرُ : تُمَلَأُ .

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾

٤٦ - النساء (٤)

تحريف الكلم عن مواضعه : تغييره . والتحريف في القرآن والكلمة : تغيير الحرف عن معناه والكلمة عن معناها ، كما كانت اليهود تغير معانى التوراة بالأشباه ، فوصفهم الله بفعالهم فقال تعالى : ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ .

حَرَّفَ الكلامَ تحريفاً : بدَّله أو صرفه عن معناه .

قال القرطبي : يتأولون الكلام على غير تأويله ويلقون ذلك إلى العوام . وقيل معناه : يبدلون حروفه . وذلك أنهم غيروا صفة محمد ﷺ ، وآية الرجم .

وقرأ السُّلَمِيُّ والنخعي « الكلام » بالألف .

وقال ابن كثير : ساء تصرفهم في آيات الله ، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه ما لم يَقُلْ .

والتعبير موجود أيضا في ١٣ و ١٤ / المائة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ ٤٧ - النساء (٤)

طَمَسَ الشَّيْءَ وَعَلَيْهِ يَطْمِسُهُ طَمْسًا : شُوِّهَ أَوْ مَحَاهُ وَأَزَالَهُ . يُقَالُ : طَمَسَتِ الرِّيحُ الْأَثَرَ . وَيُقَالُ : طَمَسَ الْغَيْمُ الْكَوَاكِبَ : حَجَبَ ضَوْءَهَا . وَطَمَسَ عَيْنَهُ وَعَلَيْهَا : أَعْمَاهَا .

واختلف العلماء في المعنى المراد بهذا التعبير ، هل هو حقيقة فيجعل الوجه كالكفا فيذهب بالأنف والشم والحاجب والعين . أو أن ذلك عبارة عن الضلالة في قلوبهم وسلبهم التوفيق ؟ روى عن أبي بن كعب أنه قال : « من قبل أن نطمس » من قبل أن نضلكم إضلالا لا تهتدون بعده . ويرى حسنين مخلوف مثل هذا ، فيقول : أصل الطَّمْسُ : الصرف والتحويل ، وهو مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل . وقال مجاهد على المجاز أيضا : المراد من قبل أي نطمس ونصرف قلوبا عن صراط الحق فنردها على أدبارها في الضلال . وذهب « التفسير الوسيط » إلى مثل ذلك فقال : من قبل أن نضلهم إضلالا لا يهتدون بعده - فالطمس والوجه والرد على الأدبار لا يراد بها حقيقتها وإنما هو مثل ضربه الله في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل .

وقال قتادة : معناه من قبل أن نجعل الوجوه أقاء . أي يذهب بالأنف والشفاه والأعين والحواجب . وقيل : نجعل وجوههم من قبل أفقيتهم فيمشون القهقري .

والله تعالى يقول أمرا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات وامتهددا لهم إن لم يفعلوا بطمس وجوههم .

« مصدقا لما معكم » : نُصِبَ عَلَى الْحَالِ .

﴿ حَصْرَتِ صُدُورَهُمْ ﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ

صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ (١) ٩٠ - النساء (٤)

حَصَرَ صَدْرُهُ يَحْضِرُ حَصْرًا : ضَاق .

ومعنى التعبير : ضاقت صدورهم وانقبضت عن أن يقاتلوكم ، فهم يكرهون قتالكم أيها المسلمون ويكرهون قتال قومهم الذين يعادونكم ، ووقفوا على الحياد . مثل هؤلاء ليس للمسلمين تسلط عليهم .

قال لبيد في معنى حَصْرَتِ :

أسهلت وانصبت كجذع مُثيفة جرداء يحصرُ دونها جُرامها (٢)

أى تضيق صدورهم من طول هذه النخلة . ومنه الحَصْرُ فى القول وهو ضيق الكلام على المتكلم ، ويسمى أيضا القَصْر . والحصر : الكتم للسر ؛ قال جرير :

ولقد تَسَقَطْنِي الوشاةُ فصادفوا حَصْرًا بِسِرِّكَ يَا أَمِيمُ ضَنِينًا

قال الفراء : ومعنى « حصرت » قد حصرت ، وهو حال من المضممر المرفوع فى « جاؤوكم » ؛ كما تقول : جاء فلان ذهب عقله ، أى قد ذهب عقله .

﴿ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ ﴾

﴿ فَإِنْ اعْتَرَفْتُمُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ

سَبِيلًا ﴾ ٩٠ - النساء (٤)

أَلْقَى الشَّىءَ : طَرَحَهُ . ويقال : أَلْقَيْتَ إِلَيْهِ المِودَةَ وَالمِودَةُ وَأَلْقَى إِلَيْهِ السَّلَامَ حَيَّاهُ بِهِ .

السَّلْمُ : الاستسلام أو التسليم ، كما فى « معجم الوسيط » . وفسرها ابن كثير بالمسألة ، من الفعل سالَمَه مسألةً : صالحه ، وفسر الآية بأنهم إذا طرحوا عليكم المسألة ، فليس لكم أن تقاتلوهم . ومثله ما جاء فى « التفسير الوسيط » : فما دام هؤلاء قد اختاروا العزلة وعدم القتال ، وسارعوا إلى السَّلْمِ ، فليس لكم عليهم أيها المسلمون أى سبيل أو أدنى تسلط . لأن الإسلام يرحب بكل بادرة تدعو إلى السلام ، مادام غير المسلمين لا يعتدون وما شرع القتال فى الإسلام إلا للضرورة تأمين الحق وصيانة العقيدة .

أما الزمخشري فى كشَّافه فقد فسَّرَ السَّلْمَ على أنه الانقياد والاستسلام . وفسره حسنين مخلوف بأنه الاستسلام والانقياد للصالح ، والمعنى متقارب .

(١) راجع نهاية الآية ٨٩ : ﴿ ولا تتخذوا منهم وكياً ولا نصيراً ﴾ . (٢) جرم النخل : جنى ثمره .

﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾

﴿ فَإِنِ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يَقَاتِلُوكُمْ وَآلَقُوا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ

سَبِيلًا ﴿ ٩٠ - النساء (٤)

كلمة السبيل لها عدة معان منها ، منها : الطريق ، ومنها : السبب والوصلة . والسبيل أيضا : كل ما أمر الله به من الخير ، واستعماله فى الجهاد أكثر .

والسبيل الحرج ، والسبيل : الحجة ، ويقال : ليس لك على سبيل .

وأقرب معانيها إلى النص هنا : الحجة أى الحجة على جواز أخذهم وقتلهم . ولذلك فسر الزمخشري قوله تعالى ﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ : فليس لكم عليهم أبها المسلمون ، أى سبيل أو أدنى تسلط (أى تحكم) .

(انظر التعبير ﴿ وَآلَقُوا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ ﴾ رقم ١١١) .

﴿ كُلِّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ﴾

﴿ سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى

الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ﴿ ٩١ - النساء (٤)

رُكْسَهُ يَرْكُسُهُ رُكْسًا : رده وقلبه . ويقال : أركسه فى الشر أى رده وقلبه فيه . ويقال : أركسته فركس أى قلبته على رأسه فقلب .

« ردوا إلى الفتنة » دُعُوا إِلَى الشَّرِّ ، قاله السدى والقرطبى ونقله عنهما حسين مخلوف . أما الزمخشري ففسرها بقوله : كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين .

« أركسوا فيها » : انهمكوا فيها أى فى الفتنة بمعنى الشَّرِّ ، أو انقلبوا فى فتنة القتال والكيد مع قومهم عليكم ، على أساس أن الفتنة معناها قتال المسلمين .

﴿ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾

﴿ فَإِن لَّمْ يَعْزِلُوا لَكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ

حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ ٩١ - النساء (٤)

كلمة السلطان تعنى : الملك أو الوالى . وتعنى : القوة والقهر . وتعنى : الحجة والبرهان .
« سلطانا مبينا » : حجة بينة ظاهرة .

« جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » أى جعلنا لكم الحجة الواضحة على جواز أخذهم وقتلهم ؛ بسبب ظهور عداوتهم لكم وخيانتهم .

﴿ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّبْنَا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى

إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتُمْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ

كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ٩٤ - النساء (٤)

العَرَضُ : ما يطرأ ويزول من مرض ونحوه .

وعرض الدنيا : متاع الدنيا قَلَّ أو كَثُرَ ، ويسمى متاع الدنيا عَرَضًا لأنه عارض زائل غير ثابت .

﴿ تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ : تطلبون متاعها الزائل ، ونعيمها الفانى ، من مال وغيره
وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ إنما الغنى غنى النفس » .

وقد أخذ بعض العلماء هذا المعنى فنظمه :

تَقَنَّعَ بما يكفيك واستعمل الرضا فإنك لا تدرى أتصبح أم تُمسى

فليس الغنى عن كثرة المال إنما يكون الغنى والفقر من قِبَلِ النفسِ

وفى كتاب العين : العَرَضُ ما نيل من الدنيا ؛ ومنه قوله تعالى :

﴿ تريدون عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ وجمعه عروض .

﴿ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ ﴾

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا
أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا
فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ١٠٢ - النساء (٤)

الحِذْرُ والحِذْرُ بمعنى ، كالإثر والأثر . يقال : أخذ حِذْرَهُ ، إذا تيقظ واحترز من
المُخْوف^(١) كأنه جعل الحِذْرُ آتته التي يقى بها نفسه ويعصم بها روحه .
وقيل : الحِذْرُ ما به الحِذْرُ من السلاح ونحوه .

﴿ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ ﴾ : وليكونوا متيقظين للعدو ، محترسين منه ومن مخادعته .
فالتعبير وَصَاةٌ (وصية) بالحِذْرُ . وفيه دلالة على وجوب الأخذ بالأسباب ، لتلاينال
العدو أمله ويدرك فرصته .
وجمع بين أخذ الأسلحة وبين أخذ الحِذْرُ ، ذلك أنه جعل الحِذْرُ وهو التحرز والتيقظ آلة
يستعملها الغازي ؛ فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة^(٢) .
وأخذ السلاح : الإمساكُ به ، فمن معانى الفعل أَخَذَ : أمسكُ به .

﴿ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾

﴿ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ
وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ ١٠٢ - النساء (٤)

« فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً » فيشدون عليكم شدةً واحدة ، قاله الزمخشري .
وفى « التفسير الوسيط » فيهجمون عليكم هجمة واحدة يقضون بها عليكم ، فلا
يحتاجون بعدها إلى هجمة أخرى .
وقال القرطبي : ومعنى « ميلة واحدة » مبالغة ، أى مستأصلة لا يحتاج معها إلى ثانية ،
أى ميلة ثانية .
فالكافرون أحبوا وتمنوا دائماً غفلة المسلمين . والسنون تتوالى ، والقرون تمر فتؤكد هذه
الحقيقة .

(١) احْتَرَزَ مِنْهُ وَتَحَرَّزَ : تَوَقَّاهُ . وَحَرَّزَ الشَّيْءَ : بِالْغِ فِي حِفْظِهِ . وَالْمُخْوفُ : الشَّيْءُ الَّذِي يُخَافُ مِنْهُ .

(٢) ومثل ذلك قوله تعالى : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ » جعل الإيمان مُستقراً لهم ومتبوعاً لتمكثهم فيه ، فلذلك جمع
بينه وبين الدار فى التبوؤ .

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾

﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا

اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾

١٠٣ - النساء (٤)

كَتَبَ اللَّهُ الشَّيْءَ يَكْتُبُهُ كِتَابًا وَكِتَابًا وَكِتَابَةٌ : قِضَاهُ وَأَوْجِبُهُ وَفَرْضُهُ .

والموقوت اسم المفعول من الفعل : وَقَتَهُ يَقْتُهُ وَقْتًا ، أى جعل له وقتًا يُفْعَلُ فِيهِ . ويقال : وَقَّتَ اللَّهُ الصَّلَاةَ أَى حَدَّدَ لَهَا وَقْتًا .

معنى التعبير : إن الصلاة كانت ومازالت - فى حكم الله - مكتوبة مفروضة محددة الأوقات : لا يجوز إخراجها عن أوقاتها . وأوجز القرطبي فقال : مؤقتة مفروضة .

قال الزمخشري فى معنى « موقوتا » : محدودا بأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أى حال كنتم : خوف أو أمن ، وذلك بدليل الأمر بأدائها أثناء المعركة .

قال ابن مسعود : إن للصلاة وقتا كوقت الحج . وقال زيد بن أسلم فى معنى « موقوتا » أى منجما ، كلما مضى وقت جاء وقت .

« فأقيموا الصلاة » : أدوها فى أوقاتها بأركانها وشروطها وحدودها تامة كاملة .

ومعنى « فإذا اطمأننتم » أى فإذا أمنتهم وذهب الخوف بعد انتهاء المواجهة مع العدو .

يوجههم - سبحانه - إلى الصلاة والاتصال به - فهو العدة الكبرى وهو السلاح الذى لا يبلى .

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ
وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

١٠٤ - النساء (٤)

﴿ ابتغاء القوم ﴾ : التعرض لهم بالقتال . والقوم هنا : الكفار .

« ولا تهنوا في ابتغاء القوم » : لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب الكفار لتقاتلوهم ، بل تعرضوا لهم بالقتال . فلا تكفوا عن متابعتهم وتعقب آثارهم حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

نزلت في حرب أحد عندما أمر النبي ﷺ بخروج طائفة من مقاتلي المسلمين في آثار المشركين لمحاربتهم ، وكان بالمسلمين جراحات ، فشكوا هذه الجراحات ، فنزلت الآية :

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ . . . ﴾ أي ليس ما تكابدون من الألم بالجرح والقتل مختصا بكم ، إنما هو أمر مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم ، ثم إنهم يصبرون عليه ويتشجعون . فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم ، مع أنكم أولى منهم بالصبر لأنكم « ترجون من الله ما لا يرجون » فأنتم ترجون إظهار دينكم وترجون الثواب العظيم في الآخرة؛ أما الكفار فهم ضائعون مضيعون ، لا يتجهون لله ولا يرتقبون عنده شيئا في الحياة ولا بعد الحياة . وهذا فضل الاعتقاد في الله والتوكل عليه في كل كفاح . ففي لحظات تكون مشقة الكفاح فوق الطاقة ويكون الألم أكبر من أن يُحتمل ، ويكون القلب البشري بحاجة إلى مدد وإلى زاد - عند ذلك يأتي المدد من الله ويأتي الزاد من كنفه الرحيم .

وقال ابن كثير في تفسير هذا التعبير : لا تضعفوا في طلب عدوكم ، بل جدوا فيهم ، وقاتلوهم ، واقعدوا لهم كل مرصد .

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا

وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ١١٢ - النساء (٤)

كَسَبَ الْإِثْمَ : تحمله .

الخطيئة : الصغيرة من الذنوب . والإثم : الكبيرة منها . وقيل هما بمعنى واحد تكرر باختلاف اللفظ للتأكيد .

رَمَى الشَّيْءَ وَرَمَى بِالشَّيْءِ : ألقاه وقذفه . ورمى فلانًا بأمر قبيح : قذفه ونسبه إلى الفاحشة .

« بُهْتَانًا » : بَهَتَ فلانًا يَبْهتُهُ بَهْتًا وَبُهْتَانًا : قذفه بالباطل . والبُهْتان والبُهتان : الكذب المُفترى ، وهو أن تستقبل أخاك بأن تقذفه بذنب وهو منه بريء . روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ذَكَرْتُ أَخَاكَ بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فقد بهته » .
فَرَمَى البرئ بَهْتًا لَهُ . ويقال : بُهت الرجل إذا دُهِشَ وتَحَيَّرَ .

معنى الآية : ومن يقترف صغيرة أو كبيرة من المعاصي ، ثم يتهم بها بريئًا فقد احتمل البهتان في رمية البرئ ، واحتمل الإثم في ارتكابه الذنب الذي رمى به البرئ^(١) وقد احتملها معا . وكأنا هُما حمل يُحمل على طريقة التجسيم التي تبرز المعنى وتؤكد في التعبير القرآني المصور . ومثال ذلك قوله تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ وفيه تشبيه ، إذ الذنوب ثقل ووزر فهي كالمحمولات .

ومن المناسب للمقام أن نورد الآيتين السابقتين على هذه الآية مع تعليق يسير عليهما . قال تعالى ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ﴾ . هذه الآيات ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ﴾ . هذه الآيات الثلاث تقرر المبادئ الكلية التي يعامل الله بها عباده ، والتي يملك العباد أن يعاملوا بعضهم بعضا بها ، ويعاملوا الله على أساسها فلا يصيبهم سوء .
الآية الأولى تفتح باب التوبة على مصراعيه ، وباب المغفرة على سعته ، وتطمع كل مذنب تائب في العفو والقبول .

والآية الثانية تقرر فردية التبعة . وهي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي في الجزاء ، والتي تثير في كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة : الخوف من عمله وكسبه ، والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة غيره .

والآية الثالثة تقرر تبعة من يكسب الخطيئة ثم يرمى بها البرئ على النحو الذي بيناه .

(١) فهو برئ يرمى البرئ « باهت » ، وهو بكسب الإثم « آثم » فهو جامع بين الأمرين .

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ﴿ ١٢٠ - النساء (٤)

وَعَدَهُ الْأَمْرَ يَعِدُهُ وَعَدًّا وَمَوْعِدًا وَمَوْعِدَةً : مَنَاهُ بِهِ .

غَرَّ فَلَئِنَّا يَغْرِهُ غَرًّا وَغُرُورًا : خَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بِالْبَاطِلِ ؛ يُقَالُ : غَرَّ الشَّيْطَانُ . الْغُرُورُ : الْخُدَاعُ وَالْبَاطِلُ . وَقَالَ ابْنُ عَرَفَةَ : الْغُرُورُ مَا رَأَيْتَ لَهُ ظَاهِرًا تَحِبُّهُ وَفِيهِ بَاطِنٌ مَكْرُوهٌ أَوْ مَجْهُولٌ ، وَالشَّيْطَانُ غُرُورٌ - وَالغُرُورُ كُلُّ مَا غَرَّ الْإِنْسَانَ مِنْ مَالٍ ، أَوْ جَاهٍ ، أَوْ شَهْوَةٍ ، أَوْ إِنْسَانٍ ، أَوْ شَيْطَانٍ . الْمَعْنَى : كُلُّ مَا يُمْنِيهِمُ الشَّيْطَانُ بِهِ إِثْمًا هُوَ خُدَاعٌ وَأَبَاطِيلٌ .

قال القرطبي في معنى « يعدهم » في صدر الآية : يعدهم أباطيله وتُرَّهاته من المال والجاه والرياسة ، وأن لا بعث ولا عقاب ، ويوهمهم الفقر حتى لا ينفقوا في الخير . وتلك الوعود يلقيها الشيطان إما بالخواطر النفسية المخالفة لشرائع الله ، أو بلسان أوليائه .

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ١٢٨ - النساء (٤)

هذا التعبير بالغ الإيجاز ، بالغ العذوبة : ينزل على القلوب بردا وسلاما : ﴿والصلح خير﴾ .

وكلمة خير واسعة الدلالة ، يصعب أن تحد معانيها حدود . ومن معانى الخير : راحة البال ، وهدوء النفس ، والسكينة والأمان والرخاء ، والازدهار ، والإبقاء على العشرة ، وحفظ كيان الأسرة وغير ذلك كثير - والصلح مجلبة لكل هذا وأكثر .

قال القرطبي : ﴿والصلح خير﴾ لفظ عام مطلق يقتضى أن الصلح الحقيقي الذى تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خيرٌ على الإطلاق . ويدخل فى هذا المعنى جميع مايقع عليه الصلح بين الرجل وأمرأته فى مال أو وطء أو غير ذلك .

قال الزمخشري : والصلح خير من الخصومة فى كل شىء . أو الصلح خير من الخيور ، كما أن الخصومة شر من الشرور .

فالصلح ينسم على القلوب التى دبت فيها الجفوة والجفاف نسمة من الندى والإيناس ، والرغبة فى إبقاء الصلة ، زوجية كانت أو غير زوجية .

ونعرج على السياق بإيجاز . « بعلها » : زوجها ، والنشوز أن بتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقتة ومودته ، ويؤذيها بسبب أو ضرب . والإعراض : أن يقلل محادثتها ومؤانستها . وذلك لكبر سنهما مثلا أو لدمامة فى خلقها أو خلقها ، أو ملال ، أو طموح عين إلى أخرى . وفى هذه الحالة ليس عليها ولا على زوجها حرج فى أن تتنازل له عن جزء من نفقتها أو عن كل نفقتها أو أن تترك له قسمتها وليلتها إذا كانت له زوجة أخرى يؤثرها عليها ، وذلك فى مقابل ألا يطلقها . وإنما يتصالحان ويبقيان على الحياة الزوجية بينهما فى ظل تلك التنازلات من جانبها .

قال ابن كثير : والظاهر من الآية أن صلحهما (أى الزوجة والزوج) على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك ، خير من المفارقة بالكلية ؛ كما أمسك النبى ﷺ ، سودة بل تركها من جملة نساته . وفعله ذلك لتأسى به أمته فى مشروعية ذلك وجوازه .

﴿ وَأَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾

﴿ وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ١٢٨ - النساء (٤)

أَحْضَرَ الشَّيْءَ فَلَاتًا : أتاها به . وقوله تعالى : ﴿ وَأَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ مالت إليه .

وفى « التفسير الوسيط » : ﴿ وَأَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ أى جعل الشُّحَّ حاضرا فى الأنفس ملازما لها . والشح : البخل الشديد . فالنفوس جبلت على الإفراط فى الحرص والبخل ، فهو خصيصة من خصائصها .

والتعبير إخبار بأن الشح فى كل أحد ، وأن الإنسان لا بد أن يشح بحكم خلقته وجبلته حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره .

لما رَغِبَ اللهُ فى الصلح بقوله : ﴿ والصلح خير ﴾ عقبه بقوله ﴿ وَأَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ لبيان العذر فى المماكسة (المنابذة والتباعد) والمشاقفة ، وهى أن النفس من طبعها الشح والحرص . ولذلك فإن الزوجة لا تكاد تفرط فى حقوقها عند الزوج ، ولا يكاد الزوج يوجد بالإنفاق وحسن المعاشرة لمن لا يريدتها . وإذا كان ذلك هو ما فطر عليه الناس ، فينبغى على كل من الزوجين أن يقدر حرص كل واحد منهما على مصلحته فالزوج حريص على مصلحته ، والزوجة حريصة على مصلحتها ، وذلك بحكم الطبيعة البشرية - وهذا الحرص على الذات يجب أن يكون محل نظر الإثنين ، فترضى الزوجة حرص الزوج بالبذل والتضحية ، ويرضى الزوج حرص الزوجة فلا يقسو عليها فيما يجبرها على التنازل عنه .

ثم ندب الله الأزواج إلى الإحسان والتقوى فقال : ﴿ وَإِنْ تَحْسَنُوا ﴾ عشرتكم مع النساء « وتتقوا » النشوز والإعراض عن الزوجات « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ » من الإحساس والتقويم « خبيراً » فيجازيكم عليه ويحسن ثوابكم .

النساء (٤)

محال أن تستطيعوا العدل والتسوية بين النساء بحيث لا يقع الميل إلى واحدة دون الأخرى ، ولا تقع زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن ، « ولذلك رفع عنكم تمام العدل وغايته » ، كما قال الزمخشري ، وما كلفتم منه (أى من العدل بين النساء) إلا ما تستطيعون بشرط أن تبدلوا فيه وسعكم وطاقتكم - إذ التكليف الشرعى إنما يكون بما فى الوسع والطاقة .

إن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله ، فهو لا يتجاهل طبيعتها وفطرتها ، ولا يحاول أن يقسرها على ما ليس فى طاقتها .

نحن هنا فى هذا التعبير أمام المنهج الإسلامى الفريد ، وهو يواجه واقع النفس البشرية وملابسات الحياة البشرية بالواقعية المثالية أو المثالية الواقعية ، ويعترف بما هو كامن فى تركيبها . والله الذى فطر النفس البشرية يعلم من فطرتها أنها ذات ميول لا تملكها . فقال مامعناه : ليس فى استطاعتكم إقامة العدل التام بين الضرات ، حتى ولو حرصتم على ذلك وبالغتم فيه . فإن فرض أنكم عدلتم فى القسم والنفقة ، فقد لاتعدلون فى النظر والإقبال والمؤانسة والحب وغير ذلك . وتلك مسألة جبلية لا سلطان للأزواج عليها ، مهما كان تدينهم .

إن الإسلام لا يحاسب الإنسان على أمر لا يملكه ، ولا يجعل هذا إثما يعاقبه عليه ، فيدعه ممزقا بين ميل لا يملكه وعدل لا يطبق أن يقيمه ! وإنما يصارح الإسلام الناس بأنهم لن يستطيعوا العدل بين النساء لأن الأمر خارج عن إرادتهم . لكن هناك ما هو داخل فى إرادتهم : العدل فى القسّم وفى النفقة وفى الحقوق الزوجية ، وهذا هو الخطام (اللجام) الذى يقود ذلك الميل وينظمه ، ويرتفع بالنفس البشرية إلى أعلى مستوى تهينه طبيعتها وفطرتها . ولكنه خطام لا يقتل الميل الفطرى ، ولا يقتل النفس البشرية . وهذه ميزة الإسلام .

أخرج أحمد والترمذى وأبو داود عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا قسّمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يقصد النبى بما يملكه الله : الحب والميل القلبى ، فإنهما تحت سلطان الله وحده ، ولا سلطان للبشر عليهما .

كان نبى الإسلام - ﷺ - هو الصورة الكاملة للإنسانية حين تبلغ أوجها من الكمال ؛ فتنمو فيها جميع الخصائص والطاقات ثموا متوازنا متكاملًا فى حدود فطرة الإنسان .

﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ ﴾

﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ١٢٩ -

النساء (٤)

المراد بالميل هنا : عدم العدل فى القسّم والنفقة بسبب تفاوت الحب .

« فتدروها » : فتركوها . وأصل الفعل : وذره . يقال : يذره يتركه ، وذره : اتركه . أماتت العرب ماضيه ومصدره ، فإذا أريد الماضى قيل : ترك . المعلقة : هى التى ليست مطلقة ولا صاحبة زوج (١) .

ومعنى التعبير : فلا تجوروا كل الجور على من لا تحبون من النساء ، بأن تمنعوها حقها فى القسّم والنفقة ، وفى السكن والكسوة ، من غير رضاها - فقاربوا واجتهدوا ألا تميلوا الميل المحذور إلى واحدة منهن ، بحيث تكون الأخرى كأنها معلقة : لاهى مطلقة ولا هى ذات بعل ، وجاهدوا أنفسكم حتى تصلوا إلى الحد المستطاع من العدل بين الزوجات .

ومن ألوان العدل التى كان السلف الصالح يحرص عليها ما رواه غير واحد عن جابر رضى الله عنه أنه قال : كانوا يستحيون ألا يسوّوا بين الضرائر فى الطيب ، يتطيب لهذه كما يتطيب لهذه .

وبالجمله فالعدل واجب فى القسّم والنفقة والسكنى والكسوة والعلاج ، وكل ما هو ضرورى ، وهو (أى العدل) سنة فيما هو غير ضرورى .

﴿ وإن تصلحوا ﴾ ماضى من ميلكم وتنداركوه بالتوبة . ﴿ وتتقوا ﴾ فيما يستقبل ، غفر الله لكم .

(١) قال قتادة رضى الله عنه : المعلقة المسجونة .

﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ ١٣٠ -

النساء (٤)

سعته : فضله وغناه وورزقه

فإنه حين تجف القلوب ، ولا تطبق الرابطة الزوجية ، فالتفرق بين الزوجين هو الحل . لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالقيود والأغلال ، وإنما يمسكهم بالمودة والرحمة أو بالواجب والتجمل فإذا لم تؤت هذه ثمارها في علاج القلوب المتنافرة ، فإن الإسلام لا يحكم على أصحاب هذه القلوب أن يعيشوا في سجن من الكراهية ، ظاهره رباط زوجي وباطنه انقسام حقيقي .

ولذلك قال : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ﴾ ، فالله يعد كلا منهما أن يغنيه من فضله هو ومما عنده هو ، فقد يُقْبِضُ للرجل امرأةً تقربها عينه ، ويقبض للمرأة من يوسع عليها - والله سبحانه يسع عباده ويوسع عليهم بما يشاء في حدود حكمته .

وهذه الجملة تعتبر تسلية للزوجين عما أصابهما من الفراق ، وإشعارا لهما بأن الله تعالى سيسلك بكليهما مسلكا يغنيه عن الآخر . فهو الكفيل براحة عباده ، كيلا يشتد حزنهما على فراقهما بعد عشرة .

ولا شك أن تشريع الطلاق تظهر حكمته جليلة واضحة في هذه الحالة ؛ فإذا كانت الحياة بين الزوجين مشحونة بالمتاعب ، فإن العاقبة تكون سيئة بالنسبة إليهما وإلى أولادهما - والفراق حينئذ يكون ضروريا ، كاستعمال مبضع الجراح لاتقاء أخطار الفساد في الجسم .

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوْ

الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن

تَعْدِلُوا وَإِن تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ١٣٥ - النساء (٤)

أقام العدل : أظهره وعمل به

والقوَّام : الحَسَنُ القيام بالأمر ، والجمع قوامون ، صيغة مبالغة . والقسط : العدل

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ : اجتهدوا في إقامة العدل مع المواظبة عليه في جميع الأمور ، لا تميلون عنه ولا يصرفكم عنه صارف . إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه ، القسط الذي يعطى كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين . والنداء للذين آمنوا ، الذين وكلت إليهم الأمانة العظيمة : أمانة القوامة على البشرية والحكم بين الناس بالعدل .

﴿ شهداء لله ﴾ : لذات الله ولوجهه ولرضاته ولثوابه ، ولاتأخذكم في الله لومة لائم ، وحيثتذ تكون صحيحة عادلة حقا ، كما قال في موضع آخر : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أي أذوها ابتغاء وجه الله . نصب ﴿ شهداء ﴾ على النعت لقوامين ، ويمكن أن تكون خبرا بعد خبر لكونوا .

﴿ ولو على أنفسكم ﴾ أي اشهد الحق ولو عاد ضرر الشهادة عليك ، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرتك عليك .

﴿ أو الوالدين والأقربين ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم ، فإن الحق حاكم على كل أحد . قال العلماء : من بر الوالدين أن يشهد عليهما الإبن أو يخلصهما من الباطل ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ . ذكر الوالدين لوجوب برهما وعظم قدرهما ، ثم ثنى بالأقربين إذ هم مظنة المودة والتعصب .

﴿ إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ﴾ : أي لا ترعاه لغناه فتجامله أو تخاف منه ، ولا ترعاه لفقره فتشهد له إشفاقا عليه - فالله يتولاها ، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما . قال السدي : اختصم إلى النبي ، ﷺ غنى وفقير فكان ضلعه (هواه) مع الفقير ، ورأى أن الفقير لا يظلم الغنى ، فنزلت الآية .

فالمنهج الإلهي القويم يجند النفس في وجه ذاتها أولا ، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيا . وإتيان ذلك أمر شاق ، أشق كثيرا من نطقها باللسان ، ومزاوتها عمليا شيء آخر غير إدراكها عقليا . المنهج الرباني يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة وهذه القاعدة الشاقة التي لا بد وأن تقام في الأرض ، ولا بد وأن يقيمها ناس من البشر . وهو يجندها أيضا في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه غنيا أو فقيرا .

(انظر التعبير : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ رقم ١٢٨)

﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدُوا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ١٣٥ -

النساء (٤)

﴿ أن تعدلوا ﴾ : يحتمل العدل والعدول ، كأنه قيل : فلا تتبعوا الهوى ، كراهة أن تعدلوا بين الناس ، أو إرادة أن تعدلوا عن الحق .

قال ابن كثير : فلا يحملنكم الهوى والعصية وبغض الناس إليكم ، على ترك العدل في أموركم وشئونكم ، بل الزموا العدل على أى حال كان ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ « ٨ المائة » .

فاتباع الهوى مُرد أى مهلك ، قال تعالى : ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ . فاتباع الهوى يحمل على الشهادة بغير الحق ، ويحمل على الجور فى الحكم إلى غير ذلك . وقال الشعبي : أخذ الله عز وجل على الحكام ثلاثة أشياء : ألا يتبعوا الهوى ، وألا يخشوا الناس ويخشوه ، وألا يشتروا بآياته ثمنا قليلا .

والهوى صنوف شتى ، ذكر بضعها فى صدر الآية : حب الذات ، وحب الأهل ، والعطف على الفقير ، ومجاملة الغنى ومضارته . والتعصب للعشيرة والأمة والوطن - فى موضع الشهادة والحكم - هوى ، وكراهة الأعداء ولو كانوا أعداء الدين - فى موضع الشهادة والحكم - هوى . فكلها أهواء ينهى الله الذين آمنوا عن التأثر بها ، والعدول عن الحق والصدق تحت تأثيرها . حدث أن عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - لما بعثه رسول الله ﷺ ، يَخْرُصُ (يُقَدِّرُ) على أهل خيبر محصولهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياها مناصفة ، حسب عهد رسول الله بعد فتح خيبر ، حدث أن حاول اليهود ليرفق بهم ! فقال لهم : « والله لقد جتتكم من عند أحب الخلق إلى ، ولأنتم والله أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملنى حبى إياه وبغضى لكم على ألا أعدل فيكم » . . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف : تلووا أى تحرقوا الشهادة وتغيروها ، واللى هو التحريف وتعمد الكذب . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ

بِالْكِتَابِ ﴿ أَلْ عَمْرَان ٧٨ ﴾ . والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ
يَكْتُمهَا فَإِنَّهُ أَمُّ قَلْبِهِ ﴾ « البقرة ٢٨٣ » .

﴿ وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْلَمُونَ خَبِيرًا ﴾ يكفي أن يتذكر المؤمن أن الله
خبير بما يعمل ، ليستشعر ماذا وراء هذا من تهديد خطير يرتجف له كيانه .

ولقد مضت القرون تلو القرون ، وحفلت المكتبات بكتب الفقه والقانون ، وحفلت الحياة
بالتنظيمات القضائية ، وامتألت الرؤوس والأفواه بالكلام عن العدالة - لكن التذوق الحقيقي
لمعنى العدالة ، والتحقق الواقعي لمعنى العدالة فى ضمائر الناس وفى حياتهم العملية ، لم يقع
هذا التذوق وهذا التحقق إلا فى ظل ذلك المنهج الربانى ، فليست القيمة للتنظيمات وإنما
للروح التى وراءها .

﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ ١٤١ -

النساء (٤)

كلمة السبيل من الكلمات المتعددة المعانى . فمن معانيها : الطريق والحرج والحجة .

وفسر ابن كثير هذا التعبير بقوله : لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، أى فى الدنيا ، بأن يُسَلِّطُوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية - وإن حصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس ، فإن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) ، وعلى هذا يكون ردا على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين .

وعلى هذا المعنى ، أى غلبة الكافرين للمؤمنين ، جاء تفسير « التفسير الوسيط » للتعبير حيث قال : فلن يُغلب المؤمنون الصادقون فى الدنيا غلبة حقيقية . وإذا وقعت لهم هزيمة - فى بعض الأوقات - فهى للابتلاء والاختبار . وغالبا ما تكون نتيجة انحراف عن سلوك الطريق المستقيم - إذ ليس بين المؤمنين وبين النصر على أعدائهم إلا أن يعودوا إلى الله ، ويستكملوا حقيقة الإيمان : بالانقياد لكتاب الله والتمسك بشريعته ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغَيِّرَ مَا بَأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢) .

وجاء فى تفسير القرطبي : إن الله لا يجعل لهم (أى الكافرين) سبيلا يحوبه دولة المؤمنين ، ويذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم (٣) كما فى صحيح مسلم من حديث ثوبان عن النبى ﷺ قال : « وإنى سألت ربي ألا يهلكها بسنة (٤) عامة وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإنى قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبى بعضهم بعضا . إن الله - سبحانه - لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهاوا عن المنكر ، ويتقاعدوا عن التوبة ، فيكون تسليط العدو من قبلهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ « الشورى ٣ » .

والله يطمئن المؤمنين بوعد منه قاطع : لن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين . وفى تفسير هذه الآية وردت رواية أن المقصود بها يوم القيامة حيث يحكم الله بين المؤمنين والمنافقين فلا يكون هناك للكافرين على المؤمنين حجة .

(١) غافر ٥١ . (٢) الرعد ١٠ .

(٣) بيضة القوم : حوزتهم وحماتهم .

(٤) السنة : الجذب والقحط ، باب : سنة ، انظر : المعجم الوسيط .

والرواية الأخرى هى التى أوردناها فى البداية وغلبناها والتي تتعلق بالدنيا وأن الله لا يسلط الكافرين على المسلمين فى الدنيا تسليط استئصال ، وإن غلب المسلمون فى بعض المعارك أحيانا .

وإطلاق النص فى الدنيا والآخرة أقرب ، لأنه ليس فيه تحديد .

إنه متى استقرت حقيقة الإيمان فى نفوس المؤمنين ، وتمثلت فى واقع حياتهم منهجا للحياة ، ونظاما للحكم ، وتجردا لله فى كل خاطرة وحركة ، وعبادة لله فى الصغيرة والكبيرة - فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامى كله واقعة واحدة تخالفها .

إن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم فى تاريخهم كله إلا وهناك ثغرة فى حقيقة الإيمان . إما فى الشعور وإما فى العمل - ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة فى كل حين بنية الجهاد فى سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل شائبة . وفى غزوة «أحد» مثلا كانت الثغرة فى ترك طاعة النبى ﷺ وفى الطمع فى الغنيمة . وفى حين كانت الثغرة فى الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين فى تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا - نعرفه أو لا نعرفه . أما وعد الله فهو حق فى كل حين ؛ فالإيمان صلة بالقوة الكبرى التى لا تضعف ولا تفنى ، وأما الكفر فانقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها ، ولن تملك قوة محدوده مقطوعة أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة فى هذا الكون جميعا .

﴿ مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ (١)

﴿ مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ

سَبِيلًا ﴾ ١٤٣ - النساء (٤)

ذَبَذَبَ الشَّيْءُ الْمَعْلُقُ فِي الْهَوَاءِ : تحرك وتردد وذبذب فلان: تردد بين أمرين أو رجلين ولا تثبت صحبته لواحد منهما (فعل لازم) ، ومثله تَذَبَذَبَ .

وذذبب الشيء : حرَّكه ، وذذبب فلاناً : تركه حيراناً يتردد (فعل متعدى) .

وأصل الذذبذبة : حكاية صوت الحركة للشيء المعلق ، ثم استعير لكل حركة واضطراب ، أو تردد بين شيئين (٢) .

« مذذببين بين ذلك » : هؤلاء المنافقون مترددون متحيرون بين الكفر والإيمان ، لا مصرحين بالكفر ولا مخلصين بالإيمان . وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى » ، والعائرة : المترددة بين قطيعين لا تدرى أيهما تتبع .

وأضاف ابن كثير أن من المنافقين من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء يعنى أصحاب محمد ﷺ ، وتارة يميل إلى أولئك يعنى اليهود .

وموقف الذذبذبة ، والأرجحة والاضطراب ، وعدم الثبات فى أحد الصفتين : المؤمن أو الكافر - هذا الموقف يثير الاحتقار والاشمئزاز . كما أنه يوحى بالضعف الذاتى للمنافقين . ومن ثم استحقوا ألا يعينهم الله فى الهداية ، ولن يستطيع أحد أن يجد لهم طريقاً مستقيماً : « ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » .

« مذذببين » إما حال ، أو منصوب على الهم .

(١) راجع الآية السابقة : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » .

(٢) قال النابغة :

ترى كل ملكٍ دونها يتذبذبُ

ألم تر أن الله أعطاك سورةً

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ ١٤٤ -

النساء (٤)

« سُلْطَانًا مُبِينًا » : حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ ظَاهِرَةٌ . أَى حِجَّةٌ بَيِّنَةٌ فِي تَعْذِيهِ إِيَّاكُمْ . رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ حِجَّةٌ ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعُكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ
وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ .

وَمَعْنَى « أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا » : أُرْتَبِعُونَ ، بِمَوَالَاةِ الْكُفَّارِ ، أَنْ
تَكُونَ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ حِجَّةٌ وَاضِحَةٌ فِي تَعْذِيهِ إِيَّاكُمْ لِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ أَعْدَاءَ أَوْلِيَاءِ لَكُمْ . بَيْنَمَا هُمْ
يَبْغُونَ لَكُمْ الْهَزِيمَةَ وَلِدِينِكُمْ الزَّوَالَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي
وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ « الْمَتَحَنَّةُ ١ » . وَكَمَا قَالَ :
﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ
تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (١) أَى يَحْذَرُكُمْ عَقُوبَتَهُ فِي ارْتِكَابِكُمْ نَهْيِهِ .

﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ أَى لَا تَجْعَلُوا خَاصَّتَكُمْ وَبَطَانَتَكُمْ مِنْهُمْ ، لِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ
جَانِبَهُمْ .

وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ فِيهِ تَلْوِيحٌ وَتَحْذِيرٌ
مِنِ التَّعَرُّضِ لِعُضْبِ اللَّهِ وَبَطْشِهِ وَنَقْمَتِهِ ، وَلَا يَفْرَقُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ وَيَرْتَجِفُ أَكْثَرَ مِنْ فَرْقِهِ وَارْتِجَافِهِ
مِنِ التَّعَرُّضِ لِبَطْشِ اللَّهِ وَنَقْمَتِهِ .

(١) آل عمران ٢٨ .

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ

سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ ١٤٨ - النساء (٤)

جَهْرًا بِالْكَلَامِ وَنَحْوَهُ يَجْهَرُ جَهْرًا وَجِهَارًا : أَعْلَنَهُ .

السُّوءُ : كُلُّ مَا يَقْبَحُ

﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ : إِذَا جَهَرَ مَنْ ظَلَمَ ، اسْتَشْنَى مِنَ الْجَهْرِ الَّذِي لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ جَهْرَ الْمَظْلُومِ ، وَهُوَ أَنْ يَدْعُو عَلَى الظَّالِمِ وَيَذْكُرُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ السُّوءِ . فَالْمَظْلُومُ رُحِصَ لَهُ أَنْ يَدْعُو عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ .

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَارُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنْ لِي جَارًا يُؤْذِينِي . فَقَالَ لَهُ : « أَخْرَجْ مَتَاعَكَ فَضَعَهُ عَلَى الطَّرِيقِ » ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ مَتَاعَهُ فَطَرَحَهُ عَلَى الطَّرِيقِ فَكَلَّمَ مَنْ رَبَّه قَالَ : مَا لَكَ ؟ قَالَ : جَارِي يُؤْذِينِي ، فَيَقُولُ الْمَارُ : اللَّهُمَّ الْعَنهُ ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ . فَقَالَ الرَّجُلُ لَجَارِهِ : ارْجِعْ إِلَى مَنْزِلِكَ وَاللَّهِ لَا أُوذِيكَ أَبَدًا .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْخَطُ جَهْرَ الْمَظْلُومِ بِظُلْمِهِ ، بَلْ يَقْرَهُ ، لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْإِنْتِصَافِ مِنَ الظَّالِمِ وَمُكَافَحَةِ الظُّلْمِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ « الشُّورَى ٤١ » . وَلَوْ لَمْ يُبَيِّحْ لِلْمَظْلُومِ الْإِنْتِصَافَ مِنْ ظَالِمِهِ - مَهْمَا كَانَ مَكَانَهُ الْاجْتِمَاعِي - لَبَغَى النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلِضَاعَتِ الْقِيَمِ الْخَلْقِيَّةِ .

وَهَذَا الْحَقُّ الَّذِي أُعْطِيَ لِلْمَظْلُومِ يَشْمَلُ أَنْ يَشْكُو ظَالِمَهُ أَمَامَ الْقَضَاءِ ، بِأَنَّهُ يَقُولُ : أَخَذَ مَالِي ، أَوْ اعْتَدَى عَلَى أَرْضِي أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ . كَمَا يَشْمَلُ الدَّعَاءَ عَلَيْهِ ، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ قَرِيشٍ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَجْعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَنِينَ كَسَنَى يُوسُفَ (١) . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : « مَطَّلُ (٢) الْغَنَى ظُلْمٌ » ، فَالْمُوسِرُ الْمُتَمَكِّنُ إِذَا طَوَّلَ بِالْأَدَاءِ وَمَطَّلَ ظَلَمَ ، وَذَلِكَ يُبَيِّحُ مَنْ عَرَضَهُ أَنْ يَقَالَ فِيهِ : فَلَانَ يَطِّلُ النَّاسَ وَيَحْبِسُ حَقُّوقَهُمْ وَيُبَيِّحُ لِلْإِمَامِ أَدْبَهُ وَتَعْزِيرَهُ حَتَّى يَرْتَدِعَ عَنْ ذَلِكَ .

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أَيْ لَا يُحِبُّ اللَّهُ إِذْيَاءَ النَّاسِ بِالسُّوءِ الْفَاحِشِ مِنَ الْقَوْلِ ، كَسْتَمْتَهُمْ وَوَصَفْتَهُمْ بِالْأَوْصَافِ السَّيِّئَةِ ، وَالْقَدْحُ فِي أَعْرَاضِهِمْ ، سِوَاءَ أَكَانَ ذَلِكَ فِي مَوَاجِهَتِهِمْ أَمْ كَانَ فِي غَيْبَتِهِمْ .

وَمِنَ الْجَهْرِ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ : إِذْيَاعَةُ التَّمْثِيلِيَّاتِ وَالْأَفْلَامِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى الْقِصَصِ الْفَاجِرَةِ الَّتِي تَبْرُزُ فِيهَا الرَّذِيلَةُ ، وَتَسْمَعُ فِيهَا الْعِبَارَاتِ الْمُخْجَلَةَ ، وَالْأَصْوَاتِ الْمُنْكَرَةَ الْمَغْرِبِيَّةَ بِالْإِثْمِ - فَذَلِكَ يُبَغِّضُهُ اللَّهُ وَيُعَاقِبُ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْعِقَابِ ، لِخَطُورَتِهِ عَلَى الْأَخْلَاقِ .

(١) وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ .

(٢) الْمَطَّلُ وَالْمَاظِلَةُ : تَأْجِيلُ مَوْعِدِ الْوَفَاءِ بِالْحَقِّ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى .

ومن الجهر بالسوء نشر كتب الجنس وصوره التي تحرض الشباب على الفسق والانحلال الخلقى.

ومن الجهر بالسوء : نشر المبادئ الهادمة للعقيدة الإسلامية بطريق الكتب أو المحاضرات ، والتحدث عن النزوات وألوان الفسق .

ومثل القول السيء فى الحكم مَثَلُ كل ما أدى إلى الإيذاء من الهمز واللمز والكتابة والتصوير ، فكل ذلك حرام .

وقد أباح الله للمظلوم أن يجهر بالسوء عن ظالمه فقال : « إلامن ظلم » - فالإسلام يحمى سمعة الناس - ما لم يظلموا - فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية ، وأذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء فى ظالمه .

﴿ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قَلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ١٥٥ -

النساء (٤)

غُلْفٌ يَغْلَفُ غُلْفًا: كان في غطاء خلقي. يقال: غُلْفَ قلبه: لم يع الرشد (الهدى)، كأن على قلبه غلافًا حجب عنه الفهم، فهو أغلّف وهي غلّفاء، والجمع: غلّفٌ.

يحكى القرآن في الآيتين السابقتين على هذه الآية أن اليهود أبوا الاستسلام لسلطان الله وشريعته التي جاءهم بها موسى في الألواح، وهنا جاءهم القهر المادى، إذ نظروا فرأوا صخرة جبل الطور معلقة فوق رؤوسهم تهددهم بالوقوع عليهم إذا لم يستسلموا ويتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد وما كتب عليهم من التكاليف في الألواح. عندئذ فقط استسلموا وأخذوا العهد وأعطوا الميثاق غليظًا مؤكدًا - وصفه القرآن بالغلظة ليتناسق مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم، ومع غلظ القلب الذى فى صدورهم - وهكذا يوظف القرآن أدوات التخيل الحسى والتجسيم. « وآتينا موسى سلطانا مبينا. ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ».

وكان فى هذا الميثاق: أن يدخلوا بيت المقدس سجدا، وأن يعظموا حرمة يوم السبت الذى طلبوا أن يكون لهم عيدا. لكنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم، تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه وكفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه، وتبجحوا وقالوا: قلوبنا غلّف لا تقبل موعظة ولا يصل إليها قول، قالوا هذا إما تبييسا للرسول من إيمانهم وإما تبجحا واستهزاء. عندئذ يرد عليهم السياق: « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ». فقلوبهم ليست مغلفة بطبعها، إنما كفرهم هو الذى جر عليهم أن يختم الله على قلوبهم بخاتم يحجبها تماما عن تلقى الإيمان، فلا تستشعر نداوته ولا تتذوق حلاوته، ولا يؤمن منهم إلا قلة قليلة هداهم الله وزرقتهم الإيمان مثل عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد الله.

﴿ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾

﴿ لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ١٦٢ - النساء (٤)

رَسَخٌ يَرَسُخُ رَسُوخًا: ثبت في موضعه متمكنا ، ورَسَخَ الْعِلْمُ فِي قَلْبِهِ: تمكن فيه ولم تعرض له فيه شبهة .

ويقال : هو من الراسخين في العلم ، وله فيه قدم راسخة .

﴿ الراسخون في العلم ﴾ : الثابتون فيه المتقنون المستبصرون .

يقرر السياق أن الذي هدى القلة المؤمنة من اليهود ، إلى التصديق بما أنزل إلى الرسول ﷺ وبما أنزل من قبله ، هو الرسوخ في العلم وهو الإيمان - فالعلم الراسخ ، والإيمان المنير ، كلاهما يقود إلى الإيمان بالدين كله

ذكر القرآن العلم الراسخ على أنه طريق إلى المعرفة الصحيحة مثله كمثل الإيمان الذي يفتح القلب للنور ، وهذه لفظة قرآنية تصور واقع النفس البشرية في كل حين . فالعلم السطحي كالكفر الجاحد ، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة . فالذين يتعمقون في العلم ويأخذون منه بنصيب حقيقي ، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية ، أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة ، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إليها واحدا مسيطرا مدبرا متصرفا . أما الذين يتناوشون المعلومات ويحسبون أنفسهم علماء ، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان ، أو لا تبرز لهم - بسبب علمهم الناقص السطحي - علامات الاستفهام . فالعلم الراسخ يقود صاحبه إلى هذا الدين .

ويضم السياق القرآني هؤلاء جميعا إلى موكب المؤمنين الذين تعينهم صفاتهم: ﴿ والمقيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

ونلاحظ أن ﴿ المقيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ تأخذ إعرابا غير سائر ما عطفت عليه . وقد يكون ذلك لإبراز قيمة إقامة الصلاة بمعنى : وأخص المقيمِينَ الصلاة ، ولها نظائر في القرآن الكريم كما في قوله تعالى : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ وهو سائغ في كلام العرب كما قال الشاعر :

لا يبعدن قومي الذين همو أسد العداة وآفة الجزر

النزالين بكل معترك والطيبون معاقد الأزر

والغرض إبراز معنى خاص في السياق له مناسبة خاصة . وهي هكذا منصوبة في سائر

المصاحف ، وإن كانت قد وردت مرفوعة ﴿ والمقيمون الصلاة ﴾ في مصحف عبد الله بن

﴿ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ١٧١ - النساء (٤)

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ : غلّت اليهود في حطّ المسيح عن منزلته ، حيث جعلته مولودا لغير رشدة (أى مولودا لزنيّة) ، وغلّت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلهًا . بل لقد غلّوا في رفع أتباع سيدنا عيسى وأشياعه ، فادعوا فيهم العصمة واتبعوه في كل ما قالوه سواء أكان حقا أو باطلا ، أو ضلالا أو رشادا ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (١) . روى الإمام أحمد عن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا تطرونى (٢) كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ورواه البخارى .

﴿ لا تَغْلُوا ﴾ : لا تجاوزوا الحد ولا تُفَرِّطُوا . وَالغُلُوُّ : مجاوزة الحد . غَلَا يَغْلُو غُلُوًّا : جاوز الحد ، فهو غال وغلى . وغَلَا فلان فى الأمر والدين : تشدد فيه وجاوز الحد وأفرط ، فهو غال والجمع غُلَاةٌ .

الغُلُوُّ وتجاوز الحد والحق دعا أهل الكتاب إلى أن يقولو على الله غير الحق ، فيزعمون أن له ولدا ، كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة . وقد تطورت عندهم فكرة النبوة وفكرة التثليث . لكنهم اضطروا أمام الاشتمزاز الفطرى من نسبة الولد لله (وهو الاشتمزاز الذى تزيده الثقافة العقلية) أن يفسروا النبوة بأنها ليست عن ولادة كولد البشرية ، ولكن عن المحبة بين الأب والإبن . وأن يفسروا الإله الواحد فى ثلاثة - بأنها صفات لله سبحانه فى «حالات» مختلفة ، وإن كانوا لا يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة إلى الإدراك البشرى . فهم يحيلونها إلى معميات غيبية .

وتعالى الله عن الشركة ، وتعالى الله عن المشابهة ؛ وكونه خالقا يستتبع أن يكون غير الخلق . وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التغير بين الخلق والخالق : ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ﴾ .

قال القرطبي : فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر ، ولذلك قال مطرف بن عبد الله : الحسنه بين سيتين .

(٢) أطراه : أحسن الثناء عليه .

(١) التوبة (٣١) .

وقال الشاعر :

وأوفٍ ولا تَسْتَوِفُ حَقَّكَ كَلِّهِ
ولا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ واقتصدْ

وقال آخر :

عليك بأوساط الأمور فإنها

وصافحٌ فلم يستوفِ قَطُّ كَرِيمُ
كلا طرفي قصد الأمور ذميمُ

نجاة ولا تتركبْ ذكولاً ولا صَعْباً

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

﴿ أَن تَعْتَدُوا ﴾ ٢ - المائدة (٥)

جَرَّمَ يَجْرِمُ جَرْمًا كَسَبَ ، وَجَرَّمَ : أذنب

وَجَرَّمَ الرَّجُلَ : حَمَلَهُ جُرْمًا . ويقال : جَرَمَنِي كَذَا عَلَى بَغْضِكَ أَيْ حَمَلَنِي عَلَيْهِ ؛ قَالَ

الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا عَيْبَةَ طَعْنَةً جَرَمْتَ فِزَارَةَ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا

أَيْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الْغَضَبِ .

﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ أَيْ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالْكَسَائِيُّ ﴿ شَنَاٰنُ ﴾ : بُغْضٌ .

يقال : شَنَنْتُ الرَّجُلَ أَشْنُوهُ شَنَاً وَشَنَاةً وَشَنَاٰنًا إِذَا أَبْغَضْتَهُ . وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ « شَنَاٰنُ قَوْمٍ » :

بِغْضِكُمْ قَوْمًا ، فَأُضِيفَ الْمَصْدَرُ إِلَى الْمَفْعُولِ . وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَدْ صَدَّوْا الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ عَامَ الْحَدِيثِ (سَنَةٌ مِنْ الْهَجْرَةِ) . « أَنْ صَدُّوكُمْ » مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ أَيْ لِأَنَّ صَدُّوكُمْ .

وَالْآيَةُ نَزَلَتْ عَامَ الْفَتْحِ ، وَمَكَّةَ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ .

وَعَلَيْهِ يَكُونُ مَعْنَى التَّعْبِيرِ : وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ بِغْضِكُمْ لِلْمُشْرِكِينَ - بِسَبَبِ صَدُّهُمْ إِيَّاكُمْ عَنِ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَامَ الْحَدِيثِ - عَلَى الْإِعْتِدَاءِ عَلَيْهِمْ . وَهَذَا مِنْ عَدَالَةِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ

عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ حَالٍ . وَالْعَدْلُ بِهِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ .

وَفَسَّرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْفَرَاءُ التَّعْبِيرَ عَلَى أَسَاسِ أَنَّ جَرَّمَ بِمَعْنَى كَسَبَ ، فَقَالَا : لَا يَكْسِبَنَّكُمْ

بِغْضِ قَوْمٍ أَنْ تَعْتَدُوا الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ وَالظُّلْمَ إِلَى الْعَدْلِ .

التعبير موجود أيضا في الآية ٨ - المائدة .

﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٣ -

المائدة (٥)

جَنَفٌ يَجْنَفُ جَنْفًا : مال وجار ، وهو شبيه بالحَيْف .

تجانف لإثم : تمايل إليه فهو متجانف .

« غير متانف لإثم » غير مائل إليه متعمدا .

« مخمصة » : شدة الجوع . والخمص ضمور البطن . ورجل خميص وخمصان ، وامرأة خميصة وخمصانة . وفي الحديث : « خماص البطون خفاف الظهور » ، الخماص جمع الخميص البطن ، وهو الضامر ، أخير أنهم أَعْقَاءُ من أموال الناس .

والمعنى : قد يتعرض الإنسان للجوع الشديد ولا يجد ما يأكله سوى المحرمات التي وردت في أول الآية : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير . . ﴾ فيضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات ، إنقاذاً لحياته ، لأنه لا يجد غيرها أمامه . فكان من رحمة الله بعباده : أن رفع الحرج^(١) عن المضطر ، إذا تناول شيئاً من هذه المحرمات ، بشرط أن يكون غير مائل إلى الإثم ، فلا يتجاوز في أكله حدَّ الضرورة .

واختلف الفقهاء في حد الضرورة : هل يتناول من المحرمات قدر ما يسد به الرمق^(٢) ، أو له أن يشبع ، أو يشبع ويتزود؟

وقد قررت الآية مبدئين من مبادئ التشريع :

أولهما : أن الضرورات تبيح المحظورات .

ثانيهما : أن الضرورة تقدر بقدرها .

قرأ النخعي ويحيى بن وثاب والسلمي « مُتَجَنِّفٌ » من غير ألف ، وهو أبلغ في المعنى ، لأن تشديد عين الفعل (وهو النون) يقتضى مبالغة وتوغلا في المعنى وثبوتاً لحكمه .

(٢) الرَّمَقُ : بقية الروح .

(١) الحرج هنا : الإثم .

﴿ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ
النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ
مِنْهُ ﴾ ٦ - المائدة (٥)

غَاطَ يَغُوطُ أَوْ يَغِيظُ غَوَاطًا وَغَيْطًا : دخل في الشيء، وغاب والغوط والغيط : المطمئن (١)
الواسع من الأرض ، جمعه غيطان وغياط . والتغويط : إبعاد قعر البئر . والغائط : الواسع
المنخفض من الأرض .

والغائط : كناية عن العذرة ؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا ذلك أتوا الغائط وقضوا الحاجة ، أو
لأنهم كانوا يلقونها في الغيطان - ومنه قيل لمن قضى حاجته : أتى الغائط .

قال القرطبي : كانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء حاجتها تسترا عن أعين
الناس ، ثم سمي الحدث (٢) الخارج من الإنسان غائطا للمقارنة . فالغائط كناية عن الأحداث
الخارجة من المخرجين .

﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ أى أحدثتم حدثا أصغر أو أكبر .
وعن اللمس قال عبد الله بن مسعود : كل مادون الجماع لمس ، والقبلة من اللمس . أما
عبد الله بن عباس فقال : اللمس والمس والغشيان الجماع ، ولكنه عز وجل يكتفى .

(١) المنخفض .

(٢) الحدث عند الفقهاء : النجاسة الحكمية التي ترتفع بالوضوء أو الغسل أو التيمم ، وأحدث الرجل : وقع
منه ما ينقض طهارته . وجمع حدث : أحداث .

﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾
 ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ
 النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ
 مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
 عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٦ - المائدة (٥)

معنى التعبير : اقصدوا ترابا طاهرا وامسحوا به وجوهكم وأيديكم .
 تَيَمَّمَهُ : قصده وتوخاه . وتيمم الصعيد : يراد قصده للتطهر بدلا عن الوضوء أو الغسل في
 بعض الأحوال ، وذلك بأن يضرب الأرض ضربتين : ضربة يمسح بها الوجه ، وضربة يمسح بها
 اليدين إلى المرفقين ، قياسا على الوضوء . وهذا مذهب مالك في المدونة ، ومذهب الأوزاعي
 والشافعي وأبي حنيفة والثوري والليث وابن أبي سلمة ، رواه جابر وابن عمر عن النبي ﷺ .
 والتيمم يكون بالمسح على الوجه واليدين ، ورغم أن كلمة التيمم تعنى القصد ، إلا أنه مع
 كثرة استعمال الكلمة فإنها أصبحت تعنى مسح الوجه واليدين بالتراب . قال ابن النباري :
 تيمم الرجل معناه : قد مسح التراب على وجهه ويديه .

الصعيد : وجه الأرض . والصعيد : التراب
 « طيبا » أى طاهرا ، فكلمة الطيب قد يراد بها الحلال ، ويفسر الحِلُّ بما يناسبه كالطهارة في
 هذا التعبير ، فمعنى «صعيدا طيبا» : ترابا طاهرا (١) .

قال القرطبي : التيمم مما خُصَّتْ به هذه الأمة توسعة عليها ، قال رسول الله ﷺ : « جعلت
 لى الأرض مسجدا وترابها طهورا » .

والتيمم يلزم كلَّ مكلفٍ لزمته الصلاة إذا عَدِمَ الماء (٢) ودخل وقت الصلاة .
 وفى فضل الوضوء والطهارة قال صلى الله ﷺ : « الطهور شرط (٣) الإيمان » ، أخرجه
 مسلم من حديث أبى مالك الأشعري . والوضوء أصل فى الدين وطهارة المسلمين .
 « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم » : لا يريد الله أن يشدد ويضيق
 عليكم ، ولكن يريد أن يطهركم من الأدناس والأقذار ومن الذنوب والأوزار ، لأن الوضوء
 والغسل - كما ينظف الجسم من الأقذار - يكفر الله به الذنوب والخطايا .

(١) الطَّيِّبُ : صفة لما تستلذه الحواس والنفس ، من الفعل طاب الشيءُ طيباً : لَدُوْزَكَ . ووصفت به ، على سبيل المجاز ، الأخلاق
 والكلام . وقد يكون ما تستلذه النفس حلالا شرعا ، فيكون حلالا طيبا ، وعلى هذا وصف الطيب فى القرآن بأنه حلال : « كلوا
 مما فى الأرض حلالا طيبا » .

(٢) أى فقده .

(٣) الشَّطْرُ : نصف الشيء ، هذا جزء من الحديث . أما الحديث بتمامه فهو قول ﷺ : « الطهور شرط الإيمان ، والحمد لله عملا الميزان ،
 وسبحان الله والله أكبر عملا ما بين السماء والأرض ، والصوم جنَّة ، والصبر ضياء ، والصدقة برهان ، والقرآن حجة لك أو
 عليك . كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٦ - المائدة (٥)

الْحَرَجُ : الضَّيْقُ أَوْ أَضْيَقُ الضَّيْقِ . حَرَجَ حَرَجًا : ضَاقَ .

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » : والله لا يريد أن يضيق عليكم فرخص لكم في التيمم عند عدم وجود الماء . قال ابن كثير : فالله سهل عليكم ، ويسر ولم يُعسر ، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء ، توسعة عليكم ورحمة بكم .

وقيل في معنى التعبير : إن الله لا يريد - بما فرضه عليكم من الوضوء والغسل والتيمم - أن يضيق عليكم ويكلفكم العنت ، وإنما يريد أن يطهركم من الأدناس والأقذار ، وكذا من الذنوب والأوزار . روى الإمام أحمد عن عمرو بن عبسة قال : قلت يا رسول الله أخبرني عن الوضوء ، قال : « ما منكم من أحد يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق وينثر إلا خرت خطاياه من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينتثر ، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله ، ثم يمسخ رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء ، ثم يقوم فيحمد الله ويثنى عليه بالذي هو له أهل ، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

والتيمم - كالوضوء - في هذا الثواب الجزيل . (انظر : التفسير الوسيط) .

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : « لا يقبل الله صدقة من غُلُول ولا صلاة بغير طهور » . وكذا رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه .
« من » في قوله « من حرج » : صلة أى ليجعل عليكم حرجًا .

﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ ﴾

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ٧ - المائدة (٥)

« ميثاقه الذى واثقكم به » : عهده الذى عاهدكم عليه .

واثقه على كذا وبكذا : عاهده عليه .

والميثاق : العهد ، إذ به يكون الوثوق والطمأنينة من الفعل وثق به يتق ثقةً وموثقاً : اتتمنه وسكن إليه .

وأيضا الميثاق ما يُشد به العهد ويؤكد ، من أوثقه إيثاقا : شده بحبل أو سلسلة أو نحوهما - فكان الميثاق عهداً على التزام العهد .

يقول تعالى مذكرا عباده المؤمنين نعمته عليهم فى شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق فى مبايعته على متابعتة ومناصرتة ومؤازرتة . والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه ، فقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ . وهذه هى البيعة التى كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم ، كما قالوا : بايعنا رسول الله ﷺ ، على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله .

والميثاق المقصود فى هذه الآية هو بيعة العقبة الثانية ، سنة ثلاث عشرة من النبوة ، حين بايعهم الرسول على السمع والطاعة ، فى حال اليسر والعسر ، والمنشط والمكره^(١) كما أخرج البخارى ومسلم من حديث عبادة بن الصامت .

وإضافة الميثاق إلى الله - سبحانه - مع صدوره عن النبى ﷺ ، لكون المرجع إليه سبحانه .

(١) الْمَشْطُ : مَا يُخَفَّ إِلَيْهِ وَيُؤْتَرُ فَعَلَهُ . وَالْمَكْرَهُ : مَا يَكْرَهُهُ الْإِنْسَانُ وَيُشَقُّ عَلَيْهِ ، وَالْجَمْعُ : مَكَارِهِ .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ٧ - المائدة (٥)

« ذات » : مؤنث ذو (١) ، فهي بمعنى صاحبة .

« بذات الصدور » أى بالخفايا صاحبة الصدور ، على تقدير موصوف محذوف وهو الخفايا .

وتقال « ذات » أيضا للحالة ، ويكون معنى « بذات الصدور » : بالحالة التى فى الصدور ، وهى سريرة (٢) الإنسان .

جاء فى « التفسير الوسيط » : واتقوا الله فى سركم وعلانيتكم ، وفى كل ما تأتون ، وماتذرون ، فهو سبحانه وتعالى ، عليم بذات الصدور ، لاتخفى عليه خافية . والمراد بذات الصدور : النوايا التى اشتملت عليها الصدور والقلوب . وتخصيص العلم بها للتحذير من المخالفة فى السر ، وللايذان بعلمه بما عداها بطريق الأولى .

وقال ابن كثير فى « تفسير القرآن العظيم » : « واتقوا الله » تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى فى كل حال . ثم أعلمهم أنه يعلم مايتخالج فى الضمائر من الأسرار والخواطر فقال : « إن الله عليم بذات الصدور » .

وقال القرطبى : ذات الصدور هى الصدور ، لأن ذات الشئ نفسة . وفى « تفسير الجلالين » : « بذات الصدور » أى بما فى القلوب .

وجاء فى « فى ظلال القرآن » : وذات الصدور هى الأسرار الخفية الملازمة للصدور ، المختبئة فيها ، المصاحبة لها ، التى لاتبارحها ولا تتكشف فى النور - والله عليم بذات الصدور هذه .

والتعبير موجود فى ١١٩ و ١٥٤ / آل عمران ، وفى مواضع أخرى عديدة .

(١) ذو بمعنى صاحب ، وهو اسم يُتوصَّل به إلى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع ، ويضاف إلى الظاهر دون

المضمّر ، ومثناه ذوان وجمعه ذوون . (٢) السريرة : ما يكتمه المرء فى نفسه .

(٣) اختلج الشئ : تحرك واضطرب . ويقال : اختلج فى صدرى كذا أى خَطَرَ مع شبك .

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ ﴾ ٨ - المائدة (٥)

قَوَّامٌ : صيغة مبالغة فى قائم ، يقال : هو قَوَّامٌ على أهله أى دائم القيام بشئونهم والسهر على مصالحهم . الجمع : قوامون .

« كونوا قوامين لله » : هذا أمر من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأن يكون دأ بهم - دائما -

القيام لله بحقوقه ؛ فى أنفسهم بالعمل الصالح ، وفى غيرهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقال ابن كثير : كونوا قوامين بالحق لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة .

وقال الشوكانى : « لله » أى لأجله تعظيماً لأمره وطمعا فى ثوابه .

« شهداء بالقسط » أى يؤدوا الشهادة بالعدل .

« ولا يجرمكم شنان قوم على ألا تعدلوا » : ولا يحملتكم بغض قوم أو عداوتهم على أن

تجوروا فى حكمكم أو تغيروا فى شهادتكم .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى أن العدل هو أقرب الطرق الموصلة إلى تقوى الله وخشيته .

﴿ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ

فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ١١ - المائدة (٥)

بَسَطَ الْيَدَ : مَدَّهَا طَلْبًا لشيء ، وتارة يستعمل للصلوة والضرب ، وتارة يستعمل للبذل

والعطاء .

يقال : بَسَطَ فلانٌ يده بما يحب ويكره . ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أى بالسوء

. يذكر الله عباده المؤمنين بنعمته عليهم عندما أنجاهم من أعدائهم عندما أرادوا البطش بهم

بالقتل . « فكف أيديهم عنكم » أى منعهم .

وقد ورد فى سبب نزولها - كما فى صحيح مسلم وغيره - أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ

وأصحابه بعسفان قد قاموا إلى صلاة الظهر . فلما صلوا ندم المشركون ألا كانوا أكبروا عليه ؟

وهموا أن يوقعوا بهم (أى بالمسلمين) إذا قاموا إلى صلاة العصر بعدها . فرد الله - تعالى -

كيدهم بأن أنزل صلاة الخوف .

التعبير موجود فى المتحنة ٢ .

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٣ ، ١٤ المائدة (٥)

خَانَ يَخُونُ خَوْنًا وَخِيَانَةً ، فهو خائن وهم خائنون .

والخائنة اسم فاعل من خان ، أى مصدر جاء على وزن فاعلة مثل العاقبة .

ومعنى «خائنة منهم» أى خيانة منهم ، أو نفس خائنة أو فرقة خائنة منهم على أن تكون نعتا لمحدوف هو نفس أو فرقة .

ويقال : رجل خائنة إذا بالغت فى وصفه بالخيانة ، كما يقال : رجل نسابة وعلامة .

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم » أى إن الغدر والخيانة عادة مستمرة لليهود ، منتقلة فيهم من الأصول إلى الفروع . فلا تزال ، أيها الرسول ، تطلع وتقف من هؤلاء اليهود المعاصرين ، على خيانة إثر خيانة . فهم قوم لا عهد لهم ولا وفاء عندهم .

قال ابن كثير : لا تزال تطلع على مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك . وقال مجاهد وغيره : يعنى بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ، ﷺ .

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ ﴾ ١٣ ، ١٤ - المائدة (٥)

أَغْرَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ : ألقاها ، كأنه ألزقها بهم . وأصل الكلمة : الغراء والغرأ^(١) : ما يُلصَقُ به .

جاء فى « التفسير الوسيط » : بث الله فيهم العداوة والبغضاء ، حتى صارت صفة ملازمة لهم . وقال القرطبي فى معنى « أغرينا » : هيجنا . وحكى الرماني : الإغراء تسليط بعضهم على بعض .

« بينهم » : ظرف للعداوة . والبغضاء : البغض . قال السدى وقتادة : بعضهم لبعض عدو إشارة إلى اليهود والنصارى لتقدم ذكرهما . وقال الربيع بن أنس : أشار إلى افتراق النصارى خاصة لأنهم أقرب مذكور ، وذلك أنهم افترقوا إلى اليعاقبة والنسطورية والملكانية ، أى كفر بعضهم بعضا ، كل طائفة تكفر الأخرى .

(١) غراء (بكسر الغين) ممدود ، وغرأ (بفتح الغين) مقصور .

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) - المائدة (٥)

السلام (٢) : النجاة والأمان من الشرور والآفات .

« سبل السلام » : طرق النجاة والسلامة ، ومناهج الاستقامة .

وقال القرطبي : طرق السلامة الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة والمؤمنة من كل مخافة ، وهي الجنة .

يهدى الله به - أى بهذا القرآن - من اتبع رضوان الله ، أى كل ما يرضى ربه ، طريق النجاة والفلاح .

﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ

أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ ٢١ - المائدة (٥)

أدباركم : جمع دبر ، والدبر : مؤخر كل شىء وظهره وعقبه . وهو نقيض القبل .

﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ ﴾ أى : إلى ما خلفكم من الأماكن . وفى «التفسير الوسيط» : ولا تنكصوا على أعقابكم .

وقال ابن كثير : ولا تنكلوا عن الجهاد . وقال القرطبي ما هو قريب من ذلك : لا ترجعوا عن طاعتي وما أمرتكم به من قتال الجبارين .

(١) راجع آخر الآية السابقة : ﴿ . . . قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ .

(٢) ومن السلام بمعنى الأمان جاءت التحية : السلام عليكم ، وأصله أن يُطمئن غيره بالأمان والنجاة منه .

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوَّءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ

الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ ٢٩ - المائدة (٥)

بَاءَ يَبُوُّ بُوًّا وَبُوَاءً : رَجَعَ .

وباء بذنبه وبإثمه : إحتمله وصار المذنب مأوى الذنب . قال الأصمعي : بء بإثمه : إذا أقرَّ به . وفى الحديث : « أبوء بنعمتك علىّ ، وأبوءُ بذنبي أى التزمُ وأرجعُ وأقر . » وأصل البوَاء اللزوم ، وفى الحديث : « فقد بء به أحدهما » أى التزمه ورجع به . وفى حديث وائل بن حجر : إن عفوت عنه ، يبوء بإثمه وإثم صاحبه ، أى كان عليه عقوبة ذنبه وعقوبة قتل صاحبه .

« تبوء بإثمى وإثمك » أى بإثم قتلى وإثمك الذى عليك قبل ذلك ، قاله ابن جرير ، وهو قول أكثر المفسرين .

وقيل فى معنى « بإثمى » : الذى يختص بى فيما فرطت ؛ أى يؤخذ من سيئاتى فتطرح عليك بسبب ظلمك لى ؛ وهذا يعضده قول النبى ، عليه الصلاة والسلام : « يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد فى حسنات المظلوم حتى ينتصف فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه » . وتبوء بإثمك الذى تحتمله لقتلك إياى .

هذه الآية وردت فى سياق قصة ولدى آدم : « وائل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بياسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين . إني أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك . . » إلى آخر الآية . وفيها تذكير بشناعة جريمة القتل حيث قال تعالى بعد ذلك : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل ^(١) من دمها لأنه كان أول من سنّ القتل » . وقد أخرجه الجماعة سوى أبى داود .

(١) الكفل : النصيب .

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

٣٠- المائدة (٥)

من الحسى فى المادة : فرسٌ طَوَّعُ العِنانِ أى سَلَسُ العِنانِ . ومنه يجىء المعنوى من الانقياد والاستجابة .

أطاعَ فلاناً وطاوَعَه : وافقه وانقاد له .

وطوَّعتْ له نَفْسُهُ كذا : طاوَعته عليه ، أى زينته وشجعتَه عليه .

قال القرطبى فى معنى التعبير : أى سولت وسهلت نَفْسُهُ عليه الأمر وشجعتَه ، وصورت له أن قتل أخيه طَوَّعٌ سَهْلٌ له .

﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ٣٢ -

المائدة (٥)

« بَغَيْرِ نَفْسٍ » : بغير قصاص في نفس ، أى بغير أن يكون من وقع عليه القتل قاتلاً
فيستحق القتل .

وقد حرم الله القتل في جميع الشرائع إلا بثلاث خصال : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد
إحصان ، أو قتل نفس ظلماً وتعدياً .

كتب الله أن من قتل نفساً بغير قصاص ، أو بغير فساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس
جميعاً ، لأن الواحد صورة للجماعة ، فالجراحة على قتله استهانة بالمجتمع كله ، وجراحة عليه
كله . ولقد اهتدى علماء القانون إلى ما قرره القرآن الكريم . من أن العدوان على الفرد يعتبر
عدواناً على المجتمع ؛ ولذا لو تنازل المجنى عليه - أو ورثته عن حقوقهم - قبل الجاني - فمن
حق النائب العام الذي يمثل المجتمع ، عدم التنازل ، حفاظاً على حق المجتمع وصوناً
لحرماته .

« ومن أحياها » : أى من عفا عمن وجب قتله . وروى عن مجاهد أن إحياءها هو إنجاؤها
من غرق أو حرق أو هلكة ، فالإحياء هنا مجاز .

وفائدة هذا التشبيه : تهويل أمر القتل والترهيب والردع من قتل نفس واحدة ، بتصويره
بصورة قتل جميع الناس ، هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى ، الترغيب والتحفيز على
إحيائها ، بتصوير هذا الإحياء بصورة إحياء الناس جميعاً .

﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ

لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ ٣٥ - المائدة (٥)

الوسيلة إلى الله : ما يُوصَلُّ إلى ثوابه والزلفى (المنزلة) لديه، وذلك بفعل الطاعات وترك المعاصي . وقال القرطبي :

الوسيلة هي القربة ، والقربة : ما يتقرب به إلى الله تعالى من أعمال البر والطاعة . وقال قتادة : « ابتغوا إليه الوسيلة » أى تقربوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه . والوسيلة فعيلة من توسلت إليه أى تقربت .

وعطف « وابتغوا إليه الوسيلة » على ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يفيد أن الوسيلة غير التقوى ؛ وقيل : هي التقوى ، لأنها ملاك الأمر وكل الخير فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى . والظاهر أن الوسيلة التي هي القربة تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير التي يتقرب العباد بها إلى ربهم . « ابتغوا إليه الوسيلة ^(١) » أى اطلبوا القربة إليه لا إلى غيره .

جاء فى « التفسير الوسيط » أن الاستعانة بمخلوق وجعله وسيلة - بمعنى طلب الدعاء منه - لاشك فى جوازه إذا كان هذا المخلوق حيا ، ولايتوقف على أفضليته عن الطالب ، بل قد يطلب الفاضل من المفضول . فقد صح أن النبى ، ﷺ ، قال لعمر لما استأذنه فى العمرة : « لا تَنسَنَّا يا أخى من دعائك » . وأمره أن يطلب من أويس القرنى - رحمه الله - أن يستغفر له ، وأمر أمته ، ﷺ ، بطلب الوسيلة له ، وبأن يصلوا عليه .

أما إذا طلبت الوسيلة من شخص ميت أو غائب ، فلا يستريب ^(٢) أى عالم فى أنه غير جائز ، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من السلف الصالح رضوان الله عليهم . ولم يرد عن أحد من الصحابة - وهم أحرص الخلق على كل خير - أنه طلب من ميت شيئا . واستدل الشيخ الألوسى على أن التوسل لا يكون إلا بالأحياء ، بما ورد فى صحيح البخارى عن أنس أن عمر - رضى الله عنه - كان إذا قَحَطُوا ^(٣) استسقى ^(٤) بالعباس ، رضى الله عنه ، فقال : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبىك - ﷺ - فنتسقين ، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا فَيُسْقَوْنَ » - فلو كان التوسل به عليه الصلاة والسلام ، بعد انتقاله من دار الدنيا ، جائزا ، لما عدلوا إلى غيره .

(١) والوسيلة أيضا درجة فى الجنة مختصة برسول الله ﷺ . وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة أت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة » .

(١) يرى ما يدعو إلى الشك والظن (انظر : لسان العرب) .

(٢) قحطوا : أصابهم القحط ، والقحط : احتباس المطر ويئس الأرض .

(٣) طلب السقيا أى الغيث والرئى .

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ ٤١ - المائدة (٥)

حَرَّفَ الشَّيْءَ : طَرَفَهُ وَحَدَّهُ . وَحَرَّفَ الشَّيْءَ : أَمَّالَهُ

وَحَرَّفَ الْكَلَامَ : غَيَّرَهُ وَصَرَفَهُ (أَي رَدَّهُ) عَنْ مَعْنَاهُ .

« يحرفون الكلم من بعد مواضعه » أى يميلونه عن مواضعه التى وضعه الله فيها ويتأولونه على غير معناه - فهم يغيرونه بالزيادة والنقصان وإساءة التأويل ومعنى « من بعد مواضعه » : من بعد كونه موضوعا فى مواضعه التى وضعه الله فيها من حيث لفظه أو من حيث معناه .

ومعنى « الكلم » : الكلام .

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا اللَّهَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ٤٤ - المائدة (٥)

بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴿ ٤٤ - المائدة (٥)

معنى التعبير : ولا تأخذوا لأنفسكم بدلا من آياتى ، عوضا قليلا ، وهو حظوظ الدنيا الفانية .

وفى دخول الباء على « آياتى » ما يؤذن بأنهم يتخذونها وسائل يجتلبون بها المنافع لأنفسهم .

وفى « التفسير الوسيط » : لا تستبدلوا بآياتى المنزلة ثمنا قليلا ، وذلك بتغييرها وتبديلها ، فى مقابل رشوة تأخذونها أو جاه تحرصون عليه ، أو أى حظ من خطوط الدنيا وزخرفها .

علم الله - سبحانه - أن بعض المُستحفظين على كتابه (أى الذين كُلفوا المحافظة عليه وحمايته وحماية أحكامه من التغيير والتبديل) قد يضعفون أمام أصحاب السلطان وأصحاب المال والشهوات الذين لا يريدون حكم الله ، فيقوم هؤلاء المُستحفظون بتحريف آيات الله وتقديم فتاوى مدخولة (١) مقابل عطاء دنيوى : راتب أو وظيفة أو لقب أو مصلحة . ولذلك ناداهم الله : « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » ، وكل عوض أو ثمن دنيوى هو فى حقيقته قليل . كما أن تفریط المستحفظ فى الأمانة التى عهد إليه أن يحافظ عليها أمر شنيع وبشع .

فالآيات هنا : أحكام الله وأوامره ونواهيه . والثمن هو الدنيا ومدتها والعين فيها وهو نَزْرُ (٢) لا خطر له ، وسمى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا ، فانطلق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمنا .

(١) الدَّخْلُ : ما داخل الإنسان من فساد فى عقل أو جسم ، والدخَل : العيب والغش والفساد . وقد دُخِلَ دَخْلًا ، فهو مدخول أى فى عقله دَخْلٌ (فساد) . وفى حديث قتادة بن النعمان : وكنت أرى إسلامه مدخولا ، يعنى أن إيمانه كان فيه نفاق .
(٢) النَّزْرُ : القليل .

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فُيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ ﴾ ٤٨ - المائدة (٥)

استبقا : تباريا فى السير

واستبقا الشيء : تباريا فى السير للوصول إليه .

﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ : فليسبق كل منكم الآخر إلى فعل الخيرات ، والخيرات هى طاعة الله واتباع شريعة الإسلام التى جاء بها القرآن الذى هو آخر كتاب نزل من عنده تعالى .

فالتعبير يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى الخيرات وهى جميع الطاعات بالعموم .

والخيرات جمع خيرة ، وهى الصالحة والفاضلة من الناس والأمور .

والتعبير موجود فى سورة البقرة آية ١٤٨ .

﴿ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ

حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ ٥٣ - المائدة (٥)

﴿ أقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ : أى أقسموا وبالغوا فى اليمين جاهدين فيه . والتعبير موجود فى الأنعام ١٠٩ ، النحل ٣٨ ، النور ٥٣ ، فاطر ٤٢ وفى « فتح القدير » قال الشوكانى : جهْدُ الإِيمان : أغلظها ، وهو فى التعبير منصوب على المصدر أو على الحال : أى أقسموا بالله جاهدين .

ويقول الذين آمنوا - مخاطبين اليهود بعدما هُزموا ودارت الدائرة عليهم ^(١) - أهؤلاء ، إشارة إلى المنافقين ، هم الذين حلفوا لكم بالله مغلظين الإيمان ، مجتهدين فيها ، إنهم ليكونون معكم بالعون والنصر على محمد إذا قاتلتموه ؟ لاحظ أن الاستفهام هنا خرج لقصد بلاغى هو التقرير والتوبيخ .

والرجوع إلى السياق فى الآية السابقة يزيد الأمر وضوحا : « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمره من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » . فهذه الآية خطاب للرسول عليه السلام يبين حال الذين يوالون اليهود والنصارى - وقد نهانا الله فى الآية السابقة (٥١) عن موالاتهم واتخاذهم أحيابا - ويكشف سبب هذه الموالات ، وهو ما استقر فى قلوبهم من مرض أى نفاق وحقد على محمد والشك فى صدقه ^(٢) . ولذا تراهم مسارعين إلى تحقيق مودتهم لليهود والنصارى ، ومعاونتهم فى حرص شديد وعناية فائقة ، كما أفاده التعبير بقوله : « يسارعون فيهم » دون التعبير بلفظ « يسارعون إليهم » ، إذ معناه أنهم مستغرقون فى مودتهم . والذين فى قلوبهم مرض يخشون أن ينتصر اليهود على محمد فتدور الدائرة عليهم ولهذا يوالون اليهود ، فرد الله عليهم بقوله : « فعسى الله أن يأتي بالفتح » أى النصر ، وهو وعد منه - سبحانه - لرسوله وللمؤمنين . وقد تحقق الوعد ، وجاء فتح الله ونصره لرسوله ، وندم الذين فى قلوبهم مرض على ما أسروا فى أنفسهم من نفاق وشك . وبعد ذلك جاء التقرير لهم ولليهود فى الآية (٥٣) موضع الحديث .

(١) أى نزلت بهم الهزيمة أو الداهية . (٢) فلا إيمان فى قلوبهم ولا يقين تعمر به نفوسهم .

﴿ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَظِيبَ عَلَيْهِ
وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ

سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ ٦٠ - المائدة (٥)

الشَّرُّ : السوءُ والفساد . ويقال : رجلٌ شَرٌّ أى ذو شرٍّ .

« شَرٌّ » أفعل تفضيل أى أكثر شراً ، وكذلك « شَرٌّ » المجرورة بالباء فى أول الآية أفعل تفضيل هى الأخرى . وحذفت همزته لكثرة الاستعمال ، فيقال شر بدلا من أشر .

« مكانًا » تمييزا ، ومكانهم الأكثر شرا هو النار التى ستكون مأواهم . وقال الشوكانى : جعلت الشرارة للمكان ، وهى لأهله للمبالغة .

« وأضلُّ » عن سواء السبيل معطوف على « شَرٌّ » ، أى أهم أكثر ضلالا من غيرهم عن الطريق المستقيم . « وسواء السبيل » : طريق الحق ، وأصل السواء : الوسط . أما أضل فأصلها : ضلَّ الشئ : خَفِيَ وغاب ، والمتعدى ضلَّ الطريق : خفى عليه ، فهم أكثر الناس بعدا عن وسط الطريق واستقامته .

« أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل » : هم فى شر المكانة ، وأخطأ المقام ، وأكثر انحرافا وبعدا عن الطريق المستقيم .

قال ابن كثير : هذا (أى استعمال صيغة أفعل التفضيل فى قوله : شرُّ وأضلُّ) من باب استعمال صيغة أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر مشاركة ، كقوله عز وجل : « أصحاب الجنة يومئذ خيرٌ مستقرا وأحسن مقيلا » .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ

مَبْسُوتَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ٦٤ - المائدة (٥)

الغُلُّ : القيد تقييد به الأعضاء . وَغَلَّ غَلًّا : أدخله في الغُلُّ أى في القيد والوصف مغلول . والغل يكون من الجلد أو الحديد ويوضع في اليد أو العنق .
واليد في كلام العرب تكون للجارحة ، وللنعمة ، وللقدره ، وللنصرة .

ومراد اليهود ، لعنهم الله ، بقولهم : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ : أنها مقبوضة بالعطاء فكأنها مربوطة إلى العنق ولا تمتد لتعطي ، كناية عن البخل والإمساك - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، حسبما روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى والضحاك ؛ ولا يعنون - أى اليهود - بتلك العبارة أن يد الله موثقة بالقيد . والعرب تطلق غُلَّ اليد على البخل وبسَطَها على الجود مجازا ، ولا يريدون الجارحة . كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل (أصابعه مجتمعة منقبضة) ومقبوض الكف (١) .

وقد يكون المراد أن اليهود يعنون بقولتهم « يد الله مغلولة » أنه فقير لا يجد ما يعطيه كما في الآية ١٨١ من سورة آل عمران : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ وقد عاقب الله اليهود بعقاب من جنس عملهم حين قال عنهم « غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا » ، وهذا دعاء عليهم بالبخل والعجز ، وهذا وقع لهم ، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم (٢) ، فهم أبخل الناس في الدنيا وأحرصهم على المال ، وبأءوا في الآخرة بالخلود في النار .

ويجوز أن يكون المراد الدعاء عليهم بأن تُقَيَّدَ أَيْدِيهِمْ في الدنيا حقيقة ، بأخذهم أسارى ، ويوم القيامة يسحبون في النار على وجوههم بأغلالهم .

﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ : طردوا من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة .

(١) قال الشاعر :

كانت خراسان أرضاً إذ يزيدُ بها
فاستبدلت بعده جَعْدًا أَناملُهُ
وكُلُّ باب من الخيبرات مفتوحٌ
كأنما وجهه بالحلل منضوحٌ

(٢) كما قال تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ . « النساء ٥٣ » . والنقير : النقطة التي في وسط ظهر النواة كالثقبه فيها ، ويضرب النقير مثلاً في القلة وفي الشيء التافه لا يؤبه له - ويقال للبخيل : لا يبذل نقيرا .

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ

مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ٦٤ - المائدة (٥)

بَسَطُ اليَدِ : مدها لطلب شيء . وتارة يستعمل للوصول والضرب ، وتارة يستعمل فى مدها للبدل والإعطاء .

«بل يدها مبسوطتان»: هو الواسع الفضل ، الجزيلُ العطاء ، الذى ما من شيء إلا عنده خزائنه ، وما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له . الذى خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه : فى ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفى جميع أحوالنا ، كما قال : ﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تحصوها إِنَّ الإنسانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ «إبراهيم ٣٤» .

وقد أشير بثنية اليد إلى تقرير غاية جوده وغناه . فإن أقصى ما تصل إليه همة الجواد السخى أن يعطى ما يعطيه بكلتا يديه . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال : « يمين الله ملائى لا يغيضها سحاء^(١) الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما فى يمينه - قال - وعرشه على الماء ، ويده الأخرى القبض . . يرفع ويخفض» .

وفى قوله تعالى ﴿ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ تأكيد لكمال جوده وغناه ، وتقرير لهما : إن شاء وسَّعَ فى العطاء وإن شاء ضيَّقَه ، وذلك لحكمة يعلمها هو . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّه بِعبادِهِ خبير بصير ﴾ «الشورى ٢٧» .

﴿ أَوْقِدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ ﴾

﴿ وَاللَّيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا

اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ٦٤ - المائدة (٥)

أوقد النار : أشعلها . والمراد هنا : أثاروا الفتنة ودبروا المكائد التى تؤدى إلى وقوع الحرب بين الناس - فذكر النار هنا مستعار .

بين سبحانه أن دأبهم ، أى اليهود ، على إشعال نار الحروب والفتن بين الناس ، وتدبير المكر السىء لا يعود عليهم إلا بالخيبة والهزيمة ، فقال : ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ﴾ أى كلما هموا بحرب الرسول ودبروا لإيذائه وركبوا كل صعب وسهل فى سبيل ذلك ، ردهم الله وقهرهم بإلحاق الهزيمة بهم ؛ أو أوقع الله بينهم نزاعاً فرق بينهم ، فكف الله به شرهم عنه . أو كلما حاربوا أحداً أو جماعة غلبوا وهزموا .

وقد كان أمرهم كذلك على مدى التاريخ .

(١) السَّحُّ : الصبُّ الكثير . لا يغيضها : لا يغيظها .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

٦٦ - المائدة (٥)

قَصَدَ فِي أَمْرِهِ يَقْصِدُ قَصْدًا : اعتدل وسلك فيه مسلكا وَسَطًا (١) .

واقْتَصَدَ فِي أَمْرِهِ يَقْتَصِدُ بِمَعْنَى قَصَدَ ، وَهُوَ مُّقْتَصِدٌ ، وَهِيَ مُّقْتَصِدَةٌ .

﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ أى من اليهود طائفة معتدلة ، وهم الذين آمنوا إيماناً حقيقياً بحمد ﷺ وبما جاء به ، وبسائر الكتب التى أنزلها الله على رسله ، فكانوا يذلك على النهج السليم وبما جاء فى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ لَيْسُوا سِوَاءَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ « آل عمران ١١٣ » . فأهل الكتاب ليسوا متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبايح فى الآية السابقة ﴿ كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ ، بل منهم طائفة سلمت من هذه القبايح ، أمة قائمة أى مستقيمة (٢) ثابتة على طاعة الله ، وهم الذين أسلموا مثل عبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشى وأصحابه .

وكما كان من أهل الكتاب أمة وسط : استقامت على منهج الحق والهدى ، كان كثير منهم ساء عملهم ، إذ أفرطوا فى عنادهم وعداوتهم وظلوا على كفرهم .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾

فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ ٦٨ - المائدة (٥) ﴾

« لستم على شىء » : أى ليسوا على شىء من العقيدة والدين والإيمان حتى يقيموا التوراة والإنجيل ، أى يلتزموا بما جاء فيها والإيمان بما فيها ، ومما ورد فيها البشارة بحمد ﷺ والأمر باتباعه والإيمان بمبعثه والافتداء بشريعته .

والآية ، وإن كانت واردة فى أهل الكتاب ، فإن فيها تحذيراً عاماً لكل من لا يقيم حدود الله .

(١) والاعتقاد فى اللغة : الاعتدال من غير غلو ولا تقصير ومنه قَصَدُ السَّبِيلُ أى الطريق المستقيم .

(٢) من قولهم : أقمتم العودَ فقام أى استقام واعتدل .

﴿ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا ﴾

مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿ ٨٣ - المائدة (٥)

﴿ تفيض من الدمع ﴾ أى بالدمع ، قاله القرطبي . وقال الشوكاني فى شرح هذا التعبير : أى تمتلئ فتفيض ، لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء ، جعل الأعين تفيض (والفائض إنما هو الدمع) قصدا للمبالغة (١) .

وفى «التفسير الوسيط» : تمتلئ عيونهم بالدمع حتى يتدفق من جوانبها لكثرتة .

إنهم (أى القسيسين والرهبان الذين يعرفون حقيقة دين النصارى ولا يستكبرون على الحق ، فى الآية السابقة) إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ، ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثير العميق العنيف بالحق الذى سمعوه ، والذى لا يجدون له فى أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير - وهى حالة معروفة فى النفس البشرية حين يبلغ بها التأثير درجة أعلى من أن يفى بها القول ، فيفيض الدمع ليطلق الشحنة الحبيسة من التأثير العميق العنيف .

وفى تفسير الخازن ، قال ابن عباس : المراد النجاشى وأصحابه ، لما قرأ عليهم جعفر بن أبى طالب سورة مريم قال : فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة .

« مما عرفوا من الحق » من فى «مماً» لابتداء الغاية ، ومن الثانية بيانية أى كان ابتداء الفيض ناشئاً من معرفة الحق .

وهذا شأن العلماء المخلصين كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ « الزمر ٢٣ » وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ « الأنفال ٢ » .

(١) قال امرؤ القيس :

على النحر حتى بلّ دمعى محملى

ففاضت دموع العين من صباية

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ٩٩ -

المائدة (٥)

أبلغته الخبر إبلاغاً : أوصلته إليه . ومثله بلغته تبليغاً (١) .

« البلاغ » معناه الإيصال ، فهو إسم بمعنى الإبلاغ والتبليغ ومعنى التعبير أن الرسول ليس له الهداية والتوفيق ولا الثواب وإنما عليه تبليغ الرسالة وتوصيلها إلى الناس .
لكن التعبير - بصياغته هذه - فيه تحذير وإيحاء وإلقاء للتبعية (المستولية) على المخالف الذي لا يثوب .

فمعنى الآية : ليس على الرسول إلا أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه . وقد أدى رسولنا ، ﷺ رسالة ربه كاملة ، فبشر وأنذر . وأعلن ذلك فى حجة الوداع حيث قال : « أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ . أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ (٢) والله سبحانه يعلم ما تظهرون وما تخفون من طاعة ومعصية فيحاسبكم عليه .

(١) وكل ما جاء فى القرآن مُعَدَّى بالهمز (أبلغ) أو التضعيف (بَلَّغ) فهو بهذا المعنى . ومنه البلاغة لأنها إيصال المعنى إلى النفس فى أحسن صورة من اللفظ . ومنه قولهم : فى هذا بلاغ أى كفاية لأنه يبلغ مقدار الحاجة .

(٢) صحيح البخارى فى حجة الوداع .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾

١٠١ - المائدة (٥)

« إِن تَبَدَّ لَكُمْ » أى تظهر . « تَسْؤُكُمْ » لما فيها من المشقة .

هذه الآية تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها . لأنها إن ظهرت لهم ، فربما ساءت لهم ، وشق عليهم سماعها ، كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لا يُبْلغنى أحدٌ عن أحدٍ شيئاً إني أحب أن أخرج لكم وأنا سليم الصدر » .

كان بعضهم يكثر على رسول الله ﷺ ، من السؤال عن أشياء لم يتنزل فيها أمر أو نهى ؛ أو يلحف (يلح) فى طلب تفصيل أمور أجملها القرآن ، وجعل الله فى إجمالها سعة للناس ؛ أو يستفسر عن أمور لا ضرورة لكشفها فإن كشفها قد يؤذى السائل عنها أو يؤذى غيره من المسلمين .

روى مسلم عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووآد البنات ومنعاهات ، وكره لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . والمراد بقوله : « وكثرة السؤال » التكثر من السؤال فى المسائل الفقهية تنطعا وتكلفا فيما لم ينزل ، والأغلوطات وتشقيق المولدات . قال ابن عبد البر : من سأل متعتا غير متفقه ولا متعلم فهو الذى لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره ، وقيل : المراد بكثرة السؤال هو السؤال عما لا يعنى السائل من أحوال الناس بحيث يؤدى ذلك إلى كشف عوراتهم ، وهذا مثل قوله تعالى فى سورة الحجرات « ولا تجسسوا » الآية ١٢ . وقيل : المراد بكثرة السؤال كثرة سؤال الناس الأموال والحوائج إلحاحا واستكثارا - والآية تحمل على كل هذه الوجوه ، كما قال القرطبي .

أخرج مسلم فى صحيحه عن أنس عن النبى ﷺ : « فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا » فقام إليه رجل فقال : أين مدخلى يا رسول الله ؟ قال : « النار » فقام عبد الله بن حذافة^(١) فقال : من أبى يا رسول الله ؟ فقال : « أبوك حذافة » . قالت له أمه : ما سمعت بابن أعتق^(٢) (أى أكثر عقوقا) منك . أأمنت أن تكون أمك قارفت ما يقارف نساء الجاهلية ففضحها على أعين الناس ؟ فقال : والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقت به .

وروى أنه لما نزلت آية الحجج « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » سأل سائل : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فكره الرسول ، ﷺ هذا السؤال لأن النص على الحج جاء مجملا ، والحج مرة يجزى . فأما السؤال عنه : أفى كل عام ، فهو تفسير له بالصعب الذى لم يفرضه الله . والرسول ﷺ سكت ولم يرد على السائل لأول مرة ، لكن السائل عاد وكرر السؤال : أفى كل عام ؟ فقال الرسول : « لا ولو قلت نعم لوجبت » فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية . فكثرة السؤال قد تؤدى إلى كثرة التكاليف التى قد تشق عليهم ويعجزوا عن القيام بها .

(١) قال ابن عبد البر : عبد الله بن حذافة أسلم قديما ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، وشهد بدرا ، وكانت فيه دعاة ، وكان رسول الله ﷺ أرسله إلى كسرى بكتابه ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا
اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

١٠٥ - المائدة (٥)

« عليكم أنفسكم » أى احفظوها من المعاصى وقوموا بصلاحها .

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم ، وأوضح لهم أن من أصلح أمره لا يضره بعد ذلك فساد من فسد . « إلى الله مرجعكم جميعا » فيجازى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وليس فى الآية دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنا . روى الإمام أحمد أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه . وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان فى صحيحه وغيرهم من طرق كثيرة . وهكذا صحح الخليفة الأول ، رضوان الله عليه ، ما توهمه بعض الناس فى هذه الآية . ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح ، لأن القيام بتكاليف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد صار أشق .

ولذلك قال ابن المبارك : قوله تعالى ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ خطاب لجميع المؤمنين ، أى عليكم أهل دينكم . . فكأنه قال : ليأمر بعضكم بعضاً ، ولينه بعضكم بعضاً ؛ فهو دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يضركم ضلال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب ؛ وهذا لأن الأمر بالمعروف يجرى مع المسلمين من أهل العصيان . وروى معنى هذا عن سعيد بن جبير . وقال سعيد بن المسيب : معنى الآية لا يضركم من ضل إذا اهتديتم بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد يفهم من ظاهر الآية أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس واجبا إذا استقام الإنسان . لكن فهم الآية على هذا الوجه خطأ^(١) فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - لا يسقط وجوبهما عن القادر عليهما بأى حال من الأحوال . قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^(٢) وقال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾^(٣) ، وقال ﷺ : « والذى نفسى بيده

(١) انظر : التفسير الوسيط ص ١١٧٤ . (٢) آل عمران (١٠٤) .

(٣) آل عمران (١١٠) .

لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليؤشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » . وقد لعن الله اليهود لأنهم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه »^(١) . لهذا كله يجب تأويل الآية كما يلي :

يأيتها الذين آمنوا ، عليكم إصلاح أنفسكم ، بفعل ما أمرتم به من التزام الحق والدعوة إليه ، وترك الباطل والنهي عنه . لا يضركم بعد هذا ضلال من ضل ، إذا اهتديتم^(٢) .

قال القرطبي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعين متى رُجى القبول ، أو رُجى رد الظالم ولو بعنف ، مالم يخف الأمر ضررا في خاصته ، أو فتنة يدخلها على المسلمين إما بشق عصا^(٣) وإما بضرر يلحق طائفة من الناس . روى الترمذى أن أبا ثعلبة الخشني قال : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك . . ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أياما : الصابر فيهن مثل القابض على الجمر . للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم » . ولهذا قال القرطبي : ويجوز أن يكون أريد به الزمان الذي يتعذر فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فينكر بقلبه ويشغل بإصلاح نفسه .

(١) المائدة (٧٩) .

(٢) شق العصا : التمرد .

(٣) التفسير الوسيط ص ١١٧٥ .

﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ ١ - الْأَنْعَامُ (٦) ﴾

العدْلُ : نصف الحمل . وَعَدَلَ الشَّخْصُ الحِمْلَ : وازنه بما يساويه ، ومنه كان العَدْلُ والعَدَلُ والعدِيلُ أى : المثل والنظير .

وفرقوا بين العدل (بكسر العين) وبين العَدْل (بفتحها) ، فكان ما يُدرك بالحواس عدلاً ، وما يُدرك بالبصيرة عدلاً .

وعدَلَ به : سواه بغيره .

فمعنى « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » : يُسوون به غيره ويجعلون له عدلاً أى مثيلاً وشريكاً - تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً .

والآية تتعجب من الذين كفروا ، أولئك الذين يسوون من خلق السموات (بمجراتها العظيمة ونجومها المتعددة وكواكبها المنيرة) والأرض (بما فيها من يابسن وماء بنسب محددة وزرع وضرع وبما حولها من غلاف كفل حياة الإنسان عليها) وجعل الظلمات سكناً وجعل النهار ليكون مجالاً لنشاطهم وسر الحياة لزروعهم - يسوونه بغيره .

ومعنى « ثم » : استبعاد أن يعدلوا به غيره بعد وضوح آيات قدرته . وقال ابن عطية : « ثم » دالة على قبح فعل الكافرين ، فهذا كما نقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنيت إليك ثم تشتمنى . وقال ابن كثير فى تفسيرها : ومع هذا كله كفر به بعض عباده . فإيا للمفارقة الهائلة بين صفحة الوجود الضخمة الناطقة بقدرة الخالق العظيم والدالة على عظمته وألوهيته وبين آثارها الضائعة فى نفوس الكفار .

﴿ كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسَهُ الرَّحْمَةَ ﴾

﴿ قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسَهُ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٢ - الأنعام (٦)

ورد هذا التعبير مرة ثانية في هذه السورة أيضا ولكن بصياغة مختلفة اختلافا يسيرا :
﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيَّ نَفْسَهُ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ « الآية ٥٤ » .

كَتَبَ يَكْتُبُ : دُونَ حُرُوفِ الْهَجَاءِ مَضْمُومًا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِنِظَامٍ خَاصٍ .
وَكَتَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ : قَدَّرَهُ .

وَكَتَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ عَلَيَّ فَلَانٌ : فَرَضَهُ وَأَوْجَبَهُ .

« كَتَبَ اللَّهُ عَلَيَّ نَفْسَهُ الرَّحْمَةَ » : أَوْجَبَهَا عَلَيَّ نَفْسَهُ كَرَمًا مِنْهُ وَقَضْلًا . وَذَكَرَ النَّفْسَ هُنَا عِبَارَةً عَنِ وُجُودِهِ ، وَتَأَكِيدُ وَعْدَهُ ، وَإِخْبَارًا مِنْهُ سَبْحَانَهُ بِأَنَّهُ رَحِيمٌ بَعْبَادِهِ لَا يَعْجَلُ عَلَيْهِمْ بِالْعَقُوبَةِ ، وَيَقْبَلُ مِنْهُمْ الْإِنَابَةَ وَالتَّوْبَةَ . وَقَدْ شَمِلَ بِرَحْمَتِهِ فِي الدُّنْيَا الْمُؤْمِنَ وَالكَافِرَ وَالبِّرَّ وَالفَاجِرَ - فَرَحْمَتُهُ تَفِيضٌ عَلَيَّ عِبَادِهِ جَمِيعًا ، وَتَسْعُهُمْ جَمِيعًا .

فَالرَّحْمَةُ قَاعِدَةٌ قَضَاءُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَقَاعِدَةٌ مَعَامَلَتِهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالأخْرَةِ . وَالاعتقاد بهذه القاعدة يدخل في مقومات التصور الإسلامي ، فرحمة الله بعباده هي الأصل . وهو تصور جميل مطمئن ، ودود لطيف ، في تصوير العلاقة الرحيمة بين الله وعباده على هذا النحو يترع القلب بحلاوة مذاقه ، كما يروعه بجلال إيقاعه .

أَخْرَجَ الشَّيْخَانُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنْ رَحِمْتِي سَبَقَتْ غَضَبِي » . وَفِي رِوَايَةٍ : « غَلَبَتْ غَضَبِي » .
وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانُ عَنْهُ أَيْضًا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْأَرْضَ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَرَاهُمْ الْخَلَائِقَ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرًا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تَصِيْبَهُ » .

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ كَذَلِكَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُدِّمَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبِيٍّ (١) . فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ تَسْعَى قَدْ تَحَلَّبَ (٢) نُدْيَهَا ، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ فَأَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ ﷺ : « أَنْتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدِهَا فِي النَّارِ؟ » قُلْنَا : لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَيَّ أَلَّا تَطْرَحَهُ . قَالَ : « فَاللَّهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا » .

(١) السَّبِيُّ هُوَ مَا يُسَبَّى أَي يُؤْخَذُ فِي الْأَسْرِ ، وَيَطْلُقُ عَلَيَّ النِّسَاءِ .

(٢) سَالَ .

وأخرج الشيخان والترمذى عن جرير قال قال رسول الله ﷺ : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » .

وأخرج الشيخان ومالك عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى فنزل البئر فملا خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى^(١) فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له » . قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرا؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر^(٢) .

وأخرج أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان لها فأخذناهما ، فجاءت الحمرة تعرش (أو تفرش) أى ترخى جناحها وتدنو من الأرض ، فلما جاء رسول الله ﷺ قال : « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » .

وفى رواية لأبى داود والترمذى عن أبى هريرة قال قال ﷺ : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » .

ويستوقف النظر فى هذا التعبير أن الله الخالق المالك صاحب السلطان القاهر ، تفضل بأن يجعل رحمته بعباده فى هذه الصورة : مكتوبة عليه ، كتبها هو على نفسه ، وجعلها عهدا منه لعباده بمحض إرادته ومطلق مشيئته .

ويستوقف النظر كذلك أن الله تفضل وأبلغ عباده بما كتبه - سبحانه - على نفسه من رحمته . فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يبلغوا ماجرت به إرادة الله فى الملائ الأعلى ؟ ورحمة الله تتجلى ابتداء فى وجود البشر ذاته وفى إعطائهم هذا الوجود الكريم بكل ما فيه من خصائص يتفضل بها الإنسان على كثير من العالمين . وتتجلى رحمته فى تسخير قوى الكون وطاقاته للإنسان ، وهذا هو الرزق فى مضمونه الواسع . وتتجلى كذلك فى تعليم الله للإنسان بإعطائه الاستعداد للمعرفة وتقدير التوافق بين استعداداته هذه وإيحاءات الكون ومعطيائه - هذا العلم الذى يتناول به بعض المناكيد على الله ، وهو الذى علمهم إياه .

وتتجلى رحمته - سبحانه - فى رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه فى الأرض ، بموالاته إرسال الرسل إليه بالهدى كلما نسى وضل ، وهو على الله هين ، ولكن رحمة الله هى التى تمهله وحكمه هو الذى يسعه .

وفى هذه الآية (الثانية عشرة) تتجلى رحمته فى قوله : ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة ﴾ اللام لام القسم والنون نون التوكيد : فالله يقسم مؤكدا أنه سيحى الناس ويبعثهم يوم

(١) صعد إلى الأرض .

(٢) « فى كل كبد رطبة أجر » أى كل كبد حية ، والمراد رطوبة الحياة ، أو لأن الرطوبة لازمة للحياة ، فهو كناية . والمعنى أن الأجر ثابت فى إرواء كل كبد حية ، الكبد يذكر ويؤنث . راجع « فتح البارى فى شرح صحيح البخارى » ، كتاب الشرب والمساقاة .

القيامة، وهنا تتجلى أيضا رحمته بعباده، إذ لولا الخوف من عذاب الله يوم القيامة لعمَّ الفساد في الأرض، واختلت نظم الاجتماع، وأكل القوى الضعيف، فصار من رحمة الله التهديد بهذا الجمع لأجل الحساب والجزاء.

وفي الآية الرابعة والخمسين تتجلى رحمة الله في تجاوزه - سبحانه - عن سيئات المخلوق إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب. وتتجلى كذلك في مجازاته عن السيئة بمثلها، ومجازاته على الحسنه بعشر أمثالها: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ الآية ١٥٩ في أواخر السورة.

وما سبق ذكره ليس إلا لمحات من رحمة الله تعالى بعباده. والطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر، وبالرجاء والأمل، وبالهدوء والراحة. كما أن شعور المؤمن بحقيقة رحمة الله الفياضة لتستجيش في حسه الحياء من الله، فلا يتجرأ على المعصية. وإنما يتخلق بأخلاق الله - سبحانه - وهو يرى نفسه مغمورا برحمة الله رغم تقصيره وذنبه، فيعلمه ذلك كله كيف يرحم، وكيف يعفو، وكيف يغفر.

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ ١٦٩

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ

وَقَرَأَ ﴿٢٥- الأنعام (٦)

أَكَنَّ الْحَبَّ ونحوه في نفسه يكنه : أخفاه ولم يذكره ، لا تصريحاً ولا تعريضاً .

كنان الشيء : غشاؤه الذي يستره ، أو غطاؤه الذي يُكِنُّ أو يُحْفَظُ فيه ^(١) . وجمعه : أكِنَّةٌ ، ومثله سنان وأسنة ، وعنان وأعنة .

ومعنى التعبير : وجعلنا على قلوبهم أغطيةً لئلا يفهموا القرآن ، وهي أغطية من الكفر والعجرفة ونعرة الجاهلية . فلم تعد تبلغ كلماتُ الله مواطنَ القبول من قلوبهم ، لأنهم لا يريدون إلا ذلك .

وفي هذا تشبيه للحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية . فالقلب الذي لا يقبل الحق ولا يتدبره ، كالوعاء الذي وُضِعَ عليه الغطاء فلا يدخل فيه شيء .

« أن يفقهوه » أي يفهموه ، وهو في موضع نصب ؛ ومعناه : كراهة أن يفهموه ، أو لئلا يفهموه .

(١) ومنه الكنانة : جعبة صغيرة من الجلد للنبيل . ومنه الكئنة : امرأة الإبن أو الأخ .

﴿ فِي آذَانِهِمْ وَقَرَأَ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ

﴿ وَقَرَأَ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ ٢٥ - الأنعام (٦)

وَقَرَّتِ الْأُذُنُ تُوقِرُ وَقَرَأَ : أَصَابَهَا ثِقَلٌ فِي السَّمْعِ أَوْ صُمَّتْ فَلَا تَسْمَعُ .

وَالْوَقْرُ : ثِقَلُ السَّمْعِ أَوْ صَمُّ الْأُذُنِ .

« فِي آذَانِهِمْ وَقَرَأَ » أَي جَعَلَ فِي آذَانِهِمْ مَا سَدَّهَا عَنِ اسْتِمَاعِ الْقَوْلِ ، فَاسْتَمَاعِهِمْ إِلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ اسْتِمَاعٌ اسْتِعْلَاءٌ وَانْتِقَادٌ ، لَا اسْتِمَاعٌ تَدْبِرُ وَانْتِفَاعٌ . وَالْآذَانُ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهَا مِنْ نَصَائِحِ كَالْآذَانِ الْمَصَابَةِ بِالثِقَلِ وَالصَّمِّ ، فَسَمِعَهَا وَعَدَمَهُ سِوَاءٍ .

وَذَكَرَ الْأَكِنَّةَ وَالْوَقْرَ تَمَثِيلًا لِفِرْطِ بَعْدِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَسَمَاعِهِ كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَعْقِلُ وَأَسْمَاعُهُمْ لَا تَدْرِكُ . « وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا » أَي لَا يُؤْمِنُوا بِشَيْءٍ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي يَرُونَهَا لِعِنَادِهِمْ وَتَمْرُدِهِمْ .

وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مَرْصَرٍ : « وَقَرَأَ » بِكَسْرِ الْوَاوِ عَلَى التَّشْبِيهِ بِوَقْرِ الْبَعِيرِ ، وَهُوَ مَقْدَارُ مَا يَطِيقُ أَنْ يَحْمِلَ .

﴿ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ٣٠ - الأنعام (٦)

وَقَفَ الْمَاشِي أَوْ الْجَالِسُ يَقِفُهُ وَقَفًا جَعَلَهُ يَقِفُ ، أَي حَمَلَهُ عَلَى أَنْ تَسْكُنَ حَرَكَتُهُ فِي السَّيْرِ وَيُظَلُّ مُنْتَصِبًا ، فِيهِ مَعْنَى الْإِقْيَافِ وَالْحَبْسِ .

وَمِنْهُ : وَقَفَهُ عَلَى الْأَمْرِ : أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ وَعَرَّفَهُ إِيَّاهُ .

« وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ » تَعْنَى حَبَسُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ لِسُؤَالِهِمْ سُؤَالَ التَّوْبِيخِ : « قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ » وَالْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى : أَي أَلَيْسَ هَذَا الْجِزَاءُ - وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ - هُوَ الْحَقُّ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ؟

أَوْ تَعْنَى وَقَفُوا عَلَى جِزَاءِ رَبِّهِمْ فَعَرَّفُوهُ وَأَعْلَمُوهُ .

وَقِيلَ : « عَلَى » بِمَعْنَى « عِنْدَ » أَي عِنْدَ مَلَائِكَتِهِ وَجِزَائِهِ ، فَالْمَلَائِكَةُ تَقْفَهُمْ وَتَحْبِسُهُمْ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ ، امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ كَمَا قَالَ : ﴿ وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ ﴾ « الصَّافَاتُ ٢٤ » .

﴿ تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ ﴾

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ٣٥- الأنعام (٦)

معنى «فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية» معناه أنك لا تستطيع ذلك ، ولذلك حذف جواب «إن» لعلم السامع أنه محال .

والصعود إلى السماء بسلم يكنى به عن المستحيل كما في بيت زهير بن أبي سلمى المشهور :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

يقول الله لنبيه إن كان كبر أى شق عليك إعراضهم وتوليهم عن الإيمان فاذهب ، إن استطعت ، فى نفق فى الأرض فتأتيهم بآية ، أو اجعل لك ، إن استطعت ، سلما فى السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به فافعل ؛ وجواب الشرط المحذوف هو : ولكنك لن تستطيع .

كان النبى ، ﷺ شديد الحزن لكفر قومه ، شديد الحرص على إسلامهم ، فنزل قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا كَبُخَ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١) ﴿ الكهف ٦ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ « فاطر ٨ » وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ « القصص ٥٦ » وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ . . . ﴾ أى لكنك لا تستطيع ذلك ، فدع الحزن ، ولا تضق صدرا بتصميمهم على الكفر ؛ فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله ﷺ بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذى هو الابتلاء والامتحان معنى ، ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ جمع إلقاء وقسر (أى قهر وإكراه) لكنه لم يشأ ذلك لحكمة يعلمها ، ففوض الأمر إلى عالم الغيب ولا تحزن عليهم .

(١) المعنى : مهلك نفسك أو مجهدا حزنا على عدم إيمانهم .

﴿فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

﴿فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٤٥ - الأنعام (٦)

دَبَّرَ يَدْبُرُ دُبُورًا : ذهب وولى .

ودبّر فلان القوم يدبّرهم ؛ إذا كان آخرهم فى المجرى (١) . فالمعنى أنه قطع آخرهم ، أى قطع خلفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقية . قال قطرب : يعنى أنهم استؤصلوا وأهلكوا .

﴿وَحَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾

﴿وَحَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ﴾

ثم هم يصدفون ﴿٤٦ - الأنعام (٦)﴾

حَتَمَ الشَّيْءُ يَحْتَمُهُ حَتْمًا : بلغ نهايته .

وحتم الكتاب وحتم على الكتاب : طَبَعَ عَلَيْهِ الْحَاتَمَ اسْتِثْقَاً وَصَوْنَا لَهُ . ويستعار من ذلك : الحتم على القلب بأن يجعله لا يفهم شيئاً . فالمراد من الحتم على القلوب حجبتها ومنعها عن تعقل المدركات المختلفة - فالقلوب تستعمل فى القرآن الكريم مصادر للإدراكات العقلية كما هنا ، وكما فى قوله تعالى : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ «الأعراف ١٩٧» .

والمعروف طبيياً أن مراكز معينة فى المخ هى موطن العقل ، وبما أن القلب هو سر الحياة - وهو الذى يغذى تلك المراكز العصبية العاقلة فى المخ - فلذا يسند الفهم والتعقل إليه مجازاً . أو لعله المركز الأول للعقل ، ولكن لم يعرف ذلك بعد .

(١) وفى الحديث عن عبد الله بن مسعود « من الناس من لا يأتى الصلاة إلا دبرياً » أى فى آخر الوقت . ومن هذا المعنى جاء معنى التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور .

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ

إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ ٥٧ - الأنعام (٦)

قَصَّ الْحَقَّ أَوْ الْأَخْبَارَ وَنَحْوَهَا يَقْصُّهَا قَصًّا وَقِصَصًا : تَتَّبِعُهَا فَرَوَاهَا . وَفِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» : الْقِصَّ : الْبَيَانُ (١) .

« يَقْصُّ الْحَقَّ » : يَبَيِّنُهُ بَيَانًا شَافِيًا أَوْ يَتَّبِعُهُ فِيمَا يَحْكُمُ بِهِ . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : « يَقْصُّ الْحَقَّ » أَي يَتَّبِعُ الْحَقَّ وَالْحِكْمَةَ فِيمَا يَحْكُمُ بِهِ وَيَقْدِرُهُ ، مِنْ قَصَّ أَثَرَهُ (أَي تَتَّبِعَهُ) . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : « يَقْصُّ الْحَقَّ » أَي يَقْصُّ الْقِصَصَ الْحَقَّ . وَهِيَ قِرَاءَةٌ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَعَاصِمٌ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ » .

وَقَرَأَ الْبَاقُونَ « يَقْضِي الْحَقَّ » بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةِ ، وَكَذَلِكَ قَرَأَ عَلِيُّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ ، بِمَعْنَى يَقْضِي الْقَضَاءَ الْحَقَّ فِي كُلِّ مَا يَقْتَضِي مِنَ التَّأْخِيرِ وَالتَّعْجِيلِ . وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ بَعْدَهُ « وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ » أَي الْقَاضِينَ ، وَيَقْوَى ذَلِكَ قَوْلُهُ قَبْلَهُ : « إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ » وَيَقْوَى ذَلِكَ أَيْضًا قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ : « إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ » ؛ قَالَ النَّحَّاسُ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : يَقْضِي الْقَضَاءَ الْحَقَّ إِذْ يَجُوزُ حَذْفُ الْبَاءِ ، وَرَدَّ بِهَذَا عَلِيُّ بْنُ قُتَيْبَةَ : لَوْ كَانَ يَقْضِي مِنَ الْقَضَاءِ لَلَزِمَتْ الْبَاءُ فِي « الْحَقِّ » .

(١) وَالْقَاصُّ : الَّذِي يَأْتِي بِالْقِصَّةِ عَلَى وَجْهِهَا كَأَنَّهُ يَتَّبِعُ مَعَانِيهَا وَأَلْفَظَهَا ، وَقِيلَ : الْقَاصُّ يَقْصُ الْقِصَصَ لِاتِّبَاعِهِ خَبْرًا بَعْدَ خَبْرٍ وَسَوْقِهِ الْكَلَامَ سَوْقًا . مِنَ الْقِصِّ وَهُوَ اتِّبَاعُ الْأَثَرِ .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ

مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ - الأنعام (٦)

تدور مادة «فتح» على إزالة الأغلاق . وتكون في المادى الذى يدرك بالبصر ، كفتح الباب وفتح الغلق .

وتكون في المعنوى الذى يُدرك بالبصيرة ^(١) ، بإزالة ما يتعلق بالقلب وبالنفس من هم وغم الفقر ونحوه بإعطاء المال وبالنصر فى الحرب .

والفتح : فتح المستغلق من أبواب العلم والمعرفة .

والمفتاح : آلة الفتح ، وجمعه مفاتيح ومفتاح .

« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » : جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة

(وقرىء : مفاتيح) . لأن المفاتيح تفتح بها المخازن الموثوق منها بالأقفال والإغلاق ، ومن

كان عنده مفاتيحها فإنه يصل إلى ما فيها . فالتعبير معناه أن الله ، سبحانه ، هو الذى يصل

إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره ، كمن عنده مفاتيح أقفال المخازن ويعلم فتحها ، فهو

المتوصل إلى ما فى المخازن .

فالله تعالى عنده علم الغيب ، ويده الطرق الموصلة إليه ، لا يملكها إلا هو .

ولا يمنع اختصاصه تعالى بمفاتيح الغيب أن يمنح من اختصهم من عباده شيئاً من علم الغيب

- وهم المرسلون : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴿٢٧﴾﴾ « الجن

٢٦ ، ٢٧ » .

وجاء فى « التفسير الوسيط » : أما ظن الغيب بأمارات فإنه ممكن لعباده ، فلا يكفر ولا يفسق من

يدعيه (أى الظن) ، كما يحدث من الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر - حين يخبرون

بهبوب الرياح بشدة أو باعتدالها ، وبكسوف الشمس وبخسوف القمر ، وكما يحدث من علماء

الفلك حين يخبرون عن نزول المطر ونزول درجة الحرارة وصعودها ونحو ذلك .

أما العرافون الذين يدعون علم الغيب ، فالمؤمنون منهيون عن الذهاب إليهم . فقد جاء فى

صحيح مسلم : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » . وروى أحمد عن

أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من أتى عرافاً أو كاهناً ^(٢) فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد » .

الرطب : الندى الناعم اللين . وعكسه اليابس : الجاف . « ظلمات الأرض » : بطونها .

« فى كتاب مبين » : فى اللوح المحفوظ . قيل : كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر ، أى اعلموها

أن هذا الذى ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب ، فما بالكم بما فيه ثواب وعقاب؟

(١) البصيرة : الإدراك والفتنة أو العلم والخبرة . (٢) الكهانة : ادعاء علم الغيب .

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ
أَوْ يَلْبِسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ ٦٥ - الأنعام (٦)

لبس القوم يلبسهم : خلط عليهم أمورهم ، وعمالها عليهم فجعلهم مختلفي الأهواء
والمشارب .

شيع وأشباع : جمع شيعة . والشيعه : الفرقة من الناس يتابع بعضها بعضا . وشيعة
الرجل : أولياؤه وأنصاره ومن كان على منهجه ورأيه .

« يلبسكم شيعة » : يُعمى عليكم أموركم فتختلف أهواؤكم وأنتم شيع فيزيد هذا في
تفرقكم . وقيل : يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا ، وذلك بتخليط أمركم وافتراق أمرائكم
على طلب الدنيا . وهذا هو معنى « ويذيق بعضكم بأس بعض » أى بالحرب والقتل فى الفتنة .

« عذابا من فوقكم » : الرجم بالحجارة والظوفان والصيحة والريح ؛ كما فعل بعاد وثمود
وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح .

« أو من تحت أرجلكم » : الخسف والرجفة ؛ كما فعل بقارون وأصحاب مدين^(١) .

(١) وقيل : « من فوقكم » يعنى الأمراء الظلمة ، « ومن تحت أرجلكم » يعنى السفلة وعبيد السوء .

﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ٦٧ - الأنعام (٦)

المستقر : مكان الاستقرار أو زمانه .

« لكل نبأ مستقر » : لكل خبر وقت يقع فيه ويستقر ، ومنه عذابكم ، وسوف تعلمون حال خبركم في الدنيا والآخرة ، ومبلغه من الصدق .

وجاء في تفسير ابن كثير : لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما في قوله : « ولتعلمن نبأه بعد حين » وقوله : « لكل أجل كتاب » ، وهذا تهديد ووعد أكيد ، ولذلك قال بعده : « وسوف تعلمون » .

وجاء في « لسان العرب » : لكل ما أنبأتكم عند الله عز وجل ، غاية ونهاية ، ترونها في الدنيا والآخرة .

وقال القرطبي : لكل خبر حقيقة ، أى لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدم وتأخر .
وقيل : لكل عمل جزاء .

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ٨٠ - الأنعام (٦)

وسع الشيء يسعه سعة وسعة : استوعبه ولم يضق به . والله أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية .

أو : وسع علمه كل شيء ، أى اتسع وشمل كل شيء .
والتعبير موجود كذلك في « الأعراف ٨٩ ، طه ٩٨ » .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

٨٢ - الأنعام (٦)

أى هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم ، أى بشرك ، هم الآمنون يوم القيامة المهتدون فى الدنيا والآخرة .

أمن أمنا وأمنة : لم يخف فهو آمن وهم آمنون .

أمنته : جعل له الأمن .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ٩٥ - الأنعام (٦)

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ٩٥ - الأنعام (٦)

فَلَقَ الشَّيْءَ : شَقَّه . الْفَالِقُ : الذى يَفْلِقُ وَيَشُقُّ .

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى ، أى يشقه فى الثرى ، فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها . ولذا فسر قوله ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ بقوله : ﴿ يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ﴾ أى يخرج النبات الحى من الحب والنوى الذى هو كالجماذ الميت ومن الأرض وما بها من غذاء للنبات . قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ « يس ٣٣ » .

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾
 ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ - الْأَنْعَامُ (٦)

فَلَقَّ الشَّيْءَ : شَقَّه . وفلق الله الصبح : أبداه وأوضَّحه . وقيل : الفلق الصبح ، لأن الظلام ينفلق عنه .

أصبح إصباحاً : دخل في الصبح . وسُمِّيَ الصبحُ إصباحاً ، سُمِّيَ بالمصدر .

« فالق الإصباح » : فالق الصبح كل يوم ، يريد الفجر . وهو نعت لإسم الله تعالى ، أى ذلكم الله ربكم فالق الإصباح ، يشق الظلام عنه .

وقرأ الحسن : « فالق الأصباح » بفتح الهمزة ، جمع صُبح .

« سَكَنًا » : سَكَنَ يُسَكِّنُ سَكُونًا : قَرَّ وَهَدَأَ بعد حركة . وسكن إليه : اطمأن ومال إليه .

فالسكَّن : ما تسكن إليه النفس من الأهل والوطن استئناساً واسترواحاً .

« وجعل الليلَ سَكَنًا ^(١) » أى وقت سكون واطمئنان ، فالليل يطمئن إليه المتعب بالنهار

لاستراحته فيه وجمامه .

وأشار ابن كثير فى تفسيره إلى المقابلة بين « فالق الإصباح » وبين « وجعل الليل ساكناً »

فقال : خالق الضياء والظلام كما قال فى أول السورة : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ ، فهو

سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضئ الوجود ، كقوله : ﴿ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ

حَثِيثًا ﴾ « الأعراف ٥٤ » بين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال

عظمته وعظيم سلطانه ، فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله : ﴿ وجعل الليلَ سَكَنًا ﴾ ^(٢)

أى ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ »

الليل ١ ، ٢ .

« حُسْبَانًا » الحسبان هنا العد والإحصاء ، من الفعل : حَسَبَ الشَّيْءَ يَحُسُّبُهُ حساباً

وحُسْبَانًا : عدّه وأحصاه . ومعنى « والشمس والقمر حسبانا أى وسيلة للحساب ومعرفة

الزمن ، وبهما تحسب الأوقات التى تؤدى فيها العبادات والمعاملات ؛ وهما يجريان بحسابه

مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب ، كما قال تعالى : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا

اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ « يس ٤٠ » .

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أى الجميع جار بتقدير العزيز الذى لا يُمانع ولا يخالف ، العليم

بكل شىء فلا يعزب (لا يبعد ولا يخفى) عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

(١) قرئ : فالق الإصباح وجاعل الليل سَكَنًا ، وقرأ التحمى : فلق الإصباح وجعل الليل سَكَنًا .

(٢) قال صهيب الرومى رضى الله عنه لامرأته وقد عاتبته فى كثرة سهره : إن الله جعل الليل سَكَنًا إلا

لصهيب ، إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه .

﴿ لا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

١٠٣- الأنعام (٦)

أدرك البصر المرئى : رآه

والبصر : حاسة الرؤية وجمعه أبصار .

لكن كثيرين من المفسرين فرقوا بين الإدراك والرؤية ، فقالوا إن الإدراك هو الوصول إلى الشئ والإحاطة به ، فالإدراك أخص من الرؤية . قال الزجاج : لا تبلغ الأبصار كنه حقيقته ، فالمنفى هو هذا الإدراك وليس مجرد الرؤية . وجاء فى « التفسير الوسيط » : ليس الإدراك مطلق الرؤية ، بل هو رؤية مع شمول وإحاطة ، وذلك هو المنفى فى قوله تعالى : ﴿ لا تدرکه الأبصار ﴾ . وروى ابن جرير عن عطية العوفى فى قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ قال : هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، وبصره محيط بهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لا تدرکه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ .

فلا مانع من رؤية الله - دون إحاطة وشمول ، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : « إنكم سترون ربكم ، كما ترون القمر ليلة البدر : لاتضامون فى رؤيته » أخرجه البخارى وغيره .

وقيل : لا تدرکه الأبصار فى الدنيا ، ويراه المؤمنون فى الآخرة ؛ لإخبار الله بها فى قوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ قاله ابن عباس والسدى ، وقال القرطبى : وهو أحسن ما قيل لدلالة التنزيل والأخبار الواردة برؤية الله فى الجنة .

وكانت أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، تثبت الرؤية فى الدار الآخرة ، وتنفيها فى الدنيا وتحتج بهذه الآية ﴿ لا تدرکه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ والذى نفته هو الإدراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه فإن ذلك غير ممكن للبشر ولا للملائكة ولا لىء .

«وهو يدرك الأبصار» : هو الذى يحيط بالأبصار ، ويعلم دقائقها وخفاياها . وقيل : لا يخفى عليه شئ إلا يراه ويعلمه . وإنما خص «الأبصار» لتجنيس الكلام .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا

عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴾ ١٠٤ - الأنعام (٦)

« بصائر » جمع بصيرة . والبصيرة : نور القلب الذى به يستبصر ، كما أن البصر نور العين الذى به تبصر . ومن المجاز : البصيرة تستخدم بمعنى البيان والحجة الواضحة ، والعبارة يعتبر بها .

وأطلقت البصائر على آيات القرآن تشبيها لأنها تظهر الحق ، وبها يُبصر ويُستدل .

وقال ابن كثير : هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن ، وما جاء به الرسول ﷺ .

ووصف الدلالة بالمجىء لتفخيم شأنها ؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس ؛ كما يقال : جاءت العافية وقد انصرف المرض ، وأقبل السعود وأدبر النحوس .

« فمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ » : فمَنْ استدل وتعرف فنفسه نفع .

« وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا » : ومن لم يستدل وصار بمنزلة الأعمى ، فعلى نفسه يعود ضرر عماءه .

« وما أنا عليكم بحفيظ » أى لا أحفظكم من عذاب الله . وقيل : لست رقيبا عليكم أحصى عليكم أعمالكم ، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي ، وهو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شىء من أفعالكم .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ - الأنعام (٦)

أَوْحَى ^(١) يُوحى إِيحَاءً : أشار وأومأ .

أوحى إليه كذا : أسره إليه وأخفاه عن غيره . ويجرى هذا فى الوسوسة بالشر تكون من الشيطان .

« يوحى بعضهم إلى بعض » : يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس ؛ وكذلك بعض الجن إلى بعض ، وبعض الإنس إلى بعض . وسمى وحياً لأنه إنما يكون خفية .

« زخرف القول » : ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصى . فالشياطين يلقى بعضهم إلى بعض القول المزين ظاهره الفاسد باطنه .

« غرورا » : خدعا وأخذ على غرة أى على غفلة . فالكلام المزخرف المزوق يغتر به من يسمعه من الجهلة . وغرورا مصدر غرّه أى خدعه وأطمعه بالباطل . « غروراً » نصب على الحال .

هل للإنس شياطين ؟ روى عوف بن مالك عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ » قال قلت : يارسول الله وهل للإنسان من شياطين ؟ قال : « نعم هم شر من شياطين الجن » . وقد أورد ابن كثير طرقاً عدة لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته . وقال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد على من شيطان الجن ، وذلك أنى إذا تعوذت بالله ذهب عنى شيطان الجن ، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرنى إلى المعاصى عياناً ^(٢) .

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن » : كما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ، جعلنا لكل نبي من قبلك أعداء ، فلا يحزنك ذلك . وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودى .

(١) أوحى الله إلى بعض خلقه شيئا : ألهمه إياه . وأوحى الله إلى من يصطفيه أمرا : ألقاه إليه وبلغه إياه ، ويكون هذا الإبلاغ للرسول من البشر بوساطة الملك (جبريل) ، ويمكن أن يكون من غير وسيط (بالإلهام أو بالرؤيا) .

(١) سمع عمر بن الخطاب امرأة تنشد :

وكلكم يشتهى شم الرياحين

إن النساء رياحين خلقتن لكم

فأجابها عمر ، رضى الله عنه :

نعوذ بالله من شر الشياطين

إن النساء شياطين خلقتن لنا

﴿ فَمَنْ يردِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يشرح صدره للإسلام ﴾ ١٢٥ - الأنعام (٦)

شرح الشيء يشرحه شرحاً : بسطه ووسَّعه .

وشرح الصدر : بسطه وفتحَه لقبول الشيء . وشرح الصدر للإسلام كناية عن جعل النفس قابلة للحق ، مهيأةً لحلوله فيها ، مُحصنةً مما يمنعه وينافيه .

قال الزمخشري : « يشرح صدره للإسلام » أى يُلطف به حتى يرغب فى الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه ؛ قال تعالى فى سورة الحجرات الآية ٧ : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمُْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وروى عبد الرزاق عن أبى جعفر قال : سئل النبى ﷺ عن هذه الآية : ﴿ فَمَنْ يردِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يشرح صدره للإسلام ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : « نور يُقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا : فهل لذلك من أمانة يُعرف بها ؟ قال : « الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » .

﴿ يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٢٥ - الأنعام (٦)

حَرَاجَ الصَّدْرِ يُخْرِجُ حَرَجًا : ضَاقَ

والحَرَاجُ : غَيْضَةُ الشَّجَرِ الْمُلتَفَّةِ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَنْفُذَ فِيهَا . وَالْحَرَاجُ : الشَّدِيدُ الضَّيِّقُ . فَإِذَا قِيلَ : فَلَانَ حَرَاجَ الصَّدْرِ ، فَالْمَعْنَى ذُو حَرَاجٍ أَيْ ضَيْقٍ فِي صَدْرِهِ .
« يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا » : وَصَفَ الصَّدْرُ بِالْحَرَاجِ الَّذِي هُوَ الْمَصْدَرُ لِلْمَبَالِغَةِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ شَدِيدُ الضَّيِّقِ ، فَهُوَ لَا يَتَسَعُ لِشَيْءٍ مِنَ الْهُدَى وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَنْفَعُهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَا يَنْفُذُ فِيهِ .

« كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ » صَعَدَ فِي الشَّيْءِ : مَضَى فِيهِ عَلَى مَشَقَّةٍ . شَبِهَ اللَّهُ الْكَافِرَ فِي نَفْوَرِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَثِقَلَهُ عَلَيْهِ بِمَنْزِلَةٍ مِنَ تَكْلَفٍ مَا لَا يَطِيقُهُ ؛ كَمَا أَنَّ صُعُودَ السَّمَاءِ لَا يَطِيقُ . وَيَصْعَدُ : فِيهِ مَعْنَى فَعَلَ شَيْءًا بَعْدَ شَيْءٍ ، وَذَلِكَ أَثْقَلَ عَلَى فَاعِلِهِ .

وَصَفَّ اللَّهُ تَبَرُّمَ الضَّالِّ عَنِ الْحَقِّ وَضَيْقَهُ بِهِ ، أَبْلَغَ وَصَفٍ ، ذَلِكَ أَنَّ تَكْلَفَ الصُّعُودِ فِي السَّمَاءِ يَثْقُلُ عَلَى الْقَلْبِ وَيَجْهَدُ الصَّدْرُ أَيْمًا إِجْهَادًا . وَمِنَ الْمَعْرُوفِ عِلْمِيًّا أَنَّ الْإِنْسَانَ كَلَّمَا ارْتَفَعَ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ ، أَحْسَسَ بِضَيْقٍ شَدِيدٍ . وَالطَّيَّارُونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا كَانَ غَيْرَ مَعْرُوفٍ وَقْتَ نَزُولِ الْقُرْآنِ ، فَحَدِيثُهُ عَنِ ذَلِكَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ إِعْجَازِهِ .

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ : هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِقَلْبِ هَذَا الْكَافِرِ فِي شِدَّةِ ضَيْقِهِ عَنِ وُصُولِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ . يَقُولُ : فَمَثَلُهُ فِي امْتِنَاعِهِ عَنِ قَبُولِ الْإِيمَانِ وَضَيْقِهِ عَنِ وُصُولِهِ إِلَيْهِ مِثْلُ امْتِنَاعِهِ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَعَجْزِهِ عَنْهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وَسْعِهِ وَطَاقَتِهِ .

« كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » : كَمَا يَجْعَلُ اللَّهُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَهُ ضَيْقًا حَرَجًا ، كَذَلِكَ يَسْلُطُ اللَّهُ الشَّيْطَانَ (الرَّجْسَ ^(١)) عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْثَالِهِ عَنِ أَبِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَيُغْوِيهِ وَيُصَدِّهِ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَخِلَاصَةِ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ أَعَانَهُ ، وَمَنْ بَعُدَ عَنْهُ خَذَلَهُ .

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الرَّجْسُ الشَّيْطَانُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ كُلُّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ : الرَّجْسُ الْعَذَابُ .

﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ - الأنعام (٦)

« حَقُّهُ » أى ما وَجِبَ فِيهِ ، من الفعل حَقَّ الأمرُ يحقُّ - بكسر الحاء وضمها فى المضارع - حَقًّا : ثَبَّتَ وَوَجَبَ .

« أَتُوا » : أعطوا ، من الفعل آتاه يؤتیه : أعطاه وساقه إليه .

« يوم حصاده » يوم جَنِيهِ .

واختلف العلماء فى المراد من حق الزرع والثمر يوم حصاده . فمنهم من قال إنه الزكاة المفروضة على أساس أن هذه الآية مدنية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة^(١) . وعلى هذا رأى كثير من منهم ابن عباس وأنس بن مالك والحسن ومالك وأبو حنيفة ، ورجحه «التفسير الوسيط» الذى رجح كذلك أن الآية مدنية لأن أولها : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابهة » ، وليس فى مكة جنات معروشات وغير معروشات ، وليس فيها زرع ، وإنما ذلك فى المدينة - والآية فى المصحف مدنية . ومن العلماء من قال هو حق آخر غير الزكاة^(٢) ، أمر الله به ندبا (أى حجب فيه) بمكة ؛ والآية ، فى رأى هذا الفريق ، مكية ، والزكاة فى الثمار والحبوب فرضت فى المدينة ؛ فأريد بالحق هنا ما كان يتصدق به^(٣) .

« ولا تسرفوا » عائد على الأكل ، وهو الظاهر من سياق الآية - أى لا تسرفوا فى الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن ، كقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ ، وفى صحيح البخارى : « كلوا واشربوا والبسوا من غير سرف ولا مخيلة » . والإسراف فى اللفة الخطأ ، والإسراف فى النفقة التبذير .

وقيل « ولا تسرفوا » أى لا تتجاوزوا الحدَّ فتبسطوا أيديكم فى الإعطاء ، فإذا جاوز المزكى ما فرضه الله عليه ، فليذكر أولاده . . فلا يدعهم فقراء .

وقيل : الخطاب للولادة ، فلا يأخذوا فوق حقهم وما لا يجب على الناس .

« إنه لا يحب المسرفين » أى أنه - سبحانه - لا يرضى عمن ينفق ماله كله أو أكثره فى الصدقة أو المتعة ، ولا يرضى عمن يقصر فى الزكاة فيعطى أقل مما يجب عليه - فالسرف فى كل شىء منهى عنه .

(١) انظر : «الكشاف» للزمخشري .

(٢) وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون أى يجمعون الثمار ولا يتصدقون ، كما ذكر عن أصحاب اللجنة فى سورة ن .

(٣) من هؤلاء ابن عمر الذى قال : كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة ، ومنهم عطاء الذى قال : يعطى من حضره ماتيسر ، ومجاهد الذى قال : إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه .

﴿ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ ١٥٢ -

الأنعام (٦)

شَدَّ الشَّيْءُ يُشَدُّ شِدَّةً : قَوَى وَمَتَّنَ .

الأشدُّ : الاكتمالُ . يقال : بلغ أشدهُ : اكتمل وبلغ قوته .

قال حسنين مخلوف : « يبلغ أشده » أى استحكام قوته ويرشُد . وقال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف : حتى يحتلم .

قال القرطبي : وقد تكون القوة فى البدن ، وقد تكون فى المعرفة بالتجربة ، ولا بد من حصول الوجهين ؛ فإن « الأشد » وقعت هنا مطلقة . وقد جاء بيان حال اليتيم فى سورة « النساء » مقيدة ، فقال : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » الآية السادسة ، فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد (أى تبين حسن تصرفهم فى أموالهم) ؛ فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهب فى شهواته . وخص اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه . . . وليس بلوغ الأشد مما يبيح قرب ماله بغير الأحسن ؛ لأن الحرمة فى حق البالغ ثابتة .

ومعنى الآية : ولا تتعرضوا لمال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميته (١) ، وذلك بحفظ أصوله وتثميته فروعه ، وذلك حتى يبلغ أشده . وفى الكلام حذف ، فإذا بلغ أشده وأونس منه الرشد ادفعا إليه ماله .

(١) وهذا معنى : « إلا بالتي هي أحسن » .

﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ١٥٢ -

الأنعام (٦)

وَسِعَ الشَّيْءَ يَسْعُهُ سَعَةً وَسَعَةً : استوعبه ولم يضق به . ويجرى هذا في الأمور الحسية وفي المعاني ؛ تقول : هذا الوعاء يَسَعُ هذا المتاع ، وتقول : حلِمَ فلان يَسَعُنِي .

الوُسْعُ والوَسْعُ : جُهد المرء وطاقته وما يستطيعه في مال أو قدرة .

« لا نكلف نفساً إلا وسعها » أى طاقتها ، فالله لا يطلب من عباده ما لا يستطيعون فعله ، فالملطوب من المكلف مراعاة العدل فى الكيل والميزان قدر طاقته . وما وراء ذلك يشمله عفو الله تعالى .

قال ابن كثير : يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء (١) ؛ كما توعد على تركه فى أول سورة المطففين (٢) ، ومن اجتهد فى أداء الحق أخذه ؛ فإن أخطأ ، بعد استفراغ وسعه وبذل جهده ، فلا حرج عليه .

قال الشوكانى : لا نكلف نفساً إلا طاقتها فى كل تكليف من التكاليف ، ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن .

(١) عند البيع والشراء .

(٢) « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . »

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ١٥٢ - الأنعام (٦)

المعنى : إذا قلتُم بقول في خبر أو شهادة أو جرح أو تعديل فاعدلوا فيه وتحروا الصواب ، ولا تتعصبوا في ذلك لقريب ولا على بعيد ، ولا تميلوا إلى صديق ولا على عدو ، بل سوا بين الناس فإن ذلك من العدل الذي أمره الله به .

والضمير في « ولو كان » راجع إلى ما يفيد « وإذا قلتُم » فإنه لا بد للقول من مقول فيه ، أو مقول له : أي ولو كان المقول فيه ، أو المقول له « ذا قربي » أي صاحب قرابة لكم . ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة النساء ، الآية ١٣٥ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ يأمر تعالى بالعدل في المقال على القريب والبعيد ، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ ﴾ ١٦٤ - الأنعام (٦)

كَسَبَ الْمَالِ وَنَحْوَهُ يَكْسِبُهُ كَسْبًا : جمعه أو حصَّله .

ويمكن أن يكون الكسب في الخير والشر معا كما في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ « الطور ٢١ » .

ويمكن أن يكون في الخير وحده كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ « البقرة ٢٦٧ » .

ويمكن أن يكون في الشر كما في قوله : ﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ « البقرة ٨١ » .

ويمكن إدارك المعنى المراد بمعونة السياق . و « عليها » في هذا التعبير تفيد أن الكسب هنا في الشر ، والمعنى : لا أحد سواها يؤاخذ على ما أتت من ذنب وارتكبت من معصية ، فكل كسبها للشر يكون عليها وحدها ولا يتعداها إلى غيرها . (انظر التعبير : ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى) .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿ ١٦٤ - الأنعام (٦) ﴾

وَزَرَ^(١) الشيء يَزِرُه وَزْرًا : حملة . ويأتي ذلك في الأحمال الثقيلة ، ويقال ذلك على سبيل المجاز في ارتكاب الذنوب والآثام ، إذ كانت أثقالا على أصحابها . والوصف : وازر ووازره .

معنى التعبير : لا تؤاخذ نفسٌ بذنبٍ أخرى ، بل كل نفس مأخوذة بجُرمها ومُعاقبةً بإثمها . فلا تحمل نفسٌ آثمةً إثمَ نفسٍ أخرى ، بل كل نفس بما كسبت رهينةً أى مُحَاسَبَةً على كسبها مأخوذة بما قدمت ، رهنٌ بعملها إما خالصها وإما أوبقها وأهلكها .

والمعنى الظاهري للتعبير هو : لا تحمل حاملة حملٍ أخرى ، فأصل الوزر : الثقل أو الحمل .

وورد من المجازي قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ ﴿ الشرح ٢ ﴾ أى ذنبك . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ ﴿ الأنعام ٣١ ﴾ .

وفى الآية رد لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذه القريب بذنب قريبه والواحد من القبيلة بذنب الآخر .

ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ ﴿ العنكبوت ١٣ ﴾ ، فالمراد بالاثقال التى مع أثقالهم أثقال الذين يضلونهم : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ﴿ النحل ٢٥ ﴾ .

(١) اعتلت فاؤه فهو مثال .

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٢ - الأعراف (٧)

الْحَرَجُ : الضَّيْقُ . وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الشُّكِّ مَجَازًا لِأَنَّهُ يَضِيقُ بِهِ صَدْرَ صَاحِبِهِ .

حَرَجٌ حَرَجًا : ضَاقَ . وَالْحَرَجُ : الإِثْمُ

المعنى : كتاب أنزل إليك ، يا محمد ، لتخوف به المشركين والكفار من عاقبة شركهم وكفرهم ، حتى يقلعوا عما هم فيه . كتاب يتعرض حامل دعوته للحرج الكثير والمشقة الكبيرة لأنه يواجه البشرية بغير ما استكانت إليه من الارتكاس في وحل الشهوات وفي ظلال العبودية للهوى ، ولأنه يستهدف التغيير الشامل لقواعد الحياة البشرية وجذورها ومظاهرها .

فالله سبحانه يقول لنبيه : لا تضق صدرا من تكذيب المشركين إياك وتجمعهم عليك - وكُنْ منشرح الصدر ، فالله ناصرك ومعينك . قال الكيا : ظاهره النهى ، ومعناه نفى الحرج عنه

ﷺ .

﴿ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٧﴾ الأعراف (٧)

الموازين : جمع موزون ، أى مُقَدَّر ، أراد بالموازين الأعمال الموزونة .
« فمن ثقلت موازينه » أى كان لها وزن وقيمة لصالحها ، فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العقاب ، والحصول على جزييل الثواب .

« ومن خفت موازينه » أى كانت لا وزن لها ولا قيمة - لكونها فاسدة - فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، إذ غيروا فطرة الله ، فطرة حب الحق ودفع الضرر ، وكفروا فاستحقوا العذاب .

والآية الثامنة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه ﴾ والمراد بالوزن وزن أعمال العباد بالميزان ، وهو الوزن الحق ، فلا مجال للمغالطة فيه . وقيل : المراد بالوزن تقدير أعمال العباد وهو التقدير الحق العادل ، فلا مجال يومئذ للتلبيس فى الحكم . واستعمال الوزن بمعنى القضاء والحكم والتقدير شائع - لغة وعرفا - بطريق الكناية . وهذا ما قال به الضحاك والأعمش ، وذكر الوزن ضرب مثل ، كما تقول : هذا الكلام فى وزن هذا أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن . قال الزجاج : هذا سائغ من جهة اللسان . أما القرطبي فقال : والأولى أن يتبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان ، وأن الموازين تثقل بالكتب التى فيها الأعمال مكتوبة ، وبها تخف . ويضيف «التفسير الوسيط» : والجمهور على أن الوزن حقيقى . ويكون لصحف الأعمال ميزان له لسان وكفتان : ينظر إليه الخلائق ، تأكيداً للحجة ، وإظهاراً للنصفة ، وقطعا للمعذرة . كما يسألهم الله عن أعمالهم ، فتعترف بها ألسنتهم ، وتشهد بها أيديهم وأرجلهم - ويشهد عليهم كذلك الأنبياء والملائكة وسائر الأشهاد . فالاحتياط يقتضى التسليم بالوزن . أما حقيقة هذا الوزن وطبيعته ، فيترك علمها إلى الله تعالى - وحسبنا أن الحساب يومئذ بالحق وبالعدل ، وأنه لا يظلم أحدٌ مثقال ذرة ، وأن عملا لا يُبخس ولا يضيع .

وقد ورد مثل هذا التعبير فى عدة مواضع من القرآن . قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنا حَاسِبِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ - الأنبياء » وقال : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١٠١) ﴿ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٢) ﴿ وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ﴿ المؤمنون ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ﴾ وقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ (١٠٤) ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ (١٠٥) ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ (١٠٦) ﴿ فَأَمَّهُ هَٰوِيَةٌ ﴾ (١٠٧) ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴾ (١٠٨) ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (١٠٩) ﴿ القارعة ٦ - ١١ ﴾ .

﴿ فِدَالَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سُوءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ ٢٢ - الأعراف (٧)

دَلَّى الدَّلْوُ : أدلاها أى أرسلها فى البئر .

ودلَّى فلانًا بغُرورٍ : أوقعه فيما أراد من تغريبه .

وغرَّ فلانًا يغرُّه غُرورًا : خدعه وأطمعه بالباطل . ويقال : غرَّ الشيطانُ ، وغرته الدنيا فهى غرور (أى خادعة) وهو مغرور (أى مخدوع) .

ويقال : ما غرَّك بكذا : ما جرَّأك عليه .

والتدلية والإدلاء : إنزال الشيء من أعلى إلى أسفل . وإبليس قد فعل ذلك بأدم وحواء ، إذ أنزلهما - بوسوسته - من رفعة الطاعة إلى ضعة المعصية . فقد أنزلهما إلى الأكل من الشجرة بما غرهما وخدعهما به من القسم بالله فى الآية السابقة : ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ أى أقسم لهما - مبالغاً فى حلفه - إني لكما لمن الناصحين ، فكلا من الشجرة واستمعا لكلامى .

وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً ، قال قتادة : حلف بالله لهما حتى خدعهما . وفى الحديث عنه عليه السلام : « المؤمن غرُّ كريم والفاجر خبٌ لئيم »^(١) .

وقيل : معنى « دلاهما » جرَّأهما على العصيان .

(١) أنشد نفظويه :

وترى اللئيم مُجرَّباً لا يخذع

إن الكريم إذا تشاء خدعته
والغرَّ : من ينخدع . والخبُّ : المخادع الغشاش

﴿ وَلباسُ التَّقْوَى ذَلِك خَيْرٌ ﴾

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِك خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ ٢٦ - الأعراف (٧)

اللباس : ما يُلبَس ويستُر الجسم

ويستعمل اللباس مجازا فيما يشبه الثوب .

« لباس التقوى » : أضيف لباس إلى التقوى ، وهذه إضافة بيانية . وقد أطلق لباس على التقوى لأنها تؤثر في حياة الإنسان الروحية تأثيرا عاما كأنها تحيط بالإنسان من كل ناحية .

وجاء في «التفسير الوسيط» : التقوى : الخشية من الله ، المستتعبة للأعمال الصالحة . وإضافة اللباس إليها لأنها تقى صاحبها من النار ، كما يقى اللباس صاحبه من الحر والبرد . فإذا اتقى العبد ربه ، ستره من المعاييب في الدنيا ، ومن العقوبة في الآخرة .

« ولباس التقوى ذلك خير » : بين أن التقوى خير لباس (١) . «لباس» : مرفوع على الابتداء . و «ذلك» : نعته . و«خير» خبر الابتداء . والمعنى : ولباس التقوى الذي علمتموه خير لكم من لبس الثياب التي توارى سوءاتكم ومن الرياش الذي أنزلنا ، فالبسوه .

« أنزلنا عليكم لباسا » أى خلقناه لكم بأسباب أنزلناها من السماء كالمطر وحرارة الشمس التي تنبت القطن ومنه تصنع الثياب . وقيل فى معنى «أنزلنا» : شرعنا لكم فى التنزيل (وهو المنزَّل من قرآن وكتب سماوية على رسلنا) .

« يوارى سوءاتكم » : يستر عوراتكم .

«ريشا» المراد به هنا اللباس الفاخر .

وستر الجسد ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئى ، كما تزعم الأبواق اليهودية المسلطة على حياء الناس وعفتهم تدعوهم إلى العرى والتكشف ، كى تشيع الانحلال النفسى والخلقى وكى تفسد الفطرة البشرية وتجعل الناس ألعوبة فى أيدى مصممي الأزياء ومن يسمون بأخصائى التجميل . وغرضهم الأساسى تدمير الإنسانية وفق الخطة اليهودية البشعة التى تتضمنها مقررات حكماء صهيون ، بالإضافة إلى تحقيق أهدافهم الاقتصادية من وراء الإسراف فى استهلاك الأقمشة وأدوات الزينة .

إن ستر الجسد فطرة خلقها الله فى الإنسان - ثم هى شريعة أنزلها الله للبشر . قال عبد الرحمن بن أسلم : يتقى الله فيوارى عورته ، فذاك لباس التقوى .

(١) قال الشاعر :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقي
ولاخير لباس المرء طاعة ربه
تقلب عريانا وإن كان كاسيا
ولاخير فيمن كان لله عاصيا

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا

تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ٣١ - الأعراف (٧)

أسرف إسرافاً: جاوز القصد والاعتدال فهو مُسرفٌ وهم مسرفون ، وأكثر ما يستعمل الإسراف في إنفاق المال .

قال بعض السلف : جمع الله الطب كله في نصف آية : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ . أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب مالم يكن سرفاً أو مخيلةً لما رواه البخارى عن النبي ﷺ : « كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرفٌ ومخيلةٌ » والمخيلة : الكبر .

وأما ما تدعو الحاجة إليه ، وهو ما سدَّ الجوعة وسكن الظمأ ، فمندوب إليه عقلاً وشرعاً ، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس ؛ ولذلك ورد الشرع بالنهاى عن الوصال (تتابع الصيام) لأنه يضعف الجسد ويضعف عن العبادة .

وفى قلة الأكل منافع كثيرة : منها أن يكون الرجل أصحَّ جسمًا وأجود حفظاً وأزكى فهماً وأقلَّ نوماً وأخف نفساً . وفى كثرة الأكل ما يورث التخمة وبتن الفم والجشاء لتخمر الطعام وفساده ، وذلك يستتبع شتى العلل . وقد بين النبي ﷺ هذا المعنى بيانا شافيا فقال فيما رواه الإمام أحمد والنسائى والترمذى : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلا لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » . وقال على بن الحسين : جمع رسول الله ﷺ الطب فى ألفاظ يسيرة ، قال : « المعدة بيتُ الداء والحمية (١) رأسُ كل دواء وأعط كل جسد ما عودته » .

وقال عمر بن الخطاب : « إياكم والبطنة (٢) من الطعام والشراب فإنها مفسدةٌ للجسد ، مورثةٌ للسقم ، مكسلةٌ عن الصلاة ؛ وعليكم بالقصد فيهما ، فإنه أصلح للجسد وأبعدُ عن السرف ، وإن الله ليبيغض الخبر السمين . وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه » . وقال حاتم الطائى :

فإنك إن أعطيتَ بطنك سُؤله
وفرجك نالا منتهى الذمَّ أجمعا

(١) الحمية : الإقلال من الطعام ونحوه مما يضر .

(٢) البطنة : الامتلاء الشديد من الطعام .

وخرج ابن ماجة فى سننه عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت» .

وقد اختلف فى تناول القدر الزائد عن الحاجة على قولين ، فقيل : حرام ، وقيل : مكروه .

قيل فى سبب نزول الآية إن العرب فى الجاهلية كانوا لا يأكلون دسما فى أيام حجهم ، ويكتفون باليسير من الطعام ، ويطوفون عراة . فقيل لهم : «خذوا زيتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» أى لا تسرفوا فى تحريم مالم يحرم عليكم . فالإسراف يكون بتجاوز الحد ، كما قد يكون بتحريم الحلال - فتحريم شىء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله .

والله لا يرضى عن إسراف المسرفين ، ويكرههم بسبب إسرافهم .

وقد جمعت هذه الآية وجوه البلاغة وأصول الأحكام ، باشمالها على الأمر والنهى ، والإباحة والخبّر ، كما جمعت - فى نصفها - الحكمة (١) .

(١) التفسير الوسيط ، ص ١٤١١ من المجلد الأول .

﴿ وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ

الْحَقِّ وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ﴾ ٣٣ - الأعراف (٧)

السلطان : القهر والغلبة ، ويستعمل فى الحججة والبرهان .

وهو فى القرآن الكريم أكثر استعمالاً فى الحججة والبرهان .

معنى التعبير : وأن تشركوا بالله ما يستحيل أن يكون له حجة أو برهان .

ومعنى الآية ككل يلقى ضوئاً على معنى التعبير : الذى حرمه الله هو الأعمال المتجاوزة لحدود الله ظاهرة للناس أو خافية ، والإثم ، والبغى أى الظلم ، وإشراك ما ليس له قوة ولا سلطان مع الله - سبحانه - فى خصائصه ، ومن ذلك إشراك غير الله ليشرع للناس .

وقد فسر ابن كثير « وأن تشركوا بالله لم ينزل به سلطاناً » تفسيراً مجملاً فقال : أى تجعلوا له شركاء فى عبادته .

أما الزمخشري فركز على كلمة « سلطاناً » ليوضح معناها فقال فى « الكشاف » : « ما لم ينزل به سلطاناً » فيه تهكم ، لأنه لا يجوز أن ينزل الله برهاناً بأن يُشرك به غيره ، فالله لا ينزل برهاناً بأن يكون غيره شريكاً له .

﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

٤٠ - الأعراف (٧)

السَّم : الثقب الضيق

الخيَاط والمخيَط : ما يخاط به وهو الإبرة

وسمُّ الخياط أو ثقب الإبرة مثلُ في ضيق المسلك . يقال : أضيَّقُ من خَرَّتْ الإبرة . والخَرَّتْ والخَرْتُ : الثَّقِبُ ، ويقال : وقعوا في مضايق مثل أخرات الإبر أي شدائد لا مخرج منها . وقالوا للدليل الماهر خَرَّيتَ للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر ، ويقال : سلك بهم أخرات المفاوز أي طرقها الخفية ومضايقها .

ومعنى التعبير أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال ، ولهذا علقه بالمستحيل ، فقال : « حتى يَلِجَ الجمل في سَمِّ الخياط » وهو لا يَلِجُ أبداً . وخص الجمل بالذكر لكونه يضرب به المثل في كبر الحجم ، وخص سم الخياط بالذكر لكونه غاية في الضيق - ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب ، مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة ، فمتى يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ؟

﴿ لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ أي لا يصعد لهم عمل صالح ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ « فاطر ١٠ » .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ ٤٦ -

الأعراف (٧)

سَوِّمَ الشَّيْءَ تَسْوِيمًا : جعل عليه علامة .

وَالسِّيَمَى : العلامة يعرف بها حال الإنسان فى الخير والشر . أصلها : السُّومَى قلبت الواوُ ياءً .

« وبينهما حجاب » أى سور بين الجنة والنار أو بين الفريقين .

« وعلى الأعراف » أى على أعالي الحجاب المضروب بين الجنة والنار . جمع عُرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك .

أما الرجال الموجودون على الأعراف فقبل هم الذين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ومنعتهم حسناتهم من النار (١) ، فجعلوا هناك إلى أن يأذن الله لهم فى دخول الجنة ؛ وقيل هم الأنبياء أجلسهم الله على أعالي ذلك السور إظهارا لعلو مرتبتهم ؛ وقيل هم عدول الناس من كل أمة جعلهم الله شهداء على أعمال أقوامهم .

« يعرفون كلاً » أى كلا من زُمر السعداء والأشقياء .

« بسيماهم » : بعلامتهم التى أعلمهم الله تعالى بها ، يلهمهم الله ذلك أو تعرفهم الملائكة . وقيل سيماهم هى بياض الوجوه وحسنها فى أهل الجنة ، وسوادها وقبحها فى أهل النار ، لكن تحديد العلامة بشيء معين إنما هو تضييق للواسع ؛ فينبغى عدم التحديد ، وتفويض ذلك إلى الله .

وقد ورد هذا التعبير ست مرات فى القرآن الكريم : فى الآية ٢٧٣ من البقرة ، الأعراف ٤٨ ، محمد ٣٠ ، الفتح ٢٩ ، الرحمن ٤١ وهذا الموضع .

(١) أى تعادلت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم تصل بهم الأولى إلى الجنة ، ولم تؤد بهم الثانية إلى النار - فهم ينتظرون فضل الله ويرجون رحمته .

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا

نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ ٥١ - الأعراف (٧)

« اتخذوا دينهم لهوا ولعبا » : استهزءوا بالدين الذى هم عليه ، فلم يعملوا به . فالدين الذى أوجبه الله عليهم مجال عبادة وصلاح وإصلاح ، جعلوه وسيلة لهو ولعب وأهواء ، فجحدوا منه ما جحدوا ، وبدلوا منه - وفق هواهم - ما أرادوا ؛ شأنهم فى ذلك شأن اللاهين العابثين . فهم الذين تناولوا أمور دينهم فى عبث وعدم اهتمام . ومما وقع من اتخاذهم الدين لهوا ولعبا ، تحريمهم السائبة^(١) والطواف بالبيت عرايا^(٢) .

« غرتهم الحياة الدنيا » : خدعتهم بزخارفها ، فركنوا إليها وآثروها على الآخرة ، وأنكروا البعث .

اللهو مصدر لها يلهو : شغل نفسه بما لا يجدى من الأعمال أو بما فيه اللذة والتسلية .

واللعب : العبث ، أو هو تناول الأمور فى عبث وعدم اهتمام . وورد التعبير مقدمة فيه كلمة « لهوا » على كلمة « لعبا » فى قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ « الأنعام ٧٠ » .

(١) الناقة المنذورة يحرمون الانتفاع بها .

(٢) كانوا يعتبرون الطواف عرايا حول البيت نُسكًا حتى نهى عنه النبى فى حجة الوداع بقوله : « ولا يطوفن بالبيت عريان » .

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ

إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ ٥٨ -

الأعراف (٧)

« البلد الطيب » : الأرض العذبة^(١) الكريمة التربة ، تجود بخير النبات وكرمه .

« بإذن ربه » : بتيسيره ومشيته .

« والذي خبث » : الأرض السبخة التي لا تنبت ما يُتَّع به .

« لا يخرج إلا نكداً » أى لا يخرج نباته إلا قليلاً عسيراً ، عديم النفع . والنكد هو العسر المتع من إعطاء الخير . النكد : القليل النفع .

ضرب الله البلد الطيب الذى ينتفع بالمطر مثلاً لمن تدبر الآيات وانتفع بها . وضرب الله البلد الخبيث الذى لا ينتفع بالمطر مثلاً لمن لم ينتفع بالآيات : فقلب يقبل الوعظ والذكرى ، وقلب فاسق ينبو عن ذلك .

فى سياق الرحلة فى أقطار الكون وأسرار الوجود (الآيات من ٥٤ إلى ٥٦) وفى سياق الحديث عن الريح وما تقل من سحاب وما ينزل من أمطار (الآية ٥٧) يأتى هذا المثل للطيب وللخبيث من القلوب - يأتى مراعاة للتناسق فى المراتى والمشاهد ، وفى الطبائع . فالقلب الطيب يُشَبَّه فى القرآن الكريم بالتربة الطيبة ، والقلب الخبيث بالتربة الخبيثة - كلاهما ، القلب والتربة ، منبت زرع وماتى ثمر . القلب ينبت نوايا ومشاعر وانفعالات واستجابات واتجاهات وعزائم ، وأعمالاً بعد ذلك وأثاراً فى واقع الحياة . والأرض تنبت زرعاً وثمرات مختلفاً أكله وألوانه . والبلد الطيب يخرج نباته سهلاً ميسراً ، طيباً خيراً « والذي خبث » يخرج نباته فى عسر ومشقة .

« والذي خبث » صفة للبلد ومعناه : والبلد الخبيث . أو يُقَدَّر : ونبات الذى خبث .

« نكدًا » : نصب على الحال . وقرأ ابن القعقاع « نكدًا » بفتح الكاف ، فهو مصدر بمعنى ذا نكد .

« كذلك نُصْرَفُ الْآيَاتِ » أى نُبَيَّنُّ الْآيَاتِ ، كما جاء فى « تفسير الجلالين » . وقال الزمخشري : نرددها ونكررها . وقال القرطبي : كما صرفنا من الآيات ، وهى الحجج والدلالات فى إبطال الشرك ، كذلك نصرف الآيات فى كل ما يحتاج إليه الناس « لقوم يشكرون » وخص الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك . وجاء فى « التفسير الوسيط » : نحن نبين جميع الآيات بمثل هذا القدر من الوضوح والتبيين الواردين فى هذه الآية .

(١) العذبة : الأرض الطيبة التربة الكريمة المنبت التى ليست بسبخة .

انظر : لسان العرب ، مادة عذا .

﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنظُنُّكَ مِنَ

الكَاذِبِينَ ﴾ ٦٦ - الأعراف (٧)

سَفَهٍ يَسْفَهُ سَفَاهًا وَسَفَاهَةً : خَفَّ وَطَاش

« إنا لنراك في سفاهة » أى فى حمق وخفة عقل .

قال الملأ ، أى كبار قوم عاد ورؤساؤهم ، لرسولهم هود عليه السلام - ردا على دعوته إياهم إلى عبادة الله وترك الطغيان - إنا لنراك مستغرقا فى خفة العقل والطيش والحمافة .
والرؤية هنا من رؤية البصر . وقيل : يجوز أن يراد بها الرأى الذى هو أغلب الظن .
انظر : التعبير « سَفَهُ نَفْسَهُ » ١٣٠ - البقرة .

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ

جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

٨٥ - الأعراف (٧)

بَخَسَ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ يَبْخَسُهُ بَخْسًا : نَقَصَهُ . والفعل نَقَصَ لازم ومتعدى . نَقَصَ الشَّيْءُ
يَنْقُصُ نَقْصًا وَنُقْصَانًا : خَسَّ وَقَلَّ ؛ وَنَقَصَ الشَّيْءَ : صَيَّرَهُ نَاقِصًا ، وَأَنْقَصَهُ : نَقَصَهُ .
ومنه نَقَصَ فَلَانًا حَقَّهُ : غَمَطَهُ إِيَّاهُ (تعدى لمفعولين) .
وَبَخَسْتُهُ حَقَّهُ إِذَا نَقَصْتَهُ إِيَّاهُ .

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم » : الناس مفعول به أول ، وأشياءهم مفعول به ثان .
والمعنى : لا تنقصوهم حقوقهم ؛ فسر حسنين مخلوف فى « صفوة البيان لمعانى القرآن »
ويوسف على فى ترجمته الإنجليزية لمعانى القرآن ، كلمة « أشياءهم » بمعنى حقوقهم والشئ
ما يُعلم ويخبر عنه حسيا كان أو معنويا . وبخسُ الناسُ أشياءهم بأخذها على وجه البخس ،
وهو النقص فيها خفيةً وتدليسًا . وقد يكون البخس فى السلعة بالتعيب والتزهد فيها ، أو
المخادعة عن القيمة ، والاحتتيال فى التزيد فى الكيل والنقصان منه . وكل ذلك من أكل المال
بالباطل - وذلك منهى عنه فى الأمم السالفة على لسان الرسل . قيل إن أهل مدين كانوا ينقصون
الناس كل شئ فى مبيعاتهم . كانوا مكاسين لا يدعون شيئا إلا مكسوه أى نقصوا ثمنه .
ورد التعبير أيضا فى آية تحمل نفس الرقم (٨٥) فى سورة هود ، وفى الآية ١٨٣ من سورة الشعراء .

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾

٨٦ - الأعراف (٧)

« ولا تقعدوا بكل صراط » طريق « توعدون » تخوفون الناس بأخذ ثيابهم أو المكس^(١) منهم « وتصدون » تصرفون « عن سبيل الله » دينه « من آمن به » بتوعدكم إياه بالقتل .

ومن المفسرين من قال : القعود بكل صراط يعنى قطع الطريق وأخذ السلب ، وكان ذلك من فعلهم ، قاله أبو هريرة . وتابعه فى ذلك ابن كثير فقال فى تفسير كلمة « توعدون » : توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم .

ومنهم من قال هو القعود على الطرقات المفضية إلى شعيب تخوفون من آمن بشعيب ودينه بالقتل ، وتصدونهم وتقولون عنه إنه كذاب ، كما كانت قريش تفعل مع النبي ﷺ .

ونورد ما قاله الزمخشري فيه مزيد توضيح . « ولا تقعدوا بكل صراط » أى ولا تقتدوا بالشيطان فى قوله : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ فتقعدوا بكل صراط أى بكل منهاج من منهاج الدين . والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله : ﴿ وتصدون عن سبيل الله ﴾^(٢) فإن قلت : صراط الحق واحد « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » فكيف قيل : بكل صراط ؛ قلت : صراط الحق واحد ، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة ، فكانوا إذا رأوا أحدا يشرع فى شىء منها أو عدوه ويقولون لمن مرَّ بهم إن شعيبا كذاب فلا يفتننكم عن دينكم .

وقيل : كانوا يقطعون الطرق .

(١) المكس : الضريبة يأخذها المكَّاس من يدخلون البلد من التجار .

(٢) « توعدون وتصدون عن سبيل الله » : فى محل نصب على الحال ، أى ولا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله .

ـ الأعراف (٧) ـ

فَتَحَ بَيْنَ الْحَصْمِينَ يَفْتَحُ فَتْحًا : قضى وحكم .

المعنى : ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين . قال الشوكاني : دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم ولا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقين على المبطلين ، كما أخبرنا به فى غير موضع من كتابه فكأنهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين وحلول نقمة الله بهم .

وقال الزمخشرى : يارب أظهر أمرنا حتى يفتح ما بيننا وبين قومنا وينكشف بأن تنزل عليهم عذابا يتبين معه أنهم على الباطل .

« وأنت خير الفاتحين » أى خير الحاكمين ، فإنك العادل الذى لا يجور أبدا .

صاحب هذا الدعاء هو نبي الله ، شعيب عليه السلام . فى هذا الدعاء يدعُ طواغيت قومه وتهديدهم « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخر جنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا » ويتجه إلى وليه الله ، يدعوهُ أن يفصل بينه وبين قومه بالحق . إنه يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان . ويعلم أن النصر فى المعركة المفروضة عليه لن يكون إلا بفتح من ربه وتأيد .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

٩٦- الأعراف (٧)

معنى التعبير : ولو أن أهل القرى آمنوا بالله وبما أنزله من الشرائع ، واتقوا بامتنال أوامر الله واجتناب نواهيه ، لآتيناهم بالخير من كل وجه . وقيل : أراد المطر والنبات . لكن التعبير بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر : «بركات» جمع بركة وهى النماء والزيادة ، « من السماء والأرض » أى مفتوحة بلا حساب ، من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

إن الإيمان بالله وتقواه ليسا بمنزليين عن واقع الحياة ، وإنما هما يؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض ، وهذا وعد من الله - ومن أوفى بعهده من الله ؟

إن الإيمان بالله دليل على حيوية فى فطرة المؤمن ، ودليل على سلامة أجهزة الاستقبال الفطرية لدية وعلى صدق فى إدراكه الإنسانى ، وهو دليل كذلك على حيوية فى البنية البشرية وعلى رحابة فى إحساسه بحقائق الوجود - وهذه الحيوية وسلامة الأجهزة وصدق الإدراك ورحابة الإحساس ، هذه كلها من مؤهلات النجاح فى الحياة الواقعية .

والإيمان بالله قوة دافعة تجمع قوى الإنسان المؤمن ، وتطلقها تعمل لتحقيق مشيئة الله فى خلافة الأرض وعمارتها ، وفى دفع الفساد والفتنة عنها ، وفى ترقية الحياة ونماها .

والإيمان بالله يحرر الإنسان من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد ، وهذا يجعله أقدر على الخلافة فى الأرض خلافة راشدة صاعدة . يضاف إلى الإيمان التقوى ، وتقوى الله تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور ، وتوجه الجهد البشرى فى حذر وتحرج فلا يعتدى ولا يتهور ولا يتجاوز .

وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح ، عاملة فى الأرض ، متطلعة إلى السماء ، متحررة من الهوى والطغيان البشرى ، عابدة خاشعة لله - حين تسير الحياة على هذا النحو ، تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله ورضاه ، فلا جرم أن تحفها البركة ، ويعمها الخير ويظلها الفلاح (١) .

ومعنى فتح البركات عليهم : تيسيرها لهم .

ويقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها . من قرئت الماء إذا جمعتة . فالقرية هى المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية .

(١) أخبر سبحانه عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ «نوح ١٠ ، ١١» . وعن هود : ﴿ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ «هود ٥٢» .

﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ

بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ١٠٠ - الأعراف (٧)

طَبَّعَ الشَّيْءَ وَطَبَّعَ عَلَى الشَّيْءِ : خَتَمَ عَلَيْهِ بِطَابَعٍ ، وَالطَّابَعُ مَا يُطَبَّعُ بِهِ أَوْ يُخْتَمُ . وَخَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ : جَعَلَهُ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا وَكَأَنَّمَا أَحْكَمَ غَطَاءَهُ فَلَا يَنْفِذُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْفَهْمِ ، وَمِثْلُهُ طَبَّعَ عَلَى قَلْبِهِ .

« وَنَطَّبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ » : نَخْتَمُ عَلَيْهَا وَنَحْكُمُ الْغَطَاءَ عَلَيْهَا فَلَا يَنْفِذُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنَ الْفَهْمِ أَوْ التَّدْبِيرِ أَوْ التَّذَكُّرِ « فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » مَوْعِظَةٌ وَلَا هِدَايَا .

وَفِي « التَّفْسِيرِ الْوَسِيطِ » : نَحْكُمُ إِغْلَاقَ قُلُوبِهِمْ دُونَ الْخَيْرِ بِسَبَبِ إِسَاءَتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِاخْتِيَارِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنْذَارًا وَلَا يَتَدَبَّرُونَ إِرْشَادًا وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَلَاكِ السَّابِقِينَ .

وَقَدْ وَرَدَ التَّعْبِيرُ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمَوَاضِعِ (أَحَدُ عَشْرَ مَوَاضِعًا) مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ

لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ١٤٩ - الأعراف (٧)

سَقَطَ يَسْقُطُ سُقُوطًا : وقع من مكان عال إلى مكان منخفض ، ويستعمل السقوط في الحسيات والمعنويات .

ويقال : سَقَطَ فِي يَدِهِ وَأَسْقَطَ فِي يَدِهِ ، ويراد به : زكَ وَأَخْطَأَ ، وَنَدِمَ وَتَحَيَّرَ ، وذلك أن النادم إذا اشتدَّ غَمُّهُ عَضَّ يَدَهُ ، فتصير يده مسقوطة فيها ، أو أن النادم مَن عادته أن يطأطئ رأسه ويضع ذقنه على يده بحيث لو أزالها سقط على وجهه ، فكأن اليد مسقوطة فيها .

فالتعبير سَقَطَ فِي يَدِهِ (بالبناء على المجهول) كناية عن الندم .

ومنهم من قال : سَقَطَ فِي يَدِهِ (على بناء الفاعل) بمعنى سَقَطَ النَّدَمُ فِي يَدِهِ . وهو ذَكَرَ اليَدَ مع أن الندم يكون في القلب ، وذلك لأنه يقال لمن تحصل على شيء : قد حصل في يده أمر كذا لأن مباشرة الأشياء في الغالب تكون باليد ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ﴾ «الحج ١٠» . وأيضا : الندم وإن حل في القلب فأثره يظهر في البدن ، لأن النادم يعض يده ، ويضرب إحدى يديه على الأخرى ، قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَيَّ مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ (١) أي ندم ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ (٢) أي من الندم .

« ولما سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ » الضمير يعود على بنى إسرائيل لما ندموا أشد الندم على عبادتهم العجل ، ومخالفة موسى وهرون وهموا بقتله ، وعلموا أنهم بفعل هذه المنكرات قد جاوزوا طريق الهدى ، « قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » .

ورد التعبير مرة واحدة في القرآن الكريم .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ١٥٤ - الأعراف (٧)

التعبير يشخص الغضب ، فكأنما هو حيٌّ ، ولتمكنه من موسى وتسلطه عليه ، بدأ وكأنه هو الذى يدفعه ويحركه فى أفعاله ، وكل ما وقع منه حينئذ عن الغضب صادر . ولما « سَكَتَ » عنه الغضب ، وتركه لشأنه ، استرد موسى هدوءه فأخذ الألواح التى كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه .

ومعنى التعبير : ولما ذهب عن موسى الغضب وسكن وهدأ روعه بعد اعتذار أخيه وتوبة من تاب (١) . لكن شتان ما بين التعبير القرآنى وبين شرحه هذا الذى لا تجد النفس عنده طرفا من تلك الروعة ولا شيئا من تلك الهزة التى يحدثها التعبير القرآنى ، ففى هذا التعبير من البلاغة ووضوح المعنى ما يبهر العقول ويأخذ بالألباب . وله على القلوب وقع أسر ، وله فى النفوس أثر ساحر .

قال البعض إن التعبير « سكت عن موسى الغضب » من نوع قلب الحقيقة إلى المجاز ، وكان الأصل : ولما سكت موسى عن الغضب (٢) والمحقق أن التعبير ليس من قبيل القلب ، فالتعبير أشرف وأفصح ولا مجال للمقارنة بين الإثنين .

« الألواح » هى الألواح التى كتبت فيها التوراة . « وفى نسختها » أى فيما نُسخَ وكتب منها . ويقرر السياق أن فى هذه الألواح هدى ورحمة لمن يرهبون (٣) ربهم . والهدى رحمة ، فليس أشقى من القلب الضال الذى لا يجد النور ، وليس أشقى من الروح الشارد الحائر الذى لا يجد الهدى ولا يجد اليقين - ورهبة الله وخشيته هى التى تفتح القلوب للهدى ، وتوقظها من الغفلة ، وتهيئها للاستجابة والاستقامة .

(١) كان قومه قد عبدوا العجل ، فغضب غضبا شديدا غيرة لله .

(٢) وهو مثل قولك : أدخلت الأصبع فى الخاتم ، وأدخلت الخاتم فى الأصبع .

(٣) « لربهم يرهبون » : لما تقدم المفعول ضعف عمل الفعل وصار بمنزلة ما لا يتعدى بدخول اللام على المفعول فجاء على هذا النحو « لربهم » والأصل : ربهم .

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾



﴿ وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٥٦ - الأعراف (٧)

« ورحمتي وسعت كل شيء » : آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخبارا عن حملة العرش ومن حولهم أنهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ « غافر ٧ » .

المعنى : رحمة الله لا نهاية لها ، فالتعبير يجعل رحمة الله أوسع من ذلك الكون الهائل الذي خلقه ، والذي لا يدرك البشر مداه - فيالها من رحمة لا يدرك مداها إلا الله . فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء ، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاصي إلا وهو متقلب في نعمتي . وقيل : وسعت كل شيء من الخلق حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها . روى الإمام أحمد عن سلمان عن النبي ﷺ قال : « إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » .

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي فسأوجب حصول رحمتي منة مني وإحسانا إليهم ، كما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ « الأنعام ٥٤ » .

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴿ ١٥٧ - الأعراف (٧) ﴾

وَضَعَ عَنْهُ الْأَمْرَ بِضَعُهُ وَضَعًا : أسقطه (١)

الإِصْرُ (٢) : الأمر الثقيل ، والمراد به هنا التكاليف الشاقة التي فرضها الله على اليهود بسبب ظلمهم . ومن ذلك القصاص في القتل سواء أكان عمدا أم خطأ وعدم تشريع الدية لهم ، وقطع أعضاء الجسم الخاطئة ، وإحراق الغنائم .

« الأغلال التي كانت عليهم » : الأغلال جمع غُل وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ، يستعار للمواثيق الشديدة والتكاليف الشاقة ، وهي التي كانت في شريعة موسى ، عليه السلام ، لتناسب ظلم بني إسرائيل وطغيانهم وغلوهم في الفساد والضلال . ومن ذلك قرض (قطع) موضع النجاسة من الثوب ، وعدم العمل يوم السبت ، وعدم مجالسة المرأة إذا حاضت وعدم مقاربتها .

قال ابن كثير في معنى هذا التعبير : جاء نبينا ﷺ بالتييسير والسماحة ، قال : « بعثت بالحنيفية السمحاء » ؛ وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن : « بشرًا ولا تنفرا ويسرًا ولا تعسرًا وتطوعا ولا تحتلفا » ؛ وقال : « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به نفسها ما لم تقل أو تعمل » ؛ وقال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

« الإِصْر » مصدر يقع على القليل والكثير من جنسه مع أفراد لفظه ، ومثله قوله تعالى :

﴿ لَا يَرْتَدِ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ ، ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ ، ﴿ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ ﴾ : كله بمعنى الجمع .

(١) وَضَعَ عَنْ مَدِينَةٍ : نقض له مما عليه شيئاً .

(٢) الإِصْرُ : الثقل الذي يَأْصِرُ صاحبه ، أى يجبسه من الحراك لثقله .

﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ﴾

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا

بآيَاتِنَا فَأَقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٦]

لَهَثَ الكلبُ يَلْهَثُ لَهْثًا وَلَهْثًا: أخرج لسانه، وأسرع في تنفسه من العطش أو التعب ونحوه .
« تحمل عليه » : تشد عليه بالطرْد أو الزجر .

قال القتيبي : كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال (التعب) وحال الراحة ، وحال المرض وحال الصحة ، وحال الرى وحال العطش .
فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته فقال : إن وعظته ضلَّ وإن تركته ضلَّ .

فالعالم الذى آتاه الله علم آياته ولم يعمل بعلمه ، ولم يتفجع بما علمه سواء أَرْعَطَتْهُ أم تركته ، هذا العالم مثله كمثل الكلب إذا زجرته نبح وولى هاربا ، وإذا تركته شدَّ عليك ونبح ؛ فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك فيعتبره عند ذلك مايعتريه عند العطش من إخراج اللسان .

وجملنا الشرط « إن تحمل عليه يلهث وإن تركه يلهث » محلهاما النصب على الحال ، كأنه قيل : فمثله كمثل الكلب ذليلا دائما الذلة لاهثا في الحالتين .

فحال هذا العالم الذى يقص علينا القرآن خبره فى هذه الآية والآية السابقة عليها « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » ، إنما هو حال أحسن الحيوانات فى أحسن أحواله ، وهى اللهث دائما فى حالى الراحة والتعب . ذلك أن هذا الرجل آتاه الله الدلائل والبراهين الدالة على الهدى والداعية إلى الرشاد ، فترك العمل بها كلية ونبذها وراء ظهره ، وتبعه الشيطان بالغوياة فصار من الراسخين فى الضلال .

والتعبير « فانسلخ منها » جديد على ذخيرة اللغة العربية من التصورات والتصويرات . إنسان يؤتاه الله آياته ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى ، لكنه ينسلخ من هذا كله إنسلاخا ، ينسلخ كأنما الآيات أديم له (أى جلد له) متلبس بلحمه ، وإنما يكون الانسلاخ بعنف ومشقة - أو ليست الكينونة البشرية فى فطرتها السلمية ، متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ، وينحرف عن الهوى ليتبع الهوى ، « وأخذ إلى الأرض » أى سكن إلى الدنيا ومال إليها « واتبع هواه » بالإعراض عن تلك الدلائل الواضحة ، فانحظ وارْتَدَ أسفل سافلين ، فإذا هو مسخ فى هيئة الكلب يلهث إن طورد ويلهث إن لم يُطارَدَ .

وإنما جاء التشبيه فى الوضع والخسة بقريئة الفاء فى قوله « فمثله كمثل الكلب » ، والفاء تفيد فى ترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فمشهده المفزع البائس النكد كالكلب ويلهث إن طورد وإن لم يطارد إنما ترتب على ما قبله من ميل إلى الدنيا واتباع الهوى !

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ - ١٩٩ -

الأعراف (٧)

أَخَذَ يَأْخُذُ أَخْذًا : تَنَاوَلَ .

والتناوُلُ في قوله : « خُذِ الْعَفْوَ » مجاز عن القبول والرضا .

والعفو : السهل اليسير من أخلاق الناس .

« خذ العفو » أى أقبل يا محمد السهل اليسير من أخلاق الناس ، وتساهل معهم فيما اعتادوه من أعمال وعادات شريطة ألا يكون فيها ما يخالف الدين ، فهو مقيد بقوله تعالى : « وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ » أى بالمعروف لك عن طريق الوحي ، فلا عفو فيما هو مطلوب شرعا ، ويبقى العفو عاما فيما يجوز التسامح فيه ، فليكن رائدك العفو والصفح فى تعاملك مع الناس . روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن سفیان بن عيينة عن أبيه قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه ، ﷺ : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » قال رسول الله ﷺ : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك . وفى صحيح البخارى عن هشام بن عروة عن أبيه : أمر رسول الله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس .

فالله يأمر نبيه أن يأخذ الميسر الممكن من أخلاق الناس فى المعاشرة والصحبة ، وأن يعفو عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم فى المعاملات الشخصية ، وليس فى العقيدة الدينية ولا فى الواجبات الشرعية - فليس فى عقيدة الإسلام ولا فى شريعة الله يكون التغاضى والتسامح ! فالإغضاء عن الضعف البشرى ، والعطف عليه ، والسماحة فيه ، واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء . ورسوله الله ﷺ ، راع وهاد ومعلم ومُربٍّ ، فهو أولى الناس بالسماحة والميسر والإغضاء . وكذلك كان ﷺ : لم يغضب لنفسه قط . فإذا تعلق الأمر بدين الله كان غضبه لا يمانله غضب فى شدته . وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله ﷺ - فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضى سعة الصدر وسماحة الطبع واليسر والتيسير . فلا يطلب الداعية من الناس ما يجهدهم وما يشق عليهم حتى لا ينفروا ، كقوله ﷺ : « يَسْرُوا ولا تعسروا » متفق عليه من حديث أنس . وقال الشاعر :

خذى العفو منى تستدبى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضبُ

وفسر البعض العفو بأنه ما فضل وزاد عن حاجة الناس من أموالهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ أى الزائد عن حاجتهم ، ولكن الأظهر حمل الآية على المعنى الأول وهو : العفو بمعنى القبول .

« بالعرف » : بالمعروف وهو ما شرَّعه الله لعباده وعُرف حسنه شرعا وعقلا من عادات الناس . فالعرف هو الخير المعروف الواضح الذى تلتقى عليه الفطر السلمية والنفوس المستقيمة . ورياضة النفوس تقتضى أخذها فى أول الطريق بالميسور المعروف من التكليف حتى يسلس قيادها وتعتاد هى بذاتها النهوض بما فوق ذلك فى يسر وطواعية .

قال عليه الصلاة والسلام : « إنما الطاعة فى المعروف » . والمعروف مأموره فى العبادات والمعاملات . ولأن المعروف هو شريعة الله للناس ، وعليه يتوقف صلاح حالهم فى الدنيا والآخرة ، جاء القرآن الكريم مقررا له فى آيات كثيرة : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ «آل عمران ١٠٤» ، وفى مبايعة النساء قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ «المتحنة ١٢» وفى معاشرتهن بالمعروف : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ «النساء ١٩» ، وفى ولاية المؤمنين بعضهم لبعض : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ «التوبة ٧١» .

قال ابن جرير : أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ويدخل فى ذلك جميع الطاعات ، ومنها تقوى الله فى الحلال والحرام ، وصلة الأرحام ، وغض الأبصار .
والعرف والمعروف والعارفة كلها بمعنى واحد . قال الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه (١) لا يذهب العرف بين الله والناس

قوله تعالى : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ : تَوَلَّى عن الجاهلين . والجاهالة ضد الرشد وضد العلم . وإنما يكون الإعراض عنهم بالترك والإهمال ، والتهوين من شأن ما يجهلون به من التصرفات والأقوال ، والمرور بها مر الكرام ؛ وعدم الدخول معهم فى جدال لا ينتهى إلى شىء إلا إضاعة الوقت والجهد . وقد ينتهى الإعراض عنهم وعن جهالاتهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها ، أو إلى عزلهم عن الآخرين الذين فى قلوبهم خير ، إذ يرى هؤلاء صاحب الدعوة محتملا معرضا عن اللغو ، ويرون الجاهلين يحمقون ويجهلون فيسقطون فى عيون الناس .

فقد يؤثر الحلم والعفو فى السفيه فيرجع إلى الصواب ويلوم نفسه . ولقد كان لحلم النبى ﷺ ، وإعراضه عن إساءات قومه أثر كبير فى إسلام من كان يُسِّفه ويعارض .

ويقول القرطبى فى تفسيره : هذه الآية من ثلاث كلمات ، تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات . وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم لما قدم عليه وقال له : إنا

(١) هذا البيت للمحطبة . جوازيه : جمع جاز أى لا يعدم جزاءً عليه من الفعل جزاه عليه جزاء . ويمكن أن تكون جوازيه جمع جزاء كما جمعت سيل على سوائل . انظر : لسان العرب ، مادة جَزَى . وفى « المعجم الوجيز » : الجازية : الثواب ، والجمع : جَوَازٍ .

معشر أهل البادية ، قوم فينا الجفاء ، فعلمنى كلمات ينفعنى الله بها ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : « اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا وأن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تُفرغ من ذكوك فى إناء المُستسقى^(١) وإن امرؤ سبَّك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وزرا ولا تسبن شيئا مما حولك الله تعالى » قال جابر بن سليم : فو الذى نفسى بيده ما سببت بعده شاة ولا بعيرا . أخرجه أبو بكر البزار فى مسنده بمعناه . وروى أبو سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » . وروى عنه ﷺ قوله : « أمرنى ربي بتسع : الإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عن ظلمنى ، وأصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأن يكون نظقى ذكرا ، وصمتى فكرا ، ونظرى عبرة » .

وقد أخذ بعض الحكماء ما ورد فى الآية من معنى وسبكه فى هذين البيتين :

أمرت وأعرض عن الجاهلين	خذ العفو وأمر بعرف كما
فمستحسن من ذوى الجاهلين	ولن فى الكلام لكل الأنام

وقال بعض العلماء : الناس رجلان ، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يخرجه ؛ وإما مسيء فمُره بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر فى جهله فأعرض عنه ، فلعل ذلك أن يرد كيده ، كما قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾ « المؤمنون ٩٦ » ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ « فصلت ٣٤ » .

(١) المُستسقى : طالب السقيا أى الماء للرى أو الشرب . والدَّلُو الإناء يُستقى به من البئر .

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ - ٢٠٢ -

الأعراف (٧)

مَدَّ النَّهْرُ النَّهْرَ إِذَا جَرَى فِيهِ . قَالَ اللَّحْيَانِيُّ : يُقَالُ لِكُلِّ شَيْءٍ دَخَلَ فِيهِ مِثْلُهُ فَكَشَرَهُ : مَدَّهُ يَمُدُّهُ مَدًّا . وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ ﴾ « لقمان ٢٧ » ، أَيْ يَزِيدُ فِيهِ مَاءً مِنْ خَلْفِهِ .

وَمَدَدْنَا الْقَوْمَ : صَرْنَا لَهُمْ أَنْصَارًا وَمَدَدًا . وَالْمَدَدُ : مَا أَمَدَدْتَ بِهِ قَوْمَكَ فِي حَرْبٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ طَعَامٍ أَوْ أَعْوَانٍ أَوْ هُوَ : الْعَوْنُ وَالتَّقْوِيَةُ .

وَمَدًّا فَلَانًا فِي أَمْرِهِ : قَوَاهُ عَلَيْهِ وَزَيْنَهُ لَهُ ، وَمَا وَرَدَ مِنْهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ اسْتَعْمَلَ فِي الشَّرِّ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ « البقرة ١٥ » ، وَطُغْيَانُهُمْ : غُلُوبُهُمْ فِي كُفْرِهِمْ .

وَالْغَيِّ : الضَّلَالُ وَالْخِيَاةُ ، وَالْغَى : فَسَادُ الْعَيْشِ وَفَسَادُ الْإِعْتِقَادِ . غَوَى غَيًّا ، وَغَوَى غَوَايَةً : ضَلَّ . وَرَجُلٌ غَاوٌ وَغَوَى وَغَوَى : ضَالٌّ . وَأَغْوَاهُ : أَضَلَّهُ . قَالَ الْمُرْقَشُ :

فَمَنْ يَلْتَقِ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَى لَا يَدْعُمُ عَلَى الْغَى لَأَثْمًا

وَفِي الْحَدِيثِ : « مَنْ يُطْعِمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ وَمَنْ يَعْصِمُهُمَا فَقَدْ غَوَى » . وَفِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ : « لَوْ أَخَذَتِ الْخَمْرُ غَوَتُ أَمْتُكَ » أَيْ ضَلَّتْ .

وَالْتِغَاوَى : التَّعَاوُنُ فِي الشَّرِّ .

وَكَلِمَةُ « وَإِخْوَانُهُمْ » الَّتِي يَبْدَأُ بِهَا التَّعْبِيرَ تَعُودُ عَلَى « الْجَاهِلِينَ » فِي الْآيَةِ ١٩٩ . فَالسياقُ عَادَ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْجَاهِلِينَ ، وَإِخْوَانُهُمُ الَّذِينَ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَى هُمُ شَيْطَانُ الْجَنِّ ، وَقَدْ يَكُونُونَ شَيْطَانِ الْإِنْسِ أَيْضًا : إِنَّهُمْ يَزِيدُونَ لَهُمْ فِي الضَّلَالِ وَيَزِينُونَ لَهُمُ الْفَسَادَ وَيَقْوُونَ لَهُمْ عَلَيْهِ . وَهُمْ « لَا يُقْصِرُونَ » أَيْ لَا يَكْلِفُونَ وَلَا يَسْأَمُونَ وَلَا يَسْكُنُونَ .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : « وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ » أَيْ أَتْبَاعُهُمْ وَالْمُسْتَمْعُونَ لَهُمْ الْقَابِلُونَ لِأَمْرِهِمْ ، يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَى ، أَيْ تَسَاعَدُهُمُ الشَّيْطَانُ عَلَى الْمَعَاصِي وَتَسَهَّلَهَا عَلَيْهِمْ وَتَحَسَّنَهَا لَهُمْ . وَالْمَدُّ : الزِّيَادَةُ ، يَعْنِي يَزِيدُونَهُمْ فِي الْغَى يَعْنِي الْجَهْلَ وَالسَّفَهَ .

وَقَالَ الزَّمَخَشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ « يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَى » : يَكُونُونَ مَدَدًا لَهُمْ فِيهِ وَيَعْضِدُونَهُمْ . وَقَرَأَ : يَمُدُّونَهُمْ مِنَ الْإِمْدَادِ (مِنَ الْفِعْلِ : أَمَدَ) ، وَقَرَأَ أَيْضًا : يُمَادُونَهُمْ بِمَعْنَى يَعَاوَنُونَهُمْ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

١- الأنفال (٨)

« ذات بينكم » : « ذات » مؤنث ذو ، وهى بمعنى صاحبة . وتقال « ذات » أيضا للحالة ، ويكون معنى « ذات بينكم » أى الحالة التى بينكم .

أما بين فهى ظرف . ويصح الإضافة إليه على سبيل التوسع ، ففى قوله تعالى : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » أى الأحوال الواقعة بينكم ^(١) ، يعنى ما بينكم من أحوال أصلحوها حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق . قال الزمخشري : لما كانت الأحوال ملابسة للبين (أى أنها توجد بين الأشخاص) قيل لها : ذات البين .

أصلحوها ما بينكم من الأحوال والصلات التى تربط بعضكم ببعض ، وإنما يكون إصلاحها بالوفاق والتعاون ، والمساواة ، وترك الأثرة ، فلا تخاصموا ولا تظالموا ولا تشاجروا . ذلك أن إصلاح ذات البين يتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها ، وتُحفظ به وحدتها .

(١) وفى قوله تعالى : « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا » النساء ٣٥ ، أى شقاقا واقعا بينهما . وفى قوله : « شهادة بينكم » المائدة ١٠٦ أى الشهادة الواقعة بينكم .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ١١ -

الأنفال (٨)

الغشاء والغاشية والغشاوة : الغطاء .

غَشِيََ الأمرُ فُلَانًا يَغْشَاهُ غَشْيًا : غَطَّاهُ وَحَوَاهُ ، يُقَالُ : غَشِيَهِ النَّعَاسُ وَغَشِيَهُ الْمَوْجُ .
وَوَغَشَى الشَّيْءَ : جَعَلَهُ عَلَيْهِ غَطًّا .

« إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ » : مَفْعُولَانِ ، الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ ضَمِيرُ الْمَخَاطَبِ وَالْمَفْعُولُ الثَّانِي النَّعَاسُ . وَالْمَعْنَى : يُغْطِّيكُمُ اللَّهُ وَيَشْمَلِكُمُ بِالنَّعَاسِ ، فَالْفِعْلُ مُضَافٌ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَتَقَدَّمَ ذِكْرَهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ : « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » ، وَلِأَنَّ بَعْدَهُ « يُنَزِّلُ عَلَيْكُم » فَأُضِيفَ الْفِعْلُ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَكَذَلِكَ الْإِغْشَاءُ يُضَافُ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِتَشَاكُلِ الْكَلَامِ . وَهَذِهِ قِرَاءَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ . وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو : « يَغْشَاكُمُ النَّعَاسُ » بِإِضَافَةِ الْفِعْلِ إِلَى النَّعَاسِ ، دَلِيلُهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ ١٥٤ مِنْ آلِ عِمْرَانَ : « ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ » . وَالِاخْتِيَارُ قِرَاءَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِضَمِّ الْبَاءِ وَفَتْحِ الْغَيْنِ وَشَدِّ الشَّيْنِ « يُغَشِّيكُمُ » وَنَصَبِ « النَّعَاسِ » لِأَنَّ بَعْدَهُ « أَمَنَةً مِّنْهُ » وَالْهَاءُ فِي مَنَّهُ لِلَّهِ ، فَهِيَ الَّتِي يَغْشِيهِمُ النَّعَاسُ ، وَلِأَنَّ أَكْثَرَ الْقُرَّاءِ اخْتَارُوا هَذِهِ الْقِرَاءَةَ .

« أَمَنَةً » : مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ ، يُقَالُ أَمِنَ أَمَنَةً وَأَمَّنًا وَأَمَانًا ، فَالْأَمَنَةُ : الْأَمَانُ وَالطَّمَانِينَةُ وَمَعْنَى التَّعْبِيرِ : أَلْقَى النَّعَاسَ عَلَيْهِمْ أَمَانًا ، أَمَّنَّهُمْ بِهِ مِنْ خَوْفِهِمُ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ . وَالنَّعَاسُ حَالَةُ الْأَمْنِ الَّذِي لَا يَخَافُ . وَكَانَ هَذَا النَّعَاسُ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَ الْقِتَالُ مِنْ غَدَا ، فَكَانَ النَّوْمُ عَجِيبًا مَعَ مَا كَانَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ الْخَطِيرِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَبَّطَ جَأَشَهُمْ . قَالَ الْمَاورِدِيُّ : وَفِي امْتِنَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالنَّوْمِ يَوْمَ بَدْرٍ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَجِهَانِ : الْأَوَّلُ قَوَّاهُمْ بِالِاسْتِرَاحَةِ عَلَى الْقِتَالِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي . وَالثَّانِي : أَمَّنَّهُمْ بِزَوَالِ الرَّعْبِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، كَمَا يُقَالُ : الْأَمْنُ مُنِيمٌ ، وَالْخَوْفُ مُسْهِرٌ .

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ قَالَ : مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمَقْدَادِ عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقٍ ، وَلَقَدْ رَأَيْتَنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَصَلِي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ . ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ .

« رِجْزَ الشَّيْطَانِ » : وَسُوسَتُهُ وَتَخْوِيفُهُ لَهُمْ . وَقُرْئُ : « رِجْسَ الشَّيْطَانِ » . وَذَلِكَ أَنَّ إِبْلِيسَ تَمَثَّلَ لَهُمْ أَى لِلْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَدْ سَبَقُوهُمْ إِلَى الْمَاءِ . بَيْنَمَا نَزَلَ الْمُسْلِمُونَ فِي

كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء ، وناموا . فقال لهم الشيطان مُوسوسا ومخوفا : أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء^(١) ، وقد عطشتم ، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء ، وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش ، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة . فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا . فأنزل الله ، عز وجل ، المطر حتى جرى الوادى . واتخذ رسول الله ﷺ ، وأصحابه الحياض على عُدوة الوادى (أى جانبه) وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضأوا ، وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو حتى تثبت عليه الأقدام - وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس .

تتحدث الآية عن جانب من معركة بدر . وبدر واد يقع بين مكة والمدينة على بعد ٢٨ فرسخاً^(٢) من المدينة . كان النبى ، ﷺ قد علم أن أبا سفيان مُقبل من الشام فى غير وأموال لقريش ، فندب المسلمين للخروج إليهم « لعل الله يُنفلكموها »^(٣) . فخرج المسلمون إلى بدر وكان عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا (عدة أصحاب طالوت^(٤)) . وبلغ الخبر أبا سفيان ، فأرسل إلى مكة يستنفر قريشا ، ويخبرهم أن محمدا قد عرض له فى أصحابه ، فخرجت قريش فى ألف رجل ليمنعوا (أى ليحموا) غيرهم . وعلم الرسول بخروج قريش ، فاستشار أصحابه فى ملاقاتهم . فقال المقداد بن عمرو : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فنحن معك . والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . وقال سعد بن معاذ : فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . فمضى رسول الله وسبق قريشا إلى ماء بدر ، وتلقى الفريقان ، ونصر الله نبيه والمسلمين ، وقتل من المشركين سبعين وأسر منهم سبعين . وكان من بين قتلى قريش أربعة من كبار ساداتهم : أبو جهل بن هشام ، وأمّية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة .

وتجدر الإشارة إلى أن سورة « الأنفال » نزلت فى غزوة بدر الكبرى .

ولفظ « يغشيكم » ولفظ « النعاس » ولفظ « أمنة » - كلها تشترك فى إلقاء ظل لطيف شفيف . لقد كانت هذه الغشية وهذه الطمانينة مددًا من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر .

(١) لم يكن قد رُخص لهم بعد فى التيمم عند عدم وجود الماء . وإنما جاءت هذه الرخصة بعد ذلك بأكثر من ثلاث سنوات فى غزوة بنى المصطلق .

(٢) الفرسخ مقياس قديم من مقياس الطول يقدر بثلاثة أميال (٨ر٤ كم) .

(٣) أى يجعلها نَفلاً لكم أى غنيمة ، وجمع النفل : أنفال .

(٤) سرّ النبى ﷺ بذلك العدد وحَمَد الله تيمنا بما حدث لطالوت ، أحد ملوك بنى إسرائيل ، الذى خرج فى ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا لملاقاة جالوت وجنوده وكان عددهم أكبر بكثير من جنود طالوت - لكن الله كتب النصر لطالوت : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » الآيات ٢٤٦-٢٥١ ، سورة البقرة .

﴿ ٢١٩ ﴾ وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴿ ١١ - الْأَنْفَال (٨)

رَبِّطَهُ يَرْبِطُهُ رَبِّطًا : شَدَّهُ بِالرَّبَّاطِ ، وَهُوَ مَا يُرَبِّطُ بِهِ .

وَرَبِّطَ عَلَى قَلْبِهِ : شَدَّهُ وَقَوَّاهُ لِيَسْكُنَ بِالصَّبْرِ وَالشَّجَاعَةِ ، وَيُقَالُ لِكُلِّ مَنْ صَبَرَ عَلَى أَمْرٍ : رَبِّطَ عَلَى قَلْبِهِ .

« وليربط على قلوبكم » أى يشد عليها ويقويها بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن . وقال الشوكاني : يجعلها صابرة قوية ثابتة فى مواطن الحرب . جاء فى « لسان العرب » : الرِّبَاطُ : الفؤاد ، كأنَّ الجسمَ رُبطَ به . ورجل رَابِط الجأش^(١) أى شديد القلب كأنه يربط نفسه عن الفرار يكفها بجرأته وشجاعته .

وَرَبِّطَ جَأَشُهُ رَبِاطَةً : اشْتَدَّ قَلْبُهُ وَوَثِقَ وَحَزَمَ فَلَمْ يَفِرَّ عِنْدَ الرَّوْعِ .
انظر التعبير « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه » فى صدر الآية .

﴿ ٢٢٠ ﴾ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿ ١١ - الْأَنْفَال (٨)

ثَبَّتَهُ تَثْبِيتًا : فَعَلَ مَا يَوْجِبُ ثَبَاتَهُ وَاسْتِقْرَارَهُ ، وَيُدْفَعُ عَنْهُ أَسْبَابَ الْوَهْنِ وَالتَّرَعُّزِ .

كان المسلمون قد نزلوا ، يوم بدر فى كتيب^(٢) أعفر تسوخ فيه الأقدام . فأنزل الله ، عز وجل ، المطر ، فسقوا واغتسلوا ، وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام ، وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس .
فالضمير فى « به » راجع إلى الماء الذى أنزله الله .

ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى الربط على القلوب : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ويربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » ، فالقلب إذا تمكن فيه الصبر والجرأة تثبت القدم فى مواطن القتال .

انظر التعبير « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه » فى صدر الآية ، والتعبير السابق : « وليربط على قلوبكم » .

(١) ويقال أيضا : رَبِّطَ الجأش .

(٢) الكتيب : الرمل المستطيل المحدث .

﴿ فَلَا تُولُوهُمُ الْاَدْبَارَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاَدْبَارَ (١٥)
وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ
مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥ ، ١٦ - الْأَنْفَال (٨)﴾

يقال : ولَّى العدو دُبُرَهُ : انثنى وانصرف عن قتاله ورجع .
والدُبُرُ : مؤخر كل شىء وظهره وَعَقْبُهُ ، وهو نقيض القَبْل ، وجمعه أدبار . وولاه دُبُرَهُ :
انهزم أمامه .

« فلا تولوهم الأدبار » : فلا تُدبروا ظهوركم لهم ، والمقصود نهيمهم عن الفرار من قتال
العدو بأية صورة .

« زحفا » أى مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون .

« متحرِّفا لقتال » أى منعطفا لقتال بأن يريهم الفرّة مكيدة وهو يريد الكرّة .

« متحيزا إلى فئة » أى منضما إلى جماعة من المسلمين يستنجد بها . « فقد باء » أى رجع*
بغضب من الله .

هذا خطاب للمؤمنين فى عهد الرسول ﷺ ولجميع المؤمنين بعدهم إلى يوم القيامة ، كلفهم
الله فيه بالثبات عند لقاء الكفار فى الحرب . جاء هذا التكليف فى تضاعيف قصة بدر إظهارا
للاعتناء به وحثا على المحافظة عليه ، فإن فيه عز المسلمين وسلامتهم وسلامة دينهم .

وما يجوز أن يولى المؤمن خوفا على الحياة ، فالأجال بيد الله . وليس فى هذا تكليف
للنفس فوق طاقتها . فالمؤمن إنسان يواجه عدوه إنسانا ، فهما من هذه الناحية يقفان على
أرض واحدة ، ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة الكبرى التى لاغالب لها ، فهو أقوى من
خصمه الذى يواجهه وهو يشاق الله ورسوله .

ونقف عند ما فى التعبير من إيماءات : « فلا تولوهم الأدبار » « ومن يولهم يومئذ دبره » .
فهو تعبير عن الهزيمة فى صورتها الحسية ، وفيه تقبيح وتشنيع ، وتعريض بإعطاء الأدبار
للأعداء .

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ١٧ - الأعراف (٨)

التعبير يكشف للمسلمين عن يد الله وهى تدبير المعركة من ورائهم ، وتقتل لهم أعداءهم ، وترمى لهم وتصيب .

وتذهب الروايات المأثورة إلى تفسير الرمى هنا بأنه رمية الحصى التى حثاها رسول الله ﷺ ، فى وجوه الكفار ، وهو يقول : « شامت الوجوه » فأصابت وجوه المشركين ممن كتب عليهم القتل فى علم الله .

ولكن دلالة الآية أعم . فهى تمثل تدبير الله للأمر كله من وراء الحركة الظاهرة للنبي ﷺ ، والعصبة المسلمة معه .

هذا الرمى كان يوم بدر ، وهو الأصح لأن السورة بديرية . لما طلعت قريش يوم بدر ، قال رسول الله ﷺ ، يناجى ربه : هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسلك ، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى .

فأتاه جبريل عليه السلام فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم به . فلما التقى الجمعان ، قال النبي ﷺ لعلى ، رضى الله عنه ، أعطنى قبضة من حصباء الوادى ، فرمى بها فى وجوههم وقال : « شامت الوجوه » ، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه ، فانهزموا ، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم .

« وما رميت » أنت يا محمد ، « ولكن الله رمى » يعنى أن الرمية التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لورميتها لما بلغ أثرها لا ما يبلغه أثر رمى البشر . ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم . فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ ، لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذى تطيقه البشر فعل الله عز وجل .

وقال أبو عبيدة فى كتاب المجاز : المعنى « وما رميت » الفزع والرعب فى قلوبهم « إذ رميت » بالحصباء فانهزموا « ولكن الله رمى » أى أعانك وأظفرك . والعرب تقول : رمى الله لك أى أعانك وأظفرك وصنع لك .

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

٢٤ - الأنفال (٨)

حَال بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ يَحُولُ حِيلَوْلَةٌ : حجز بينهما وفصل .

ومعنى التعبير أن الله يلقى في قلب المرء ما يحجزه عن مراده ويُغَيِّرُ عليه نِيَّتَهُ . فالله يفصل بين المرء وقلبه ، ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه ، ويصرفه كيف يشاء ، ويقبله كما يريد ، وصاحبه لا يملك منه شيئا وهو قلبه الذى بين جنبيه .

قال الطبرى : الله - عز وجل - أملك لقلوب العباد منهم ، وهو يحول بينهم وبينها إذا شاء ، حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله .

وقيل فى معنى التعبير إن الله يقلب الأمور من حال إلى حال .

وقال السدى : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه .

وهذا يستوجب اليقظة الدائمة لخلجات القلب وخفقاته ولفقاته ، ويستوجب الحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون إنزلاقا . ويستوجب كذلك التعلق الدائم بالله - سبحانه - مخافة أن يقلب هذا القلب فى سهوة من سهواته أو غفلة من غفلاته . ولقد كان رسول الله ﷺ ، وهو رسول الله المعصوم ، كان يكثر من دعاء ربه : « اللهم يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : فقلنا يا رسول الله : أما بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها » وهكذا رواه الترمذى . وأخرج مسلم قوله ﷺ : « اللهم مُصَرِّفَ القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك » .

- الأنفال (٨) -

الفِتْنَةُ : الضلال والإثم . والفِتَانُ : الشيطان الذى يفتن الناس بخداعه وتزيينه المعاصى ، وهو من أبنية المبالغة فى الفتنة . وفى الحديث : «المسلم أخو المسلم يسعُهُما الماء والشجر ويتعاونان على الفِتَانِ» . أى ينهى الرجل أخاه عن المعاصى وبهذا يعينه على الشيطان . ويروى الحديث بضم الفاء : الفِتَانُ جمع فاتن وهو المُضِلُّ عن الحق ، ويكون المعنى : يعاونُ أحدهما الآخر على الذين يضلون الناس عن الحق ويفتنونهم .

وقيل فى معنى « فتنة » : إقرار المنكر بين أظهرهم .

يحذر الله عباده المؤمنين من ذنب أو إثم لا يقتصر وباله على من اقترفوه وحدهم ، وإنما يعم وباله المسيء وغيره . والمقصود من ذلك أن لا يُترك العصاة بدون زجر ، بل يؤخذ على أيديهم أى يُمنعون عن فعل ما يريدون فعله من المعاصى . كما قال ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » أخرجه مسلم . وأخرج الترمذى وأبو داود عن أبى بكر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده ، أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » . فالإسلام منهج تكافلى إيجابى لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد ، ولا يسمح للمسلمين أن يروا المنكر يشيع وهم ساكتون . فالجماعة التى تسمح لفريق منها بالظلم فى أى صورة من صوره ، ولا تأخذ الطريق على هذا الفريق المفسد ، تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين . قال القرطبى : ففى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة . وفيه استحقاق العقوبة عند ترك الأمر بالمعروف وترك النهى عن المنكر . قال علماؤنا : فالفتنة إذا عملت هلك الكل ، وذلك عند ظهور المعاصى وانتشار المنكر وعدم التغيير ، وإذا لم تغير ووجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها . روى ابن منبه عن مالك أنه قال : تهجر الأرض التى يُصنع فيها المنكرُ جهاراً ولا يستقر فيها . . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « ولا تزر وازرة وزرَ أخرى » ، « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب ، فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره ، فإذا سكتوا عليه فكلهم عاصٍ : هذا بفعله وهذا برضاه .

قال ابن عباس فى تفسير الآية : أمر الله المؤمنين ألا يُقرروا المنكرَ بين أظهرهم فيعمهم العذاب .

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم» . وروى الإمام أحمد عن عبيد الله ابن جرير عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله بعقاب » . ثم رواه أيضا عن وكيع ، وأخرجه بن ماجه عن وكيع أيضا . وروى الإمام أحمد أيضا عن حذيفة قوله : كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقا ، وإنى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات ؛ لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر ولتحاضن على الخير أو ليسحتكم الله جميعا بعذاب أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم .

قال الزمخشري فى إعراب « لا تصيبين » إنها جواب للأمر ، ويكون المعنى : إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم . وقيل إنها صفة لفتنة ، كأنه قيل : واتقوا فتنة مقولا فيها لا تصيبين . وإن قلت : كيف جاز أن تدخل النون المؤكدة فى جواب الأمر ؟ قلت لأن فيه معنى النهى ، مثل قولك : انزل عن الدابة لا تطرحك ، وجاز لا تطرحنك ، ومثله لا تصيبين بدلا من لا تصيب .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ

عَظِيمٌ﴾ ٢٨ - الأنفال (٨)

قال ابن الأعرابي : الفتنَةُ الاختبارُ ، والفتنة المحنة ، والفتنة المالُ ، والفتنة الأولادُ ، والفتنة الكفر ، والفتنة اختلاف الناس بالآراء ، والفتنة الإحراق بالنار . وقيل : الفتنة في التأويل الظلم .

وتطلق الفتنة على ما هو سببٌ لها ويوقعُ فيها .

والأموال والأولاد فتنة لأنهم سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب ، وذلك إذا خولف أمرُ الله في الأموال والأولاد . فلا تجمعوا أموالكم من مصادر أئيمة ، ولا تصرفوها في أغراض محرمة . ولا يحملنكم حبكم لأولادكم على معصية الله تعالى بسرقة مال أو طلب رشوة ، أو سوء تربية أو غير ذلك مما حرمه الله . وعلى هذا يمكن أن تكون «فتنة» هنا بمعنى ابتلاء وامتحان من الله ليلبوكم ويختبركم كيف تحافظون فيهم على حدوده ، وليعلم أتشكرونه عليهم وتطيعونه فيهم أم تشتغلون بهم عنه ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ «المنافقون» ٩ .

والفتنة لا تكون بالشدّة وبالحرمان وحدهما . إنها تكون كذلك بالرخاء وبالعطاء أيضا : ﴿وَنَبَلُّوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ «الأنبياء» ٣٥ ، ومن الرخاء والعطاء هذه الأموال والأولاد . والله خلق البشر ، وهو - سبحانه - أعلم بتركيبهم الخفى وبما في النفس البشرية من منحنيات ودروب ومسالك . وهو أدري بمواطن الضعف فيها ، والحرص على الأموال والأولاد من أعظم مواطن الضعف فيها - ومن هنا ينبهنا إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد ، فهم فتنة وامتحان .

﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ٢٩ - الأنفال (٨)

فرق بين الشيئين يفرق فرقاً وفرقانا : فصل وميز أحدهما من الآخر . .

« يجعل لكم فرقانا » : يجعل لكم هداية تفرقون بها بين الحق والباطل . أو نصرا يفرق بين الكفر (بإذلال حربه) وبين الإسلام (بإعزاز أهله) . ومن اتقى الله - بفعل أوامره وترك زواجره - وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته في الدنيا وسعادته في الآخرة ، وتكفير ذنوبه أى محوها ؛ وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ « الحديد » ٢٨ .

قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله : « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » قال : مخرجا ، ثم قرأ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ « الطلاق ٢ ، ٣ » .

إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل ، والطرق تظل متشابكة في النظر والفكر ، والباطل يظل متلبسا بالحق عند مفارق الطريق - فإذا جاءت التقوى ، استنار العقل ، ووضح الحق ، وتكشف الطريق . إن تقوى الله تجعل في القلب فرقانا يكشف له منعرجات الطريق ، فتستقر القدم وتثبت .

﴿ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٤٢ -

الأنفال (٨)

يقضى الله الأمر : ينجزه .

« أمرًا كان مفعولا » : أمرًا كان واجبا أن يفعل ، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه .

تحدث الآية عن معركة بدر حيث نزل المسلمون « بالعدوة الدنيا » أى طرف الوادى القريب من المدينة ، ونزلت قريش « بالعدوة القصوى » أى طرف الوادى البعيد من المدينة ، « والراكب أسفل منكم » أى العير الذى فيه أبو سفيان بما معه من التجارة وقد مالوا إلى سيف البحر أسفل من الجيشين . « ولو تواعدتم لاختلقتم فى الميعاد » أى ولو تواعدتم مع المشركين على القتال ، ثم علمتم ضعفكم وقوتهم (حيث كان المشركون أكبر عددا وأكثر عتادا) لاختلقتم أنتم فى الميعاد ، هيبة منهم ويأسا من الظفر عليهم .

لم يكن كل من الجيشين يعلم بموقع غريمه . وإنما جمعهما الله هكذا على جانبى الوادى لأمر يريده . حتى لو أن بينهما موعدا على اللقاء ما اجتمعا بمثل هذه الدقة والضبط من ناحية المكان والموعد . إن وراء هذا التلاقى على غير موعد لأمرًا مقضيا يريد الله تحقيقه فى عالم الواقع ، ويدبر له هذا التدبير الخفى اللطيف ، ويهوى له جميع الظروف التى تيسر لكم القيام به .

قال ابن جرير : أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ فالتقوا ببدر لا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء حتى التقى السقاة ، ونهد الناس بعضهم لبعض (قصدوا وشرعوا فى قتال بعضهم بعضا) . لكن الله قضى ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله . وترفع كلمة الحق على الباطل ليصير الأمر ظاهرا والحجة قاطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة فحينئذ يموت من يموت عن بينة رآها وعبرة عاينها ، وكذلك يحيا من يحيا عن بينة وحجة رآها . وفسر ابن كثير « ليهلك » بمعنى يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره ، « ويحيى من حي عن بينة » أى يؤمن من آمن عن حجة وبصيرة . قال ابن كثير : والإيمان هو حياة القلوب ، قال تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس » .

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ

اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ٤٦ - الأنفال (٨)

رَاحَ يَرُوحَ رَوَاحًا : سارَ في أي وقت كان .

والرَّيْحُ : الهوَاءُ المتحرك في الطبقات المحيطة بالأرض .

والرَّيْحُ : النصر والدولة . قال الزمخشري : الريح الدولة ، شبهت في نفوذ أمرها وتمشيها بالريح وهبوبها ، فقليل : هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره . وكما تقول : الريح لفلان ، إذا كان غالباً في الأمر . قال الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكون

وقال قتادة وابن زيد : إنه لم يكن نصر قط إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار . ومنه قوله عليه السلام : « نصرت بالصَّبَا (١) وأهلكت عادُ بالدَّبُّور (٢) » .

« وتذهب ريحكم » أي قوتكم ونصركم .

« واصبروا إن الله مع الصابرين » : كان الصحابة رضى الله عنهم في باب الشجاعة والاثمارة بما أمرهم الله ورسوله ، مالم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ولا يكون لأحد من بعدهم . فإنهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط ، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة .

(١) الصَّبَا : الريح الشرقية ، تستقبل البيت الحرام ، سميت كذلك لأنها تحن إلى البيت ، فهي مشتقة من الفعل صبا إليه صَبَوَ : حَنَّ .

(٢) الدبُّور : ريح تهب في الجزيرة العربية من المغرب ، وتقابل القبول ، التي هي ريح الصَّبَا .

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ يَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَّانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ٤٨ - الأنفال (٨)

ترأى القوم : رأى بعضهم بعضاً . وورد الفعل « ترأى » فى قوله تعالى : « فلما ترأى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون » الشعراء ٦١ .

وجاء فى « تفسير الجلالين » : « فلما ترأى » التقت « الفتان » المسلمة والكافرة ، ورأى (أى الشيطان) الملائكة وكان (أى الشيطان) يده فى يد الحارث بن هشام (من صناديد كفار قريش) « نكص » رجع « على عقبه » هاربا ، « وقال » لما قالوا له أتخذلنا على هذا الحال « إنى برىء منكم » من جواركم « إنى أرى ما لا ترون » من الملائكة .

وجاء فى « التفسير الوسيط » : فلما أبصر كل من الفريقين الآخر ، وقد رجحت كفة المؤمنين ، بإمداد الملائكة لهم ، بطل كيد الشيطان وتزيينه ، بظهور عجزه عن نصرتهم وتبرئه منهم . . . إنى برىء من نصرتكم لأننى أرى من أسباب نصره المؤمنين ما لا ترون .

وجاء فى « تفسير القرآن العظيم » : قال ابن عباس فى هذه الآية : لما كان يوم بدر ، سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين ، وألقى فى قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبكم ، « وإنى جار لكم » ، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة « نكص على عقبه » قال رجع مدبرا وقال إنى أرى ما لا ترون . ففسر « ترأى الفتان » بمعنى التقيتا .

والسياق يصور وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بالخروج لملاقاة المسلمين فى بدر ، ولما ترأى الفتان أى رأت إحداهما الأخرى ، خذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم . وفى موطأ مالك عن إبراهيم بن أبى عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال : « ما رأى الشيطان نفسه يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدهر ولا أغيب منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما رأى يوم بدر » قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : « أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة » .

﴿ نَكْصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ﴾



﴿ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئْتَانِ نَكْصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا

تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ٤٨ - الأنفال (٨)

نَكْصَ يَنْكُصُ وَيَنْكُصُ نَكْصًا وَنُكُوصًا : أَحْجَمَ . ويقال : نكص على عقبيه إذا رجع إلى خلفه وعاد إلى الوراء .

والعَقْبُ : مؤخر القدم ؛ وتنطق أيضا بتسكين القاف : العَقَبُ ، وهي مؤنثة ، وتجمع على : أعقاب .

« نكص على عقبيه » : رجع القَهْفَرَى ، أى تولى إلى الوراء جهة العقبين ، والمراد : كف الشيطان عن وسوسته وذهب ما خيَّله من المعونة لهم ، فتوقف عن تزيين عملهم لهم وعن تغريه إياهم . فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيهه وسوسته بحال المقبل على الشيء ، وبتشبيه تركه هذه الوسوسة بحال من ينكص ويتراجع إلى الوراء .

(انظر التعبير : تراءت الفئتان)

﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٥٣ - الأنفال (٨)

« ذلك » الإشارة إلى الأخذ والعذاب الذى حلَّ بآل فرعون فى الآية السابقة ، لأنهم غيروا نعمة الله عليهم كفرا ، إذ قابلوا الأمن والعافية والسعة بالكفر والصد عن سبيل الله .

والتعبير يخبر عن تمام عدل الله وقسطه فى حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ « الرعد ١١ » . فالتعبير يصور ذلك التلازم بين العمل والجزاء فى حياة الإنسان . ومن عدل الله المطلق أن جعل هذا التلازم سنة من سنته يجرى بها قدره ؛ فلا يسلب العباد نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم من النعمة التى لم يقدروها ولم يشكروها .

ومن جانب آخر يكرم هذا التعبير المخلوق الإنسانى فى أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجرى عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله .

وجانب ثالث هو أنه يلقى تبة عظيمة على هذا الإنسان : فهو يملك أن يستبقى نعمة الله عليه - بل وأن يُزاد عليها - إذا هو عرف فشكر . كما يملك أن يزيل عن نفسه هذه النعمة إذا هو أنكر وبطر .

فالإنسان عنصر إيجابى فى صياغة مصيره - بإذن الله وقدره الذى يجرى من خلال حركة هذا الإنسان وعمله ونيته وسلوكه . وبهذا تنتفى عنه تلك السلبية الذليلة التى تفرضها عليه المذاهب المادية ، التى تصوره عنصرا سلبيا إزاء الحتميات الجبارة : حتمية الاقتصاد وحتمية التاريخ ، وحتمية التطور إلى آخر الحتميات التى ليس للكائن الإنسانى إزاءها حول ولا قوة .

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ

كَبِيرٌ ﴾ ٧٣ - الأنفال (٨)

«إلا» حرف جزاء أصلها إن لا . وهى تلى الأفعال المستقبلية فتجزمها ، كما فى هذه الآية ، فَجَزِمَ «تفعلوه» و«تكن» يالا ، كما تفعل إن الشرطية (١) .

«والذين كفروا» مبتدأ «بعضهم أولياء بعض» جملة اسمية فى محل رفع خبر المبتدأ . ومعناه أن الكفار ينصر بعضهم بعضا ، ويتولاه فى أموره ، ويرثه إذا مات . وفى ذلك تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم ، كما قال الشوكانى .

«إلا تفعلوه» : ضمير المفعول وهو الهاء يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا فى الآية ٧٢ : «إن الذين آمنوا وهاجروا جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . . .» حيث الأمر بموالاتة المؤمنين بعضهم بعضا ونصرة بعضهم بعضا ، ويرجع ضمير المفعول كذلك إلى ترك موالاتة الكافرين فى صدر الآية كما جاء فى الفقرة السابقة .

فمعنى «إلا تفعلوه» هو : إن لم توالوا المؤمنين وتركوا موالاتة الكافرين «تكن فتنة فى الأرض» أى تقع فتنة فى الأرض وفساد وإفساد .

وقال الزمخشري فى معنى «والذين كفروا بعضهم أولياء بعض» : ظاهره إثبات الموالاتة بينهم ، ومعناه نهى المسلمين عن موالاتة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباحدتهم ومصارمتهم (أى مقاطعتهم) وإن كانوا أقارب . . «إلا تفعلوه» أى إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا . . ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار . . تحصل فتنة فى الأرض ومفسدة عظيمة ، لأن المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك ، كان الشرك ظاهرة والفساد زائد .

فالمجتمع الكافر لا يتحرك كأفراد ، وإنما يتحرك ككائن عضوى للدفاع عن وجوده وكيانه ، فهم بعضهم أولياء بعض . ولا بد للإسلام أن يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض ، مجتمع أساسه التجمع العضوى الحركى ذى الولاء الواحد والقيادة الواحدة ، وإلا وقعت الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلى ، ووقع الفساد فى الأرض بطغيان الكفر على الإسلام .

(١) تفعلوه : فعل الشرط مجزوم بحذف النون . «تكن» : جزاء الشرط مجزوم بحذف حرف العلة .



﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١)

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخِزُّهُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ

قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ١٤ - التوبة (٩)

شَفَاه يَشْفِيهِ شِفَاءً : أبرأه من الأرض . ويقال : شفاه من الغم ونحوه : أزاحه عنه .

والصدر : مقدم كل شيء وأوله . ومنه صدر الإنسان للجراحة ، وبه نبض القلب ،
وحركة التنفس ، وفيها تظهر آثار الانفعال ارتياحا وانقباضا ، وقلقا وانسراحا .

« ويشف صدور قوم مؤمنين » : يذهب غيظ قلوبهم .

(١) قريب من هذا التعبير قوله تعالى : « قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور » « يونس ٥٧ » .

﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ﴾

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾
ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥ ، ٢٦ - التوبة (٩)﴾

رَحِبُ الشَّيْءِ يُرَحَبُ رُحْبًا وَرَحَابَةً : اتسع فهو رَحِبٌ وَرَحِيبٌ .

ويقال : بلد رَحِبٌ وأرض رحيبة . والرَّحْبُ (بضم الراء) : السَّعَة « بما رحبت » : ما مصدرية ، والباء بمعنى مع ، أى مع رُحْبِهَا . وقيل بمعنى على ، أى على رحبها . والجار والمجرور فى موضع الحال . كقولك : دخلت عليه بثياب السفر ، أى متلبسا بها لم أحلها . ومعنى « بما رحبت » : ضاقت عليكم الأرض مع رُحْبِهَا واتساعها ، وذلك من شدة الرَّعْبِ والفرع ، فقد خيل إليكم أن رحابها أغلقت فى وجوهكم ، فلا تجدون فيها موضعا تطمثون فيه وتشتون .

وقال الزمخشري فى معنى التعبير : لا تجدون موضعا تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط رعبكم ، فكانها (أى الأرض) ضاقت عليكم .

« ثم وليتم مدبرين » أى انهزمتم . « سكينته » رحمته التى سكنوا بها وآمنوا . « وأنزل جنودا » يعنى الملائكة . « وعذب الذين كفروا » بالقتل والأسر وسبى النساء والذرارى .

« حنين » : واد بين مكة والطائف ، حدثت فيه المعركة التى نسبت إليه وكانت عقب فتح مكة . « ويوم حنين » نصب يوم بفعل مضمر على معنى : ونصركم يوم حنين أو : واذكر يوم حنين . ومواطن الحرب : مواقعها ومواقعها ، والمواطن الكثيرة هنا : وقعات بدر ، وقریظة ، والنضير ، والحديبية ، وخيبر ، وفتح مكة .

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة مع رسوله ، وأن ذلك من عنده وبأيديه ، لا بعدددهم ولا بعدددهم . فالنصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر . ففى يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا لم تجد عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ .

لما فرغ النبى من فتح مكة وتمهدت أمورها ، اجتمع أشرف هوازن وثقيف وقالوا إن محمدا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا ، فلنبدأ بالغزو قبل أن يغزونا . وانضمت إليهم

عدة قبائل منهم بنو جشم وبنو سعد بن بكر وغيرهم . فخرج إليهم رسول الله ﷺ في عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ، وألفين من الطلقاء (١) .

وكان عدد أعداء المسلمين أربعة آلاف (كما جاء في الكشاف) . فلما التقى الفريقان عند وادي حنين ، قال رجل من المسلمين : لن نُغلبَ اليوم من قلة ، فساءت هذه الكلمة رسول الله ﷺ . وكانت هوازن قد كمنّت في جنبتي الوادي وذلك في غبش الصباح ، فحملت على المسلمين حملة رجل واحد ، فانهمز جمهور المسلمين ولم يلو أحد على أحد . وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وأسامة بن زيد وغيرهم من أصحابه الذين قاربت عدتهم مائة . وساق ﷺ بغلته الشهباء إلى نحر العدو ، وهو يدعو المسلمين إلى الرجعة لمحاربة أعدائهم ويقول : « إلى يا عباد الله ، إلى أنا رسول الله . أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب (٢) » . وأمر النبي عمه العباس ، وكان جهير الصوت ، أن ينادى بأعلى صوته : يا أصحاب الشجرة (يعنى شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على ألا يفروا عنه) . فجعل ينادى بهم ، وجعلوا يقولون : يالبيك ، يالبيك . وانعطف الناس فتراجعوا إلى الرسول فأمرهم أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من التراب وقال : « اللهم انجز لي ما وعدتني » ، ثم رمى القوم بها ، فما بقي منهم إنسان إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال . ثم انهزموا ، فاتبع المسلمون أبقاءهم يقتلونهم ويأسرونهم (٣) .

(١) أهل مكة الذين أسلم الكثير منهم وعفا عنهم النبي ، وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

(٢) ناهيك بهذا شهادة صدق على منتهى شجاعته ورباطة جأشه ﷺ .

(٣) هذه خلاصة ما جاء في تفاسير : القرطبي وابن كثير والزمخشري والتفسير الوسيط .

﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ٢٩ - التوبة (٩)

اليَد : الجارحة المعروفة من جسم الإنسان والحيوان . وهى فى الإنسان من أطراف الأصابع إلى الكتف .

ويقال : أعطى ما يُطلب منه عن يد أى عن انقياد واستسلام وذلة .

« يعطوا الجزية عن يد » : يدفعوها بانقياد وطاعة ويسلمونها بأيديهم مباشرة بغير توكيل . أى يعطوا الجزية عن يد مؤاتية (موافقة) غير ممتنعة ، لأن من أبى وامتنع لم يعطِ يده ، بخلاف المطيع المنقاد ، ولذلك قالوا : أعطى بيده إذا انقاد^(١) .

أو يكون المعنى : عن غنى ، فتكون اليد بمعنى الغنى ، ولذلك لم تجب الجزية على الفقير العاجز .

أو تكون اليد بمعنى الإنعام ، ويكون معنى التعبير : عن إنعام عليهم ، لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة من المسلمين على أهل الكتاب .

والجزية مأخوذة من جزى دَيْنَه إذا قضاه ، والمقصود أنها جزاء مقابل للعفو عن القتل ، وحمائيتهم من الأذى وتوفير الحرية لهم فى دينهم وديارهم . ويقابلها فى الإسلام الزكاة على المسلمين .

فالشرط الذى يشترطه النص للكف عن قتال الكفار ليس أن يسلموا - فلا إكراه فى الدين - ولكن أن يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون أى ذليلون .

(١) من التعبيرات البليغة قولهم : نزع يده عن الطاعة . ويقال : خلع ربقة الطاعة من عنقه .

﴿ اٰثَقَلْتُمْ اِلَى الْاَرْضِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ائْتَأْتُمْ إِلَى
الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ
إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ٣٨ - التوبة (٩)

اِثْقَلَ فلانٌ عن الأمر : تباطأ عنه ، وأصله : ثاقل ، أى تكلف الثقل وتظاهر به .

« ائتاقتم » : تباطأتم ولم تسرعوا ، وتضمن الفعل معنى الميل والإخلاق فعدى يالى .

« ائتاقتم إلى الأرض » : قيل إلى نعيم الأرض ، أو إلى الإقامة بالأرض . وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن الخروج إلى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام . وكان رسول الله ﷺ قد دعا الناس إليها حين طابت الثمار والظلال ، وكان الجو شديد الحرارة ؛ فاستولى على الناس الكسل ، فتقاعدوا واثاقلوا . ومعنى « إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله » أى إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله .

« ائتاقتم » أصلها ائتاقتم ، أدغمت التاء فى التاء لقربها منها ، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن ، ومثله : ادأركوا ، واطيرنا ، وازينت .

« أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » ؟ أى مالكم فعلتم هكذا ، أهورضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة؟

« مالكم » ما حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ ، والتقدير : أى شىء يمنعكم عن كذا . مثل قولك : مالك عن فلان معرضا .

وتعبير « ائتاقتم إلى الأرض » يلقي بجرس ألفاظه العديد من الظلال : ثقله الأرض ومطامعها ، وثقله الخوف على الحياة وعلى المال وعلى المتاع ، وثقله الذات الفانية والأجل المحدود ، وثقله اللحم والدم والتراب ، وجاذبية الأرض التى تشد إلى أسفل - بينما النفرة للجهاد فى سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وتحقيق للمعنى العلوى فى الإنسان وتطلع إلى الخلود الممتد .

﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا

قَلِيلٌ ﴾ ٣٨ - التوبة (٩)

ما فى قوله « فما » نافية

المتاع : ما تستطيعه النفوس فى هذه الحياة ويأتى عليه الفناء ، كالمال والنساء والولد . وأكثر ما يستعمل فى المشتبهات الباطلة .

زهد تبارك وتعالى فى الدنيا ، ورغب فى الآخرة . فما متاع الحياة الدنيا فى جنب نعيم الآخرة إلا قليل لا ينبغى الحرص عليه ، فلا نسبة لمتاع الدنيا المتناهى الزائل إلى متاع الآخرة غير المتناهى الباقي .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع أن رسول الله ﷺ قال : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليمِّ فلينظر بم ترجع ؟ » وأشار بالسبابة ، أخرجه مسلم . وقال أبو هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » فالدنيا ما مضى منها ومابقى منها عند الله قليل . لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة ، قال اتتوني بكفنى الذى أكنف فيه انظر إليه . فلما وضع بين يديه ، نظر إليه فقال : أما لى من كبير ، ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول : أف لك من دار إن كان كثيرك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفى غرور .

« أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ » أى بدلا ، التقدير : أَرْضَيْتُمْ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا بَدَلًا مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ ، « مَنْ » تتضمن معنى البدل ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً يَخْلُقُونَ ﴾ أى بدلا منكم ، وقال الشاعر :

فليت لنا من ماء زمزم شربةٌ مُبرِّدةٌ باتت على طَهْيَانِ

أراد : ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة مبردة ، وأطهيان : عود يُنصب فى ناحية الدار للهواء ، يُعلق عليه الماء حتى يبرد . عاتبهم الله على إثارة الراحة فى الدنيا على الراحة فى الآخرة ، إذ لا تُنال الراحة فى الآخرة إلا بنصب الدنيا .

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ٥١ - التوبة (٩)

أَصَابَ : لم يخطيء . وأصاب الشيء : أدركه . وأصاب الخطبُ فلانًا : نزل به .

« إلا ما كتب الله لنا » أى فى اللوح المحفوظ .

وفائدة هذا التعبير أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن أى حادث ، وأن كل ماناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه ، هانت عليه المصائب ، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشقى الحسدة .

« هو مولانا » أى ناصرنا ، وجاعل العاقبة لنا ، ومظهر دينه على جميع الأديان . والتوكل على الله : تفويض الأمور إليه .

والمسلم الصادق يبذل جهده ويُقدم لا يخشى ، اعتقاداً منه بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله ، وأن الله ناصر له ومعين .

والاعتقاد بقدر الله ، والتوكل الكامل على الله ، لا ينفيان اتخاذ العدة بما فى الطوق (الإمكان) وما يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التى لا تحابى أحدا ، ولا تراعى خاطر إنسان .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ ٥٨ - التوبة (٩)

لَمْزُهُ يَلْمِزُهُ : عابه . وَاللَّمَزُ : العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها . ورجل لَمَزَ وَلَمَزَةً أَى عَيَاب .

وقال قتادة : يلمزك أى يطعن عليك .

ومعنى الآية : ومنهم أى من المنافقين من يعيبك أو يطعن عليك فى الصدقات ، أى فى تفريقها وقسمتها . « فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا » أى بقدر ما يريدون « رَضُوا » بما وقع من رسول الله ﷺ ولم يعيروه ، وذلك لأنهم لا مقصد لهم إلا حُطام الدنيا ، وليسوا من الدين فى شىء ، « وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا » أى ما يريدونه منها « إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » أى يغضبون (ومنه تَسَخَطَ العطاء : اسْتَقَلَّهُ) . و « إِذَا » هنا حرف المفاجأة الذى يختص بالدخول على الجملة الاسمية .

وعن سبب نزول الآية ما أخرجه البخارى والنسائى وابن جرير وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى قال : بينما رسول الله ﷺ يقسم قَسَمًا إِذْ جَاءَهُ ابْنُ الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِ فَقَالَ : اَعْدَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : « وَيْحَكَ ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدَلْ ؟ » فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : ائِذْنُ لِي فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ (١) . فقال النبى ﷺ : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرميَّة (٢) » .

يقرر النص أن هذه القولة قوله فريق من المنافقين ، وهى آية نفاقهم الصريحة ، فما يشك فى خلق الرسول ﷺ مؤمن بهذا الدين ، وهو المعروف - حتى قبل الرسالة - بأنه الصادق الأمين . والعدل فرع من أمانات الله التى ناطها بالمؤمنين فضلا على نبى المؤمنين .

(١) وفى رواية : دعنى يا رسول الله فأقتل هذا المنافق .

(٢) الرميَّة هى الطريدة التى يرميها الصائد .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

٦٧ - التوبة (٩)

قبض يده : ألصق أصابعها براحتها وطواها خشية أن تعطى شيئاً . يقال : قبض يده عن النفقة وعن المعروف ، أى امتنع عنهما . فقبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود والسخاء ، لأن من يعطى يمد يده بالعطاء ، بخلاف من يمنع .

« يقبضون أيديهم » : يشحون فيما ينبغي إخراج من المال فى الصدقة والصلة والجهاد .

« نَسُوا اللَّهَ » تركوا ما أمرهم به ، « فَنَسِيَهُمْ » أى تركهم من رحمته وفضله ، لأن النسيان الحقيقى لا يصح إطلاقه على الله سبحانه ، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة (١) المعروفة فى علم البيان .

(١) المشاكلة : أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته مثل قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ .

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ٨٧ -

التوبة (٩)

طَبِعَ عَلَى الشَّيْءِ : خَتَمَ عَلَيْهِ بِطَابِعٍ (وَالطَّابِعُ : مَا يَخْتُمُ بِهِ) . وَطَبِعَ عَلَى الشَّيْءِ : أَغْلَقَهُ .

« طبع الله على قلوبهم » : ختمها وأغلقها فلا تعى خيراً ، فالختم عليها يحول دون وصول الخير إليها . وهم ، بسبب ذلك ، لا يدركون ما فى الإيمان بالله واتباع رسوله من خير وسعادة ، وما فى الجهاد من رفعة وشرف ، وما فى التخلف عنه من هوان وهلاك .

« الخوالمف » : هم النساء والصبيان وأصحاب الأعدار من الرجال ، جمع : خالفة . وقد يقال للرجل : خالفة وخالف إذا كان غير نجيب ، ويقال : فلان خالفة أهله إذا كان دونهم .

« فهم لا يفقهون » بعد أن طبع على قلوبهم ، أصبحوا لا يفهمون ما فيه صلاحهم فيفعلوه ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

(١) التعبير موجود أيضاً فى عشرة مواضع أخرى : « النساء ١٥٥ » ، « التوبة ٩٣ » ، « النحل ١٠٨ » ، « محمد ١٦ » ، « الأعراف ١٠٠ ، ١٠١ » ، « يونس ٧٤ » ، « الروم ٥٩ » ، « غافر ٣٥ » ، « المنافقون ٣ » .

﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٩١ - التوبة (٩)

السبيل : الحرج ، يقال : ليس على في كذا سبيل . والسبيل : الحجة ، يقال : ليس لك على سبيل .

قال الشوكاني في تفسير كلمة « سبيل » هنا : طريق عقاب ومؤاخذة .

قال القرطبي : الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شيء سقط عنه . ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال ، ونظير هذه الآية قوله : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وقوله : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » .

فإنه أعتفأ أصحاب الأعداء من وجوب الجهاد ، وهم الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقونه في شراء أهبة السفر وعدة الجهاد - وذلك إذا أخلصوا لله ورسوله . فمعنى « نصحوا لله ورسوله » : أخلصوا لهما بصدق الإيمان واتباع شريعة الإسلام^(١) ، وقاموا بما يستطيعون من قول وفعل يعود بصلاح الحال على المجاهدين ، وبهذا يكونون قد أحسنوا في جميع أعمالهم وأقوالهم حسب طاقتهم ، فهم في حالهم هذا محسنون كما قال ابن كثير في تفسيره ، وكما جاء في « الكشاف » حيث فسر الزمخشري « المحسنين » هنا ب : المعذورين الناصحين . وفسر التعبير « ما على المحسنين من سبيل » بقوله : لا جناح عليهم ، ولا طريق للعقاب عليهم .

وجاء في « التفسير الوسيط » في تفسير التعبير : فليس عليهم (أي ذوى الأعداء الناصحين لله ورسوله) سبيل إلى عقاب أو عتاب لدخولهم في عداد المحسنين .
« سبيل » في موضع رفع اسم « ما » .

« حرج » : المراد به الإثم والذنب ، ومعناه في الأصل : الضيق ويطلق على الذنب لأنه تضيق به صدور المؤمنين .

(١) النصح : إخلاص العمل من الغش ، ومنه التوبة النصوح . وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : « الدين النصيحة » ثلاثا ، قلنا : لمن ؟ قال : « لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . قال العلماء : النصيحة لله إخلاص الاعتقاد في وحدانيته ، والرغبة في محابه والبعد عن مساخطه . والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوته ، والتزام طاعته في أمره ونهيه ، وتعظيم سنته والتفقه فيها ونشرها والدفاع عنها . والنصح لكتاب الله : قراءته والتفقه فيه والذب عنه وتعليمه والتخلق به . والنصح لأئمة المسلمين : ترك الخروج عليهم وإرشادهم إلى الحق وتبئهم إلى ما اغفلوه من أمور المسلمين .

﴿ وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَّائِرُ ﴾

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَّائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةٌ

السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٩٨ - التوبة (٩)

تَرَبَّصَ بفلان ورَبَّصَ به : انتظر به خيرا أو شرا يحل به .

الدوائر : جمع دائرة ، والدائرة : النائبة من حوادث الدهر ، التي تحيط بالناس إحاطة الدائرة بما فيها . وأصلها ما أحاط بالشيء ، ثم استعير لما ذكر ، وتطلق على الهزيمة .

« يتربص بكم الدوائر » : ينتظر بكم صروف الدهر ومصائبه التي يتبدل بها حالكم إلى سوء . ويتمنى ألا تعودوا من الغزو سالمين .

« عليهم دائرة السوء » : دعاء عليهم بمثل ما يتربصون به . والسوء : مصدر ساء يسوءه سوءًا : إذا فعل به ما يكره ، وقال الفراء : دائرة العذاب والبلاء . وقرأ أبو عمرو وابن كثير : السوء بالضم .

« ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا » : المغرم الغرامة والخسران ، فهو يعطى ما يعطى من الصدقات كرها ، يعطيه للرياء والتقية ، ولا يرجو له ثوابا عند الله ولا مجازاة . فهو يعتبر ما ينفقه غرامة وخسارة يؤديه كارها ، لا مساعدة للغزاة المجاهدين ولا حيا في انتصار الإسلام ، وإنما يؤديه تظاهرا ومدارة للمسلمين أصحاب السلطان في ذلك الوقت .

وقال القرطبي في تفسير الدوائر : جمع دائرة ، وهي الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية .

وربط الزمخشري بين « ما ينفق مغرمًا » وبين « يتربص بكم الدوائر » فقال : يتربص بكم دوائر الزمان أى دوله وعقبه^(١) لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة . ولذلك قال القرطبي : إنهم يجمعون إلى الجهل بالإنفاق سوء الدخلة^(٢) وخبث القلب .

(١) عقب جمع عقبية أى نوبة أو دولة ، فالأيام تتعاقب فى نوبات ، لك وعليك .

(٢) الدخلة من الإنسان نيته ، يقال : هو حسن الدخلة وهو سىء الدخلة .

﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾



﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ

سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ١٠٣ - التوبة (٩)

« سَكَنٌ لَهُمْ » : طمأنينة أو رحمة لهم . فالسَكَنُ ما تسكُنُ إليه النفوس وتطمئن به القلوب
ومن معانى السكُن أيضا : الرحمة والبركة .

والفعل هو سَكَنَ المتحركُ يسكُنُ سكونًا : وقفت حركته . وسكنت النفس بعد
الاضطراب : هدأت . وسكن إليه : استأنس به واستراح إليه .

« صَلِّ عَلَيْهِمْ » : ادع لهم واستغفر لهم . والصلاة فى كلام العرب : الدعاء .

« تزكيتهم بها » : تنمى بها حسناتهم وأموالهم زكا يزكو : نَمًا .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا
أتى بصدقة قال : « اللهم صلِّ على آل فلان » ، فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل
أبى أوفى » .

﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ١٠٤ - التوبة (٩)

معنى « يأخذ الصدقات » يتقبلها منكم ، وفي إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشریف عظیم لهذه الطاعة ولمن فعلها .

قال القرطبي : هذا نص صريح في أن الله تعالى هو الآخذ لها والمثيب عليها ، وأن الحق له جل وعز ، والنبي ﷺ واسطة ، فإن توفى النبي فعامله هو الواسطة بعده ، والله عز وجل حي لا يموت . وهذا بين أن قوله سبحانه وتعالى : « خذ من أموالهم صدقة » ليس مقصوراً على النبي ﷺ .

روى الترمذی عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها فِيرْبِيهَا ^(١) لأحدكم كما يُرْبِي أحدكم مُهْرَه حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد وتصديق ذلك في كتاب الله وهو الذي « يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات » و« يحق الله الربا ويربى الصدقات » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم : « لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فتربوا في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل » . وروى « إن الصدقة لتقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل فيربها كما يُرْبِي أحدكم فلَوْه أو فصيله ^(٢) والله يضاعف لمن يشاء » .

قال علماؤنا رحمة الله عليهم في تأويل هذه الأحاديث : إن هذا كناية عن القبول (أى قبول الصدقة والجزاء عليها ، كما كنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض تعطفاً عليها بقوله : « يا ابن آدم مرضت فلم تعدني » الحديث . وخص اليمين والكف بالذكر ، إذ أن كلَّ قابلٍ لشيءٍ إنما يأخذها بكفه وبيمينه أو يوضع له فيه ، فخرج التعبير وجاء على ما يعرفونه - والله جل وعز مُتَزَه عن الجارحة .

وقد جاءت اليمين في كلام العرب بغير معنى الجارحة ، كما قال الشاعر :

إذا ما رأيتُ رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أى مؤهل للمجد والشرف ، ولم يُرد بها يمين الجارحة ، لأن المجد معنى فاليمين التي تتلقى به رايته معنى . وكذلك اليمين في حق الله تعالى . وقد قيل : إن معنى « تربوا في كف الرحمن » عبارة عن كفة الميزان التي توزن فيها الأعمال ، فيكون من باب حذف المضاف ، كأنه قال : فتربوا في كفة ميزان الرحمن . قال ابن كثير إن الآية تهيج (أى إثارة) إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها . وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل جبل أحد كما جاء في الحديث النبوي .

وجاء في « التفسير الوسيط » في معنى « يأخذ الصدقات » : يقبل صدقاتهم التي يؤدونها ابتغاء مرضاته ويشبههم عليها .

(١) أربى الشيء يُرْبِيه : نَمَّاه وزاده .

(٢) الفلوة : الجحش أو المهر يُقَطَّم . الفصيل : ولد الناقة أو البقرة ، بعد فطامه وفصله عن أمه .

﴿ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ١٠٧ - التوبة (٩)

أَصْرَهُ مُضَارَّةٌ وَضِرَارًا : ألحق به مكرها أو أذى .

﴿ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ : بنوا المسجد يحاولون من وراء بنائه إلحاق الضرر والأذى بالمؤمنين . وهؤلاء الذين اتَّخذوه اثنا عشر رجلا من كبار المنافقين ، كانوا يصلون بمسجد قُباء فقال لهم أبو عامر الراهب . : أنبوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فاتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه ، فلما بئوه رغبوا إليه ﷺ أن يصلى فيه ، فوعدهم أن يصلى فيه إذا عاد من غزوة تبوك إن شاء الله تعالى . فأوحى الله إليه خبرهم وأعلمه بتأمرهم ، فلما عاد أمر بحرقه فحرق .

والضرار : طلب المضارَّة ومحاولته .

« وكفرا » أى وتقوية للكفر الذى يضمرونه .

﴿ وتفريقا بين المؤمنين ﴾ وهم أهل قباء ، حسداً لهم على اجتماعهم وطمعا فى اختلاف كلمتهم . يريد المنافقون ببناء مسجد الضرار أن يجتذبوا بعض أهل قباء إلى مسجد الضرار وإلى صفوف المنافقين ، وبهذا يفرقون بين المؤمنين .

قال القرطبي : يفرقون به جماعة المؤمنين ليتخلف أقوام عن النبى ﷺ . وهذا يدل على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة ، حتى يقع الأئس بالمخالطة ، وتصفو القلوب من ضرر الأحقاد .

« وإرصادا » أى انتظارا وإعدادا لمن حارب الله ورسوله « من قبل » أى من قبل بناء هذا المسجد . وهو أبو عامر الراهب الذى سماه الرسول ﷺ : أبا عامر الفاسق . يقال : أرصدته له أعددته .

« ضرارا » مفعول لأجله وكذا كفرا وتفريقا وإرصادا .

سبب النزول : كان بالمدينة ، قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها ، رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب . وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان له شرف كبير فى قبيلة الخزرج . فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرا إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ،

وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ؛ شَرَقَ اللعينُ أبو عامر بريقه (أى أصابته غُصّة) ، وبارز بالعداوة وظاهر بها . وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركى قَرَيْش ، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ؛ وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان ؛ وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين .

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوق في إحداهن رسول الله ﷺ ، وأصيب ذلك اليوم : فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه .

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم ، واستمالهم إلى نصره وموافقته ؛ فلما عرفوا كلامه ، قالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق ، يا عدو الله . ونالوا منه وسبوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدى شر . وكان الرسول قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم فدعا عليه الرسول عليه السلام أن يموت بعيدا طريدا (١) .

ولما فرغ الناس من أحد ورأى هذا الفاسق أمر الرسول عليه السلام فى ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ . فوعده ومناه وأقام عنده . وكتب الفاسق إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب ، يعدهم ويمنهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده ، لأداء كتبه ، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك .

فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قُباء . فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تبوك . وجاءوا فسألوا الرسول أن يأتى إليهم ، فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ؛ وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الثانية . فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » . فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من غزوة تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين . فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة .

هنا ما رواه ابن كثير فى تفسيره . وفى أيامنا هذه يتخذ مسجد الضرار صورة شتى ظاهرها للإسلام وباطنها للكيد له وللنيل منه ولتمويهه ولتمييعه : تشكيلات وتظيمات ترفع لافتة الدين عليها لتتروس وراءها وهى ترمى هذا الدين ؛ وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح . ويتحتم كشف مساجد الضرار هذه ، وإنزال اللافتات الخادعات عنها ، وبيان حقيقتها للناس .

(١) نالته هذه الدعوة .

﴿ أَسَسَ بِنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جَرْفٍ هَارٍ ﴾

﴿ أَقْمَنَ أَسَسَ بِنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَّ مِنْ أَسَسَ بِنْيَانَهُ عَلَى شَفَا

جَرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ١٠٩ - التوبة (٩)

الشَّفَا: الحرف والحد، وتثنيته شفوان، وجمعه أشفاء. وأشفى على كذا: دثامنه.

الجَرْفُ: ما تحيَّف (١) الماء أصله وحفر ما تحته فتهيأ للانهايار. والفعل جَرَفَ الطين ونحوه يجرفه جَرْفًا: كسحّه. وقرأ أبو بكر وحمزة: جَرْفٌ بإسكان الراء مثل الرُّسُل والرُّسُل، والشُّغْل والشُّغْل. وأصله من الجَرْف والاجتراف، وهو اقتلاع الشيء من أصله.

« هَارَ » من الفعل هَارَ الجرف والبناء يهْوَر هَوْرًا: تصدّع وأوفى على السقوط ولم يسقط فهو مشرف على السقوط. والوصف: هائر، ويقال: هار على القلب. ويقال: هذا جرف هار وبناء هار (٢) ويُعرب إعراب غاز ورام.

ضرب الله مثلاً للذين بنوا مسجدهم على تقوى الله ورضوانه بمن بنى بنيانه على قاعدة محكمة وأساس ثابت متين. وضرب مثلاً آخر للذين بنوا مسجدهم للإضرار بالإسلام وأقاموه على الباطل والنفاق بمن أسس بنيانه على أساس واه وقاعدة منهارة، فانهار الجرف بالبنيان في النار، أو فانهار مؤسس البنيان على غير تقوى في النار.

والغرض من المثلين أنهما لا يستويان، فالأول معمر والثاني مدمر وفي الآية دليل على أن كل شيء ابتدء بنية تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذي يبقى ويسعد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه: ﴿والباقيات الصالحات﴾ ٤٦ - الكهف.

واختلف العلماء في قوله تعالى ﴿فانهار به في نار جهنم﴾ هل ذلك حقيقة أو مجاز. قبل إن ذلك حقيقة ففي رواية سعيد بن جبیر أن النبي ﷺ إذ أرسل إلى مسجد الضرار فهُدِم رُئِيَ الدخانُ يخرج منه. وقال بعضهم: كان الرجل يُدخل فيه سعفة من سعف النخل فيخرجها سوداء محترقة. قال القرطبي: وهذا هو الظاهر. ونقل عن أهل التفسير قولهم: كان يُحفر ذلك الموضع الذي انهار فيخرج منه دخان. وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنه: أنا رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله ﷺ.

وقيل: إن ذلك مجاز، والمعنى صار البناء في نار جهنم، فكأنه انهار إليه وهوى فيه، كقوله تعالى ﴿فأمه هاوية﴾ ٩ - القارعة.

« بنيانه على شفا جرف هار »: بضع كلمات ترسم مشهداً حافلاً بالحركة المثيرة، وكأننا نبصر البناء القائم على تربة مخلخلة مستعدة للانهايار، والبناء يتأرجح وينزلق. (انظر التعبير: ﴿اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين﴾).

(١) تحيَّف الشيء: أخذ من حاقاته وتنقصه.

(٢) وردت كلمة « هار » مرة واحدة في القرآن الكريم.

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ١١٠ - التوبة (٩)

« رِيبَةٌ » : الريبة الشك . رابَه الأمرُ يَريبُه رِيبًا : شك فيه . والرَّيبُ : الشك . والمقصود بريية في هذا التعبير : سبب شك ونفاق .

« بنيانهم الذي بنوا » يعنى مسجد الضرار .

يرسم التعبير القرآنى الفريد مشهدا لآثار مسجد الضرار فى نفوس بناته الأشرار وبناء كل مساجد الضرار^(١) . انهار الجرفُ المنهار ، ولكن ركام البناء بقى فى قلوب بُناته : بقى فيها « ريبة » وشكا وقلقًا وحيرة ، وسببى كذلك لايدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر إلا أن تقطع وتسقط هى الأخرى من الصدور ، أى إلى أن يموتوا .

قال صاحب الظلال : وإن صورة البناء المنهار لهى صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار - تلك صورة مادية وهذه صورة شعورية ، وهما تتقابلان فى اللوحة الفنية العجيبة التى يرسمها التعبير القرآنى الفريد ، وتتقابلان فى الواقع البشرى المتكرر فى كل زمان ؛ فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة ، حائر الوجدان ، لا يطمئن ولا يستقر ، وهو من انكشاف ستره فى قلق دائم ، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار - وهذا هو الإعجاز الذى يرسم الواقع النفسى بريشة الجمال الفنى ، فى مثل هذا التناسق ، وبمثل هذا اليسر فى التعبير والتصوير على السواء .

(١) راجع التعبير « أسس بنيانه على شفا حرف هار » والآيتين ١٠٧ ، ١٠٨ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ١١١ - التوبة (٩)

ذكر الشراء هنا تمثيل . مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء . وأصل الشراء بين العباد هو إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو دونه أو أنفع منه . فهؤلاء المجاهدون جادوا بأنفسهم ، وهى أنفس الأطلاق (١) والجلود بها غاية الجود ، وجاد الله عليهم بالجنة ، وهى أعظم ما يطلبه العباد ويتوسلون إليه بالأعمال . إن الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين : الله سبحانه - فيها هو المشتري ، والمؤمن فيها هو البائع . فهى بيعة مع الله لا يبقى للمؤمن بعدها شيء فى نفسه ولا فى ماله يحتجزه دون الله - سبحانه . ودون الجهاد فى سبيله لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله . قال أهل المعانى : لا يجوز أن يشتري الله شيئاً هو له فى الحقيقة ، لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملك ، والأشياء كلها ملك لله تعالى . ولهذا قال الحسن : أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها ، لكن جرى ذلك مجرى التلطف فى الدعوة إلى الطاعة والجهاد .

جاء فى الصحيحين « وتكفل الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاداً فى سبيلى وتصديق برسلى بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة » وقوله ﴿ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله فى كتبه الكبار وهى التوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقوله ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى ليس هناك من هو أكثر وفاء بالعهد من الله . وهذا كقوله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ وقوله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ ؛ ولهذا قال : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد ، بالفوز العظيم .

نزلت الآية فى البيعة الثانية ، وهى بيعة العقبة الكبرى . قال القرطبى : ثم هى بعد ذلك عامة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة .

(١) العلق : النفس من كل شيء يتعلق به القلب ، والجمع : أطلاق وعلوق . ويقال : هو علق علم ، وهو علق شر : يحبه ويميل إليه .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ
رَحِيمٌ ﴾ ١١٧ - التوبة (٩)

الْعُسْرَةُ : الشَّدَّةُ وَالضِّيقُ ، صِدُّ الْيُسْرَةِ . عَسَرَ الْأَمْرُ يُعَسِّرُ عَسْرًا : صَعُبَ وَاشْتَدَّ .

﴿ ساعة العسرة ﴾ : ساعة الشدة (١) ، وهي غزوة تبوك . ومنها : جيش العسرة : جيش المسلمين في غزوة تبوك . وسميت غزوة تبوك بهذا الاسم لأن المسلمين كانوا في عسرة شديدة . والمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزوة ، ولم يرد ساعة بعينها .

ونورد بعض الأقوال في شدتها . قال مجاهد : خرجوا إليها في شدة من الأمر ، في سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعُسْر من الزاد والماء . وقال عمر وقد سُئِلَ عن ساعة العسرة : خرجنا في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش . وقال الحسن : كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه (أى يتبادلونه لقللة ما عندهم من الرواحل) (٢) بينهم ، وكان زادهم التمر المدود والشعير المسوس . وقال قتادة : خرجوا في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ما أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذُكِرَ لنا أن الرجلين كانا يفتسمان التمرة بينهما .

ولذلك قال ابن كثير في تفسير « من بعد ما كاد (٣) يزيغ قلوب فريق منهم » أى عن الحق ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب بسبب ما نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ، « ثم تاب عليهم » أى رزقهم الإنابة إليه والرجوع إلى الثبات على دينه .

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة » أى غفر الله للمؤمنين بسبب صبرهم على شدائد هذه الغزوة ما عساه قد فرط منهم من الزلاّت . وقبل : معنى توبته على المهاجرين والأنصار أنه تجاوز عما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك والتخلف عنها ، ثم أعانهم على التغلب على ما حدثتهم به نفوسهم من القعود .

(١) والعسرة أيضا : ضيق ذات اليد ، وأيضا : العجز عن الوفاء بالدين ، قال تعالى : ﴿ وإن كان ذو عسرة

فانظره إلى ميسرة ﴾ ٢٨٠ - البقرة .

(٢) الرواحل جمع راحلة وهي الصالح من الإبل للأسفار والأحمال ، وكان العسرة يعتقبون على بعير واحد ، وكانت المسافة بعيدة .

(٣) كاد فعل ماض ناقص ، ومعناها : مقاربة الشيء .

ومعنى توبته - سبحانه على النبي - ﷺ عدم مؤاخذته على أنه أذن للمنافقين بالتخلف فى غزوة تبوك . فإذنه لهم من باب ترك الأولى وليس من باب فعل الذنب ، لأنه لم يكن هناك أمر خالفه الرسول عليه الصلاة والسلام . وقال الزمخشري « تاب الله على النبي » كقوله « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وقوله ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ إنما هو حث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي ، وهو إبانة لفضل التوبة عند الله ، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء .

« فى ساعة العسرة » فى وقتها والساعة مستعملة فى معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الغداة والعشى واليوم (١) .

قال القرطبي : وغزوة تبوك هى آخر مغازيه ﷺ ، وقد خرج إليها فى رجب وأقام فى تبوك شعبان وأياما من رمضان .

(١) قال الشاعر :

غداة طقت علماء بكرين وائل وعاجت صدور الخيل شطر تميم
طفت : علت وارتفعت . علماء : على الماء . والمراد بالغداة مطلق الزمن ليناسب المدح . والمعنى ارتفع قدرهم دائما فى العز والمجد وأنخفض غيرهم ، كما يرتفع الشيء على وجه الماء ويرسب الآخر .
وعاجت : مالت ، وشطر تميم : جهة قبيلة تميم .

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ وَضَاقتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ١١٨ - التوبة (٩)

« ضاقت عليهم أنفسهم » : ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة ، لإعراض الناس عنهم وعدم مكاملتهم من كل أحد ، ذلك أن النبي ﷺ كان قد نهى الناس أن يكالموهم كما سيأتى .

وفى « تفسير الجلالين » : ضاقت قلوبهم للنغم والوحشة بتأخير توبتهم ، فلا يسعها سرور ولا أُنس . فمعنى « خلفوا » أن التوبة عليهم أرجئت ، كما سيأتى فى قصة الثلاثة الذين خلفوا .

وقال صاحب الظلال : كأنما نفوسهم وعاء لهم تضيق بهم ولا تسعهم ، وتضغظهم فيتكرب أنفاسهم .

ونبدأ قصة الثلاثة الذين خلفوا بشرح معنى كلمة « خلفوا » . هى من الفعل خلفه تخليفاً : أخره . والثلاثة الذين خلفوا هم الذين أخر أمرهم فلم تقبل معذرتهم ولم ترد أى لم ترفض حتى نزل فيهم الوحى . والواو العاطفة فى أول الآية تعطفهم على من تاب الله عليهم فى الآية السابقة : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » وعلى الثلاثة الذين خلفوا .

والثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن ربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، وكلهم من الأنصار . وقد خرج البخارى ومسلم وأحمد حديثهم . ونعرض باختصار ما رواه أحدهم وهو كعب بن مالك عن تخلفهم عن غزوة تبوك ، كما جاءت فى صحيح مسلم .

قال كعب بن مالك : « لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك . . ولم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة . وقد اعترف كعب بذلك وقرره عندما سأله الرسول ، بعد العودة من غزوة تبوك ، عما خلفه عن الخروج إليها ؛ فقال له النبي ﷺ : « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فىك » . وأخبر رجال من بنى سلمة كعباً أن النبي ﷺ قال مثل هذا القول لرجلين آخرين تخلفا عن تبوك هما مرارة بن ربيعة وهلال بن أمية .

قال كعب : « ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة . . فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين

ليلة، فأما صاحبها فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم^(١)، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد . . فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذ جاءني نبطيُّ من نبط أهل الشام فدفع إلي كتابا من ملك غسان فيه : بلغنا أن صاحبك قد جفاك . . فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذا أيضا من البلاء^(٢)، فتيامت بها التنور فسجرت به، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبتَ الوحي إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تعتزل امرأتك فلا تقربنها .

قال كعب : فأكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهي عن كلامنا . ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أو في على سَلْع^(٣) يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . قال : فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء الفرج . . فانطلقت أتأم رسول الله ﷺ حتى دخلت المسجد . فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال، وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لا بل من عند الله » قال كعب : وكان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يُعرف ذلك منه ثم تلا قول الله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » .

سئل أبو بكر الوراق عن التوبة النصوح فقال : أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه .

ولا بأس من الإشارة إلى بلاغة تعبير « ضاقت عليهم الأرض بما رحبت » : ليست الأرض أرضا إلا بأهلها، وبالقيم السائدة فيها، وبالوشائج والعلاقات بين أصحابها . فالتعبير صادق في مدلوله الواقعي فوق صدقه في جماله الفني . فالتعبير يرسم هذه الأرض تضيق بالثلاثة المخلفين وتتقاصر أطرافها، وتنكمش رقعتها، فهم منها في حرج وضيق : فرغم سعتها ورُحبتها لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه بسبب ما هم فيه من قلق وجزع . فالتعبير مثل للحيرة في أمرهم .

(١) أشبَّ : أكثرهم شبابا . أجلدَهم : أكثرهم صبورا واحتمالا .

(٢) أي الامتحان : هل يصمد أمام إغراء ملك غسان؟ وسجرتها التنور : أحماه أي ألحاه في التنور وأحرقها .

(٣) سَلْع : جبل بالمدينة .

﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ

انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ١٢٧ - التوبة (٩)

صَرَفَ الشَّيْءَ يَصْرِفُهُ صَرْفًا : رَدَّهُ عَنْ وَجْهِهِ .

وَصَرَفَ الْقُلُوبَ : تَحْوِيلُهَا عَنِ الْهِدَايَةِ .

« صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » أى ردها عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية، وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها، وهو دعاء عليهم . وقيل : المعنى هو أنه خذلهم عن قبول الهداية .

ثم ذكر سبحانه السبب الذى لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية (أو الذى لأجله استحقوا الدعاء عليهم) فقال : « بأنهم قوم لا يفقهون » ما يسمعونه لعدم تدبرهم وإنصاتهم .

تتحدث الآية عما كان يفعله المنافقون عند نزول سورة من سورة القرآن ، « نظر بعضهم إلى بعض » قائلين « هل يراكم من أحد » من المؤمنين لئنصرف عن المقام الذى ينزل فيه الوحي ، فإنه لا صبر لنا على استماعه ، ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك (١) « ثم انصرفوا » أى عن ذلك المجلس إلى منازلهم ، أو عن ما يقتضى الهداية والإيمان إلى ما يقتضى الكفر والنفاق .

وقوله « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » كقوله تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » (٢) قال ابن كثير : لا يفهمون عن الله خطابه ، ولا يقصدون لفهمه ، ولا يريدونه ؛ بل هم فى شغل عنه ونفور منه . فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه .

(١) حكى ابن جرير : « نظر » فى هذه الآية موضوع موضع قال ، أى قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحد .

(٢) الآية الخامسة من سورة الصف .

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾

٢ - يونس (١٠)

الْقَدَمُ : ما يَطُّ الأَرْضَ من رَجُلِ الإنسان .

والقدم : التقدم والسبق في الخير أو الشر (١) . يقال : لفلان قدم في العلم أو الكرم أو نحوهما . ويقال : قدم صدق و قدم كرم .

« لهم قدم صدق عند ربهم » أى أن لهم سابقة وفضلا ، وما قدموه هو الإيمان أو الأعمال الصالحة المستتعبة للثواب : « وبشر الذين آمنوا » ؛ فالذين آمنوا لهم منزلة رفيعة عند ربهم أو الأجر الحسن بما أسلفوا و قدموا .

وقال مقاتل : القدم أعمال قدموها ، واختاره ابن جرير ، ومنه قول الواضح :

صل لذي العرش واتخذ قَدَمًا
ينجيك يوم العثار والزلل

وهو قول زيد بن أسلم ومجاهد إذ قال في تفسير « قدم صدق » : الأعمال الصالحة : صلاتهم وصومهم وصدقهم وتسيبهم ومحمد ﷺ يشفع لهم .

وأضيفت القدم ، وهى السابقة فى الفضل وحسن الجزاء عند ربهم ، إلى الصدق للإيدان بأنها ينالونها بصدق القول والعمل والنية .

تبدأ الآية بسؤال استنكارى يستنكر استغراب الناس لأن يبعث الله بشرا رسولا . واستغرابهم راجع إلى أنهم لا يدركون قيمة أنفسهم - فقد كرم الله الإنسان ، ومن تكريمه أن يكون أهلا لحمل رسالته . وحكمة الله واضحة فى الإيحاء إلى رجل منهم ، رجل يعرفهم ويعرفونه ، يطمئنون إليه ويأخذون منه ويطيعون . وحكمته فى إرسال الرسل أوضح ، فالإنسان مهيا بطبعة للخير والشر ، وعقله هو أدواته للتمييز . ولكن هذا العقل فى حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائما كلما غم عليه الأمر وأحاطت به الشبهات وجذبتة التيارات والشهوات ، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحيانا من النقيض إلى النقيض - هذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعته .

فكل الناس فى حاجة إلى الانذار والتبليغ والبيان ، والبشرى للذين آمنوا - يشرهم بالطمأنينة والثبات والاستقرار ، تلك المعانى التى توحى بها كلمة « صدق » مضافة إلى القدم فى جو الإنذار والتخويف .

(١) والعرب تسمى كل سابق فى خير أو شر : قَدَمًا ، لأن الخير أو الشر لا يتحقق إلا بالسعى ، والسعى لا يحصل إلا بالقدم ، فسمى المسبب باسم السبب ؛ كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد ، وباعا لأن صاحبها يبيع بها .

﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحْيَطَ بِهِمْ دَعْوَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحْيَطَ بِهِمْ دَعْوَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَكِنَّ أَجْبَتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ٢٢ - يونس (١٠)

أَحْيَطَ بِفُلَانٍ : دنا هلاكه . وأحيط بالشيء : هلك .

« أحيط بهم » : أخذق بهم الهلاك . وأصله من إحاطة العدو بقوم أو ببلد ، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وإن كان بغير العدو ، كما في هذا التعبير .

« مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » : مخلصين له العبادة والطاعة .

سبب النزول كما أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما . عن سعد بن وقاص قال : لَمَّا كُنَّا يَوْمَ الْفَتْحِ أَهْدَرَ النَّبِيُّ ﷺ دَمَ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ عِكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ فَهَرَبَ مِنْ مَكَّةَ وَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَهُ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ لِرُكَّابِهَا : أَخْلَصُوا فَإِنِ الْهَيْتُكُمْ لَا تَغْنِي عَنْكُمْ شَيْئاً ؛ فَقَالَ عِكْرَمَةُ : لَكِنَّ لَمْ يَنْجِنِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ مَايَنْجِنِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ (١) ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَكَ عَهْدًا إِنَّا نَتَّقُكَ مَا عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ ، أَنِ اتَى مُحَمَّدًا حَتَّى أَضْعَ يَدِي فِي يَدِهِ ، فَلَأَجِدَنَّ عَقُوبًا كَرِيمًا . قال : فجاء فأسلم .

ونتعرض لشرح الآية لنقف على أسرار بلاغة التعبير . تصور الآية مشهداً حياً ، يعرض كأنه يقع وتشهده العيون وتتابعه المشاعر وتخفق معه القلوب . وتبدأ بتقرير القدرة المسيطرة المهيمنة على الحركة والسكون : « هو الذي يسيركم في البر والبحر » أى ينشركم ويحفظكم ويكلؤكم ويسر لكم سبل السير في البر والبحر - وسورة يونس كلها معرض لتقرير هذه القدرة التى تسيطر على أقدار الكون كله بلا شريك .

ثم هانحن أمام المشهد القريب : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة » أى بريح لا عاصفة ولا بطيئة فالفلك تتحرك رُخاءً لينة ، وهذه مشاعر أهل الفلك يصورها قوله « وفرحوا بها » أى بسرعة سيرهم رافقين وادعين .

فبينما هم كذلك فى هذا الرخاء الآمن ، تقع المفاجأة فتأخذ الغارين الآمنين : « جاءتها ريح عاصف » شديدة « وجاءهم الموج من كل مكان » أى اغتلم البحر عليهم وتناوحت الفلك

(١) إذا كان الإخلاص هو وسيلة النجاة فى البحر فهو أيضاً وسيلة النجاة فى البر ، فل وسيلة غير الإخلاص للنجاة .

واضطربت بمن فيها، ولاطمها الموج وشالها وحطها وداربها كالريشة - وهؤلاء أهلها في فزع
يظنون أنهم أحيط بهم وأن الهلاك واقع بهم، ولا مجال للنجاة.

عندئذ فقط، وفي وسط هذا الهول المتلاطم، تتعري فطرتهم مما ألم بها من أو شاب
وأدران، وتنفض قلوبهم ماران عليها من تصورات، وتنبض الفطرة الأصيلة السليمة التي فطر
الله الناس عليها بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه : « دعوا الله مخلصين له الدين »
لا يدعون معه صنما ولا وثنا، بل يفرّدونه بالدعاء والابتهال كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ
فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ ٦٧ - الإسراء .

قال القرطبي : « دعوا الله مخلصين له الدين » أى دَعَوْهُ وحده وتركوا ما كانوا يعبدون -
أخلصوا له الطاعة والعبادة - وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله فى
الشدائد .

وقد خرج من الخطاب إلى الغيبة فى قوله : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة
وفرحوا بها ﴾ كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار . والخروج من
الخطاب إلى الغيبة كثير فى القرآن وفى أشعار العرب . قال ابن الأثير : وجائز فى اللغة أن
يرجع من الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ، قال تعالى ﴿ وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا
كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾ فأبدل الكاف من الهاء .

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٢٦ - يونس (١١)

رَهَقَ الشَّيْءُ فَلَانًا يَرْهَقُهُ رَهَقًا : غَشِيَهُ وَلَحِقَهُ بِقَهْرٍ . « يَرْهَقُ » يَغْشَى وَيُعْطَى وَيَعْلُو . الْقَتْرُ وَالْقَتْرَةُ : شَبَّهَ دَخَانَ يَغْشَى الْوَجْهَ مِنْ كَرْبٍ أَوْ هَوْلٍ ، وَهُوَ الْعَبْرَةُ ^(١) فِيهَا سَوَادٌ . وَقِيلَ الْقَتْرُ : الْكَأَبَةُ وَالْكَسُوفُ وَكَدْرَةُ اللَّوْنِ .

الذلة : أثر الهوان وكسوف البال والانكسار .

والقتر حالة حسية ، والذلة حالة نفسية .

معنى التعبير : لا يغطي وجوههم قمام أو سواد ، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القتر والغبرة ، فالذين أحسنوا لا تحصل لهم إهانة حسية في الظاهر . ولا يعترى بهم هوان أو صغار أى لا تحصل لهم إهانة نفسية . بل هم كما قال تعالى : ﴿ فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ ١١ - الإنسان ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته .

وقوله : « أصحاب الجنة » يشعر بأنها كالملك لهم . « هم فيها خالدون » أى لا يخرجون منها أبدا ، كما فى قوله : ﴿ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ ٤٨ - الحجر .

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » الحسنى : المثوبة الحسنى . وأما الزيادة فقال عنها الحسن إنها مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فأكثر إلى سبعمائة ضعف أو تزيد . وقال مجاهد مغيرة الله تعالى ورضوانه ، روى الشيخان عن النبى ﷺ أنه قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فيقول : هل رضيتم بي؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحدا من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا . ويرى جمهرة أهل السنة أن الزيادة هى النظر إلى وجه الله سبحانه بعد حصولهم على ثوابه فى الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿ ٢٢ ، ٢٣ - القيامة .

(١) الغبرة والغبار : مادق من التراب أو الرماد . ويقال : فلان لا يشق له غبار : لا يدرك .

﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٢٧ - يونس (١٠)

« كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ » أى أن وجوههم ، فى شدة سوادها ، كأنما ألبست « قطعاً » أى أجزاء من الليل المظلم الحالك السواد . « مظلماً » حال من الليل .

قرأ الجمهور « قطعاً » بالجمع . وقرأ الكسائى وابن كثير « قطعاً » بإسكان الطاء ، والقطع من الليل : طائفة منه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ^(١) ﴾ ، وفى هذه الحالة يكون مظلماً صفة لقطع .

« ماله من الله من عاصم » أى مانع يمنع سُخْطَهُ وَعَذَابَهُ ، نفاذا لسنة الله الكونية فيمن يحيد عن الطريق ويخالف الناموس والآية إخبار عن سواد وجوههم فى الدار الآخرة كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ١٠٦ - آل عمران .

لكن التعبير « كأنما غشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً » يرسم صورة حسية للظلام النفسى والكدر الذى تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب ، كأنما أخذ من الليل المظلم رقع فغطيت بها هذه الوجوه . وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل البهيم ورهبة من رهبته . يذكر صدر الآية عدل الله فى الأشقياء ، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك . على عكس السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك حسبما جاء فى الآية السابقة (٢) .

(٢) انظر التعبير « ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة » .

(١) الآية ٨١ - هود و ٦٥ - الحجر .

﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٥٧ - يونس (١٠)

« موعظة من ربكم » يعنى القرآن ، فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه . والوعظ فى الأصل هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب أو التهيب . والواعظ كالطبيب ينهى المريض عما يضره .

« وشفاء لما فى الصدور » من الشكوك التى تعترى بعض المرتابين قال القرطبي : شفاء من الشك والنفاق والخلاف والشقاق . وقال ابن كثير : دواء لما فى الصدور ، أى من الشبهة (١) والشكوك ، وهو إزالة ما فيها من رجس وذنس . فالموعظة التى جاءتنا من ربنا ، والمراد بها القرآن الكريم ، بينت الحق وأقامت عليه الدلائل والبراهين المطمئنة للنفوس الحائرة ، وبينت الباطل وأقامت البراهين على بطلانه ووجوب تركه ، فلم تترك مجالاً لأمراض الصدور ، وإنما هى شافية للصدور .

والهدى : الإرشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيه .

والرحمة : هى ما يوجد فى الكتاب العزيز من الأمور التى يرحم الله بها عباده ، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها ، فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور .

وعطف موعظةً ، وشفاءً ، وهدىً ، ورحمةً لتأكيد المدح ؛ قال الشاعر :

إلى الملكِ القرمِ (٢) وابنِ الهمامِ
وليثِ الكتيبةِ فى المُزدحمِ

(١) جمع شبهة وهى : ما لبس أمره فلا يُدرى أحلالٌ هو أم حرام ، وحقُّ هو أم باطل .

(٢) القرمُ من الرجال : السيدُ المعظمُ .

﴿ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

﴿ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

٦٨ - يونس (١٠)

« إن عندكم من سلطان بهذا » أى ما عندكم من حجة وبرهان على ما زعمتم من اتخاذه- تعالى- ولدا، حيث قلتُم : الملائكة بنات الله . وقالت اليهود : عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ . وقالت النصارى : المسيحُ ابْنُ اللَّهِ . والعاقل لا يعتقد إلا ما قامت عليه حجة . وهم لا يملكون برهانا على ما يدعون ، ويسمى البرهان سلطانا، لأن البرهان قوة، وصاحب البرهان قوى ذو سلطان .

« سبحانه » : نزه نفسه عن الصاحبة والأولاد والشركاء والأنداد .

« هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض » : كيف يتخذ ولدا وهو له ما فى السموات والأرض ملكا وخالقا وعبيدا .

« أتقولون على الله ما لا تعلمون » : إنكار، ووعيد أكيد، وتهديد شديد .

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ ﴾

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ ﴾ ٨٨ - يونس (١٠)

طَمَسَ عَلَى الشَّيْءِ يَطْمِسُهُ طَمْسًا : محاه وأزاله . ويقال : طمست الريح الأثرَ .

« اطمس على أموالهم » : أهلِكها . أو : امحُ أثرها . دعاء عليهم بأن يحق الله أموالهم ويهلكها .

قال الزجاج : طَمَسُ الشَّيْءِ إِذْهَابُهُ عَنْ صُورَتِهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : لَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَعْدَنٌ إِلَّا طَمَسَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَتَّفَعْ بِهِ أَحَدٌ بَعْدَ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : صَارَتْ ذَنَابِيرُهُمْ وَدِرَاهِمُهُمْ وَفَرَشُهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُمْ حِجَارَةً .

دعا موسى أن يهلك ربنا هذه الأموال التي استعبدوا الناس بها، وأكثروا في الأرض الفساد بسببها، وذلك ليزول سلطانهم ويذلوا. ووجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ يقينها بالله بحيث تدرك أن هذه النعمة والأموال ابتلاء واختبار، وأنها لا شيء إذا قيست بفضل الله في الدنيا والآخرة. ولذلك دعا موسى ربه أن يدمر أموال فرعون وملئه، فهم الفئة الباغية المضلة، ويجردهم من وسائل البغي والإغراء.

﴿ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ٨٨ - يونس (١٠)

شَدَّ الْعُقْدَةَ : أوثقها أى أحكم عقدها .

« واشدد على قلوبهم » : اربط عليها وأغلقها واحكم إغلاقها حتى لا يدخلها الإيمان . وكان القلب حجرة وله باب يغلق عليه . وفى « معجم ألفاظ القرآن الكريم » جاء شرح هذا التعبير كما يلى : قَوُّ الْغَطَاءِ عَلَيْهَا ، وكأما القلب وعاء وله غطاء يُحْكَمُ فوقه . وكله من قبيل المجاز . والمعنى : اجعل قلوبهم مطبوعة مغلقة لا تعى خيرا ولا تقبل الحق ولا تنشرح للإيمان . دعاء عليهم - فليست قلوبهم أهلا للإيمان .

ودعاؤه عليهم كان غضبا لله ولدينه بعدما تبين له أن لا خير فيهم ، وليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن ، كما دعا نوح عليه السلام على قومه : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِذَا تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿ ٢٦ ، ٢٧ - نوح . ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام هذه الدعوة التى أمّن عليها أخوه هارون ، فقال تعالى فى الآية التالية : « قال قد أجيبت دعوتكما . . . » .

ولذلك قال الفراء والكسائى وأبو عبيدة فى تفسير « فلا يؤمنوا » : هو دعاء عليهم بلفظ النفى ، والتقدير : اللهم فلا يؤمنوا . ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ولا تلقنى إلا وأنفك راغم

« حتى يروا العذاب الأليم » أى لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به ، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم ولا يقبل لأن الإيمان عند حلول العذاب لا يُقْبَلُ ، ولا يدل على توبة حقيقية باختيار الإنسان .

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ ﴾ ٩٣ - يونس (١٠)

معنى « بَوَّأْنَا » أَسَكَّنَّا وَأَنْزَلْنَا ، يقال : بَوَّأْتُ زَيْدًا مَنْزِلًا : أَسَكَنْتُهُ فِيهِ . وَالْمَبُوءُ : اسم مكان أو مصدر ، وأضافه إلى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب ، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق . والمراد به هنا : المنزل المحمود المختار . قيل : هي أرض مصر ، وقيل : الأردن وفلسطين ، وقيل : الشام .

والآية تعدد ما أنعم به سبحانه على بني إسرائيل من النعم . وتؤكد أن الله - تعالى - أنزل بني إسرائيل ، بعد أن أنجاهم من طغيان فرعون وجنوده (في الآيات السابقة) ، مكاناً صالحاً ، وأرضاً يجدون فيها الأمن والطمأنينة . ولما أهلك الله فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر ^(١) ، كما قال تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ : ١٣٧ - الأعراف .

(١) قال ابن كثير : استمروا مع موسى عليه السلام طالبيين إلى بيت المقدس ، وهي بلاد الخليل عليه السلام . . وكان فيه قوم من العمالقة ، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم ، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام . وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ، ففتح الله عليهم بيت المقدس ، واستقرت أيديهم عليها ، إلى أن أخذها منهم بختصر حيناً من الدهر ، ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك اليونان .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ

النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ٩٩ - يونس (١٠)

هذه هي القاعدة الكلية في الكفر والإيمان . لو شاء الله لخلق هذا الجنس البشري خلقه غير خلقتة الحالية ، ولجعله لايعرف إلا طريقا واحدا هو طريق الإيمان كالملائكة . أو لجعل له استعدادا واحدا يقوده إلى الإيمان . لكن حكمة الله (١) اقتضت خلق هذا الكائن البشري باستعدادين : استعداد للخير والهدى ، واستعداد للشر والضلال ، ومنحه الله القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذلك .

فالذين يحسنون استخدام حواسهم ومشاعرهم وإدراكهم ويوجهونها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس ومايجيء به الرسل من آيات وبيانات ، فأولئك هم أصحاب الفطر السليمة ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) ويؤمنون ويهتدون إلى طريق الخلاص .

أما الذين يلغون حواسهم ويغلقون مداركهم عن دلائل الإيمان ، ويتبعون أهواءهم ويستقبلون الرسائل السماوية بالعناد واللجاج ، فإن قلوبهم تقسو وعقولهم تستغلق ويتهدى بهم الأمر إلى التكذيب والجحود . وهذا الصنف هو الذي يشير إليه قوله تعالى في آخر الآية التالية : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » أى عطلوا عقولهم عن التدبر ولم ينتفعوا بالآيات ، فحق عليهم الرجس أى العذاب .

فالإيمان ، إذن ، متروك للاختيار . لا يكره الرسول عليه أحدا لأنه لا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجهات الضمير : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » فالسؤال هنا للإنكار .

ولقد كان النبي ﷺ - لفرط شففته على أمته - حريصا أشد الحرص على إيمان الناس جميعا . وللوصول إلى تلك الغاية حمل نفسه أعباء ثقيلة ومتاعب جسيمة ، فخفف الله عنه وبين له أنه ليس مكلفا بإكراه الناس على الإيمان وحملهم جميعا عليه . فليس عليه إلا البلاغ - وقد فعل . وهناك العديد من الآيات تخفف عن النبي ﷺ الأعباء النفسية لهذا الحرص : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ ٨ - فاطر ، وقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ٦ - الكهف ، وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ٢٧٢ - البقرة ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ٥٦ - القصص ، وقوله : ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿ ٢١ ، ٢٢ الغاشية .

« جميعا » : نصب على الحال ، قاله سيبويه . وقال الأخفش : جاء بقوله « جميعا » بعد «كلهم» تأكيدا ، كقوله : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ٥١ - النحل .

(١) وقد ندرك بعض مرامى هذه الحكمة وقد لا ندركه ، لكن عدم إدراكنا لها لا ينفي وجودها .

﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾



١٠٥ - يونس (١٠)

أقام وجهه للشيء : اهتم به وأقبل عليه بنشاط .

والمراد من إقامة وجهه - ﷺ - للدين : استقامته في الاتجاه إليه ، لا يلتفت يمينا ولا شمالا بل يخلص في الاتجاه إليه بقلبه وجوارحه ، وأقواله وأفعاله ، بحيث لا يصرفه عنه صارف . وقد أكد ذلك بقوله : « حنيفا » أى مائلا عن الأديان كلها إلى دين الإسلام . قال ابن كثير في تفسير هذا التعبير : أخلص العبادة لله وحده ، حنيفا أى منحرفا عن الشرك ، ولهذا قال : « ولا تكونن من المشركين » .

فالتعبير يدعو إلى الإخلاص في الإيمان ، والحرص على نقائه وثباته ، والحذر من أن يتطرق إليه أى شك أو لبس .

والخطاب ، وإن كان موجها إلى الرسول ﷺ ، فالمؤمنون داخلون في حكمه ، فهم مطالبون بالإخلاص في دينهم ، وقد جاء ذلك صراحة في قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ٨٢ - الأنعام وقال - ﷺ - محذرا من الشرك : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل » . أخرجه الإمام أحمد والطبرانى .

﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ

بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ (١) ١٠٧ - يونس (١٠)

مَسَّهُ يَمَسُّهُ مَسًّا : أجرى يده عليه من غير حائل .

وقد توسع في معنى المس كثيرا ، فيقال : مَسَّهُ الشَّيْءُ : عَرَّضَ لَهُ وَأَصَابَهُ . ويقال : مَسَّهُ بالشَّيْءِ : أَصَابَهُ بِهِ وَأَلْحَقَهُ بِهِ ، وأكثر ما يستعمل في الشر (٢) .

« كاشف » من أَلْفَعَلَ كَشَفَ الشَّيْءَ : أظهره أو رفع عنه مايواريه . ويقال كشف عنه الهم أو العذاب أو الضر : أزاله .

الضَّرُّ : ما كان من سوء حال أو فقر أو شدة في بدن ، والفعل هو : ضَرَّهُ ، ومثله أَضَرَّهُ وضَارَّهُ : ألحق به مكروهاً أو أذى .

المعنى : وإن يصبك الله بما يضرك ، من قحط أو فقر أو مرض ، أو خوف أو إيذاء أو غيرها ، فإن أحدا لن يستطيع أن يزيل عنك ما أصابك إلا الله وحده : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ ٢٨ - الشورى .

والناس يتعرضون للضر ، ابتلاء من الله - تعالى - ليظهر مدى إيمانهم وصبرهم : ﴿ وَنَبَلُّوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ ١٥٥ - البقرة . وقد يتعرضون للضر عقابا لهم على ما اجترحوا من آثام كي يعودوا إلى الله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ٤٢ - الأنعام . وقد يتعرضون للضر تكفيرا للذنوب : قال ﷺ : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب (٣) ، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياها . » أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري .

والخير كذلك يكون ابتلاء للناس لإظهار مدى شكرهم لله وإقبالهم عليه : ﴿ وَنَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَنَسُوا ﴾ ٣٥ - الأنبياء . وقد يكون الخير تكريما من الله لعباده الصالحين : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ ٣٠ - النحل وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ ٤ - الطلاق . روى الحافظ ابن عساكر عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا للنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » .

(١) ورد الجزء الأول من التعبير في ١٧ - الأنعام .

(٢) ويقال : مَسَّ المرأة : وطئها . وهذا من الكنایات المستحسنة .

(٣) النَّصَبُ : الإعياء والتعب . وَالْوَصَبُ : الوجع والمرض .

فهذه الآية تؤكد أن النفع والضرر من الله وحده، فهي امتداد للآية السابقة عليها: «ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضررك فإن^(١) فعلت فإنك إذا من الظالمين» حيث نهى الله رسوله - عليه الصلاة والسلام - عن الاتجاه في دعائه وعبادته، إلا إليه وحده لأنه سبحانه هو الذى يملك جلب المنافع ودفع المضار . وإن دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضررك ، فإنك تكون من الظالمين لأنفسهم بالشرك . والخطاب ، وإن بدا موجهًا لشخص النبي عليه السلام ، إلا أنه عام لجميع المسلمين فى جميع العصور . والآية تنهى نهياً حاسماً عن الاتجاه بالدعاء إلى غير الله ، كائناً ما كان كما جاء فى الحديث الشريف : « وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف » . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(١) واستعمال أداة الشرط « إن » تفيد استبعاد أن يدعو الرسول والمؤمنون غير الله تعالى .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا

يَسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ - هود (١١)

ثَنَى الشَّيْءَ يَثْنِيهِ ثَنْيًّا : طواه ورد بعضه على بعض .

« يثنون صدورهم » أى يطوونها على عداوة المسلمين ، ففيه حذف ، قاله القرطبي . أو المعنى : يطوون ما فى صدورهم من كفر و عداوة ويسترونه فى محاولة منهم للاستخفاء أى إخفاء حقيقتهم عن النبى ﷺ ؛ وهو معنى « ليستخفوا منه » ، فالضمير فى « منه » عائد على النبى ﷺ .

فالتعبير يخبر عن معادة المشركين للنبى ﷺ وللمؤمنين وعن محاولاتهم لإخفاء ذلك ، ظانين أنه تخفى على الله أحوالهم . لكن جاء الرد عليهم فى باقى الآية : « يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور » أى يعلم ما تكنه صدورهم من النيات والضمائر والأسرار .

روى عن ابن عباس أنها (أى الآية) نزلت فى الأحنس بن شريق ، وكان رجلا حلوا الكلام حلوا المنطق ، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ، وينطوى له بقلبه على ما يسوء .

« انظر التعبير : يستغشون ثيابهم » .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا

يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ٥ - هود (١١)

الغشاء، والغاشية، والغشاوة : الغطاء . والفعل : غَشِيَ وَغَشَى وَأَغَشَى (١) .
واستغشى ثوبه : تَغَطَّى بِهِ .

وقد جاء في « الظلال » أن المراد من قوله « يستغشون ثيابهم » المعنى الحقيقي . فحين يأوون إلى فراشهم ، ويخلون إلى أنفسهم ، والليل لهم ساتر ، وأغطيتهم لهم ساتر ، فإن الله يكون معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر ، يعلم في هذه الخلوة مايسرون ومايعلمون . فليست أغطيتهم بساتر دون علمه ، ولكن الإنسان يحس عادة في مثل هذه الخلوة أنه وحيد لا يراه أحد .

فالتعبير - هكذا - يلمس وجدانه ويوقظه ، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التي قد يسهو عنها ، فيخيل إليه أن ليس هناك من عين تراه : « يعلم ما يسرون ومايعلمون » .

« إنه عليم بذات الصدور » : عليم بالأسرار المصاحبة للصدور التي لا تفارقها ، والتي تلزمها كما يلزم الصاحبُ صاحبه ، أو المالكُ ملكه . فهي لشدة خفتها سميت ذات الصدور - ومع ذلك فالله بها عليم ، فما من شيء يخفى عليه ، وما من حركة لهم أو سكنة تذهب أو تضيع .

فالتعبير يصور هذا المعنى - على الطريقة القرآنية - في صورة مرهوبة ، وهم في وضع خفي دقيق . وبإلها من رهبة غامرة ، وروعة باهرة ، حين يتصور القلب البشري حضور الله - سبحانه - وإحاطة علمه وقهره ؛ بينما أولئك العبيد الضعاف يحاولون الاستخفاء منه .

وما أحسن قول زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة :

فلا تكتمن الله ما في قلوبكم ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء ويكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة .

قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حنى ظهره ، واستغشى ثوبه ، وأضممر في نفسه همه .

(١) وقد يُلاحظ في العشى معنى الاتصال القوي الذي تُفهمه التغطية في قولهم : غَشِيَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ وَتَغَشَّاهَا أَيِ اتَّاهَا .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا

وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ٦ - هود (١١)

دَبَّ يَدِبُّ دَبًّا وَدَبِييًّا : مشى مشياً رويداً .

والدابة : كل ما يدب على الأرض . وهو اسم لكل حيوان ذكرنا كان أو أنثى عاقلاً أو غير عاقل ، وغلب على غير العاقل .

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة ، هذه التي تملأ وجه البسيطة وتكمن في باطنها ، وتخفى في دروبها ومساربها ، لا يحيط بها حصر ولا يلم بها إحصاء ، ويعجز الخيال البشري عن تصور عددها .

أوجب الله - سبحانه - على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل ، فأودع هذه الأرض ما يكفي احتياجات هذه المخلوقات جميعاً ، وأودع هذه المخلوقات القدرة على استخلاص واستخراج رزقها من هذه الأرض .

ولكن كيف قال : « على الله رزقها » بلفظ الوجوب؟ وكل ما يسديه الله تعالى من رزق لبهيمة أو مكلف في الدنيا أو ثواب في الآخرة ، فذلك كله فضل ولا واجب على الله تعالى؟ وتفسير ذلك أن الله ، عز وجل ، لما وعدهم فضله - ووعدّه خير ، وخبره صدق - وجب وقوع الموعد : أي استحيل في العقل ألا يقع ، فمعنى « على الله » : وعدا منه حقاً . وقيل : على بمعنى من ، أي من الله رزقها ، يدل عليه قول مجاهد : كل ما جاءها من رزق فمن الله .

« رزقها » : رُفِعَ بالابتداء ، والرزق حقيقته ما يتغذى به الحيُّ ، ويكون فيه بقاء رُوحه وغماء جسده .

وصياغة التعبير على هذا النحو تفيد الحصر والقصر . قال الشاعر :

وكيف أخاف الفقرَ والله رازقِي ورازقُ هذا الخلق في العُسر واليُسر
تَكْفُلُ بالأرزاقِ للخلقِ كلهم وللضبِّ في البيداءِ والحوتِ في البحرِ

وذكر الترمذى الحكيم في « نواذر الأصول » بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعرين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله ﷺ في ذلك وقد أرمكوا (١) من الزاد ، فأرسلوا رجلاً منهم إلى رسول الله ﷺ يسأله ، فلما انتهى إلى باب النبي سمعه يقرأ هذه الآية : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » الآية ، فقال الرجل : ما

(١) أُرْمِلَ فلانٌ : نَقَدَ زادُه وافتقر .

الأشعريون بأهون الدواب على الله ، فرجع ولم يدخل على رسول الله ﷺ . وقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغوث ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله ﷺ فوعده . فينماهم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ما شاءوا .

إن لكل مخلوق رزقا - هذا حق . وهذا الرزق مذخور في هذا الكون ، ومقدر من الله في سننه التي ترتب النتائج على الجهد ، فالرزق يأتي بالسعي ، وبالأخذ بالأسباب التي أمرنا الله بالأخذ بها ، وجعلها جزءا من نواميسه . فلا يقعدن أحد عن السعي ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . فالسما والأرض ذاخرتان بالأرزاق التي تكفى جميع المخلوقات ، وعلى هذه المخلوقات أن تطلبها حسب سنة الله التي لا تحابي أحدا ، ولا تتخلف ولا تحيد .

« ويعلم مستقرها » أى حيث تأوى . « ومستودعها » حيث تموت . وقال سعيد بن جبير : « مستقرها » فى الرحم ، « ومستودعها » فى الصُّلب .

« فى كتاب مبین » : هو كناية عن علم الله تعالى ، أو هو اللوح المحفوظ . فالله - سبحانه - لا يبتدىء العلم بأحوال الدواب ابتداء ، بل علمه بها أزلى قديم ، وواضح لديه أمرها قبل خلقها ورزقها وإيوائها فى مستقرها ومستودعها .

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ

عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

١٢- هود (١١)

يستعمل الفعل : ضاق في المادى والمعنوى . ضاق الموضع والثوب والقلب .

والضيق (بكسر الضاد المشددة) في الحسى الذى يتسع كالدار والثوب .

والضيق (بفتح الضاد المشددة) فى غير ما يتسع كالصدر (١) .

والصفة : ضيق . وقد يُخفف إلى ضيق . واسم الفاعل : ضائق ، وجمعه : ضاققة مثل

قائد وقادة .

والذى ورد فى القرآن نقيض السعة ، وأكثره فى المعنويات .

ضاق صدره به : تألم أو ضجر منه ، أو شق عليه وعجز عنه .

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً ، ومن اقتراحاتهم : « لولا أنزل عليه كتر أو جاء معه ملك »

إذ كانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البيئات ، فكان يضيّق صدر

رسول الله ﷺ أن يلقى إليهم مالا يقبلونه ويضحكون منه ، وهذا معنى « فلعلك تارك بعض

ما يوحى إليك » أى لعلك تترك أن تلقى إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به

« وضائق به صدرك » بأن تتلوهم عليهم « أن يقولوا » أى مخافة أن يقولوا « لولا أنزل عليه كتر أو

جاء معه ملك » أى هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكتر والملائكة .

فالآية تسلية من الله لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن

الرسول (٢) ، فأمره الله تعالى وأرشده إلى أن لا يضيّق بذلك منهم صدره ، ولا يصدنه ذلك

ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا

يَقُولُونَ ﴾ ٩٧- البقرة .

« وضائق به صدرك » ضائق معطوف على تارك ، وصدرك مرفوع به . والهاء فى « به »

ضمير عائد على « بعض » أو على « ما » فى قوله « بعض ما يوحى إليك » ، أو عائد على التبليغ

أو التكذيب . وقال « ضائق » ولم يقل « ضيق » ليشاكل « تارك » الذى قبله ، ولأن الضائق

عارض ، والضيق ألزم منه .

(١) ومن ذلك الضيق : الفقر والشدة .

(٢) كما فى قوله : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه

نذيراً . أو يلقى إليه كتر أو تكون له جنة يأكل منها » ٧ ، ٨- الفرقان .

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ١٩- هود (١١)

صدّه عن الأمر: منعه وصرفه عنه. ومُطَاوعه: صدّاً أيضاً بمعنى: امتنع وانصرف. وبالمثل فإن الصدّ يكون منعاً وصرفاً، أو امتناعاً وانصرافاً.

« يصدون عن سبيل الله » : لها معنيان ، أحدهما : منع الناس عن دين الله ؛ والثاني : الامتناع والانصراف عنه . وكلاهما يحصل من الكافرين ، فكما يكفرون في أنفسهم وينصرفون عن سبيل الله (أى الطريق إلى معرفة الله ومرضاته) ، فإنهم يحملون غيرهم على الكفر ويصرفونهم عن سبيل الله ^(١) . هم يردون الناس عن اتباع وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل .

والعوج : الانحراف . عَوْجَ الشَّيْءِ عَوْجًا : انحرف . ويقال : قَوْلٌ بِهِ عِوَجٌ : منحرف عن القصد . وقول غير ذى عِوَجٍ : مستقيم سليم .

« يَبْغُونَهَا عِوَجًا » : يعدلون بالناس عنها إلى المعاصى والشرك ، قاله القرطبي . وقال الزمخشري : يَبْغُونَ أهلها أن بعوجوا بالارتداد . هم لا يريدون الاستقامة ، وإنما يريدون الحياة كلها عوجاً حين يعدلون عن استقامة الإسلام . وما ينتج الصد عن سبيل الله إلا العوج : العوج فى كل جانب من جوانب النفس ، والعوج فى كل جانب من جوانب الحياة . فالصد عن سبيل الله وما يتبعه من العبودية لغيره سبحانه تنشئ فى النفوس الذلة والله أراد لها الكرامة ، وتنشئ فى الحياة الظلم والبغى والله أراد أن تقوم حياتنا على القسط والعدل . والعبودية لغير الله تحول جهود الناس عن الإنتاج المثمر إلى عبث فى تأليه الأرباب الأرضية والنفخ فيها ليل نهار ، وتسليط الأضواء عليها والأنظار . وعبادها المساكين يظلون فى نصب دائم وهم مقيم - فهل هناك عوج أكثر من هذا؟

(١) سبيل الله : كل ما أمر الله به من الخير ، واستعماله فى الجهاد أكثر .

﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

﴿ إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ٣٧ - هود (١١)

الْفُلْكَ (١) : السفينة، وَالْفُلْكَ : السَّفْنُ (للمفرد والجمع) .

« واصنع الفلك بأعيننا » أى برعايتنا وتعليمنا .

قال الزمخشري : « بأعيننا » أى متلبسا بأعيننا ، كأن الله معه أعيننا تكلؤه أن يزيغ فى صنعته عن الصواب ، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه .

وقال القرطبي : « بأعيننا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الربيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ من يراك . وقال ابن عباس : بحراستنا ، والمعنى واحد ، فعبر عن الرؤية بالأعين لأن الرؤية تكون بها ، ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير . وهو سبحانه منزه عن الحواس والتشبيه والتكيف ، لا رب غيره . وقيل : معنى « بأعيننا » أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوننا على حفظك وعلى معونتك ، فيكون الجمع على هذا على بابه .

« ووحينا » : على ما أوحينا إليك من صنعتها . قال ابن عباس : لم يكن يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله أن يصنعها مثل جُوجُ الطائر (الجُوجُ مجتمع رؤوس عظام الصدور ، والجُوجُ : صدر السفينة ، والجمع : جآجىء) . وقال الزمخشري فى تفسير « ووحينا » : وأنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع .

(١) ذكر محمد بن اسحاق عن التوراة أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج ، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا . وأن يطلّى باطنها وظاهرها بالقار ، وأن يجعل لها جُوجُا أزورا يشق الماء . وعن الحسن وابن عباس : كان طولها ألفا ومئتي ذراع فى عرض ستمائة . وقالوا كلهم : كان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعا : ثلاث طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للإنس والعليا للطيور .

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ٤٦ - هود (١١)

« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » (١) : معناه المبالغة في ذمه كأنه جعل نفس العمل فهو الفساد بعينه ، وأصله : ذو عمل غير صالح ، ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل ، كذا قال الزجاج وغيره . وهذه هي قراءة الجمهور .

وقرأ ابن عباس وعكرمة والكسائي ويعقوب : عَمِلَ على لفظ الفعل ، ومعناه : عَمِلَ عملاً غير صالح ، وهو كفره وتركه لمتابعة أبيه .

ومعنى قوله : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أى الذين آمنوا بك وتابعوك ، وإن كان من أهلك باعتبار القرابة ؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل بأن المراد بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال : « إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » . وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب أى أن الأولى تعلقو الثانية ؛ وأن نسيبك فى دينك ، وإن كان أبعد الناس عنك فى النسب ، هو لصيقك وخصيصك . ومن لم يكن على دينك ، وإن كان أمس أقاربك رَحِمًا ، فهو أبعد بعيد عنك - لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر . فالأهل ، عند الله وفى دينه وميزانه ، ليسوا قرابة الدم ، إنما هم قرابة العقيدة . إنها الحقيقة الكبرى فى هذا الدين : فعروة العقيدة تربط بين الفرد والفرد مالا يربطه النسب والقرابة . فابن نوح لم يكن مؤمنا ، فليس إذن من أهله - هكذا جاء الرد فى قوة وتقرير وتوكيد ، وفيما يشبه التهديد : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

(١) قالت الخنساء فى وصف ناقة فقدت وكدها :

ترتع ماغفلت حتى إذا ذكرت فإنما هى إقبالٌ وإدبارٌ

أى ترعى مدة غفلتها عن ولدها ، فإذا تذكرته فإنها تلتفت تارة أمامها وتارة خلفها وتلهى عن الرعى ، فهى تروح وتجيء من غير أن ترعى حزنا على ولدها . فهى تقبل وتدبر ولا ترعى - أو هى نفس الإقبال والإدبار مبالغة . جاء ذلك الوصف فى معرض رثاء الخنساء لأخيها صخر .

﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي

عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ٥٦ - هود (١١)

« آخذ بناصيتها » : مالكتها وقاهر لها ، يصرفها كيف يشاء ويمنعها مما يشاء .

والأخذ : التناول بالقهر . والناصية : منبت الشعر فى مقدّم الرأس ، ويطلق على الشعر النابت نفسه . والكلام كناية أو مجاز عن القَهْر والغَلَبَة ، وإن لم يكن هناك أخذً بالناصية . والعرب إذا وصفوا إنسانا بالذلة والخضوع لغيره قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، أى أنه فى قبضته يصرفه كيف شاء . وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه ، جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره ، فخاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم .

لما بين لهم توكله على الله ورعايته وكلاءته ، وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم ، وأنه مالك للجميع ، وأن ناصية كل مخلوق يدب على الأرض بيده ، وفى قبضته وتحت قهره - وهو تمثيل لغاية التسخير .

والدابة : كل ما يدب على الأرض ، وكل ما فيه روح يقال له داب ودابة ، والهاء للمبالغة .

والتعبير صورة حسية للقهر والقدرة تناسب غلظة قوم هود وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، تلك الصلابة التى عرفوا بها .

« إن ربي على صراط مستقيم » الصراط فى اللغة المنهاج الواضح ، والمعنى أن الله جل ثناؤه ، وإن كان يقدر على كل شىء ، فإنه لا يأخذهم إلا بالحق - وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه . وقيل إن المعنى هو : لا خلل فى تدبيره ، ولا تفاوت فى خلقه سبحانه ، وستته لا تحيد - لا يفوته ظالم ولا يضيع من اعتصم به .

﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا

لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ ٦٠ - هود (١١)

« أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ » أى لا زالوا مبعدين من رحمة الله وهو دعاء عليهم بالهلاك ، والبعد : الهلاك ، البعد : التباعد من الخير . يقال : بَعُدَ بَعْدًا بِمَعْنَى هَلَكَ . وبعض العرب يقول فى المكان : بَعُدَ بِالضَّمِّ ، وفى الهلاك بَعُدَ بِالْكَسْرِ . قال الشاعر :

لا يبعدن قومى الذين هم سم العداة وآفة الجزر
وقال النابغة :

فلا تبعدن إن المنية منهل وكل امرىء يومابه الحال زائل
« أَلَا » : حرف تنبيه ، وتكراره مع تكرار لفظ «عاد» للمبالغة فى تفضيع حالهم ، والحث على الاعتبار بقصتهم .

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ٧٠- هود (١١)

أَوْجَسَ فَلَانٌ : وقع في نفسه الخوفُ . وأصله : الـوَجَسَ وهو الصوت الخفى ، يقال : أوجست الأذنُ أى سمعت حساً ، وأوجس القلبُ شيئاً : أحسَّ به أو خافه (١) . وقيل : أَوْجَسَ أَضْمَرَ .

« أوجس منهم خيفة » : أحس في نفسه منهم خوفاً وفرعاً . و « خيفة » مصدر خاف يخاف خوفاً ومخافةً وخيفةً .

« فلما رأى أيديهم لا تصل إليه » أى لا يدونها إليه (أى إلى العجل الحنيد (٢) الذى قدمه إبراهيم عليه السلام لأضيافه فى الآية السابقة) كما يد يده من يريد الأكل . « نكرهم » أى استنكرهم ونفر منهم إذ وجدهم على غير ما يعهد ؛ وكانت عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ، ظنوا أنه قد جاء بشرٌ ، ذلك أنهم كانوا يتحرجون من خيانة من أكلوا معه طعاماً ، فإذا امتنعوا عن طعام أحد فمعنى هذا أنهم ينوون به شراً .

(١) ومنه تَوَجَّسَ فلانٌ الأمرَ : أَوْجَسَهُ أى أحس به وخافه .

(٢) المشوى مطلقاً ، وقيل : المشوى بِحَرِّ الحِجَارَةِ من غير أن تمسه النار .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ

عَصِيبٌ ﴿ ٧٧ - هود (١١) ﴾

الذَّرْعُ فى الأصل: مصدر ذَرَعَ البعيرُ بيديه يذرَع ، إذا سار ماداً خطوه على قدر سعة خطوه، مأخوذ من الذراع ، وهو العضو المعروف ^(١) . فإذا حُمِّلَ عليه أكثر من طاقته قلت قدرته على مد ذراعه أثناء المشى ، ومن ثم تضيق مسافة خطوته أى ذَرْعُ الخطوة ، والذرع هو المقدار أو الطول . فجُعِلَ ضيقُ الذرع كناية عن نفاذ الوُسْعِ والطاقة ؛ فيقال : ضاق به ذرعا إذا لم يُطِقْه ولم يقدر عليه .

وجاء فى « معجم ألفاظ القرآن الكريم » : ضاق بالأمر ذرعا أى لم يُطِقْه ولم يَقْوِ عليه ، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع .

وقيل : أصل الذرع إنما هو بسط اليد ، فكأنك تريد : مددت يدي إليه فلم تنله .

خرجت الملائكة من عند سيدنا إبراهيم ، فأتوا لوطا عليه السلام وكانت المسافة بينهما أربعة فراسخ . أما رسل ربنا من الملائكة فكانوا على هيئة شبان حسان الوجوه ، ومن ثم كانت مساءة لوط وضيق ذرعه بهم لأنه حسب أنهم إنس ، فخاف عليهم خبت قومه وفسقهم ، خاصة وأنه يعجز عن مقاومة هؤلاء الفسقة ودفع أذاهم عن أضيافه .

« يوم عصيب » أى شديد فى الشر . عَصَبَهُ : شدّه .

(١) الذَّرْعُ من الحيوان : اليد . ومن الإنسان : من المرفق إلى أطراف الأصابع . ولفظة الذراع مؤنثة .

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ﴿ ٢٧٦ ﴾

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا

تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴾ ﴿ ٨٥ - هود (١١)

بَخَسَهُ حَقَّهُ يَبْخَسُهُ بَخْسًا : نَقَصَهُ . والبخس : الهضم والنقص .

قال زهير :

أفى كل أسواق العراق إتاوة وفى كل ماباع أمرؤُ بخص درهم

كان أهل العراق يأخذون من كل شيء يباع فى أسواقهم شيئاً ، كما يفعل السماسرة .
وبخص درهم أى نقص درهم ، فقال زهير : لا ينبغي ذلك . الاستفهام للتعجب أو للتوبيخ .
والإتاوة : الرشوة .

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم » أى لا تنقصوهم مما استحقوه شيئاً . كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك . لكن التعبير عام ، فهو ينهاهم عن أن ينقصوا الناس حقوقهم فى جميع أمورهم حسية كانت أو معنوية . فالتعبير يعنى حُسن تقويم أشياء الناس من كل نوع : تقويمها كيلاً أو وزناً أو سعراً أو تقديراً ، وتقويمها مادياً ومعنوياً ؛ وقد تدخل فى ذلك الأعمال والصفات لأن « شىء » تطلق أحياناً ويراد بها غير المحسوسات .

وبخسُ الناس أشياءهم إنما هو ظلم يُشيع فى نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم والحقد أو اليأس من العدل . وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر . وفى الحديث عن النبى ﷺ : « ما أظهر قوم البخس فى المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقط والغلاء » .

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ ﴾

شديد ﴿ ١٠٢ - هود (١١)

أَخَذَ يَأْخُذُ أَخْذًا : تناول، وقد يراد بها معانٍ أخرى غير ذلك . ومن تلك المعاني الأخرى : أخذ بمعنى أهلك وبمعنى عاقبَ، وهو المراد في هذا التعبير .
أَخْذُ الْقُرَى : إهلاكها وعقابها .

« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة » أى كما أخذ وعاقب هذه القرى التي كانت لنوح وعاد وثمود (والتي ورد الحديث عنها فى الآيات السابقة) فإنه يأخذ جميع القرى الظالمة ويعاقبها .

« وهي ظالمة » : حال من القرى ، أى وأهلها ظالمون ، فحذف المضاف مثل : « واسأل القرية » . فربك حين يأخذ القرى الظالمة يأخذها بمثل هذا الدمار والنكال . « كذلك » تشبيهه و « وإذا » للمستقبل . وإنما يكون ظلم القرى بشركها حين تدين لغير الله بالربوبية ، وحين تكون ظالمة لنفسها بالشرك والفساد فى الأرض والإعراض عن دعوة التوحيد والإخلاص .

« إن أخذه أليم شديد » أى عقوبته موجعة صعبة على أهل الشرك وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم ، وفى صحيح مسلم والترمذى من حديث أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى يُملى للظالم ^(١) حتى إذا أخذه لم يُفلته » ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية .

(١) أملى الله له ، وأملى له فى غيِّه : أطال له وأمهله .

﴿ وَلَا تَرْكُونُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ

اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ ١١٣- هود (١١)

رَكَنَ إِلَيْهِ يَرْكُنُ رُكْنًا وَرُكُونًا: مال إليه وسكن . وركن إليه : اعتمد عليه .

فسر الأئمة من رواة اللغة الركون بأنه مطلق الميل والسكون من غير تقييد . أما الزمخشري فقال إن الركون هو الميل اليسير . وقال القرطبي : الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به . ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه اللغوي ، فروى عن قتادة وعكرمة في تفسير الآية أن معناها : لا تودوهم ولا تطيعوهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الركون هنا الإدهان ، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم . والآية عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، وهذا هو ظاهر الآية ؛ قال الشوكاني : ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وصحبة الظالم على التَّقِيَّةِ^(١) مستثناة من النهي في حال الاضطرار ، مع حرمة الميل القلبي له ، قاله حسنين مخلوف .

« فتمسكم النار » بسبب الركون إليهم ، فيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار .

قال القرطبي : الآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ، فإن صحبتهم كفر أو معصية ، إذا الصحبة لا تكون إلا عن مودة ، وقد قال حكيم :

عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قَرِينِه
فكُلُّ قَرِينٍ بِالمِقَارِنِ يَقتَدِي

وقال أزمخشري : والنهي متناول للانحطاط في هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزوي بزيتهم ، ومد العين إلى زهرتهم ، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم .

وجاء في « التفسير الوسيط » : والمراد بالظالمين الكافرون ، أو كل ظالم ولو كان مسلماً . والمراد بالركون إليهم : محبتهم والاعتماد عليهم ، والأخذ بمشورتهم . وقد نهى الله في الآية عن الركون إليهم وتوعد عليه بالنار . فما ظنك بمن يشاركهم في عاداتهم ويدم معاشرتهم ، ويتزيا بزيتهم تقليدا لهم ، ويعاونهم على ظلمهم ، لا شك أن عذابه يكون أشد وأعظم . ولهذا تعتبر الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والوعيد عليه .

(١) التَّقِيَّةُ : عند بعض الفرق الإسلامية إخفاء الحق ومصانعة الناس في غير دولتهم تحرزا من التلف . (مادة وقى) .

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ

ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ ١١٤ - هود (١١)

« إن الحسنات يذهبن السيئات » : إن الأعمال الحسنة - كالصلاة والصدقة والاستغفار ونحوها من أعمال البر ، وكالعزم على اجتناب الكبيرة - يكفرن السيئات ويذهبن المؤاخذة عليها . والمراد بالسيئات : الذنوب الصغائر ، لأن الكبائر تكفرها التوبة .

« وأقم الصلاة » أى أذ الصلاة المكتوبة مستوفية أركانها وفى أوقاتها فى طرفى النهار (أوله وآخره) . وطرفا النهار هما الغداة (وهى ما بين الفجر وطلوع الشمس وصلاتها : الصبح) والعشى (وهو من الزوال أى منتصف النهار إلى الغروب وصلاتها : الظهر والعصر) .

« وزلْفًا من الليل » أى فى زلف من الليل ، وهى ساعاته القريبة من آخر النهار . فزُلْفٌ جمع زُلْفَةٍ من أزلفه إذا قربه ، وازدلف إليه تقرب إليه . وصلاة الزلف المغرب والعشاء . وقرىء زُلْفَى بوزن قُربى والقربى هى القربة أى ما يقرب من آخر النهار من الليل .

ولهذا قال : « إن الحسنات يذهبن السيئات » ، فى الحديث : « إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر » أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة . وهذا معناه تكفير الصغائر بالطاعات . وقيل فى معنى التعبير إن الحسنات تساعد على ترك السيئات ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ ٤٥ - العنكبوت .

وجاء فى « التفسير الوسيط » : إن ما جاء فى هذا التعبير إنما هو تعليل للأمر السابق بأداء الصلاة ، يشير إلى أن الحسنات وعلى رأسها الصلاة تكفر السيئات وتذهب الآثام . فإذا حدث من المؤمن انحراف عن الاستقامة ، أو ميل إلى الطغيان أو جنوح إلى الظالمين ، وذكر المؤمن ربه وتاب وأناب ، وفرغ إلى الصلاة ، غفر الله له ما ارتكبه من آثام فإن الصلاة كما تنهى عن الفحشاء والمنكر تطهر النفوس من الأدران والأوشاب . أخرج البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا ، ما تقول : يُبْقَى ذلك من ذرّته ؟ قالوا لا يبقى من ذرته شيئا ، قال فذلك مثل الصلوات الخمس يححو الله بها الخطايا » .

وجاء فى سبب نزولها مارواه الترمذى عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إني عاجلت امرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها ما دون أن أمسّها وأنا هذا فاقض فىّ ما

شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله ! لو سترت على نفسك ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئا ، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلا فدعاه ، فتلا عليه : « أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » ، فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : « لا بل للناس كافة » . وخرج الترمذي أيضا عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبله حرام فأتى النبي ﷺ عن كفارتها فنزلت : « أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات » فقال الرجل : ألي هذه يارسول الله ؟ فقال : « لك ولمن عمل بها من أمتي » .

كلمة عن قوله ﷺ : « صلوا كما رأيتموني أصلى » الذي ورد في صحيح البخارى . ذكر الله سبحانه في القرآن الكريم الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها ، وهذا كله مجمل في القرآن ، وأحال - سبحانه - على نبيه ليبينه للناس ، فقال جل ذكره : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » من الآية ٤٤ من سورة النحل . فبين النبي ﷺ مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات والسجودات ، وصفة جميع الصلوات فرضها وسنتها ، وما لا تصح الصلاة إلا به من الفرائض ، وما يستحب فيها من السنن والفضائل . ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة ، على ما هو معلوم . ولم يميت النبي ﷺ حتى بين جميع ما بالناس الحاجة إليه ، فأكمل الدين ، وأوضح السبيل ، قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ . من الآية الثالثة من سورة المائدة .

وكلمة عن الصلاة كزاد للاستقامة على الطريق . إن الاستقامة أمر شاق يحتاج إلى زاد يعين ، والله يرشد رسوله ومن معه من المؤمنين إلى زاد الطريق : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل » . ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذى يبقى ، والذى يقيم البنية الروحية ، والذى يمسك القلوب على الحق الشاق التكاليف - ذلك أنه يصل هذه القلوب بربها الرحيم الودود ، القريب المجيب ، وينسم عليها نسمة الأنس فى وحشتها وعزلتها فى تلك الجاهلية .

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ اِنَّا عَامِلُونَ ﴾

١٢١- هود (١١)

قال الزمخشري في شرح « اعملوا على مكانتكم » أى : على حالكم وجهتكم التى أنتم عليها . وقال حسنين مخلوف موضحا : اعملوا على حالتكم التى أنتم عليها وهى الكفر . والأمر للتهديد .

وجاء فى « لسان العرب » : « اعملوا على مكانتكم » أى على حالكم وناحياتكم ؛ وقيل : معناه أى على ما أنتم عليه مستمكنون .

وقال ابن كثير : يقول تعالى أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد « اعملوا على مكانتكم » أى على طريقتكم ومنهجكم « انا عاملون » على طريقتنا ومنهجنا « وانتظروا انا منتظرون » أى « فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون » .

فالذين لا يؤمنون بعد ما ساقته السورة من قصص الرسل ، ومن سنن الله ، ومن تصديق البشرى والوعيد ، هؤلاء لا موعظة لهم ولا ذكرى ؛ وإنما قل لهم يا محمد ، كما قال أخ لك ممن سبق قصصهم فى هذه السورة لقومه ثم تركهم لمصيرهم يلاقونه ، وهو النبى شعيب عليه السلام حيث قال لقومه فى الآية ٩٣ : ﴿ وياقوم اعملوا على مكانتكم ابنى عامل سوف تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا ابنى معكم رقيب ﴾ .

(١) التعبير موجود كذلك فى الآية ٩٣ من هذه السورة وفى ١٣٥- الأنعام .

﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ ﴾



﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ

قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ ٩- يوسف (١٢)

« يخل لكم وجه أبيكم »: يفرغ لكم من الشغل بيوسف (من ؛ خلا المكان يخلو خلواً وخلاءً : فرغ) فيقبل عليكم لا يلتفت عنكم إلى غيركم . فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه . ويجوز أن يراد بالوجه الذات ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقِيْ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ الآية ٢٧ - الرحمن .

والمراد : أن تخلص محبة أبيهم لهم فلا يشاركونهم فيها أحد .

« اطرحوه أرضاً » : ألقوه في أرض بعيدة عن العمران ، مجهولة ولهذا جاءت نكرة خالية من الوصف ، ولإبهامها نصبت نصب الظروف المبهمة .

« من بعده » : الضمير يرجع إلى مصدر : اقتلوا أو اطرحوا .

« قوما صالحين » : تصلح دنياكم وتتنظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم .

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرًا

جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ١٨ - يوسف (١٢)

سَوَّلَ لَهُ الشَّرُّ : حَبِبه إِلَيْه وسهله له وَأغراه به . يقال : سَوَّلْتَ لَهُ نَفْسَهُ كَذَا ، وَسَوَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ كَذَا ، وَهَذَا مِنْ تَسْوِيلَاتِ الشَّيْطَانِ .

« أَمْراً » أى أَمْراً عَظِيماً فى يوسُف فعلتموه ، وهونته أَنْفُسُكُمْ فى أعينكم . قال الزمخشري : استدل على فعلهم بيوسف بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص . روى أن يعقوب لما سمع بخبر يوسف ، صاح بأعلى صوته وقال : أين القميص ؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خَضِبَ وَجْهَهُ بِدَمِ الْقَمِيصِ وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذنباً أحلم من هذا ، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه (١) ! .

« بدم كذب » أى ذى كذب ؛ أو وُصِفَ الدَّمُ بِالمصدرِ مبالغةً ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذب : هو الكذب بعينه (٢) . روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها ، وفاتهم أن يمزقوه . وقرئ : كذباً ، نصباً على الحال ، بمعنى جاءوا به كاذبين .

« فصبر جميل » : خبر أى فصبرى صبر جميل ، أو هو مبتدأ أى فصبر جميل أمثل - جاء فى الحديث المرفوع أن الصبر الجميل هو الذى « لا شكوى فيه إلى الخلق » .

« والله المستعان على ما تصفون » أى استعينه على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه .

(١) قيل : كان فى قميص يوسف ثلاث آيات : كان دليلاً ليعقوب على كذبهم ، وألقاه على وجهه فارتد

بصيرا ، ودليلاً على براءة يوسف حين قُد من دُبر .

(٢) ونحوه : فَهَنَ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلٌ .

﴿ ٢٨٣ ﴾ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴿﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ

نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ﴿ ٢١ - يوسف (١٢)

ثَوَى الْمَكَانَ وَبِالْمَكْنِ يَثْوَى ثَوَاءً : أقام به على استقرار وطول لبث فهو ثاو .
والمَثْوَى مصدر « ثوى » أى الإقامة والاستقرار ، أو اسم مكان ، ويكون المعنى : اجعلنى
مكان إقامته كريماً مرضياً .

« أكرامى مثواه » أى : منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن . فالمقصود بإكرام مثواه
إكرامه ، ولكن التعبير أعمق ، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ، ولكن لمكان إقامته ،
وهى مبالغة فى الإكرام .

« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » : يكشف الرجل لامرأته عما يتوسمه فى الغلام من خير ،
وما يتطلع إليه فيه من أمل .

﴿ ٢٨٤ ﴾ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴿﴾

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ

غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ٢١ - يوسف (١٢)

غَلَبَهُ يَغْلِبُهُ غَلَبًا وَغَلَبَةً : فَهَرَهُ . ويقال : غَلَبَ عَلَيْهِ .

« والله غالب على أمره » أى غالب على أى أمر يريد ، فيحققه . لا يدفعه عنه أحد ، فإنه
إذا أراد أمراً فإمّا يقول له : كن فيكون ، ويدخل فى أمره شئون يوسف عليه السلام .

وقال ابن كثير : إذا أراد شيئاً فلا يُرَدُّ ولا يُمانع ولا يُخالف ، بل هو الغالب لما سواه . وقال
سعيد بن جبيرة : فعال لما يشاء .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن
بالقدر .

وقالت الحكماء : « والله غالب على أمره » حيث أمر يعقوبُ يوسفَ ألا يقص رؤياه على
إخوته فغلب أمر الله حتى قص ؛ ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملكاً وسجدوا
بين يديه ؛ ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم وينفردوا بحب الأب بعد التخلص من
يوسف فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

٢٢- يوسف (١٢)

شَدَّ الشَّيْءُ يُشَدُّ شِدَّةً : قَوِيٌّ وَمُتَّنٌ . وَشَدَّدَ الشَّيْءَ : قَوَّاهُ وَأَحْكَمَهُ .

الأشدُّ : الاكتمال . يقال : بَلِّغْ أَشَدَّهُ : اكتمل وبلغ قُوَّتَهُ .

أشده : عند سبويه جمع شدة أى قوة . وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب ، ومعناه استكمال القوة .

وقال مجاهد وقتادة : الأشدُّ ثلاث وثلاثون سنة .

« بَلِّغْ أَشَدَّهُ » : استكمل قوته الجسدية والعقلية .

معنى الآية : ولما بلغ يوسف منتهى قواه الجسدية والعقلية ، وأصبح أهلاً لتحمل أعباء الحياة والحكم بين الناس فى قضاياهم المختلفة ، وتوجيههم إلى الخير والهدى ، آتيناها حكمة فى القول وإصابة فى الحكم ، وعلمنا عزيزاً وبصراً بالأمر .

﴿ وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾

٢٣- يوسف (١٢)

رَأَدَ يَرُودُ رَوْدًا : تَرَدَّدَ بَرَفَقًا (٢) .

راوده عن الشيء : جهد فى طلبه منه ، وَعُدَى بَعَنَ لَمَّا فِيهِ مِنَ الْمَخَادَعَةِ . ومن هذا يقال : راود المرأة عن نفسها وراودته المرأة عن نفسه فى طلب الجماع من المتأبى ، كأنما يخدعه عن نفسه التى تأبى الاستسلام لما يراد .

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه » : هى امرأة العزيز دعتة إلى نفسها وطلبت منه أن يواقعها . وذلك أنها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه ، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعتة إلى نفسها .

(١) ورد التعبير فى مواضع عديدة : ١٥٢- الأنعام ، ٣٤- الإسراء ، ١٤- القصص ، ١٥- الأحقاف ، ٨٢- الكهف .

(٢) وَيُصَغَّرُ الرَّوْدُ عَلَى رُوَيْدٍ ، وَيُقَالُ : رُوَيْدًا يَا هَذَا ، أَيْ : رَفَقًا وَمَهْلًا وَلَا تَعْجَلْ .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

﴿ وَرَأَوْدَتُهُ أَلْتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنِ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿﴾

٢٣ - يوسف (١٢)

هَيْتَ بِهِ : صَوَّتْ بِهِ وَصَاحَ وَدَعَا .

هَيْتَ : كَلِمَةٌ تَعْجَبُ .

هَيْتَ لَكَ (بفتح الهاء وكسرهما) : اسم فعل بمعنى : هَلُمَّ ، أى تعال وأقبل ، يدل على الحث على الشيء . يستوى فيه الواحد والجمع والمؤنث والمذكر ، إلا أن العدد والتذكير والتأنيث يظهر فى لك ، فتقول : هيت لكما ، وهيت لكم ، وهيت لكن .

وقرى : هئت بمعنى تهيأت . يقال : هاء يهئ ، مثل جاء يهيج إذا تهيأ .

وقيل : هيت لفظة معربة ، أو من الألفاظ التى اتفقت فيها اللغات .

« قال معاذ الله » : معاذٌ منصوب على المصدر بفعل محذوف ، تقديره أعوذ بالله معاذاً مما

تريدون منى ! أى أعتصم بالله وأستجير به ، وألتجئ إليه فى دفع ذلك عنى .

« إنه ربي أحسن مثواي » : الضمير يعود على الذى اشتراه وربى أى سيدى ومالكى الذى

قال لامراته : أكرمى مثوى يوسف ، ولهذا يقول يوسف : ما يكون جزاؤه - بعد أن أحسن

مثواى - أن أخلفه فى أهله سوء الخلافة وأن أخونه .



﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾

إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿ ٣٠ - يوسف (١٢)

« شغفها حبا » : أصاب حُبُّها له (أحرق أو خرق حبيها) شَغَفَ قلبها والشَّغَافُ : حجاب القلب وغلافه الذي هو فيه (١) .

« حُبًّا » : تمييزٌ مُحَوَّلٌ عن الفاعل ، والأصلُ : شغفها حُبِّها إياه .

وقرئ : شعفها ، بالعين ، من شعف البعير إذا هناه أي أحرقه بالقطران المغلى على النار (٢) .

(١) قال النابغة يعتذر إلى النعمان ملك العرب عما قذفه به الواشون : وقد حالَ همٌّ دون ذلك والحُجُّ مكانَ الشغاف تبغيه الأصابعُ . فالهَمُّ ، الذي هو وعيد النعمان وتهديده له بسبب وشاية الواشين ، حالَ دون التغزل في المحبوبة وغير ذلك من اللذات ، وولج أي دخل إلى شغاف القلب . وشبه الهم بمحسوس وبالغ في ذلك حتى ادعى أن الأصابع تفتش عليه فلا تجده لشدة ولوجه وكمونه في القلب .

(٢) قال امرؤ القيس :

أقتلنى وقد شعفتُ فؤادها كما شعفَ المهنوءة الرجلُ الطالِي
الاستفهام للاستنكار أو للتعجب . والمهنوءة : الناقة التي أحرقت بالقطران الذي يغلى . فأطلق الشعف وأريد منه مطلق الإحراق ، ثم أريد منه الإحراق بالعشق مجازا .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا

مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ٣١ - يوسف (١٢)

حاشا من القوم فلاناً : استثناء .

حاش لله : براءة لله ومعاذاً ، ويقال : حاشى لله . و « حاش » فعل ماض ، واللام في « لله » للتعليل . ويكون معنى « حاش لله ما هذا بشرا » . معاذ الله أن يكون هذا بشرا .

وقيل : حاش اسم فعل بمعنى برئ الله من كل سوء ؛ أو تنزيها لله سبحانه عن صفات التقصير والعجز عن خلق مثله ، وفيه معنى التعجب من قدرته تعالى على خلق مثل هذا الصنيع البديع .

وقال الزمخشري في تفسير هذا التعبير : المعنى تنزيه الله تعالى من صفات العجز ، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله إذ نفى عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه ، فقلن « ما هذا بشرا » .

ونقل القرطبي عن الزجاج قوله : وأصل الكلمة من الحاشية ، والحشا بمعنى الناحية ، تقول : كنت في حشا فلان أى في ناحيته ، فقولك : حاشا لزيد أى تنحى زيد من هذا وتباعد عنه ، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين .

﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٤٠ - يوسف (١٢)

السلطان : القهر والغلبة ، ويستعمل فى الحججة والبرهان . وهو فى القرآن أكثر استعمالاً فى الحججة والبرهان .

« ما أنزل الله بها من سلطان » أى ما أنزل الله بألوهيتها من حجة تصحح ألوهيتها وتسوغ عبادتها .

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشئة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه . ثم قال تعالى : « ذلك الدين القيم » أى هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذى أمر الله به ، وأنزل به الحججة والبرهان الذى يحبه ويرضاه .

إن توحيد الألوهية ، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد الجهة التى يدين لها الناس الدينونة الشاملة - هذا التوحيد هو الذى استحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل من آدم إلى محمد عليهما السلام . ولم يكن ذلك لأن الله - سبحانه - فى حاجة إليه ، فالله - سبحانه - غنى عن العالمين ، ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع إلا بهذا التوحيد الذى لا حد لتأثيره فى الحياة البشرية فى كل جوانبها .

إنه لا بد من عبودية ! فإن لا تكن لله وحده تكن لغير الله - والعبودية لله وحده تطلق الناس أحراراً كراماً شرفاء أعلياء . والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحررياتهم وفضائلهم ، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية فى النهاية .

﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾

٤٤ - يوسف (١٢)

أضعات : جمع ضعت . والضغت : كل ما جمع . ويقال : أتانا بأضعات من الأخبار
أى بضروب مختلطة منها .

والضغت : التباس الشيء بالشيء .

وأضغاث الأحلام : ما كان منها ملتبسا مضطربا يصعب تأويله لأنها يدخل بعضها فى
بعض .

والعرف الغالب هو إطلاق الأحلام على الكاذب منها ، والرؤى على الصادق منها ،
ولهذا قالوا أخلاط أحلام ، يريدون أنها ليست من الأحلام الواضحة التى يمكن تأويلها
ويصدق مدلولها .

﴿ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾

﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

الصَّادِقِينَ ﴾ ٥٣ - يوسف (١٢)

حَصْحَصَ الْحَقُّ : وضح وتبين بعد خفائه .

قال مجاهد وقتادة : أصله مأخوذ من قولهم : حصَّ شعرة إذا استأصل قطعته ، ومنه
الحصاة من الأرض إذا قطعت منها . ولذا قيل فى معنى « حصحص الحق » : انقطع عن
الباطل بظهوره وثباته .

﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾

﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴾ ٥٣ - يوسف (١٢)

الأمارة : صيغة مبالغة من أمر ، ومعناها : كثيرة الأمر .

« إن النفس لأمارة بالسوء » تأمر به وتحمل عليه بما فيه من الشهوات . وفي الخبر عن النبي ﷺ أنه قال : « ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية ، وإن أهتمتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية » قالوا : يا رسول الله ! هذا شر صاحب في الأرض . قال : « فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم » .

« إلا ما رحم ربي » ما بمعنى من ، أي إلا من رحم ربي فعصمه . وهو استثناء منقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء .

﴿ جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ ﴾

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾

٥٩ - يوسف (١٢)

جَهَّازُ المسافر والعروس والجيش ونحوهم : هو ما يحتاجون إليه في قصدهم .

يقال : جَهَّزْتُهُ بِجَهَّازِهِ أي أعددت له ما يحتاج إليه .

والجهاز في هذه الآية الطعام الذي امتازوه من عنده أي ابتاعوه . وهو من الحب الذي كان يوسف قد استبقاه في سنابله لزمان المجاعة .

ويبدو أنه جرى من الحديث بينه وبينهم ما جعلهم يصرحون بأن لهم أخا من أبيهم لم يحضروه معهم ، حتى يكون مجرى الحديث هو الذي حمل يوسف ظاهرا على أن يطلبه بالذات .

﴿ قَالُوا سَنَرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ٦١ - يوسف (١٢)

رَاوَدَهُ عَلَى الشَّيْءِ يَرَاوِدُهُ مُرَاوِدَةٌ وَرَوَادًا : طلبه منه وحاول أن يفعله . ويقال : راوده عن الشيء أى جهد فى طلبه منه ، وعُدَى بَعَنَ لَمَّا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْمَخَادَعَةِ .

« سَنَرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ » : سنحاول مع أبيه يعقوب ونحتال فى أخذه منه ونجتهد فى ذلك - يشيرون بذلك إلى عِزَّةِ الْمَطْلَبِ وصعوبة مناله . وقال ابن كثير : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا ، فلنلفظ « نراود » يصور الجهد الذى يعلمون أنهم باذلوه .
« وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » ذلك لا محالة ، لا نفرط فيه ولا نتوانى عنه .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ

﴿ بِكُمْ ﴾ ٦٦ - يوسف (١٢)

الإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ : الإِحْدَاقُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ .

أَحِيطَ بِهِ : حُصِرَ وَمِنَعَ سَبِيلَ النِّجَاةِ .

وَأَحِيطَ بِهِ : أَهْلَكَ .

« إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ » : إِلَّا أَنْ تُحْصِرُوا وَتُمْنَعُوا سَبِيلَ النِّجَاةِ ، أَوْ : إِلَّا أَنْ تَغْلِبُوا فَلَمْ تَطِيقُوا الإِتْيَانَ بِهِ . وقال ابن كثير : إِلَّا أَنْ تَغْلِبُوا كَلِمَكُمْ وَلَا تَقْدِرُونَ عَلَى تَخْلِيصِهِ . وكلمة « يُحَاطَ بِكُمْ » كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم .

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨ - يوسف (١٢)﴾

« حاجة في نفس يعقوب قضاها » : قيل هي دفع إصابة العين . وما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم ، أى من أبواب متفرقة ، يدفع عنهم من أمر الله شيئا مما قضاه عليهم ، ولكن قضى حاجة في نفس يعقوب بدخول أبنائه من أبواب متفرقة حسب إرادته ، لعله يدفع عنهم إصابة العين ، وذلك من باب ربطه المسببات بأسبابها العادية كما جربه الناس .

« وإنه لذو علم لما علمناه » : هو على علم بأن إرادة الله نافذة ، فقد علمه الله هذا فهو لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر ، ولهذا قال لهم : « وما أغنى عنكم من الله من شيء » أى وما أدفع عنكم بهذا التدبير من شيء قضاه الله . وإنما يحذر الناس ويدبرون لعل تدبيرهم يرتبط بقضاء الله وقدره - فاتخاذ الأسباب مشروع لهذا .

وقال صاحب الظلال : لو كان السياق يجب أن يكشف عن السبب لقال . ولكنه قال فقط « إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها » . . . فالجو يوحى بأنه كان يخشى شيئا عليهم ، ويرى فى دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشيء مع تسليمه بأنه لا يغنى عنهم من الله من شيء . فالحكم كله إليه ، والاعتماد كله عليه - إنما هو خاطر شعربه ، وحاجة فى نفسه قضاها بالوصية ، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة . فقد علمه الله هذا فتعلم .

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾

٧٩ - يوسف (١٢)

« مَعَاذَ اللَّهِ » : المَعَاذُ والعياذُ والِعَوْذُ بمعنى اللتجاء ، ولقد يقصد منها التبرؤ كما في هذه الآية ، فمعاذ الله هنا بمعنى : نبرأ إلى الله . قال يوسف لإخوته الذين لم يكشفوا شخصيته : نعوذ بالله ونبرأ إليه من أن نأخذ أحدا غير الذي وجدنا صواعنا (١) عنده .

والفعل عَاذَ به يَعوُذُ عَوْذًا وِعِيَاذًا : التجأ إليه واعتصم به .

وقد ورد التعبير قبل ذلك في هذه السورة في الآية ٢٣ : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله . . . » أي أستجير بالله وأعتصم به مما تدعينني إليه .

﴿ فَلَمَّا اسْتِيسَأُوا مِنْهُ خَلَّصُوا نَجِيًّا ﴾ ٨٠ - يوسف (١٢)

نَجَا فَلَانًا نَجَوًا وَنَجَوَى : أَسْرًا إِلَيْهِ الْحَدِيثُ .

وَالنَّجَىُّ : المُنَاجَى ، كالعشير والسمير بمعنى : المعاشر والمسامر . والنجى أيضا يكون بمعنى المصدر الذى هو التناجى .

ولهذا قال القرطبي : « نَجِيًّا » نصب على الحال من المضمر فى « خلصوا » . فنجيا هنا بمعنى مُتَسَارِّينَ . وخلصوا : انفردوا .

« خلصوا نجيا » : انفردوا بأنفسهم يتناجون ويتشاورون سرا .

والفعل خَلَّصَ من القوم يَخْلُصُ خُلُوصًا وَخِلَاصًا : اعتزلهم وانفصل عنهم .

(١) الصُّوَاعُ : السَّقَايَةُ ، والسَّقَايَةُ : الإِنَاءُ يُسْقَى بِهِ . وَسِقَايَةُ الْحَاجِّ : سَقِيهِمُ الْمَاءَ يُنَبِّذُ فِيهِ الزَّبِيبَ ، وَكَانَتْ مِنْ مَائِثِ قَرِيشٍ .

﴿ فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ﴾

﴿ يَا بَنِي آدَهْبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا

يَيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ٨٧ - يوسف (١٢)

تَحَسَّسَ الْخَبِيرَ : تَطَلَّبَ مَعْرِفَتَهُ . وَيُقَالُ : تَحَسَّسَ مِنَ الْقَوْمِ : تَتَّبَعَ أَخْبَارَهُمْ (١) .
والتحسس : طلب معرفة الشيء بالحواس والتحسس يكون في الخير ، والتجسس في الشر .
يقول تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام إنه ندب بنيه أي دعاهم وحثهم على الذهاب
في الأرض يتلمسون يوسف (٢) وأخاه بنيامين ويستعلمون أخبارهما - كل ذلك في لطف
وبصر وصبر على البحث ، ودون يأس من الله وفرجه ورحمته . وكلمة « روح » أدق دلالة وأكثر
شفافية ، ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخائق بما ينسم على الأرواح من روح الله الندى .

﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّقٍ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ قَالُوا أَأَتْنِكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ

مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٩٠ - يوسف (١٢)

اتَّقَاهُ : تَحَفَّظَ مِنْهُ وَتَصَوَّنَ وَعَمَلَ عَلَى أَلَّا يَصِيبَهُ ضَرَرٌ مِنْهُ (٣) . وَمِنْ ذَلِكَ اتَّقَاءُ اللَّهِ ، فَهُوَ
تَجَنُّبُ عَذَابِهِ ، وَذَلِكَ بِالْعَمَلِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَالِانْتِهَاءُ عَمَّا نَهَى عَنْهُ . وَقَدْ اشْتَهَرَ هَذَا الْمَعْنَى فِي
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِي لِسَانِ الشَّرْعِ حَتَّى صَارَ هُوَ الْمُرَادُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ .
« يصبر » أى على المصائب وعن المعاصي .

« فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَهُمْ وَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِالْمُحْسِنِينَ ،
لِيشِيرَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ أَهْلَ التَّقْوَى وَالصَّبْرِ هُمُ أَهْلُ الْإِحْسَانِ ، وَهُمْ الْأَحْقَاءُ بِجِزَاءِ اللَّهِ الْعَظِيمِ
وَإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ جِزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ ٦٠ -
الرحمن ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٥٦ - الأعراف .
قرأ ابن كثير « إنه من يتقى » بإثبات الياء ، والقراءة به جائزة على أن تجعل « من » بمعنى
الذى ، وتدخل « يتقى » فى الصلة ، فتثبت الياء فى « يتقى » وترفع « ويصبر » . ويجوز
الجزم ، كما فى المصحف على أساس أن « من » للشرط فتجزم فعل الشرط « يتقى » والمعطوف
عليه « يصبر » .

(١) تحسس للقوم : سعى فى جمع الأخبار والأحاديث لهم .

(٢) قال القرطبي : هذا يدل على أن يعقوب كان موقنا أن يوسف مازال حيا ، إما بالرؤيا وإما بإخبار ملك
الموت إياه بأنه لم يقبض روحه .

(٣) اتقى الشيء : استقبله وجعل بينه وبينه حاجزا . تقول : اتقى الفارس السيف بالترس . انظر : معجم
ألفاظ القرآن الكريم ، مادة : وفى .

﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ ﴾

﴿ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

٩٢ - يوسف (١٢)

ثَرَّبَ فلاناً وَثَرَّبَ عليه تَثْرِباً : لَامَهُ وَعَيَّرَهُ بِذَنْبِهِ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : ثَرَّبْتُ عَلَيْهِ وَعَرَّبْتُ عَلَيْهِ بِمَعْنَى إِذَا قَبَحْتَ عَلَيْهِ فَعَلَهُ . وَالتَّثْرِبُ : التَّعْيِيرُ وَالتَّوْبِيخُ .

« لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ » أَي لَا تَعْيِيرُ وَلَا تَوْبِيخُ وَلَا لَوْمٌ عَلَيْكُمْ قَالَهُ سَفِيانُ الثَّوْرِيُّ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الْمَعْنَى لَا إِفْسَادَ لِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْحَرَمَةِ وَحَقِّ الْأَخْوَةِ ، وَلَكُمْ عِنْدِي الْعَفْوُ وَالصَّفْحُ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابَ (١) يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَقَدْ لاذَ النَّاسُ بِالْبَيْتِ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَّقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحَدَّه » ثُمَّ قَالَ :

« مَاذَا تَظُنُّونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ » قَالُوا : « خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، وَقَدْ قَدَّرْتَ ، قَالَ : « وَأَنَا أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ : لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ » ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فَفَضَّتْ عِرْقًا مِنَ الْحَيَاءِ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَهُمْ حِينَ دَخَلْتُ مَكَّةَ : الْيَوْمَ نَنْتَقِمُ مِنْكُمْ وَنَفْعَلُ ، فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ قَوْلِي .

(١) عضاداتا الباب : خشبتان منصوبتان مثبتتان على جانبي الحائط .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

بَلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢ - الرعد (١٣)

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ : يُصَرِّفُ الْعَوَالِمَ كُلَّهَا بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ .

دَبَّرَ الْأَمْرَ تَدْبِيرًا : نَظَرَ فِي عَوَاقِبِهِ وَأَدْبَارِهِ (جَمَعَ دَبَّرٌ وَهُوَ الْعَاقِبَةُ) لِيَقَعَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَحْمُودِ مِنْهُ فَيَتَصَرَّفُ التَّصَرُّفَ الْحَكِيمَ .
والأمر : الحال والشأن .

فإنه يقدر الأمور بمقتضى حكمته ، ويجريها طبقا لسنة الكونية فى أرضه وسماؤه ، فهو سبحانه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وغير ذلك من شئونه وأموره فى سماواته وأرضه - تلك الشئون التى تحير العقول والألباب ولا تدخل تحت حصر . وصدق الله تعالى إذ يقول فى الآية ٢٩ من سورة الرحمن : « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن » ، فجميع الخلائق من أهل السموات وأهل الأرض مفتقرون إليه ، محتاجون إليه : يسألونه من فضله ، فهو مناط السؤال ومظنة الجواب . « كل يوم هو فى شأن » : فى كل وقت وحين يحدث أمورا ويجدد أحوالا ؛ روى ابن جرير عن عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : « كل يوم هو فى شأن » فقلنا يا رسول الله وما ذاك الشأن ؟ فقال : « أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين » أخرج هذا الحديث أيضا ابن ماجه وابن حبان والطبرانى والبزار من حديث أبي الدرداء . وقال الأعمش عن مجاهد : من شأنه أن يجيب داعيا أو يعطى سائلا أو يفك عانيا أو يشفى سقيما . وقال قتادة : لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض ، يحيى حيا ويميت ميتا ، ويربى صغيرا ويفك أسيرا ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصرىخهم ومنتهى شكواهم .

هذا الوجود الذى لا تُعرف له حدود قائمٌ بتدبيره - سبحانه . وتدبيره يتناول الوجود كله جملة ، ويتناول كل فرد فيه على حدة ؛ ويعطى كل شىء خلقه ، كما يعطيه وظيفته ، ثم يلحظه وهو يؤدى وظيفته . وهذا التدبير يتبع ما ينبت وما يسقط من ورقة ، وما يكمن من حبة فى ظلمات الأرض وكل رطب وكل يابس . يتبع الأسماك فى بحارها ، والديدان فى مساربها ، والحشرات فى مخابئها والوحوش فى أوكارها والطيور فى أعشاشها ، وكل بيضة وكل فرخ - وكل خلية فى جسم حى .

وصاحب التدبير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يند عن علمه ظاهر ولا خاف .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ ١١ - الرعد (١٣)

معنى التعبير : إن الله لا يغير نعمة أو بؤسا (شقاء وفقرا) ولا يغير عزا أو ذلة ، ولا يغير مكانة أو مهانة - إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم ، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم ، وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون . ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم ، ويجيء لاحقاه في الزمان بالقياس إليهم . فقد جرت السنة الإلهية بأنه تعالى لا يبدل ما يقوم من نعمة وعافية وأمن ودعة حتى يتركوا ما تعودوه واتصفوا به من عمل صالح وخلق قويم متجهين إلى أضدادها لأنهم بذلك قد أهملوا الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وحينئذ يستحقون الحرمان من النعمة (١) . وأيضا لا يغير الله ما يقوم من العقاب والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعاصي ليكونوا أهلا لعفوه ورحمته . وإنها الحقيقة تلقى على البشر تبعة ثقيلة ، فقد مضت مشيئة الله وجرت سنته أن تترتب مشيئته بالبشر على تصرف هؤلاء البشر ، وأن تنفذ فيهم سنته بناء على سلوكهم - والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل . وهو يحمل كذلك - إلى جانب التبعة - دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه .

« له معقبات » أى للمذكور فى الآية السابقة (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) معقبات أى ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار لحفظه وكلاءته من ناحية ، ولكتابة أقواله وأعماله من ناحية أخرى . « معقبات » : جمع مُعَقَّبَةٌ بمعنى معقَّب أى ملك معقب ، والتاء للمبالغة ، كما فى علامة : وقيل : معقبة بمعنى جماعة معقبة . « من أمر الله » : من بمعنى باء السببية أى بسبب أمره تعالى . « وما لهم من دون الله من وال » أى ولى ناصر ، يلى أمورهم ويدفع السوء عنهم ، من الولاية وهى النصرة وتولى الأمر .

(١) وقد ينزل بهم العذاب إن عظمت ذنوبهم ، وقد يصاب به الصالحون الذين يعيشون بينهم ، وذلك على سبيل الابتلاء لا على سبيل العقاب . كما قال الرسول ﷺ ردا على من سأله : أتهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثرت الخبث » أى الفسق والفجور . وقد يشترك هؤلاء الصالحون فى استحقاق العقوبة ، لتراخيهم فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال ﷺ : « إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب » أى أن المصائب قد تنزل بشؤم ذنوب الآخرين .

﴿ وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ

الْمَحَالِ ۝ ١٣ - الرعد (١٣)

قال الزمخشري في تفسير « يسبح الرعد بحمده » : يسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له . أى يضحجون بسبحان الله والحمد لله . وعن النبي ﷺ أنه كان يقول : سبحان من يسبح الرعد بحمده » أخرجه الطبري ورواه البخاري في الأدب المفرد . فالتسبيح متلبس بالحمد : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ٤٤ الإسراء .

وقد يكون المدلول المباشر للفظ « يسبح » هو المقصود فعلا ، ويكون الرعد « يسبح » فعلا بحمد الله (١) . فهذا الغيب الذى زواه (طواه) الله عن البشر لابد أن نتلقاه بالتصديق والتسليم ، فنحن لا نعلم من أمر هذا الكون ولا من أمر أنفسنا إلا القليل .

نص التعبير على تسبيح الرعد بالحمد لله اتباعا لمنهج التصوير القرآنى ، وخلع سمات الحياة وحرركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك فى المشهد بحرقة من جنس حركة المشهد كله . والمشهد هنا مشهد أحياء فى جو طبيعى . وفيه الملائكة تسبح من خيفة الله .

والعجيب أنه فى هول البرق والرعد والصواعق ، وفى زحمة تسبيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وزمجرة العواصف بغضبه - فى هذا الهول ترتفع أصوات بشرية هى أصوات الذين كفروا وكذبوا رسول الله ، ترتفع لتجادل فى الله وتنكر قدرته على البعث وإعادة الخلائق . « وهو شديد المحال » أى المماحلة وهى شدة المماكرة والمكايدة ، فالله شديد المكر والمكايدة لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون .

وعن خوف الملائكة قال ابن عباس : إن الملائكة خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم ، لا يعرف واحدهم من على يمينه ومن على يساره ، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب . « خيفة » : مصدر خَاف يخاف خوفاً ومخافةً وخيفةً .

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » . ورواه أيضا الترمذى والبخارى فى كتاب الأدب ، والنسائى فى اليوم والليلة ، والحاكم فى مستدركه .

(١) والرعد والبرق والمطر من آثار الناموس الكونى الذى صنعه الله . والبرق ، هذا الصوت المفرقع المدوى ، هو حمد وتسبيح بالقدرة التى صاغت هذا النظام الكونى . وكل مصنوع متقن يسبح ويعلم عن حمد الصانع والثناء عليه .

﴿ كَبَّاسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا

كَبَّاسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي

ضَلَالٍ ﴿ ١٤ - الرعد (١٣) ﴾

المشهد ناطق متحرك لا هف مكروب . والصورة حية تنبض ، يكاد القارئ يرى الشخص الضمآن منبطحاً على شفير البئر (حافته) ماداً يديه إلى الماء يدعوه أن يرتفع من البئر ليصل إلى فمه ، فلا يستجيب له الماء ولا يبلغ فاه ، وكيف وهو لم ينله أبداً بيده ؟ ثم إن الماء جماد لا يشعر بشيء ، فكيف يشعر بظماً الظامى حتى ولو بسط إليه يديه ؟ إنه تعبير رائع عن اليأس (١) .

فالذين يدعون آلهة غير الله ، لا تستجيب لهم هذه الآلهة لأنها لا تملك ضراً ولا نفعاً ، ولذلك كان دعاء الكافرين إلى ضياع وخسار .

قال مجاهد : إن الذى يدعو إليها من دون الله كالظمآن الذى يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً ؛ لأن الماء لا يستجيب وما الماء ببالح إليه . قال على رضى الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا الماء يرتفع إليه . قال الفراء إن المراد بالماء هاهنا البئر ، لأنها معدن للماء ، وأن المثل كمن مَدَّ يده إلى البئر بغير رشاء (حبل الدلو) .

« له دعوة الحق » أى أن هناك دعوة واحدة هى الحق وهى الصدق ، وهى التى تستجاب : إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونهِ ورحمته وهداه . وما عداها باطل وما عداها ضائع - ألا ترون حال الداعين لغيره ؟ « والذين يدعون من دونه » أى الشركاء من أصنام وأوثان حجراً كانت أو بشراً « لا يستجيبون لهم بشيء » أى لا يستجيبون لهم دعاء ولا يسمعون لهم نداء .

« ليبلغ فاه » : فاه مفعول به منصوب بالألف ، من الأسماء الخمسة (أبوك ، حموك ، أخوك ، فوك ، ذو مال) وفوك : فمك .

(١) العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد ، قال الشاعر :
فأصبحت فيما كان بينى وبينها من الود مثل القابض الماء باليد

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي

الْأَرْضِ ﴾

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿ ١٧ - الرعد (١٣)

زَبَدُ الْمَاءِ : ما يعلوه من غُثَاءٍ ^(١) عند جيشانه واضطراب أمواجه من الرغوة وحطام الأشياء .

وزَبَدُ المعادن : خبثها ووضُرُّها ونفايتها . وردت هذه الكلمة ثلاث مرات في القرآن الكريم جاءت كلها في هذه الآية .

والجُفَاءُ : ما جَفَّأَهُ القَدْرُ (أى مارمت به من زبد عند الغليان) أو جَفَّأَهُ الوادى (أى مارمى به من زَبَدٍ وَقَدَى) . والكلمة وردت مرة واحدة في القرآن الكريم .

وَذَهَبَ الزَّبَدُ جُفَاءً أى مدفوعاً مرمياً به لابقاء له . إذ لا يُنتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبي الوادى ويلتصق بالشجر وتنسف الرياح ؛ وكذلك خبث المعادن (من ذهب وفضة وحديد ونحاس) فإنه يذهب ولا يرجع منه شىء .

أما ما ينفع الناس من ماء ومعادن فهو الذى يبقى ويُنتفع به : « وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » كقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ﴾ ٤٣ - العنكبوت (٢) .

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه ، والباطل فى اضمحلاله وفنائه والمثل الأول قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى مطراً ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ أى أخذ كل واحد بحسبه ؛ فهذا كبير وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير فوسع بقدره ، كل على قدر طاقته وبمقدار حاجته مما يشهد بتدبير الخالق وتقديره لكل شىء . قال أبو على : ﴿ سالت أودية ﴾ أى سال ماؤها .

(١) الغُثَاءُ : ما يحمله السيل من رَغْوَةٍ ومن فُتات الأشياء التى على وجه الأرض . ورغوة القدر تسمى غُثَاءً . وغُثَاءُ الناس : أراذلهم .

(٢) قال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لأن الله تعالى يقول ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

« فاحتمل السيلُ زبدا رابيا » فالماء بعد أن ينزل من السماء ويسيل على الأرض ، يلم في طريقه غُثاء يطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبدُ الماءَ في بعض الأحيان . هذا الزبد نافسُ رابٍ منتفخ - ولكنه بعد غثاء ، والماء من تحته سارب ساكن هادئ - ولكنه الماء الذي يحمل الخير والحياة .

والمثل الثاني هو « ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » وهي المعادن التي تذاب ابتغاء حلية أى لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة ، أو تذاب ابتغاء متاع أى لتصنع منها آنية أو آلة نافعة للحياة كالنحاس والحديد . يعلو هذه المعادن عندما يوقد عليها في النار زبد هو ما اختلط بها من خبث عندما كانت مطمورة في الأرض . هذا الخبث يذهب ويبقى المعدن .

ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة . فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ رابيا لكنه بعد زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جُفاء مطروحا لا حقيقة له . أما الحق فيظل هادئا ساكنا، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أوضاع - لكنه هو الباقي في الأرض كالماء الذي به الحياة وكالمعدن النقى الذي به النفع .

حكى أبو عبيدة أنه سمع ربيعة يقرأ « جُفالا » قال أبو عبيدة : يقال أجفَلت القدرُ إذا قذفت بزبدِها . (راجع تفسير القرطبي) .

﴿ وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

٢٢ - الرعد (١٣)

دَرَأَ الشَّيْءَ يَدْرُوهُ دَرَاءً وَدَرَاءَةً : دفعه (١) . وفي الحديث : أدْرَأُوا الحدودَ بالشبهات .

« ويدروون بالحسنة السيئة » يدفعون السيء من الأعمال بالعمل الصالح ، فيجازون الإساءة بالإحسان . أو يتبعون السيئة الحسنة فتمحوها .

وعن ابن عباس : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم . وعن الحسن : إذا حُرِّمُوا أُعْطُوا ، وإذا ظَلَمُوا عَفُوا ، وإذا قُطِعُوا وَصَلُوا . وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا . وقيل : إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره . وقال القتيبي : يدفعون سَفَهَ الجاهل بالحلم ، فالسفه هو السيئة ، والحلم هو الحسنة . فمقابلة السيئة بالحسنة تطفى جذوة الشر في النفوس ، وترد نزع الشيطان . وهذا يكون إذا كان فيه درأ السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها . أما إذا احتاجت السيئة إلى القمع ، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة لثلا ينتفش الشر ويتجرأ . ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ : العُقْبَى والعُقْب : الجزاء . ومنه أعقبه أى جازاه . والمراد بعقبى الدار : الجنة . ولذلك بدأت الآية التالية بقولة تعالى : ﴿ جناتُ عدن يدخلونها ﴾ وهى بدل من ﴿ عقبى الدار ﴾ .

(١) ويمكن أن يكون لازماً : دَرَأَ السَّيِّئَةَ بِمَعْنَى ائْتَدَرَأَ أَيْ ائْتَدَفَعَ .

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

٢٨ - الرعد (١٣)

« تطمئن قلوبهم بذكر الله » : بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١) . أو تطمئن قلوبهم بذكر دلائله الدالة على وحدانيته . أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها . أطمأن القلب ونحوه : سكن بعد انزعاج ولم يقلق . واطمأن : سكن وثبت واستقر . والاسم : الطمأنينة والاطمئنان أى الثقة وعدم القلق .

قلوب المؤمنين تطمئن بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره ، والأمن فى جانبه وفى حماه . تطمئن من قلق الوحدة ، وحيرة الطريق - بإدراك الحكمة فى الخلق والمبدأ والمصير . وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ، ومن كل ضرر ومن كل شر إلا بما شاء ، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء . وتطمئن برحمة الله فى الهداية والرزق والستر فى الدنيا والآخرة .

وليس أشقى ممن يُحرم طمأنينة الأنس إلى الله وينطلق فى هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله فى الكون ، لأنه انفصم من العروة الوثقى التى تربطه بما حوله فى الله خالق الكون . ليس هناك أشقى ممن يعيش لا يدرى لم جاء ؟ ولم يذهب ؟ ولم يعانى ما يعانى فى الحياة ؟ ليس أشقى ممن يوجس من كل شىء خيفة لأنه لا يستشعر الصلّة بينه وبين رب هذا الكون ، هو يشق طريقة فى الحياة فريدا شاردا فى فلاة لا ناصر له ولا هاد ولا معين .

وفى الحياة لحظات لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا إلى الله ، مطمئنا إلى حماه . ومهما أوتى من القوة والثبات والصلابة والاعتداد إلا أن فى الحياة لحظات تعصف قسوتها بكل هذا - فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله .

والاطمئنان بذكر الله حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاتصلت بالله . هم يعرفونها وإن كانوا لا يستطيعون التعبير عنها بالكلمات ، فهى تسرى فى القلب فيستروحها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام . ويحس أنه فى هذا الوجود ليس مفردا بلا أنيس ، وإنما كل ما حوله صديق لأن كل ما حوله من صنع الله الذى هو فى حماه .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجَبَ ﴾

٢٩ - الرعد (١٣)

« طوبى لهم » : لهم كل مُستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء ، وعز بلا زوال ، وغنى بلا فقر . فالطوبى : الحسنى ، أو العيش الطيب .

قيل إن طوبى مؤنث الأُطيب ، وهذه اسم تفضيل من طاب الشيء يَطيب طيباً إذا جاد وحسن . وأصلها : طُيبى ، قُلبت الياء وأوا لوقوعها ساكنة بعد ضمّة ؛ كما قُلبت فى موقن (أصلها مُيقن) وموسر (أصلها مُيسر) . ويقال : طوبى لك أى أصبت خيراً وطيباً . ومحلها : النصب أو الرفع كقولك : سلاماً لك وسلاماً لك ، واللام فى «لهم» لليان .

« الذين آمنوا » : مبتدأ ، و « طوبى لهم » : خبره .

وقيل : طوبى اسم لشجرة فى الجنة .

« وحسن ما أب » : مرجع ومُنقلب ، من الأوب وهو الرجوع أب يثوب أوباً وإياباً ومأبأ إذا رجع .

﴿ وَذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ ﴾

بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٤﴾ - إبراهيم (١٤)

يَاوَمَه مَيَّوْمَةٌ وَيَوْمًا : عامله أو استأجره باليوم .

واليوم : زمن مقداره من طلوع الشمس إلى غروبها ، وفى مصطلح علم الفلك : مقدار دوران الأرض حول محورها ومدته أربع وعشرون ساعة . والجمع : أيام (١) .

وأيام العرب : وقائعهم (معاركهم) .

وأيام الله : نغمه فى الأمم الماضية . وأيام الله : نعمه أيضاً ، وبهما فُسرت أيام الله فى هذه الآية . « وذكرهم بأيام الله » أى بنعمائه وبلائه .

ونقل ابن كثير عن مجاهد وقتادة أن أيام الله أياديه ونعمه عليهم فى إخراجهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائهم إياهم من عدوهم ، وقلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمم ، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم .

وكل الأيام أيام الله . ومنها ما يكون فيه بؤس فهو آية للصبر ، ومنها ما يكون فيه نعمة فهو آية للشكر . والصبار الشكور هو الذى يدرك هذه الآيات ، ويدرك ما وراءها ، ويجد فيها عبرة له وعظة ، كما يجد فيها تسرية وتذكيراً .

(١) يقال : يومٌ أيومٌ ، ويومٌ أيومٌ ، ويومٌ ذو أيام أى طويل شديد .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي

لَشَدِيدٌ ﴾ ٧ - إبراهيم (١٤)

أَذَّنَ فَلَانٌ تَأَذِّنَا وَأَذَانًا : أكثر الإعلام بالشيء وأَذَّنَ بالصلاة : نادى بالأذان . وأذَّن بالحج : أعلم .

« تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ » : أعلم إعلاماً لا تبقى معه شبهة ، لدلالة صيغة تَفَعَّلَ من زيادة معنى ، كأنه قيل : وإذ أذَّنَ ربكم أذنانا بليغا تنتفى عنده الشكوك وتزاح الشُّبهة .

« لئن شكرتم لأزيدنكم » : لئن شكرتم إنعامي عليكم لأزيدنكم من فضلي ونعمتي والتوفيق لطاعتي . والآية نص على أن الشكر سبب المزيد من النعمة ، فإن من شكر الله على رزقه وسَّعَ عليه ، ومن شكره على ما أنعم عليه به من صحة زاده الله صحةً .

فحقيقة الشكر الاعتراف بالنعمة للمنعم ، وألا يصرفها في غير طاعته .

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية ؛ فالشكر ، في الفطرة السوية ، هو الجزاء الطبيعي لما يقدم للإنسان من خير .

كما أن النفس التي تشكر الله على نعمته هي نفس تراقب الله في تصرفاتها : فلا بطر ولا استعلاء على الخلق ، ولا استخدام للنعمة في الأذى والفساد .

وشكر النعمة ومراقبة الله أمران من شأنهما تزكية النفس ودفعها للعمل الصالح مما ينمي النعمة ويرضى الناس عن صاحبها ، فيكونون له عوناً . وتنصلح روابط المجتمع فتتمو فيه الثروات - وإن كان وعد الله ، في حد ذاته ، يكفي لاطمئنان المؤمن لأن وعد الله حق واقع .

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها . أو بإنكار أن الله واهبها ، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعى ! وكأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله ! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد - وكل هذا كفر بنعمة الله .

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة فتذهب وتزول . وقد يكون سحق آثارها في الشعور فلا يحس صاحبها بسعادة بل تكون نقمة عليه إلى حد أنه بحسد من لا نعمة عنده . وقد يكون هذا العذاب مؤجلاً إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله - ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يميضي بدون جزاء .

لاحظ أن جواب الشرط « لأزيدنكم » مؤكد بحر في التوكيد : اللام والنون .

﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

٩ - إبراهيم (١٤)

« فردوا أيديهم في أفواههم » أى عضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ .

أو ردوا أيديهم فى أفواههم ضحكا واستهزاء بما جاءت به الرسل كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه .

أو ردوا أيديهم فى أفواههم أى وضعوا أيديهم على أفواههم ، إشارة منهم إلى الرسل أن اسكتوا ، وجوابنا لكم ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ وليس عندنا غير هذا الجواب وذلك إقناطا وتيئيسا للرسل من التصديق .

وقيل : الأيدى جمع يد وهى النعمة . ويكون المعنى : ردوا نعم الأنبياء وهى ما جاءوا به من شرائع وآيات ومواعظ (وهى أجل النعم) فى أفواههم ؛ لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها ، فكأنما ردوها فى أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل .

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا

آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ١٢ - إبراهيم (١٤)

هذا هو قول الرسل الذين أرسلهم الله إلى أقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، بعد أن قابلوا دعوتهم إلى الإيمان بوحداية الله بالإنكار .

قالت لهم الرسل « وما لنا أَلَّا نتوكل على الله » أى وما يمنعنا من التوكل عليه ، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها . « ولنصبرن على ما آذيتمونا » أى من الكلام السيء والأفعال السخيفة « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » .

هذا هو كلام المطمئن إلى موقفه وطريقه ، المالى يديه من وليه وناصره ، المؤمن بأن الله الذى يهدى السبيل لابد أن ينصر ويُعين ، وماذا يُهم حتى ولو لم يتم فى الحياة الدنيا نصر إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل ؟

والقلب الذى يحس أن يد الله - سبحانه - تقود خطاه ، وتهديه السبيل ، هو قلب موصول بالله لا يخطئ الشعور بوجوده - سبحانه - وألوهيته القاهرة المسيطرة ؛ وهو شعور لا مجال معه للتردد فى المضى فى الطريق ، أيا كانت العقبات وأيا كانت قوى الطاغوت التى تتربص فى هذا الطريق . ومن ثم كان هذا الربط فى رد الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - بين شعورهم بهداية الله لهم وبين توكلهم عليه فى مواجهة التهديد السافر من الطواغيت ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ لا تنزحزح ولا نضعف ولا نتراجع ، ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرط .

﴿ وما لنا أَلَّا نتوكل على الله ﴾ (ما) استفهام فى موضع رفع بالابتداء ، و (لنا) الخبر ، وما بعدها فى موضع الحال . والتقدير : أى شئ لنا فى ترك التوكل على الله . « وقد هدانا سبلنا » أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته ، وينجى سخطه ونقمته .

« ولنصبرن » لام قسم ، مجازة : والله لنصبرن . ﴿ على ما آذيتمونا ﴾ به ، أى من الإهانة والضرب ، والتكذيب والقتل ، ثقة بالله أنه يكفيننا ويثيبنا .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ

الْبَعِيدُ ﴿ ١٨ - إِبْرَاهِيمَ (١٤) ﴾

هذا التعبير شبه ما يعمله الكافرون في الدنيا من أعمال البر والخير بأنه في الآخرة يكون مثل رماد فرقته العاصفة فلم يبق له أثر ولا يرون لها أثراً من ثواب - إذ أنها لم تُبْنَ على أساس من العلم والإيمان بالله فحطت وزهبت هباءً منثوراً .

فالمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة .

﴿ أعمالهم كرماد ﴾ : جملة مستأنفة على تقدير سؤال يقول : كيف مثلهم ؟ فأجيب :

أعمالهم كرماد .

ويحوز أن تكون ﴿ أعمالهم كرماد ﴾ خبر للمبتدأ ﴿ مثل الذين كفروا بربههم ﴾ أى : مثل الذين كفروا أعمالهم كرماد ، كقولك : صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول .

وأعمال الكفرة هنا المكارم التي كانت لهم في الدنيا من صلة الأرحام وعقر الإبل للضيوف وإغاثة الملهوفين وغيرها ، شبهها في جوبطها وضياعها - لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به - برماد طيرته الريح العاصف . ﴿ لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء ﴾ أى لا يرون له أثراً من ثواب .

« فى يوم عاصف » : جعل العصف لليوم ، وهو (أى العصف) لما فيه من رياح ،

والمعنى : فى يوم شديد الرياح ، مثل قولهم يوم ماطر و ليلة ساكرة .

ومشهد الرماد تشتد به الريح فى يوم عاصف يجسم معنى ضياع الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها ، ولا الانتفاع بها أصلاً .

وينطوى المشهد على حقيقة ذاتية فى أعمال الكفار . فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة الإيمان ، ولا يتصل الباعث عليها بالله ، أعمال مفككة كالهباء والرماد . فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن باعث العمل . فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية .

بعد ذلك يأتى التعقيب الموحى : « ذلك هو الضلال البعيد » تعقيب يتفق ظله مع ظل

الرماد المتطاير فى يوم عاصف . . إلى بعيد !

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ

الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿ ٢٤ ، ٢٥ - إبراهيم (١٤)

﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ بينه واعتمده ووضعه في المكان اللائق به .

﴿ كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ : تفسير لقوله ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ ، كقولك : شرف الأمير
زيدا : كساه حُلَّةً ، وحمله على فرس . ويجوز أن يكون ﴿ مثلاً ﴾ و ﴿ كلمة ﴾ منصوبين بـ
﴿ ضرب ﴾ أي : ضرب الله كلمة طيبة مثلاً ، بمعنى جعلها مثلاً ، قاله الزمخشري .

ثم قال ﴿ كشجرة طيبة ﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف ، بمعنى : هي كشجرة طيبة . قال
مجاهد وعكرمة : الشجرة هي النخلة .

﴿ أصلها ثابت ﴾ : أصل النخلة ثابت في الأرض ، أي عروقه تشرب من الأرض
وتسقيها السماء من فوقها ، فهي زاكية نامية .

خرج الترمذي من حديث أنس بن مالك قال : أتى رسول الله ﷺ بقناع فيه رطب ،
فقال : ﴿ مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين
بإذن ربها - قال هي النخلة . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من
قرار - قال هي الخنظل .

« تؤتي أكلها كل حين » : تعطي ثمرها في كل وقت . فالنخلة تؤكل ثمرتها وهي البلح
ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً . فيؤكل منها الجمار والبلح والبُسْر والرطب والتمر . وكل تتاجها
خير وبركة من بعد أن تغرس إلى أن تجف وتبيس ، وكم من أناس يقيمون في بيوت تعتمد
على جذوع النخل وجريده .

وقيل في تفسير ﴿ كلمة طيبة ﴾ هي كلمة التوحيد : لا إله إلا الله . وقيل : هي الإيمان .
وعليه يكون المعنى : أصل الكلمة في قلب المؤمن - وهو الإيمان - شبهه بالنخلة في المنبت ،
وشبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة ، وثواب الله له بالثمر .

ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة أن أصل تلك الكلمة وهو الإيمان ثابت في قلب المؤمن
كثبوت جذور النخلة في الأرض ، وأن ما يتفرع منها ويبنى عليها من الأعمال الصالحة
والأفعال الزكية يرفع إلى السماء ، ويصعد إلى الله تعالى ، كما قال جل شأنه : ﴿ إليه يصعد
الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ١٠ - فاطر . وأن ما يترتب على ذلك من ثواب الله
تعالى ورضاه دائم دوام ثمرها والانتفاع بها في كل وقت .

والخير الأصل لا يموت ، ولا يذوى مهما زحمة الشر وأخذ عليه الطريق .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا

لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ ٢٦ - إبراهيم (١٤)

﴿ كلمة خبيثة ﴾ : كلمة الكفر والضلال . وقيل : كلمة الشرك . وقيل : كل كلمة قبيحة .

وأما الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوت (١) ونحو ذلك .

والفعل خَبِثَ الشيءُ يَخْبِثُ خُبْثًا وَخَبَاثَةً : صار فاسدا رديئا مكروها .

﴿ اجتثت ﴾ : اقتلعت جثتها ، أى شخصها وذاتها . يقال : اجتثت الشيءَ اجتثاثاً إذا اقتلعت واستأصلته . وهو افتعالٌ من لفظ الجثة ، وهى شخص الشيء .

﴿ من فوق الأرض ﴾ لقرب عروقها من سطح الأرض .

﴿ ما لها من قرار ﴾ أى استقرار . يقال : قرأ الشيءُ قراراً ، كقولك : ثبت ثباتاً . شبه بها القول الذى لم يُعضد بحجة ، فهو داحض غير ثابت . والذى لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه (٢) .

إن الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ، قد تهيج وتعالى ، ويخيل إلى البعض أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى ؛ ولكنها تظل نافثة هشة ، وتظل جذورها فى التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض - وما هى إلا فترة ثم تجث من فوق الأرض فلا بقاء لها .

أما الخير الأصيل فلا يموت ولا يذوى ، مهما زحمة الشر وأخذ عليه الطريق .

(١) الكشوت نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق فى الأرض . قال الشاعر :

هو الكشوت فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

(٢) وفى الصحاح : الحق أبلج والباطل لجلج ، أى يردد من غير أن ينفذ .

﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

٢٧ - إبراهيم (١٤)

﴿ القول الثابت ﴾ الذى ثبت بالحجة والبرهان فى قلب صاحبه وتمكن فيه ، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه ، وهو قول ﴿ لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴾ وهى كلمة التوحيد ، وهى الكلمة الطيبة التى ضربها الله مثلا فى الآية ٢٤ : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ﴾ .

وتثبيتهم فى الدنيا : أنهم إذا فُتِنُوا فى دينهم (عذبوا ليتحولوا عنه) لم يزلوا ، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود فى سورة « البروج » ، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد .

وتثبيتهم فى الآخرة : أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم ، لم يتلعثموا ولم يبهتوا ، ولم تحيرهم أهوال الحشر . وقيل : معناه الثبات عند سؤال القبر . وعن البراء بن عازب رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، ذكر قبض روح المؤمن فقال : « ثم يعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره ويقولان له : من ربك ؟ وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول : ربي الله ودينى الإسلام ونبيى محمد ؛ فينادى مناد من السماء صدق عبدى ، فذلك قوله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ بإبقائهم على كلمة الشرك ، وهى الكلمة الخبيثة : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ١٣ - لقمان . وإضلالهم فى الآخرة أضل وأذل .

﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ أى ما توجه به الحكمة (لأن مشيئة الله هى الحكمة) من تثبيت المؤمنين وعصمتهم ، ومن خذلان الظالمين والتخلى بينهم وبين شأنهم عند زلزلهم .

روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ . ورواه مسلم أيضا وبقية الجماعة .

﴿ قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴾ ٣١ -

إبراهيم (١٤)

﴿ خِلَالَ ﴾ : جمع خُلَّة . والخُلَّة هنا تعنى أحد أمرين : الصداقة والمحبة التي تخللت القلب فصارت في باطنه ؛ أو الصديق (ويستوى فيه الذكر والمؤنث والمفرد والجمع) .
ويمكن أن تكون ﴿ خِلَالَ ﴾ المصدر من الفعل خَالَه مُخَالَةً وِخْلَالًا : صادقه . ويقال أيضا : خَالَكهُ (بفك الإدغام) (١) .

« يوم لا بيع فيه ولا خلال » : هو يوم القيامة وهو يوم لا تنفع فيه مُخَالَةٌ ولا صداقة ولا أصدقاء ، ولا تنفع فيه مبيعات ولا مبادلات لأنه لا بيع في هذا اليوم ولا شراء . كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ٢٥٤ - البقرة . وإنما ينفع العبد إيمانه وعمله الصالح الخالص لوجه الله تعالى ، كما في قوله تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾ (٢) ١٩ - ٢١ ، الليل .

﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ : نصبتا على الحال بمعنى : مُسررين ومعلنين ؛ أو على الظرف أى وبقى سر وعلانية ؛ أو على المصدر أى إنفاق سر وإنفاق علانية . والمعنى : إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب . وقيل فى معنى ﴿ سِرًّا ﴾ إن السر تصان فيه كرامة الأخذيين ومروءة المعطين ، فلا يكون الإنفاق تفاعرا وتظاهرا ومباهاة . وأما العلانية ففيها تعلن الطاعة بالإنفاق وتؤدى الفريضة ، وتكون القدوة الطيبة فى المجتمع - وهذا وذاك متروك لحساسية الضمير المؤمن وتقدير صاحبه . وقيل إن السر والعلن هنا معناه أن الله ، سبحانه وتعالى ، أباح لعباده أن ينفقوا فى السر إذا شاءوا ، وفى العلن إذا أحبوا - ولكن بغير منٍّ ولا رياء . وجاء فى « التفسير الوسيط » : واعلم أن الأفضل فى إنفاق التطوع الإخفاء ، وفى إنفاق الواجب (أى ما هو مفروض كالزكاة) الإعلان .

﴿ يقيموا الصلاة ﴾ : المراد بإقامتها هو المحافظة على أوقاتها وخشوعها وشروطها وأركانها . والصلاة أخص مظاهر الشكر لله . وأداء الصلاة مجلبة للرزق ، قال القرطبي :

(١) انظر : المعجم الوسيط ، مادة : خلَّ .

(٢) هذا الأتقى الذى ينفق ماله ليتزكى به ويتطهر من الذنوب (فى الآية السابقة من سورة الليل) لا ينفقه جزاء على نعمة سلفت إليه من أحد « فليس لأحد يدٌ (إحسان) سابقة يريد أن يجازيه بها ، وإنما هو ينفق المال ابتغاء مرضات ربه ، وجزاؤه الرضى ينسكب فى قلبه ويشيع فى كيانه ويندى حياته .

كان عليه السلام إذا نزل بأهله ضيق (أى فى الرزق) أمرهم بالصلاة ؛ جاء ذلك فى سياق تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى ﴾ ١٣٢ - طه . وعن بكر بن عبد الله المزنى كان إذا أصابت أهله خصاصة (فقر وحاجة) قال : قوموا فصلوا ، بهذا أمر الله رسولك ، ثم يتلو هذه الآية من سورة طه (١) . والخطاب فيها ، وإن كان للنبي ﷺ ، إلا أنه يدخل فيه جميع أمته . وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلى رضوان الله عليهما فيقول : ﴿ الصلاة ﴾ . وكان عمر بن الخطاب يوقظ أهله لصلاة الليل ويصلى وهو يتمثل بالآية . إن وقوف العبد أمام ربه خمس مرات كل يوم من شأنه ، إذا كانت الصلاة بحضور القلب والعقل مع الله واستشعار الخوف من حسابه ، أن يرتدع العبد عن فعل الآثام ؛ فيتطهر المجتمع من الشرور والمظالم وتستقيم العلاقات بين الناس وتصبح حياتهم أقل عناء وأسعد حالا .

(١) راجع : «الكشاف» للزمخشري ، ج ٣ ، ص ٩٩ .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾

﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلِيلٌ كَفَّارٌ ﴾ ٣٤ - إبراهيم (١٤)

« لا تحصوها » : لا تحصروها ولا تطيقوا عدّها وبلوغ آخرها لأنها نعم لا نهاية لها - فهلا استعنتم بها على الطاعة !

﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ : « ما » فى « ما سألتموه » موصولة ، والمعنى : أتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعاشكم إلا به ؛ فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال . وقيل : من للتبعيض ، أى أتاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مصالحكم .

وقرئ : من كل بالتثنية ، وما سألتموه نفى (أى أن ما هنا نافية) ومحله النصب على الحال : أى أتاكم من جميع ذلك غير سائله - فهلا شكرتموه ، وشكر النعمة من العبادة .

« لظلوم » : يظلم النعمة بإغفال شكرها . « كفار » : شديد الكفران لها . وقيل : ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع ، وكفار فى النعمة يجمع ويمنع .

جاء فى « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير : يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم ، فضلا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ كان يقول :

« اللهم لك الحمد غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه » .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ

تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ ٤٢ - إبراهيم (١٤)

شَخَّصَ فَلَانَ بَصْرَهُ وَبَصَّرَهُ : فَتَحَّ عَيْنِيهِ وَلَمْ يَطْرَفْ بِهِمَا (١) مُتَأَمِّلًا أَوْ مَنْزِعًا . فَأَهْلَ الْمَوْقِفِ (الْمَحْشَرِ) لَا تَطْرَفُ أَجْفَانُهُمْ مِنْ هَوْلٍ مَا يَرُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَتَطْلُ أَبْصَارُهُمْ مَفْتُوحَةٌ مَذْهُولَةٌ مِنَ الْفَزَعِ وَالْهَلَعِ .

والرسول - ﷺ - لا يحسب الله غافلا عما يعمل الظالمون ، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعا بهم في هذه الحياة الدنيا . لكن الله إذا أنظرهم وأمهلهم فإن هذا لا يعنى أنه غافل عنهم مهمل لهم ، لا يعاقبهم على صنعهم - بل هو يحصى ذلك عليهم ، وسوف يأخذهم الأخذة الأخيرة التى لا فكاك منها وذلك فى اليوم العصيب الذى تشخص فيه الأبصار .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال الزمخشري المراد بالنهى عن حسبانه غافلا الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون ، لا يخفى عليه منهم شىء ، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ يريد الوعيد . ويجوز أن يراد : ولا تحسبته يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم ، المحاسب على التَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ (٢) . قال ابن عينية : هو تسلية للمظلوم وتهديد للظالم .

وإذا قيل إن الله - سبحانه وتعالى - منزه عن السهو والغفلة ، فكيف يحسبه الرسول - ﷺ - وهو أعلم الناس به - غافلا ؟ قال الزمخشري : إن الخطاب إن كان للرسول - ﷺ - ، فالوجه فى ذلك (أى القصد فى ذلك) هو التثيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٤ - الأنعام وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ ٨٨ - القصص .

إن أثر هذا التعبير القرآنى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ فى النفس وفى القلب وفى المشاعر أكبر من أن تعبر عنه الكلمات - إنه يهز الكيان البشرى هزاً .

(١) طَرَفَ بَعِينِيهِ : حَرَّكَ جَفَنِيهِ . وَطَرَفَ الْبَصْرُ يَطْرَفُ طَرْفًا : تَحْرَكَ جَفْنَاهُ .

(٢) النَّقِيرُ : نُقْرَةٌ صَغِيرَةٌ فِي ظَهْرِ النَّوَاءِ ، وَالْقَطْمِيرُ : الْقَشْرَةُ الرَّبِيقَةُ عَلَى النَّوَاءِ كَاللِّفَافَةِ لَهَا . وَتَسْتَعْمَدُ الْكَلِمَتَانِ لِلتَّبَعِيرِ عَنِ الشَّيْءِ الْهَيْئِ الْحَقِيرِ .

﴿ مَهْطَعِينَ مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدْتُهُمْ هَوَاءً ﴾

٤٣ - إبراهيم (١٤)

الهواء : كلُّ منخرق الأسفل لا يعى شيئاً . والهواء : كل فارغ . والهواء : الجبان لا قلب له . وَقَلْبُ هَوَاءٍ وَقَلُوبٌ هَوَاءٌ (للمفرد والجمع) : فارغ وفارغة .

يقول الزمخشري في « الكشاف » : الهواء هو الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ، فوصف به فقيل : قلب فلان هواء إذا كان جبانا لا قوة في قلبه ولا جرأة . قال حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان قبل إسلامه :

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء

والمجوف والنخب والهواء : فارغ القلب من العقل والشجاعة .

﴿ وَأَفْتَدْتُهُمْ هَوَاءً ﴾ : وقلوبهم فارغة خالية عن الفهم ، لا تعى شيئاً ، ولا تعقل من شدة الخوف والدهشة .

﴿ مَهْطَعِينَ ﴾ : مسرعين إلى الداعى بذلة واستكانة ؛ كإسراع الأسير والخائف . يقال : أَهْطَعَ فِي عَدُوِّهِ يُهْطِعُ إِهْطَاعًا إِذَا أَسْرَعَ .

﴿ مَقْنَعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ رافعيها إلى السماء مع إدامة النظر بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شيء . يقال : أقنع رأسه إذا نصبه ورفع ، أو لم لم يلتفت يمينا وشمالا .

﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ : الطرف : تحريك الجفن ، وتحريك الجفن لازم للنظر ، والمعنى : لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم كما كان يرجع كل لحظة ؛ أي لا يرجع إليهم

نظرهم ، بل يبقون مبهورين حائرين .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ

لِتَنْزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ ﴿ ٤٦ - إِبْرَاهِيمَ (١٤)

﴿ وقد مكرُوا مكرهم ﴾ : أورد المصدر بعد الفعل لتوكيد الفعل . أى مكرُوا مكرهم البالغ الذى استنفدوا فيه طاقتهم ، وبذلوا فى تدبيره كل مجهود لهم ، سعياً فى إبطال الحق وتقرير الباطل .

﴿ وعند الله مكرهم ﴾ أى وعند الله علم مكرهم الذى يهلكهم به . أو عنده عقاب مكرهم الذى فعلوه . وتسمية عقابهم مكرًا لأنه يقابل مكرهم وجوداً وذكرًا ، ويسمى هذا مُشاكلة فى اصطلاح علماء البلاغة ، أو لكونه فى صورة المكر لوقوعه من حيث لا يشعرون .

﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ : قيل « إن » نافية بمعنى ما ^(١) واللام فى « لتزول » مؤكدة لها ، كقوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ١٤٣ - البقرة . والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم لضعفه ووهنه . قال الزمخشري فى « الكشاف » : على أن الجبال مثل آيات الله وشرائعه لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً ، ويؤيد هذا قراءة ابن مسعود : وما كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا يمكن لمكرهم أن يزيل آيات الله وشرائعه .

وقيل معنى « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » : وإن عظم مكرهم وتبالغ فى الشدة ، فضرِب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدته . وقرأ ابن محيصن والكسائى « لتزولُ » بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء التى تفيد التوكيد ورفع اللام الثانية ؛ ويكون المعنى وفق هذه القراءة : استعظام مكرهم ، أى ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه . وقرأ على وعمر رضى الله عنهما : وإن كاد مكرهم بالبدال .

(١) قال القرطبي : وردت « إن » بمعنى « ما » فى القرآن فى مواضع خمسة أحدها هذا والثانى : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك » ؛ الثالث : « لو أردنا أن نتخذ لها لاتخذناه من لدنا إن كنا » أى : ما كنا ؛ الرابع : « قل إن كان للرحمن ولد » ؛ الخامس : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه » .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ٩- الحجر (١٥)

الذِّكْرُ (١) : القرآن .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ مؤكدتان ، فأكد عليهما أنه هو المنزل للذكر على القطع والبتات ، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ، ﷺ ، وبين يديه من خلفه رَصَدٌ (٢) حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين .

والله حافظ القرآن في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها ، وإنما استحفظها الربانيين والأخبار (٣) فاختلفوا فيما بينهم بغيا فكان التحريف والتغيير (٤) وفي قوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ دليل على أنه منزل من عنده - سبحانه - لأنه لو كان من قول البشر لتطرق إليه الزيادة والنقصان كما يتطرق إلى كل كلام سواه .

وقيل في تفسير ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ : حافظون له بجعل طائفة من الأمة تقوم بحفظه والدَّبُّ عنه (الدفاع عنه) إلى آخر الدهر .

وقيل : حافظون له بالإعجاز ، فهو مُعْجَز ، ولن يقدر أحد على معارضته أى مباراته والإتيان بمثله .

لقد أورث الله قلب كل مؤمن غيرةً على القرآن ، فلا نرى أحدا يتسامح فى لحنه لاحت فيه ولو كان شيخا عظيما ، بل يسارع إلى رده إلى الصواب ، ولا يخشى فى الله لومة لائم .

فالقرآن الكريم نسخة واحدة فى جميع الأمصار والأعصار ، فى عهد رسول الله ، وحين جمعه أبو بكر فى نسخة واحدة ، ثم نسخه عثمان فى أربع نسخ وزعها على الأمصار ، لم يتغير فيه حرف ولا كلمة ، لأنه تعالى تولى حفظه بنفسه ﴿ إِن عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ١٧ - القيامة ولم يستحفظ عليه أحدا ، فَطَبَعَ كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ وَالْمُبَالِغَةُ فِي صِيَانَتِهِ بَدَافِعٌ وَجَدَانِي لِيُظَلَّ دَسْتُورُ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ .

(١) والذكر : الصلاة لله والدعاء إليه . والذكر : الصَّيْتُ .

(٢) رَصَدٌ : رقيب وحراس ، تستخدم رصد للواحد والجمع والمؤنث .

(٣) ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ . . . ﴾ ٤٤ - المائدة .

(٤) وما لم يبدلوه منها أساءوا وتأويله ، وتعمدوا تحويله . وقد زال أصل التوراة ولم يعد لها وجود ، وضاع أصل الإنجيل وانتهى أمره ؛ ولهذا لا نجد نسخ التوراة أو الإنجيل متماثلة ، فنرى بعضها أطول من بعض مع الاختلاف فى العبارات والمعانى .

ولا شك أن حفظه من التغيير والتبديل على امتداد أربعة عشر قرناً ونيف آية على أنه من عند الله جل وعلا . فالأحوال والظروف والعوامل التي تقلبت على هذا الكتاب في هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصوناً محفوظاً لا تتبدل فيه كلمة ولا تحرف فيه جملة ، لولا أن هنالك قدرة خارقة عن إرادة البشر أكبر من الأحوال والظروف تحفظ هذا الكتاب .

في أيام الفتن الأولى كثرت الفرق والفتن ، وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن وفي حديث رسول الله ﷺ . وأدخلت على حديث الرسول ما احتاج إلى جهد كثيرين من العلماء الأتقياء الأذكياء على امتداد عشرات السنين كي يحرروا الأحاديث النبوية وينقوها من كل دخيل - لكنها عجزت جميعاً ، حتى في أشد أوقات الفتن ظلاماً واضطراباً ، عن أن تحدث حدثاً واحداً في نصوص القرآن التي بقيت كما أنزلها الله .

واليوم نرى المسلمين عاجزين عن حماية أنفسهم وعقيدتهم وعن حماية أرضهم وأخلاقهم في وجه الهجمة الشرسة التي يشنها أعداؤهم ، وخصوصاً اليهود . غير هؤلاء الأعداء كل معروف عند المسلمين وأحلوا مكانه كل منكر من العقائد والتصورات ومن الأخلاق والعادات ومن القيم والقوانين ، وزين الأعداء الانحلال والفساد والتوقع والتعري ، ووضعوا كل ذلك تحت شعارات وعناوين مزيفة مثل التقدم والتطور والعلمية والانطلاق والتحرر .

وقدّر أعداء الدين الإسلامي على أشياء كثيرة : قدروا على الدس في سنة رسول الله ﷺ وعلى تاريخ الأمة المسلمة ؛ وقدروا على دس الأشخاص في جسم المجتمع المسلم ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون ؛ وقدروا على تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في جسد المجتمع الإسلامي على مدار القرون .

لكن شيئاً واحداً لم يقدروا عليه . لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ ، الذي لا يقدر أهله المنتسبون إليه على حمايته بعد أن نبذوه وراء ظهورهم وباتوا كغشاء السيل لا يملكون دفعا ولا يستطيعون منعا .

لقد كان هذا القول الجليل ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ مجرد وعد على عهد رسول الله ﷺ . أما اليوم ، وبعد مرور كل تلك القرون الطوال وبعد كل تلك الأحداث الجسام ، فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب وبأنه حقا تنزيل من لدن عزيز حكيم .

﴿ إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا

سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿ ١٤ ، ١٥ - الحجر (١٥) ﴾

سَكَّرَتْ النهرَ أَسْكُرَهُ سَكْرًا : سدده . والتشديد (سَكَّرْتَهُ) للمبالغة .

﴿ سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ : سُدَّتْ وَمُنَعَتْ مِنَ الْإِبْصَارِ .

ومعنى الآيتين أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم فى العناد أن لو فُتِحَ لهم باب من أبواب السماء وصعدوا إلى ملكون السموات ورأوا ما فيها من الملائكة والعجائب ، لقالوا - لفرط عنادهم وجحودهم - إنما سكرت أبصارنا وحبست من الإبصار ، وما نرى إلا تخيلا لا حقيقة له ، وقد سحرنا محمد .

﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾

١٩ - الحجر (١٥)

﴿ موزون ﴾ : وزن بميزان الحكمة ، وقدر بمقدار ما تقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان . أو : له وزن وقدر فى أبواب النعمة والمنفعة . كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ٤٩ - القمر .

قال صاحب الظلال : كل نبت فى هذه الأرض فى خلقه دقة وإحكام وتقدير ، وكلمة ﴿ موزون ﴾ كلمة ذات ثقل تشترك مع كلمة الرواسى ، وهى كلمة ذات ثقل أيضا ، فى إضفاء ظل الضخامة على السياق .

قال القرطبي : موزون أى مقدر معلوم ، وإنما قال ﴿ موزون ﴾ لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء .

وجاء فى « التفسير الوسيط » أن الله - سبحانه وتعالى - أنبت فى الأرض التى بسطها لنا من كل نبات ما هو مقدر عنده بحكمة ، ومعلوم له أنه لمصلحة عباده قوتا أو دواء أو وقاية من داء .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ ﴾

٢١- الحجر (١٥)

الـخزائن : جمع خزانة ، وهى ما يُحرز فيه الشىءُ ويُحفظ ؛ وخصت بما يخزن فيه نفائس الأموال . خَزَنَ الشىءَ يَخْزِنُهُ : حفظه وأحْرزَه فى الخزانة .

والمعنى أن خزائن كل شىء - أى مصادره وموارده - عند الله فى علاه ، ينزله على الخلق فى عوالمهم « بقدر معلوم » فليس من شىء يتم اعتباطاً .

يخبر تعالى أنه مالك كل شىء ، وأن كل شىء سهل عليه يسير لديه ؛ وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف . وأنه ينزله كما يشاء وكما يريد ، ولما له فى ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده ، لا على جهة الوجوب ، بل هو كتب على نفسه الرحمة .

وكلما تقدم الإنسان فى المعرفة ، تجلّى له بوضوح أكبر مدلول كلمة « خزائنه » فمثلاً عرف الإنسان أن خزائن الماء الأساسية هى ذرات الأيدروجين والأكسجين . وعرف مثلاً أن خزائن النبات الأخضر هى : الأزوت الذى فى الهواء ، والكربون والأكسجين الموجودان فى ثانى أكسيد الكربون ، والأشعة التى ترسلها الشمس . وهناك أمثلة أخرى كثيرة توضح دلالة ومعنى كلمة خزائن الله التى توصل الإنسان إلى معرفة شىء منها .

قال القرطبي : الإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد ، كقوله : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ ٦ - الزمر ، وقوله : ﴿ وأنزل الحديد فيه بأس شديد ﴾ ٢٥ - الحديد . وقيل : الإنزال بمعنى الإعطاء ، وسماه إنزالاً لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ ٢٣ - الحجر (١٥)

﴿ ونحن الوارثون ﴾ أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقي ﴿ وارث ﴾ استعارة من وارث الميت ، لأنه يبقى بعد فئته . وفى الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة قال كان من دعاء النبى ﷺ : « اللهم متعنى بسمعى وبصرى واجعلهما الوارث منى » وأورده الطبرانى عن على رضى الله عنه .

وقال حسنين مخلوف فى « صفوة البيان » : ونحن الوارثون لزوال ملك كل مالك عما ملك ، وبقاء جميع ذلك لنا . أخبر تعالى أنه يرث الأرض ومن عليها ، نظيره : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ .

وجاء فى « التفسير الوسيط » : ونحن الوارثون لكم ولأموالكم ولكل شىء فى هذا الوجود ، وكل ما أعطيناه للخلق فهو عارية (١) مستردة .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ٧٢ - الحجر (١٥)

العَمْرُ (بفتح العين) والعُمْرُ (بضمها) واحد ، ومعناها : مدة حياة الإنسان وبقائه . والتزم الفتح فى القَسَمِ إشاراً للأخف وذلك لأن الحلف كثير الدوران على ألسنتهم . وعَمْرٌ مبتدأ ، وخبره محذوف وجوبا وتقديره : قَسَمِى أَوْ يَمِينِى .

﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ : قسم من الله تعالى بحياة محمد ﷺ (وما أقسم بحياة أحد قط) تكريماً لبنينا عليه الصلاة والسلام . وقيل : الخطاب من الملائكة للوط عليه السلام ، وهم يقسمون بحياته عندما جاؤوا إليه والتف حولهم أهل مدينته اللوطيون (الآيات السابقة) .

﴿ إنهم لفى سكرتهم ﴾ أى غوايتهم أو شدة غلמתهم التى أذهبت عقولهم وأفقدتهم القدرة على التمييز بين الخطأ وبين الصواب الذى تشير به عليهم يا لوط من ترك البنين إلى البنات .

﴿ يعمهون ﴾ : يترددون حيارى .

(١) العارية : ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك . يقال : كل عارية مستردة .

﴿ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ﴾

﴿ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ٨٥ - الحجر (١٥)

فأعرض عنهم ، واحتمل ما تلقى منهم ، إعراضاً جميلاً فيه حلم وإغضاء . فيراد به المخالفة أى المعاملة بحسن الخلق . وفى الصحاح : خالص المؤمن ، وخالق الفاجر . صَفَحَ عن ذنبه : أعرض عن مؤاخذته ، وعفا عنه . وإذا وصف الصَّفْحَ بالجمال فى القرآن - الصَّفْحَ الجميل - صار أبلغ عفواً .

وإنه لتعبير بالغ الجمال والتأثير عندما يقتبس فى مواقف الشحناء والنزاع . روى عن على وابن عباس رضى الله عنهم فى تفسير الصَّفْحَ الجميل ، وفى أمره ﷺ بالصَّفْحَ الجميل ، إشارة كريمة إلى تركهم لله تعالى ، وأن يتذرع بالصبر الجميل ، حتى يأتى وعد الله وما قضاه فى شأنهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يصفح عنهم فلا يحمل نفسه ما لا تطيق من الضيق بكفرهم . (راجع «التفسير الوسيط») .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾

٣١ - الحجر (١٥)

صَدَعَ النباتُ الأرضَ يَصْدَعُهَا صَدْعًا : شققها وظهر منها . انصدع الصبحُ : أسفر (وضح وانكشف) ؛ والصديع : الفجر . « فاصدع بما تؤمر » : فاجهر به وأظهره . يقال : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا ، كقولك : صرح بها .

وقيل : فاصدع أى فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر أى بما تؤمر به من الشرائع . فالصدع هو الشق والفرق . وقد كان رسول الله ﷺ مستخفيا بالدعوة ، حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه معلنين بها لا يباليون بالمشركين ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

فالخطاب للرسول أن يجهر بما أمره الله أن يبلغه . ويسمى هذا الجهر صدعا - أى شقا - دلالة على القوة والنفوذ . لا يقعه عن الجهر بالدعوة والمضى فيها شرك مشرك .

﴿ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

٨ - النحل (١٦)

﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ : ويخلق لكم غير ذلك أشياء ترتفقون بها (تنتفعون وتستعينون بها) ، لا تعلمونها الآن ولا تخطر لكم ببال . وستعلمونها حين يجيء الوقت المقدر لخلقها . وكما خلق لكم الأنعام والدواب ، يهديكم إلى اختراع وسائل أخرى للتنقل والحمل لم تكن موجودة في عصر نزول القرآن وما تلاه إلى زمن قريب ، مثل السيارات والقطارات والطائرات والسفن التي تسير بالبخار وغيره ، وغير ذلك من الوسائل التي لم تعرف حتى الآن . وفي هذا الإعجاز القرآني ما لا يخفى على الباحثين الدارسين ، ولا تزال الكشوف متوالية إلى ما شاء الله مما لم يكن يخطر على بال .

والتعبير : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ يترك المجال مفتوحاً أمام التصور البشري لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة ، فلا يقف تصورهم عند حدود بيئتهم أو عند حدود زمانهم . فوراء الموجود في كل زمان ومكان صور أخرى يريد الله للناس أن يتوقعوها ، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو تكتشف أو تبتكر ، فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها . إن الإسلام قابل لاستقبال طاقات الحياة كلها ، ومقدرات الحياة كلها ؛ ومن ثم يهئ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال ما يتمخض عنه العلم وما يتمخض عنه المستقبل ، استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقى كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة - بل والإسهام في الكشف عن ذلك ، فلا جمود ولا تحجر في الإسلام .

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴾ ٩ - النحل (١٦)

السبيل : الطريق . والقَصْدُ منه هو المستقيم الذى لا اعوجاج فيه وهو الإسلام . يقال سبيلٌ قَصْدٌ وقاصدٌ أى مستقيم (١) . والفعل هو قَصَدَ الطريقُ يَقْصِدُ قَصْدًا : استقام . والقَصْدُ : استقامة الطريق (٢) .

« وعلى الله قصد السبيل » أى بيانُ طريق الاستقامة والهدى ، بإرسال الرسل ونَصْب الدلائل ، وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه فالله كتب على نفسه كشف بيان الطريق إليه سبحانه بآياته فى الكون وبرسله إلى الناس .

« ومنها جائر » أى ومن جنس السبيل سبيل جائر أى معوج منحرف عن الحق ، وهو مَلَل الكفر ونحل أهل الأهواء الضلالة . « جائر » من الجور وهو ضد العدل وضد القصد .

« ولو شاء لهداكم أجمعين » أى لو أراد سبحانه وتعالى هداية البشر جميعا بطريق الجبر لفعّل ، ولكن حكمته السامية اقتضت أن يختبرنا ويتركنا لعقولنا واختيارنا ، بعد أن أرشدنا إلى آياته ودعانا إلى الحق على السنة رسله : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ ﴾ ٤٢ - الأنفال .

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ ٢٣ - النحل (١٦)

﴿ لَا جَرَمَ ﴾ : قال الفراء : هى كلمة كانت فى الأصل بمنزلة : لا محالة ، ولا بُد ؛ فَجَرَّت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة « حقا » .

ومعنى التعبير : حقا إن الله تعالى يعلم ما يخفونه فى أنفسهم من الشرك وسر الطوية ، كما يعلم ما يعلنون من المعاصى .

« إنه لا يحب المستكبرين » : أخرج مسلم عن النبى ، ﷺ ، أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » .

(١) الذى لا يلتوى كأنه يقصد قصدا إلى غايته فلا يحيد عنها .

(٢) ويقال : هو على القَصْد ، وعلى قَصْد السبيل : إذا كان راشدا ويقال : طريقٌ قَصْدٌ أى سهل مستقيم .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ٧٦ - النحل (١٦)

﴿ ضرب الله مثلا ﴾ أورد حجة على سبيل التشبيه والتمثيل .

أبْكَم : من الفعل بَكِمَ الرجلُ يَبْكِمُ بَكْمًا : عَجَزَ عن الكلام خَلِقَةً ، فهو أبكم وهى بكماء . والجمع بكم .

والكَلُّ : من يعتمد على غيره فى معيشته . والكَلُّ : من يكون عبثا على غيره .

﴿ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ : عالة وعبءٌ ثقيل على سيده الذى يتولى أمره .

﴿ يُوَجِّههُ ﴾ : يبعثه فى مهمة . « لاياتٌ بخير » لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يفهم

عنه . قرأ يحيى بن وثاب ﴿ أَيْنَمَا يُوجِّهْ ﴾ على الفعل المجهول . ورؤى عن ابن مسعود ﴿ أَيْنَمَا تَوَجَّهْ ﴾ .

« يأمر بالعدل » : يدعو إلى الخير والبر .

« على صراط مستقيم » : على منهج قويم .

أخبر السياق القرآنى قبل ذلك وفى الآية ٧٣ أن المشركين ﴿ يعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا ﴾ وهى الأصنام والأنداد والأوثان . وقال فى الآية ٧٤ ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أى لا تجعلوا لله أنداد وأشباها وأمثالا . وفى الآية ٧٥ ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه ﴾ ، قال قتادة : هذا المثل للمؤمن والكافر ، فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر لأنه لا ينتفع فى الآخرة بشىء من عبادته ، وإلى أن معنى ﴿ من رزقناه منا رزقا حسنا ﴾ هو المؤمن . ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة ، فإن النكرة فى الإثبات لا تقتضى الشمول .

وفى هذه الآية قال ابن عباس : الأبكم الكافر ، والذى يأمر بالعدل المؤمن ، ففيها مثل آخر مؤكد للمثل الأول ؛ إذ يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذى لا يدرى شيئا ولا يعود بخير ، والرجل القوى المتكلم الأمر بالعدل ، العامل على طريق الخير . وقال مجاهد : هو مثل مضروب للوثن أى الصنم الذى كانوا يعبدونه ، وللحق - سبحانه وتعالى - الذى جعلوا له أندادا .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقِضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ
 أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ
 اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

٩٢ - النحل (١٦)

نَقِضَ الشَّيْءَ يَنْقِضُهُ نَقِضًا : أفسده بعد إحكامه . يقال : نَقِضَ الْبِنَاءَ : هَدَمَهُ . ونَقِضَ الْحَبْلَ أَوْ الْغَزْلَ : حَلَّ طَاقَاتِهِ ، والطاقات جمع طاقة وهي شعبة أو حزمة من شعر أو خيوط أو حبال .

الغَزْلُ : المغزول أى الخيوط المفتولة بالمغزل .

قوة : إبرام وإحكام .

أَنْكَاثًا : جمع نَكَثَ وهو ما نُقِضَ مِنَ الْأَكْسِيَةِ (جمع كساء) والأخْبِيَةِ (جمع خِباء) لِيُغَزَلَ ثَانِيَةً .

والتعبير مثل ضُربَ لِنَاقِضِي الْعَهُودِ بَعْدَ تَوْثِيقِهَا وَالْمَعْنَى : لَا تَكُونُوا فِي نَقِضِكُمْ لِلْعَهُودِ وَالْأَيْمَانِ (والمنهى عنه فى الآية السابقة : وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) كالمراة التى راحت تحمل طاقات غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته . قيل إن هذه المرأة هى ربيعة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء ، اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وقلعة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هى وجواريتها من الغداة (الوقت ما بين الفجر وطلوع الشمس) إلى الظهر ، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن (الكشاف للزمخشري) .

﴿ تَتَّخِذُونَ ﴾ : حال . ﴿ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ : أَيْمَانَكُمْ مَفْعُولٌ أَوَّلٌ لَتَتَّخِذُونَ ، وَدَخَلًا مَفْعُولٌ ثَانٍ . وَالدَّخَلَ : الْمَفْسِدَةَ وَالْغَدْرَ .

والمعنى : لا تتخذوا أيمانكم وسيلة للغدر والخيانة فتنقضونها مع من تعاهدتم معهم إذا وجدتم قوما غيرهم أزيد عددا وأقوى وهو معنى ﴿ أربى ﴾ . ﴿ يبلوكم الله به ﴾ أى يختبركم به : هل توفون بعهدكم ؟

﴿ فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ

بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ٩٤ - النحل (١٦)

﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ : هذا مثل يضرب لكل من وقع في بلية ومحنة بعد عافية ونعمة ، ولكل من كان على الطريق المستقيم فجانبه .

زَلَّتْ قَدَمُهُ تَزَلُّ زَلًّا وَزُلُولاَ : زَلَقَتْ . ويقال : زَلَّ في منطقته ورأيه : أخطأ . والثبوت مصدر الفعل ثَبَتَ يَثْبُتُ ثَبَاتًا وَثُبُوتًا : استقر .

في الآية تكرار النهي عن اتخاذ الأيمان وسيلة للغدر والحيانة والإفساد بعد أن نهى عنه نهيا ضمنيًا في الآية السابقة . وفي هذا التكرار تأكيد عليهم وإظهار لعظم ما يركب منه ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ أى فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها (أى الأقدام) عليها . والمحجة : الطريق المستقيم .

الدَّخَلُ: الخديعة والغدر والمكر . من الفعل دَخَلَ الشَّيْءُ يُدْخِلُ دَخَلًا : أصابه فساد .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ أى لا تتخذوها ذريعة للغش والخديعة .

يؤكد السياق على الوفاء بالعهود ، وينهى عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة . ويحذر من عاقبة ذلك فى زعزعة قوائم الحياة النفسية والاجتماعية ، وزلزلة العقائد والارتباطات والمعاملات ، وينذر بالعذاب العظيم فى الآخرة .

ذلك أن اتخاذ الأيمان وسيلة للخديعة والغدر إنما يزعزع العقيدة فى الضمير ، ويشوه صورتها فى ضمائر الآخرين . فالذى يقسم وهو يعلم أنه كاذب فى قسمه لا يمكن أن تثبت له قدم ، ولا أن تثبت له قدم على صراط العقيدة . وهو فى الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش - ومن ثم يصددهم عن سبيل الله بهذا المثل السئ الذى يضربه .

ولقد دخلت فى الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهودهم ، ومن صدقهم فى وعدهم ، ومن إخلاصهم فى أيمانهم ، ومن نظافتهم فى معاملاتهم - فكان الكسب ضخما .

ولقد ترك القرآن وسنة الرسول - ﷺ - فى نفوس المسلمين أثرا قويا وطابعا عاما فى هذه الناحية ظل هو طابع التعامل الإسلامى الفردى والدولى المتميز .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

٩٧ - النحل (١٦)

﴿حياة طيبة﴾ : يعنى فى الدنيا ، وهو الظاهر . فالمؤمن الذى يعمل الصالحات يعيش عيشا طيبا فى الدنيا حتى ولو كان معسرا ، إذ معه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بما قسم الله . وعن ابن عباس : الحياة الطيبة هى الرزق الحلال ؛ وعن الحسن هى القناعة ؛ وقيل : هى حلاوة الطاعة والتوفيق فى قلبه .

هذه الحياة الطيبة متوقفة على شرطين : العمل الصالح والإيمان . إن الجنسين : الذكر والأنثى ، متساويان فى قاعدة العمل والجزاء ، وفى صلتهما بالله ، وفى جزائهما عند الله . ومع أن لفظ « مَنْ » حين يُطلق يشمل الذكر والأنثى ، إلا أن النص يُفصل : « من ذكر أو أنثى » لزيادة تقرير هذه الحقيقة وذلك فى السورة التى عرضت سوء رأى الجاهلية فى الأنثى وضيق المجتمع بها ، واستياء من يُبشّر بولدها ، وتواريه من القوم حزنا وعارا ، وذلك فى الآيتين ٥٨ و ٥٩ : ﴿ وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ .

وإن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصلية يرتكز عليها ، قاعدة الإيمان بالله ﴿ وهو مؤمن ﴾ فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء ، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته - إنما هو كهباء ورماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، والعقيدة هى المحور الذى تُشدُّ إليه الخيوط جميعا ، وإلا فهى أنكاث . فالعقيدة هى التى تجعل للعمل الصالح باعنا وغاية . فتجعل الخير أصيلا ثابتا يستند إلى أصل كبير ، لا عارضا مزعزا يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل .

وإن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة فى هذه الأرض لا يهم أن تكون رغبة ثرية بالمال . ففى الحياة أشياء أخرى كثيرة تطيب بها الحياة فى حدود الكفاية : فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه ؛ وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة وسكن البيوت ومودات القلوب .

وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره فى الضمير وآثاره فى الحياة - وليس المال إلا عنصرا واحدا يكفى منه القليل حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله .

وإن الحياة الطيبة فى الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن فى الآخرة : ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ

سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ

يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٩٨ - ١٠٠ النحل (١٦)

﴿ ليس له سلطان ﴾ أى تسلط وولاية ، فالمؤمنون المتوكلون على ربهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد من اتباع خطواته . والتسلط : التحكم والسيطرة .

والسلطان : القهر والغلبة ، ويستعمل فى الحجة والبرهان . والكلمة هنا . بمعنى : القهر والغلبة ، ولها نفس المعنى فى المواضع الآتية : ٢٢ - إبراهيم ؛ ٢٢ - الحجر ؛ ٦٥ - الإسراء ؛ ٢١ - سبأ ؛ ٣٠ - الصافات ؛ ٣٣ - الرحمن .

جاء فى « تفسير القرطبى » : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ﴾ أى بالإغواء والكفر ، أى ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يُغفر ، قاله سفيان . وقيل : إنه ليس له عليهم سلطان بحال ، لأن الله تعالى صرف سلطانه عليهم حين قال عدو الله إبليس لعنه الله : ﴿ ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ٣٩ ، ٤٠ - الحجر ، قال الله تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ ٤٢ - الحجر .

﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ أى يطيعونه . يقال : توليته أى أطعته ، وتوليت عنه ، أى عرضت عنه .

والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذى يتلى فيه كتاب الله ، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشيطان .

والأمر بالاستعاذة مندوب إليه (أى مستحب) عند جمهور العلماء ؛ وروى عن الثورى وعطاء أنه واجب نظرا لظاهر النص .

وقيل إنه خطاب للرسول ﷺ . وتوجيه الخطاب إليه للتنبيه على أنها مؤكدة بالنسبة لغيره ﷺ ، فإنه ﷺ مُحَصَّنٌ من الشيطان ، ومع هذا فقد أمر بالاستعاذة منه ، فما بالك بغيره .

وصيغة الاستعاذة المأثورة هى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لتضافر الروايات على أنه ﷺ كان يستعيذ كذلك .

فالذين يتوجهون إلى الله وحده ، ويخلصون قلوبهم لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم . فمهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم من أن ينساقوا معه . وقد يخطئون ، لكنهم لا يستسلمون ، إذ يطرودون الشيطان ويثوبون إلى ربهم من قريب .

﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

١٠٦ - النحل (١٦)

﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ ﴾ : نزلت في عمار بن ياسر ، في قول أهل التفسير ، لأنه قارب بعض ما دعاه الكفار إليه . قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمه سمية وصهبياً وبلاًلاً وحباًباً وسالماً فعدبواهم وقتلوا سمية وزوجها ياسر ، وهما أول قتيلين في الإسلام . وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : ﴿ كيف تجد قلبك ﴾ ؟ قال : مطمئن بالإيمان . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ فإن عادوا فعد ﴾ .

لما سمح الله عز وجل بالكفر به عند الإكراه ولم يؤاخذ به ، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب عليه حكم ؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبي ﷺ : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه » ، وهذا الأثر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء . (راجع تفسير القرطبي) .

أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل ، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر ؛ قال القرطبي : هذا قول مالك والكوفيين والشافعي . قال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ ٢٨ - آل عمران ، وقال : ﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾ ٩٨ - النساء . فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به ، والمكروه لا يكون إلا مستضعفاً غير ممتنع من فعل ما أمر به ؛ قاله البخاري .

وجاء في « التفسير الوسيط » : من جحد وجود الله أو أنكر دينه الحق من بعد الإيمان ، فإن الله يغضب عليه ويعذبه عذاباً عظيماً . هذا الجواب الذي قدرناه هنا مستفاد من قوله تعالى في باقي الآية : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ فحذف من الأول دلالة الثاني عليه .

ثم استثنى الله من هذا العقاب من أكره على الكفر : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ أي إلا من أرغم على الكفر بشيء يخشى منه على نفسه أو على عضو من أعضائه ، فكفر ، وحاله لم تتغير من ناحية اطمئنان قلبه بالإيمان وسلامة عقيدته ، ولم يخالط يقينه أي شك أو تردد ، فلا يضره هذا الكفر - بل هو في كنف الله ورعايته .

﴿ولكن من شرح بالكفر صدرا﴾ أى لم يكن مكرها على الكفر . بل أثره واطمأنت إليه نفسه ، وتفتح له قلبه ، وانشرح به صدره « فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » .

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظه باللسان - كذلك صنعت سمية أم ياسر وأبوه . وقد كان بلال - رضوان الله عليه - يفعل المشركون به الأفاعيل ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحدٌ ، أحدٌ وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدا رسول الله . فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ! فلم يزل يقطعه إربا إربا ، وهو ثابت على ذلك .

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا
عَمَلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ١١١ - النحل (١٦)

جَادَلَهُ مُجَادِلَةٌ وَجِدَالًا : ناقشه وخاصمه . قال الزمخشري : ومعنى المجادلة عنها :
الاعتذار عنها .

يقال لعين الشيء وذاته نفسه ، فكأنه قيل : يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لايهمه شأن
غيره ، كل يقول : نفسى نفسى ! من شدة هول يوم القيامة سوى محمد ، صلى الله عليه
وسلم ، فإنه يسأل فى أمته .

وشرح « التفسير الوسيط » تجادل بقوله : تدافع بالاعتذار .

« عن نفسها » : لا أحد يحاج أو يجادل عنها ، لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة وكل نفس
مشغلة بشأنها من شدة الكرب الذى يحيط بها ، حتى تفر من أقرب الأقربين إليها : « يوم يفر
المرء من أخيه . وأمّه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » الآيات من
٣٤ إلى ٣٧ من سورة عبس .

ومما قاله كعب الأحبار لسيدنا عمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، والذى نفسى بيده لو
وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك تارات لا يهملك إلا نفسك ، وإن لجّهم
زفرة لا ييقى ملك مقرب ولا نبى متخّب إلا وقع جاثيا على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم الخليل
ليدلى بالخلّة فيقول : يارب ، أنا خليلك إبراهيم ، لا أسألك اليوم إلا نفسى !

قال له عمر : يا كعب ، أين تجد ذلك فى كتاب الله ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ يوم تأتي كل
نفس تجادل عن نفسها ﴾ (١) .

« توفى كل نفس ما عملت » : تعطى كل نفس جزاء الذى عملته وأفيا غير منقوص ، « فمن
يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٢) ، وهم لا يظلمون نقيرا .
والتعبير يلقى ظل الهول الذى يشغل كل امرئ بنفسه .

(١) راجع تفسير القرطبي . (٢) ٧ ، ٨ - الزلزلة .

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

١١٢ - النحل (١٦)

يُجسِّم التعبيرُ الجوعَ والخوفَ فيجعلُه لباسًا ، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقًا ، لأنَّ الذوقَ أعمقُ أثرًا في الحسِّ من مساسِ اللباسِ للجلد . وتتداخل في التعبيرِ استجاباتِ الحواسِّ ، فتضاعف مس الجوعِ والخوفِ لهم ولذعه وتغلغله في النفوسِ .

اللباسُ : ما يستر الجسمَ ، والجمعُ : ألبسةٌ وألبسٌ (١) . ولباسُ كلِّ شيءٍ : غشاؤه .

الإذاقة واللباسُ استعارتان . والإذاقة المستعارة موقعة على اللباسِ المستعار . أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يصيب الناس منها ، فيقولون : ذاق فلان البؤسَ والضررَ ، وأذاقه العذابُ - شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرُّ البشع .

وأما اللباسُ فقد شبه به لاشتماله على اللابسِ ، ومعناه : ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث .

ويكون معنى التعبيرِ ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ : فَأَذَاقَهَا اللَّهُ ما غشيها من صنوف البلاء كالجوعِ والخوفِ وذلك بسبب كفرها بالنعم التي تفضل بها الله عليها .

أنعمُ : جمع نعمة ، على ترك الاعتداد بالتاء .

رَغَدًا : واسعًا .

وقرئ : « والخوفَ » عطفًا على لباس . قال القرطبي :

سماه لباسًا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس .

(١) واللباسُ : الزوج والزوجة . ولباسُ التقوى : الإيمان ، أو الحياء ، أو العمل الصالح .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

١٢٠ - النحل (١٦)

الأمة : الرجل الجامع لخصال الخير .

« إن إبراهيم كان أمة » ، قال الزمخشري : فيه وجهان ، أحدهما : أنه كان وحده أمة من الأمم لكماله فى جميع صفات الخير ، ووضح حسنين مخلوف هذا الوجه بقوله : كان عنده من الخير ما كان عند أمة بأسرها (١) . وقال مجاهد : كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار ، وذلك لمدة ما فى وقته . وفى صحيح البخارى ومسلم أنه قال لامرأته : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك . كان إمام الموحدين : رفع أعلام التوحيد ، وخفض رايات الشرك وحطم أصنامهم ، وبذل نفسه وأسلم وجهه لله رب العالمين .

والوجه الثانى : أن يكون أمة بمعنى المأموم أى يؤمه الناس ويقصدون إليه ليأخذوا منه الخير ، من الفعل أم إليه أى قصده . أو بمعنى مؤتم به أى مقتدى به من الفعل ائتم بالرجل : اقتدى . وعن ابن مسعود : الأمة الذى يعلم الخير . ويقوى هذا الوجه قول الله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا (٢) أى كان أمة يؤمه الناس ليقتبسوا منه الخيرات ويقتفوا بآثاره المباركات ، حتى أنت ، على جلاله قدرك ، قد أوحينا إليك أن اتبع ملته ووافق سيرته . والإمام الذى يهدى إلى الخير هو قائد أمة ، وله أجره وأجر من عمل بهديته ، فكأنه أمة من الناس فى خيره وثوابه .

﴿ قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ : مطيعا له ، أو القائم بأمره . سبحانه .

﴿ حَنِيفًا ﴾ : مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق وهو الإسلام .

(١) قال أبو نواس :

وليس على الله بمُستنكرٍ
أن يجمع العالم فى واحد

(٢) ١٢٣ - النحل .

﴿ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ بَيْنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

٦ - الإسراء (١٧)

كَّرَّ عَلَى الْعَدُوِّ : حَمَلَ . وَكَرَّ الْفَارِسُ يَكُرُّ فَهُوَ كَرَّارٌ وَمَكْرَأَى رَجَعَ .

وَالْكَرَّةُ : الرَّجْعَةُ ، وَالْكَرَّةُ : الْحَمْلَةُ فِي الْحَرْبِ .

وَالْكَرَّةُ فِي هَذَا التَّعْبِيرِ : الدَّوْلَةُ ^(١) وَالْغَلْبَةُ . وَاسْتَعْمَالَ الْكَرَّةِ فِي الدَّوْلَةِ وَالْغَلْبَةَ مَجَازٌ

شَائِعٌ ؛ كَمَا يُقَالُ : تَرَاجَعَ الْأَمْرُ .

وَمَعْنَى التَّعْبِيرِ : حِينَ تَبْتَمُ وَرَجَعْتُمْ عَنِ الْفَسَادِ وَالْعُلُوِّ أَعَدْنَا لَكُمْ النِّصْرَ وَالْغَلْبَةَ عَلَيْهِمْ أَيْ عَلَى أَصْحَابِ الْبَأْسِ وَالْبَطْشِ الَّذِينَ تَجَلَّوْا خِلَالَ الدِّيَارِ لِقَتْلِكُمْ وَكُنَّا قَدْ سَلَطْنَاكُمْ أَيْ بَعَثْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ ، فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ : « فَإِذَا جَاءَ وَعَدَ أَوْلَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أَوْلَى بَأْسًا شَدِيدًا فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا » .

جَاءَ فِي « التَّفْسِيرِ الْوَسِيطِ » وَأَصْلُ الْكُرَّةِ الرَّجْعَةُ ، وَإِطْلَاقُهَا عَلَى الْغَلْبَةِ هُنَا لِمَا فِيهِ مِنْ رَجُوعٍ هُوَ لَا الْمَهْزُومِينَ إِلَى مِنْ هَزْمِهِمْ فِي السَّابِقِ ، وَانْتِصَارِهِمْ عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الرَّجُوعِ .

قَضَى اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ (الَّذِي آتَاهُ لِمُوسَى) أَنَّهُمْ سَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ، وَأَنَّهُمْ سَيَعْلُونَ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَيَسَيَطِرُونَ وَكَلِمًا ارْتَفَعُوا فَاتَّخَذُوا الِارْتِفَاعَ وَسِيلَةً لِلْإِفْسَادِ ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَقْهَرُهُمْ وَيَسْتَبِيحُ حَرَمَاتِهِمْ وَيُدْمِرُهُمْ تَدْمِيرًا : « فَإِذَا جَاءَ وَعَدَ أَوْلَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أَوْلَى بَأْسًا شَدِيدًا فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا » . فَهَذِهِ هِيَ الْأَوْلَى : يَعْلُونَ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَيَصْبِحُ لَهُمْ فِيهَا قُوَّةٌ وَسُلْطَانٌ ، فَيَفْسِدُونَ فِيهَا ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عِبَادًا مِنْ عِبَادِهِ أَوْلَى بَأْسًا شَدِيدًا ، وَأَوْلَى بَطْشًا وَقُوَّةً ، يَسْتَبِيحُونَ الدِّيَارَ وَيُرْوِحُونَ فِيهَا وَيَغْدُونَ بِاسْتِهْتَارٍ ، وَيَطَّأُونَ مِنْ فِيهَا وَمَا فِيهَا بِلَا تَهْيِيبٍ « وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا » لَا يَخْلِفُ وَلَا يَكْذِبُ .

حَتَّى إِذَا ذَاقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَبِلَاتُ الْغَلْبِ وَالْقَهْرِ وَالذَّلِّ ؛ فَرَجَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، وَأَصْلَحُوا أَحْوَالَهُمْ وَأَفَادُوا مِنَ الْبَلَاءِ الْمَسْلُوطِ عَلَيْهِمْ ؛ وَحَتَّى إِذَا اسْتَعْلَى الْفَاتِحُونَ وَغَرَّتْهُمْ قُوَّتُهُمْ ، فَطَغَوْا هُمُ الْآخَرُونَ وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ ، أَذَالَ اللَّهُ لِلْمَغْلُوبِينَ مِنَ الْغَالِبِينَ ، وَمَكَّنَ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ بَيْنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ . وَالنَّفِيرُ جَمْعُ نَفَرٍ ، مِثْلُ عَيْبِدُ جَمْعُ عَبْدٍ . وَالنَّفِيرُ أَيْضًا : مَنْ يَنْفِرُ مَعَ الرَّجُلِ مِنْ عَشِيرَتِهِ لِلذَّهَابِ إِلَى الْعَدُوِّ .

(١) الْمَعْنَى الْأُولَى لِكَلِمَةِ الدَّوْلَةِ فِي الْقَامُوسِ هُوَ : الْاسْتِيلَاءُ وَالْغَلْبَةُ .

﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

٧ - الإسراء (١٧)

هذه هي القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة ؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل أثماره ونتائجه ، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج وبه تتكيف ؛ وتجعل الإنسان مسئولاً عن نفسه : إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء ، لا يلوم من إلا نفسه حين يقع عليه الجزاء .

﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ أى فعلها . وقال الطبرى : اللام بمعنى إلى أى وإن أسأتم فإليها ترجع الإساءة . وقيل : فلها أى فلها الجزاء والعقاب .

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ ١٣ - الإسراء (١٧)

طائره : عمله . يعنى ألزمتنا كل إنسان ما طار (أى خرج) من عمله ، فعمله لازم له لزوم القلادة أو الغل^(١) لا يُفك عنه . وعن الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بُعثت فُلدتها فى عنقك .

قال ابن عباس : طائره عمله وما قُدر عليه من خير وشر . وقال مقاتل والكلبي : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب عليه والتعبير يصور لزوم عمل الإنسان له وعدم مفارقتة إياه ، وذلك على طريقة القرآن فى تجسيم المعانى وإبرازها فى صورة حسية ، فعمله لا يتخلف عنه ، وهو لا يملك التملص منه .

وكذلك التعبير بإخراج كتابه منشورا (أى مبسوطا) يوم القيامة ، فهو يصور عمله مكشوفاً لا يملك إخفائه ، أو تجاهله أو المغالطة فيه . ويتجسم هذا المعنى فى صورة الكتاب المنشور ، فإذا هو أعمق أثراً فى النفس وأشد تأثيراً فى الحس .

(١) القلادة : ما يُجعل فى العنق من حلى أو وسام . والغُلُّ : طوق من حديد أو جلد يُجعل فى عنق الأسير أو المجرم .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ

رَسُولًا ﴾ ١٥ - الإسراء (١٧)

وَزَرَ يَزِرُ وَزْرًا ، وَوَزَّرَ : حَمَلَ مَا يُثْقِلُ ظَهْرَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُثْقَلَةِ : وَوَزَرَ : أَثَمَ ، فَهُوَ وَازِرٌ .

والوزير : الحمل الثقيل ، والوزير : الذنب (١) .

ومعنى التعبير : لا تحمل نفس أئمة إثم نفس أخرى بحيث تتمكن الثانية من التخلص من وزرها ، وإنما تحمل كل منهما إثم ما باشرته أو تسببت فيه وتُعاقب عليه .

إنها التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه ، فكُلُّ يُسأل عن عمله ، وكل يُجزى بعمله .

وقد ورد التعبير خمس مرات في القرآن الكريم : ١٦٤ - الأنعام ؛ ١٥ - الإسراء ؛ ١٨ -

فاطر ؛ ٧ - الزمر ؛ ٣٨ - النجم .

(١) ويقال : أعدوا أوزار الحرب : آلتها . ووضعت الحرب أوزارها : انقضت أمرها وخفت أثقالها ، فلم يبق قتال .

﴿ وَأَخْفَضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ ٢٤ - الإسراء (١٧)

معنى التعبير : أَلَنَ جَانِبَكَ مُتَدَلِّلاً لَهُمَا مِنْ مِبَالِغَتِكَ فِي الرَّحْمَةِ بِهِمَا .
والجناح : الجانب . يقال : خَفَضَ فُلَانٌ جَنَاحَهُ لِلنَّاسِ : أَلَانَ جَانِبَهُ وَتَوَاضَعَ لَهُمْ .
وفي هذا التعبير أضاف الجناح إلى الذل كما أضيف حاتم إلى الجود بمعنى : اخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول .

أو اجعل لذلك لهما جناحاً خفيفاً ، كما جعل لبيدٌ للشمال يداً^(١) وللقوة زماماً ، مبالغة في التذلل والتواضع لهما .

﴿ من الرحمة ﴾ : من فرط رحمتك بهما وعطفك عليهما ، لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس .

﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ : لا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها ، وإنما ادع الله أن يرحمهما رحمته الباقية ، جزاء تربيتهما ورحمتكما بك وأنت صغير .

وعن النبي ﷺ : « رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما » أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر ورواه البخاري في الأدب المفرد موقوفاً .

وعنه ﷺ قال ﴿ إياكم وعقوق الوالدين ، فإن الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار إزاره خيلاءً ، إن الكبرياء لله رب العالمين ﴾ رواه الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله .

وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمه ويقول :

إِنِّي لَهَا مَطِيَّةٌ لَا تَدْعُرُ إِذَا الرَّكَّابُ نَفَرَتْ لَا تَنْفَرُ
مَا حَمَلْتُ وَأَرْضَعْتَنِي أَكْثَرُ اللَّهُ رَبِّي ذُو الْجَلَالِ الْأَكْبَرِ

وقال لابن عمر : تظنني جازيتها يا ابن عمر ؟ قال : لا ولو زفرة واحدة .

وسئل الفضيل بن عياض عن برِّ الوالدين فقال : أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل .
وسئل بعضهم فقال : أن لا ترفع صوتك عليهما ، ولا تنظر شراً إليهما (وهو نظر الغضب بؤخر العين) ، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن ، وأن تترحم عليهما ما عاشا ، وتدعو لهما إذا ماتا وتقوم بخدمة أودائهما^(٢) من بعدهما . فعن النبي ﷺ : « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل وداًبيه » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .

إن التعبير ﴿ وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ يشف ويلطف حتى يبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان . فالرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عينا ولا يرفض أمراً . وكأنما للذل جناح يخفضه إيذاناً بالسلام والاستسلام .

(١) قال لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقره إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

(٢) أوداء : جمع وديد وهو المحب ، أودائهما : محبيهما .

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ

كَفُورًا ﴾ ٢٧ - الإسراء (١٧)

بَذَرَ الشَّيْءَ : نَثَرَهُ وَفَرَّقَهُ . وَبَذَرَ مَالَهُ : أَسْرَفَ فِي إِنْفَاقِهِ .

وَبَذَرَ الْمَالَ : فَرَّقَهُ إِسْرَافًا .

قال الزمخشري : التبذير هو تفريق المال فيما لا ينبغي ، وإنفاقه على وجه الإسراف . وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتبئس (١) عليها وتبذر أموالها في الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك في أشعارها ، فأمر الله بالنفقة في وجوهها بما يقرب منه ويزلف .

قال عبد الله : التبذير هو إنفاق المال في غير حقه .

وقال مجاهد : لو أنفق مدًّا (٢) في باطل كان تبذيرا .

وأنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر ، فقال له صاحبه : لا خير في السرف ، فقال : لا سرف في الخير .

« إخوان الشياطين » : أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمة ، لأنه لا شر (٣) من الشيطان . أوهم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف . أوهم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد . والمبذرون إخوان الشياطين لأنهم ينفقون في الباطل ، وينفقون في الشر ، وينفقون في المعصية .

(١) يتقامرون ، من الميسر وهو كل شيء فيه قمار .

(٢) المد : مكيال قديم وهو رُبع صاع . والمد مقدر بأن يمد الرجل يديه فيملا كفيه طعاما . وهو أقل ما كانوا يتصدقون به في العادة .

راجع : لسان العرب .

(٣) لا شر : لا أكثر شراً .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾

فَتَقْعَدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿ ٢٩ - الإسراء (١٧) ﴾

عندما يستمع الإنسان إلى هذا التعبير أو يقرؤه ، تبرز أمامه صورة لشخص عضده وذراعه ملتصقان بصدرة ، ويده مربوطة إلى عنقه بقيد ، فلا تنفك من رباطها ولا تمتد لتعطي . صورة تعبر بطريقة التجسيم عن الشح والتقتير في أكثر درجاته حدة .

الغُلُّ : طوق من حديد أو جلد ، يُجعل في عنق الأسير أو المجرم ، أو في أيديهما ؛ والجمع : أغلال .

وغلَّ فلانا : وضع في يده أو عنقه الغُلُّ .

غلَّتْ يدهُ إلى عنقه : أمسك عن الإنفاق .

والتعبير تمثيل لشح الشحيح وسرف المسرف ، وأمرٌ بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير . والتوازن هو القاعدة الكبرى في النهج الإسلامى ، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن . والتعبير يرسم البخل يدا مغلولة إلى العنق ، ويرسم الإسراف يدا مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئا ، ويرسم نهاية البخل ونهاية الإسراف قعدة كقعدة المولود المحسور . فالمسرف غير مرضى عنه من الله ؛ وغير مرضى عنه من الناس ، فالمحتاج يقول عن المسرف : أعطى فلانا وحرمنى ، ويقول المستغنى : ما يحسن تدبير أمر المعيشة . وإذا احتاج المسرف فإنه لا يجد ويقعد محسورا أى لا شىء عنده ؛ والمحسور فى الأصل : المنقطع عن السير ، من حسره السفر إذا بلغ منه ، والبعير الحسير هو الذى ذهب قوته فلا انبغات به .

فالتعبير صور المسرف بحال من يسط يده بسطا لا يتعلق بسببه فيها شىء مما تقبض الأيدي عليه ، وفى هذا التصوير مبالغة بليغة .

فالتعبير نهى عن جانبى الإفراط والتفريط ، ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط ، وهو العدل الذى ندب الله إليه :

ولا تك فيها مُفْرَطاً أو مُفْرَطاً كلاً طرفي قصدِ الأمور ذميمٌ

٣٢ - الإسراء (١٧)

قَرَّبَ الشَّيْءَ يَقْرِبُهُ قُرْبًا وَقُرْبَانًا : دنا منه أو باشره أو فعله .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ ﴾ : ولا تدخلوا في شيء من مقدمات الزنى ، فالتعبير يحذر من مباشرة دواعيه وأسبابه . ومنها النظرة الآثمة فهي سهم من سهام إبليس ، وهى بداية كل شر . ومنها خلو الرجل بالمرأة الأجنبية ، لأن الشيطان يجيد السفارة فيها ، فيوسوس لكل منهما ويزين الشر ويأمر بالفحشاء وفى الأثر (١) : « ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » ومن دواعى الزنى أيضا أن تبدى المرأة زينتها لرجل لا يحل له ذلك منها ، فإن فعل ذلك يحرك الرغبة الآثمة بينهما ويدعو إلى الفجور . ومما يؤدي إلى الفاحشة أن تلين المرأة وتخضع (٢) فى كلامها ، فيطمع فيها من فى قلبه داء الرغبة الآثمة .

وفى النهى عن قربان الزنا بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى ، فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كانت حراما كان المتوسل إليه حراما بفحوى الخطاب .

ثم علل النهى عن الزنا بقوله : ﴿ إنه كان فاحشة ﴾ أى قبيحا متبالغا فى القبح مجاوزا للحد ، ﴿ وساء سبيلا ﴾ أى طريقا ، فبئس الطريق طريقه . إن فى الزنا قتلا من نواحى شتى . إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لماء الحياة فى غير موضعها ، يتبعه غالبا الرغبة فى التخلص من آثاره بقتل الجنين ، وإذا ترك الجنين للحياة ترك فى الغالب حياة شريرة ، أو حياة مهينة ، فهى حياة مضیعة فى المجتمع على نحو من الأنحاء . وهو قتل للجماعة التى يفشو فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة فى العرض والولد- وتحلل الجماعة وتتفكك روابطها ، فتنتهى إلى ما يشبه الموت .

وهو قتل للجماعة من جانب آخر ، إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريق الزنا يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ، ويجعل الأسرة تبعة لا داعى لها- والأسرة هى المحضن الصالح للفراخ الناشئة ، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فى هذا المحضن ، محضن الأسرة .

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال ، منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث . وقد يفر بعضهم أن أوروبا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما . لكن آثار هذا الانحلال فى الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لاشك فيها . ولم

(١) الأثر : الخير المروى والسنة الباقية .

(٢) خضعت بالقول : ألانت كلامها .

تظهر آثاره بعد فى الولايات المتحدة لأنها دولة فتية ذات موارد واسعة ، فهى كالشباب الذى يسرف فى شهواته فلا يظهر أثر الإسراف فى بنيته وهو شاب ، ولكنه سرعان ما يتحطم عندما يدلّف إلى الكهولة .

ولهذا فإن الإسلام يقطع الطريق على الأسباب الدافعة إلى الزنا :

يكره الاختلاط بين الجنسين فى غير ضرورة ، ويجرم الخلوة ؛

وينهى عن التبرج بالزينة ؛

ويحض على الزواج لمن استطاع ؛

ويوصى بالصوم لمن لا يستطيع ؛

ويكره الحواجز التى تمنع من الزواج كالمغالة فى المهور ؛

وينفى الخوف من العيلة والإملاق (الفقر) بسبب الأولاد ؛

ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم ؛

ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين وقوعها ، وعلى رمى المحصنات الغافلات دون

برهان .

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ ٣٤ - الإسراء (١٧)

قال القرطبي : « إن العهد كان مسئولاً أى مسئولاً عنه ، فحذف « عنه » كقوله : « ويفعلون ما يؤمرون » أى ما يؤمرون به وحذف « به » . ويكون معنى التعبير أن المعاهد يُطلب منه أن يفي بالعهد ولا ينكثه .

وقيل إن العهد يُسأل تبكيتاً لناقضه ، فيقال له : لم نُكثت ؟ وهلا وفى بك ؟ كما يقال للموءودة : بأى ذنب قتلت ؟ تبكيتاً لوائدها . ويعضد التأويل القائل بأن العهد نفسه سيسأل وقوفُ الرحم بين يدي الله وسؤالها فيمن وصلها وقطعها ، وقد ورد ذلك فى الحديث الصحيح .

وفسر صاحب الظلال التعبير بقوله : يسأل الله جل جلاله عن الوفاء بالعهد ، ويحاسب من ينكث به وينقضه .

وقال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد .

وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد . لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة فى ضمير الفرد وفى حياة الجماعة . وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد فى صور شتى فى القرآن وفى الحديث النبوى : سواء فى ذلك عهد الله وعهد الناس ، عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة ، عهد الحاكم وعهد المحكوم .

وبلغ الإسلام فى واقعه التاريخى شأواً بعيداً فى الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا فى ظل الإسلام .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ

أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ٣٦ - الإسراء (١٧)

قفا الشيء أو الأثر يَقْفُوهُ قَفْوًا : تَبِعَهُ (١) .

وقفا فلاناً : رماه بأمر قبيح .

وعلى أساس المعنى الأول يكون التفسير : ولا تتبع ما لا تعلم ولا يعينك . وقال القتيبي : لا تتبع الحدس والظنون .

ويقول حسنين مخلوف : ويندرج في ذلك شهادة الزور والكذب ، وأن تقول للناس وفي الناس ما لا علم لك به ، وترميهم بالباطل .

وعن الحسن : لا تقف أخاك المسلم إذا مربك ، فتقول : هذا يفعل كذا ، ورأيتك يفعل ، وسمعتك ، وأنت لم تر ولم تسمع . روى الإمام أحمد والطبراني من رواية معاذ بن أنس : « من قفا مؤمنا بما ليس فيه يريد شينه به حسبه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » .

« ولا تقف ما ليس لك به علم » : ولا تَتَّبِعْ ما لم تعلمه علم اليقين ، وما لم تثبت من صحته : من قول يُقال ورواية تروى ، من ظاهرة تُفسر أو واقعة تَعْلَل . وفي الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » . وفي سنن أبي داود : « بثس مطية الرجل زعموا » وفي الحديث الآخر : « إن أفرى القرى أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا (٢) .

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق . ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج ، لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة ، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل ، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم (٣) .

فالأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ، والمنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ، ليسا سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعثها

(١) ومنه القائف وهو الذي يتبع الأثر . وقافية كل شيء آخره ، ومنه قافية الشعر لأنها تقفو البيت . ومنه اسم النبي ﷺ المَقْفِيُّ لأنه جاء آخر الأنبياء .

(٢) القرى من الأمور : المَخْتَلَق ، وافترى القول : اختلقه .

(٣) فاللسان لا يقول كلمة ولا يروى حادثة ولا ينقل رواية ، ولا يصدر العقل حكماً ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هناك شك ولا شبهة في صحتها .

الكبرى ، إذ يجعل الإنسان مسئولاً عن سمعه وبصره وفؤاده أمام واهب السمع والبصر والفؤاد : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » أى يسأل كل واحد منهم عما اكتسب ، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » ٦٥ - يس . وقال أيضاً : « حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » ٢٠ - فصلت .

فالتعبير القرآنى يقرر منهجاً كاملاً متكاملًا يأخذ العقل والحواس بالتحرج فى الحكم والتثبت فى الاستقراء ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله - وهذه هى ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ
الْجِبَالَ طُولًا ﴾ ٣٧ - الإسراء (١٧)

« مَرَحًا » : حال أى ذا مرح .

والتعبير نهى عن الخيلاء وأمر بالتواضع .

قال قتادة : المرح هو الخيلاء فى المشى . وقيل هو التكبر فى المشى . وقيل هو البطر والأشر (الاستكبار) . وقيل : تجاوز الإنسان قدره ، وكلها مذمومة (١) . قال الشاعر :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا

فكم تحتها قومٌ همو منك أرفعُ

وإن كنت فى عزٍّ وحرزٍ ومنعة

فكم مات من قومٍ همو منك أمتعُ

﴿ لن تخرق الأرض ﴾ : لن تجعل فيها خر قابدوسك لها وشدة وطأتك ، ولن تتولج باطنها . ﴿ ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ أى لن تساوى الجبال بطولك أو تطاولك ، فدع عنك الخيلاء والتعالى على الناس ، فأنت مخلوق ضعيف .

والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده ، تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان ، أو قوة أو جمال . ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام حول الله ، لطامن من كبريائه ، وخفف من خيلائه ، ومشى على الأرض هونا لا تيتها ولا مرحا . وفى الحديث : « من تواضع لله رفعه فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير . ومن استكبر وضعه الله فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير ، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير » رواه ابن كثير فى « تفسير القرآن العظيم » .

(١) ومن معانى المرح : شدة الفرح ، والنشاط ، وهذان المعنيان محمودان على العكس من المعانى الأخرى فهى مذمومة .

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ

كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ ٥٣ - الإسراء (١٧)

هذا تعبير لا أثر فيه للكنايات أو الإستعارات ، وإنما هي كلمات عادية وُضِعَ بعضها إلى جانب بعض بطريقة فريدة جعلت منها تعبيراً بالغ الأثر والتأثير .

الجناس والجوار بين « قل » و « يقولوا » لا يثيران ضجراً ، وإنما تراح إليهما النفس وتستعذ بهما . وإضافة ضمير المتكلم (الياء) إلى (عباد) تنزل على القلب برداً وسلاماً . ويتبع ضمير الغيبة (هي) اسم الصلة (التي) وتأتي في أثرهما صيغة أفعل التفضيل « أحسن » ليتألق الثلاثة بهاء ورواء تصفو بهما الأرواح من كدر الإحن والثرات - ترى أى سلام يُظلل حياة العباد لو توخى كل منهم قول « التي هي أحسن » ؟

فالكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب ، تندى جفافها ، وتجمعها على الود الكريم .

« ينزَع » : يُفسد ويُغوى بالعداوة والبغضاء ويشير الضغائن والأحقاد .

﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾

﴿ وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ
وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

٦٤ - الإسراء (١٧)

﴿ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ ﴾ صحَّ عليهم صياحا شديدا واستحثهم على الشر وادفعهم إليه دفعا . من
الجلبة وهى الصياح والصخب ، جَلَبَ يَجْلِبُ جَلْبًا وَجَلْبًا : أحدث جَلْبَةً .

وَأَجْلَبَ عَلَى الْعَدُوِّ إِجْلَابًا : جَمَعَ الْمُقَاتِلِينَ لِقِتَالِهِ .

الْخَيْلُ : الخيالة ، رَاكِبُو الْخَيْلِ ، جماعة الفرسان .

رَجَلِكُ : اسم جمع للراجل وهو جندي المشاة .

« أَجْلِبْ عَلَيْهِ بِخَيْلِكَ وَرَجَلِكَ » : اجمع عليهم جنديك ، الفرسان منهم والمشاة . يريد
التعبير بذلك : كل راكب وماشى فى معصية الله تعالى كما قال أكثر المفسرين ؛ فما كان من
راكب وماشى يقاتل فى معصية الله فهو من خيل إبليس ورجالته . روى سعيد بن جبير
ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت فى معصية الله ، وكل رجل مشى فى معصية
الله ، وكل مال أصيب من حرام ، وكل ولد بغية (ابن زنى) فهو للشيطان .

وهذا الكلام ورد مورد التمثيل ، فهو يمثل حال الشيطان فى التسلط على من يغويه ويضله
بقائد مغوار أغار على قوم بجنده من خيالة ومشاة حتى استأصلهم . واستئصال الشيطان لهم
هنا معناه أنه يوردهم مورد الهلاك بإفسادهم وإيقاعهم فى الموبقات المهلكات . والتعبير
تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول . فهى المعركة
الصاخبة تستخدم فيها الأصوات والخيال والرجل على طريقة المارك والمبارزات . يرسل فيها
الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، ويستدرجهم للفتح المنسوب
والمكيدة المدبرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ أى استخف وادفع إلى الشر
والمعاصى من استطعت دفعه منهم بصياحك عليهم ، والصياح والصوت هنا وسوسة
الشيطان ، وقيل : هو صوت كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى ، وقال مجاهد : هو الغناء
والمزامير واللهو . وقال الزمخشري فى تفسير « بصوتك » : بدعائك إلى الشر ، أى أن إبليس
يدعوهم إلى الفسوق والعصيان .

« وشاركهم فى الأموال والأولاد » أى اجعل لنفسك شركة فى ذلك ، وشركته فى الأموال إنفاقها فى معصية الله ، قاله الحسن . وقال مجاهد : هى التى أصابوها من غير حلها (كالربا والرشوة) . أما الأولاد الذين يشارك فيهم إبليس فهم أولاد الزنى - فالتعبير يصور شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة .

وقال الزمخشري عن المشاركة فى الأموال والأولاد إنها كل معصية يحملهم عليها ، كالربا والمكاسب المحرمة ، والبحيرة والسائبة ^(١) ، والإنفاق فى الفسوق ، والإسراف ، ومنع الزكاة . والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام (أى بالزنى) ، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث ، والتهويد والتنصير ، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة .

« عدّهم » أى منّهم الأمانى الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولا حساب . « وما يعدّهم الشيطان إلا غروراً » أى باطلاً ، ومن هذه الوعود الباطلة : الوعد بالغنى من الأسباب الحرام والوعد بالفوز بالوسائل القذرة والأسباب الخسيسة .

(١) البَحيرة : الناقة كانت فى الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن شقّوا أذنها وأعقّوها إن يُتّفع بها ، ولم يمنعوها من مرعى ولا ماء ؛ وقد أبطلها الإسلام .
والسائبة : الناقة المهملة التى كانت تترك فى الجاهلية وتُخلى لتذهب حيث تشاء وفاء لنذر أو نحوه .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ ﴾

وَأَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴿ ٨٠ - الإِسْرَاءُ (١٧) ﴾

مُدْخَلَ وَمُخْرَجَ (بضم الميم) معناهما الإدخال والإخراج ، مصدر الرباعى : أدخل وأخرج (١) .

الصَّدَقُ - فى الحسبى : الصلب من الرماح وغيرها .

وفى المعنوى : الصدق : الكامل من كل شىء .

والصدق فى الأصل هو الصحة والاستقامة فى القول . وقد يستعمل الصدق فى كل ما يحق ويحصل قولاً أو فعلاً ، وفى كل ما يحسن من شىء أو شخص .

ويجربى الوصف بالمصدر منه مضافاً ، فيقال : رجُلٌ صِدْقٌ ، وقدمُ صِدْقٍ ، ومقعدُ صِدْقٍ ، ولسانُ صِدْقٍ .

ومنه : مدْخَلُ صِدْقٍ أى إدخالاً حسناً مرضياً . وكذلك مُخْرَجُ صِدْقٍ أى إخراجاً حسناً مرضياً .

« رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق » : رب أصلح لى وردى (٢) فى كل الأمور وصدردى (٣) . فالآية عامة فى كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، ويتنظر من تصرف المقادير فى الموت والحياة ، فهى دعاء .

وقيل : المعنى أدخلنى القبر مدْخَلَ صِدْقٍ أى إدخالاً مرضياً على طهارة وطيب من السيئات ، وأخرجنى منه عند البعث إخراجاً مرضياً ، ملقى بالكرامة ، آمناً من السخط ، يدل عليه ذكره بعد ذكر البعث فى الآية السابقة : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » .

وقيل : نزلت حين أمر ، ﷺ ، بالهجرة ، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة .

وقيل : إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً .

وقيل : إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر - وهو النبوة - وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط .

﴿ واجعل لى من لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ أى حجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملكاً وعزاً قوياً ناصرًا للإسلام على الكفر مظهره له عليه ، فأجيب دعوته .

(١) قرأ الحسن ونصربن عاصم مدْخَلَ وَمَخْرَجَ (بفتح الميم) بمعنى الدخول والخروج ، مصدر الثلاثى : دَخَلَ وخَرَجَ .

(٢) ورد المكان أو الشىء : أتاه ودخله .

(٣) صَدَّرَ عن المكان صَدْرًا وصدَّرًا : رجع وانصرف .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

٨١ - الإسراء (١٧)

﴿ وقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ الذى لا مَرِيَّةَ فيه ولا قِيلَ لهم برده ، وهو الإسلام المؤيد بمعجزة القرآن الكريم .

﴿ وزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ أى ذهب الباطل وهلك ، والباطل هو الشرك والكفر وما زينه الشيطان من شرور وآثام .

زَهَقَ الْبَاطِلُ يُزَهَقُ زَهَقًا وَزَهُوقًا : زال واضمحَل ، فهو زَاهِقٌ وَزَهُوقٌ ، أى لا بقاء له .

قال القرطبي تعليقا على أقوال من سبقوه فى تفسير هذا التعبير : والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة ، فيكون التفسير : جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه ، ﴿ وزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ : بطل الباطل .

روى البخارى والترمذى عن ابن مسعود قال : دخل النبى ، ﷺ ، مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نُصْبًا ، فجعل النبى ، ﷺ ، يطعنها بمخضرة (١) فى يده - وربما قال بعود - ويقول : « وقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » . يقال : إنها كانت مثبتة بالرصاص وأنه كلما طعن منها صنما فى وجهه خَرَّ لِقْفَاهُ ، أو فى قفاه خَرَّ لَوْجَهُه .

إنها حقيقة لدنية يقرها القرآن بصيغة التوكيد : ﴿ إن الباطل كان زهوقًا ﴾ ، وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة . فالباطل يتنفخ وينفخ ، لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة ، ومن ثم يحاول أن يمويه على العين وأن يبدو كبيراً ضخماً ، ولكنه هش سريع العطب لأنه يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية إذا تخلخلت ووهت تهاوى وانهار - أما الحق فإنه يستمد من ذاته عناصر وجوده .

(١) المِخْضَرَةُ : قضيب يُشَارِبُهُ فى أثناء الخطابة والكلام . كان يتخذهُ الملوك والخطباء .

﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ

الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ٨٢ - الإسراء (١٧)

كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين ، فهو شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرُّيب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل فيفهم المعجزات والأمر الدالة على الله تعالى .

فى القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة : فهو يصل القلب بالله ، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ؛ ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة . أما القلق فمرض ، والحيرة نصب ، والوسوسة داء .

وفى القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان - وهى من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب ، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار .

وفى القرآن شفاء من الاتجاهات المختلفة فى الشعور والتفكير . فهو يعصم العقل من الشطط ومن إنفاق طاقته فيما لا يجدى ، وإنما يطلق له الحرية فى مجالاته المثمرة . وكذلك هو فى عالم الجسد يتفق طاقاته فى اعتدال بلاكبت ولا شطط فيحفظه سليماً معاً فى ويدخر طاقته للإنتاج المثمر .

وفى القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التى تخلخل بناء الجماعات ، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنيتها ، فتعيش الجماعة فى ظل نظامه الاجتماعى وعدالته الشاملة فى سلامة وأمن وطمأنينة .

ويرى بعض العلماء أن فيه شفاء من الأمراض الظاهرة وذلك بالرقى والتعوذ . وأورد القرطبى ما رواه الأئمة عن أبى سعيد الخدرى قال إنه قرأ على الملك الذى لدغه العقرب « الحمد لله رب العالمين » سبع مرات فبرأ ، ولما أخبر الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، بذلك قاله له « وما يدريك أنها رقية » قلت : يا رسول الله شيء ألقى فى روعى .

« ورحمة للمؤمنين » : تفريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضل به تعالى من الثواب على تلاوته ، كما روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف » .

﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ إلا هلاكاً وضلالاً وذلك لتكذيبهم ، نظيره قوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ ٤٤ - فصلت .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾

كَانَ يَتُوسًّا ﴿ ٨٣ - الإسراء (١٧) ﴾

نَأَى يَتَأَى تَأَيًّا : بَعُدَ . وَنَأَى عَنْهُ : أَعْرَضَ ، لِأَنَّ شَأْنَ الْمَعْرُضِ أَنْ يَبْعُدَ وَلَا يَقْتَرِبَ (١) .

وَيُقَالُ : نَأَى بِجَانِبِهِ عَنْهُ أَيْ أَعْرَضَ عَنْهُ كَأَنَّهُ أَبْعَدَ جَانِبَهُ وَأَنَاءَهُ .

وَيُقَالُ أَيْضًا : نَأَى بِجَانِبِهِ أَيْ تَكَبَّرَ ، لِأَنَّ شَأْنَ الْمُسْتَكْبِرِ أَنْ يَبْعُدَ وَلَا يَقَارِبَ .

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ » بِالصَّحَّةِ وَالسَّعَةِ « أَعْرَضَ » عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ كَأَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنْهُ مُسْتَبِدٌّ بِنَفْسِهِ « وَنَأَى بِجَانِبِهِ » تَأَكِيدُ لِلْإِعْرَاضِ ، لِأَنَّ الْإِعْرَاضَ عَنِ الشَّيْءِ أَنْ يُولِيَهُ عَرَضَ وَجْهَهُ . وَالنَّأَى بِالْجَانِبِ : أَنْ يَلْوِي عَنْهُ عَطْفَهُ وَيُولِيهِ ظَهْرَهُ ، وَأَرَادَ الْاسْتِكْبَارَ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَادَةِ الْمُسْتَكْبِرِينَ .

« وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ » مِنْ فَقْرٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ نَازِلَةٍ مِنَ النَّوَازِلِ « كَانَ يَتُوسًّا » شَدِيدَ الْيَأْسِ مِنْ رُوحِ اللَّهِ : ﴿ إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ ٨٧ - يوسف .

تَذَكَّرُ الْآيَةُ مِنْهَا عَامًا سَلَكَهُ جِنْسُ الْإِنْسَانِ عِنْدَ مِمَارَسَتِهِ لِشُئُونِ الْحَيَاةِ . فَإِذَا بَسَطَ اللَّهُ لَهُ أَسْبَابَ النِّعْمَةِ وَالقُوَّةِ ، لَمْ يَذْكُرْ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَتَبَرَّزَ الْآيَةَ مِبَالِغَتِهِ فِي الْإِعْرَاضِ وَالْبَعْدِ عَنْ رَبِّهِ غُرُورًا وَاسْتِكْبَارًا . فَالنِّعْمَةُ تُطْفِئُ وَتُبْطِرُ مَا لَمْ يَذْكُرِ الْإِنْسَانُ وَاهْبِهَا فَيُحْمَدُ وَيُشْكِرُ ؛ أَمَّا حِينَ يُتْرَكُ لِنَزْعَاتِهِ وَانْدِفَاعَاتِهِ وَبِدُونِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ شِفَاءٍ وَرَحْمَةٍ ، فَهُوَ مُتَّبَطِّرٌ مُعْرَضٌ .

وَإِذَا نَزَلَ بِهِ شَرٌّ ، تَظَلَّمَ فِي وَجْهِهِ فَجَاجَ الْحَيَاةِ وَيُثْسِ مِنْ فَرَجِ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ عَلَيْهِ فِي الرِّخَاءِ حَتَّى يَرْجُوهُ فِي الشَّدَةِ . وَلَوْ أَنَّهُ اتَّصَلَ بِاللَّهِ لَا طَمَآنَ إِلَى رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ . وَهَنَا تَتَجَلَّى قِيَمَةُ الْإِيمَانِ وَمَا فِيهِ مِنْ رَحْمَةٍ فِي السَّرَاءِ وَفِي الضَّرِّاءِ . سِوَاءِ .

(١) نَأَى عَنِ الْحَقِّ : أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَضَى فِي ضَلَالِهِ وَلَمْ يَقْبَلْهُ .

﴿ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَيَّ شَاكِلَتَهُ ﴾

﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَيَّ شَاكِلَتَهُ فَرِيكُمُ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾

٨٤ - الإسراء (١٧)

الشَّاكِلَةُ : الشَّكْلُ ، والشَّاكِلَةُ : السَّجِيَّةُ والطَّرِيقَةُ والمَذْهَبُ .

« قل كل يعمل على شاكلته » أى على سجيته ، أو على مذهبه وطريقته التى تشابه حاله وما هو عليه من الحسن والقبح .

وقيل : كل يعمل على ما هو أشكل^(١) عنده وأولى بالصواب فى اعتقاده ، مأخوذ من الشكل ؛ يقال : لست على شكلى ولا شاكلتى^(٢) .

« فريكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » أى بمن هو أسدُّ طريقا وبالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . وفى هذا التقرير تهديد خفى بعاقبة العمل والاتجاه ، لياخذ كل حذرهِ ويحاول أن يسلك سبيل الهدى .

(١) شَاكِلَةٌ : شَائِعَةٌ ومَائِلَةٌ ، والمشَاكِلَةُ : المَائِلَةُ . أشْكَلُ : أكثرُ شَبَهًا ومَائِلَةٌ .

(٢) قال الشاعر :

كل امرئ يشبهه فعله ما يفعل المرء فهو أهله

﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

٨٨ - الإسراء (١٧)

قل لهم لو اتفقت كلمة الإنس منهم والجن ، وتضافرت هممهم وأقبلوا بكل عقولهم وأفكارهم على تحقيق رغبتهم فى الإتيان بمثله فى سمو الأسلوب ، ودقة التنسيق ، وكمال المعنى وقوة التشريع ، والإخبار بالغيبيات وغير ذلك ، لو اجتمعت على ذلك لعجزوا عن الإتيان بمثله . وقد عجز فصحاء العرب - وهم أئمة البيان وفرسان البلاغة وذوو اللسن^(١) فى الخطابة - عن معارضته^(٢) بعد التحدى ، فكان غيرهم أعجز ! وتتابعت القرون وتضافر الأعداء فلم يستطع أحد أن يأتى بمثله ؛ فكان ذلك آية من آيات الله ، ودليلا على أنه من وحى الله ، وليس من كلام البشر .

هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل ، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وأثاره .

والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل ، ملحوظ فيه نوااميس الفطرة التى تصرف النفس البشرية فى كل أطوارها وأحوالها ، التى تصرف الجماعات الإنسانية فى كل ظروفها . ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المشابكة بالقوانين الملائمة للفطرة والمتغلغلة (أى القوانين) فى وشائجها (أى وشائج الفطرة) ودروبها ومنحنيات الكثرة .

والعلاج الذى يضعه القرآن لمشاكل الإنسانية علاج متناسق ، لا يغيب عن حسابه احتمال واحد من الاحتمالات الكثيرة ولا ملابسة واحدة من الملابس المتعارضة فى حياة الفرد وحياة الجماعة ، لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة فى كل أحوالها وملابساتها المشابكة .

أما النظم البشرية فهى متأثرة بقصور الإنسان وملابساته حياته . ومن ثم فهى تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات فى الوقت الواحد ؛ وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدى بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد !

إن إعجاز القرآن لا يتمثل فى إعجاز نظمه وبلاغته وحسب وإنما يتمثل أيضا فى إعجاز منهجه . « ظهيرا » : معينا ونصيرا ، ظاهر فلاناً : عاونه .

« لا يأتون » جواب قسم محذوف ، واللام الموطئة فى « لئن » دخلت على إن الشرطية فجعلتها قسما ، ولولا هذه اللام الموطئة لجاز أن تكون « لا يأتون » جوابا للشرط .

(١) لسن فلانٌ يلسن لسنًا : فصّح وبلّغ ، فهو لسنٌ وألسن .

(٢) معارضته : الإتيان بمثله ؛ عارض فلانا معارضة : باراه وأتى بمثل ما أتى به ، يقال : عارضه فى الشعر وعارضه فى السير .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ

الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ ١٠٠ - الإسراء (١٧)

﴿ خزائن رحمة ربي ﴾ : المراد خزائن رزق ربي ونعمته التي يفريها - برحمته وكرمه - على عباده ومخلوقاته كافة .

﴿ أمسكتم ﴾ : بخلتم ، من قولك للبخیل : مُمَسِّك .

﴿ قتورا ﴾ : مُبَالِغًا فِي التَّقْتِيرِ وَالبُخْلِ ، يُقَالُ : قَتَّرَ وَأَقْتَرَّ وَقَتَّرَ إِذَا ضَيَّقَ النِّفْقَةَ وَقَلَّلَهَا . وَأَصْلُهُ مِنَ الْقَتَارِ وَهُوَ الدِّخَانُ مِنَ الشَّوَاءِ وَالْعُودِ وَنَحْوِهِ .

قل يا محمد لهؤلاء المشركين : لو أنكم تملكون التصرف في خزائن رزق الله لبخلتم بها ولم تعطوا أحدا شيئا مخافة نفاذها ، مع أنها خزائن لا تنفد ولا تفرغ أبدا ؛ ولكن الإمساك والشح مركزان في طبع الإنسان : « إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين » ١٩ - ٢٢ ، المعارج .

وقد بلغت هذه الآية الكريمة « وكان الإنسان قتورا » من وصف الإنسان بالشح الغاية القصوى ، حيث أفادت أنه لو استولى على خزائن رحمة ربه التي لا تنفد ، لأمسكها لشدة حرصه وبخله على عباد الله .

« لو » حرف شرط . « أنتم » فاعل لمحذوف يفسره المذكور بعده « تملكون » ، أي لو تملكون أنتم . ويمكن أن يكون التقدير : لو أن أنتم تملكون ، وفيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ (١) .

مُدْخَلٌ وَمُخْرَجٌ (بضم الميم) معناهما الإدخال والإخراج ، مصدر الرباعى : أدخل وأخرج (٢) .

الصَّدَقُ - فِي الحَسَى : الصَّلْبُ مِنَ الرِّمَاحِ وَغَيْرِهَا .

وَفِي المَعْنَوِي : الصَّدَقُ : الكَامِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

والصدق في الأصل هو الصحة والاستقامة في القول . وقد يستعمل الصدق في كل ما يحق ويحصل قولاً أو فعلاً ، وفي كل ما يحسن من شيء أو شخص .

(١) قال المتلمس ، خال طرفه بن العبد :

ولو غير إخواني أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرائن ميسما

يريد : لو أراد غير إخواني نقيصتي أي ظلمي ، لو سمتهم بالذل وسما ظاهراً كأنه فوق العرائن أي الأنوف ، وخصها لأنها لا تخفى . والميسم آلة الوسم بالنار ، والمراد : أثره وهو السمة . « غير إخواني » : فاعل لمحذوف يفسره المذكور بعده وهو : أرادوا .

ويجربى الوصف بالمصدر منه مضافا ، فيقال : رجلٌ صدِّقٌ ، وقدمُ صدِّقٍ ، ومعقدُ صدِّقٍ ، ولسانُ صدِّقٍ .

ومنه : مُدخِلُ صدِّقٍ أى إدخالاً حسناً مرضيا . وكذلك مُخرجُ صدِّقٍ أى إخراجا حسنا مرضيا .

« رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق » : ربّ أصلح لى وزدى^(١) فى كل الأمور وصدّرى^(٢) فالآية عامة فى كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، وينتظر من تصرف المقادير فى الموت والحياة ، فهى دعاء .

وقيل : المعنى أدخلنى القبر مُدخِلُ صدِّقٍ أى إدخالا مرضيا على طهارة وطيب من السيئات ، وأخرجنى منه عند البعث إخراجا مرضيا ، ملقى بالكرامة ، آمنا من السخط ، يدل عليه ذكره بعد ذكر البعث فى الآية السابقة : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ

كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿ ٤ ، ٥ - الكهف (١٨)

الذين قالوا اتخذ الله ولدا هم اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، وقريش الذين قالوا الملائكة بنات الله (١) .

﴿ ما لهم به من علم ﴾ : « من » صلة ، ، أى ما لهم بذلك القول علم ؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . « ولا لآبائهم » أى أسلافهم .

« كبرت كلمة » : قرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبى اسحق :

« كلمة » بالرفع ؛ أى عظمت كلمة يعنى قولهم اتخذ الله ولدا . وقرأ الباقون بالنصب « كلمة » على التمييز ، وهو أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أكبرها كلمة .

« تخرج من أفواههم » : صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم . فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتفوهون به ولا يطلقون به ألسنتهم ، بل يكظمون عليه ولا يظهرونه ، فكيف بمثل هذا المنكر ؟ وهو قولهم ﴿ اتخذ الله ولدا ﴾ !

فى هذا التعبير « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » تشترك الألفاظ بنظمها وجرسها فى تفضيع هذه الكلمة التى يقولونها . فهو يبدأ بكلمة « كبرت » لتجبه السامع بالضخامة والفظاعة وتملا الجوبهما .

ويجعل الكلمة الكبيرة تميزا لضميرها فى الجملة « كبرت كلمة » زيادة فى توجيه الانتباه إليها . ويجعل هذه الكلمة تخرج من أفواههم خروجاً كأنما تنطلق منها جزافاً وتندفع منها اندفاعاً « تخرج من أفواههم » .

وتشارك لفظة أفواههم بجرسها الخاص فى تكبير هذه الكلمة وتفضيعها ، فالناطق بها يفتح فاه فى مقطعها الأول بما فيه من مد « أفوا . . » ثم تنوالى الهاء ان فيمتلىء الفم بهما قبل أن يطبق على الميم فى نهاية اللفظة « أفواههم » . وبذلك يشترك نظم الألفاظ فى التعبير وجرسها فى النطق ، فى تصوير المعنى ورسم الظل .

ويعقب على ذلك بالتوكيد عن طريق النفي والاستثناء : « إن يقولون إلا كذبا » ؛ ويختار للنفي كلمة : « إن » وليس كلمة « ما » لأن فى الأولى صرامة بالسكون الواضح ، وفى لفظ « ما » شىء من الليونة بالمد - وذلك لزيادة التشديد فى الاستنكار ، ولزيادة التوكيد لهذه الكلمة الكبيرة .

(١) الولد : للمفرد والجمع والمذكر والمؤنث .

١١ - الكهف (١٨)

الضرب : إيقاع شيء على شيء ، ولاختلاف ما يوقع يختلف تفسير الضرب ، ثم يتوسع فيه بتشبيه بعضه ببعض ، فضرب الكف ، وضرب الأرض ، وضرب العرق ، الخ .
وضربُ المثل من ضرب الدراهم بآلة السك ، لأنه شيء يظهر أثره في غيره . وضربُ الخيمة يستعار منه الإحاطة والتغطية واللف مثلا للجسم كله أو بعضه .

﴿ فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ ﴾ : الضرب هنا بمعنى التغطية على الأذان فلا يسمعون . قال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ، أي سدنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها . قال الزجاج : منعناهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع اتبه . قال القرطبي : تخصيص الأذان بالذكر لأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم ، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يستحكم نوم إلا من تعطل السمع .

فالتعبير يصور إلقاء الله تعالى النوم عليهم - وهذه من فصیحات القرآن التي أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله .

ومن ذكر الأذن في النوم قول النبي ﷺ : ﴿ ذاك رجل بال الشيطان في أذنه ﴾ . أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم لا يقوم الليل .

أما الزمخشري فقال في شرح هذا التعبير : ﴿ فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ ﴾ أي ضربنا عليها حجابا من أن تسمع ، يعنى : أَمَنَّاهام إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات ، كما ترى المستقل في نومه يُصاح به فلا يسمع ولا يستنبه . فحذف المفعول الذي هو الحجاب ، كما يقال : بنى على امرأته ، يريدون بنى عليها القبة .

« عددًا » : نعت للسنين ؛ أي معدودة ، والقصد به التكرير قال قوم : بين الله تعالى عدد تلك السنين من بعد في الآية الخامسة والعشرين حيث قال : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ﴾ .

ورد هذا التعبير في سياق ملخص قصة أصحاب الكهف : الفتية الذين آمنوا بربهم في وسط ظلام كافر ، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجأهروا بها ، وهم لا يطبقون كذلك أن يداروا القوم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم له . والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا سبيل أمامهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الكهف .

(انظر التعبير : وربطنا على قلوبهم رقم ٣٦٦)

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُو

مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ ١٤ - الكهف (١٨)

رَبَطَهُ يَرْبِطُهُ رَبَطًا : شدّه بالرِّباط ، وهو ما يُربط به .

وربط على قلبه : شدّه وقوّاه ليسكن بالصبر والشجاعة .

﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ : عبارة عن شدة عزم وقوة صبر أعطاها الله لهم حتى قالوا بين

يدي الكفار : ﴿ ربنا رب السموات والأرض لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذْ شَطَطًا ﴾ .

ولما كان الفزع وخور^(١) النفس يشبه بالتناسب الانحلال ، حَسُنَ فِي شِدَّةِ النَّفْسِ وَقُوَّةِ

التصميم أن يشبه بالربط . ومنه يقال : فلان رابط الجأش ، إذا كان لا تَفَرِّقُ^(٢) نفسه عند

الفزع والحرب وغيرهما . ومنه الربط على قلب أم موسى ؛ وقوله تعالى : ﴿ وليربط على

قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ ١١ - الأنفال .

قال الزمخشري : قوينا قلوبهم بالصبر على هجر الأوطان والنعيم ، والفرار بالدين إلى

الكهف ، وجسّرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام ﴿ إذ قاموا ﴾ بين يدي الجبار

وهو دقيانوس ، من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم .

هذا التعبير متصل بقصة أصحاب الكهف . فقد ذكر غير واحد من السلف والخلف : أنهم

كانوا من أبناء سادة الروم ، وأنهم خرجوا يوما في بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع في

السنة يجتمعون فيه ، وكان لهم ملك جبار عنيد يأمر الناس بعبادة الأصنام والذبح لها ، فلما

خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم

بعين بصيرتهم - عرّفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها ، لا ينبغي

إلا لله الذي خلق السموات والأرض ، فجعل كل منهم يتخلص من قومه وينتحي ناحية ،

حتى جمعهم الذي جمع قلوبهم على الإيمان به ، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري

عن عائشة رضی اللہ عنہا قالت قال رسول اللہ ﷺ : ﴿ الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها

اتتلف وما تناكر منها اختلف ﴾ ثم توافقوا كلهم على عبادة الله وحده . . . فلما انتهى أمرهم

إلى ملكهم استحضرهم بين يديه ، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوا بالحق ودعوه إلى

الله عز وجل ، وقد أجمل الله ذلك بقوله : « وربطنا على قلوبهم إذ قاموا . . . » الآية .

(١) الحَوْر : الضعف والانكسار . (٢) فَرِقَ يَفْرِقُ فَرَقًا : جَرَعَ واشتد خوفه .

ويقال إنهم لما دَعَوْا الملك إلى الإيمان بالله ، أبى عليهم وتهددهم وتوعَّدهم ، ثم أجَّل النظر في أمرهم لعلهم يَرْجِعُونَ عن دينهم . قال الحافظ بن كثير : وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم في تلك النَّظرة (أى الإرجاء والإمهال) توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة (أى الارتداد عن دينهم) (١) .

« لقد قلنا إذن شططا » أى قولاً هو عين الشطط والبعد المفرط عن الحق . والشطط : مصدر بمعنى مجاوزة القدر فى كل شىء ، وُصِفَ به القول مبالغة .

(انظر التعبير : فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، رقم ٣٦٥)

(١) راجع : « التفسير الوسيط » المجلد الثانى ، ص ٨٤٣ .

﴿ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَئِبُهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ ٢١ - الكهف (١٨)

﴿ الذين غلبوا على أمرهم ﴾ : هم أصحاب الغلبة والسلطان . و « أمرهم » المقصود أمر فتية الكهف .

نحن الآن بصدد قصة أصحاب الكهف المؤمنين ، وكانوا من أبناء السادة الروم . وكان ملكهم جبارا عنيدا يأمر الناس بعبادة الأصنام من دون الله ، ويقال إن اسمه كان دقيانوس . وقد اعتزل هؤلاء الفتية المؤمنون أهل الشرك وفروا بدينهم إلى الكهف حيث مكثوا سنين عددا . ومضت قرون وتولى مُلك تلك البلاد رجل صالح مؤمن ، واختلف أهل مملكته في أمر البعث ، أيكون أو لا يكون ؟ فشق ذلك على الملك ، ودعا الله أن يبعث لأمه آية تبين لهم الحق فيما هم فيه مختلفون . فبعث - سبحانه - أصحاب الكهف من رقودهم الطويل . وأرسلوا أحدهم بورقهم (دراهم الفضة وكانت عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم) إلى المدينة ليأتيهم بطعام منها . وهناك استنكر شخصه واستنكرت دراهمه لبعدها . فاجتمع الناس وذهبوا به إلى الملك الذي قال (عندما نظر إلى الفتى) : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا من البلد على عهد دقيانوس ، الملك الكافر ؛ فقد كنت أدعو الله أن يُرينيهم ، وسأل الفتى عن شأنه ، فقص عليه القصة .

وكان الملك قد سمع أن فتية خرجوا ولم يعودوا على عهد دقيانوس ، فدعا مشيخة بلده ، وكان عند رجل منهم أسماؤهم وأنسابهم ، فلما سألهم الملك عن هؤلاء الفتية ، تقدم هذا الرجل وذكر له ما عنده من أمرهم ، فقال الفتى : صدق .

ثم قال الملك : أيها الناس هذه آية بعثها الله لكم ، لتؤمنوا بالبعث وأنه على نحو ما رأيتم ، ثم خرج هو وطائفة من أهل المدينة ومعهم الفتى . فلما رأى الملك الفتية اعتنقهم وفرح بهم : رأيهم جلوسا مشرقة وجوههم ، لم تَبَلْ ثيابهم . فأخبروه بما لقوا من دقيانوس ، فبينما هم بين يديه إذ قالوا له : نستودعك الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله ، ودعوا له بالخير ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فتوفاهم الله تعالى .

فهذا معنى « أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ » أى أطلعنا عليهم أهل مدينتهم ، « ليعلموا أن وعد الله حق »

أى ليعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق . وعندئذ قال البعض : « ابنوا عليهم بنيانا » لهم (كما جاء فى تفسير القرطبى) أولئلا يتطرق الناس إليهم ضنا بتربتهم ومحافظة عليها (كما جاء فى الكشاف) .

﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لتتخذن عليه مسجدا ﴾ : ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون ، وقيل : هم أهل السلطان والملك ، فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم . قال الشوكانى : والأول أولى . وقال الزجاج : هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون ، لأن المساجد للمؤمنين .

وعن حكم اتخاذ المساجد فوق القبور جاء فى « التفسير الوسيط » ، مجمع البحوث الإسلامية ، ما يلى : استدلل بعض الفقهاء بهذه الآية على جواز اتخاذ المساجد فوق قبور الصلحاء والصلاة فيها . . . لكن شرع من قبلنا إنما يكون شرعا لنا إذا لم يرد فى شرعنا ما يرده ، وقد جاء فى شرعنا ما يحرمه ويرده . فقد قال النبى ﷺ : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى عن ابن عباس . وأخرج الشيخان والنسائى عن عائشة قالت قال النبى ﷺ : « لعن الله تعالى اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الناهية عن اتخاذ المساجد فوق القبور .

(انظر التعبير : فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا رقم ٣٦٥ ؛ والتعبير : وربطنا على قلوبهم رقم ٣٦٦) .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْخُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾

هَذَا رَشَدًا ﴿ ٢٣ ، ٢٤ - الكهف (١٨) ﴾

المعنى : لا تقولن أفعلُ غدا إلا متلبسا بقول : إن شاء الله . نزلت إرشادا للنبي ، ﷺ ، حين سألته قريش عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين فقال : «أتتوني غدا أخبركم » ، ولم يقل إن شاء الله . فأبطأ عليه الوحي بضعة عشر يوما حتى شق عليه وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مُفَرَّجَةً .

« واذكر ربك إذا نسيت » أى إذا نسيت تعليق القول بالمشيئة ، ثم ذكرت أنك لم تعلقه بها ، فانت بها .

وقوله «إلا أن يشاء الله» فى الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسنه الإيجاز ؛ تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله ؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله . فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله .

نبه الله نبيه ﷺ بهذه الآية أن لا يقول فى أى شأن من الشئون سواء كان فى أمر الشريعة أو سواها - أن لا يقول - إني فاعل ذلك غدا إلا مرتبطا بقوله إن شاء الله فإن أمكنه أن يفعله غدا فعَلَهُ ، وإلا فقد وقع التخلف وفقا لمشيئة الله الذى لا يقع فى ملكه إلا ما شاءه سبحانه . ونحن مكلفون بهذا التوجيه الإلهى لرسوله ﷺ ، فإنه أسوتنا وإمامنا .

فلا نحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه ، فالإنسان لا يدري ما يكون فى المستقبل حتى يقطع برأى فيه .

إن كل حركة وكل نامة^(١) ، بل كل نَفَس من أنفاس الحى ، مرهون بإرادة الله . وسُجُف^(٢) الغيب مُسَبَّل مُسَدَّل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة ؛ وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الستر المسدل ؛ وعقله مهما عَلم قاصر وكليل . فلا يقل إنسان : إني فاعل ذلك غدا - والغد فى غيب الله .

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان ، لا يفكر فى أمر المستقبل ولا يدبر له ، وأن يعيش يوما بيوم . ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التى تدبره ؛ وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم ، ويستشعر أن يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره . فإن وفقه الله إلى ما اعترم فَبِهَا ، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس ، لأن الأمر لله أولا وأخيرا .

(١) النَّامَةُ : الصوت الضعيف الخفى أيا كان .

(٢) السُّجُف : السُّر والستر هو السُّتار والستارة .

فليفكر الإنسان وليدبر ؛ ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله ، ويدبر بتوفيق الله ، وأنه لا يملك إلا ما عده الله به من تفكير وتدبير .

هذا هو المنهج الذى يأخذ به الإسلام قلب المسلم . فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر . ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح . ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفشل ويخفق - بل يبقى فى كل أحواله متصلا بالله ، قويا بالاعتماد عليه .

﴿ رَجَمًا بِالْغَيْبِ ﴾

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾

٢٢ - الكهف (١٨)

قاله رَجَمًا بِالْغَيْبِ : ظَنَّا من غير دليل (١) . والرَّجْمُ فى الأصل : الرَّمَى بِالرَّجْمِ ، وهو الحجاره الصغیره ، استعير للتكلم بما لا علم به والاطلاع عليه لخبائثه ، تشبيها له بالرَّمَى بالحجاره التى لا تصيب الرمى . وهم كذلك يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم الذى لا مَطَّلَع لهم عليه .

قال الزمخشري : وُضِعَ الرَّجْمُ موضع الظن ، فكأنه قيل : ظَنَّا بِالْغَيْبِ ، إذ أنهم أكثروا القول : رَجَمَ بِالظن مكان قولهم : ظَنَّ ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين . ألا ترى إلى قول زهير فى معلقته ينهى عبسا وذبيان عن القتال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم . . . وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم

المرجم : المظنون

نصب « رَجَمًا » على المفعول له أى لظنهم ذلك .

﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾

﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ

مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ ٢٦ - الكهف (١٨)

« أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ » : صيغتنا تعجب ، أى ما أَبْصَرَهُ وما أَسْمَعَهُ تعالى . والمراد : الإخبار بأنه تعالى لا يغيب عن بصره وسمعه شىء ، فهما على جهة المجاز .

وذكر بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره فى الإدراك خارج عما عليه إدراك المبصرين والسامعين ؛ إذا لا يحجبه شىء ولا يتفاوت عنده لطيف وكثيف وصغير وكبير ، وخفى وجلى .

(١) وصارَ فلانَ رَجَمًا أى لا يوقف على حقيقته .

﴿ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾

٤٢ - الكهف (١٨)

تقليب الكفين : كناية عن الندم والتحسر ، لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن ، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد ، ولأنه في معنى الندم عدى تعديته بعلی ، كأنه قيل : فأصبح يندم « على ما أنفق فيها » أى أنفق في عمارتها .

تصور كلمات الآية الكريمة مشهداً شاخصاً كاملاً : الشمر أحيط به أى دمر تماماً كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء . والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة . وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب .

وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته .

ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك ، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركاً ينكره الآن ويندم عليه .

﴿ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ (١)

﴿ وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ٤٢ - الكهف (١٨)

خَوَات الدارُ تخوى خَوَاءً : خَلَّتْ من أهلها ، أو : سقطت وتهدمت فهي خاوية .

عُرُوشِهَا : جمع عَرَش وهو ما يُدعم به الكَرْمُ من أعمدة خشب يقوم عليها الكرم وتسترسل عليها قُضبانُه (٢) .

« خاوية على عروشها » : سقطت الجنة على دعائم الكروم ، أو سقط بعض تلك الجنة على بعض . فأشجار الكروم سقطت على أعمدتها وذلك لسقوط الأعمدة بعد أن أصاب الجنة عذاب السماء الذي جعلها صعيدا زلقا (أرضا بلقاء لانبث فيها ملساء لا تثبت عليها قدم أى لا منفعة منها) . فجمع على صاحب الثمر والجنة بعد أن أحيط بهما (أى بعد أن تم إهلاكهما بالكامل) هلاك الثمر والأصل (الأصل هو الجنة أى حديقة العنب) ، وهذا من أعظم الجوائح (٣) عقابا له على بغيه (عندما قال فى الآيتين ٣٥ و ٣٦ : ما أظن أن تبيد وتفنى هذه الحديقة ولا أحسب أن هناك بعثا وقيامه) .

هو مشهد شاخص كامل : الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شىء ، والجنة خاوية على عروشها فهي مهشمة محطمة ، وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحرنا على ماله الضائع وجهده الذاهب . (انظر التعبير رقم ٣٧١) .

(١) ورد هذا التعبير ثلاث مرات فى القرآن الكريم : هنا وفى ٢٥٩ - البقرة وفى ٤٥ - الحج .

(٢) القُضبان جمع قضيب وهو العُصن .

(٣) جمع جائحة وهى المصيبة تحل بالإنسان فى ماله فتجتاحه كله أى تهلكه .

﴿ أُحَدِّثُ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾



﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

٧٠ - الكهف (١٨)

« حتى أحدث لك منه ذكرا » أى حتى أفسره لك دون سؤال منك .

أحدثه : أوجده . والذكر الحديث والقصة .

« أحدث لك منه ذكرا » : حتى أوجد لك منه قصة وبيانا . وهذا التعبير جاء على لسان العبد الصالح الذى لقيه سيدنا موسى عليه السلام وسأله الصحبة واتباعه بشرط أن يعلمه مما علمه الله . لكن العبد الصالح أجابه بأنه لن يستطيع الصبر معه لأن ما يجريه الله على يديه من الأمور تجعل موسى يسارع إلى الاعتراض عليه لخفاء ما فيه من حكمة على موسى . لكن موسى وعد العبد الصالح بأنه سيصبر على ما يراه من الأمور الخفية الأسباب التى يجريها العبد الصالح أمامه ولا يعصى له أمرا - وهذا ما ينبغى للمتعلم مع معلمه .

عندئذ قال العبد الصالح لموسى : فإن اتبعتنى وصحبتنى فى رحلتى هذه فلا تسألنى عن شىء رأيت به عينك وأنكرته بقلبك ، واصبر حتى أقدم لك فى شأنه بيانا يفسر ما عمى عليك من سببه .

﴿ تَتَّخِذُ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾



﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

٨٦ - الكهف (١٨)

« تتخذ فيهم حسنا » أى أمرا حسنا ، مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع .

« تتخذ » هنا بمعنى تصنع . وحسنا معناه : حالة حسية أو معنوية جميلة تدعو إلى قبول الشىء ورغبة الناس فيه . ويكون فى الأقوال والأفعال والذوات والمعانى .

﴿ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي ﴾

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ

عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ ﴿ ١٠٠ ، ١٠١ - الكهف (١٨)

« كانت أعينهم في غطاء » أى أن أعينهم كانت داخل غطاء يغطيها من جميع الجهات ويحجبها « عن ذكرى » أى عن آياتى أو عن القرآن وتأمل معانيه وتدبر فوائده . ومن ينظر آيات الله فى الكون بتفكر واعتبار ، فإنه يذكر الله بالتوحيد والتمجيد ، وهكذا أطلق المسبب على السبب مما أكسب التعبير بلاغة وعمقا .

والغطاء هو ما يُجعل فوق الشئ فيؤاريه ويستره . والغطاء هنا وردَ للغطاء المعنوى ، أى أنهم أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ، ولأن فى أسماعهم صمما « وكانوا لا يستطيعون سماعا » .

هؤلاء الكفار تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله ، فما يستطيعون اليوم إعرضا - لقد نُزع الغطاء عن عيونهم نزعا فأرأوا عاقبة الإعراض والعمى :
جهنم !

والتعبير ينسق بين الإعراض والعرض متقابلين فى المشهد ، متقابلين فى الحركة على طريقة التناسق الفنى فى القرآن .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفِدَ
كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَادًا ﴾

١٠٩ - الكهف (١٨)

المداد : سائل ذو لون يُكْتَبُ به (الحبر) (١).

والبحر هنا : الجنس أى كل البحار والمحيطات .

والمَدَدُ : الزيادة فى الشيء تكون من مثل ما هو فيه . والفعل : مَدَّ أى زاده من مثل ما هو فيه . يقال : مَدَّ النَّهْرُ النهرَ . ومَدَّ الدَّوَاةُ أى زاد فى مدادها وحبرها .

والمعنى : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته ، وفرض أن جنس البحر مداد لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات ؛ ولو جئنا بمثل البحر أيضا مدادا لنفد هو الآخر .

والبحر أوسع وأغزر ما يعرفه البشر . والبشر يكتبون بالمداد كل علمهم الذى يعتقدون أنه غزير . والتعبير يعرض لهم البحر بسعته وغزارته فى صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه ، فإذا البحر ينفد وكلمات الله لا تنفد . ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله ، ثم إذا البحر الآخر ينفد كذلك وكلمات الله تنتظر المداد .

وبهذا التصوير المحسوس والحركة المجسمة يقرب التعبير القرآنى إلى تصور البشر المحدود القاصر ، يقرب إليه معنى غير المحدود - لذلك يضرب القرآن الأمثال للناس ؛ ويقرب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها فى صور ومشاهد ومحسوسات . والبحر فى هذا المثل يمثل علم الإنسان الذى يظنه واسعا وغزيرا ، وهو - على سعته وغزارته - محدود . وكلمات الله تمثل العلم الإلهى الذى لا حدود له ولا يدرك البشر نهايته .

ولقد يدرك البشر الغرور بما يكشفونه من أسرار فى أنفسهم وفى الآفاق ، فتأخذهم نشوة الظفر العلمى ، فيحسبون أنهم علموا كل شيء .

ولكن المجهول يواجههم بأفاهه المترامية التى لاحدها ، فإذا هم ما يزالون على خطوات من الشاطئ ، والخصم أمامهم أبعد من الأفق الذى تدركه أبصارهم .

إن ما يطيق الإنسان ويقدر على تلقيه وتسجيله من علم الله شيء ضئيل ضئيل .

وقريب من هذا التعبير ، التعبير الآخر فى الآية ٢٧ من سورة « لقمان » « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر بمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

(١) قال ابن الأنبارى : سُمى المدادُ مدادا لإمداده الكاتب ، وأصله من الزيادة ومجىء الشيء بعد الشيء ؛ ويقال للزيت الذى يوقد به السراج : مداد وهو السليط .

﴿ كَهَيْعَصَ (١) ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً

خَفِيًّا ﴾ ١ - ٣ - مريم (١٩)

﴿ نَدَاءٌ خَفِيًّا ﴾ : سِرًّا ، جوف الليل لأنه أسرع للإجابة .

إنه يناجى ربه بعيدا عن عيون الناس ، فى عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ، ويناديه : ﴿ رب إنى وهن العظم منى ﴾ بلا واسطة ولا حتى حرف النداء .

وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ؛ ولكن المكروب يستريح إلى البث ، ويحتاج إلى الشكوى . والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر ، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبشوه ما تضيق به صدورهم : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ﴾ ٦٠ - غافر ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر ، وليستشعروا صلتهم بالجناب الذى لا يُضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه .

قال الزمخشري : أخفى دعوته لأن الإخفاء أبعد عن الرياء وأدخل فى الإخلاص . أو أخفاه لثلاث يلام على طلب الولد فى إبان الكبرة (كبر السن) والشيخوخة (١) .

(١) وقيل : خفت صوته لضعفه وهرمه ، ففى صفات الشيخ العجوز : صوته خُفات وسمعه تارات . واختلف فى سن زكريا عليه السلام فى ذلك الوقت فيما بين الخامسة والستين والخامسة والثمانين .

﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ

شَقِيًّا ﴾ ٤ - مريم (١٩)

التعبير مُصَوَّرٌ : يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ، ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة ، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد .

قال الزمخشري : شبه الشيبَ بشُواظ النار (١) في بياضه وإنارته ، وانتشاره في الشعر وفشوه (٢) فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار . ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس .

وأخرج الشيب مميزا (٣) ، ولم يصف الرأس (٤) اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا . فمن ثم فصّحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة .

وزكريا يشكو إلى ربه وَهَنَ الْعَظْمُ ، وحين يهن العظم (يضعف) يكون الجسم كله قد وهن ، فالعظم هو أصلب ما فيه ، وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمع عليه .

وهن العظم واشتعال الرأس شيبا كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يعانیه زكريا .

ثم يعقب : « ولم أكن بدعائك رب شقيا » فالله قد عوده أن يستجيب له إذا دعاه ، فلم يشق مع دعاء ربه .

(١) الشُواظ : اللهب لا دخان له :

(٢) فَشَايَفُشُو فَشُوًّا : ظهر وانتشر .

(٣) « شَيْبًا » : تمييز .

(٤) أي لم يقل (رأسي) .

﴿ وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

﴿ قَالَ رَبِّ انِّىْ يَكُوْنُ لِىْ غُلَامٌ وَكَانَتْ اِمْرَاْتِىْ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (٨)

قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ

اجْعَلْ لِّىْ اٰیَةً قَالَ اٰیَتُكَ اَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ - ٨ - ١٠ - مريم (١٩)

يقال : عتيا الشيخ يُعتو عتوًا وعتيا وعتيا : كبر وولى .

﴿ بلغت من الكبر عتيا ﴾ : بلغت النهاية فى الكبر واليبس والصلابة فى المفاصل

والعظام . أى بلغ بسبب الكبر حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها .

دعا زكريا - وهو أحد أنبياء بنى إسرائيل البارزين - دعا ربه أن يهبه من عنده ابنا صالحا يرثه

ويحسن القيام على تراثه وتراث النبوة من آبائه وأجداده ، ويحسن القيام على أهله الذين

يرعاهم - ومنهم مريم التى كان قيما عليها وهى تخدم المحراب الذى يتولاه .

وتأتيه البشرى من الملائة الأعلى : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ وهو اسم فذ

غير مسبوق : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ . والذى دفعه إلى دعاء ربه خوفا الموالى (أى

الذين يلونه فى النسب كبنى العم) من بعد موته على الدين أن يضعوه كما شاهد فى بنى

إسرائيل من تبديل الدين ، وعلم الله ذلك من نيته فأعقد عليه وأرضاه .

وكأثما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء ،

فإذا هو يواجه الواقع : هو شيخ بلغ من الكبر عتيا وامرأته عاقر ، فكيف ياترى سيكون له

غلام ؟ هنا يأتيه الجواب : إن هذا هين على الله سهل ، ويذكره بمثل قريب فى نفسه - خلقه

الله وأوجده من العدم : « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .

وليس فى الخلق هين وصعب على الله ، ووسيلة الخلق للصغير والكبير واحدة ، هى :

كن فيكون .

والله هو الذى جعل العاقر لا تلد ، والشيخ الفانى لا ينسل - وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة

سبب العقم ، ومجديد قوة الإخصاب فى الرجل . فكل شىء من إعادة وإنشاء هين أمام قدرة الله .

ومع ذلك فإن لهفة زكريا على الطمأنينة على أنه سيرزق بالابن تدفعه إلى أن يطلب آية

وعلامه على تحقيق البشرى فعلا . فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسى الذى كان فيه الدعاء

وكانت فيه الاستجابة - وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطق لسانه

إذا سبح ربه ويحتبس إذا كلم الناس رغم سلامة لسانه من الآفة والعوج : ﴿ قال آيتك ألا

تكلم الناس ثلاث ليال سويًا ﴾ .

(انظر التعبيرين : نداء خفيا ، رقم ٣٧٧ . اشتعل الرأس شيئا ، رقم ٣٧٨)

١٢ - مريم (١٩)

﴿ بقوة ﴾ أى بجهد واجتهاد ، قاله مجاهد . وقال زيد بن أسلم : ﴿ خذ الكتابة بقوة ﴾ أى بالعلم به والحفظ له والعمل به ، وهو الالتزام بأوامره والكف عن نواهيه .
والكتاب هو التوراة .

يترك السياق القرآنى زكريا فى تسبيحه ، ويفتح الصفحة الجديدة على يحيى ، يناديه ربه من الملائكة الأعلى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ ، ورث يحيى أباه زكريا ، ونودى ليحمل العبء وينهض بالأمانة فى قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة .

لقد ولد يحيى وترعرع وصار صبيا ، فى الفجوة التى تركها السياق بين المشهدين : مشهد زكريا ومشهد يحيى . على طريقة القرآن فى عرضه الفنى للقصاص ، ليبرز أهم الحلقات والمشاهد ، وأشدّها حيوية وحركة .

﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١)

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ ﴾ ٣٥ - مريم (١٩)

﴿ إذا قضى أمراً ﴾ : إذا أراد إيجاد هذا الأمر : قضى هنا بمعنى أراد وقدر (٢) .

﴿ كن فيكون ﴾ هو من كان التامة ، أى أحدث فيحدث ؛ وهذا مجاز وتمثيل . وإنما المعنى أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه ، فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف . كما أن المأمور المطيع الذى يؤمر ، يمثل للأمر ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء بين الله - سبحانه وتعالى - بذلك كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه إذا قدر أمراً أو أراد كونه فإنما يقول له : كن ، أى مرة واحدة ، فيكون أى فيوجد على وفق ما أراد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ ٨٢ - يس ، وقوله : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ٤٠ - النحل .

ونبه بذلك على أن خلق عيسى كان بكلمة ﴿ كن ﴾ فكان كما أمره الله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » ٥٩ - آل عمران .

لقد صدر الكون عن خالقه ، عن طريق توجه إرادته - سبحانه - المطلقة القادرة المتمثلة فى : ﴿ كن فيكون ﴾ . فتوجه هذه الإرادة الإلهية إلى خلق كائن من الكائنات ، كفيل (أى هذا التوجه) وحده بوجود هذا الكائن على الصورة المقدرة له ، بدون وسيط من قوة أو مادة . وتوجه هذه الإرادة الإلهية يتم بكيفية غير معلومة للإدراك البشرى ، لأنها فوق طاقة الإدراك البشرى . وهى أى طاقة الإدراك البشرى ، غير مهيأة لإدراك هذا التوجه لأنه لا يلزمها فى وظيفتها التى خلقت لها وهى خلافة الأرض وعمارتها .

وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التى تفيده فى مهمته ، وسخر له الانتفاع بها ، بقدر مازوى عنه (أى طوى عنه) الأسرار الأخرى التى لاعلاقة لها بخلافته فى الأرض .

ولقد ضربت الفلسفات فى تيه لا منارة فيه ، وهى تحاول كشف هذه الأسرار ، فلم تنته إلى شيء يُطمأن إليه وعصم الإسلام أهله من أن يضربوا فى هذا التيه ؛ ولما أراد بعض

(١) هذا التعبير موجود فى سبع مواضع أخرى هى : ١١٧ - البقرة ؛ ٤٧ - آل عمران ؛ ٥٩ - آل عمران ؛ ٧٣ - الأنعام ؛ ٤٠ - النحل ؛ ٨٢ - يس ؛ ٦٨ - غافر .

(٢) ومن معاني قضى : خلق نحو « فقضاهن سبع سماوات ؛ وأمر وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » ؛ ويعنى وفى « فلما قضى موسى الأجل » .

متفلسفتهم - تحت تأثير الفلسفة الإغريقية وغيرها - أن يتناولوا إلى ذلك المرتقى ، باءوا بالتعقيد والتخليط ، كما باء أساتذتهم الإغريق . وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة يبذلها العقل البشرى وراء مجاله ، وفوق طبيعة خلقتة وتكوينه .

﴿ كُنْ ﴾ : فعل أمر تام ، من كان التامة ، مبنى على السكون وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت .

﴿ فيكونُ ﴾ : الفاء حرف عطف ، « يكون » مضارع تام مرفوع على الاستثناف أى فهو يكون ، أو على أنه معطوف على « يقول » والرفعُ قراءة السبعة إلا ابن عامر فقد قرأه بالنصب « فيكونَ » جواباً للأمر « كن » ، مثل قولك : أكرم زيدا فيكرمك .

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ

يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿ ٣٧ ، ٣٨ - مريم (١٩) ﴾

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ : صيغة تعجب ، أى ما أدق سمعهم وبصرهم فى هذا اليوم ، يوم يأتوننا ، يوم المشهد العظيم ، يوم القيامة . والمفارقة بين سمعهم وبصرهم فى ذلك اليوم وهو أشد ما يكون السمع وأقوى ما يكون البصر ليسمعوا ما يكرهون ويروا الخزى ، وبين الصمم والعمى اللذين أصابهم فى الدنيا فلا يهتدون إلى الحق ولا إلى الهدى ؛ والمراد بالضلال المبين : إغفال النظر وإغفال الاستماع اليوم ، أى فى الحياة الدنيا .

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٩ - مريم (١٩) ﴾

الأمر : يعنى المأمور به إيجادا وعمدا .

قُضِيَ : أنجز وفرغ منه .

﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أنجز المأمور به وفرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار . وعن النبى ﷺ ، أنه سُئِلَ عَنْ قِضَاءِ الْأَمْرِ فَقَالَ : « يَأْتِي بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيَذْبَحُ وَالْفَرِيقَانِ يَنْظُرَانِ . ثُمَّ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ » ثم قرأ ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ هكذا جاء فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا .

« يوم الحسرة » هو يوم القيامة يتحسر فيه المسئ على ترك الإحسان فى الدنيا . إنه يوم تشتد فيه الحسرات حتى لأنما اليوم مُمَحَّضٌ للحسرة لا شئ فيه سواها ، فهى الغالبة على جوه . لكنه يوم لا تنفع فيه الحسرات « إذ قُضِيَ الْأَمْرُ » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ

وَدًّا ﴾ ٩٦ - مريم (١٩)

وَدَّهُ يُوَدُّهُ وُدًّا وودًّا ومودة : أحبه وهويته .

﴿ سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ أى محبة فى القلوب ، وتلك بشارة بسعة الإسلام وبسط سلطانه ، ومحق المنافقين الذين يضمرون البغض للمؤمنين .

فالله اختص أوليائه بهذه الكرامة : يحدث لهم فى القلوب ويزرع لهم فى القلوب مودة من غير أن يتعرضوا للأسباب التى تجعل الناس يود بعضهم بعضا ، كما أنه - سبحانه - يقذف فى قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاما لهم . روى أن النبى ، ﷺ ، قال لعلى رضى الله عنه : « يا على قل اللهم اجعل لى عندك عهدا واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة » أخرجه الثعلبى والطبرانى فى مسند حمزة الزيات . وعن النبى ﷺ : « يقول الله عز وجل يا جبريل قد أحببت فلانا فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء ، إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يضع له المحبة فى أهل الأرض » متفق عليه من حديث أبى هريرة . وعن قتادة : ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه .

والسين فى قوله « سيجعل » إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا دجا الإسلام^(١) وإما أن يكون ذلك يوم القيامة ، إذ يتألف المؤمنون منزوعا ما فى صدورهم من غل .

للتعبير بالود فى هذا الجونداوة رحية تمس القلوب ، وروح^(٢) رضى يلمس النفوس . وهو ود يشيع فى الملاء الأعلى ، ثم يفيض على الأرض فيمتلى به الكون ويفيض .

(١) دَجَا الإسلام : شاع وكثر ، من دجا الليل إذا تمت ظلمته وأبَس كل شيء .
(٢) الروح : السرور والفرح .

﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ٧ - طه (٢٠)

« وأخفى » أى وما هو أخفى من السر ، وهو ما حدثت به النفس وما خطر لها ولم تحدث به أحدا أى ما تُسرّه النفس والصدور .

هناك تنسيق بين الظل الذى تلقىه الآية السابقة على هذا التعبير وهى قوله تعالى : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ وبين الظل الذى يلقيه هذا التعبير « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » . فالتنسيق بين الظاهر الجاهر فى الكون ، والظاهر الجاهر من القول . وبين المستور المخبوء تحت الثرى (الأرض) والمستور المخبوء فى الصدور . فالسر خاف وما هو أخفى من السر : هى درجات من الخفاء والاستتار يصورها التعبير وينسق بينها وبين المخبوء المستتر تحت أطباق الثرى .

والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وحين يستشعر علمه - سبحانه - بسرّه ونجواه ، فإنه يطمئن ويرضى ، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين ، ولا يشعر بالغرابة بين المخالفين له فى العقيدة والشعور .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿

٢٥ ، ٢٦ - طه (٢٠)

﴿ اشرح لى صدرى ﴾ : وسّعه ونورّه بالإيمان والنبوة . شرح الشىء : بسّطه ووسّعه . ويقال شرح صدره للأمر : حببه إليه .

﴿ ويسر لى أمرى ﴾ : سهّل علىّ ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون . كان هذا من دعاء سيدنا موسى عليه السلام عندما أمره ربه بالذهاب إلى فرعون ليدعوه إلى الإيمان .

﴿ وَاحْتَلُّ عَقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿

٢٧ ، ٢٨ - طه (٢٠)

﴿ واحْتَلُّ عَقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ : يعنى العُجْمَة التى كانت فيه من جمرة النار التى أطفأها فى فيه وهو طفل . قال ابن عباس : كانت فى لسانه رُتَّةٌ (١) . وذلك أنه كان فى حجر فرعون ذات يوم وهو طفل صغير فلطمه لطمة وأخذ بلحيته فنتفها ، فقال فرعون لآسية زوجته : هذا عدوى فهات الذباحين .

فقالت آسية : على رسلك (٢) فإنه صبى لا يفرق بين الأشياء . ثم أتت بطستين فجعلت فى أحدهما جَمْرًا وفى الآخر جوهرا ، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها فى فيه على لسانه ، فكانت تلك الرتة .

﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ أى يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه . والفقه فى كلام العرب : الفهم . فقه الأمر يَفْقَهُهُ فِقْهًا وَفَقْهًا : فَهَمَهُ وَأَحْسَنَ إِدْرَاكَهُ . وَفَقَّهُ يَفْقَهُ فِقَاهَةً : صار فقيها .

والفقه : الفهم والفتنة ؛ وأيضا : العلم ، وغلب فى علم الشريعة وفى علم أصول الدين . ومثل الفقه الفقيه ، فالفقيه هو العالم الفطن ، وهو أيضا العالم بأصول الشريعة وأحكامها .

(١) رَتَّ يَرْتُ رَتًّا وَرَتَّةٌ : كان فى لسانه رُتَّةٌ أى عُجْمَة وهى اللُّثْغَةُ والتردد فى النطق ، والأرْتُ : الألتغُ .
(٢) تعبير معناه : انتد ولا تعجل .

﴿ اشدُّدُ بِهِ أَزْرِي ﴾ ٣١ - طه (٢٠)

الأزرُ : الظهر . وأزرَ الزرعُ : النف فقوى بعضه بعضاً (١) .
 ﴿ اشدُّدُ بِهِ أَزْرِي ﴾ : قَوَّيْتُ بِهِ ، زدني به قوة ، فالأزر أيضا : القوة .
 والفعل شَدَّ الشَّيْءُ يُشَدُّ شِدَّةً : قَوَّى وَمُتَّنَ .
 ويقال : شَدَّ عَضُدَهُ ، وشَدَّ عَلَى يَدَيْهِ : قَوَاهُ وَأَعَانَهُ . وأيضاً : شَدَّ أزرَهُ : قَوَاهُ .
 وقيل : الأزرُ : العون ، ويكون معنى التعبير : يكون عوناً لي يستقيم به أمري . قال
 الشاعر :

شَدَدْتُ بِهِ أَزْرِي وَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ

أخو الفقر من ضاقت عليه مذاهبه

وكان هارون أكثر لحماً من موسى ، وأتم طولاً ، وأبيض جسماً ، وأنصح لساناً .

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ ٣٩ - طه (٢٠)

قال ابن عباس : أحبه الله وحبَّبه إلى خلقه . وقال ابن عطية : جعل عليه مسحة من جمال
 لا يكاد يصبر عنه من رآه . وقال قتادة : كانت في عيني موسى ملاحاً ما رآه أحد إلا أحبه
 وعشقه .

وقال الطبري : وألقيت عليك رحمتي .

على أن هذا التعبير يذكرنا بالحقيقة القائلة أنه مهما أوتى بنو البشر من قدرات على التحليل
 والتبيين وعلى الشرح والتفسير ، إلا أن سحر التعبير القرآني وروعته وأثره وتأثيره تظل جميعاً
 فوق مستوى قدرة الإنسان على التوضيح - إنه كامل في نفسه ، سامق في علوه ، مستغن بذاته
 عن كل شرح وتفسير

(١) وأيضاً أزرَ الزرعُ ومنه قوله تعالى : ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى على
 سوقه ﴾ ٢٩ - الفتح .

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ ٣٩ - طه (٢٠)

صنَع الشيءَ يَصْنَعُه صُنْعًا : عملَه . ويقال : صنعه على عينه إذا تولى توجيهه فى جميع أطوار حياته ، وهو استعارة تمثيلية للحفظ والصون .

﴿ ولتصنع على عيني ﴾ أن تُربى وتُعَدَى على مرأى منى بالحنو والشفقة ؛ وأنا مراعيك كما يراعى الإنسانُ الشيءَ بعينه إذا اعتنى به . رافقته العناية وسندته يد القدرة الإلهية .

قال ابن عباس فى تفسير « ولتصنع على عيني » : إن ذلك بعينى حيث جعلت فى التابوت ، وحيث ألقى التابوت فى البحر ، وحيث التقطك جوارى امرأة فرعون . . . فذهبن بالتابوت إليها مغلقًا ، فلما فتحته رأيت صبيًا لم ير مثله قط ؛ وألقى عليها محبته فأخذه فدخلت به على فرعون ، فقالت له : ﴿ قرّة عين لى ولك ﴾ . . . وقالت : هبّ لى ولا تقتله ، فوهبه لها . كل هذا تم برعاية الله وفى كنفه . كان موسى تحت عين فرعون وفى متناول يده - بلا حارس ولا مانع ولا مدافع - ولكن عين فرعون لا تمتد إليه بالشر لأنى ألقى عليك محبة منى ، ويده لا تنالك بالضر وأنت تصنع على عيني .

وما من شرح يمكن أن يضيف شيئًا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذى يلقيه التعبير القرآنى العجيب : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ وكيف يصف لسان بشرى خلقاً يُصنع على عين الله ؟ إن قصارى أى بشرى أن يتأمله ويتملاه . إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية - فكيف بمن يُصنع صنعا على عين الله ؟

(١) يقال : صنع فرسه ونحوه : تعهده وأحسن القيام عليه بعلمه وتسمينه .

﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّرَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ ٤٠ - طه (٢٠)

قَرَّتْ عَيْنُهُ : سُرَّ وَرْضَى ، فهو قرير العين . فمن معانى الفعل قَرَّ : سَكَنَ واطمأن .
فالعين إذا رأت ما كانت متشوقة إليه سكنت إليه ولم تنظر إلى غيره .

ويقال : قر بهذا الأمر عيناً أى سُرَّ به .

﴿ كَيْ تَقَرَّرَ عَيْنُهَا ﴾ أى تُسر برجوعك إليها بعد أن قذفتك فى اليمِّ .

﴿ وَاَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ ٤١ - طه (٢٠)

اصطنع : مبالغة فى صَنَعَ .

اصطنع فلاناً لنفسه : اختاره .

وقال ابن عباس فى تفسير هذا التعبير : اصطفيتك لَوْحِي ورسالتى .

وقيل : قَوَّيْتُكَ وعلمتك لتبلغ عبادى أمرى ونهى .

﴿ وَاَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ خالصاً مستخلصاً مُمحصاً لى ولرسالتى ودعوتى . ليس بك

شئ لهذه الدنيا ، إنما أنت للمهمة التى صنعتك على عيني لها واصطنعتك لتؤديها .

(١) التعبير موجود فى الآية ٢٦ من سورة مريم : ﴿ فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ .

﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ٥٠ - طه (٢٠)

المعنى : أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به . فأعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، والرجل للمشى ، واللسان للنطق وهكذا .

وقال مجاهد وعطية ومقاتل : أعطى كل شيء صورة ؛ لم يجعل خلق الإنسان فى خلق البهائم ، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديرا . قال الشاعر :

وله فى كل شيء خلقه وكذلك الله ما شاء فعَلْ

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى : أعطى كل شيء زوجة من جنسه .

﴿ ثم هدى ﴾ أى هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة والطعام والشراب والمسكن .

وقال الفراء : خلق الرجل للمرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث ، ثم هدى الذكر للأُنثى .

قال القرطبي : والتعبير يتناول جميع هذه الأقوال . وهو هبة الوجود لكل موجود ، وهبة خلق هذا الموجود على الصورة التى خلق بها ، وهبة هدايته إلى الوظيفة التى خلق لها . وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته فى جنبات هذا الوجود الكبير ، تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة فى كل كائن صغير كان أو كبير . من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام ، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة المتمثلة فى الإنسان . كل ذرة فيه تنبض ، وكل خلية فيه تحيا ، وكل حى فيه يتحرك ، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى - وكلها تعمل منفردة ومجمعة داخل إطار النواميس المودعة فى فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور فى لحظة من اللحظات !

﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ (١) ﴿ ٦٠ - طه (٢٠) ﴾

كَادَ فَلَانًا : خدعه ومكرهه . وكادله : أَرَادَهُ بِسُوءِ .

الكَيْدُ : إِرَادَةُ مَضْرَرَةٍ غَيْرِ خَفِيَّةٍ ، وَهُوَ مِنَ الْخَلْقِ : الْحِيلَةُ السَّيِّئَةُ ؛ وَمِنَ اللَّهِ : التَّدْبِيرُ بِالْحَقِّ لِمَجَازَاةِ أَعْمَالِ الْخَلْقِ (٢) .

﴿ فجمع كيدته ﴾ أى مكره وحيله والمراد : جمع سحرته ، وكان معهم حبالهم وعصيهم . جمع هذا التعبير المكون من كلمتين كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة ، وما فكر فيه وما دبره هو ومستشاروه .

﴿ فَتَنَّا زَعَوْا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى ﴾ ﴿ ٦٢ - طه (٢٠) ﴾

تَنَازَعَ الْقَوْمُ الشَّيْءَ : تَجَادَبَوْهُ . وَتَنَازَعَ الْقَوْمُ فِي الْأَمْرِ اخْتَلَفُوا فِيهِ . وَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ : تَجَادَبَوْا الرَّأْيَ فِيهِ ، هَذَا يَدُلُّ بِرَأْيٍ ، وَذَلِكَ يَدُلُّ بِرَأْيٍ يَتَشَاوَرُونَ فِيهِ .

﴿ تنازعوا أمرهم بينهم ﴾ أى تشاوروا ، يريد السحرة الذين جمعهم فرعون لملاقاة سيدنا موسى .

﴿ وأسروا النجوى ﴾ : بالغوا فى إخفاء ما يتسارون به عن موسى وأخيه . والنجوى : الْمَسَارَّةُ فِي الْحَدِيثِ .

(١) التعمير موجود فى الآية (٦٤) من نفس السورة : ﴿ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ .
(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا . وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ ١٥ ، ١٦ - الطارق .

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ ٦٧ - طه (٢٠)

أَوْجَسَ فُلَانٌ : وقع في نفسه الخوف . وأوجس القلبُ شيئاً : أحسَّ به أو خافه .
أَوْجَسَ فُلَانٌ الأَمْرَ : أضمره وأخفاه (١) .

﴿ خيفة ﴾ : مصدر خَافَ يَخَافُ خوفاً ومخافةً وخيفةً .

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ : أضمر موسى (وقيل أحس ، وقيل وجد) في نفسه شيئاً من الخوف وذلك بمقتضى الطبيعة البشرية عندما فوجئ بالحيات التي سحر بها سحرة فرعون الناس . ولكن الله ثبته وقال له في الآية التالية :

﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ أى تبتلع بسرعة ما موهَّوا به على الناس .

والتعبير يشى بضخامة ذلك السحر حتى أن موسى وجد في نفسه خوفاً ، وهو لا يحس مثل هذا الخوف إلا لأمر جلكل ينسيه لحظة أنه هو الأقوى .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (٢) ٩٥ - طه (٢٠)

الخطبُ : الحال والشأن . والخطبُ : الأمر الشديد يكثر فيه التخاطبُ . والجمع : خطوب . ويقال : خطب يسير وخطب جلكل ، وخصه بعضهم بما له خطر ومن ثم يكثر فيه التخاطب .

﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ : فما شأنك وما الأمر العظيم الذى حملك على ما صنعت ؟ كان السامري عظيماً فى بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة . ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة ﴾ فاغتنمها السامري وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل .

(١) تَوَجَّسَ فُلَانٌ : تَسَمَّعَ إِلَى الصَّوْتِ الْخَفِيِّ .

(٢) ورد التعبير فى ٥١- يوسف ، ٥٧- الحجر ، ٢٣- القصص ، ٣١- الذاريات .

﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾

﴿ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ

تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لِنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ

نَسْفًا ﴿ ٩٧ - طه (٢٠) ﴾

﴿ لا مِسَاسَ ﴾ أى لا أَمَسَّ ولا أَمَسَّ طول الحياة . مِساس مصدر الفعل مَاسَ ؛ كقتال من قاتل . والمراد : أنه لا يخالط أحدا ولا يخالطه أحدٌ . ونفاه موسى عن قومه وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له .

قال الحسن : جعل الله عقوبة السامرى ألا يُماس الناسَ ولا يماسوه عقوبة له ولما كان منه إلى يوم القيامة ؛ وكان الله عز وجل شدد عليه المحنة . ويقال : ابتلى بالسوساس .

قال القرطبي : فهرب السامرى وجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش . لا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كالقائل لا مِساس ؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه .

وقال القرطبي : هذه الآية أصل فى نفي أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وألا يُخالطوا . وقد فعل النبى ﷺ ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلفوا . ومن التجأ إلى الحرم وعليه قتلٌ لا يُقتل عند بعض الفقهاء ولكن لا يُعامَل ولا يُبايع ولا يُشارى ، وهو إرهاب إلى الخروج .

ونورد عن الزمخشري توضيحا ساطعا لمعنى التعبير : عوقب (أى السامرى) فى الدنيا بعقوبة لا شىء أطمَّ منها وأوحش ، وذلك أنه مُنع من مخالطة الناس منعا كلياً ، وحُرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته وكل ما يعايش به الناسُ بعضهم بعضاً . وإذا اتفق أن يُماس أحدا رجلاً أو امرأة ، حُمَّ الماس والممسوس (أصابت الحمى الاثنين) ، فتحامى (تحاشى) الناسَ وتحاموه ، وكان يصيح : لا مِساس ، وعاد فى الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم .

أَعْرَضَ عَنْهُ : صَدَّ وَوَلَّى . « ذَكَرِي » : دِينِي وَتِلَاوَةَ كِتَابِي وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهِ . وَقِيلَ عَمَّا أَنْزَلَتْ مِنَ الدَّلَائِلِ .

﴿ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا ﴾ : ضَيْقٌ شَدِيدٌ . وَالضَّنْكَ : ضَيْقُ الْعَيْشِ ، وَكُلُّ مَا ضَاقَ فَهُوَ ضَنْكٌ ، يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْإِثْنَانُ وَالْجَمْعُ وَالْمَذْكَرُ وَالْمُؤَنَّثُ . يُقَالُ : ضَنْكٌ يَضْنُكَ ضَنْكًا وَضَنْكَاةٌ : ضَاقَ .

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ مَعَ الدِّينِ التَّسْلِيمِ وَالْقَنَاعَةَ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَا قَسَمَهُ لَهُ . فَصَاحِبُهُ يَنْفَقُ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِسَمَاحٍ وَسَهُولَةٍ وَيَعِيشُ عَيْشًا رَافِعًا (رَغْدًا لِينًا) ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ۗ ﴾ (١) . وَالْمَعْرُوضُ عَنِ الدِّينِ مُسْتَوِلٌ عَلَيْهِ الْحَرَصُ الَّذِي لَا يَزَالُ يَطْمَحُ بِهِ إِلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ الدُّنْيَا ، مُسَلِّطٌ عَلَيْهِ الشَّحَّ الَّذِي يَقْبِضُ يَدَهُ عَنِ الْإِنْفَاقِ ، فَعَيْشُهُ ضَنْكٌ وَحَالُهُ مَظْلَمَةٌ .

إِنَّ الْحَيَاةَ الْمَقْطُوعَةَ الصَّلَاةَ بِاللَّهِ ضَنْكٌ مَهْمًا كَانَ فِيهَا مِنْ سَعَةٍ وَمَتَاعٍ . إِنَّهُ ضَنْكٌ الْإِنْقِطَاعَ عَنِ الْإِتِّصَالِ بِاللَّهِ وَالْإِطْمِئْنَانِ إِلَى حِمَاةِ ، ضَنْكٌ الْحَيْرَةُ وَالْقَلْقُ وَالشُّكُّ ، ضَنْكٌ الْحَرَصُ وَالْحَذَرُ : الْحَرَصُ عَلَى مَا فِي الْيَدِ وَالْحَذَرُ مِنَ الْقَوْتِ ، ضَنْكٌ الْجُرْيُ وَرَاءَ الْمَطَامِعِ وَالْحَسْرَةُ عَلَى كُلِّ مَا يَفُوتُ - إِنَّ طَمَآنِينَةَ الْإِيمَانِ تَضَاعِفُ الْحَيَاةَ طَوِيلًا وَعَرَضًا وَعَمَقًا وَسَعَةً ، وَالْحَرَمَانُ مِنْ طَمَآنِينَةِ الْإِيمَانِ شَقْوَةٌ لَا تَعْدُ لَهَا شَقْوَةُ الْفَقْرِ وَالْحَرَمَانِ .



﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾

١٦ - الأنبياء (٢١)

لَعِبَ يَلْعَبُ لَعِبًا وَلَعِبًا : لَهَا . وَلَعِبَ : عمل عملا لا يجدى عليه نفعا ، فهو لاعب وهم لاعبون . ورد هذا التعبير مع اختلاف يسير في الآية ٣٨ من سورة الدخان : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى ما خلقناها عبثا وباطلا . هذه المخلوقات البديعة الصنع المحكمة التدبير ليست خالية من الحكم والمصالح ؛ بل خلقناها لحكم بالغة ، وللتنبية على أن لها خالقا قادرا يجب امتثال أمره ، وأنه يجازى المحسن والمسيء . ما خلقنا السماء والأرض ليلظلم بعض الناس بعضاً ، ويكفر بعضهم ، ويخالف بعضهم ما أمروا به ، ثم يموتوا ولا يُجازوا على أعمالهم .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ ﴾



عَمَّا يَصِفُونَ ﴿ ٢٢ - الأنبياء (٢١) ﴾

المعنى : لو كان فى السموات والأرضين آلهة غير الله معبودون لفسدتا ، أى خربتا وهلك من فيهما بوقوع التنازع والاختلاف اللذين يقعان بين الشركاء .

جاء فى « صفوة البيان لمعانى القرآن » : إن هذا النظام المحكم المستمر ، والاتساق البديع الدائم ، والارتباط بين أجزاء العالم العلوى والسفلى ، والآثار الكونية المترتبة على ذلك - لا يمكن أن يصدر إلا عن صانع قادر . حكيم مدبر ، منفرد بالإيجاد والإبداع والتدبير ، لا شريك له فى فعله ، ولا معقب لحكمه ولا راداً لأمره . إذ أن تعدد الآلهة يترتب عليه التنازع والتغالب بينهم فى الأفعال ، والتصادم فى الإرادات ؛ فيختل النظام ويضطرب الأمر ويخرب العالم . ولما كان المشاهد غير ذلك ، دلّ على وحدة الإله المتصرف المتدبر القدير .

﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ : تنزه الله تعالى المسيطر ، ﴿ رب العرش ﴾ والعرش رمز الملك والسيطرة والاستعلاء ، تنزه عما يقولون ، والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم فيما يقولون .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ٣٠ - الأنبياء (٢١)

المعنى : أن الله خلق كل شيء من الماء . « وجعلنا » بمعنى خلقنا . روى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال : قلت يارسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عيني ؛ أنبتنى عن كل شيء ؛ قال : ﴿ كل شيء خلق من الماء ﴾ .

ولقد جاء ذكر الخلق من الماء أيضا فى قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ ٤٥ - النور . وأيضا فى قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ ٥٤ - الفرقان . هذه هى الحقيقة الضخمة التى يعرضها القرآن وهى أن الله خلق الأحياء كلها من الماء - وهى حقيقة لم يكتشفها العلم إلا حديثا !

وجسم الإنسان يحتوى على حوالى ٤٧٣٥ لتر ماء ، ونسبة ما تحويه أجهزة الجسم من مياه نسبة عالية جدا إلى حد يثير الدهشة :

فتبلغ نسبة الماء فى عضلة جسم الإنسان ٧٥٪ ، وفى الكبد ٧٠٪ ، وفى المخ ٧٩٪ ، وفى الكلى ٨٣٪ . لكنه ليس ماء نقياً وإنما هو محلول ملحي . وهناك نظرية علمية حديثة تقول إن جميع الحيوانات البرية ، بما فيها الإنسان ، إنما جاءت من البحر . راجع كتاب :

« قل لى لماذا » ص ٢٦٦ لمؤلفه : أركادى ليوكم ، دار هاملن للنشر إنجلترا (١) .

هذه الحقيقة العلمية الخطيرة : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء ﴾ يُعد العلماءُ كشفها وتقريرها أمرا عظيما . وهى حقيقة تثير الانتباه حقا ، وورودها فى القرآن لا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن ، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق فى كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله ، وليس من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له .

(1) Arkady Leokum, Tell Me Why p. 266 (Hamlyn Publishing Group, Middlesex, England) .



﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ٣٧ - الأنبياء (٢١)

العجل : طلب الشيء وتحريره قبل أوانه . عَجَلَ يَعَجِلُ عَجْلاً وَعَجَلَةً : أسرع .

ومعنى التعبير أن جنس الإنسان خُلِقَ مجبولاً مطبوعاً على العجلة والتسرع ، فيستعجل كثيرا من الأشياء وقد تكون مضرة به . ومن ذلك استعجالهم العذاب الذي أوعدوا به - متى هذا الوعد - جهلاً منهم وغفلة عن شأنه .

وخلق من عجل أى رُكِبَ على العجلة فخلق عجولاً ، كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ﴾ أى خلق الإنسان ضعيفاً . وأيضاً يقال عند المبالغة فى وصف الإنسان بالشر : خلق الإنسان من الشر أى شريراً . ومهما قيل فى شرح هذا التعبير فلن يبلغ شيئاً من سحره ونصاعته .

لكن الإنسان إذا اتصل بالله وأوكل الأمر إليه ، فإنه يثبت ويطمئن . فالإيمان ثقة وصبر واطمئنان .

﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ ٩٠ - الأنبياء (٢١)

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي

الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ ٩٠ - الأنبياء (٢١)

أَصْلَحَ الشَّيْءَ : أزال فساده .

وأصلح الله لفلان ذريته : جعلها سالحة أى مستقيمة مؤدية لواجباتها .

قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين فى تفسير ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ : إنها كانت عاقراً فجعلت ولوداً . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان ، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق . قال القرطبي : يحتمل أن تكون جمعت المعنيين ، فجعلت حسنة الخلق وكوداً .

والتعليقات - مهما تعددت - حول هذا التعبير ، فلن تبلغ شيئاً من وقعه الطاغى على العقول والقلوب جميعاً . إنه أكبر من قدرة العقل على الاستيعاب ، وجماله وروعته فى القلب أكبر من أن توصف بالكلمات .

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ٢ - الحج (٢٢)

﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ : تنسى وتترك كل امرأة الطفل الذي ألقته ثديها من شدة كربها ودهشتها ؛ من الذهول وهو الغفلة عن الشيء بطروء ما يشغل عنه من هم أو وجع أو غيره ، والفعل ذَهَلَ عنه يذهل ذُهولا : نسيه وغَفَلَ عنه .

والمُرْضِعَةُ : المباشرة للإرضاع بالفعل لولدها ، وتسمى مَرَضِعٌ إذا لم يكن ولدًا .

﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ أي ولدها قبل تمامه من شدة الهول .

﴿وترى الناس سكارى﴾ أي من هولها ومما يدركهم من الخوف والفرع . قال أهل المعاني : وترى الناس كأنهم سكارى ، أي تظن ويخيل إليك ، ويدل على ذلك قراءة أبي زرعة هرم بن عمرو بن جرير بن عبد الله ﴿وترى الناس﴾ بضم التاء (١) . وقرأ حمزة والكسائي «سُكْرَى» بغير ألف ، وقرأ الباقون «سكارى» وهما لغتان لجمع سكران ؛ مثل كسَلَى وكُسَالَى .

تصور الآية مشهدا مزدحما بذلك الحشد المتماوج : بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت ، تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعي ، وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها ؛ والناس سكارى ، لا من شراب وإنما من خوف ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة وفي خطواتهم المترنحة - مشهد تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يتملاه .

(١) انظر : تفسير القرطبي .

﴿ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾

٥ - الحج (٢٢)

﴿ أَرْدَلِ الْعُمُرِ ﴾ أى أَحْسَهُ وَأَدُونَهُ ، وهو الهرم والخَرْف حتى لا يعقل .
والفعل رَذَلَهُ يَرُدُّهُ رَذَالًا : عَدَهُ رَذِيلًا . ورَذُلٌ : رَدُّوٌ .

والأَرْدَلُ : الدُّونُ الخسيس ، أو الردىء من كل شىء . وأرذل العمر : آخره فى حال الكِبَر والعجز والخَرْف ، ولهذا قال :

﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ . كما قال فى سورة يس : ﴿ وَمَنْ نَعْمَرَهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ ﴾ . وكان النبىؐ ، يدعو فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » . أخرجه النسائى .

والذى يرد إلى أرذل العمر إنما هو صفحة مفتوحة للتدبير . فبعد العلم وبعد الرشد ، وبعد الوعى وبعد الاكتمال ، إذا هو يرتد طفلاً : طفلاً فى عواطفه وانفعالاته ، طفلاً فى وعيه ومعلوماته ؛ طفلاً فى تقديره وتدبيره ، أقل شىء يرضيه وأقل شىء يبكيه ؛ طفلاً فى حافظته فلا تمسك شيئاً ، وفى ذاكرته فلا تستحضر شيئاً ؛ طفلاً فى أخذ الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط ولا تؤدى فى حسه ووعيه إلى نتيجة لأنه ينسى أولها قبل أن يأتى إلى آخرها .

قال الزمخشرى : بين - سبحانه - أنه كما قدر على أن يرقيه فى درجات الزيادة حتى يُبلِّغه حد التمام ، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهى به إلى الحالة السفلى .

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ
وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن
نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي
الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوا أَشُدَّكُمْ
وَمِنْكُمْ مَّن يَتَّقَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ
شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ
كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ - الحج (٢٢)

﴿ هامة ﴾ : يابسة لانيات فيها . يقال : همدت الأرض تهمد هموداً : ييسر ودرست .

وهمدت أصواتهم إذا سكنت ، وهمود الأرض ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولم يصبها
مطر .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ﴾ أي تحركت في رأى العين بسبب حركة النبات ،
والاهتزاز شدة الحركة . يقال : هزرت الشيء فاهتز ، أي حركته فتحرك (١) . فالأرض تهتز
بالنبات ، لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها عن بعض إزالة خفية ؛ فسماء اهتزازا
مجازا ، وهو مجاز متصل بالمجاز السابق عليه عندما وصف الأرض بأنها هامة أي ساكنة (٢) .

﴿ وَرَبَّتْ ﴾ : زادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات . يقال : ربا الشيء يربوا ربواً
: زادوا .

﴿ وَأَنْبَتَتْ ﴾ أي أخرجت ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي من كل صنف (٣) ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي نضير
حَسَنٍ ؛ من بَهَجَ بَهَاجَةً وبَهَجَةً أَي حَسَنًا .

ذكر في أول الآية دلالة على البعث فقال : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرَابٍ ﴾ ، ثم ذكر دلالة
ثانية : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ .

(١) وهز الحادى الإبل هزيراً فاهتزت هي إذا تحركت في سيرها بحُدائه .

(٢) وقيل : اهتز نباتها ، فحذف المضاف ، قال الشاعر :

تَنَشَّى إِذَا قَامَتْ وَتَهْتَزُّ إِذَا مَشَتْ

كما اهتز عُصْنُ البانِ فِي وَرْقِ خُضْرٍ

(٣) من معانى كلمة زوج : الصَّنْفُ ، والنوع من كل شيء .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٨)

ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ

الْحَرِيقِ ﴿ ٨ ، ٩ - الْحَجَّ (٢٢) ﴾

عطفًا الإنسان : جانباه من لدن رأسه إلى وركه ، ويمكن للإنسان أن يثنى جانبه ، ويُعبّر بتلك الحركة عن الإعراض فيقال ثنى عطفه يثنيه أى تكبر ، وهو تعبير يماثل فى معناه التعبير : نأى بجانبه ، والتعبير : صَعَّرَ خَدَهُ .

وبرغم الدلائل التى وردت فى الآيات السابقة على البعث والقيامة ، فإن هناك من يجادل فى الله غير مستند إلى علم ولا إلى دليل ولا إلى حق فيعوض عن هذا بالعجرفة والكبر والإعراض ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ لا يكتفى بأن يضل ، إنما يحمل غيره على الضلال .

﴿ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾

١١ - الحج (٢٢)

حَرْفُ الشَّيْءِ : نَاحِيَّتُهُ . وَفُلَانٌ عَلَىٰ حَرْفٍ مِنْ أَمْرِهِ أَي نَاحِيَّةٌ مِنْهُ كَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ وَيَتَوَقَّعُ ، فَإِذَا رَأَى وَوَجَدَ مَا يَحِبُّ اسْتَمَرَّ عَلَىٰ هَذِهِ النَّاحِيَّةِ ، أَمَا إِذَا رَأَى وَوَجَدَ مَا لَا يَعْجَبُهُ عَدَلَ عَنْ هَذِهِ النَّاحِيَّةِ .

﴿ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ : عَلَىٰ غَيْرِ ثَبَاتٍ وَعَلَىٰ غَيْرِ طَمَآنِيَّةٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَهُوَ لَا يَدْخُلُ فِي الدِّينِ دَخُولَ مَتَمَكِّنٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُضْطَرِبٌ فِي أَمْرِ دِينِهِ وَقَدَمُهُ مَزْلُزَلَةٌ فِيهِ . جَاءَ فِي « تَفْسِيرِ الْجَلَالِينِ » : عَلَىٰ حَرْفٍ أَي عَلَىٰ شَكٍّ فِي عِبَادَتِهِ ، شَبَّهَ بِالْوَاقِفِ عَلَىٰ حَرْفِ جَبَلٍ فِي عَدَمِ ثَبَاتِهِ .

فَالْتَبَعِيرُ يَصُورُ ﴿ مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ فِي حَرَكَةِ جَسَدِيَّةٍ مَتَارِجِحَةٍ ، فَهُوَ مُعْرَضٌ لِلسَّقُوطِ عِنْدَ أَوَّلِ دَفْعَةٍ .

وَسِيَاقُ الْآيَةِ يَشْرَحُ التَّبَعِيرَ . « فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ » أَي سَرَاءٌ (نِعْمَةٌ وَخَصْبٌ ، كَثْرَةٌ مَالٍ ، صِحَّةٌ وَعَافِيَةٌ ، الْخ) « اطْمَأَنَّ بِهِ » أَي بِمَا أَصَابَهُ وَرَضِيَ بِدِينِهِ . ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أَي ضَرَاءٌ (جَدْبٌ ، قَلَّةٌ مَالٍ ، سَقَمٌ ، الْخ) ﴿ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ أَي رَجَعَ عَنْ دِينِهِ إِلَى الْكُفْرِ .

قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : كَانَ الْخَيْرُ وَالْخَصْبُ نَاحِيَّةً ، وَالضَّرُّ وَالشَّرُّ وَالْمَكْرُوهُ نَاحِيَّةً أُخْرَى ، فَهَمَا حَرْفَانِ وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْبُدَ خَالَفَهُ عَلَى حَالَتِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ . وَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَلَى السَّرَاءِ وَحَدَّثَهَا دُونَ أَنْ يَعْبُدَهُ عَلَى الضَّرَاءِ يَبْتَلِيهِ بِهَا فَقَدْ عَبَدَهُ عَلَى حَرْفٍ . وَمَنْ عَبَدَهُ كَيْفَمَا تَصَرَّفَتْ بِهِ الْحَالُ فَقَدْ عَبَدَهُ عِبَادَةَ عَبْدٍ مُقَرَّبٍ أَنْ لَهُ خَالَفًا يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ ؛ وَأَنَّهُ إِنْ اِمْتَحَنَهُ بِاللَّأْوَاءِ (ضَيْقِ الْمَعِيشَةِ) أَوْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالسَّرَاءِ ، فَهُوَ فِي ذَلِكَ عَادِلٌ أَوْ مُتَفَضِّلٌ غَيْرُ ظَالِمٍ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَلَا خَيْرَةٌ لِلْعَبْدِ عَلَيْهِ .

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : « عَلَى حَرْفٍ » عَلَى طَرَفٍ مِنَ الدِّينِ ، لَا فِي وَسْطِهِ وَقَلْبِهِ . وَهَذَا مِثْلُ لِكُونِهِمْ عَلَى قَلْقٍ وَاضْطِرَابٍ فِي دِينِهِمْ ، لَا عَلَى سَكُونٍ وَطَمَآنِيَّةٍ ، كَالَّذِي يَكُونُ عَلَى طَرَفٍ مِنَ الْعَسْكَرِ (أَي الْجَيْشِ فِي الْمَعْرَكَةِ) فَإِنْ أَحْسَبَ بَظْفَرٍ وَغَنِيمَةً قَرًّا وَاطْمَأَنَّ ، وَإِلَّا فَرَّ وَطَارَ عَلَى وَجْهِهِ . قَالُوا : نَزَلَتْ فِي أَعْرَابِ قَدَمُوا الْمَدِينَةَ ، وَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا صَحَّ بَدَنُهُ وَنَتَجَتْ فَرْسُهُ

مهرا سرىا ، وولدت امرأته غلاما سويا ، وكثر ماله وماشيته ، قال : ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلا خيرا ، واطمأن . وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبت إلا شرا ، وانقلب .

إن العقيدة هى الركيزة الثابتة فى حياة المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة ، وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيتشبث هو بعقيدته لا يتلجلج ولا يضطرب ؛ فهى الحمى الذى يلجأ إليه والسند الذى يستند عليه . ويرى من حوله الحيارى الشاردين تتقاذفهم الزوابع ويستبد بهم القلق . أما هو - ذلك الموصول بالله - فمطمئن بهذا الاتصال ، هادئ البال وثابت القدم .

(انظر التعبير : انقلب على وجهه)

﴿ انقلب على وجهه ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ

فِتْنَةٌ انقلبَ علىٰ وجهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾

١١ - الحج (٢٢)

انقلب : رَجَعَ أَوْ تَحَوَّلَ .

انقلب على عقبيه أو على وجهه : رجع عن رأيه أو عن عقيدته فى خزى .

« وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » : هذا حال من يعبد الله على حرف ، حال القلق فى دينه ، الذى لم يتمكن الإيمان من قلبه - إذا أصابته فتنة أى مكروه فى أهله أو ماله أو نفسه ، ارتد إلى الكفر . وبهذا يجمع على نفسه محتتين : محنة ما حل به من مكروه ومحنة ضياع ثواب الصابرين ، فخسر الدارين : الدنيا والآخرة .

﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ الظاهر الواضح الذى لا خسران مثله .

﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ : قرئت خاسراً الدنيا والآخرة على صيغة اسم الفاعل منصوباً على الحال . وقرئت خاسراً الدنيا والآخرة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى خسران الدنيا والآخرة . وهو مبتدأ وخبره : ﴿ هو الخسران المبين ﴾ .

والى أين يتجه هذا الذى يعبد الله على حرف ؟ إلى أين يتجه بعيداً عن الله ؟ تقول الآية التالية رقم ١٢ : ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ﴾ ، يدعو صنماً أو وثناً على طريقة الجاهلية الأولى ، ويدعو شخصاً أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهليات المتناثرة فى كل مكان وفى كل زمان ، كلما انحرف الناس عن الاتجاه إلى الله وحده والسير على صراطه ومنهجه - ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ .

(انظر التعبير : يعبد الله على حرف ﴾)

﴿ فَلَيْمَدُّ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ ﴾

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلَيْمَدُّ بِسَبَبِ إِلَى

السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقْطَعُ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَذْهَبُ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ ١٥ - الحج (٢٢)

نبدأ بمن قال إن ضمير «الهاء» في «ينصره» يرجع إلى محمد ﷺ . وهؤلاء هم ابن عباس وأبو جعفر النحاس والزمخشري وتبعهما القرطبي في أحد الأقوال التي أوردها والنسفي والجلالين وحسين مخلوف حديثاً .

قال ابن عباس : الكناية في « ينصره الله » ترجع إلى محمد ﷺ ، وهو وإن لم يجز له ذكر فجميع الكلام دال عليه ؛ لأن الإيمان في الآية السابقة : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات . . . ﴾ هو الإيمان بالله وبمحمد ، والانقلاب عن الدين في الآية قبلها : ﴿ ومنهم من يعبد الله على حرف . . . ﴾ انقلاب عن الدين الذي أتى به محمد ﷺ .

والمعنى أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة ، فمن ظن من أعدائه غير ذلك ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أى بحبل « إلى السماء » إلى سماء بيته أى سقف بيته « ثم ليقطع » أى ليختنق به . وسمى الاختناق قطعاً لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجارى نفسه .

« ما » فى قوله « ما يغىظ » بمعنى الذى ، أى هل يذهب كيدُه الذى يغىظه (والذى يغىظه هو نصر الله لمحمد) ، وحذف الهاء ولم يقل ما يغىظه ليكون أخف . وسمى فعله هذا كيدا على سبيل الاستهزاء ، لأنه لم يكده محسوداً وإنما كاد به نفسه ، والمراد : ليس فى يد من يعادى محمداً ما يذهب به غيظه .

وقال مجاهد : « من كان يظن أن لن ينصره الله » أى لن يرزقه (١) ، وهو قول أبى عبيدة ، والهاء فى « ينصره » تعود على « من » والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقه فليختنق ، فليقتل نفسه ؛ إذ لا خير فى الحياة عندما تخلو من عون الله .

وقيل إن الهاء فى « ينصره » تعود على الدين ، والمعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله دينه فليمدد بحبل إلى السماء ، وهى السماء المعروفة ، كما يقول ابن زيد ، والسبب : الحبل - وهذا كناية عن المستحيل .

قرأ الكوفيون « ثم ليقطع » بإسكان اللام . وقال النحاس : وهذا بعيد فى العربية لأن « ثم » ليست مثل الواو والفاء ، لأنها يوقف عليها وتنفرد . وقرأ البصريون بكسر اللام « ثم ليقطع » .

(١) تقول العرب : من ينصرنى نصره الله ، أى من أعطانى أعطاه الله .

ومن ذلك قول العرب : أرض منصوره أى ممطورة . قال الفقعمسى :

وإنك لا تعطى امرءاً فوقَ حَقِّه

ولا تملك الشقَّ الذى الغيثُ ناصرُه

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ

تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ ٣١ - الحج (٢٢)

خَرَّالْبِنَاءُ يَخْرُ خَرًّا وَخُرُورًا : سقط من علو إلى سُفْلٍ بصوت . وَخَرَّ الشَّيْءُ : سقط .
سحيق : بعيد . تهوى به الريح : تُسْقِطُهُ .

المعنى : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة من خَرَّ وسقط من السماء فاختطفته الطيور الجارحة ، فتفرق مُزْعَاً (جمع مُزْعَةٌ وهى قطعة اللحم) فى حواصلها ؛ أو عصفت به الريح حتى أسقطته فى بعض المطارح البعيدة .

يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الخالص : «حنفاء لله غير مشركين به» . ثم يرسم النص مشهداً عنيفاً يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد ، فيهوى إلى درك الشرك ، فإذا هو ضائع ذاهب بَدَدًا كأن لم يكن من قبل أبداً . إنه مشهد السقوط من شاهق ، وفى مثل ملح البصر يتمزق فتتخطفه الطير ؛ أو تقذف به الريح بعيداً عن الأنظار فى هوة ليس لها قرار .

والملاحظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها فى اللفظ باستخدام الفاء العاطفة ، وفى المنظر بسرعة الاختفاء .

إنها صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فيهوى من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء . إنه يفقد القاعدة الثابتة التى يطمئن إليها : قاعدة التوحيد . ويفقد المستقر الآمن الذى يثوب إليه فتتخطفه الأهواء تخطف جوارح الطير ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح - فهو لا يمسك بالعروة الوثقى ولا يستقر على القاعدة الثابتة التى تربطه بهذا الوجود .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

٣٨ - الحج (٢٢)

يدافع الله عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم فلا تقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم .

وقيل : يدفع الله عن المؤمنين بإعلانهم بالحجة .

وقيل : يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ، كما قال : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا » ٥١ - غافر ، وقوله : « إنهم لهم المنصورون » ١٧٣ - الصافات .

والآية بشارة للمؤمنين بالنصر - لتثبيت قلوبهم .

إن قوى الشر والضلال تعمل فى هذه الأرض ، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان . والشر جامع وهو يبطش غير متحرج ، ويملك أن يفتن الناس عن الخير وعن الحق وعن إيمانهم - فلا بد للإيمان من قوة تحميه . ولم يشأ الله أن يترك المؤمنين للفتنة إلا ريثما يستعدون للمعركة ويتمكنون من وسائل الجهاد . وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة أذنهم (أعلمهم وأخبرهم) أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم فى حمايته : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتما : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

ضمن الله للمؤمنين أنه هو يدافع عنهم ، ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عدوه وظاهر عليه . ففيم إذن يكتب عليهم الجهاد حيث يصيبهم القتل والجرح والآلام؟ لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كى يتم نصرتهم فى أثناء المعركة ، فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهى تواجه الخطر ؛ وهى تدفع وتدافع ، وهى تستجمع كل قواها لتواجه القوة المهاجمة .

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

٤٠ - الحج (٢٢)

﴿ من ينصره ﴾ أى من ينصر دينه ونبيه .

والتعبير يؤكد وعد الله بالنصر للمجاهدين فى سبيله بحر فى التوكيد : اللام والنون فى قوله : ﴿ ولينصرن ﴾ ؛ ثم بلام التوكيد مرة ثانية وبأداة التوكيد « إن » فى قوله تعالى : ﴿ إن الله لقوى عزيز ﴾ ؛ ويؤكد مرة ثالثة بالإشارة إلى أن الله هو القوى القادر على إنفاذ إرادته وهو العزيز الذى لا يغلب .

فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذى لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره ، فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله فيستحقون نصره ؟ بينهم فى الآية التالية : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ هم الذين يعبدون الله ويوثقون صلتهم به ؛ ويؤدون حق المال بالانتصار على شح النفس وبكفالة الضعاف والمحاييج ؛ ويدعون إلى الخير والصلاح ويدفعون إليه الناس ، ويقاومون الشر والفساد - هؤلاء هم الذين ينصرون الله ، إذ ينصرون نهجه الذى أرادته للناس فى هذه الحياة ، وهم بهذا يستحقون نصره وتأبيده .

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

الْصُّدُورِ ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ

بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

٤٦ - الحج (٢٢)

الأبصار : جمع بَصَرَ ، والبَصَرُ : العين ، أو قوة الإبصار . فما عميت عيونهم من الرؤية والإبصار ، وإنما عميت قلوبهم عن التدبر والاعتبار .

قال قتادة : البصر الناظر جعل بُلغة ومنفعة ، والبصر النافع في القلب .

« أفلم يسيروا في الأرض » يعنى كفار مكة فيشاهدوا هذه القرى فيتعظوا ، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم في الآية ٤٥ : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ .

﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ : أضاف العقل إلى القلب . ويدور معنى العمى على الستر والتغطية ؛ ومن ذلك عمى الشيء : خَفِيَ ، وَعَمَّاهُ : أخفاه . والعمى : ذهاب البصر ، وأيضا : ذهاب نظر القلب كذلك . وكل ما ورد في القرآن دَمًا للعمى فهو ذمٌ لعمى البصيرة ، والبصيرة : نور القلب الذى به يستبصر أى يميز بين الحق والباطل بالاستدلال والنظر .

وعلى هذا فعمى القلب هو تعطل قوى الإدراك والفتنة في الإنسان .

قال الزمخشري : أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى فيها . وإنما العمى بقلوبهم . أو لا يُعْتَدَ بعمى الأبصار ، فكأنه ليس بعمى إذا ما قورن بعمى القلوب . . فأى فائدة من ذكر الصدور ؟ والجواب هو أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها . واستعماله في القلب استعارة ومثل ، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ، ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وتوكيد ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، فقال : ﴿ القلوب التى فى الصدور ﴾ ، تلك التى لم تعتبر بمصارع الغابرين . .

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾
 ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ
 سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ٤٧ - الحج (٢٢)

تقدير الزمن في حساب الله غير تقديره في حساب البشر ، ومن حلمه - سبحانه - واستقصاره المدد الطوال أن يوما واحدا عنده كألف سنة عندكم .

والله يملئ للظالمين ويمهلهم على سبيل الاختبار ، لكنهم - من باب السخرية - يستعجلون ما يوعدون به من العذاب ، ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ فهو آت في موعده الذي أراده وقدره .

﴿ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا ﴾
 ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ
 فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا
 تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ ٢٧ - المؤمنون (٢٣)

﴿ اصنع الفلك بأعيننا ﴾ : بمرأى منا ومنظر . أو بحفظنا لك عن أن يفسدها عليك قومك ، وكان معه من الله حفاظاً يكلؤونه بعيونهم لئلا يتعرض له مفسد يفسد عليه عمله . ومنه قولهم : عين كائنه .

﴿ ووحينا ﴾ أى نأمرك كيف تصنع ونعلمك . روى أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جوؤ الطائر (أى صدره) .

راح نوح يواصل جهوده الخالصة لهداية قومه ودعوتهم إلى الإيمان ، ويحتمل إعراضهم واستهزاءهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد ! لم يجد نوح منفذا إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة ، فدعا عليهم بالهلاك بعد أن ينس من اتباعهم إياه . دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ ٣٦ - هود .

ألهم نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل وجهها من الشر العارم الذى انتهى إليه القوم فى زمانه . وكان العلاج هو الطوفان الذى يجرف كل شىء ويغسل التربة ، لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد : ﴿ فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ والفلك وسيلة للنجاة من الطوفان ، ولحفظ بذور الحياة السليمة كيما يعاد بذرها من جديد .

وقد شاء الله أن يصنع نوح الفلك بيده ، لأنه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل ، وبذل آخر ما فى طوقه كى يستحق المدد من ربه .

﴿ هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ لَمَّا تُوْعَدُونَ ﴾ ٣٦ - المؤمنون (٢٣)

هيهات : اسم فعل ماضٍ بمعنى بَعُدَ ؛ والمعنى : بَعُدَ بَعْدَ مَا تُوْعَدُونَ به من الخروج من القبور الوارد في الآية السابقة رقم ٣٥ : ﴿ أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مَخْرُجُونَ ﴾ .

وهيهات الثانية تأكيد لفظي للأولى . واللام في « لَمَّا » زائدة في الفاعل ﴿ ما تُوْعَدُونَ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا ﴾

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا

وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٤٤ - المؤمنون (٢٣)

﴿ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرِي ﴾ أى متواترين ، أى متتابعين واحداً إثر واحد مع فصلٍ ومُهلة

بينهم .

يقال : جاءُوا تَتْرِي : متواترين (وأصله : وتَرَى فقلبت الواو تاءً ؛ من المواترة وهى التابع) (١) . والفعل : تواترت الأشياء تتابعت مع فترات تفصل بينها .

﴿ تَتْرِي ﴾ : منصوب على الحان من رسلنا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو تَتْرِي بالتنوين .

(١) وأيضا : جاءُوا تَتْرًا أى متواترين . والحديث المتواتر : ما أخبر به جمعٌ يُؤْمِنُ تواطؤهم على الكذب .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولَهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٤٤ - المؤمنون (٢٣)

﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ جمع أحداث وهي ما يتحدث به ، كأعاجيب جمع أعجوبة وهي ما يتعجب منه . والمعنى : جعلنا الأمم المكذبة مثلا يتحدث بهن الناس تعجبا وتكهنياً . ولا يقال ذلك إلا في الشر^(١) . والمراد أنهم أهلكوا ، ولم يبق بين الناس إلا أخبارهم يتلهون بها . قال الأخفش : ﴿ جعلناهم أحاديث ﴾ إنما يقال في الشر ولا يقال في الخير ، كما يقال : صار فلان حديثاً أي عبرة ومثلاً ؛ كما قال في آية أخرى : ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ ١٩ - سبأ .

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

٥٣ - المؤمنون (٢٣)

زَبْرَ الْكِتَابِ : كَتَبَهُ أَوْ أَتَقَنَّ كِتَابَتَهُ ، فَهُوَ مَزْبُورٌ وَزُبُورٌ . وَالزُّبُورُ : الْكِتَابُ الْمَزْبُورُ (وغلب على صحف داود عليه السلام) .

﴿ فتقطعوا ﴾ أي افترقوا ، من تقطع أمرهم بينهم : تفرقوا . فهذه الأمم جعلوا دينهم أديانا بعد ما أمروا بالاجتماع في الآية السابقة رقم ٥٢ : ﴿ وَأَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنْتُمْ بَكُمْ فَانْتَقُونَ ﴾ . وَهُمْ قَطَّعُوا أَمْرَ دِينِهِمْ وَجَعَلُوهُ زُبْرًا أَيْ كَتَبُوا مَخْتَلَفَةً وَضَعُوهَا وَضَلَالَاتٍ أَلْفُوهَا ، كَمَا نَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ ، وَصَارُوا طَوَائِفَ وَأَحْزَابًا شَتَى . وَكُلُّ حِزْبٍ مِنْهُمْ مَعْجَبٌ بِرَأْيِهِ وَضَلَالَتُهُ بَعْدَ مَا حَرَفَ الْكُلَّ وَبَدَّلَ فِي الْكُتُبِ ، كَمَا قَالَ قَتَادَةَ ، فَكُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

وقيل في تفسير زبرا أي قطعاً أي طوائف من الناس فهم تفرقوا إلى طوائف مختلفة .

(١) قال القرطبي : وقد يقال فلان حديث حسن ، إذا كان مقيداً بذكر ذلك ، ومنه قول ابن دريد : وإنما المرء حديث بعده فكُنْ حديثاً حسناً لمن وعى

﴿لَلْجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَلْجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

٥٣ - المؤمنون (٢٣)

لَجَّ فِي الْأَمْرِ يَلِجُ لُجْجًا وَلِجًا وَجَاءَ : تَمَادَى فِيهِ (١) .

﴿يعمهون﴾ من العمه وهو التحير والتردد وعدم معرفة الحجة ، والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر . والفعل عمه يعمه عمها .

ولم يرد منه فى القرآن الكريم إلا المضارع ، مع الطغيان والسكره وتزيين الأعمال .

ولتوضيح معنى التعبير نورد السياق الذى وردت فيه الآية بذكر الآية التى جاءت قبلها والآية التى جاءت بعدها : ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون . ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون . ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ .

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ينحرفون عن الطريق المستقيم وهو معنى « عن الصراط لناكبون » عادلون عن الصراط المستقيم مائلون إلى غيره . ولا يفيدهم الابتلاء بالنعمة ، وهو معنى « رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر » أى من قحط وجوع وأبدلناهم خيرات لتمادوا فى طغيانهم وعمى بصائرهم . كما أنهم لا يفيدهم الابتلاء بالنقمة ، فلقد أصابناهم بالأمراض والحاجة والجوع ، فما خضعوا لربهم وما خشعوا لجلاله ، وهو معنى « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » وهى جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها (٢) .

هذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس ، القاسية قلوبهم ، الغافلين عن الله ، المكذبين بالآخرة : لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة ، ولا الابتلاء بالنقمة . والاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله ، والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رِقٌّ ولان ، واستيقظ وتذكر . وبهذا يقى صاحبه من الغفلة والزلل .

(١) فهو وهى لجوج . ويقال : لَجَّ فِي الْخِصُومَةِ .

(٢) انظر : « فتح القدير » للشوكاني .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ - ١١٥ -

المؤمنون (٢٣)

﴿ خلقناكم عبثًا ﴾ : أى مهملين كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ٣٦ - القيامة ، يريد كالبهائم مهملا لغير فائدة .

قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن على : إن الله تعالى خلق الخلق عبيدا ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ويعاقبهم على تركها ، فإن عبده فهم اليوم له عبيد كرام أحرار من رق الدنيا ، ملوك فى دار الإسلام ، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أباق سقطا لثام ، وغدا أعداء فى السجون بين أطباق النيران .

﴿ عبثًا ﴾ : نصب على الحال عند سيويه وقطرب .

﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ فتجازون بأعمالكم . قرأ حمزة والكسائى « ترجعون » بفتح التاء وكسر الجيم .

وقيل فى إعراب ﴿ عبثًا ﴾ إنها مفعول له ، أى : ما خلقناكم للعبث ، فلقد خلقناكم لحكمة ، وهى أن نتعبدكم ونكلفكم الطاعات وترك المعاصى ، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء ، فثيب المحسن ونعاقب المسيء .

فى الآية تعنيف على تكذيبهم بالآخرة ، مع التبصير بحكمة البعث ، فحكمة البعث من حكمة الخلق : محسوب حسابها ومقدر وقوعها ، وما البعث إلا حلقة فى سلسلة النشأة ، تبلغ بها كما لها ويتم فيها تمامها .

﴿ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾
 ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ
 وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٢٢ - النور (٢٤)

اللام فى ﴿ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا ﴾ هى لام الطلب ، وحركتها الكسر لكنها تسكن بعد الفاء والواو . والتعبير يحض على العفو عن المسىء ؛ عفا الربيع أى دَرَسَ ، فالعفو هو محو الذنب حتى يعفو أى يذهب أثره كما يذهب أثر الربيع .

﴿ وليصفحوا ﴾ مرادف ﴿ وليعفوا ﴾ جاءت للتأكيد .

﴿ أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ : ألا أداة تبتدأ بها الجملة للتنبيه والعرض وللتحضيض . قال القرطبي : هذه الجملة تمثيل وحجة ، فكما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم . وفى هذا المعنى ينظر إلى قول النبى عليه الصلاة والسلام : « من لا يَرْحَمَ لا يُرْحَمُ » .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أى لا يحلف من الألية وهى اليمين . ائْتَلَى يَأْتَلَى أى حلف . « أولو الفضل منكم والسعة » أصحاب التقى والسعة فى المال أى الغنى . ﴿ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى ﴾ أى يعطوهم .

نزلت الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه عندما حلف ألا ينفق على مسطح ، وهو ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدرين المساكين ، بعد أن خاض مع الخاضعين فى حديث الإفك ، ونزل القرآن ببراءة عائشة رضى الله عنها . ولما نزلت قال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، وأعاد إلى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه .

غير أن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة بالألا يفتاظ ذو فضل وسعة فيحلف ألا يتصدق على من أساء إليه . ومن حلف على شىء لا يفعله فرأى فعله أولى منه ، أتاه وكفر عن يمينه .

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ
وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴾ ٢٦ - النور (٢٤)

﴿ الخبيثات للخبيثين ﴾ : تقرير للسنة الإلهية فيما بين الناس من إلف الشكل (أى مألوف الشكل) لشكله ، وانجذاب كل قبيل (الصنف المماثل) إلى قبيله . والمعنى أن الخبيثات من النساء مختصات بالخبيثين من الرجال ، والخبيثون منهم مختصون بالخبيثات منهن . ولما كان رسول الله ﷺ أطيب الطيبين تبين كون عائشة بنت الصديق من أطيب الطيبات بالضرورة واتضح بطلان ما رُميت به افتراءً (فى حديث الإفك)^(١) ؛ كما قال تعالى : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾^(٢) والإشارة إلى أهل بيت النبوة رجالاً ونساء ، وتدخل فيهم عائشة دخولا أوليا بقريظة السياق . أى أولئك منزهون عما يقوله أهل الإفك فى حقهم من الأكاذيب الباطلة . وحسب عائشة - رضى الله عنها - فضلا تبرئة الله لها فى هذه الآية .

وجاء فى « الكشاف » للزمخشري : « الخبيثات » أى الخبيثات من القول (الأقوال السيئة) تقال أو تعد « للخبيثين » من الرجال والنساء ، « والخبيثون » منهم يتعرضون « للخبيثات » من القول ، وكذلك الطيبات والطيبون . و « أولئك » إشارة إلى الطيبين ، وأنهم مبرءون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم ، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة وما رُميت به من قول لا يطابق حالها فى النزاهة والطيب .

(١) لما قفل رسول الله ﷺ عائداً إلى المدينة من غزوة بنى المصطفى سنة ست ، جاوزت عائشة الجيش لبعض شأنها ثم للبحث عن عقدها الذى افتقدته ، ولما رجعت إلى مكان الجيش لم تجد أحداً . وكان صفوان بن المعطل صاحب ساقه رسول الله . قد تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة ، فوجد عائشة ، فنزل عن ناقته وتنحى جانباً حتى ركبت عائشة ، ثم قاد الناقة حتى بلغ بها الجيش ، فوقع أهل الإفك فى مقالتهم ، وكان الذى تولى ترويجه عبدالله بن أبى بن سلول ، رأس المنافقين ، الذى رأى صفوان أخذاً بزمام ناقة عائشة ، فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها . ولما بلغ حديث الإفك عائشة خرت مغشياً عليها . والحديث بكماله فى صحيحى البخارى ومسلم .

(٢) قال أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رمى بالفاحشة برأه الله على لسان صبي فى المهدي ، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه ، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن .

﴿ تَسْتَأْنِسُوا وَتَسْلَمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتَسْلَمُوا
 عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ٢٧ - النور (٢٤)

استأنس الزائر : استأذن . واستأنس له : تسمع .

والاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف ، من أنس الشيء إذا أبصره ظاهرا مكشوفاً .
 والمستأنس : مستعلم للحال مستكشف هل يراد دخوله أم لا . قال الزمخشري : والذي
 يطرق باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا ؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له
 استأنس ، فالمعنى : حتى يؤذن لكم ، وهذا من باب الكناية ، لأن هذا النوع من الاستئناس
 يتبع الإذن ، فوضع موضع الإذن . والتعبير عن الاستئذان بالاستئناس يوحي بلطف
 الاستئذان ، ولطف الطريقة التي يجيء بها الطارق ، فتحدث في نفوس أهل البيت أنسابه
 واستعدادا لاستقباله .

والسنة في الاستئذان ثلاث مرات ، إلا من علم أنه لم يُسمع ، فلا بأس أن يزيد إذا
 استيقن أنه لم يُسمع . وصورة الاستئذان أن يقول الرجل : السلام عليكم أدخل ، فإن أذن
 له دخل ، وإن أمر بالرجوع انصرف ، وإن سكت عنه استأذن ثلاثا ، ثم ينصرف من بعد
 الثلاث . وقد قال رسول الله ﷺ :

« إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » وهو حديث مشهور أخرجه الصحيح ،
 كما جاء في تفسير القرطبي .

أما الدق على الباب فيكون خفيفا بحيث يُسمع ولا يعنف في ذلك . ثم لكل قوم في
 الاستئذان عرفهم في العبارة .

هذه الأحكام تتعلق ببيت ليس لك . أما بيتك الذي تسكنه ، فإن كان فيه أهلك (زوجتك
 فلا إذن عليها . لكن يستأذن الرجل على أمه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما . فقد روى عطاء
 بن يسار أن رجلا قال للنبي ﷺ : استأذن على أمي ؟ قال : « نعم » قال : إني أخدمها ؟ قال :
 « استأذن عليها » فعاوده ثلاثا ، قال : « أتحب أن تراها عريانة ؟ » قال : لا ، قال : « فاستأذن
 عليها » ، ذكره الطبري .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ (١) وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ٣١ -

النور (٢٤)

غَضُّ البصر : كَفَّ النظر إلى ما يحرم النظر إليه . والغَضُّ هو إطباق الجفن على الجفن بحيث يمنع الرؤية . يقال : غَضَّ الرجلُ صوته وطرفه ، ومن صوته ومن طرفه ، غَضًّا : حَفْضَهُ .

ومنه غَضُّ من فلان غَضًا وغَضاضَةً إذا انتقصه . ومنه : غَضَّ طَرْفَهُ عن فلان : احتمل المكروه منه ولم يأخذه بفعله .

« يَغْضُضْنَ » : جواب فعل الأمر « قل » .

﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق والإبداء ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ الزينة : ما يُتَرْتَمَنُ به كالحلخال والخضاب في الرجل ، والسَّوَّار في المعصم ، والقُرْطُ في الأذن ، والقلادة في العنق ، والوشاح في الصدر ، والإكليل (التاج) في الرأس ، ونحو ذلك - فلا يجوز للمرأة إظهارها حال لبسها ولا يجوز للأجنبي النظر إليها كذلك .

والنهي عن إظهار الزينة حال لبسها يستلزم النهي عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب .

« إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا » أي ما جرت العادة بظهوره ؛ كالتخاتم في الإصبع ، والكحل في العين ، والخضاب في الكف فإنه يجوز للمرأة إظهاره . فالزينة ظاهر وباطن ، فما ظهر فمباح للمحارم والأجانب ، وما بطن فلا يحل إبدائه إلا لمن سماهم الله تعالى في هذه الآية . وللعلماء آراء في الزينة الظاهرة أي فيما يجوز إظهاره من الزينة ، فقال ابن عباس وقتادة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والقِرْطَةَ (جمع قُرْط وهو ما

(١) ورد التعبير في موضع آخر في القرآن الكريم هو الآية السابقة على هذه الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ .

يعلق فى شحمة الأذن من دُر أو ذهب) والْفَتْح (وهو الخللخال الذى لا يصلصل) . وقال سعيد بن جببر وعطاء والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب . وقال ابن عطية : ويظهر لى بحكم الفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تبدى وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء « إلا ما ظهر منها » فيما يظهر بحكم ضرورة حركة أو إصلاح شأن أو نحو ذلك ، فما تؤدى إليه الضرورة فى النساء هو المعفو عنه .

وقال القرطبى : لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك فى الصلاة والحج ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما . يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رفاق ، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال لها : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه ، فهذا أقوى فى جانب الاحتياط . وقد قال ابن خويز منداد من علمائنا : إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك . ويحرم إظهار مواضع الزينة من البدن وكذلك النظر إليها ، إلا ما استثنى لدفع الحرج وهو الوجه والكفان .

« وليضربن بخمرهن على جيوبهن » : بيان لكيفية إخفاء بعض مواضع الزينة . ومنها الجيوب : جمع جيب وهو فتحة فى أعلى القميص يبدو منه بعض الجسد وأصله الجيب بمعنى القطع . والمراد بالجيب هنا : مَحَلّه وهو العنق . أمر النساء بستر شعورهن وأعناقهن ونحورهن وصدورهن بخمرهن عن الأجنب لئلا يرى منهن شىء من ذلك . والخُمُر جمع خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها فيجب أن يمتد ليغطى العنق والنحر والصدر .

« ولا يبيدين زينتهن . . . » نُهى النساء فى هذه الآية عن إبداء مواضع الزينة الباطنة الخفية إلا للأزواج لأنهم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة حلال لهم . وبعد الأزواج المحارم السبعة المذكورون فى الآية ، لاحتياج النساء لمخالطتهم ، وأمن الفتنة من قبلهم لما ركز فى الطباع من النفرة من مماسة القرائب . والتاسع « نساتهن » المختصات بهن بالصحبة والخدمة من الحرائر . والعاشر « أو ما ملكت أيمانهن » أى من الإماء ، وأما العبيد فهم كالأجانب ، لأنهم فُحول ليسوا أزواجا ولا محارم ، والشهوة متحققة فيهم . والحادى عشر : « التابعين غير أولى الإربة من الرجال » وهم الرجال الذين لا حاجة لهم بالنساء ولا يعرفون شيئا من أمورهم ، بحيث لا تحدثهم أنفسهم بفاحشة ولا يصفونهن للأجانب . والإربة : الحاجة والبغية ، قيل التابع غير أولى الإربة : هو الأبله ، وهو العنين ، وهو الخصى ، وهو المخنث ، وهو الشيخ الكبير ، وهى الصبى الذى لم يدرك ، وقيل : هو الرجل يتبع القوم فيأكل معهم ويرتفق بهم وهو ضعيف لا يكثرث للنساء ولا يشتهيهن . والثانى عشر : « الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » أى الأطفال الذين لم يعرفوا بعد ما العورة ولم يميزوا بينها وبين غيرها ، من قولهم : ظهر على الشىء إذا اطلع عليه .

﴿ ولا يضرين بأرجلهن ﴾ : نهى النساء عن أن يضرين بأرجلهن فى الأرض للفت الأنظار إليهن والدعوة إلى التطلع والميل إليهن ، وذلك سداً لذريعة الفساد . وفى حكمه إبداء ما يخفين من زينتهن بأى وسيلة كانت . وأما صوتهن فلا يحرم سماعه إلا إن خشيت منه فتنة أو التذاذ . (راجع : تفسير القرطبي ، و « صفوة البيان لمعانى القرآن » لمفتى الديار المصرية حسنين مخلوف) .

قال الزمخشري : لم قدّم غض الأبصار على حفظ الفروج ؟ قلت : لأن النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، والبلوى فيه أشد وأكثر ، ولا يكاد يُقدر على الاحتراس منه .

وذكر الزينة دون مواقعها (أى أجزاء الجسم التى تزين بها) للمبالغة فى الأمر بالتصون والتستر ، لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها ، وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن ، فهى عن إبداء الزينة نفسها ، ليعلم أن النظر إذا لم يحل للزينة ، كان النظر إلى المواقع أنفُسها متمكناً فى الحظر^(١) ، ثابت القدم فى الحرمة ، شاهداً على أن النساء حقهن أن يحتطن فى سترها ويتقين الله فى الكشف عنها .

إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف ، لا تهاج فيه الشهوات فى كل لحظة ، فعمليات الاستشارة المستمرة تنتهى إلى سعار شهوانى لا ينطفىء ولا يرتوى ؛ والنظرة الخائنة والحركة المثيرة ، والزينة المتبرجة والجسد العارى تهيج ذلك السعار الحيوانى المجنون - وبعده إما الإفضاء الفوضوى الذى لا يتقيد بقيد وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة ! وهى تكاد تكون عملية تعذيب .

وإحدى وسائل الإسلام إلى انشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستشارة بتحريم أسبابها ودواعيها ، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين سليماً وبقوته الطبيعية دون استشارة مصطنعة وتصريفه فى موضعه المأمون بالزواج .

شاعت بعض النظريات المادية القائمة على أساس تجريد الإنسان من خصائصه التى تميزه عن الحيوان ، وعلى أساس الرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة فى الطين - وبخاصة نظرية فرويد . وعلى أثرها شاع أن النظرة المباحة ، والاختلاط الميسور والدعابة المرحية بين الجنسين ، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة - شاع أن فى هذا تنفيساً وترويحاً ، وتخفيفاً من حدة الضغط الجنسى وما وراءه من اندفاع غير مأمون ، وأن فى هذا وقاية من الكبت ومن العقد النفسية .

لكن البلاد التى أباحت العرى الجسدى بدون أى قيد وأباحت الاختلاط الجنسى بكل صورته وأشكاله ، انتهى الأمر فيها إلى سعار جنسى مجنون لا يرتوى ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع . وفى هذه البلاد تنفشى الأمراض النفسية ويتفشى معها الشذوذ الجنسى بكل أشكاله - مما يقدم الإثبات العملى على خطورة الاختلاط الكامل بين الجنسين وخطورة الأجسام العارية فى الطريق ، وعلى فداحة خطأ نظريات فرويد ومن لف لفه .

(١) حرم النظر إلى الزينة لابستها لأجزاء من الجسم بدليل أن النظر إلى هذه الزينة وهى غير ملبسة لأجزاء من الجسم لا مقال فى حله .

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ ﴾

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ

يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٣٢ - النور (٢٤)

﴿ الأيامى ﴾ : جمع أيم ، وهو كل ذكر لا زوجة له ، وكل أنثى لا زوج لها ، بكر أو ثيبا . يقال : أم يثيم أى أقام بلا زوجة ومثله أمت تميم أقامت بلا زوج .

﴿ وأنكحوا ﴾ أى زوجوا ، والأمر للأولياء والسادة أن يزوجوا من لا زوج له (والزوج للذكر وللأنثى) من الأحرار والحرائر ، ومن كان فيه صلاح وخير من عبيدكم ^(١) وإمائكم .
والمراد من الإنكاح : المعاونة والتوسط فى النكاح والتمكين منه .

قال القرطبى : هذه المخاطبة تدخل فى باب الستر والصلاح ، أى زوجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف ، والخطاب للأولياء ، وليس للأزواج لأنه لو أراد الأزواج لقال : ﴿ وأنكحوا ﴾ بغير همز وكانت الألف للوصل .

﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ : رجع الكلام إلى الأحرار ، أى لا تمتنعوا عن التزويج بسبب فقر الرجل والمرأة : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ . وهذا وعد بالغنى للمتزوجين طلبا لرضا الله واعتصاما من معاصيه . وقال ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح ، وتلا هذه الآية . وقال عمر رضى الله عنه : عجبى ممن لا يطلب الغنى فى النكاح وتلا الآية وأخرج ابن ماجة فى سننه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة كلهم حق على الله عونته المجاهد فى سبيل الله والناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء ^(٢) » .

هذه الآية دليل على تزويج الفقير ، ولا يقول : كيف أتزوج وليس لى مال ، فإن رزقه على الله . وقد زوج النبى ﷺ المرأة التى أتته تهب له نفسها لمن ليس له إلا إزار واحد ونفحات الله تعالى مأمولة فى كل حال موعود بها .

إن الزواج هو الطريق الطبيعى لمواجهة الميول الجنسية الفطرية ، والغاية النظيفة لهذه الميول العميقة ، فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج . والعقبة المالية تقف فى طريق بناء البيوت وتحصين النفوس . والإسلام نظام متكامل ، فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيا لها أسبابها وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء .

(١) ﴿ من عبادكم ﴾ أى من عبيدكم . وقرأ الحسن : ﴿ والصالحين من عبيدكم ﴾ .

(٢) المكاتب : العبد الذى كُتِبَ بينه وبين سيده اتفاق على مال يقسطه له ، فإذا ما دفعه صار حرا ، والسيد يسمى مكاتب . هذا الحديث أخرجه أيضا الترمذى والنسائى .

ولهذا أمر الجماعة بتزويج الأيامي ، والجمهور على أن هذا الأمر للندب ، ولكن هناك من العلماء من يرى أنه يتعين إعانة الأيامي على الزواج وتمكينهم من الإحصان بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية وتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة . وصحيح أن الأصل في النظامي الاقتصادي الإسلامي أن يستغنى كل فرد بدخله ، وأن تيسير العمل وكفاية الأجر حق على الدولة للأفراد . لكن إذا وجد بعد ذلك أيامي فقراء وفقيرات تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج ، فإن على الجماعة أن تزوجهم .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ٣٥ - النور (٢٤)

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ أى منورهما (١) بالآيات المبثوثة فى الكون وبالآيات التى أنزلها ، وكلها تدل على وجوده ووحدانيته ، وكلها تتهدى إلى الحق وإلى ما فيه صلاح المعاش والمعاد .

قال أبى بن كعب : الله مزين السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين .

وقيل : به وبقدرته - سبحانه - أنارت أضواء السموات والأرض ، واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها ، فالكلام على التقريب للذهن ، كما يقال : الملك نور أهل البلد ، أى به قوام أمرها وصلاح جملتها لجريان أموره على سنن السداد . فهو - سبحانه - الذى أبدع الموجودات وخلق العقل نورا هاديا ، وهو مدبر الأمور فى السموات والأرض .

والله ناطق بهذا النور مصالح خلقه ومعاشهم ، حتى أبصروا وعملوا ، ولولاه لظلوا فى عماء وظلمة وخمود .

﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ المشكاة هى الكوة غير النافذة ، وهى أجمع للضوء الذى يكون فيها من مصباح أو غيره . والمصباح فى زجاجة من الزجاج الصافى الأزهر (أى الأبيض المشرق المضىء) ﴿ كوكب درى ﴾ : شديد الإنارة ، نسبة إلى الدرّة (وهى اللؤلؤة العظيمة الكبيرة) فى إشراقها وصفائها .

« يوقد من شجرة مباركة » أى من زيت شجرة كثيرة المنافع ، ليس فيها شىء إلا وفيه منفعة . « لا شرقية ولا غربية » أى ليست شرقية فقط ولا غربية فقط ، وإنما هى شرقية وغربية ، ضاحية للشمس (أى بارزة ومعرضة لها) طوال النهار ، تصيبها عند طلوعها وعند غروبها ، وذلك أحسن لزيتها .

(١) قال ابن عرفة والضحاك : نور السموات والأرض أى منورهما كما يقولون : فلان زادى ، أى مزودى ، وقال جرير :

وأنت لنا نورٌ وعَيْثٌ وعِصْمَةٌ . . . ونَبْتٌ لمن يرجو نَدَاكَ وَرَيْقٌ

﴿ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار ﴾ وذلك من شدة صفائه وإنارته .

شبهت الآية نور الله ، أى أدلته وآياته - فى دلالتها على الحق والهدى وعلى ما ينفع الخلق فى الحياتين - شبهت الآية هذا النور الإلهى بنور المشكاة التى فيها زجاجة صافية ، وفى تلك الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ الغاية فى الصفاء والرقة والإشراق حتى يكاد يضىء بنفسه من غير أن تمسه النار .

﴿ نور على نور ﴾ أى اجتمع فى المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت ، فصار لذلك نور على نور . واعتقلت هذه الأنوار فى المشكاة فصارت كأنور ما يكون ، فكذلك براهين الله تعالى واضحة ، وهى برهان بعد برهان ، وتنبيه بعد تنبيه ، كإرساله الرسل وإنزاله الكتب . وقيل فى معنى ﴿ نور على نور ﴾ إن نور الله متضاعف ولا حد لتضاعفه .

﴿ يهدى الله لنوره من يشاء ﴾ هدايته من عباده ، بتوفيقهم لفهم آياته الدالة على صفاته وحكمته ، وفهم كتبه وشرائعه وأسرار مخلوقاته .

﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ أى يبين الأشباه تقريبا إلى الأفهام .

﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾
 ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ
 يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ٣٧ - النور (٢٤)

﴿ يخافون يوماً ﴾ يعنى يوم القيامة .

﴿ تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ، التقلب : التحول ، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم . فتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر ، فلا هي ترجع إلى أماكنها ولا هي تخرج . وأما تقلب الأبصار فالزرق بعد الكحل والعمى بعد البصيرة .

وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع فى النجاة والخوف من الهلاك ، والأبصار تنظر من أى ناحية يُعطون كتبهم وإلى أى ناحية يُؤخذ بهم .

وقيل إن تقلب القلوب : وَجَّيْهَا (١) ، وتقلب الأبصار : النظر بها إلى نواحي الأهوال .

(١) وَجَبَ الْقَلْبَ وَجَّيًّا وَوَجَّيْنَاً : خفق واضطرب ورجف .

﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً ﴾
 ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ
 لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

٣٩ - النور (٢٤)

السراب هو الشعاع الذي يرى وسط النهار عند اشتداد الحر في الفلوات (١) الواسعة كأنه ماء سارب (أى جارى) ، وهو ليس بشيء . ويسمى أيضا الآل . وسمى سرابا لأنه يسرب أى يجرى كالماء ، ولا يكون إلا فى البرية والحر فيغتر به العطشان .

قال امرؤ القيس :

ألم أنضِ المطىِّ بكلِ خَرْقٍ . . . أمقَّ الطولِ لمآعِ السرابِ
 وقال آخر :

فلما كففنا الحربَ كانتِ عهدُهم . . . كَلَمعِ سرابِ بالفلا متألِقِ
 « بقية » القية جمع القاع ، وهو ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت ، وفيه يكون السراب .

﴿ يحسبه الظمانُ ﴾ العطشان الذى اشتدت حاجته إلى الماء .

« ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » مما حسبه وظنه . شبه ما يعمله الكافر من أعمال الخير فى الدنيا كصلة الرحم ونفع الجيران - وهى الأعمال التى يعول على ثوابها - بالسراب فالكفر يحبط ثواب أعمال البر التى قام بها فى الدنيا .

﴿ ووجد الله عنده ﴾ أى وجد حكمه تعالى وقضاهه ﴿ فوفاه حسابه ﴾ أى أعطاه جزاءه وافيا كاملا .

﴿ الذين كفروا ﴾ ابتداء ﴿ أعمالهم ﴾ ابتداء ثان وخبرها ﴿ كسراب ﴾ والجملة خبر عن ﴿ الذين ﴾ ، والمقصود بأعمالهم أعمال الخير التى عملوها فى الدنيا .

(١) جمع فلاة وهى الأرض الواسعة المقفرة .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ

الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ ٢٧ - الفرقان (٢٥)

عَضَّ اليدين والأنامل ، والسقوط في اليد ، وأكل البنان^(١) ، وحرق الأسنان والأرم^(٢) وقرعها : كناية عن الغيظ والحسرة ؛ لأنها من روادفها^(٣) ، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف ، فيرتفع الكلام إلى طبقة الفصاحة ، ويجد السامع عنده من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه .

﴿ ويوم يعض الظالم ﴾ المراد بالظالم كل ظالم ، والظلم هو مجاوزة الحق (أى تعديه وترك الشخص له) ، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز ، ويستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير ، فالمشرك والكافر ظالم : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ١٣ - لقمان لأنه تجاوز حدود الحق مع ربه ؛ وتجاوز الحدود مع الناس ظلم : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ ٤٣ - الشورى . ولا ينفي ذلك ورود الآية على سبب خاص ، إذ قيل إنها نزلت في المشرك عقبة بن أبي معيط كان نطق بالشهادتين أمام النبي ﷺ ثم رجع عنهما إرضاء لصديقه وخليله أبي بن خلف . فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ على يديه ﴾ : ندما وتحسرا فى يوم القيامة « يقول يا » للتنبيه « ليتنى اتخذت مع الرسول » محمد « سبيلا » طريقا إلى الهدى والنجاة وهو طريق الإيمان .

« ويوم » يوم : ظرف منصوب بحذوف ، أى واذكر يوم .

« يقول » فى محل نصب على الحال .

(١) البنان : أطراف الأصابع ، واحدته : بنانه . والأنامل : جمع أنملة وهى المفصل الأعلى من الأصبع الذى فيه الظفر .

(٢) الأرم : الأضراس . يقال : فلان يحرق عليك الأرم إذا تغيط فحك أضراسه بعضها ببعض .

(٣) توابعها ، ردِّفه يردِّفه ردِّفاً : تبعه .

﴿ أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوِّءِ (١) ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوِّءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا

يُرَوِّنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نَشُورًا ﴾ ٤٠ - الفرقان (٢٥)

السَّوِّءِ والسَّوِّءُ مصدران للفعل : ساء مثل الكَرْهَ والكَرْهَ ؛ إلا أن السَّوِّءَ (بالفتح) غلب عليه أن يضاف إليه ما يُراد ذمه وتقبُّحه من كل شيء .

« مطر السوء » هو الحجارة . أى أهلكت بالحجارة التى أمطروا بها .

« ولقد أتوا » يعنى أهل مكة « على القرية » قرية سدوم ، أعظم قرى قوم لوط ، وكانت خمسا .

والمعنى أن قريشا مروا مرارا كثيرة فى متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التى أهلكت بالحجارة من السماء . أما شاهدوا ذلك بأبصارهم فيتفكروا فيؤمنوا . « بل كانوا لا يرجون نشورا » أى لا يخافون بعثا .

« مطر السوء » : مفعول ثان ، فالعنى أمطرتها مطر السوء .

« أفلم يكونوا يرونها » الاستفهام للتقرير .

(١) قريب من ذلك الآية ١٧٣ من سورة الشعراء : « وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين » وتكررت بنصها فى ٥٨ - النمل .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ

نَشُورًا ﴾ ٤٧ - الفرقان (٢٥)

اللباس : ما يُلبَس ويستتر الجسم .

ويستعمل اللباس مجازا فيما يشبه الثوب .

وأطلق اللباس على الليل فى هذا التعبير على سبيل التشبيه لأن ظلام الليل يحيط بالإنسان ، كما يحيط الثوب بلبسه ، أو لأن ظلام الليل يستر الأشياء ويغشاها كما يستر الثوب الجسم .

« والنوم سباتا » أى راحة لكم لأنكم تنقطعون عن العمل أثناء النوم . والسبات : القَطْع ، فالنوم : انقطاع عن الاشتغال ، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن العمل فيه . قال الزجاج : السبات هو النوم ، أى الانقطاع عن الحركة والروح فى بدنه .

وقيل : أصل السبات التمدد . يقال : سبتت المرأة شعرها أى نقضته وأرسلته . وقيل للنوم : سبات لأنه بالتمدد يكون ، وفى التمدد معنى الراحة . والتعبير معناه : جعلنا النوم راحة لكم .

« وجعل النهار نشورا » : نَشَرَ النَّائِمُ إِذَا اسْتَيْقَظَ وَتَقَلَّبَ فِي عَمَلِهِ . وقد جعل الله سبحانه النهار نشورا أى ظرفا لليقظة والانتشار لكسب العيش .

وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق ، فيها إظهار لنعمته على خلقه ، لأن فى الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية ، وهذه الفوائد تتحقق كذلك بالنوم وباليقظة .

(١) قريب منه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مَبْصُرًا ... ﴾ ٨٦ - النمل ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ ١٠ ، ١١ - النبأ . وقوله : « هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا » ٦٧ - يونس ، وقوله : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » ٧٣ - القصص .



﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ٨٣ - الشعراء (٢٦)

الحكم : الحكمة ، أو الحكم بين الناس بالحق . وقيل : النبوة لأن النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله .

والإلحاق بال صالحين : أن يوفقه لعمل ينتظم به فى جملتهم ، أو يجمع بينه وبينهم فى الجنة .



﴿ وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ٨٤ - الشعراء (٢٦)

أى : اجعل لى ثناء حسنا وذكرًا جميلا فى الأمم التى تجمى بعدى . ووضع اللسان موضع القول لأن القول يكون به .



﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ

تَخْلُدُونَ ﴿ ١٢٨ ، ١٢٩ - الشعراء (٢٦)

الرَّيْعُ : الجبل أو المكان المرتفع عن الأرض .

آية : الأصل فى معنى الآية : العلامة الواضحة ؛ فسمى خلق الكون آية لأنه علامة على قدرة الله .

وسمى البناء العالى آية لأنه علامة على قدرة بانيه .

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ : إنكم تبنون بكل مكان مرتفع أبنية عالية تشرفون منها على الطريق فتؤذون المارة وتسخرون منهم .

المصانع : القصور المشيدة والحصون ، وقيل : مأخذ للماء تحت الأرض . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ : راجين أن تخلصوا . وقيل المعنى : كأنكم باقون مخلدون . وقيل : لعل للاستفهام التوبيخى ، أى هل تخلصون ؟

قال الإمام أحمد : وتأويلها على القصور أظهر . وجاء فى وصف أهل آخر الزمان أنهم يتناولون فى البناء .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ١٣ -

النمل (٢٧)

﴿ مبصرة ﴾ : واضحة بينة . واسناد الإبصار إلى الآيات مجازاً ، من الإسناد إلى السبب ؛ والمبصر حقيقة هم المتأملون فيها .

أو جعلت الآيات كأنها تُبصر فتهدى ، لأن العُمى لا يقدرّون على الاهتداء ، فضلاً عن أن يهدوا غيرهم . ومن ذلك قولهم : كلمة عيناء وكلمة عوراء ، لأن الكلمة الحسنة ترشد والكلمة السيئة تغوى .

وقرأ على بن الحسين رضى الله عنهما وقتادة : مَبْصِرَةٌ بفتح الميم أى مكانا يكثر فيه التبصر ، وهى مثل : مَجْبَنَةٌ ومَبْخَلَةٌ .

وقال الراغب الاصفهاني : مُبْصِرَةٌ أى مُضِيئَةٌ للأبصار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ ١٢ - الإسراء ، وقوله : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ ٥٩ - الإسراء .

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ٣٤ - النمل (٢٧)

﴿ إذ دخلوا قرية أفسدوها ﴾ أى إذا دخلوها عنوة^(١) فى حرب خربوها وأتلفوها . لما أحست ملكة سبأ من أعيان قومها ، وهى تستشيرهم فى أمر الكتاب المرسل إليها من سليمان عليه السلام ، الميل إلى المحاربة فى الآية السابقة : ﴿ قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ﴾ رأت هى الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن . ورتبت قولها : فبينت لهم أولاً الخطأ فيما ذكره بأن قالت ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية ﴾ قهرا خربوها وأذلوا أشرافها وقتلوا وأسروا ، فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ، ثم قالت : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ أى أن هذه عادتهم المستمرة التى لا تتغير ، لأنها (أى الملكة) كانت فى بيت الملك القديم وسمعت نحو ذلك ورأت . وقد يتعلق الساعون فى الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم - لكن من استباح حراما فقد كفر .

ويعد ذلك البيان عرضت ما رآته من رأى سديد وهو أن ترسل هدية تصانع بها سليمان (أى تداريه وتلاينه) عن ملكها : ﴿ وإنى مرسله إليهم بهدية ﴾ الآية التالية رقم ٣٥ (٢) .

(١) عَنَّا يَعْنُو عُنُوًّا : خضع وذلل ، ومنه ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾ ١١١ - طه . وعنا الشئ عَنُوًّا : أخذه قَسْرًا .

(٢) راجع : « الكشاف » للزمخشري .

﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ

قَوْمٌ تَفْتَنُونَ ﴾ ٤٧ - النمل (٢٧)

﴿ قالوا اطيرنا بك ﴾ ، قال الكافرون من قوم ثمود لنبيهم صالح : أصابنا الشؤم والنحس بك . والفعل اطَّيَّرَ أصله تَطَيَّرَ : تفاعل ، وتطيير به ومنه : تشاءم ، وأصله التفاؤل بالطير ، ثم استعمل في كل ما يُتَفَاءَلُ به ويُتَشَاءَمُ .

وكان العرب أكثر الناس طيرةً (تطييرا أى تفاؤلا وتشاؤما) ؛ فإذا أراد أحدهم سفرا مثلا زجر طائرا فإذا طار يَمَنَةً (جهة اليمين) تيمن (أى تبرك) ، وإذا طار يَسْرَةً أى جهة اليسار تشاءم ؛ فنسبوا الخير والشر إلى الطائر ، واستعير (أى الطائر) لما كان سبباً لهما ؛ مع أن السبب هو قدر الله أو عمل العبد الذى يكون سببا فى الرحمة أو العقوبة .

قال القرطبي : ولا شيء أضر بالرأى ، ولا أفسدُ للتدبير من اعتقاد الطيرة ؛ ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاءً أو يدفع مقدورا فقد جهل .

« وبمن معك » أى ومن هم على دينك . والمعنى : توالى علينا الشدائد منذ جئت بما جئت به . فلما قالوا ذلك ، قال لهم صالح : ﴿ طائرکم عند الله ﴾ أى أن ما يصيبكم هو قدر الله ، أو هو عملکم السیء مكتوب علیکم عنده تعالى .

« بل أنتم قوم تفتنون » أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء ، لتتنهوا إلى أن ما ينالكم من حسنة بفضل الله ، وما يصيبكم من سيئة فشؤم أعمالكم . أو أن الشيطان يفتنكم بوسوسته إليكم ففتشاءمون .



﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾

أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ - النمل (٢٧)

﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ أى دنا وقرب وقوعٌ وتحققٌ ما نطقت به الآيات الكريمة من مجئ الساعة وأهوالها ، سُمى معنى القول ومؤداه بالقول .

« أخرجنا لهم دابة من الأرض » والدابة لغة كل ما يدبُّ على الأرض عاقلاً أو غير عاقل وإن غلب على ما يُركب من الحيوان . أما هذه الدابة التى يخرجها الله من الأرض آخر الزمان فالله أعلم بحقيقتها ، وهى من أشراط الساعة الكبرى .

﴿ تكلمهم ﴾ أى تخبرهم أن الناس المنكرين للبعث كانوا لا يوقنون بصدق الآيات المنزلة من عند الله بمجئ الساعة .



﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٠﴾ - القصص (٢٨)

الفارغ : الخالى . يقال : إناء فارغ ، وقول فارغ ، وقلب فارغ .

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا » أى أصبح قلبها خاليا من الصبر والتعقل حتى كادت أن تصرح أن الطفل الذى ألقته فى اليم والتقطه آل فرعون هو ابنها ، وذلك من شدة وجدها عليه ، وهذا هو معنى : « إن كادت لتبدي به » . ولكن الله ثبت قلبها بما أنزل فيه من السكينة وبما ألهمها من الصبر ، وهذا هو معنى « لولا أن ربطنا على قلبها » ؛ وأصل الربط : الشد للتعوية ، ويقال لقوى القلب : رابط الجأش .

ونورد ما قاله الزمخشري ، فهو يزيد معنى التعبير وضوحا :

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا » أى صفرا من العقل ، يعنى بطل قلبها وذهب ، وطار عقلها لما دهمها من فرط الجزع الدهش حين سمعت بوقوع ابنها فى يد فرعون . قال الزمخشري : وذلك أن القلوب مراكز العقول ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ ٤٦ - الحج . ونحوه قوله تعالى : ﴿ وأثنتهم هواء ﴾ أى جوف لا عقول فيها .

وقال الراغب الأصفهاني : فارغا أى كأنها فرغَ فؤادها من لبها لما تداخلها من الخوف . وقيل : فارغا من ذكره أى أنسيناها ذكره حتى سكنت واحتملت أن تلقيه فى اليم .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ ﴿٣٥ - القصص (٢٨)

العَضُدُ (١) : ما بين المرفق إلى الكتف . وشد العَضُد كناية عن تقويته . واليد تشتد بشدة العَضُد .

﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ : سنقويك ونعينك به

﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى حجة واضحة أو تسلطا وغلبة ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بأذى، والخطاب لموسى عليه السلام .

(١) والعَضُد أيضا : المعين . يقال : قَتَّ فِي عَضُدِهِ : أضعف قوته وفرق عنه أعوانه .



﴿ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾
﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْفَرِحِينَ ﴾ ٧٦ - القصص (٢٨)

ناء به الحملُ ينوءُ نوءاً : أثقله وأماله .

﴿ ما إن مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ أى أن مفاتيح الكنوز التى يملكها يثقل حملها على العصبة التى تضم الرجال الأقوياء فيميلون على جانبهم بسبب ثقلها ؛ والباء فى «العصبة» للتعدية . والعصبة : الجماعة المتعاضدة من الناس أو الخيل أو الطير ، وخصّصت فى العرف بما يتراوح بين العشرة إلى الأربعين .

وجاء فى « تفسير غريب القرآن » أن « تنوء بالعصبة » من المقلوب ومعناه ما أن العصبة لتنوء بمفاتيحه أى تنهض بحمل مفاتيحه مثقلة (أى بجهد ومشقة) ، وذلك من قولهم : ناء بحمله أى نهض به مثقلاً . وقال الفراء : ليس هذا من المقلوب ، إنما معناه : ما إن مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ الْعُصْبَةَ أى تميلهم بثقلها (من قولهم : أَنَاءَ الْحَمْلُ حَامِلَهُ يَبْنِيهِ أى أثقله وأماله) فلما انفتحت التاء دخلت الباءُ ، كما قالوا يذهب البؤس وَيَذْهَبُ بِالْبُؤْسِ .

المفاتيح : جمع مفتاح (بالكسر) وهو ما يفتح به . ومثله : مفتاح ومفاتيح .

صور التعبير ضخامة ثروة قارون بهذه الكلمات الموحية : الكنوز ، المفاتيح ، النوء ، العصبة ، أولى القوة .

﴿ لا تفرح ﴾ مثل قوله تعالى ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ ؛ وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن ؛ وأما من قلبه إلى الآخرة ، ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب ، لم تحدثه نفسه بالفرح ، قال المتنبي :

أشدُّ الغمِّ عندى فى سرور . . . تيقنَ عنه صاحبه انتقالاً

أى : أشد الغم عندى وقت السرور الذى تيقن صاحبه الانتقال عنه - وهكذا سرور الدنيا كله . قال هذبة بن خشرم :

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى . . . ولا جازعٌ من صرْفه المتقلب

المفراح : الكثير الفرح ، والمراد : نفى الفرح من أصله . وصرْف الدهر : نوائبه .

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾

﴿ مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ

أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ٤١ - العنكبوت (٢٩)

وبيت العنكبوت هو بيت واه تنسجه دُويَّةُ العنكبوت نسجا رفيعا مهلهلا فى الهواء لا يغنى عنها فى حر ولا قر ، ولا فى مطر ولا أذى .

﴿ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ أكثرها وهناً ، والوهن : الضعف والذبول ، والواهن : الضعيف عديم البطش .

والعنكبوت تطلق على الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ، والغالب فى استعمالها التأنيث . والواو والتاء زائدتان ، وتجمع على عناكب وعناكيب .

والذين اتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم ويعينونهم مثلهم كمثل العنكبوت فى اتخاذها بيتا واهيا من نسجها لا يغنى عنها شيئا .

فى هذه الآية تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى فى هذا الوجود وهى الحقيقة التى يغفل عنها الناس عندما ينسون القوة الحقيقية الوحيدة فى هذا الكون ، قوة الله القاهرة التى تخلق سائر القوى وتسخرها كما تريد وتمنحها لمن تريد . فالناس تخدعهم قوة الحكم والسلطان فيحسبونها القوة القادرة التى تعمل فى هذه الأرض فيتوجهوا إليها بمخاوفهم ورجائهم ؛ وتخدعهم قوة المال فيسعون للحصول عليه ليستطيروا به على الناس ؛ وتخدعهم قوة العلم فيتعبدون فى محرابه . تخدعهم هذه القوى الظاهرة فى أيدي الأفراد والجماعات وفى أيدي الدول ، فيتهافتون عليها ، وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى - بدلا من الالتجاء إلى الله صاحب القوة الحقيقية الوحيدة فى هذا الكون - إنما هو كالتجاء العنكبوت ، الحشرة الضعيفة الرخوة إلى بيت من صنعها وهو بيت واه واهن مهلهل .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ
الْحَيَوَانَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ٦٤ - العنكبوت (٢٩)

اللهو : اشتغال الإنسان بما لا يعنيه ولا يهيمه ، أو هو الاستمتاع بملذات الدنيا . واللعب : العبث وهو العمل الذى لا فائدة فيه .

﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ﴾ أى أن الحياة الدنيا فى سرعة تقضيها ليست إلا كالشئ الذى يلهو ويلعب به الصبيان ، يجتمعون عليه ويبتهجون به زمناً ثم ينصرفون عنه . « هذه » فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها ، وذلك لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها - ما هى إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون .

« الحيوان » : مصدر الفعل حَيَّ يَحْيَى حَيَاةً وَحَيَوَانًا ، سُمِّيَ به ذُو الْحَيَاةِ ، وَأُطْلِقَ هُنَا عَلَى الْحَيَاةِ الْحَقَّةِ ، فَالْآخِرَةُ هِيَ الْحَيَاةُ الْحَقَّةُ : فَهِيَ الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ الَّتِي لَا يَعْقِبُهَا مَوْتٌ وَلَا يَعْتَرِيهَا انْقِضَاءٌ .

قال الراغب الأصفهاني : « الحيوان » هو ماله البقاء الأبدى وهو المذكور فى قوله عز وجل : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » ، وقد نبه بقوله : « لهى الحيوان » أن الحيوان الحقيقى هو السرمدى الذى لا يفنى ، لا ما يبقى مدة ثم يفنى . وقال بعض أهل اللغة الحيوان والحياة واحد .

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ١٩ - الروم (٣٠)

﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ قال الحسن : يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن ؛ فالموت والحياة مستعاران .

وذهب كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت فى الآية حقيقتان ؛ فقال عكرمة : هى إخراج الدجاجة وهى حية من البيضة وهى ميتة ، وإخراج البيضة وهى ميتة من الدجاجة وهى حية . وقال ابن مسعود : هى النطفة تخرج من الرجل وهى ميتة وهو حى ، ويخرج الرجل منها حيا وهى ميتة - والتفسير على هذه الصورة ليس صحيحا .

فالبیضة المخصبة التى يمكنها أن تربي كتكوتا هى حية لأن الجنين فى داخلها يتنفس ويتغذى . والنطفة كائن حى طالما كان فى قدرته أن يتحرك لإخصاب بويضة الأنثى الناضجة ، وطالما كانت له القدرة على الولوج فيها لإخصابها ؛ فإن مات عجز عن أداء مهمته هذه . وكذلك البذرة يكون الجنين فيها حيا طالما كان قادرا على الإنبات ، فإن مات عجز عن تكوين البادرة .

أما إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي فظاهرتان مستمرتان ومتلازمتان . والعلم يقرر أن كل كائن حى من حيوان ونبات تجرى فيه - فى جسمه - ظاهرة تعرف بالتحويل الغذائى (Metabolism) ، وهذا يشمل حدثين أحدهما هو البناء (Anabolism) أو التمثيل (Assimilation) والآخر هو الهدم (Katabolism) .

وفى عملية البناء يتناول الإنسان ، وسائر الحيوانات ، غذاءه من مصدر نباتى أو حيوانى ، فيتعاطى غذاءه ميتا ثم يهضم ما يصلح منه ، وهذا الصالح من الغذاء يمتص فى الأمعاء فيختلط بالدم الذى يوصله بدورانه إلى مشارف الخلايا فى الجسم كله ، وهو ما يزال ميتا . والخلايا ما هى إلا معامل إلهية هيأها الله سبحانه لتختار من مكونات الغذاء الصالح ، الذى وصلها فى الدم ، ما تحتاجه ؛ فتحوله بداخلها إلى مادة الحياة فيها أى البروتوبلازم (Protoplasm) ؛ وهكذا تنقلب المادة الميتة خارج الخلية إلى مادة حية داخل الخلية بحيث تصبح جزءاً لا يتجزأ منها - وهذا هو إخراج الحي من الميت . ولا يمكن أن يقوم بهذه العملية سوى المعامل الإلهية (أى الخلايا) التى هيأها الله لذلك .

(١) ورد التعبير فى الآية ٣١ من سورة يونس ، وقريب منه ما ورد فى الآية ٩٥ من سورة الأنعام ، وما ورد فى الآية ٢٧ من سورة آل عمران .

والنبات يتناول غذاءه الميت في صورة مركبات معدنية تمتصها جذوره من التربة الصالحة لإنباته ، بالإضافة إلى قدرة اليخضور (الكلوروفيل) في استخدام ثاني أوكسيد الكربون من الجو في وجود الماء والطاقة الشمسية في بناء جسم النبات أيضاً . وكلها عناصر ميتة تتحول في المصانع الإلهية (الخلايا) إلى أنسجة حية في النبات .

وعملية البناء تلازمها عملية الهدم التي لا بد منها ، فعليها تتوقف حياة الكائن الحي كما تتوقف على عملية البناء تماما . وتتج عن عملية الهدم تغيرات كيميائية في الخلايا ينتج عنها مركبات بسيطة ميتة - وهذا هو إخراج الميت من الحي . ويتأتى عن ذلك :

أ- تحويل الطاقة المخزنة في الأنسجة (الخلايا) إلى طاقة كامنة يستخدمها الحيوان فتظهر على شكل حرارة أو حركة أو غيرهما .

ب- الإفراز وذلك بتوليد مواد كيميائية يستخدمها الحيوان لصالحه كاللعاب والإنزيمات الهاضمة وكالدموع .

ج- ومع المواد المفيدة السابقة الناتجة عن عملية الهدم ، توجد مواد إخراجية ضارة تضر الحيوان إن بقيت فيه . وقد رتب الله لها الأجهزة التي تخلص الحيوان منها ، فثاني أوكسيد الكربون يتخلص الحيوان منه بالرئتين ، والماء الزائد (البول) عن طريق الكليتين .

فعملية البناء في الكائنات الحية هي إخراج الحي من الميت وعملية الهدم هي إخراج الميت من الحي (١) .

كل لحظة تمر على الحي تموت منه خلايا حية وتذهب ، وتنشأ فيه خلايا جديدة وتعمل . ويموت الحي كله ، ولكن خلاياه تتحول إلى ذرات تدخل في تركيب آخر ، ثم تدخل في جسم حي فتدب فيها حياة - وهكذا دورة دائبة وحركة في كيان الكون كله (تعاقب الليل والنهار) وفي كيان كل حي ، حركة خفية عميقة لطيفة هادئة تشي بيد القادر المبدع اللطيف المدبر . فأنى يحاول البشر أن يعزلوا بتدبير شأنهم عن اللطيف المدبر ؟

وإحياء الأرض : إخراج النبات منها ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾ ٣٣- يس وقوله : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ ٥- الحج .

﴿ وكذلك تخرجون ﴾ : ومثل إخراج النبات من الأرض ، فإنكم تخرجون من القبور وتبعثون . فالإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي .

(١) يراجع ذلك المقال المفيد الذى كتبه الدكتور أحمد حسنين القفل بعنوان : الحي من الميت والميت من الحي - كيف ؟ المنشور في مجلة « منبر الإسلام » عدد رمضان ١٤٠٩ .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ

بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ٤١ - الروم (٣٠)

يكشف التعبير عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم ، وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع في الأرض الفساد ، ويملؤها برا وبحرا بهذا الفساد . والفساد اسم جنس يعم كل فساد واقع في حيزي البر والبحر « بما كسبت أيدي الناس » أى بسبب معاصيهم وذنوبهم ، كما فى قوله تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ﴾ .

﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ أى ليذيقهم عقاب بعض عملهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما هم فيه من المعاصى ويتوبون إلى الله ويرجعون إلى المنهج القويم .

والفساد يشمل معاصى بنى آدم واقترافهم السيئات وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم ، ويشمل أيضا القحط وكثرة الخوف ونقصان الزرع والثمار وانتشار الأمراض المستعصية والقلق والاكتئاب .

﴿ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيث ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثَ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ٦ - لقمان (٣١)

ولهو الحديث : كل كلام يلهمي القلب ويأكل الوقت ، ولا يُثمر خيرا ولا يُؤتى حصيلة تليق بوظيفة الإنسان المستخلف في هذه الأرض لعمارتها بالخير والعدل والإصلاح .

جاء في « معجم ألفاظ القرآن الكريم » : اللهو هو تناول ما لا يجدى من الأعمال ، مصدر لها يلهو أى تسلى وشغل نفسه بما فيه لذتها ، أو بما لا يجدى كالغناء والأساطير الوهمية .

وقال القرطبي : إن أولى ما قيل في تفسير « لهو الحديث » هو الغناء ، وهو قول الصحابة والتابعين . قال الطبري : قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبدالله العنبري . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته إذ ليس شيء منها عليه حرام .

« لهو الحديث » أضاف اللهو إلى الحديث للتبيين ، فالإضافة بيانية بأن يضاف الشيء إلى ما هو منه ، مثل : جبة خز (١) .

وقوله « يشتري » إما من الشراء على ما روى عن النضر بن الحرث الذي كان يشتري كتب الأعاجم وفيها أحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة يحدث بها قريشا ويلهيم بها عن الاستماع إلى القرآن ، كما كان يشتري المغنيات ليلهمي بالاستماع إليهن من أراد الإسلام . لكن النص أعم ، إذ أنه يصور فريقا من الناس واضح السمات موجودا في كل زمان : يشتري لهو الحديث بماله ووقته وبحياته ، ويضيع عمره الغالي المحدود الذي لا يعاد ولا يعود في لهو رخيص .

وإما « يشتري » بالمعنى الوارد في قوله تعالى : « اشتروا الكفر بالإيمان » ١٧٧ - آل عمران أى استبدلوه منه واختاروه عليه ، يختار حديث الباطل على حديث الحق (٢) .

﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قرأ الجمهور بضم الياء « لِيُضِلَّ » أى يضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحق . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وورش وابن محيصن وحميد بفتح الياء « لِيُضِلَّ » أى ليضل هو في نفسه ويصير أمره إلى الضلال .

﴿ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : دين الإسلام أو القرآن .

(١) الخَزُّ من الثياب : ما ينسج من صوف وحرير خالص .

(٢) قال قتادة : اشتراؤه : استحبابه .

« بغير علم » أى حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه أو بحال ما ينفع من التجارة وما يضر ، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض لأنه غير بصير بفنون التجارة حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ، كقوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » أى وما كانوا مهتدين للتجارة بـُصراء بها .

﴿ ويتخذها هزوا ﴾ : يتخذ سبيل الله ومنهجه هزوا ، استهزاء وسخرية من المنهج الذى رسمه الله للحياة وللناس . والسبيل يذكر ويؤنث (١) .

﴿ ويتخذها ﴾ قرأها حمزة والكسائى والأعمش بالنصب عطفاً على « ليضل » . وقرئت « ويتخذها » بالرفع عطفاً على « يشتري » .

﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أى شديد يصير به من وقع عليه مهيناً .

(١) مؤنث كما فى قوله تعالى : ﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به تبغونها عوجا ﴾ ٨٦- الأعراف .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا

أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ١٧ - لقمان (٣١)

﴿ من عزم الأمور ^(١) ﴾ : من معزوماتها التي يُعزَم عليها أى التي تُعقد النية على فعلها . قال الزمخشري : وحقيقته (أى حقيقة هذا التعبير : عزم الأمور) أنه من تسمية المفعول بالمصدر ، وأصله من معزومات الأمور ، أى مقطوعاتها ومفروضاتها . فتلك الطاعات : إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر ، إنما هى مما عزمه الله من الأمور ، أى قطعه قطع إيجاب وإلزام . ومنه الحديث : « لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل » أى لم يقطعه بالنية .

قال الشوكانى : ﴿ من عزم الأمور ﴾ أى مما جعله الله عزيمة ^(٢) وأوجبه على عباده . وقال ابن جرير : ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق وعزائم أهل الحرم السالكين طريق النجاة .

قال صاحب الظلال : عزم الأمور : قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم . والإشارة فى قوله « إن ذلك » إلى الطاعات المذكورة . قال الزمخشري : وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها فى سائر الأمم . وأن الصلاة لم تنزل عزيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها ، موصى بها فى الأديان كلها .

(١) العزم : العَدْوُ الشديد . وفى لغة هُذَيْل ، العزم : الصبر ، يقولون : مالى عنك عزم ، أى صبر . ومن هذا قالوا : العزم هو الجد وعقد القلب على أمر أنك فاعله . والفعل : عَزَمَ ، وهو متعد بنفسه مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ ٢٢٧ - البقرة ، ويعلى كقولك : عزمت على ترك التدخين .

(٢) وجمع عزيمة عزائم ، وعزائم الله : فرائضه التى أوجبها . وفى الحديث : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُحْصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ ﴾ ، رواه ابن حبان وأحمد والبخاري وأبو يعلى .

﴿ وَلَا تَصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ١٨ - لقمان (٣١)

﴿ تصعر خدك للناس ﴾ : تعرض بوجهك عنهم تكبرا . والصعر : ميل فى العنق خلقة أو مرضا . وهو داء يأخذ البعير فى رأسه فيقلب رأسه فى جانب . ويشبه به الرجل الذى يتكبر على الناس . والأسلوب القرأنى يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر ، حركة الكبر والازورار ، وإمالة الخد للناس فى تعال واستكبار .

قرأ الجمهور : « ولا تصعر » وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم : « ولا تصاعر » يقال : صعر خده إذا مال وجهه وأعرض تكبرا ، ومنه قول الشاعر :

وكنا إذا الجبارُ صعرَ خده . . . مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ١٩ - لقمان (٣١)

﴿ وأقصد فى مشيك ﴾ : توسط فيه بين الدبيب والإسراع وعليك السكينة والوقار . قَصَدَ فى أمره يَقْصِدُ قَصْدًا : اعتدل وسلك فيه مسلكا وسطا بين المغالاة والتقصير ، أو بين الإفراط والتفريط .

وأما قول عائشة فى عمر رضى الله عنهما : كان إذا مشى أسرع . فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت (انظر : الكشف للزمخشري) .

﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾

﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ

الْحَمِيرِ ﴾ ١٩ - لقمان (٣١)

الغَضُّ : نقص ما فى الإناء . ويجى منه معنى الخفض فى الصوت والطرف ، وهو ما استعمل فى القرآن للصوت تارة وللبصر تارة . يقال : غضَّ صوته وغض من صوته .

﴿ وأغضض من صوتك ﴾ : انقص منه واخفضه ولا تتكلف رفعه ، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذى السامع .

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته . وما يزعم أو يغلط فى الخطاب إلا سئ الأدب ، أو شك فى قيمة قوله ، أو قيمة شخصه ؛ يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق .

وجملة « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » : تعليل للأمر بالغض من الصوت . ومعنى أنكر الأصوات : أوحشها وأقبحها . قال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير أو له زفير وآخره شهيق . واللام فى « لصوت » للتأكيد . وبهذه العبارة يرذل الأسلوب القرأنى هذا الفعل ويقبحه فى صورة تبعث على السخرية مع النفور والبشاعة . ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك الذى يصوره هذا التعبير المبدع ، ثم يحاول شيئاً من رفع الصوت .

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ

سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ ٢٧ - لقمان (٣١)

﴿ كلمات الله ﴾ : الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ، لأنه - جل وعلا - علم ، قبل أن يخلق الخلق ، ما هو خالق في السموات والأرض من شيء ، وعلم ما فيه من مشاقيل الذر ، وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو وما في الشجرة من ورقة وما فيها من ضروب الخلق . فكلمات الله هي العبارات الدالة على علم الله وكلمته (كلمته : المخلوق يخلقه الله تعالى بكلمة « كن ») (١) .

جاء في « الكشاف » : فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل . فهلا قيل كلم الله ؟ قلت : معناه أن كلماته لا تفي بكتابتها البحار ، فكيف بكلمه ، وهي جمع كثرة ؟

« ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام » أى لو أن جميع ما في الأرض من الشجر أقلام . وحَدَّ الشجرة لما تقرر في علم المعانى من أن استغراق المفرد أشمل ، فكأنه قال : كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد بُرِيت أقلاما ، وجمَع الأَقلام لقصد التكثير .

« والبحر » اسم جنس يعنى كل بحار الدنيا . وقوله « يمدّه » أغنى عن ذكر المداد ، يقال : مدَّ الدواة يمدّها : زاد مدادها . فالتعبير جعل البحر بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداد فهي تصب فيه مدادها .

والمشهد يمثل لبنى البشر أن جميع ما في الأرض من شجر تحول أقلاما ، وجميع ما في الأرض من بحر تحول مدادا ، بل وتمده وتصب فيه المداد بلا انقطاع سبعة أبحر مثله . وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة الدالة على علمه ، المعبرة عن مشيئته ، فماذا ؟ لقد نفذت الأقلام ، ونفذ المداد ، وكلمات الله باقية لم تنفذ - إنه المحدود يواجه غير المحدود . ومهما يبلغ المحدود فسيتتهى ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئا على الإطلاق !

(١) انظر : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، مجمع اللغة العربية .

﴿ فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (١)

٣٣ - لقمان (٣١)

غُرَّ فلاناً يُغِرُّهُ غُرُوراً : خدعه وأطمعه بالباطل .

﴿ فلا تغررتكم الحياة الدنيا ﴾ : لا تخدعنكم بزخار فيها ولهوها وملذاتها ، فإنها زائلة ذاهبة - فهي مهلة محدودة ، وهي ابتلاء واستحقاق للجزاء .

﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ : الغرور هو الشيطان لأن من شأنه أن يخدع الخلق (يغهم) ويمنيهم بالأمانى الباطلة ، ويلهيهم عن الآخرة ويصدهم عن طريق الحق .

وقيل : الغرور الدنيا . وقيل : تمنيتكم في المعصية المغفرة . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : الغرَّة (٢) بالله أن يتمادى الرجل في المعصية ويتمنى على الله المغفرة . وقيل : ذكرك لحسناتك ونسيانك لسيئاتك غرَّة (أى غفلة) .

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ

مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ٥ - السجدة (٣٢)

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ : يقضى ويقدر على حسب ما تقتضيه الحكمة والكمال . « يعرج إليه » : يرتفع . « يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » : يوم القيامة .

والمعنى : يدبر أمر الدنيا كلها على امتدادها من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرتفع إليه ذلك الأمر كله ويصير إليه ليحكم فيه فى يوم القيامة .

والتعبير يرسم مجالا واسعا شاملا لتدبيره - سبحانه وتعالى : « من السماء إلى الأرض » ليلقى على الحس البشرى الظلال التى يقدر على تصورها ويخشع لها ، وإلا فمجال تدبير الله أوسع وأشمل من السماء إلى الأرض . ثم يرتفع إليه - سبحانه - كل تدبير وكل تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه « فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » ليحكم فيه ، فليس شىء متروكا سدى ولا مخلوقا عبثا - إنما يدبر بأمر الله إلى أجل مرسوم .

(١) تكرر هذا التعبير فى ٥ - فاطر .

(٢) غرَّ الرجل يُغِرُّ غِرَّةً : جهل الأمور وغفل عنها ، فهو غرٌّ .

﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ

الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ١٠ - الأحزاب (٣٣)

زَاغَ البَصْرُ يَزِيغُ زَيْغًا وَزَيْغَانًا : مال عن مستوى النظر حَيْرَةً وَشُخُوصًا (١) ، فهو زَائِعٌ .
 ﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ : عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع .
 فالتعبير يصور حالة الخوف والكربة التي اعترت المسلمين في غزوة الأحزاب في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة . فقد تحزبت قريش بقيادة الحارث بن عوف ، ويهود بنى قريظة والنضير وخرجوا حصن الفزارى ، وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف ، ويهود بنى قريظة والنضير وخرجوا جميعا لحرب رسول الله ﷺ . فلما سمع بهم الرسول وما أجمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة ولهذا سميت كذلك بغزوة الخندق . ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين أعدائه المهاجمين وكانوا عشرة آلاف من قريش وألفا من غطفان فضلا عن محاربي هوازن ويهود قريظة والنضير .

﴿ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ من أعلى الوادى من قبل المشرق ، ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ من أسفل الوادى من قبل المغرب .

وقد استمر حصار الأعداء لمدينة رسول الله ﷺ قرابة شهر لا حرب بينه وبينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة . روع الهولُ المدينة وشملها الكربُ ، وتناوشت الناسَ الظنون المختلفة ؛ فبعضهم وهم المؤمنون ظنوا النصر ورجوا الظفر ؛ والبعض الآخر وهم المنافقون ظنوا أن المسلمين يُستأصلون . لكن الله أرسل على المشركين ريحا وجنودا - هم الملائكة - قلعت الأوتاد وقطعت جبال الخيام وأطفأت النيران وأكفأت القدور . وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر حتى كان سيد كل قوم من أحزاب المشاركين ينادى في قومه :
 النجاة ! النجاة بعد أن دهمهم الرعب والخوف . وهكذا حقق الله النصر لنبيه بلا قتال .

(١) شَخَّصَ بَصْرُ فُلَانٍ : فتح عينيه ولم يَظرف متألما أو منزعجا .

﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ

الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ١٠ - الأحزاب (٣٣)
 سُمِّيَ قَلْبُ الْإِنْسَانِ قَلْبًا لِكَثْرَةِ تَقَلُّبِهِ . وَيُعْبَرُ بِالْقَلْبِ عَنِ الْمَعَانِي الَّتِي تَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الرُّوحِ
 وَالْعِلْمِ وَالشَّجَاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

﴿ بلغت القلوب الحناجر ﴾ : قالوا إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغم
 الشديد ، رَبَّتْ (علت وارتفعت) وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الخنجر . ويجوز أن
 يكون ذلك مثلاً في اضطراب القلوب ووجيهاً (١) وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة .
 والتعبير يصور حالة الخوف والكربة والضيق ، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب .
 وكان ذلك في غزوة الأحزاب يوم أن خيم الرعب على المدينة على أثر الحصار الذي فرضه
 عليها جموع المشركين .
 (انظر التعبير : زاغت الأبصار)

(١) يقال : وجب القلبُ وجيياً : خفق واضطرب ورجف .

﴿ إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾

﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِذْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ ١٣، ١٤ - الأحزاب (٣٣)

العَوْرَ في العين : ذهاب الحس . والعَوْرَ : قُبْحُ الأمر وفساده .

والعَوْرَةُ : الخلل في الثغور يُتَخَوَّفُ .

ووردت «عَوْرَةٌ» وصفاً للبيوت أى ذات عَوْرَةٍ يعنى ذات خَلَلٍ فى صونها أى غير حَرِيْزَةٍ (١) . يقال : عَوْرَ المكانُ عَوْرًا إذا بدا فيه خلل يُخَافُ منه العَدُوُّ والسارق (٢) .

﴿ يقولون إن بيوتنا عورة ﴾ : اعتذروا أن بيوتهم معرضة للعدو ممكنة للسراق لأنها غير محرزة ولا محصنة ؛ فاستأذنوه ، أى استأذنوا النبي ﷺ وكان ذلك فى غزوة الأحزاب ، ليحصنوها ثم يرجعوا إليه . فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك وإنما يريدون الفرار من الحرب ومقاتلة المشركين الذين كانوا يحاصرون المدينة

ترسم الآية صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض - صورة نفسية داخلية لو هن العقيدة وخور القلب ، والاستعداد للانسلاخ من الصف : « ولو دخلت عليهم من أقطارها » أى لو اقتحمت عليهم المدينة من أطرافها ، « ثم سئلوا الفتنة » أى طلبت إليهم الردة عن دينهم « لآتوها » سراعا غير متلبثين ولا مترددين إلا قليلا من الوقت .

(١) الحرّيز : الحصين .

(٢) وأعور الفارس إذا بدا منه موضعُ خَلَلٍ للضرب والطعن .

﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾

﴿ أَشْحَىٰ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَىٰ عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾

١٩ - الأحزاب (٣٣)

﴿تدور أعينهم﴾ : ينظرون يمينا وشمالا وفي كل جهة وبكل حدة ، لشدة خوفهم من أن يأتيهم القتل من كل جهة . التعبير يصور جنبهم .

ويصل بهم الخوف والجزع أقصى درجة « كالذي يُغشى عليه من الموت » أى الذى يُغشى عليه ، من الغاشية أى الجائحة المهلكة فى الآخرة أو الدنيا (١) . شبههم بالذى نزل به الموت وغشيته أسبابه ، فيذهل ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف ، كذلك هؤلاء .

والخوف هو الخوف من قتال العدو إذا أقبل .

ترسم الريشة المعجزة سمات هؤلاء المعوقين الذين ورد ذكرهم فى الآية السابقة : ﴿قد يعلمُ الله المعوقين منكم﴾ والذين يسعون بالتخذيل فى صفوف الجماعة المسلمة . « أشْحَى عَلَيْكُمْ » بالجهد وبالمال وبالعواطف والمشاعر على السواء . ثم ترسم لجنبهم صورة واضحة الملامح متحركة الجوارح مثيرة للسخرية . وإذا ذهب الخوف يخرجون من الجحور وترتفع أصواتهم مدعين فى غير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء فى القتال والفضل فى الأعمال : « سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » .

وقريب من هن هذا التعبير قوله تعالى : ﴿ ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴾ ٢٠

- محمد .

(١) الغاشية والغشاء والغشاة : الغطاء . وتقال الغاشية والغشاة لغطاء خاص هو جلدة تُغشى القلب ، فإذا انخلع منها القلب مات صاحبه .

﴿ سَلِّقُوا كُفَّكُمْ بِالسَّنَةِ حَدَادٍ ﴾

﴿ أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلِّقُوا كُفَّكُمْ بِالسَّنَةِ حَدَادٍ أَشْحَةٌ عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْتُكُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾
١٩ - الْأَحْزَابُ (٣٣)

سَلَّقَهُ بِلِسَانِهِ يَسَلِّقُهُ سَلْقًا : بَسَطَ لِسَانَهُ فِيهِ بِمَا يُؤْذِيهِ .

﴿ فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد ﴾ : بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة بعد انتهاء القتال ، يقولون : أعطنا أعطنا فإننا قد شهدنا معكم القتال . فعند الغنيمة هم أشح قوم وأحدهم لساننا ، ووقت البأس والقتال هم أجبن قوم وأخوفهم .

وحكى الفراء « سلقوكم » . يقال خطيب مسلاق ومصلاق إذا كان بليغا . قال الأعشى :

فيهم المجدُّ والسماحة والنجد دةٌ فيهم والخطاب المسلاق

إن صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمن أكثر إثارة للسخرية : يخرجون من الجحور ، وترتفع أصواتهم بعد الارتعاش ، وينفشون بعد الانزواء ، ويدعون في غير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء في القتال والفضل في الأعمال .

ثم هم « أشحة على الخير » فلا يبذلون لعمل الخير شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم ، رغم تبجحهم وطول ألسنتهم .

﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ﴾ أي لم يُبهِم عليها فهم لم يؤمنوا بقلوبهم ، ولم يقصدوا وجه الله تعالى بهذه الأعمال .

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾
 ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ

فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ ٣٢ - الأحزاب (٣٣)

خَضَعَ بِالْقَوْلِ : ألان كلامه .

نُهِنَ عَنِ إِلَانَةِ الْقَوْلِ وَتَرْقِيقِهِ حَتَّى لَا يَطْمَعَ الرِّجَالُ فِيهِنَّ .

﴿ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى تشوف لفجور ، وهو الفسق والغزل .

النهى لأزواج النبي ﷺ ، أمهات المؤمنين اللاتي لا يطمع فيهن طامع ولا يرف عليهن خاطر مريض . وهو ، أى هذا النهى قد جاء فى عهد النبي ﷺ ، عهد الصفوة المختارة من البشرية . ولكن الله الذى خلق الرجال والنساء يعلم أن فى صوت المرأة حين تخضع بالقول إثارة للطمع وتهيجاً للفتنة وأنه لا طهارة من الدنس ولا تخلص من الرجس إلا بجمع الأسباب المؤدية إليهما .

فكيف بهذا المجتمع الذى نعيش فيه اليوم ، وكل شىء فيه يثير الفتنة وينبه الغريزة ويوقظ السعار الجنسى المحموم ؟ النساء يتميعن فى أصواتهن ، ويجمعن كل فتنة الأنثى وكل هتاف الجنس ثم يطلقنه فى نبرات ونغمات - أنى يتحقق الطهر ؟

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ فى موضع جزم بالنهى . « يطمع » بالنصب على جواب النهى ، ويجوز « فَيَطْمَعَ » أى يطمع الخضوع فى القول من فى قلبه مرض .

﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ أى خفتن الله ، فبين أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى .

﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ : أمرهن بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والمرأة تُتَدَبُّ إِذَا خَاطَبَتْ الأَجَانِبَ إِلَى الغَلْظَةِ فى القول من غير رفع صوت ، هذا فى لهجة الحديث . أما موضوع الحديث فيكون أمورا معروفة غير منكرة ، فلا لحن ولا إيماء ، ولا هذر ولا هزل ، ولا دعابة ولا مزاح كى لا يكون مدخلا إلى شىء آخر .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ ٣٦ - الأحزاب (٣٣)

خَارَ الشَّيْءَ عَلَى غَيْرِهِ يَخِيْرُهُ خَيْرَةً وَخَيْرَةً : فضله وانتقاه (١) .

هذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد أن يخالفه ، فلا اختيار لأحد عند ذلك ولا رأى ولا قول ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ٦٥ - النساء . ولهذا شدّد في خلاف ذلك فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ ٦٣ - النور . روى ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ ، على مولاه (عبده ومملوكه) زيد بن حارثة ، فاستنكفت منه وقالت : أنا خير منه حسبا ، وامتنعت ، فأنزل الله هذه الآية . ووردت روايتان أخريان تتعلقان بسبب نزول هذه الآية . إحداهما بخصوص زواج زيد أيضا - من أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، فسخطت هي وأخوها لهذا الزواج . والثانية تتعلق بزواج جلييب ، وكان من الموالى ، من امرأة من الأنصار ، وكان أبواها قد مانعا في هذا الزواج إلا أنها قالت لهما : أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره ؟ إن كان قدر ضييه (أى جلييب) لكم فأنكحوه (أى زوجته) وهكذا تزوجته .

لكن نص الآية أعم من أى حدث خاص ، والقاعدة التى تقررها الآية أعم وأشمل . فالسلمون ليس لهم فى أنفسهم شيء ، وليس لهم من أمرهم شيء . إنما هم وماملكت أيديهم ملك الله ، يصرفهم كيف يشاء ويختار لهم ما يريد . إنه الاستسلام المطلق ليد الله تقود خطاهم ، وتصرف حركاتهم ، وهم مطمئنون لليد التى تقودهم ، شاعرون معها بالأمن والأمان .

وهم - مع هذا - يعملون ما يقدرون عليه ، ولا يضيعون وقتا ولا جهدا ، ولا يتركون حيلة ولا وسيلة . ثم إنهم لا يتكلفون مالا يطيقون ، ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص ومن ضعف وقوة .

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله ، والعمل الجاهد بكل ما فى الطاقة ،

(١) وردت كلمة « الخيرة » مرة ثانية فى قوله تعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ ٦٨ - القصص .

والوقوف المطمئن عند ما يستطيعون - هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة المسلمين الأوائل ، ومكنتهم من تحقيق ما حققوه من إنجازات خارقة سواء في حياتهم الخاصة أو في حياة المجتمع الإنساني آنذاك .

لفظ « ما كان » في أول التعبير معناها الحظر والمنع ، مثلها في ذلك مثل لفظ « ما ينبغي » . فتجىء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون .

﴿ أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ قرأ الكوفيون « أن يكون » بالياء ، لأنه قد فرق بين المؤنث « الخيرة » وفعله « يكون » بكلمة « لهم » . وقرأ الباقون بالتاء « تكون » لأن اللفظ مؤنث وتأنيث فعله حسن .

﴿ قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ﴾

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ ٣٧ -

الأحزاب (٣٣)

الوَطْرُ : المأرب والحاجة والبغية . والجمع : أوطار . ويقال : قضى منه وطره أى نال منه بغيته .

﴿ فلما قضى زيد منها وطرا ﴾ أى لما لم يبق لزيد فيها حاجة ، وتقاصرت عنها همته ، وفرغ منها ، وفارقها وطلقها ، وانقضت عدتها .

مضى فى أول هذه السورة إبطال التبنى ، ورد الأدياء^(١) (مَنْ تَمَّ تَبْنِيهِمْ) إلى آبائهم ، وإقامة العلاقات العائلية على أساسها الطبيعي : ﴿ وما جعل أديعاءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴾ من الآيتين ٤ ، ٥ من سورة الأحزاب .

ولكن نظام التبنى كانت له آثار واقعية فى حياة العرب ، ولم يكن إبطال هذه الآثار بالأمر السهل ، فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثرا فى النفوس ، ولا بد من سوابق تبطل هذه الآثار ، ولا بد وأن تستقبل هذه السوابق فى أول أمرها بالاستنكار .

وقد مضى فى السورة أن النبى ﷺ زوّج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش . وكان زيد متبنّى رسول الله ، وكان يدعى زيد بن محمد . ولما أبطل الله التبنى وأمر بنسب الأدياء إلى آبائهم ، أصبح زيد يدعى زيد بن حارثة ، نسبة إلى أبيه .

ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك - فيما يحمل من أعباء الرسالة - مؤونة إزالة آثار التبنى ، فيتزوج من زينب بعد أن قضى زيد منها وطراً وطلقها وانقضت عدتها ، ويواجه النبى ﷺ وسلم المجتمع بهذا الزواج - زواجه من مطلقة متبناه - الذى لا يستطيع أحد غيره أن يواجه المجتمع به .

(١) دَعَاهُ إِلَى غَيْرِهِ وَلغَيْرِهِ : نَسَبَهُ وَعَزَاهُ .

﴿ الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه ﴾ هو زيد بن حارثة : أنعم الله عليه بالإسلام وبالقرب من رسوله ، وأنعم الرسول عليه بالعتق من العبودية وبالتربية وبالحب حتى كان يقال له الحب ، ويقال لابنه أسامه الحب ابن الحب .

﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ : لما أخبر زيد الرسول عليه الصلاة والسلام أنه يريد فراق زينب بنت جحش ، ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر ، وأذى باللسان وتعظيما بالشرف (بأنها من سادة قريش بينما هو عبد) ، قال له النبي : اتق الله ولا تطلق زوجتك .

وطلقها زيد فى النهاية ، وهو لا يفكر لا هو ولا زينب مطلقته فيما سيكون بعد ذلك . لأن العرف السائد حتى ذلك الوقت كان يعد زينب ، مطلقه لابن محمد ، ومن ثم لا تحل له . صحيح كان الله قد أبطل التبني ، لكن لم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدياء ، إنما كان زواج النبي فيما بعد من زينب هو الذى قرر إباحة زواج المؤمنين من زوجات من كانوا يتبنونهم . وهذا هو ما ورد فى نهاية الآية : ﴿زوجناكها﴾ أى زوجناك زينب بعد ما طلقها زيد الذى كان متبناك « لكى لا يكون على المؤمنين حرج » أى إثم وذنب ﴿ فى أزواج أديائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ إذا فرغوا منهن وفارقوهن وطلقوهن « وكان أمر الله مفعولا » أى لا مرد له ، ولا مفر منه ، فهو واقع ومحقق ولا سبيل إلى تخلفه .

﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ - ٥٩ -

الأحزاب (٣٣)

﴿ يدنين عليهن من جلابيهن ﴾ : يُسَدُّ لِنِ الْجَلَابِيْبِ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَسْتَرْنَ أَجْسَامَهُنَّ مِنْ رُؤُوسِهِنَّ إِلَى أَقْدَامِهِنَّ . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : يَرِخِيهَا (أَي جَلَابِيهِنَّ) عَلَيْهِنَّ وَيُغْطِيْنَ بِهَا وَجُوهَهُنَّ وَأَعْطَاهُنَّ (جَمْعُ عَطْفٍ وَهُوَ الْجَانِبُ) ، يُقَالُ إِذَا زَلَّ الثَّوْبُ عَنْ وَجْهِ الْمَرْأَةِ : أَدْنَى ثَوْبِكَ عَلَى وَجْهِكَ . « مِنْ » لِلتَّبْعِيضِ أَيْ تَرَخَّى الْمَرْأَةُ بَعْضَ جَلَابِيهَا عَلَى وَجْهِهَا تَتَّقَعُ بِهِ (أَي تَسْتَرُ بِهِ وَجْهَهَا) .

أَدْنَى السَّتْرِ أَوْ الثَّوْبِ : أَرْخَاهُ وَأَرْسَلَهُ . وَلِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى السَّدْلِ أَوْ الْإِرْخَاءِ عُدِّيَّ بَعْلَى .

الجلابيب : جمع جلباب ، وهو ثوب يستر جميع البدن . قال المبرد : الجلباب ما يستر الكل .

﴿ ذلك أدنى أن يعرفن ﴾ أي أولى وأجدر بأن يعرفن ، فلا يُتَعَرَّضُ لِهِنَّ وَلَا يَلْقَيْنَ مَا يَكْرَهُنَّ .

أَمْرُ اللَّهِ نَبِيَّهُ ﷺ ، أَنْ يَأْمُرَ نِسَاءَهُ وَبَنَاتَهُ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَةً ، إِذَا خَرَجْنَ مِنَ الْبُيُوتِ ، أَنْ يَغْطِيْنَ أَجْسَامَهُنَّ وَرُؤُوسَهُنَّ وَجِيُوبَهُنَّ (وَهِيَ فَتْحَاتُ الصَّدْرِ مِنَ الثَّوْبِ) بِجَلَابِبِ كَاسٍ ، فَيَجْعَلُهُنَّ هَذَا النَّزَى فِي مَأْمَنِ مِنَ مَعَابِثَةِ الْمُعَابِثِينَ ، فَإِنَّ حَشْمَتَهُنَّ تَلْقَى الْخَجَلَ وَالتَّحْرَجَ فِي النَّفُوسِ .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١) ٧٢ - الأحزاب (٣٣)

« الأمانة » هي التكليف والفرائض . أو كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى وشأن ديني ودنيوي (٢) . وسُميت أمانة لأنها حقوق أودعها الله المكلفين واثمنهم عليها ، وأوجب عليهم مراعاتها والمحافظة عليها ، وأداءها من غير إخلال بشيء منها .
وجاء في تفسير القرطبي : أن العرض في الآية ضربٌ مُثل ، أى أن هذه الأجرام ، على عظمها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع ؛ لما فيها من العقاب والثواب . أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد حملة الإنسان وهو ظلوم جهول .

الظلوم : الظالم . الجهول : مُضيع الحق ، من الفعل : جهل الحق : أضاعه فهو جاهل وجهول .

﴿ فَأَبَيْنَ ﴾ : امتنع . ﴿ أَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ : خفن من الخيانة فيها .

قيل : الآية من المجاز ؛ أى أنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ؛ وأنها لو تكلمت لأبت وأشفتت ؛ فعُبر عن هذا بعرض الأمانة . كما تقول عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد قايسة قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه .

وقال الراغب الأصفهاني في معنى « الأمانة » : قيلَ هي كلمة التوحيد ، وقيل العدالة ، وقيل حروف التهجي ، وقيل العقل وهو صحيح . فإن العقل هو الذي لحصوله يتحصل معرفة التوحيد ، وتحري العدالة ، وتعلم حروف التهجي ؛ بل لحصوله تعلم كل ما في طوق (٣) البشر تعلمه وفعل ما في طوقهم من الجميل فعله وبه فضل على كثير من الخلق .

وقال النسفي : لما علق بالطاعة الفوز العظيم بقوله في الآية السابقة (رقم ١٧) : ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ ، أتبعه قوله : ﴿ إن عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ﴾ وهو يريد بالأمانة : الطاعة لله ، وبحمل الأمانة الخيانة .

وقد نقل النسفي رأيه هذا عن الزمخشري الذي قال : وهو يريد بالأمانة الطاعة ، ووجه الشبه بينهما عند الزمخشري أن الطاعة لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء . وعرضها على الجمادات (أى السموات والأرض والجبال) وإباؤها وإشفاقها : مجاز ، كما جاء في أول الشرح .

(١) كلمة « الأمانة » لم ترد مفردة ومعرفه بأل إلا في هذا الموضع .

(٢) هذا قول حسنين مخلوف في « صفوة البيان لمعاني القرآن » . (٣) الطوق : القدرة .

﴿ لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السمَّواتِ ولا في الأرضِ ﴾^(١)
 ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالَمِ الْغَيْبِ لَا
 يَعْرِزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا
 أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ ٣ - سبأ (٣٤)

﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ لا يغيب عن علمه شيء ما مهما دقَّ وصغُر . قال مجاهد وقتادة : أى الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء . فالعظام ، وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شيء عليم . عزَبَ يعزُبُ ويعزِبُ إذا بعدُ وغاب .

وعلم الله يقيد كل شيء ولا يند عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ ، وإلى عهد قريب كان معروفًا أن الذرة هي أصغر الأجسام . والآن يعرف البشر - بعد تحطيم الذرة - أن هناك ما هو أصغر من الذرة وهو جزيئاتها التي لم تكن فى حسابان أحد . وتبارك الله الذى علم عباده ما يشاء من أسرار خلقه عندما يشاء .

فهذا التعبير يعرض علم الله فى صورة كونية كالتى سبقت فى مطلع السورة : ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ الآية الثانية . مثل هذه الصورة لا تخطر عادة على خيال البشر ، وليست لها سابقة فى كلام البشر شعره ونثره .

وهذه الآية إحدى آيات ثلاث أمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد عندما أنكره أهل الكفر والعناد . وثانى هذه الآيات قوله تعالى فى سورة يونس : ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ الآية ٥٣ . وثالثها فى سورة التغابن : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ الآية ٧ .

وقد جاء التعبير فى سياق تأكيد مجئ الساعة ردا على إنكارهم لها ونفيهم للبعث . فقد أوجِب ما بعد النفى بالحرف « بلَى » ، فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ أى : ليس الأمر إلا إتيانها ومجيئها . ثم أكد هذا الإيجاب باليمين بالله عز وجل فقال : ﴿ وربى لتأتينكم ﴾ والقسم بالله هو الغاية فى التوكيد والتشديد . وزاد هذا التأكيد القسمى توكيدا بأن أورد وصف المُقسَم به فوصفه بأنه ﴿ عالم الغيب ﴾ وأنه لا يفوت

(١) ورد التعبير أيضا فى قوله تعالى : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ﴾ ٦١ -

علمه شيءٌ مهمما كان ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ ؛ وذلك لأن عظمة حال المُقسَم به تؤذن بقوة حال المُقسَم عليه وشدة ثباته . وكلما كان المُقسَمُ به أعلى كعبا وأبين فضلا وأرفع منزلة ، كان المُقسَم عليه أثبت وأرسخ .

ثم بين - سبحانه - حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله في الآية التالية : ﴿ ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات ﴾ بالثواب والكافرين بالعقاب . فقد وضع الله في العقول وركب في الغرائز وجوب الجزاء ، وأن المحسن لا بد له من ثواب والمسيء لا بد له من عقاب . فقوله « ليجزى » متصل بقوله « لتأتينكم » تعليلا له .

وإنكار الذين كفروا للآخرة ناشيء عن عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره . فحكمة الله لا تترك الناس سدى : يحسن منهم من يحسن ويسيء منهم من يسيء ، ثم لا يلقى المحسن جزاءه ولا يلقى المسيء جزاء إساءته . وقد أخبر الله على لسان رسله أنه يستبقى الجزاء كله أو بعضه للآخرة - فكل من يدرك حكمة الله في خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره .

قرأ نافع وابن كثير ﴿ عالم الغيب ﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره ﴿ لا يعزب عنه ﴾ . وقرأ عاصم وأبو عمرو ﴿ عالم الغيب ﴾ بالجر صفة لربى . وقرأ حمزة والكسائي ﴿ علام الغيب ﴾ على المبالغة والنعت .

﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾



﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

٥١ - سبأ (٣٤)

﴿ فلا فَوْتَ ﴾ : فلا نجاة ولا مهرب لهم يومئذ من عذاب الله . فات الأمرُ فلاناً فَوْتًا وفَوَاتًا : لم يدركه .

﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾ أى لو ترى إذا اعتراهم فزع وهلع فى الآخرة عند البعث ومعابنة العذاب لرأيت أمرا هائلا .

﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ أى من موقف الحساب إلى النار ؛ وقيل : من حيث كانوا ؛ فهم من الله قريب لا يعزبون عنه ولا يفوتونه .

﴿ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ

قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿ ٥٢ ، ٥٣ - سبأ (٣٤)

قَدَفَ فُلَانٌ بِقَوْلِهِ : تكلم من غير تدبُّر ولا تأمُّل . وقذف بالغيب ورجم بالغيب : تكلم بما لا يعلم .

﴿ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ : كانوا يرمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم ، فينسبون إلى الله تعالى الشريك ويقولون : لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء من جنة أو نار . وكانوا يقولون عن القرآن إنه سحر وشعر وأساطير الأولين . وكانوا يقولون عن الرسول إنه شاعر وساحر وكاهن .

﴿ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ : كانوا يتكلمون بما لا يعلمون وهم أبعد ما يكونون عن معرفة من تكلموا في شأنه ، وهم أبعد ما يكونون عن الحق والصدق .

﴿ التَّنَاقُشُ ﴾ من الفعل تناوش القوم في القتال : تناول بعضهم بعضا بالرمح ولم يتدانتوا كل التداني (١) وقيل : التناوش : الرجعة أى يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ، وهيهات من ذلك . ومنه قول الشاعر :

تمنى أن تؤوب إلى مى . . . وليس إلى تناوشها سبيل

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ هم الآن (أى فى الآخرة) يعلنون إيمانهم ولكن من أين يتحقق لهم ذلك وهم بعيدون عنه كل البعد ؟ كان الإيمان زمانه ومكانه الحياة الدنيا ، وقد مضت وأصبحت بعيدة تماما إلى حد الاستحالة لكنهم ضيعوا الفرصة ، فلا يقدرّون على الظفر بالإيمان أو التوبة فى الآخرة ، دار الجزاء ، البعيدة الآن عن الدنيا ، دار العمل .

وكانوا من قبل الآخرة قد كفروا فى الدنيا وتكلموا بما لا علم لهم به ، وهم بعيدون كل البعد عن الحق والصدق .

(١) نَاشَ فُلَانًا بِالشَّيْءِ : ناوله أو أصابه به . يقال : ناشه بالرمح وناشه بخير .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ
 (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا
 الْأَمْوَاتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي
 الْقُبُورِ ۗ (١٩ ، ٢٠ ، فاطر (٣٥)

التعبير يمثل الكافر في عدم اهتدائه بالأعمى ، ويمثل المؤمن في اهتدائه بالمبصر ويمثل الكفر بالظلمات والإيمان بالنور .

استوى الشيطان : تساوى . والحُرور : حر الشمس (١) . فلا يمكن لهذه الأضداد أن تتساوى .

كما مثل العلماء بالله بالأحياء ، والجاهلين به بالأموات .

زاد « لا » في هذه المواضع لتأكيد نفي التساوى بين هذه الأضداد .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ بَيْنَ النَّاسِ كَمَن
 مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ ١٢٢ - الأنعام ، وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ
 كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۗ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا ۗ ٢٤ - هود . فالمؤمن بصير سميع في
 نور ، يمشى على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات
 الظلال والعيون . والكافر أعمى وأصم ، في ظلمات يمشى ، لاخروج له منها ، بل هو يتيه
 في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم .

ما فائدة اقتران لا النافية بواو العطف في قوله : « ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا
 الحرور » ؟ الفائدة هي تأكيد معنى النفي .

والإيمان نور في القلب وفي الجوارح ، نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما
 بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد . فالمؤمن ينظر بهذا النور ، فيرى تلك الحقائق ويتعامل معها
 ولا يخبط في طريقه .

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب ، ظل من هاجرة الشك والحيرة والقلق .

والإيمان حياة في القلوب والمشاعر وفي القصد والاتجاه . كما أنه حركة بانية مثمرة لا
 خمود فيها ولا عبث .

أما الكفر فعمى ، عمى في القلب ، وعمى عن رؤية دلائل الحق وحقيقة القيم
 والأشخاص والأحداث . وهو ظلمة تعز فيها الرؤية الصحيحة للأشياء .

والكفر هاجرة حرور تفتح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار . ثم هو موت
 وانقطاع عن الله ، عن مصدر الحياة الأصيل .

(١) قال النحاس : الحرور فعول من الحر ، وفيه معنى التكثير ، أى الحر المؤذى .

خَشِيَ فَلَانًا وَمِنْهُ خَشْيًا وَخَشْيَةً وَخَشَاءَةً ؛ خَافَهُ بِتَعْظِيمٍ وَمَهَابَةٍ .

ومدارُ الخشية معرفة المَخْشَى والعلمُ بصفاته وأفعاله ، وعلى هذا فإن العلماء هم أكثر الناس خشية لله . ومن ازداد بالله علماً ازداد منه خوفاً . وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : ﴿ أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً ﴾ . وروى مالك والشافعي أن النبي ﷺ قال : ﴿ أَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَتَقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمُكُمْ بِهِ ﴾ .

وهذه الآية مكملة لقوله تعالى في الآية ١٨ من هذه السورة : ﴿ إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ هؤلاء هم العلماء . أما الجاهلون بالله تعالى فلا يخشونه ولا يخافون عقابه .

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ

وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ

اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣، ٤٢﴾ - فاطر (٣٥)

معنى التعبير : لا يلحق شرُّ المكر السيِّء إلا بأهله الماكرين من الحيث هو الإحاطة . حاق به الشئ يُحِيقُ حِيقًا وحيوًّا : أصابه وأحاط به .

مَكْرٌ يَمَكِّرُ فهو ماكر : دبر الشر لغيره فى خفية ، واحتال لإيقاع الأذى به .

وأكثر ما ورد المكر فى القرآن إنما هو مكر الكفار بالرسول . وهو القدح فى دعوتهم ، وتدمير المعوقات حتى لا يُستجاب لهم ، وإيراد الشبه حول دلائلهم ، وكذلك محاولة الفتك بهم .

ومن المكر صرفُ الشئ عن وجهه المستقيم ، يقال : مكر فى الحق وفى آيات الله ودلائله ، فذلك صرفها عن وجهها والتكذيب بها ، وكان ذلك إيذاء للحق وإساءة إليه^(١) .

كان العرب يرون اليهود أهل كتاب يجاورونهم فى الجزيرة ؛ وكانوا يرون من أمر انحرافهم وسوء سلوكهم الكثير ، وكانوا يسمعون من تاريخهم وقتلهم أنبياءهم وإعراضهم عن الحق ؛ فكانوا (أى العرب) ينحون على اليهود باللائمة ، وكانوا يقسمون بالله مشددين فى القسم : ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ يعنون اليهود ، يعرضون بهم بهذا التعبير ولا يصرحون .

يعرض السياق حالهم وأيمانهم كأنما ليشهد المستمعين على ما كان من هؤلاء العرب فى الجاهلية ، ثم يعرض ما كان منهم بعد ذلك عندما حقق الله أمنيتهم وأرسل إليهم رسولا ونذيرا منهم : ﴿ فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا . استكبارا فى الأرض ومكر السيء ﴾ فالقرآن يكشفهم ويسجل عليهم مسلكهم ، ثم يهددهم ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ .

﴿ استكبارا ﴾ حال بمعنى مستكبرين ﴿ ومكر السيء ﴾ الواو عاطفة ومكر معطوف على استكبارا . قرأ ابن مسعود ﴿ ومكرا سيئا ﴾ . قال الزمخشري : أصل ﴿ ومكر السيء ﴾ هو : وأن مكروا السيء أى مكروا المكر السيء .

أخرج ابن المبارك فى الزهد عن النبي ﷺ قال « لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فإن الله تعالى يقول : ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا ، يقول الله تعالى : ﴿ إنما بغيتكم على أنفسكم ﴾ : وفى الحديث « المكر والخديعة فى النار » يعنى فى الآخرة تدخل أصحابها فى النار ؛ لأنها من أخلاق الكفار ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى سياق هذا الحديث : « وليس من أخلاق المؤمن المكر والخديعة والخيانة » .

وعن ابن عباس أن كعبا قال له : إني أجد فى التوراة : « من حفر لأخيه حفرة وقع فيها » فقال ابن عباس فإني أوجدك فى القرآن ذلك . قال : وأين ؟ قال ابن عباس لكعب : فاقرا ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ . وفى أمثال العرب : « من حفر لأخيه جبًّا وقع فيه مُنكبًا » .

(١) وقد يُسند المكر إلى الله سبحانه فيراد به إيقاع السوء بالعبد من حيث لا يشعر . ومن ذلك أن يمهل ولا يعاجله بالعقاب ، وأن يمكنه من أعراض الدنيا فيتمادى فى طغيانه .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ

مُقْمَحُونَ ﴾ ٨ - يس (٣٦)

قَمَحَ الرَّجْلُ سَوِيَقَ الْقَمَحِ (١) أَوْ نَحْوَهُ يَقْمَحُهُ قَمْحًا : سَفَّهُ وَهُوَ رَافِعَ رَأْسِهِ .
وَأَقْمَحَ الرَّجْلُ : رَفَعَ رَأْسَهُ وَغَضَّ بَصَرَهُ مِنَ الذُّلِّ .
وَأَقْمَحَ الْغُلُّ الْأَسِيرَ : ضَاقَ عَلَى عُنُقِهِ ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ مُتَضَرِّرًا ، فَهُوَ مُقْمَحٌ ، وَهُمْ مُقْمَحُونَ .
فَالْمُقْمَحُ : الْأَسِيرُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ مُتَضَرِّرًا مِنْ ضَيْقِ الْغُلِّ عَلَى عُنُقِهِ .

ومعنى التعبير : أنهم يرفعون رؤوسهم متضررين من ضيق الأغلال حول أعناقهم ، ويبلغ من ضيق الأغلال حول أعناقهم أنها تصل في سمكها إلى أذقانتهم حتى تلتصق بها أى بالأذقان فلا يستطيعون خفض رؤوسهم إلى أسفل ، بل تظل مرفوعة إلى أعلى ، لا يطأطئون رؤوسهم ليروا الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يلتفتون إليه . وهذا تمثيل يراد به وصف من كفروا بدعوة الرسول بالعناد والتأبى ، والتضرر من الاستماع إلى الحق . مثل التعبير تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالغلولين المقمحين .

ففوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله ، حسبما تقرر الآية السابقة : ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ يرسم التعبير مشهدا محسوسا لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر ، فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ، ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة إلى أعلى ، فلا يملكون حرية النظر والرؤية وهم فى هذا المشهد العنيف . لقد قضى فى أمرهم ، وحق قدر الله على أكثرهم ، بما علمه من حقيقتهم وطبيعة مشاعرهم ، فهم لا يؤمنون .

ومع عنف هذا المشهد الحسى وشدته فإن الإنسان ليلتقى بأناس من هذا النوع ، يخيل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هناك حائلاً عنيفاً كهذا بينهم وبينه ؛ وأنه إذا لم تكن الرؤوس مقحمة ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم هى الملقوفة عن الحق لفتا ومشدودة بعيدا عن الهدى ، وبينها وبين دلائل الهدى سد من هنا وسد من هناك .

وقيل : إن المراد تصوير أحوال هؤلاء الذين لا يؤمنون يوم القيامة ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل فى أرجلهم . والأول أكثر مناسبة للمقام (٢) .

﴿الأذقان﴾ : جمع ذقن ، وهو مجتمع اللحنين (٣) وهما العظامان اللذان تنبت عليهما اللحية .

(انظر التعبير : وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون)

(١) السويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير .

(٢) راجع : «معجم ألفاظ القرآن الكريم» ، مجمع اللغة العربية .

(٣) مثنى : اللحنى ، والجمع : لحنى ولحاء .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ

فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ ٩ - يس (٣٦)

سَدَّ الْبَابِ يَسُدُّهُ سَدًّا : أَغْلَقَهُ . وَالسَّدُّ : الْحَاجِزُ .

ومعنى التعبير : جعل الله بينهم وبين الهدى حواجز وموانع من كل الجهات . « من بين أيديهم » أى من أمامهم .

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ : فَأَلْبَسْنَا أَبْصَارَهُمْ غِشَاوَةً (أى غطاءً) ، قَالَه مُجَاهِدٌ . وَقِيلَ : أَغْشَيْنَاهُمْ أَيْ أَغْشَيْنَا أَبْصَارَهُمْ ، أَيْ غَطَيْنَاهَا وَجَعَلْنَا عَلَيْهَا غِشَاوَةً عَنْ أَنْ تَطْمَحَ إِلَى مَرْتَبَةٍ . وَقُرئَ بِالْعَيْنِ مِنَ الْعِشَاءِ (١) .

المشهد حسى لحالة نفسية : إنهم مُحَالٌ بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم ، وكوأنه ليست هناك سدود فعلية ، وإنما سدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال ، فلا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله . قيل : نزلت فى بنى مخزوم ، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلى ليرضخن رأسه بحجر ، فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه به ، فلما رفع يده أثبتت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكهه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم ، فقال مخزومى آخر : أنا أقتله بهذا الحجر ، فذهب فأعمى الله عينيه ، أخرج ابن اسحق فى السيرة .

وجاءت الآية التالية (رقم ١٠) تؤيد ما جاء فى هذه الآية وفى الآية التى قبلها : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . ﴾ فلقد قضى الله فيهم بأمره ، بما علمه من طبيعة قلوبهم التى لا ينفذ إليها الإيمان ، ولا ينفع الإنذار قلباً غير مهياً للإيمان ، محال بينه وبينه بالسدود .

انظر التعبير : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ .

(١) عَشِيَ يَعِشِي عَشًا وَعِشَاوَةً : ضَعُفَ بَصَرُهُ لَيْلًا فَهُوَ أَعَشَى وَهِيَ عِشْوَاءٌ .

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ٦٥ - يس (٣٦)

خَتَمَ الْكِتَابَ وَخَتَمَ عَلَى الْكِتَابِ : طبع عليه الخاتم استيثاقاً وصوناً له . وَيُسْتَعَارُ مِنْ ذَلِكَ الْخَتْمُ عَلَى الْقَمِّ بِأَنْ يَسُدَّهُ فَلَا يَنْطِقُ .

قال الراغب الأصفهاني : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى نمنعهم من الكلام . قال المفسرون : إنهم ينكرون الشرك وتكذيب الرسل كما فى قولهم : ﴿ وَاللّٰهُ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ٢٣ - الأنعام ، فيختم الله على أفواههم ختما لا يقدرّون معه على الكلام . قبل سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف . وقيل : ختم على أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم لأن شهادة غير الناطق أبلغ فى الحجّة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز .

﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى تكلمنا أيديهم بما كانوا يفعلونه ، جعل ما تنطق به الأيدي كلاماً وإقراراً لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصى . وجعل نطق الأرجل شهادة لأنها حاضرة عند كل معصية - وكلام الفاعل إقرار ، وكلام الحاضر شهادة . وهكذا ليعلموا أن أعضاءهم التى كانت أعواناً لهم فى المعاصى صارت شهوداً عليهم .

وفى الحديث الذى أخرجه مسلم والنسائى عن أنس : « يقول العبد يوم القيامة : إني لا أجزى على شأها إلا من نفسى ، فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقى فتنتطق بأعماله ، ثم يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكِنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَاضِلُ » أى أجادل .

قرأ طلحة بن مصرف : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا وَتَشْهَدُ ﴾ بلام كى أى اللام التى تعمل عمل كى .

وقرئ : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ بلام الأمر وجزم الفعل ، على أساس أن الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة - إنه مشهد عجيب تذهل من تصوره القلوب .

﴿ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾

٦٦ - يس (٣٦)

يقال : قَفَّرٌ (١) طامس أى بعيد لا مسلك فيه ، وفلاة طامسة : بعيدة لا تتبين من بُعد .

والطامس : البعيد ، وطمس : بُعد .

وإذا غُطِيَ الشيءُ حتى لا يرى ، أو درس وانمحي أثره ، أو مسخ وذهب عن صورته ، قيل : إنه طمس طُموساً . ويمكن أن يتعدى ويأخذ مفعولاً به فيقال : طمسته طُمسًا .

والمطموس : الأعمى الذى لا يبين حرف جفنه . وفى القرآن : طمس العين ، والطمس عليها ، بمعنى ذهاب بصرها .

﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ أى أذهبنا أعينهم وجعلناها بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن . قال الكسائى : المطموس . والطميس عند أهل اللغة هو الذى ليس فى عينه شق (٢) . ومفعول المشيئة محذوف : أى لو نشاء أن نطمس على أعينهم لطمسنا . قال السدى والحسن : المعنى لتركناهم عمياً يترددون لا يبصرون طريق الهدى .

﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ معطوف على ﴿ لطمسنا ﴾ : أى تبادروا إلى الطريق ليجوزوه ويمضوا فيه ﴿ فأنى يبصرون ﴾ أى كيف يبصرون الطريق ويحسنون سلوكه ولا أبصار لهم .

(١) القفر : الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلاً .

(٢) كما فى قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ ٢٠ - البقرة .

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ ﴾ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿١﴾

٤٨ ، ٤٩ - الصافات (٣٧)

قَصَرَ الطَّرْفَ يَقْصُرُهُ : غَضَّهُ أَوْ حَبَسَهُ عَنِ النَّظَرِ ، فَهُوَ قَاصِرُ الطَّرْفِ ، وَهِيَ قَاصِرَةٌ الطَّرْفِ ، وَهِيَ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ؛ مِنْ إِضَافَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ لِمَفْعُولِهِ .

والطرف : العين .

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى نساء قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ، ولا يمددن طرفاً إلى غيرهم حياةً وعفةً فهن حيات عفيفات .

﴿ عَيْنٌ ﴾ : جمع عَيْنَاءَ ، وهى الواسعة العين . وقال مجاهد : العَيْنُ هُنَّ حِسَانُ الْعَيُونِ . وقال الحَسَنُ : هن الشديديات بياض العين الشديديات سوادها .

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ : البَيْضُ معروف . مكنون من الفعل كَنَّ الشئَ يَكْنُهُ كَنًّا : صَانَهُ ، فَهُوَ مَكْنُونٌ أَى مَصُونٌ . شَبَّهْنَ بِالْبَيْضِ بِيَاضًا وَمَلَاسَةً وَصَفَاءَ لَوْنٍ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ السَّجِسْتَانِي . وقال الحسن وأبو زيد : شَبَّهْنَ بِبَيْضِ النَّعَامِ ، فَالنَّعَامَةُ تَكُنُّ بَيْضَهَا أَى تَصُونُهُ بِالرِّيشِ مِنَ الرِّيحِ وَالغُبَارِ ، فَلَوْنُهُ أَبْيَضٌ فِى صَفْرَةٍ ، وَهُوَ أَحْسَنُ أَلْوَانِ النِّسَاءِ . قال المبرد : وتقول العرب إذا وصفت الشئ بالحسن والنظافة كأنه بيض النعام المغطى بالريش ، لا تبتذله الأيدي ولا العيون .

وقيل : المكنون : المصون عن الكسر أى أنهن عذارى .

وقيل : المراد بالبيض اللؤلؤ ، كما فى قوله : ﴿ وَحُورٌ عَيْنٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ ٢٢ ، ٢٣ - الواقعة .

(١) ورد التعبير « قاصرات الطرف » أيضا فى ٥٢ - ص ، وفى ٥٦ - الرحمن .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ٧٨ - الصفات (٣٧)

ورّد هذا التعبير في القرآن الكريم أربع مرّات ، كلها في هذه السورة . وفيما يلي نوردّها واحدا واحدا ، وكل واحد مشفوعٌ بالآية التي تليه :

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سلام على نوح في العالمين ﴾ ٧٨ ، ٧٩ .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سلام على إبراهيم ﴾ ١٠٨ ، ١٠٩ .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ . سلام على موسى وهارون ﴾ ١١٩ ، ١٢٠ .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سلام على إيل ياسين ﴾ ١٢٩ ، ١٣٠ .

والذي يلفت النظر في هذا التعبير أنه آية قائمة بذاتها ولها رقمها ، مع أن الفعل فيه - وهو ﴿ تركنا ﴾ - فعل متعدّد يأخذ مفعولا به ، ولم يرد في الآية مفعول به . وهذا هو ما استوجب البحث وأثار التساؤل .

ولذلك جاء شرح الفعل ﴿ ترك ﴾ في معجم ألفاظ القرآن الكريم بالتعبير مشفوعا بالآية التالية له هكذا : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سلام على نوح في العالمين ﴾ أى أبقينا له هذ السلام تحية وذكرى دائمة في الآخرين ، ومثلها ما ورد في المرات الثلاث الأخريات في الآيات ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٢٩ .

ولهذا قال الكسائي إن ابن مسعود قرأ : ﴿ سلاما على نوح ﴾ منصوبا بـ ﴿ تركنا ﴾ أى تركنا عليه سلاما . يعنى تركنا عليه هذه الكلمة ﴿ وهى سلام على نوح في العالمين ﴾ باقية ، يسلمون عليه (أى الخلائق من الملائكة والناس وهو معنى العالمين) تسليما ويدعون له . قال القرطبي . تركنا عليه ثناء حسنا في كل أمة ، فإنه مُحَبَّبٌ إلى الجميع . والآخرين هم الأجيال الآتية إلى آخر الزمان .

قال الزمخشري : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ من الأم (أى الأجيال الآتية بعده) هذه الكلمة وهى ﴿ سلام على نوح ﴾ يعنى يسلمون عليه تسليما ويدعون له ^(١) . . . فما معنى قوله ﴿ في العالمين ﴾ ؟ قلت : معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا ، وأن لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل : ثَبَّتَ اللهُ التَّسْلِيمَ عَلَى نُوْحٍ وَأَدَامَهُ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالثَّقَلَيْنِ (الإنس والجن) يسلمون عليه عن آخرهم . علَّلَ مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من إبقاء ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسنا : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ الآية ٨٠ .

وقيل ﴿ في الآخرين ﴾ أى فى الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاعتقاد به ؛ قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ﴾ من الآية ١٣ من سورة الشورى . وفى الآيتين ١٠٨ ، ١٠٩ : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سلام على إبراهيم ﴾ أى تركنا على إبراهيم ثناء جميلا فى الأم بعده ، فما من أمة إلا تسلم وتصلى عليه وتحبه . ومثله ما ورد فى الآيتين ١١٩ ، ١٢٠ . وفى الآيتين ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١) هو من الكلام المحكى كقولك : قرأت : «سورة أنزلناها» .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

١٠٢ - الصافات (٣٧)

سَعَى فلانٌ يَسْعَى سَعْيًا : تصرف في أى عمل كان .
وَبَلَغَ الشيءَ يَبْلُغُهُ بُلُوغًا : وَصَلَ إليه .

﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ : فلما بلغ معه المبلغ (أى بلغ السن) الذى يعمل مع أبيه فى أمور دنياه معيناً له على أعماله أى بدأ صباه يتفتح ويرافق أباه فى أمور الحياة .
كانت سنه سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة . هذا قول القرطبي ، وقال مثله الزمخشري حين قال : فلما بلغ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وحوائجه .
« معه » بيان ، كأنه لما قال : فلما بلغ معه السعى أى الحد الذى يقدر فيه على السعى ، قيل : مع من ؟ فقال : مع أبيه (١) .

جاء فى تفسير القرطبي : كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظاً وورقوداً ، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم . وهذا ثابت فى الخبر المرفوع . قال ﷺ : ﴿ إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا ﴾ أتى إبراهيم فى المنام فقبل له : اذبح ابنك ، ورؤيا الأنبياء وحى كالوحي فى اليقظة ، فلهذا قال : « إني رأى فى المنام أنى أذبحك » فذكر تأويل الرؤيا . قيل : رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روى فى ذلك أى نظر وتعقب فى ذلك الأمر من الصباح إلى الرواح ولم يعجل فيه بقرار : أمن الله هذا الحلم أو من الشيطان ؟ ولذلك سُمى يوم التروية .

فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله ، فمن ثم سُمى يوم عرفة .

ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة ، فهَمَّ بنحره فسمى اليوم يوم النحر .

« فانظر ماذا ترى » من رأى ، على وجه المشاورة . وقرئ « ماذا ترى أى ماذا تبصر من رأيك وتبديه ؟ وقرئ على البناء للمفعول : ماذا ترى ، أى ماذا تريك نفسك من رأى ؟

« قال يا أبت افعل ما تؤمر » أى ما تؤمر به ، فحذف الجار كما حذف فى البيت المنسوب

إلى عمرو بن معد يكرب (أو عباس بن مرداس) :

أمرتك الخيرَ فافعل ما أمرت به . . . فقد تركتك ذا مال وذا نسب

(١) قال الزمخشري إنه لا يصح أن تتعلق « معه » ببلغ لأن هذا يقتضى بلوغهما معا حد السعى وسنه ؛ ولا تتعلق « معه » بالسعى لأن صلة المصدر (أى معه) لا تتقدم عليه .

أى أمرتك بالخير . وقرئ : ما تؤمر به .

لماذا شاور إبراهيمُ اسماعيلَ فى أمر هو حتمٌ من الله ؟ قال الزمخشري لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ، ولكن ليعلم ما عند أبيه فيما نزل به من بلاء الله ، فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلّم ، وليعلمه الأمر فيوطن نفسه عليه (١) ، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله .

لماذا كان ذلك بالمنام دون اليقظة ؟ قال الزمخشري : كما أرى يوسفُ عليه السلام سجودَ أبويه وإخوته له فى المنام ، وكما وعد رسولُ الله ﷺ دخولَ المسجد الحرام فى المنام . وذلك لتقوية الدلالة على أن الأنبياء صادقون مصدقون ؛ لأن الحال إما حال يقظة أو حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك أقوى على الدلالة من حالة واحدة .
ها هو ذا إبراهيم عليه السلام يهاجر إلى ربه : « إني ذاهب إلى ربي سيهدين » بعد أن نجاه الله من النار التى ألقوه فيها .

يترك إبراهيم وراءه كل شىء من ماضى حياته : الأهل والبيت والوطن وكل ما كان مألوفاً له ، والأرض التى نشأ فيها وكل ما يشده إليها ، ويدع وراءه كل شاغل وكل عائق . يهاجر هجرة كاملة من حال إلى حال ومن أواصر شتى إلى أصره واحدة لا يرحمها فى النفس شىء - الهجرة إلى الله .

لم يكن له عقب ، فاتجه إلى ربه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ . فاستجاب الله دعاءه : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ هو اسماعيل عليه السلام - كما يرجع سياق السيرة والسورة . وقد رأينا آثار حلمه عندما قال لأبيه وهو يستشيريه فى رؤيا ذبحه : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .
ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الشيخ الهرم بهذا الغلام الذى رزقه الله به فى كبرته وشيخوخته !

وأن لنا أن نطلع على ذلك الموقف العظيم الكريم الفريد فى حياة إبراهيم - بل فى حياة البشر أجمعين . هاهو ذا إبراهيم الشيخ الفانى الطاعن يرزق فى شيخوخته بغلام ممتاز ، وما يكاد يأنس به وصباه يفتح ويبلغ معه السعى ويرافقه فى الحياة ، حتى يرى فى منامه أنه يذبحه ! رأى إبراهيم تلك الرؤيا ثلاث ليال متتابعات . فيدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . لا يُطلب إلى إبراهيم أن يرسل ابنه إلى المعركة مثلاً ، ولا يطلب إليه أن يكلف ابنه بأمر يعرضه للموت ، وإنما يُطلب إليه أن يتولى هو بيده ، يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه ! إنه البلاء العظيم .
لكن إبراهيم لا يخالجه إلا شعور الطاعة والتسليم ، والابن أيضاً يأخذ الأمر طاعة

(١) ولأن المغافصة (أى الأخذ على غرة والمفاجأة) بالذبح مما يستسمح .

وإسلاما وتسليما . ويمضى إبراهيم فيكب ابنه على جبينه استعدادا لذبحه والابن مستسلم لا يمتنع . وهكذا وقع الامتحان وتم البلاء وظهرت النتائج ، ظهر صدق إبراهيم وإسماعيل فى طاعة ربهما . يا إبراهيم قد جُذت بكل شيء وبأعز شيء ، ولم يبق إلا أن تقطع السكين اللحم ويسيل الدم - وهذا ينوب عنه أى ذبح من دم ولحم . ويفدى الله هذه النفس ، التى أسلمت وأدّت ، يفديها بذبح عظيم ، هو كبش أملح أقرن وجده إبراهيم مهياً بفعل ربه ليذبحه فداء وبدلا من إسماعيل : ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾ الآيات من ١٠٤ إلى ١٠٧ .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾

وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧١﴾ - ١٧٣ الصافات (٣٧)

هذا التعبير يمتد ليشمل ثلاث آيات

قرأ ابن مسعود: ﴿ سبقت كلمتنا على عبادنا ﴾ على أساس أن كلمة « سبقت » تتضمن معنى حَقَّت .

« كلمتنا » هي قوله : ﴿ إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ . والمراد الوعد بعلوهم على عدوهم في مقام الحجاج (أى المجادلة) وملاحم القتال في الدنيا ، وعلوهم عليهم في الآخرة ، كما في قوله : ﴿ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ ٢١٢ - البقرة ، وانهم في بعض المشاهد وما جرى على بعضهم من القتل لا ينقض هذا الوعد لأن الغلبة كانت لهم في النهاية . وكفى بمشاهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين مثلاً يحتذى وعبرا يعتبر بها . وعن الحسن رحمه الله : ما غلب نبي في حرب ولا قتل فيها .

هذا الوعد من الله واقع ، والدليل على ذلك أن جذور العقيدة استقرت في الأرض ، وقام بناء الإيمان ، على الرغم من جميع العوائق وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة ومتبعي دعوة الإيمان . ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار ، وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل تسيطر على قلوب وعقول البشر في أنحاء الأرض . وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبتت منها . وفي أيامنا هذه شاهدنا الشيوعية وقد أقيمت ودُفنت ، وماتت أول ما ماتت في مهدها : في روسيا ، وأعقب ذلك اندحارها في باقي الدول التي كانت تعتنقها . قامت دولة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧ وشيبت إلى مئوئها الأخير مصحوبة باللعنات مرجومة بالأحجار في عام ١٩٩٠ . هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية ، سنة ماضية كما تسمى هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء .

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله ، ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى . فيكون ما يريده الله ، ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون . ومن الأمثلة على ذلك أن المسلمين قبيل غزوة بدر كانوا يريدون أن تكون لهم غير قريش ، وأراد الله أن تفوتهم تلك العير الرابحة الهيئة ، وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة . وكان ما أَرَادَهُ اللهُ هو الخير لهم وللإسلام ، إذ كان النصر

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ٧ - محمد ؛ وقوله : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ٢١ - المجادلة وقوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ٨ - المنافقون .

لرسوله وجنده ودعوته : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ ٧- الأنفال ، أى : واذكروا وقت أن وعدكم الله أن تكون لكم إحدى الطائفتين : طائفة أبى سفيان مع التجارة (وهى العير ^(١)) وهى المقصود بالوصف فى قوله « غير ذات الشوكة » فلم تكن لها شوكة أى قوة لقله الرجال فيها . الطائفة الثانية هى طائفة أبى جهل مع الرجال الذين خرجوا من مكة لحربكم (وهى النفير) . وأنتم تحبون ملاقاته العير فهى الأقل قوة وهى المحملة بالتجارة ، والله يحب أن تلاقوا النفير الأقوى وذلك للقضاء على آخر مشركى مكة وأعوانهم واستئصال صنابيرهم ^(٢) ، والآية تتحدث عن غزوة بدر الكبرى حيث قُتل من الكفار سبعون وأسر سبعون .

(١) العير : ما جُلب عليه الطعامُ من قوافل الإبل والبغال . والتَّفير : القوم ينفرون للقتال أى يهجرون وطنهم للقتال . وفى المثل : فلان لا فى العير ولا فى النير ، يُضرب للرجل الصغير القدر المستهان به .
(٢) أبو جهلٌ وحنظلة بن أبى سفيان ، وعتبة بن زبيعة وأخوه شيبه ، والوليد بن عتبة ، وأميه بن خلف وابنه على .

﴿ وَاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادُوا وَاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ ٣ - ص (٣٨)

﴿ لات ﴾ : حرف نفى يختص بالدخول على كلمة « حين » . وهى مكونة من « لا » النافية وحرف التاء الذى زيد عليها ، كما زيد على « رُبَّ » و « ثُمَّ » فيقال ثمت وربت .

قال سيبويه : لات مثل ليس نافية ، والاسم فيها مُضْمَرٌ .

فقوله تعالى : ﴿ وَاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أى ليست أحياننا حينَ مناصٍ .

فهى يظهر معها الاسم أو الخبر ولكن لا يظهر الاثنان معها .

المناص : الهروب والفرار ، من الفعل ناصَ ينوصُ نَوْصًا ومناصًا أى فَرَّ وراغ . ويقال أيضا : ناص من المكروه أى نَجَا منه ، فالمناص : النجاة والسلامة .

﴿ فنادوا وَاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أى ليس الحينُ حينَ فرار من الهلاك ، أو ليس حينَ نَجاة وسلامة منه .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى من أمة مكذبة و « كم » لفظة التكثير . ﴿ فنادوا ﴾ أى بالاستغاثة والتوبة وجأروا إلى الله تعالى .

وليس ذلك بمجرد عنهم شيئا . قال الحسن : نادوا بالتوبة وليس الحينُ حينَ التوبة ولا حينَ ينفع العمل . لجأوا إلى الاستعطاف ولكن بعد فوات الأوان .

لعل الكافرين المستكبرين المارقين عن الدين يتعظون بما حدث للأمم المكذبة من قبلهم ، فيطامنوا من كبرياتهم ويرجعوا عما هم فيه من ضلال قبل أن تضيع الفرصة ، وقبل أن ينادوا ويستغيثوا ، ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابَ ﴾ ٢٠ - ص (٣٨)

الخطاب هو الكلام ، والفصل : التمييز بين الشئتين . وقيل للكلام البين : فصل ؛ لأنهم قالوا : كلام مُلتبس وفي كلامه لُبس أى خلط ؛ والمتلبس : المختلط ، فقيل فى نقيضه : فصل أى مفصول بعضه من بعض .

« فصل الخطاب » هو البين من الكلام الذى يتبينه من يُخاطب به ولا يلتبس عليه^(١) . أو هو الكلام الذى يفصل بين الصحيح والفساد والحق والباطل ، والصواب والخطأ . وقيل هو الفصاحة والبيان الشافى فى كل قصد .

وقال أبو عبد الرحمن السُّلمى وقتادة وابن مسعود والحسن والكلبى ومقاتل : فصل الخطاب هو الفصل فى القضاء^(٢) . فالله أعطى داود عليه السلام الكلام والفصل فى القضايا والخصومات وتدابير الملك . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن الله أعطاه الفصل والحكم فى القضايا بالبينه أو اليمين ، فالبينه على من ادعى واليمين على من أنكر . قال ابن كثير فى تفسيره : وهذا هو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة .

ولخص مجاهد القولين بقوله : فصل الخطاب هو الفصل فى الكلام وفى الحكم .

« وشددنا ملكه » أى قويناه حتى ثبت ، وذلك بالهبة وإلقاء الرعب منه فى القلوب وبكثرة الجنود .

« وأتيناها الحكمة » : النبوة ، أو كمال العلم وإتقان العمل ، وتطلق الحكمة على إتقان الأمور .

(١) قال صاحب الظلال : فصل الخطاب : قطعهُ والجزمُ فيه برأى لا تردد فيه .

(٢) قال الألوسى : والذى يترجح عندى أن المراد بفصل الخطاب هو علم القضاء والفصل فى الخصومات ، وهو يتوقف على مزيد علم ، ودقة فهم وتفهم ، وفيه تمييز بين الحق والباطل ، وإيتاء الحقوق أربابها ، وهو العدل الذى هو أساس الملك .

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾

﴿ وَأَذْكَرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا

أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ ﴿٤٥ ، ٤٦ - ص (٣٨)

﴿ أَخْلَصْنَاهُمْ ﴾ : جعلناهم مختارين خالصين من الدنس أى اخترناهم واصطفيناهم .

﴿ بخالصة ﴾ أى بسبب خالصة فيهم ، وخالصة : خَصْلَةٌ خاصة فيهم هى ذكرى الدار .

﴿ ذكرى الدار ﴾ : ذكراهم الدار الآخرة دائبا ونسيانهم ذكر الدنيا أو تذكيرهم بالآخرة وترغيبهم فيها ، وتزهيدهم فى الدنيا كما هو شأن الأنبياء وديدنهم .

﴿ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ أى اخترناهم واصطفيناهم بسبب خلة خاصة فيهم هى تذكيرهم بالدار الآخرة . وقال ما لك بن دينار وعطاء : نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها . وقال مجاهد : جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم غيرها . وقال قتادة : كانوا يذكرون الناس بالدار الآخرة والعمل لها .

قراءة العامة « بخالصة » مُنَوَّنة على أساس أن « ذكرى الدار » بدل منها ؛ والتقدير : إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِأَنْ يَذْكُرُوا الدَّارَ الْآخِرَةَ وَيَتَأَهَّبُوا لَهَا ، ويرغبوا فيها ويرغبوا الناس فيها .

وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر عن ابن عامر : « بخالصة ذِكْرَى الدار » بإضافة خالصة إلى ذِكْرَى .

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ٢٣ - الزمر (٣٩)

« أحسن الحديث » : أبلغه وأصدقه وأوفاه ، وهو القرآن .

« كتابا متشابها » : يشبه بعضه بعضا فى فصاحته وبلاغته ، ونظمه وإعجازه ؛ وفى صحة معانيه وأحكامه ، وصدقه وحكمته ؛ وهدايته واستتباعه مصالح الخلق فى المعاش والمعاد . « مثنائى » : تُثنى وتكرر فيه القصص والمواعظ ، والأمثال والأحكام ، والوعد والوعيد . وتثنى تلاوته ، فلا يُمكَل على كثرة الترداد جمع ثنى ومثناة ومثنى ، من التثنية بمعنى التكرير والإعادة . وُصف القرآن كله هنا بالمثنائى ، وسميت الفاتحة بالمثنائى فى سورة الحجر : « ولقد آتيناك سبعا من المثنائى والقرآن العظيم » الآية ٨٧ .

﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ : تعلقوا قشعيرة ورعدة من الخوف مما فيه من الوعيد ، من الاقشعرار وهو التقبض الشديد . ومنه أيضا قَفَّ الشعرُ أى قام من الفرع والخوف الشديد من أمر هائل دَهَمه بغتة - وهو كناية عن شدة خوفهم من الله تعالى .

﴿ تلين جلودهم ﴾ : تسكن وتطمئن لينة غير منقبضة . سُمى القرآن حديثا لأن رسول الله ﷺ كان يحدث به أصحابه وقومه ، وهو كقوله تعالى : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ وقوله : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ ، وقوله : ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ ، وقوله : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ .

وعن فائدة تثنيته وتكرار تلاوته قال الزمخشري : النفوس أنفر شئ من حديث الوعظ والنصيحة ، فما لم يكرر عليها عودا على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله . ومن ثم كانت عادة رسول الله ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعا ، وفى البخارى أنه كان ﴿ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا ﴾ ، وذلك ليركزه (أى القرآن) فى قلوبهم ويغرسه فى صدورهم .

وعن قوله تعالى : ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ ورد فى تفسير القرطبي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ ما اقشعر جلد عبد مؤمن من خشية الله إلا حرمه الله على النار ﴾ . وعن العباس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحأت عنه خطايا كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها » . وقال زيد بن أسلم : قرأ أبى بن كعب عند النبي ﷺ ومعه أصحابه فرقوا فقال النبي : « اغتتموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة » .

وروى ثابت البناني عن أحدهم قوله : إني لأعلم متى يستجاب لى . قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا قشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى .

وقيل : إن القرآن لما كان فى غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته ، اقشعرت الجلود منه إعظاما له ، وتعجبا من حسن ترصيعه وتهيبا لما فيه : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ فالتصدع قريب من الاقشعرار ، والخشوع قريب من قوله : ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ ومعنى لين القلب رفته وطمأنينته وسكونه .

عدَّى الفعل « تلين » بآلى : ﴿ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ فضمن الفعل تلين معنى فعل متعد بآلى مثل تسكن أو تظمن إلى ذكر الله لينة غير متقبضة ، راجية فضله ورحمته .

« كتاباً » : نُصب على البدل من « أحسن الحديث » . وإيقاع اسم الله مبتدأ فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه ، وتأکید لاستناده إلى الله وأنه من عنده ، وتنبیه على أنه وحى مُعجز مُباین لسائر الأحاديث .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾

٣٦ - الزمر (٣٩)

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ : أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي « ليس » فأفادت إثبات الكفاية . وتسمى أيضا همزة الاستفهام ودخولها على النفي يقتضى التقرير والإثبات .
 ﴿ بكاف عبده ﴾ أى بحافظ له من كل شر . يقال : كفانى العدو أى حمانى منه ومن كيدهِ وشره . والفعل كفاه الشيء يكفيه كفاية : سدَّ حاجته وجعله فى غنى عن غيره (١) .
 العبد : اسم جنس تعنى العبيد على الإطلاق لأن الله كافيههم فى الشدائد وكافل مصالِحهم .

فالله يكفى من عبده وتوكل عليه . فمن ذا يخيفه ؟ وماذا يخيفه إذا كان الله معه وإذا كان هو (أى العبد) قد اتخذ مقام العبودية وقام بحق هذه العبودية ؟ منيعُ الجَناب لا يُضام ولا يُذَل من استند إلى جناب ربه ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز صاحب القوة والغلبة : ﴿ أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ .

« ويخوفونك بالذين من دونه » أى بمن هم أقل منه ، الذين هم تحته ، فكلمة دون معناها تحت - وهل فى الكون كله إلا من هم دون الله ؟ فكيف يخاف ؟ إن القضية واضحة ، لا تحتاج إلى جدل ولا كد ذهن ، فطرفاها : الله ، ومن هم دون الله . وإرادة الله هى النافذة ومشية هى الغالبة ﴿ وهو القاهر فوق عبادة ﴾ ؛ وهو الذى يقضى فى العبادة قضاءه : فى ذوات أنفسهم وفى حركات قلوبهم ومشاعرهم .

ومن المفسرين من قال إن « عبده » يعنى محمدا ﷺ وأن الله يكفيه وعيد المشركين وكيدهم . وورد فى سبب نزولها أن مشركى قريش كانوا يخوفون رسول الله ﷺ من آلهتهم ويحذرونه من غضبها .

ولكن مدلول التعبير أوسع وأشمل ، فهو يسكب الرضا والسكينة والثقة والطمأنينة وتجليات اليقين فى القلب المؤمن فى كل زمان ومكان .

(١) روى ابن أبى حاتم والترمذى والنسائى أن رسول الله ﷺ قال : « أفلح من هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وفتح به » .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

٥٣ - الزمر (٣٩)

﴿ أسرفوا على أنفسهم ﴾ : الإسراف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان ؛ وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر ، ولتضمنه معنى الجناية عُدَى بعلى ، فقال : أسرفوا على أنفسهم بأن أفرطوا في المعاصي فجنوا على أنفسهم بارتكابها . والخطاب للمؤمنين المذنبين .
﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ : قنط يقنط قنوطاً : يئس ، والمعنى لا تيأسوا من رحمة الله ومغفرته .

﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ بأن يسترها أو يحوها ولا يؤاخذ بها . غَفَرَ الشئَ : ستره (١) ، وغفر الله ذنبه غَفْرًا وغَفْرَانًا ومغفرةً : ستره وعفا عنه .

والله يغفر لمن شاء من عصاة المؤمنين تابوا أو ماتوا من غير توبة . فإن تابوا قبل توبتهم كما وعد - فضلاً منه . وإن لم يتوبوا فهم في مشيئته تعالى : إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم .

وتوالى ذكر الإفراط في المعاصي ﴿ أسرفوا على أنفسهم ﴾ ، والنهي عن اليأس ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ ، وتفضله سبحانه بمغفرة الذنوب جميعاً ، وتأكيد مغفرته ورحمته ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ - كل هذه يجعل هذه الآية أرجى آية في كتاب الله في رأى بعض المفسرين .

أما غير المؤمنين : فإن تابوا من الكفر ، قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُمْ - والإسلام يجب ما قبله . وإن ماتوا مصرين على كفرهم ، فلن يغفر الله لهم : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ٤٨ - النساء .

ونورد ما جاء في عدد من كتب التفسير المشهورة عن التوبة كشرط للمغفرة من الله سبحانه وتعالى عما اقترف العبد من ذنوب .

قال الزمخشري : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ يعنى بشرط التوبة ، وقد تكرر ذكر هذا الشرط في القرآن (٢) ؛ فكان ذكره (أى شرط التوبة) فيما ذكر فيه ، ذكراً له فيما لم يذكر فيه ، لأن القرآن في حكم كلام واحد ولا يجوز فيه التناقض . وفى قراءة ابن عباس وابن مسعود : ﴿ يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء ﴾ والمراد بمن يشاء : من تاب ، لأن مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله .

(١) ويقال : غَفَرَ الشيبَ بالخضاب : غطاه .

(٢) من ذلك قوله تعالى : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ ١٧ - النساء . وقوله : ﴿ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴾ ٥٤ - الأنعام . وقوله : ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ ١١٩ - النحل .

وجاء هذا المعنى أيضا في « التفسير الوسيط » : وقال آخرون إنها (أى المغفرة) وردت في غير موضع من القرآن الكريم مقيدة بالتوبة ، فإطلاقها هنا يحمل على التقييد بها ، لأن المطلق يُحمل على المُقيد ما لم ينسخ ، ولا نسخ في عقاب المؤمن المذنب ، وأيدوا ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوهُ ﴾ في الآية التالية ، فإنه عَطَفَ على ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ كأنه قيل : لَا تَقْنَطُوا من رحمة الله فتظنوا أنه لا يقبل توبتكم وأنبيوا إليه تعالى وأخلصوا له .

وجاء في تفسير القرطبي : وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر له ، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة ، ودل على أنه يريد التائب ما بعده ﴿ وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ فالتائب مغفور له ذنوبه جميعا ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَاب ﴾ وقال ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » : هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ؛ وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة . روى البخارى عن ابن عباس قال : كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا ، وزنّوا فأكثروا ، فقالوا للنبي ﷺ أو بعثوا إليه : إن ما تدعو إليه لحسن أو تخبرنا أن لنا توبة ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

إنها الرحمة الواسعة التى تسع كل معصية ، وإنها الدعوة للأوبة . دعوة العصاة المسرفين إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله . وهو يعلم ضعفهم ؛ ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانه ومن خارجهم ؛ ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد ، ويأخذ عليهم كل طريق ، ويجلب عليهم بخيله ورجله ؛ ويعلم أن ما ركب فى كيان هذا المخلوق الإنسانى من وظائف ومن شهوات يمكن أن تتحرف به عن التوازن وتوقعه فى الشطط .

لهذا فإن الله يمد له يد العون ، ويهيه له جميع الوسائل ليصلح خطاه ويقيم خطاه على الصراط . فبعد أن يسرف فى المعصية يجد باب التوبة مفتوحا ، بلا حواجز ، فليس عليه بواب يمنع ولا وسطاء ولا شفعاء - إنما هى الإنابة والعودة إلى ظلال الطاعة وإلى رحمة الله الندية .

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ (١)

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ

تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ٧ - غافر (٤٠)

وَسِعَ الشَّيْءَ يَسَعُهُ سَعَةً: استوعبه ولم يضق به، ويجرى هذا في الأمور الحسية والمعنوية. وتعالى الله عن المكان، فكيف صح أن يقال: وسع كل شيء؟ والجواب أن الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى. والأصل: وسع كل شيء رحمتك وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم، وأخرجا منصويين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم (٢) (رحمة تمييز منصوب بالفتحة وكذا علماً المعطوف على رحمة).

﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾: فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك. وسبيل الله: سبيل الحق التي نهجها (أى أبانها وأوضحها كما في الصحاح) لعباده ودعا إليها. ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى المملك الذى لا يُغلب: وأنت مع ملكك وعزتك لاتفعل شيئاً إلا بداعى الحكمة.

﴿ الذين يحملون العرش ﴾: قال القرطبي: وأقوايل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مُجَسَّم خلقه الله عز وجل، وأمر ملائكة بحمله، وتعبدهم (٣) بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتا وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة. جاء فى «التفسير الوسيط»: وظاهر الآية أن الملائكة يحملون العرش حقيقة، ونحن نقول: ما المانع من أن يكون المراد من حملهم إياه كونهم الرؤساء الذين يحملون مسئولية تبليغ أوامر الله لسائر ملائكته فى كونه. قال القرطبي: ويروى أنهم أشرف الملائكة وأفضلهم، فى الحديث: «إن الله تبارك تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة».

والملائكة الذين حول العرش كثيرون لا يحصى عددهم سوى الله تعالى: ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ ٣١ - المدثر.

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين، وهم حملة العرش ومن حول العرش بأنهم يسبحون بحمد ربهم أى يتقربون بين التسبيح الدال على نفى النقائص، والتمجيد المقضى لإثبات

(١) وقريب منه قوله تعالى: ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ ١٥٦ - الأعراف.

(٢) راجع «الكشاف» للزمخشري.

(٣) تعبّد فلانا: اتخذه عبداً.

صفات المدح . ﴿ ويؤمنون به ﴾ أى خاشعون له أذلاء بين يديه ، ولا يخفى أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون ، لكن الفائدة من ذكر هذا هو إظهار شرف الإيمان وفضله ، كما وُصف الأنبياء فى غير موضع من القرآن بالصلاح .

﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ : يستغفرون لمن فى مثل حالهم و صفتهم . وفيه تنبيه على أن الإشتراك فى الإيمان يجب أن يكون أدمى شىء إلى النصيحة ، وأبعثه على إمحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن . فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان ولا بين سماوى وأرضى قط - ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلى حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض من أهلها المؤمنين ، فقيض الله - تعالى - ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب . ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ، كما ثبت فى صحيح مسلم : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثله » .

قال شهر بن حوشب رضى الله عنه : حملة العرش ثمانية . أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك ؛ وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك . ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ﴾ أى رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ .

وقد وردت لبعض المفسرين أقوال فى وصف العرش وحملته - لكن لا جدوى من الجدل حول غيبيات لم يُطلع الله أحدا من المتجادلين عليها . ولا يليق بالمؤمن أن يبدد الجهد والوقت فى الجرى وراء صور وأشياء ليست فى طوق الإدراك البشرى ، وحسبنا ما قررته الآية من أن هناك عبادا مقربين من الله ﴿ يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ﴾ وهم يحملون العرش ، لكننا لا نملك صورة للعرش ولا نعرف كيف يحمله حملته ، ولا كيف يكون من حوله . هؤلاء العباد المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعوه مؤمن مؤمن .

وبين يدي الدعاء يقدمون أنهم - فى طلب الرحمة للناس - إنما يستمدون من رحمة الله التى وسعت كل شىء ، ويحيلون إلى علم الله الذى وسع كل شىء ، وإلى رحمته وعلمه يلجئون : ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ ، وتلتقى هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة وبصفة الله هناك : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ كما تلتقى الإشارة إلى عذاب الجحيم بصفة الله : ﴿ شديد العقاب ﴾ . ثم يرتقون فى الدعاء إلى طلب الجنة لهم فى الآية التالية : ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ .

﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ ﴾

﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ١٨ - غافر (٤٠)

معنى التعبير أن قلوبهم تكون مرتفعة عن مواضعها من صدورهم ، متشبثة بحلوقهم ، مسكين عليهم لا تخرج مع أنفاسهم ، كما يمسك صاحب القربة فمها لئلا يُهراق الماء . وهو كناية عن شدة الفزع وفرط الغم . قال قتادة : وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها . فلا هى تخرج فيموتوا ، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروحو ، ولكنها معترضة كالشجا ، والأنفاس من ثم مكروية لاهثة .

« كاطمين » : انطوت نفوسهم على هم وغم . كظم يكظم فهو كاطم وهم كاطمون . انتصبت « كاطمين » على الحال من أصحاب القلوب لأن المعنى : إذ قلوبهم لدى الحناجر كاطمين عليها أى كاتمين لها . ويحوز أن تكون حالا عن القلوب ، وجمعها جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذى هو من أفعال العقلاء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ ٤ - يوسف .

﴿ يوم الآزفة ﴾ يوم القيامة ، سميت بالآزفة لقربها من أزف الشيءُ يأزفُ إذا قُرب . فإن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منه قليل جدا ، وقد ظهرت أشراتها وعلاماتها ، وكل آت قريب . كما قال تعالى : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ ٥٧ - النجم ، وقوله ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ١ - القمر .

﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ : ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك قريب ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ١٩ - غافر (٤٠)

الخائنة : اسم بمعنى الخيانة ، وهو من المصادر التي جاءت على لفظ الفاعلة ، كالعاقبة ،
والعافية .

﴿خائنة الأعين﴾ هي النظرة الخائنة المختلصة ، كمُسَارَقَة النظر إلى ما حرم الله تعالى
﴿وما تخفي الصدور﴾ من المكنونات . فهو يعلم ، سبحانه ، هذا وذاك ويحاسب عليه .

يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء : جليلها وحقيرها ، صغيرها
وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم - فيستحيوا من الله حق الحياء ويتقوه
حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه . وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت
وأظهرت الأمانة ، ويعلم خبايا الصدور وأسرارها .

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

الْأَشْهَادُ ﴾ ٥١ - غافر (٤٠)

معنى التعبير : شأننا دائما أن ننصر رسلنا وأتباعهم في الدنيا بالحجة والظفر . وننصرهم أيضا في الآخرة ﴿ يوم يقوم الأشهاد ﴾ أشهاد ، وشهود ، وشهد : جمع شاهد . وهم في الآخرة يشهدون للرسول بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب . ويريد بالأشهاد : الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين .

قال الزمخشري : وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحيان امتحانا من الله ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين .

أورد أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله تعالى ، عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ سؤالا فقال : قد علم أن بعض الأنبياء عليهم السلام قتله قومه كيحيى وزكريا وشعيب ، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم وإما إلى السماء كعيسى ، فأين النصر في الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين :

أحدهما : أن يكون الخير خرج عاما ، والمراد به البعض ، وهذا سائغ في اللغة .

الثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم ، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيب ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم . وقد ذكر أن النمرود أخذ الله أخذ عزيز مقتدر . وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فإن الله سلط عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم .

وقال السدي : لم يبعث الله عز وجل رسولا قط إلى قوم فيقتلونه ؛ أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيُقتلون ، فيذهب ذلك القرن (الذي قتلوا فيه) حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم .

ونصر الله نبيه محمدا ﷺ على من خالفه وناوأه وعاداه ، فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان . وأمره بالهجرة إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصارا وأعوانا . ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم ، وقتل صناديدهم وأسرى سراتهم .

ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة ففرت عينه ببلده . وفتح له اليمن ، ودانت له جزيرة العرب . وأقام الله تعالى أصحابه خلفاء بعده ، فبلغوا عنه دين الله ، وفتحوا البلاد حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها .

وهذه سنة الله تعالى أن ينصر عباده المؤمنين . وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ وسلم قال : « يقول الله تبارك وتعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب » .

وفضلا عن هذا فإن الناس يقيسون الأمور بظواهرها ، ويغفلون عن قيم وحقائق كثيره . فعندما يشاهدون بعضا من المؤمنين يُسامون العذاب أو يعيشون فى كرب واضطهاد أو يُلقون فى الأخطود ويستشهدون ، يتساءل الناس : أين وعد الله لهم بالنصر فى الحياة الدنيا ؟ ولكن النصر هو انتصار العقيدة والإيمان ، وأصحاب العقيدة بهم انتصار عقيدتهم وارتفاع رايتهما ، وهم يقدمون أرواحهم فداء لها . واستشهادهم يحفز الألوفا إلى الأعمال الكبيرة ويحرك خطى التاريخ إلى الأمام .

﴿ ٤٩١ ﴾

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٢٢ - فصلت (٤١) .

استتر : تَخَفَى .

معنى التعبير : تقول لهم جوارحهم يوم القيامة (حينما تشهد عليهم ، وهم يلومونها : لم شهدتهم علينا ؟ كما فى الآية السابقة) تقول لهم : ما كنتم تتخفون منا وأنتم ترتكبون المعاصى ، فما كنتم تخافون أن نشهد عليكم وما كنتم تعلمون أننا سنشهد عليكم .

وقيل : الاستتار بمعنى الاتقاء ؛ أى ما كنتم تتقون فى الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم فى الآخرة ، فتركوا المعاصى خوفا من هذه الشهادة .

وقال قتادة : « وما كنتم تستترون » أى تظنون « أن يشهد عليكم سمعكم » بأن يقول سمعت الحق وما وعيت وسمعت ما لا يجوز من المعاصى ، « ولا أبصاركم » فتقول رأيت آيات الله وما اعتبرت ونظرت فيما لا يجوز .

وقيل : ما كان يخطر ببالكم أن جوارحكم ستخرج عليكم وتشهد عليكم ، وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم .

كانوا يستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش ظنا منهم أن الله لا يعلم الخفيات من أعمالهم ؛ وذلك الظن هو الذى أهلكتهم وأرداهم (فى الآية التالية) . وفى هذا تنبيه على أن من حق المؤمن ألا يغيب عن باله ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عينا كالثقة ورفيقا مهيمنا ، حتى يكون فى أوقات خلواته أهيب لربه وأحسن احتشاما وأوفر تحفظا وخوفا منه - سبحانه .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا
الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ٣٤ - فصلت (٤١)

﴿ تستوى ﴾ : تتساوى . الولي : النصير والصديق . الحميم : القريب الذي تودّه
ويودّك .

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه .

﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه . كما قال عمر
رضي الله عنه : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وأورد الزمخشري مثالا
على ذلك فقال : رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة : أن تعفو عنه ، والتي هي أحسن : أن
تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه . وعن ابن عباس : ﴿ بالتي هي
أحسن ﴾ أي الصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة . وقال علي بن
أبي طالب : دع شاتمك ، وآله عنه ترضى الرحمن وتسخط الشيطان ، وتعاقب شاتمك ، فما
عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه . قال الشاعر

وَلَلْكَفُّ عَنْ شَتْمِ اللَّئِيمِ تَكْرُمًا

أضركه من شتمه حين يُشتمُّ

وقال آخر :

وما شئى أحبُّ إلى سفيه . . . إذا سبَّ الكريم من الجواب

مُتَارِكَةُ السفيه بلا جواب . . . أشدُّ على السفيه من السَّبَابِ

« فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » أى إن فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل
الصديق المشفق ، بل قد تزول العداوة وتحل محلها الصداقة . قال الشاعر :

إن العداوة تستحيل مودة . . . بتدارك الهفوات بالحسنات

ومن الناس من لا تصلح معه الملاينة إذ يحسبها ضعفا ويتمادى فى سيئاته ، فمثل هذا
تستعمل معه المخاشنة بعد فشل استعمال الملاينة ، وذلك فى حدود الضوابط الشرعية .

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا

تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ ٤٧ - فصلت (٤١)

الأكمام : جمع كُم وهو وعاء الطلع^(١) أو النور^(٢) ؛ والفعل : كَمَّ الشيء يَكُمُّهُ كَمَا : غطاه وستره . فالكم هو وعاء الثمرة .

﴿ علم الساعة ﴾ : وقتها وأمرها .

﴿إليه يرد علم الساعة﴾ : إذا سُئِلَ عنها ، قيل : لا يعلمها إلا الله ، كما قال سيد البشر محمد ، ﷺ لجبريل ، وهو من سادات الملائكة ، حين سأله عن الساعة فقال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» . وكما قال عز وجل ﴿إلى ربك منتهاها﴾ وكما قال : ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ .

﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أى الجميع بعلمه ، لا يعزب ولا يبعد عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وقد قال سبحانه : ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ وقال : ﴿يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار﴾ .

ويذهب القلب يتبع الثمرات فى أكمامها والأجنة فى أرحامها ، يذهب فى جنبات الأرض كلها يرقب الأكمام التى لا تحصى ، ويتصور الأجنة التى لا يحصرها خيال ، وترسم فى الضمير صورة لعلم الله ، لكنها صورة محدودة بقدر ما يطبق الضمير البشرى أن يتصور من الحقيقة التى ليس لها حدود .

(١) الطلع : غلاف يشبه الكوز يفتح عن حب منضود فيه مادة الإخصاب .

(٢) النور : الزهر الأبيض ، واحده نورة .

﴿ لَا يَسَامُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتُوسُّ قَنُوطًا ﴾

٤٩ - فصلت (٤١)

﴿ لَا يَسَامُ ﴾ : لَا يَمَلُ وَلَا يَفْتَرُ . سَمِيَ الشَّيْءَ وَسَمَّ مِنْهُ يَسَامُ سَامًا وَسَامَةً : مَلَّهَ وَضَجَرَ مِنْهُ وَأَحْسَ نَحْوَهُ فَتَوْرًا .

﴿دعاء الخير﴾ : طلب السعة في المال والنعمة والسلطان . وقرأ ابن مسعود : من دعاء بالخير . « وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ » أَي أَصَابَهُ الْفَقْرُ وَالْمَرَضُ .

يتوس : صيغة مبالغة من يئس ، والفعل يئس يئس يئسًا : انقطع أمله .

قنوط وقانط : يئس أشد اليأس ، من الفعل قنط يقنط قنوطًا .

والتعبير يكشف عن طبع أصيل في النفس البشرية ، فالإنسان لا يمل ولا يفتر من طلب السعة في النعمة وأسباب العيش ، « وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ » أَي أَصَابَهُ فَهُوَ يَتُوسُّ قَنُوطًا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ .

﴿ يتوس قنوط ﴾ : بولغ فيه من طريقتين : من طريق بناء فعول (وهي من صيغ المبالغة) ومن طريق التكرار .

﴿ فَذُو دُعَاءِ عَرِيضٍ ﴾

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ

عَرِيضٍ ﴾ ٥١ - فصلت (٤١)

﴿دعاء عريض﴾ أي كثير مستمر ، مستعار مماله عَرَضَ مُتَّسِعٌ لِلْإِشْعَارِ بِكَثْرَتِهِ ؛ وَالْعَرَبُ تَسْتَعْمَلُ الطَّوْلَ وَالْعَرَضَ فِي الْكَثْرَةِ . يُقَالُ : أَطَالَ فُلَانٌ فِي الْكَلَامِ وَأَعْرَضَ فِي الدُّعَاءِ إِذَا أَكْثَرَ .

وقال ابن كثير في شرح هذا التعبير : أَي يُطِيلُ الْمَسْأَلَةَ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ ، فَالْكَلامُ الْعَرِيضُ هُوَ مَا طَالَ لَفْظُهُ وَقَلَّ مَعْنَاهُ ، وَالْوَجِيزُ عَكْسُهُ وَهُوَ مَا قَلَّ وَدَلَّ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ ١٢ - يونس ومعنى «لجنبه» أي مضطجعاً ملقياً لجنبه أو مستقراً على جنبه .

وقال ابن عباس « فذو دعاء عريض » : فذو تضرع واستغاثة .

إنه رسم دقيق عجيب للنفس البشرية ، يصور تقلبها وضعفها ، ومراءها ، وحبها للخير ، واغترارها بالسراء ، وجزعها من الضراء .

﴿ سُنْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ٥٣ - فصلت (٤١)

آياتنا : دلائل وحدانيتنا وقدرتنا . آفاق . جمع أفق وهو الناحية ، ومثله : عُنُق وأعناق .

المعنى : سنريهم الدلائل على وحدانيتنا وقدرتنا فى أقطار السموات والأرض ؛ من الشمس والقمر والنجوم ، والليل والنهار ، والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق ، والنبات والأشجار ، والجبال والبحار وغيرها . « وفى أنفسهم » بما أودعنا فيهم من الحواس والقوى ، والعقل والروح ، وبما نجريه عليهم من النعم ، وبما نبتليهم به من المحن .

هذه الآية وعد من الله لعباده - بنى الإنسان - أن يطلعهم على شىء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم حتى يتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق « حتى يتبين لهم أنه الحق » والضمير فى « أنه » يعود على القرآن على أساس ما جاء فى الآية السابقة مباشرة على هذه الآية : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ . قال ابن كثير فى التفسير : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به ؟ أى كيف ترون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال عز وجل ﴿ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ أى فى كفر وعناد ومُشاقَّة للحق ومسلك بعيد عن الهدى . ثم قال جل جلاله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ أى سنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله على رسوله بدلائل خارجية (فى الآفاق) من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان . ودلائل فى أنفسهم ، قالوا وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التى حلت بهم ونصر الله فيها محمدا ﷺ وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه . ويحتمل أن يكون المراد من ذلك (أى أنفسهم) ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى .

وأرجع « التفسير الوسيط » الضمير فى الآيتين إلى القرآن أيضا ، إذ جاء فيه : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : إن كان من عند الله ثم جحدتم به مع تعاضد الأدلة والبراهين التى هى من موجبات الإيمان - إن كان هذا شأنه فأخبرونى : من أضل منكم ؟ . . . سنريهم فى الآفاق (أى مشارق الأرض ومغاريها) آياتنا الدالة على حقية القرآن وكونه من عند الله .

وجاء فى « تفسير الجلالين » أيضا أنه القرآن . « قل أرأيتم إن كان » أى القرآن « من عند الله » كما قال النبى . . . « سنريهم آياتنا فى الآفاق » أقطار السموات والأرض « وفى أنفسهم »

من لطيف الصنعة وبديع الحكمة « حتى يتبين لهم أنه » أى القرآن « الحق » المنزل من الله بالبعث والحساب والعقاب .

وجاء فى تفسير القرطبى : « حتى يتبين لهم أنه الحق » فيه أربعة أوجه : أحدها أنه القرآن ، والثانى الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه ، والثالث أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق ، والرابع أن محمدا ﷺ هو الرسول الحق .

وقال صاحب الظلال : حتى يتبين لهم أنه الحق ، أى هذا الدين ، وهذا الكتاب ، وهذا المنهج ، وهذا القول الذى يقوله لهم . ووعد الله عباده أن يطلعهم على شىء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم حتى يتبين لهم ويثبت أن هذا الكتاب ، أى القرآن ، وهذا الدين ، أى الإسلام ، هو الحق .

ولقد صدقهم الله وعده ، فكشف لهم عن آياته فى الآفاق ، فى المشارق والمغارب . كشف لهم الكثير على امتداد ما يجد من سنوات فى عمر هذا الكون . وعرف بنو الإنسان أن أرضهم التى كانوا يظنونها مركز الكون إن هى إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس ، وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة ، ويوجد فى الكون مئات الملايين منها ، فيتبين لنا أن ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾^(١) إنما هو الحق ، فملكُ الله واسع وأوسع من قدرة بنى الإنسان على التصور . وعرف الإنسان أن سرعة الضوء تبلغ ثلثمائة ألف كيلو متر فى الثانية - وهذا من شأنه أن يقرب إلى قدراتنا العقلية البشرية المحدودة وإلى تصوراتنا المحدودة ، شيئا عن رحلة الإسراء والمعراج التى أرادها الله - سبحانه - لنبيه الكريم بعد فقدته زوجه الكريمة ، خديجة ، وفقد عمه الحبيب ، أبو طالب : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾^(٢) .

وفى مجال الجسم الإنسانى وتكوينه ووظائفه وأمراضه وغذائه وتمثيله وغيرها ، تترى الاكتشافات وتتوالى . ونذكر مثلا واحدا هو عملية البناء فى الجسم الإنسانى (Anabolism) حيث يتناول الإنسان ، وسائر الحيوانات ، غذاء - وهذا الغذاء ميت - ثم يهضم ما يصلح منه . وهذا الصالح من الغذاء يُمتص فى الأمعاء فيختلط بالدم الذى يوصله بدورانه إلى مشارف الخلايا فى الجسم كله ، وهو أى الغذاء المهضوم ، ما يزال ميتا . والخلايا ما هى إلا معامل إلهية هياها الله ، سبحانه ، لتختار من مكونات الغذاء الصالح الذى وصلها

(١) ١٣٣ - آل عمران ، وقريب منه قوله تعالى فى الآية ٢١ من سورة الحديد : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ .

(٢) ١ - الإسراء .

فى الدم ما محتاجه ، فتحوله بداخلها إلى مادة الحياة فىها أى البروتوبلازم (Protoplasm) . وهكذا تنقلب المادة الميتة خارج الخلية إلى مادة حية داخل الخلية بحيث تصبح جزءا لا يتجزأ منها : ﴿ وتخرج الحى من الميت ﴾^(١) ولا يمكن أن يقوم بهذه العملية سوى المعامل الإلهية (الخلايا) التى هياها الله لذلك .

والحديث عن الاكتشافات العلمية فى أقطار الأرض ، وعن الاكتشافات الطبية فى جسم الإنسان ، وعن كون هذه وتلك بينات ودلائل على أن ما جاء به القرآن هو الحق وأنه (أى القرآن) منزل من عند الله - هذا الحديث إنما يمتد ليشمل مئات الصفحات ، ويلزمه جهد مشترك يبذله علماء العلوم الطبيعية والطبية وعلماء الدين المتفقهون فى علوم القرآن . وهو بحث هام وشيق لعل الله يقضى له من يقوم به .

ومعرفة نواميس هذا الكون وأسراره قد ترتقى بالبعض إلى معرفة خالق الكون والإيمان به . وقد بانث طلائع الإيمان وراحت تتوالى منذ مطلع هذا القرن ، وموكب النور يتجمع من فجاج شتى ، وعن طريق العلم وحده يفد الكثيرون إلى ملاذ التوحيد ، وهناك أفواج وأفواج آخذة فى التجمع من بعيد رغم موجة الإلحاد .

(١) - ٢٧ - آل عمران . انظر التعبير رقم ٤٤٧ .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ

بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ ٢٧ - الشورى (٤٢)

بَسَطَ اللهُ الرزق لعباده : كَثَّرَهُ وَوَسَّعَهُ .

﴿ لبغوا فى الأرض ﴾ : لَطَعُوا وَعَتَوْا فيها بسبب الغنى . بَغَى يَبْغَى بَغْيًا : ظلم وتجاوز الحد . والغنى مَبْطَرَةٌ مَأْشَرَةٌ (١) . أو لا ستكبروا فى الأرض وفعلوا ما يفعله الكبر فى النفوس من العلو والفساد . « بقدر » بتقدير حكيم ، أو بقدر ما يشاء لكفائتهم ، وما يشاؤه - سبحانه - هو الحكمة وهو صالحهم . والله خبير بصير بعباده ، يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ، فيقدر لهم ما هو أصلح وأقرب إلى جمع شملهم ، فيقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية .

وهذا التعبير فيه إشارة إلى قلة ما فى هذه الحياة الدنيا من أرزاق إذا ما قورنت بما فى الآخرة من فيض غزير .

والله يعلم أن عباده من بنى الإنسان لا يطيقون الغنى إلا بقَدَرٍ ، وأنه لو بسط لهم فى الرزق ، لبغوا وطفوا . إنهم ضعاف لا يملكون القدرة على التوازن إذا بسط لهم الرزق ، إنهم ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد - ومن ثم جعل رزقهم فى هذه الأرض مقدرًا محدودًا بقدر ما يطيقون .

وفى الحديث : « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي زَهْرَةُ الدُّنْيَا وَكَثْرَتُهَا » . قيل : نزلت هذه الآية فى قوم من أهل الصُّفَّةِ تمنوا سعة الرزق والغنى ، قال خباب بن الأرت : فىنا نزلت ، وذلك أننا نظرنا إلى أموال بنى قُرَيْظَةَ وَبَنَى النَّضِيرِ وَبَنَى قَيْنُقَاعٍ فتمنيناها .

(١) بَطَرَ النعمة : استخفها فكفَّرها . وَمَبْطَرَةٌ : مدعاة للبطر . وَمَأْشَرَةٌ : مدعاة للأشر وهو البطر والاستكبار ؛ وفعله أَشَرَ يَأْشُرُ أَشْرًا .

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الظَّالِمِينَ ﴾ ٤٠ - الشورى (٤٢)

﴿ فمن عفا ﴾ عمن أساء إليه « وأصلح » ما بينه وبين من أساء إليه بالإغضاء عما صدر منه من إساءة « فأجره على الله » فإن الله يجزيه أعظم الجزاء .

وفى التعبير تحريض على العفو ، لأن ﴿ فأجره على الله ﴾ مَبْهَمَةٌ لا يقاس أمرها فى العظم . وعن النبى ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد : من كان له على الله أجر فليقم . قال : فيقوم خلق ، فيقال لهم : ما أجركم على الله ؟ فيقولون : نحن الذين عفونا عمن ظلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة بإذن الله » أخرجه العقيلي والطبراني فى مكارم الأخلاق وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب . ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (١) : معناه أنه يجب إذا قُوبِلت الإساءة أن تُقَابَل بمثلها من غير زيادة . شرع الله الانتصار من الظالم بأخذ الحق منه وشرع القصاص لردع المعتدى ؛ ولكنه مع هذا ندب إلى الفضل وهو العفو والإحسان ليرتقى بالبشرية إلى الذروة فى السماحة والمروءة .

والعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة ، فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه فى إصلاح المعتدى والمسامح . فالمعتدى حين يشعر أن العفو جاء سماحة ولم يجرى ضعفا ، يخجل ويستحى ، ويحس بأن خصمه الذى عفا هو الأعلى . والقوى الذى يعفو تصفو نفسه وتعلو .

قال ابن كثير : شرع - سبحانه - العدل وهو القصاص ، وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله جل وعلا : ﴿ والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ ولهذا قال هاهنا ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ أى لا يضيع ذلك عند الله ، كما صح فى الحديث : « وما زاد الله تعالى عبداً بعفوٍ إلا عزاً » .

(١) هو كقوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ وقوله : ﴿ وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ .

﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾

٤١ - الشورى (٤٢)

كلمة سبيل لها معانى عديدة، ومعناها هنا : الحرج واللوم والمؤاخظة . ﴿ انتصر ﴾ : انتقم .

فلا حرج ولا لوم على من ينتقمون من ظالمهم ، فهم أتوا بما هو مباح لهم . فالذى ينتصر من بعد ظلمه ما لأحد عليه من سلطان ، ولا يجوز أن يقف فى طريقه أحد - إنما الذين يجب الوقوف فى طريقهم هم الذين يظلمون الناس ، فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ .

﴿ بعد ظلمه ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول ، وتفسره قراءة من قرأ : بعد ما ظلم . ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى معنى « من » دون لفظه .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١)

٤٣ - الشورى (٤٢)

عَزَمَ الْأَمْرُ : جَدَّ وَلَزِمَ . والفعل عَزَمَ فَلَانَ يُعَزِمُ عَزْمًا وَعَزِيمَةً : جَدَّ وَصَبَرَ . فالعزم هو الصبر والجد .

﴿ لمن عَزَمَ الْأُمُورِ ﴾ : لَمِنَ الْأُمُورِ الجادة المطلوبة شرعا .

﴿ ولمن صبر ﴾ على الظلم والأذى « وغفر » ولم ينتصر من ظالمه وفوض أمره إلى الله فإن ذلك التصرف منه إنما هو من عزم الأمور أى من الأمور الجادة العظيمة التى ينبغى للعاقل أن يوجبها على نفسه لأنها مطلوبة شرعا ، وهى من الصفات التى رغب الشارع فيها وأجزل لصاحبها العطاء .

(١) ورد منه الفعل فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ ٢١ - محمد : عَزَمَ الْأَمْرُ : جَدَّ الْأَمْرُ .

﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ

الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ ٤٥ - الشورى (٤٢)

﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ أى يتبدى نظرهم بتحريك ضعيف لأجفانهم بمسارقة النظر ؛ كما يُرى المصبور (أى المحبوس على القتل) ينظر إلى السيف . وهكذا الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملاً عينيه منها ، على العكس مما لو كان الشيء الذى ينظر إليه محبباً إليه فإنه يملأ عينيه منه .

معنى الآية : وتراهم أى الظالمين (فى الآية السابقة مباشرة) يُعرضون على النار خاضعين متضائلين بسبب ما يلحقهم من الذل ولما يلاقونه من الأهوال عقاباً لهم ، تراهم يسارقون النظر إلى النار خوفاً من مكارهها .

﴿ خسروا أنفسهم ﴾ بالكفر فألقى بهم فى النار ، وخسروا أهلهم إذ حيل بينهم وبين أزواجهم وأحبابهم وأبنائهم .

قال يونس : « من » بمعنى الباء ، أى ينظرون بطرف خفى أى ضعيف من الذل والخوف .

وقال القرطبي : لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعا تاما ، لأنهم ناكسو الرؤوس ، والعرب تصف الدليل بغض الطرف ، كما يستعملون فى ضده حديد النظر إذا لم يتهم بريئة فيكون عليه منها غضاظة .

﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾

٥ - الزخرف (٤٣)

الصَّفْحُ : العَفْو . والصفحة : الجانب . يقال : صفح الجبل .

وصفح الوجه : عَرَضَهُ ، والجمع : صِفَاحٍ وَأَصْفَاحٍ . وصفحاً : إِعْرَاضاً .

ضَرَبَ عَنْهُ صَفْحًا : أَعْرَضَ ، وذلك أنه يوليه صفح وجهه و عنقه .

﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ : أَنهَمِلِكُمْ فنعرض عن أن نذكركم بالقرآن لأنكم أسرفتم على أنفسكم ؟ لا !

وقال السدى فى معنى التعبير : أفترككم سدى فلا نأمركم ولا ننهاكم .

وقال الكسائى : أفنطوى عنكم الذكر طياً فلا توعظون ولا تؤمرون .

وقيل : الذكر التذکر ؛ فكأنه قال : أتترك تذكيركم لأنكم قوم مسرفون .

« الفاء » فى « أفَضْرِبُ » للعطف على محذوف ، تقديره : أنهملكم فاضرب عنكم الذكر « أن كنتم مسرفين » أى لأن كنتم مسرفين ، ذلك أن أكثرهم ظل على الإسراف فى العناد والضلال ، فقال لهم الله : ﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ أى أنهملكم فننحى عنكم إنزال القرآن الكريم الذى فيه شرفكم ورفعتكم ، أنصرفه عنكم لأنكم لازلتم مستمرين ومنهمكين فى الإسراف وتجاوز الحد فى الكفر ؟ لا ، لأن حكمتنا تقتضى أن نذكركم وننزل القرآن الكريم عليكم (١) .

(١) زاجع : التفسير الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية .

﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾
﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾

٢٢ - الزخرف (٤٣)

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ أى على دين وطريقة تؤمُّ وتُقصد (١) ، وهى الشرك فى العبادة . ﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ بهم . فاعترفوا بأنهم لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم .

أم القوم أمًا وإمامًا وإمامةً : تقدمهم ، أو صلى بهم إماما . والأمة : الطريقة والمذهب فى قول عمر بن عبد العزيز . وقال مجاهد وقطرب : أمة أى ملة . والقولان متقاربان (٢) .

﴿ وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ أى نهتدى بهم . وتكرر التعبير فى نهاية الآية التالية رقم ٢٣ ، ولكن باستبدال « مهتدون » بـ « مقتدون » : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ نفتدى بهم متبعون لهم . قال القرطبي : وفى هذا دليل على إبطال التقليد ؛ لذمَّ إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ . « مترفوها » : المنعمون والمراد الملوك والجبابة .

(١) قال قيس بن الخطيم :

كنا على أمة آبائنا ويقتدى الآخر بالأول

(٢) والإمة (بكسر الألف) : النعمة ، قال عدى بن زيد فى النعمة : ثم بعد الفلاح والمُلك والإمة وأرثهم هناك القبور .

﴿ أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا
وَرَحِمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ٣٢ - الزخرف (٤٣)

ورد هذا التعبير في سياق يتحدث عن النبوة والقرآن ، واعتراض المشركين على نزولهما على محمد ﷺ : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ إلى آخر الآية . والقريتان هما : مكة والطائف . فجعلهم الله تعالى بقوله : ﴿ أ هم يقسمون رحمة ربك ﴾ يعنى النبوة فيضعونها حيث شاؤوا ، ويختارون لها من أرادوا ؟

ويرد التعبير على هذا السؤال : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ ، فالله - سبحانه وتعالى - قسم ووزع بينهم الرزق في الدنيا ، ولم يكل هذا الأمر إليهم (١) ، لعلمه - سبحانه - أنهم يعجزون عن تدبيره ؛ فكيف يفوض أمر النبوة إليهم - وهو أعلى شأنًا وأبعد شأواً من أمر الدنيا ؟ وكيف يتخبرون للرسالة من يشاؤون ؟ إنهم لا علم لهم بالله ، ولا بحكمه وشئونه وتدبيره ، وقد اصطفى لرسالته من شاء من عباده بإرادته وحكمته ، ولا معقب لحكمه .

﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ : فمنهم فاضل ومفضل ، ورئيس ومرؤوس ، ومالك ومملوك وغنى وفقير .

﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا ﴾ أى ليستخدم بعضهم بعضاً فى حوائجهم ، ويُسَخَّر بعضهم بعضاً فى مهامهم ، فيكون بينهم من التعاون والترافد ما ينتظم به أمر المعاش والعُمران ، ولو وكلنا ذلك إليهم لتهارجوا وتهاكوا ، واختل النظام وتقوض العمران . قال الشاعر :

الناس للناس من بدو وحاضرة . . . بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدماً

« سُخْرِيًّا » : المصدر من سَخَّرَ فلانٌ فلاناً أى كلفه بعمل ، وهكذا يكون بعضُ الناس سبباً

لمعاش بعض . قرأ ابن مُحَيِّصَن ومجاهد :

« سُخْرِيًّا » بكسر السين ، وقرأ الباقون بالضم . وأيضاً بالنسبة لكلمة « معيشتهم » فقد

قرأها مجاهد وابن مُحَيِّصَن « معایشهم » .

﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ أى أفضل مما يجمعون من الدنيا وحطامها - وفى هذا

تصغير لشأن الدنيا .

(١) قال قتادة : تلقاه ضعيف القوة قليل الخيلة عيب اللسان (لا يكاد يبين) وهو مبسوط له (موسع عليه فى الرزق) ، وتلقاه شديد الخيلة بسيط اللسان (لسن) وهو مُقْتَر عليه (فى الرزق) .

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

٣٦- الزخرف (٤٣)

عَشَا بَعَثُو عَشْوًا : ساء بصره ليلاً (١) . وعشا عن الشيء : ضعف عنه بصره فلم يره .
وعشا عن الشيء : أعرض ومضى عنه ، فشان من يتعمى عن ذكر الرحمن ولا ينظر في
حججه وآياته شأن من عشا بصره وأظلمت عينه كأن عليها غشاوة .

وجزاء مثل هذا الغافل عن ذكر الله أن ﴿ نقيض له شيطانا ﴾ أي نهى له شيطانا يستولى
عليه استيلاء القَيْض (٢) على البيض فيغويه ﴿ فهو له قرين ﴾ أي مُصاحب ومُلازم يمنعه من
الحلال ، ويبعته على الحرام ، وينهاه عن الطاعة ، ويأمره بالمعصية . قرأ السلمي وابن أبي
إسحاق ويعقوب عن عاصم وعن الأعمش : ﴿ يقيض ﴾ بالياء تعود على ﴿ الرحمن ﴾ أي
يقيض له الرحمن شيطانا .

قال أبو الهيثم والأزهري : عَشَوْتُ إِلَى كَذَا أي قصدته . وعشوتُ عن كذا أي أعرضت
عنه ؛ مثل مِلْتُ إِلَيْهِ ، ومِلْتُ عَنْهُ .

(١) قرأ ابن عباس وعكرمة : « ومن يعش » بفتح الشين ومعناه : يعمى ؛ عَشَى يَعْشَى عَشًا إِذَا عَمِيَ . وقال
الخليل : الْعَشْوُ هُوَ النَّظَرُ بِبَصَرٍ ضَعِيفٍ . وَالْعَشْوَاءُ : النَّاقَةُ الَّتِي لَا تَبْصُرُ أَمَامَهَا فَهِيَ تَخْبِطُ بِيَدَيْهَا كُلَّ
شَيْءٍ ، وَمِنْهُ . رَكِبَ فُلَانٌ الْعَشْوَاءَ : إِذَا خَبَّطَ أَمْرَهُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ ، وَمِنْهُ يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاءٍ .
(٢) الْقَيْضُ : الْقَشْرَةُ الْعُلْيَا الْيَابِسَةُ عَلَى الْبَيْضَةِ .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أى لأنهم كانوا كفاراً ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ أى مؤخرين إلى وقت آخر فى الدنيا ، بل عَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابُ . من الفعل أَنْظَرَهُ أى أخره وأمهله ، فالله لم يمهلهم إلى وقت آخر فى الدنيا كي يتوبوا ، ولم يمهلهم إلى يوم القيامة ، وإنما عَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ فى الدنيا .

ونورد ما قاله القرطبي من حديث شائق عن بكاء السماء والأرض . كانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ؛ أى عَمَّتْ مصبيته الأشياء حيث بكت السماء والأرض والرياح والبرق ، وبكته الليالى الشاتيات . قال يزيد بن مفرغ الحميرى :

فالرياح تبكى شجوها . . . والبرق يلمع فى الغمامه

وقال جرير :

والشمس طالعةٌ ليست بكاسفة . . . تبكى عليك نجوم الليل والقمر
وقالت الخارجية ترثى أخاها الوليد بن طريف (١) :

أيا شجرَ الآراك مَالِكَ مُورِقًا . . . كأنك لم تجزعْ على ابن طريف

قالت ذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه .

ومعنى ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يُتَقَدَّوا . وقيل : فى الكلام إضمار ، أى ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة ؛ كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ أى اسأل أهلها .

روى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه ثم تلا : « فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » . يعنى أنهم لم يعملوا على الأرض عملاً صالحاً تبكى عليهم لأجله ، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكى فقده .

(١) الخارجية هى لىلى بنت طريف الشيبانى قالت ذلك فى معرض رثائها لأخيها الوليد ، وكان رأس الخوارج وأشدهم بأساً وصولة .

وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا . قال أبو يحيى :
فعجبت من قوله . فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكى على عبد يعمرها بالركوع والسجود
! وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتسيحه وتكبيره فيها دوى كدوى النحل !

وقال عليُّ وابن عباس رضى الله عنهما : إنه يبكى عليه مُصَلَّاهُ (المكان الذى كان يصلى
فيه) من الأرض ومصعد عمله من السماء (المكان الذى كان يصعد منه عمله فى السماء) .
وتقدير الآية على هذا : فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من
الأرض .

وقال شريح الحضرمي قال النبي ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ
فطوبى للغرباء يوم القيامة » قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « هم الذين إذا فسد الناسُ
صَلَّحُوا » ثم قال : « ألا لا غربةَ على مؤمن وما مات مؤمن فى غربة غائبا عنه بواكيه إلا بكت
عليه السماءُ والأرضُ » ثم قرأ رسول الله ﷺ : « فما بكت عليهم السماء والأرض » ثم قال :
« ألا إنهما لا يبكيان على الكافر » .

وقال عطاء الخراسانى : ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت
له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت .

﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبَهُ
وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

٢٣ - الجاثية (٤٥)

﴿ على علم ﴾ : يجوز أن يكون حالا من المفعول (وهو الهاء في أضله أى الكافر) ، فيكون المعنى : أضله فى حال علم الكافر بأنه ضال . وفى هذا الصدد قيل : على علم من عابد الصنم أن الصنم لا ينفع ولا يضر . ويجوز أن يكون « على علم » حالا من الفاعل (الله) فيكون المعنى : أضله علما بأنه من أهل الضلال فى سابق علمه ، وفى هذا قيل : أضله على علم قد سبق عنده أنه سيضل . وقيل : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه .
﴿ وختم على سمعه وقلبه ﴾ أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى .

﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ أى غطاء حتى لا يبصر الرشد ولا الهدى .
﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ أى من بعد أن أضله . ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء .

والآية تعجب من اتخذ إلهه هواه ، أى جعل هواه معبوده يخضع له ويطيعه ، كما يخضع العابد لمعبوده : « أفأريت » أى أخبرنى ! أو انظرت من هذه حالته فأرأيت ! قال ابن عباس والحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئا إلا ركبه .
قال ابن عباس : ما ذكر الله فى القرآن هوى إلا ذمّه ؛ قال تعالى : « واتبع هواه فمثله كمثل الكلب » ١٧٦ - الأعراف ، وقال : « واتبع هواه وكان أمره فرطا » ٢٨ - الكهف ، وقال : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » ٥٠ - القصص ، وقال : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله » ٢٩ - الروم ، وقال : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ٢٦ - ص .

قال شداد بن أوس عن النبى ﷺ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » . وقال عليه السلام : « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة » . وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه والمنجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب » .

وسُئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هَوَانٌ سُرقت نَوْنُهُ ؛ فأخذ شاعر هذا المعنى ونظمه
قائلاً :

نُونُ الهوان من الهوى مسروقةٌ . . . فإذا هويت فقد لقيت هوانا
وقال عبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلَاءِ علامة . . . الأيُّرى لك عن هواك نزوعُ
العبد عبد النفس فى شهواتها . . . والحريشبع تارة ويجوع
وقال ابن دُرَيْدٍ :

إذا طالبتك النفسُ يوماً بشهوة . . . وكان إليها للخلاف طريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما . . . هواك عدوٌّ والخلاف صديق
وللعلماء فى ذم الهوى كتبُ وأبوابُ ، وحسبك بقوله تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه
ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ الآيتان ٤٠ و ٤١ من سورة النازعات .

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً ﴾

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴾ ٢٨ - الجاثية (٤٥)

الأمّة هنا : أهل كل ملة ودين .

جائية : مستوفزة ، والمستوفز هو الذى لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله .
وقال الحسن : جائية أى باركة على الركب ، والجئو : الجلوس على الركب ، جئا على ركبته
يجشو ويَجئو جئوا وجئيا .

﴿ وترى كل أمة جائية ﴾ : ويوم تقوم الساعة (فى الآية السابقة) ترى أهل كل ملة ودين
باركين على الركب عند الحساب من هول الموقف ، مستوفزين على هيئة المذنب المنتظر لما
يكروه .

﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ أى إلى حسابها . وقيل : إلى كتابها الذى كان يستنسخ فيه
ما عملت من خير وشر ، أى إلى سجل أعمالها الذى أمر الله الحفظة بكتابتها لتحاسب عليه .
وقيل : كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه .

وقرأ يعقوب الحضرمي « كل أمة » بالنصب على البدل من « كل » الأولى لما فى الثانية من
الإيضاح الذى ليس فى الأولى ؛ إذ ليس فى جئوها شىء من حال شرح الجئو كما فى الثانية
حيث ذكر السبب الداعى إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها .

﴿ مَا كُنْتُ بَدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بَدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا

يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ٩ - الأحقاف (٤٦)

﴿ ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ أى أول من أرسل ، قد كان قبلى رسل . فلست أول الرسل
الذين جاءوا بكتاب من عند الله ؛ بل كان قبلى رسل كثيرون أرسلوا بالكتب إلى أم قبلكم ،
فكيف تنكرون على ما جئتكم به ؟ يقال : هو بدع فى هذا الأمر ، أى أول لم يسبقه أحد .

أو ما كنت بديعاً منهم ؛ أى لست مبتدعاً لأمر يخالف ما جاءوا به من الدعوة إلى التوحيد
فهو صفة مُشبهة ، مثل خل بمعنى خليل ، من الابتداع وهو الاختراع .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴾ ١٣ - الأحقاف (٤٦)

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم ، وبين الاستقامة فى الدين التى هى منتهى العمل .

﴿ قالوا ربنا الله ﴾ : لا بد وأن يكون القول باللسان تعبيراً عما اشتمل عليه القلب ، واطمأنت به النفس ، وأذعن له الفؤاد قالوا : ربنا الله رعانا بإحسانه ، وحنفنا بلطفه ، وتكفل - تفضلاً منه سبحانه - بأسباب حياتنا .

﴿ ثم استقاموا ﴾ على شريعته فامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، ولزموا مَحَجَّته (٢) .

﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ : والخوف غم يلحق لتوقع المكروه ، والحزن غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار . والمعنى أن الله كتب لهم الأمن من كل غم فلن يذوقوه أبداً .

« ثم » حرف عطف يفيد التراخى ، واستخدم هنا لتراخى الاستقامة فى المرتبة عن الإقرار لله بالعبودية وفضلها عليه لأن الاستقامة لها الشأن كله (٣) ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أى : ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته . وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً . وعن عمر رضى الله عنه : استقاموا على الطريقة لم يروغوا وروغان الثعالب . وعن عثمان رضى الله عنه : أخلصوا العمل . وعن على كرم الله وجهه : أدوا الفرائض . وقال سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه : قلت يارسول الله أخبرنى بأمر أعتصم به . قال : « قل ربي الله ثم استقم » فقلت : ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه فقال « هذا » أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد ومسلم .

ولست قولة ﴿ ربنا الله ﴾ مجرد كلمة يلفظها اللسان ، وإنما هى منهج كامل للحياة : فله العبادة وإليه المتجه ومنه الخشية وعليه الاعتماد . وكل نشاط وكل تفكير وكل تقدير يقوم به العبد إنما يراعى فيه رضا الله . ولا احتكام إلا إلى الله ولا سلطان إلا لشريعته .

وتأتى بعد هذا الاستقامة والثبات على هذا المنهج : « ثم استقاموا » استقامة النفس وطمأنينة القلب والمشاعر ، فلا تضطرب ولا تتأرجح ولا تشك بفعل الدوافع والمؤثرات ودواعى الانحراف تأتى من هنا وهناك .

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ٣٠ - فصلت .

(٢) المَحَجَّةُ : الطريق المستقيم . (٣) راجع : الكشاف للزمخشرى .

﴿ وَأَصْلِحْ بِأَلْهِمْ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ كَقُرْآنٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْحَقُّ

مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرُ عَنْهُمْ سَوَابَهُمْ ﴾ وَأَصْلِحْ بِأَلْهِمْ ﴿ ٢ - محمد (٤٧))

﴿ أصلح بالهم ﴾ حالهم وشأنهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد . قال مجاهد : أصلح بالهم أى شأنهم ؛ وقال قتادة : حالهم ؛ وقال ابن عباس : أمورهم . والأقوال الثلاثة متقاربة وهى مؤولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم .

وحكى النقاش أن المعنى : أصلح نياتهم ^(١) ، وهو على هذا التأويل محمول على صلاح

دينهم .

والبال هو كالمصدر ، ولا يُعرف منه فعل ، ولا تجمع العرب إلا فى ضرورة الشعر فيقولون فيه : بالات . وقال المبرد : قد يكون البال فى موضع آخر بمعنى القلب ؛ يقال : ما يخطر فلان على بالى أى على قلبى .

﴿ وَأَصْلِحْ بِأَلْهِمْ ﴾ : يلقى التعبير ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضا والسلام . ومتى صلح البال ، استقام الشعور والتفكير واطمأن القلب والضمير ، وارتاحت المشاعر والأعصاب ، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام - ألا إنها نعمة ما بعدها نعمة .

(١) قال الشاعر :

فلإن تُقبلى بالود أقبل بمثله . . وإن تدبرى أذهب إلى حال باليا

﴿ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا
الْوَتَاكَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾

٤ - محمد (٤٧)

أوزار الحرب : آلاتها وأسلحتها التي لا تقوم إلا بها ومنها الكراع (الخيل) . قال
الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها . . . رماحا طوالاً وخيلاً ذكوراً

والأوزار جمع وزر وهو الثقل (١) ، وسمى السلاح أوزاراً وأثقالاً لثقل حمله .

﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ (٢) : حتى تلقى من يدها وتحط آلتها وأثقالها . وأسند
الوضع للحرب وهو لأهلها على سبيل المجاز .

وقيل فى معنى التعبير : ينقضى أمرها وتخف أثقالها فلا يبقى قتال ؛ وقيل : أوزارها
أثامها ، جمع وزر وهو الإثم ويعنى : حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم
ومعاصيهم بأن يسلموا .

﴿ فضرب الرقاب ﴾ : أصله فاضربوا الرقاب ضرباً ، فحذف الفعل وقدم المصدر لينوب
عنه وأضافه إلى المفعول ، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد . وضرب الرقاب عبارة عن
القتل ، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبة ، وفى هذه العبارة (ضرب الرقبة)
من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل ، لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حَزَّ
العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه أعضائه .

﴿ أثخنتموهم ﴾ بأن أكثرتم فيهم القتل ، وأخذتم من لم يقتل منهم أسرى بعد أن
أوهنتموهم بالجراح ﴿ فشدوا الوتاك ﴾ فأحكموا قيدهم (٣) حتى لا يفلتوا منكم ، ويعد ذلك
إما أن تمنوا عليهم فتطلقوهم أو تفادوهم .

(١) ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال .

(٢) ويقال : أعدوا أوزار الحرب : آلاتها .

(٣) الوتاك والوتاك : اسم ما يوثق به ويُقيد .

﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾
﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾

٢٤ - محمد (٤٧)

﴿ أقفالها ﴾ : جمع قُفْل ، وهو ما يُحَكَّم به الغلَق ، ويجمع أيضا على قفول .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ أى يتصفحونه ويراجعون ما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة ، حتى لا يجسروا على المعاصى . إنهم لم يتدبروا ولم يتفكروا ، فالسؤال استنكارى .

﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ : أم بمعنى بل وهمزة التقرير ، أى أن التعبير يقرر أن قلوبهم محكمة الغلق بالأقفال والمغاليق - وهو مجاز بليغ - فلا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الكفر . فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتجاج (استغلاق) القلب وخلوه عن الإيمان .

وتنكير القلوب : إما لتهويل حالها بآبها فى القساوة والجهالة فهى قلوب منكرة لا يعرف مثلها فى الغفلة والجمود ، وإما المراد بعض القلوب وهى قلوب المنافقين .

وإضافة الأقفال إلى القلوب فى قوله : ﴿ أقفالها ﴾ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لحالها من القسوة والفظاظة غير مشابهة لسائر الأقفال المعروفة .

إن تدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير .

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ٣٥ - محمد (٤٧)

﴿ فلا تهنوا ﴾ فلا تضعفوا عن قتال العدو ولا تذلوا له . والوهن : الضعف . وقد وهن الإنسان ووهته غيره : يتعدى ولا يتعدى وهن وهين : بالفتح وبالكسر .
السلم والسلم (بفتح السين وكسرها) : الصلح والمسالمة .

﴿ وأنتم الأعلون ﴾ أى الأغلبون القاهرون لعدوكم لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم فى الظاهر فى بعض الأحوال ، فأنتم الأعلون فى الحجّة وأنتم الأعلون بقوة الإيمان .

﴿ والله معكم ﴾ أى ناصركم ومعينكم ، وهى بشارة عظيمة بالنصر على الأعداء .

﴿ ولن يترككم أعمالكم ﴾ : لن ينقصكم من أعمالكم شيئا . وتر فلاناً يتره وترأ وتره : قتل حميمه (أباه أو أخاه أو ولده) . وتر فلاناً حقه وماله : نقصه إياه ؛ شبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر ، وهو من فصيح الكلام . ومنه قول النبى ﷺ : (من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله) ، متفق عليه من حديث ابن عمر ، والمعنى : كأنما أفرد عنهما (أى حرّم منهما) قتلا ونهيا .

قال قتادة فى معنى التعبير : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتهما بالموادعة^(١) ، فالله ينهى المؤمنين عن إظهار الضعف أمام الكافرين وعن الدعوة إلى مصالحتهم ومسالمتهم إلا إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى المسلمين ، ورأى الإمام فى المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ عام الحديبية حين صده كفار قريش عن دخول مكة للعمرة ، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم النبى إلى ذلك ، بل إن الله سمى ذلك الصلح فتحا مبينا : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ ١ - الفتح وهى إخبار عن صلح الحديبية فى رأى الجمهور .

(١) ضرّع إليه وله : ذلّ وخضع . والموادعة : المهادنة والمصالحة والمسالمة .

﴿ أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ٤ - الفتح (٤٨)

السكينة : الطمأنينة والثبات والسكون . سكنت النفس بعد الاضطراب : هدأت ، وسكن إليه : استأنس به واستراح إليه .

فالله - جلت قدرته وعظم فضله - سكب الطمأنينة في قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ، حيث يرى الجمهور أن سورة الفتح نزلت في صلح الحديبية وأن الفتح المبين في أول السورة هو صلح الحديبية ، فيسر الله لعباده المسلمين الأمن بعد الخوف والهدنة بدل القتال ، ليزدادوا يقينا برسوخ العقيدة في نفوسهم .

وقيل : أنزل في قلوب المؤمنين الاطمئنان إلى ما جاء به الرسول من الشرائع ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم . والرأى الأول أظهر . وأورد تفسير القرطبي قول ابن عباس : بعث النبي ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله فكان أول ما أتاهم به التوحيد ؛ فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة ؛ فلما صدقوه زادهم الزكاة ؛ فلما صدقوه زادهم الصيام ؛ فلما صدقوه زادهم الحج ؛ ثم أكمل دينهم ؛ فذلك قوله : ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ أى تصديقا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان

﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾

﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ

السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ

وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ٦ - الفتح (٤٨)

الدائرة في الأصل : ما أحاط بالشيء ، ثم استعملت في النازلة المحيطة بمن نزلت به - فأكثر استعمالها في المكروه .

سَاءَ فَلَانًا يَسُوؤُهُ سُوءًا وَسَوْءًا وَمَسَاءَةً : فعل به ما يكره ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ : دعاء عليهم بأن يحيق بهم من الهلاك والدمار ما يترى صونه بالمؤمنين . قال القرطبي : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ في الدنيا بالقتل والسبب والأسر ، وفي الآخرة بجهنم .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ دائرة السوء ﴾ بالضم .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى

الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴾ ١٧ - الفتح (٤٨)

كلمة حرج في هذا السياق تعنى : إثم . ومعنى التعبير : ليس على هؤلاء إثم في التخلف عن الجهاد ، لما بهم من الأعذار والمعاهات المرخصة لهم في التخلف عنه (أى عن الجهاد) .

قال ابن عباس : لما نزلت الآية السابقة (رقم ١٦) وهى قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ قال أهل الزمَّانة^(١) : كيف بنا يارسول الله ؟ فنزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ ... ﴾ الآية .

ذكر الله - سبحانه وتعالى - الأعذار المبيحة لترك الجهاد ، فمنها ما هو لازم كالعمى والعرج البين ، ومنها ما هو عارض كالمرض الذى يطرأ أياماً ثم يزول ، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ . وليس فى نفي الإثم عنهم نهى لهم عن الغزو ، بل قيل إن أجرهم مضاعف إذا خرجوا للقتال . ولقد غزا ابن أم مكتوم - رضى الله عن - وكان أعمى ، وحضر فى بعض حروب القادسية وكان يحمل الراية . كما غزا أحد العلماء (وهو أعمى) مع الجيش الإسلامى فى حرب التتار والصليبيين ، ولما سُئل عن ذلك وعما سيقدم من خدمات للجيش المقاتل قال : أكثرُ سواد المسلمين^(٢) وأحرُس متاعهم وأحرضهم على القتال ، وأستجيب لقول الله : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾^(٣) .

(١) الزمَّانة : المرض الذى يدوم زماناً طويلاً . والفعل منه زَمَنَ يَزِمُنُ زَمَانًا وَزَمَانَةً

(٢) أزيد فى عدد المسلمين واحداً .

(٣) ٤١ - التوبة .

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ٢٩٩ - الفتح (٤٨)

الشَّطْءُ: الطرف والجانب . وشطءُ الزرع : فروخه ، وهو ما خرج منه وتفرع في شطبيه أي جانبيه . يقال : أشطا الزرع إذا فرخ . فأزره : فأعانه وقواه .
فاستغلظ : فغلظ .

فاستوى على سوقه : استقام على سوقه ، والسوق جمع : الساق .

معنى التعبير : وَصَفَهُمُ الْإِنْجِيلِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى سَيِّدِنَا عِيسَى وَالَّذِي بَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَصَفَهُمْ وَشَبَّهَهُمْ بِزَرْعٍ أَخْرَجَ فِرَاخَهُ مِنْ أَغْصَانٍ وَأَفْئَانٍ وَأُورَاقٍ ، فَتَفَرَّعَتْ فِي جَانِبَيْهِ فَأَعَانَهُ ذَلِكَ وَقَوَاهُ فَامْتَلَأَ الزَّرْعُ وَغَلِظَتْ سَيِّقَانُهُ ، وَاشْتَدَّ وَاسْتَقَامَ وَانْتَصَبَ قَوِيًّا سَوِيًّا .
هذه صورة الزرع في ذاته ، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة وهم الزراع الذين يعرفون جيده ورديته والمثمر منه والبائر ، فهو وقع البهجة والإعجاب « يعجب الزراع » .

ونقل « التفسير الوسيط » عن قتادة قوله : مكتوب في الإنجيل : سيخرج قوم يشبهون نبات الزرع ، يخرج منهم قوم يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر . نقول : وعلى هذا يكون الوصف للصحابة .

وفي إحدى القراءات « يعجب الزراع » وهو رسول الله ﷺ ، صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج . وأما وقعه في نفوس الكفار فهو وقع الغيظ والكمد : ﴿ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ وقرئ شطأه بفتح الطاء .

يخبر سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقا بلا شك فقال « محمد رسول الله » مبتدأ وخبره .

ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون الواحد منهم شديداً على الكافر ، رحيماً براً بأخيه المؤمن . « والذين معه » مبتدأ وخبره أشداء على الكفار أما ﴿رحماء بينهم﴾ فخير ثان^(١) .

﴿ تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ : وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة ، وهى خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل واحتساب جزيل الثواب عند الله تعالى وهو الجنة المشتملة على فضل الله وسعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من كل ما عدها ، كما قال : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ .

﴿ سيماهم ﴾ أى علامتهم مبتدأ وخبره ﴿ فى وجوههم ﴾ وعلامتهم نور وبياض فى الوجوه يعرفون به فى الآخرة أنهم سجدوا فى الدنيا . وقال مجاهد : سيماهم فى وجوههم يعنى الخشوع والتواضع . وقيل السميت الحسن . وقال بعض السلف : من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار . وقال بعضهم : إن للحسنة نوراً فى القلب وضياء فى الوجه وسعة فى الرزق ومحبة فى قلوب الناس . وروى عن عمر رضى الله عنه قال : من أصلح سريره أصلح الله تعالى علانيته .

وقال الزمخشري : المراد بالسيما السمة التى تحدث فى جبهة السجاد من كثرة السجود ، وقوله تعالى « من أثر السجود » يفسرها ، أى من التأثير الذى يحدثه السجود ، وقري : من آثار السجود . والحديث ليس على من يعتمد بجبهته على الأرض ليحدث فيها علامة رياءً ونفاقاً ، وإنما على ما يحدث فى جبهة السجّاد الذى لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله تعالى .

« ذلك » مبتدأ وتشير إلى الوصف المذكور قبله ، وخبره : « مثلهم فى التوراة » .

(١) ورد فى الصحيح عن النبى ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحوى والسهر » وقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه .

﴿ لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ١ - الحجرات (٤٩)

يقال : قَدَّمَ فلانٌ بين يدي فلان : سبقه بالقول أو الحكم . ﴿ لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى لا تتقدموا فتسبقوهما بقول أو حكم . مَثَلُ التَّعَجُّلِ فِي الإِقْدَامِ عَلَى الحِكْمِ فِي أمر من الأمور الدينية بغير إذن من الله ورسوله ، مَثَلُ هذا التَّعَجُّلِ بحالة من تقدم بين يدي متبوعه إذا سارا في طريق أى مشى قُدَّامَه ، وهذا مُسْتَهْجَنٌ فلا يجوز للتابع أن يمشى قُدَّامَ متبوعه (سيده أو رئيسه ، الخ) (١) .

« تقدموا » : فعل متعدى يأخذ مفعولا به ، وحذف مفعوله في هذا التعبير قصدا إلى التعميم في كل قول وفعل .

﴿ لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لأن من قدم قوله أو فعله على الرسول ﷺ فقد قدمه على الله تعالى ، لأن الرسول ﷺ إنما يأمر عن أمر الله عز وجل . قال العلماء كان في العرب جفاءً وسوءُ أدب في خطاب النبي ﷺ وتلقيب الناس . فالسورة في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فإنكم إن اتقيتموه منعتكم التقوى عن أن تسبقوا رسول الله في أى قول أو حكم ، وعن جميع ما تقتضى مراقبة الله تجنبه ، فإن التقى حَذْرٌ لا يُشَافِهُ أمرا أى لا يتشاغل بأمر إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تَبِعَةَ عليه فيه .

(١) جاء في « التفسير الوسيط » : يشتمل هذا التعبير على صورة بلاغية ، حيث استعير التقدم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم في أمر دون اقتداء بكتاب الله ورسوله ، تصويرا لشناعته بصورة المحسوس . فمثله كمثل تقدم الخادم بين يدي سيده في سيره . والمراد من الآية : لا تقطعوا أمرا ولا تجرؤوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله فيه ورسوله ، فإن ذلك شديد القبح كالذى يسبق سيده في سيره .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

٦ - الحجرات (٤٩)

فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ مِنْ قَشْرِهَا إِذَا خَرَجَتْ (١) . وَفَسَقَ فُلَانٌ فِي الدُّنْيَا فَسَقًا : اتَّسَعَ فِيهَا وَلَمْ يَضِيْقْهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ . وَفَسَقَ فُلَانٌ مَالَهُ إِذَا أَهْلَكَهُ بِإِنْفَاقِهِ .

وقد نُقِلَ أَنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ فِي كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ كَلِمَةُ « فَاسِقٌ » لَكِنْ جَاءَ الْإِسْلَامَ وَأَكْسَبَ الْكَلِمَةَ مَعْنَى جَدِيدًا ، فَقَدْ جَاءَ الشَّرْعُ بِأَنَّ الْفَسْقَ هُوَ الْإِفْحَاشُ فِي الْخُرُوجِ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَعُدَّتْ الْكَلِمَةُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي نَقَلْتُ عَنْ مَوْضِعِهَا إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ بِزِيَادَاتٍ زِيدَتْ وَشَرَايِعَ شَرَعَتْ وَاشْتِرَاطَاتٍ شَرَطَتْ ، وَهُوَ مِثْلُ مِنَ التَّطَوُّرِ اللَّغَوِيِّ لِذِلَالَةِ الْكَلِمَاتِ .

وبهذا المعنى الإسلامي استعمل الفسق في القرآن مقابلاً للإيمان ؛ واستعمل بمعنى الكفر : ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) ؛ وبمعنى النفاق : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) ؛ وبمعنى الضلال : ﴿ فَمِنْهُمْ مَهْتَدٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٤) ؛ واستخدم أيضاً ليعنى أنواعاً من العصيان . وبهذا كان الفسقُ أعمَّ من الكفر (٥) . « فتبينوا » صدقُ النبأ من كذبه . وفي قراءة « فتثبتوا » (٦) والتثبت والتبين متقاربان ، وهما طلب البيان والثبات والتعرف .

﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ : إِنْ جَاءَكُمْ مِنْ يَحْتَمِلُ فَسْقَهُ وَكَذَبَهُ بِخَبَرٍ مَا ، فَتَبَيَّنُوا صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ لِثَلَاثِ تَصْيِيوَاتٍ أَنْاسَا وَتَعَدَّدُوا عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ جَاهِلُونَ لِلْحَقِيقَةِ ، فَتَنَدَّمُوا عَلَى تَسْرِعِكُمْ فِي تَصْدِيقِ الْخَبَرِ الْكَاذِبِ وَعَلَى مَا اقْتَرَفْتُمْ مِنْ اعْتِدَاءِ ظَالِمٍ عَلَى أَوْلِيَاءِهِ .

في تنكير « فاسق » و « نبأ » : شمولٌ لكل فاسقٍ ولكل نبأ ، كأنه قال : إِنْ جَاءَكُمْ أَيْ فَاسِقٌ بِأَيِّ نَبَأٍ ، لِأَنَّ النُّكْرَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ تَعْمُرُ .

(١) ومن مقلوبه : قفست البيضة ، إذا كسرتها وأخرجت ما فيها . ومن مقلوبه أيضاً : قفست الشيء إذا أخرجته عن يد مالكه معتصباً له ، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق .

(٢) ٩٩ - البقرة . (٣) ٦٧ - التوبة .

(٤) ٢٦ - الحديد .

(٥) راجع : « معجم ألفاظ القرآن الكريم » ، مجمع اللغة العربية .

(٦) قراءة حمزة والكسائي وابن مسعود .

« أن تصيبوا » : مفعول له أى كراهة إصابتكم . « بجهالة » حال ^(١) ، يعنى جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة . « فتصبحوا » من الإصباح بمعنى الصيرورة . « نادمين » : الندم ضرب من الغم ، وهو أن تغتم على ما وقع منك وتتمنى أنه لم يقع ، وهو غمٌ يصحب الإنسانَ صحبة لها دوام ولزام ، لأنه كلما تذكر المُتَنَدِّمَ عليه راجعه الندم . والندم من الندام وهو ملازمة الشَّرِّيبِ (المولع بالشرب) ودوام صحبته ، ومنه النديم : المصاحب على الشَّرِّيبِ المسامر ^(٢) .

وقال القرطبي فى تفسير : ﴿ أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ أى لثلاث تصيبوا ؛ فـ « أن » فى محل نصب بإسقاط الخافض . « قوما بجهالة » أى بخطأ ، فتندموا على العجلة وترك التأنى .

(١) هكذا أعربه الزمخشري ، وأضاف : كقوله تعالى : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم ﴾ .
(٢) ومن مقلوباته : أذمن الأمر ، أدامه ؛ ومدن بالمكان : أقام به .

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾

٤- ق (٥٠)

نَقَصَ الشَّيْءُ يُنْقِصُ نَقْصًا وَنُقْصَانًا : خَسَّ وَقَلَّ . ويقال : نَقَصَ عَقْلَهُ أَوْ دِينَهُ : ضَعَفَ .

ونقص الشيء : صَيَّرَهُ نَاقِصًا . ويقال : نَقَصَهُ أَي أذْهَبَ مِنْهُ شَيْئًا وَاقْتَطَعَ مِنْهُ جِزَاءً .

فالفعل نقص لازم ومتعد . وهو فى هذا التعبير « تنقص الأرض منهم » بمعنى : تقتطع الأرض من أبدانهم .

﴿ مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أى ما تَأْكُلُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ ، فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَطُفٌ عَليمه وَدَقٌّ حَتَّى تَغْلُغِلَ إِلَى مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِ الْمَوْتَى وَتَأْكُلَهُ مِنْ لَحُومِهِمْ وَعِظَامِهِمْ ، فَلَا يَضِلُّ عَنَّا شَيْءٌ ، فَكَيْفَ يَسْتَبْعِدُونَ أَنْ نَرْجِعَهُمْ أَحْيَاءَ كَمَا كَانُوا - يُشِيرُ إِلَى مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ اسْتِبْعَادِهِمُ الرُّجْعَ وَالْإِعَادَةَ وَالْقِيَامَةَ : ﴿ أَئِنَّمَا لَكُمُ التُّرَابُ ﴾ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ .

﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أى وَعِنْدَنَا ، مَعَ عَلْمِنَا بِمَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، كِتَابٌ حَافِظٌ لِتَفَاصِيلِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا : كَلِمَاتِهَا وَجِزَائِهَا . وَمِنْهَا أَجْزَاؤُهُمْ وَعَدَدُهُمْ وَأَسْمَاؤُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ . وَهُوَ تَأْكِيدٌ لِعَلمه تَعَالَى بِهَا بِشَوْتِهَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ .

وقال السدى : النقص هنا الموت . يقال : قد علمنا من يموت منهم ومن يبقى ، لأن من مات دُفِنَ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّ الْأَرْضَ تَنْقُصُ مِنَ النَّاسِ .

﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فتولّى برُكْنَه وَقَالَ

سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٨ ، ٣٩﴾ - الذاريات (٥١)

رُكْنُ الشَّيْءِ : جانبه الأقوى . والركن جانبُ البدن .

« فتولّى برُكْنَه » : فازورَّ وأعرض ، كقوله تعالى : ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ ، وهذا عبارة عن المبالغة في الإعراض عن الشيء .

وقيل : برُكْنَه أى بجموعه وأجناده (جنوده) ، فالركن تعنى : المنعة والعشيرة . وقال ابن عباس وقتادة : برُكْنَه أى بقوته . ومن ذلك قول عنترة :

فما أوْهَنَ مِرَاسُ الحَرْبِ رُكْنِي

ولكن ما تقادم من زمانى

« وفي موسى » أى وتركنا أيضاً فى قصة موسى آية .

﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى بحجة بينة هى العصا وغيرها من المعجزات ، فأعرض فرعون عن الإيمان .

﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ : « أو » بمعنى الواو ، لأن قوم فرعون قالوا الصفتين عن موسى . وقد توضع « أو » بمعنى الواو كقوله تعالى : ﴿ ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً ﴾ ، والواو بمعنى « أو » كما فى قوله تعالى : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ .

﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِيمَانٌ ﴾ (١)

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ

عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ أَمْرٍ إِيمَانٌ ﴾ ٢١ - الطور (٥٢)

رَهْنَتُهُ الْمَتَاعَ (٢) بِالَّذِينَ أَرْهَنَهُ رَهْنًا : حَبَسْتَ الْمَتَاعَ عِنْدَهُ أَى أَوْدَعْتَهُ عِنْدَهُ لِيُنِيبَ مِنْ

الَّذِينَ ، وَكَذَلِكَ رَهَنْتَ الشَّيْءَ عِنْدَهُ فَهُوَ مَرْهُونٌ وَرَهِينٌ .

﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِيمَانٌ ﴾ أى كل إنسان مرهون عند الله بكسبه كأن الكسب بمنزلة

الدين ، ونفس العبد بمنزلة الرهن - ولا ينفك الرهن ما لم يؤدِّ الدين بالعمل الصالح . وفى «

تفسير الجلالين » : كل امرئ بما كسب من عمل خير أو شر مرهون : يؤاخذ بالشر ويجازى

بالخير . وقال ابن كثير فى « تفسير القرآن العظيم » : كل امرئ مرتهن بعمله : لا يُحْمَلُ عَلَيْهِ

ذنبٌ غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً ، فلا يؤاخذ أحدٌ بذنب أحد ، كما قال تعالى : ﴿ كل

نفس بما كسبت رهينة ﴾ والرهينة ما يُرهن ، وهو فى الأصل وصفٌ غلبت عليه الإسمية

كالنطيحة والذبيحة . ومما قاله الزمخشري فى معنى التعبير : كأن نفس العبد رهن عند الله

بالعمل الصالح الذى هو مطالب به . . . فإن عمل صالحاً فكها وخلصها ، وإلا أوبقها (أى

أوردها موارد الهلاك) .

هذا هو مقام العدل : لا يؤاخذ أحدٌ بذنب أحد . وهناك مقام الفضل وهو رفع درجة

الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل عملته الذرية يقتضى ذلك ؛ ونقصد بذلك فضل الله

تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، يقول تعالى فى صدر الآية : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم

ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ مخبراً عن فضله وكرمه وامتنانه وإحسانه أن المؤمنين إذا

اتبعتهم ذرياتهم (أى نسل الإنسان وأولاده) فى الإيمان فإن الله يلحق الأبناء بالآباء فى المنزلة

حتى وإن كان عمل الأبناء أقل من عمل الآباء ولا يؤهلهم عملهم للوصول إلى منزلة الآباء ،

ففى الحديث :

« إن الله يرفع ذرية المؤمن فى درجته (٣) وإن كانوا دونه لتقربهم عينه » ثم تلا هذه الآية .

أخرجه البزار وابن عدى ، وأبو نعيم فى الحلية ، والثعلبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس

مرفوعاً . وهكذا يجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم فى أنفسهم وباجتماع أولادهم

ونسلمهم به .

(١) قريب منه قوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ ٣٨ - المدثر .

(٢) المتاع : كل ما يُتَّعَّع به ويُرْعَب فى اقتنائه كالطعام وأثاث البيت والسلعة والأداة .

(٣) أى إلى درجته .

﴿ واتبعتهم ذريتهم بإيمان ﴾ كأنه قال بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء . قال الحافظ الطبراني : حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا محمد بن عبد الرحمن ابن غزوان حدثنا شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أظنه عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فقال إنهم لم يبلغوا درجاتك فيقول يارب قد عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » وقرأ ابن عباس الآية .

﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ وما نقصناهم أى الآباء شيئاً من عملهم وثواب عملهم عندما تفضلنا ورفعنا درجة أبنائهم ليصلوا إلى درجاتهم ويلتحقوا بهم ، أى لم يكن هذا الرفع لدرجة الأبناء على حساب الآباء وإنما ظل ثواب عمل الآباء كاملاً غير منقوص .

هذا فضل الله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء . وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء ، فقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول يارب أنى لى هذه ؟ فيقول باستغفار ولدك لك » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبي ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

﴿ تَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴾

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴾ ٣٠ - الطور (٥٢)

رَبَّصَ بِالشَّيْءِ رَبَّصًا : انتظره به خيرا أو شرا يحل به .

تَرَبَّصَ بِهِ أَمْرًا : انتظره يتوقعه له .

والرَّيْبُ : الحادث من حوادث الدهر يَفْجَأُ النَّاسَ وَلَا يَسْتَيْقِنُونَ بِوَقْتِ وَقُوعِهِ . ومنه رَبَّيْبُ الْمُنُونِ .

والمنون : الدهر والزمن لأنه يقطع الأعمار مُبْضِيَةً ، من الفعل مَنَّ الشَّيْءُ يَمُنُّهُ مَنَّا أَي قَطَعَهُ وَالْمُنُونُ أَيضًا الْمَوْتُ لِأَنَّهُ يَقْطَعُ الْأَعْمَارَ .

« رَبِّبَ الْمُنُونِ » : ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر .

فكفار قريش يقولون عن النبي ﷺ إنه شاعر ويضيفون : ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه . ولكن الله يلقي الرسول أن يرد عليهم في تهديد ملفوف : ﴿ قَلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴾ وستعلمون من تكون له العاقبة ، ومن ينتهي به الانتظار إلى النصر .

﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ٤٨ -

الطور (٥٢)

ومع التوجيه إلى الصبر إيدان بالإعزاز الرباني والعناية الإلهية ، والأنس الكريم الذى يُنسى المشقة والصعاب : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وياله من إعزاز ! وياله من تعبير يصور التقدير والإعزاز فى أسمى درجاتهما .

إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان . هذه المرتبة التى يصورها هذا التعبير الفريد فى القرآن كله .

إنه تعبير فريد بين كل التعبيرات المشابهة . قيل لموسى عليه السلام : « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني » ، وقال له ربه : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ ، وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة . لكن محمدا ﷺ ، قيل له : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وهو تعبير فيه إعزاز خاص وأنس خاص . وهل يلقى ظلاً أرق وأشف من كل ظل . ولا يملك التعبير البشرى أن يترجم هذا التعبير الخاص - وحسبنا أن نتملاه وأن نتفياً ظلاله .

ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة بربه : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ فعلى مدار اليوم ، عند اليقظة من النوم ، وفى ثنايا الليل ، وعند مغيب النجوم فى الفجر يكون تسيحك لله متصلاً ومقروناً بحمده - فالتسييح زاد وأنس ومناجاة للقلوب .

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾

٩ - النجم (٥٣)

القاب : المقدار . والقاب من القوس : ما بين المقبض وطرف القوس ، وهما قابان . يقال : بينهما قابُ قوس ، كناية عن القرب .

« فكان قاب قوسين » أى طول أو مقدار قوسين ، أو أراد قَابَيْ قوس قلبه .

وقال سعيد بن جبير وعطاء : « فكان قاب قوسين » أى قدر ذراعين والقوس الذراع يقاس بها كل شيء ، وهى لغة بعض الحجازيين .

ونورد السياق القرآنى الذى ورد فيه التعبير مع شيء من الشرح حتى يزداد معنى التعبير وضوحا .

﴿ وما ينطق ﴾ الرسول ﷺ بما ينطق به من قرآن عن هوى نفسه ورأيه . ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ إليه من الله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾ علم النبى ﷺ الوحي أو القرآن شديد القوى وهو جبريل عليه السلام (١) . « ذومرة » ذو حصافة واستحكام فى عقله ورأيه أو ذو منظر حسن ﴿ فاستوى ﴾ فاستقام وظهر فى صورته الملائكية فى ناحية المشرق (٢) . ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ بالجهة العليا من السماء فسَدَّ الأفق إلى المغرب .

﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ أى دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى ، دنا وقرب من الأرض ومن النبى ﷺ وزاد فى القرب منه حتى كان أقرب شيء إليه كما قال تعالى ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ والدنو : الاقتراب ؛ والتدلى : أصله النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب (٣) ؛ فكانت المسافة بينه وبين النبى ﷺ مقدار ذراعين عربيتين ، بل أقرب .

(١) بلغ من شدة قوته أن اقتلع قُرى قوم لوط ورفعها إلى السماء ثم قلبها . وصاح بشمودَ صحيحة أهلكتهم .

وكان هبوطه على الأنبياء وعروجه إلى السماء فى أسرع من رجع الطرف .

(٢) وكان النبى ﷺ عند حراء فى مبادئ النبوة .

(٣) قال لبيد

فَتَدَلَّيْتُ عَلَيْهِ قَافِلًا وَعَلَى الْأَرْضِ غِيَابَاتُ الطُّفْلِ

البيت فى وصف فرس . أراد أنه نزل من مربأته وهو على فرسه راكب .

وقال القرطبي : لما رأى النبي ﷺ من عظمة جبريل وهو على صورته الأصلية (١) (سَادًا الأفق من المشرق إلى المغرب) ما رأى ، وهاله ذلك ، رَدَّه الله إلى صورة آدمي حين قرب من النبي ﷺ بالوحي .

ورد هذا التعبير مرة واحدة في القرآن الكريم .

(٢) جاء في « صفوة البيان لمعاني القرآن » : كان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة آدمية ، فسأله أن يُريه نفسه على الصورة التي جُبل عليها . فأراه نفسه مرتين : مرة في الأرض ومرة في السماء . ولم يره أحد من الأنبياء على صورته التي خُلِقَ عليها إلا نبينا ﷺ ، وهذه المرة أولاهما ، فَمَحَّرَ النبيُ مَغْشِيَا عَلَيْهِ . فنزل جبريل متمثلاً في صورة آدمية وضمَّه إلى نفسه حتى أفاق وسكن روعه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ أى قُرْبُ جبريل من النبي حتى كان أقرب ما يكون إليه .

﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ٣٩ - النجم (٥٣)

سَعَى يَسْعَى سَعْيًا : تصرف في أى عمل كان .

معنى التعبير في رأى أكثر أهل التأويل (كما جاء في تفسير القرطبي) أن الآية محكمة ولا ينفع أحدًا عملُ أحد ، وأجمعوا أنه لا يصلى أحدٌ عن أحد . وتبعاً لهذا الرأى : لا يثاب أحدٌ بعمل غيره ، كما لا يؤاخذ بذنب غيره .

فالأية السابقة وهى : ﴿ ألا تزر وازرة وزرًا أخرى ﴾ فسرهما ابن كثير بقوله : أى كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شىء من الذنوب فإنما عليها وزرها (أى إثمها وذنبها) لا يحملها عنها أحد ، كما قال : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾ ١٨ - فاطر وفسر ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فقال : كما لا يُحمل عليه وزرٌ غيره كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه . وتابعه فى ذلك صاحب الظلال فقال : لا يحسب للإنسان سوى كسبه وسعيه وعمله ، لا يُزاد عليه شىء من عمل غيره ، ولا يُنقص منه شىء لينا له غيره . وهذه الحياة الدنيا هى الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى ، فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل ، إلا ما نص عليه حديث رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به » رواه مسلم . ويعلق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وهذه الثلاثة هى فى الحقيقة من سعيه وكده وعمله كما جاء فى الحديث : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه . والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه ، والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضا من سعيه وعمله ، وثبت فى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا » ورد هذا التعبير مرة واحدة فى القرآن الكريم .

والآية التالية : ﴿ وأن سعيه سوف يُرى ﴾ أى يوم القيامة ^(١) والآية التى بعدها :

﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أى كاملا غير منقوص ، هاتان الآيتان تؤكدان ما جاء فى التعبير من معنى فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء . فتحقق للإنسان قيمته الإنسانية القائمة على اعتباره مخلوقا راشدا مسئولا مؤتمنا على نفسه .

أما الدعاء والصدقة فذاك مُجمع على وصولهما (أى إلى من توجهان إليه) ومنصوص من الشارع عليهما ، قاله ابن كثير فى تفسيره ، وسنده ما جاء فى حديث : « إذا مات

(١) كما فى قوله تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أى يخبركم به ويحزبكم عليه .

الإنسان» الذى أوردناه آنفا ؛ ويعضده ما جاء فى تفسير القرطبي من أن سعد ابن عبادة قال للنبي ﷺ: إن أمى توفيت أفأ تصدق عنها؟ قال: « نعم » قال: فأى الصدقة أفضل؟ قال: « سقى الماء » .

وهناك فريق من العلماء يرى أن الإنسان ينتفع بعمل غيره . ويتحمس لهذا الرأى الشيخ حسين مخلوف فى كتابه « صفوة البيان لمعانى القرآن » حيث نقل خلاصة بحث فى هذا الأمر كتبه شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الذى قال: ومن اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد حرق الإجماع . وذلك أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره . وأن النبي ﷺ يشفع لأهل الموقف فى الحساب . وأن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن فى الأرض . وأن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم . وفى قصة الغلامين اليتيمين « وكان أبوهما صالحا »^(١) فانتفعا بصلاح أبيهما إذ بسبب صلاحه حفظ الله لهما كنزهما وهما صغيران حتى كبرا وبلغا أشدهما . وأن الميت ينتفع بالصدقة عنه وأن الحج المفروض يسقط بحج وليه وذلك بنص السنة . وأن أبو قتادة وعلي بن أبى طالب قضيا الدين عن مدينتين . وأن من عليه تبعات ومظالم إذا حلل منها سقطت عنه . والصلاة على الميت والدعاء له فيها إنما هو انتفاع للميت بصلاة الحى عليه . والجمعة تحصل باجتماع العدد وكذا الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع للبعض بالبعض . ويعلق ابن تيمية على كل واحدة من هذه الأمور بقوله إنه انتفاع بعمل الغير .

وهناك قول حسن جيد فى هذه القضية أوردته القرطبي فى تفسيره وهو: إن الله عز وجل إنما قال: « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ولام الخفض (فى قوله للإنسان وهى لام الجر) معناها فى العربية المملك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى . فإذا تصدق عنه غيره فليس يجب له شىء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له .

وننقل كذلك رأيا للقرطبي نفسه فى هذه القضية حيث قال: ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ خاص فى السيئة بدليل ما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « قال الله عز وجل إذا همَّ عبدى بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة فإن عملها كتبها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبها سيئة واحدة » .

(١) « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » ٨٢ - الكهف .

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةٍ بِالْبَصْرِ ﴾ ٥٠ - القمر (٥٤)

﴿ وما أمرنا إلا واحدة ﴾ أى إلامرة واحدة .

﴿ كَلِمَةٍ بِالْبَصْرِ ﴾ أى قضائى فى خلقى أسرع من لَمَحِ البصر ، وما أمرنا فى خلق الأشياء إلا كلمة واحدة هى : « كن » ، فتوجد كلمح البصر فى السرعة . ونظيره : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

واللَمَحُ : النظرة العَجَلَى ، ويقال : رأيتُه لمحة البرق : قدر لمعة البرق من الزمان . ويقال أيضا : لَمَحَ البرق بيبصره . وفى الصحاح : لَمَحَهُ وألحه إذا أبصره بنظر خفيف .

وقيل فى تفسير هذا التعبير : وما أمرنا فى قيام الساعة إلا كلمة واحدة ، فتقوم كلمح البصر ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ (٢) .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾

٥٢ ، ٥٣ - القمر (٥٤)

هذا التعبير امتد ليشمل آيتين ، إذ أن الآية الثانية تؤكد ما جاء فى الآية الأولى من معنى .

﴿ الزُّبُرِ ﴾ : جمع زُبُور ، والزبور هو الكتاب المزبور أى المتقن الكتابة . زَبَّرَ الكتاب يَزْبُرُهُ زَبْرًا : أتقن كتابته .

﴿ وكل شىء فعلوه فى الزبر ﴾ أى جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر كان مكتوبا عليهم فى كتب الحفظَة من الملائكة . وقيل « فى الزبر » أى فى اللوح المحفوظ .

﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ : مكتوب ، والفعل استطر : كتب « وكل صغير وكبير مستطر » أى وكل صغير وكبير من الأمور والأعمال ، ومنها الذنوب ، مسطور عندنا ومحصى على صاحبه .

(١) ٨٢ - يس .

(٢) ٧٧ - النحل .

يمتد هذا التعبير ليشمل آيتين .

﴿ علم القرآن ﴾ : الفاعل يعود على الرحمن ، فهو الذى علم القرآن ، ولم يذكر فى الآية من الذى علمه الرحمن القرآن . قيل : هو رسوله ﷺ ، فإنه أول من تعلمه من البشر ، ثم علمه ﷺ الصحابة ، والصحابة علموه من بعدهم ، وهكذا .

والمراد من تعليم القرآن : تعليم ألفاظه ومعانيه على وجه يعتد به ، وقد يصل العلم بمعانيه إلى العلم بالحوادث الكونية من إشاراته ورموزه فإن الله لم يغفل شيئا فيه . أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود : أنزل الله فى القرآن علم كل شىء ، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا فيه .

وقد أسندت نعمة تعليم القرآن وغيرها من النعم التى وردت فى هذه السورة إلى «الرحمن» الذى هو أحد أسماء الله الحسنى للتبنيهِ إلى أن تعليم القرآن من آثار رحمته الواسعة .

كما أن السورة بدأت بكلمة «الرحمن» لأن الله الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء ، بل هو أرحم بالعبد من نفسه ، ذكر - سبحانه - فى هذه السورة كثيرا من نعمه وآياته . وبدأ أول ما بدأ بنعمة تعليم القرآن ، لأنه أعظم النعم شأنا وأرفعها مكانة ، فعليه تدور السعادة الدنيوية والأخروية ، فما من غاية تنتهى إليها آمال الأمم إلا موجودة وسائلها فيه . وهو منهج الحق وصراطه المستقيم . وهو هدى وشفاء ، وأمان ونور للناس فى دينهم ودنياهم . وهو آية الآيات على نبوة نبينا محمد ﷺ إلى يوم القيامة .

وقد تكفل الله بحفظه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١) .

﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ٤٦ - الرحمن (٥٥)



﴿ مقام ﴾ : مصدر ميمي معناه : قيام ، أى ولمن خاف قيام ربه وهيمته عليه يوم القيامة ، وذلك هو المقصود من قوله تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ (١) أى : أفمن هو رقيب على كل نفس ، حفيظ عليها ، عالم بما عملت من خير أو شر ، فمجازيها به ، كمن ليس كذلك ، والاستفهام إنكارى وجوابه : ليس كذلك . فمعنى ﴿ خاف مقام ربه ﴾ : خاف قيام ربه عليه أى اشرافه واطلاعه على كل أعماله .

وقيل : خاف قيامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية ، فالمراد بالمقام مكان وقوف الخلق وقيامهم عند ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، وإضافة المقام للرب - سبحانه - لأنه لا سلطان فيه لغيره - جل وعلا .

والخوف من الله - تعالى - هو خوف من حسابه وعقابه على فعل المعاصى وترك الطاعات ، فيحمله هذا الخوف على تقوى الله .

والجنتان لكل واحد من المتقين ، إحداهما منزله ومحل زيارة أحبائه ، والأخرى منزل أزواجه وخدمه ، كما يفعله الرؤساء والمترفون فى الدنيا . وقيل : بستانان أحدهما داخل قصره والآخر خارجه .

قيل : نزلت فى أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، إذ ذكر ذات يوم وفكر فى القيامة والموازنين والجنة والنار ، وصفوف الملائكة وطى السماء ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتشار الكواكب ، فقال : وددت أنى كنت خضرا من هذه الخضرة ، تأتى على بهيمة فتأكلنى وأنى لم أخلق ، فنزلت : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ ، لكن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، فهى لكل خائفٍ مقام ربه .

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ ٦٠ - الرحمن (٥٥)

﴿ هَلْ ﴾ تأتي في الكلام على عدة وجوه منها : أن تكون للاستفهام كما في قوله تعالى : ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ﴾ . أو تكون بمعنى قد كما في قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ . أو تكون بمعنى ما في الجحد ، كما في هذه الآية .

ومعنى التعبير : هل جزاء الإحسان في الطاعة إلا الإحسان في الثواب ؛ فالذين خافوا ربهم واتقوه ، وتركوا المعاصي وأقبلوا على الطاعات ، أحسن الله إليهم وجازاهم على حسن صنعهم بالجنات والفُرش من الحرير والخور العين الأبرار الفاتنات .

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ ﴾ ٥٥ - الواقعة (٥٦)

الهييم : الإبل العطاش التي لا تروى لإصابتها بداء تعطش منه عطشا شديدا ، فلا تزال تشرب حتى تهلك أو تسقم سقما شديدا ، واحدها أهيمٌ والأنثى هيِّماء ؛ ويسمى هذا الداء الهيام (١) .

قال الزمخشري : يسלט عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم (وهو شجر في جهنم قبيح المنظر كربه الطعم والرائحة) فإذا أكلوا وملأوا منه البطون ، سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم ، وهو الماء الذي اشتد غليانه ، فيقطع أمعاءهم وهم يشربونه شرب الهيم .

وقيل : الهيم الرمال التي لا تروى من الماء لتخلخلها . ونورد سباق الآيات كاملا : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر زقوم . فمالتون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم ﴾ الآيات من ٥١ إلى ٥٥ .

قرأ نافع وعاصم وحمزة « شُرب » بضم الشين ، وقرأ الباقون بفتحها . تقول العرب : شربت شُرْبًا وشَرَبًا وشَرِبًا .

(١) الهيام : أشد العطش ؛ والهيام كالجنون من العشق ؛ والهيام داء يأخذ الإبل فتهيم في الأرض لا ترعى .

﴿ أَفْبَهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ ٨١ - الواقعة (٥٦)

الإذهان والمداهنة : التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللّين وأن يُسر خلاف ما يظهر^(١) ، والمدّهن الذى ظاهره خلاف باطنه ، كأنه شُبّه بالدُّهن فى سهولة ظاهره . والمدّهن : المنافق الذى يَلِين جانبه ليخفى كفره . وألْفعل منه داهنٌ وأدْهَنَ^(٢) .

وأصل الإذهان : جعل الأديم (الجلد) ونحوه مدهونا بشيء من الدهن حتى يلين . ثم صار حقيقة عرفية فى المداراة والملاينة . وتُجوزُ به هنا عن التهاون ؛ لأن التهاون فى الأمر يُلين جانبه ولا يتصلب فيه . وعلى هذا يكون معنى التعبير : أفبهذا الحديث أى القرآن الذى ذُكرت أوصافه الجليلة فى الآيات السابقة^(٣) أنتم متهاونون كمن يتهاون فى الأمر ويلين فيه استهانة به .

وعن ابن عباس والزجاج ، « مدهنون » : مكذبون . وقال مجاهد : مدهنون أى عمالئون الكفار على الكفر به . وقال الضحاك : معرضون .

(١) قال أبو قيس الأسلت :

الحزم والقوة خير من الإِدهان والفَهه والهاع

(٢) وقال قوم : داهنت بمعنى وارىت ، وأدھنت بمعنى غَشِيت .

(٣) الآيات هى : « إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ من

. ٧٧ إلى ٨٠ .

﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾
 ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
 وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ٧ - الحديد (٥٧)

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى صدقوا أن الله واحد وأن محمدا رسوله ، لأن الإيمان شرط
 فى قبول الأعمال الصالحة .

﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ : هذا دليل على أن أصل المملك لله - سبحانه - فأنفقوا
 وتصدقوا من أموال الله التى فى أيديكم وقد أعطاكم إيها تستمتعون بها ، وجعلكم خلفاء فى
 التصرف فيها ، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة - وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب .
 ويسهل عليكم الإنفاق والبذل منها فى سبيل الله كما يسهل على الرجل الإنفاق من مال غيره
 إذا أذن له بذلك .

وقال الحسن : ﴿ مستخلفين فيه ﴾ بورائتكم إياه عمّن كان قبلكم من الوالدين والأقارب
 والأزواج ، وورثكم إياه ، فاعتبروا بحالهم ، حيث انتقل منهم إليكم وسيُنقل منكم إلى
 الذين من بعدكم ، فلا تبخلوا وانفقوا أنفسكم بالإنفاق منه فى سبيل الله .

روى الإمام أحمد عن مطرف عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : «
 ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم : مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفئيت ، أو لبستَ
 فأبليت ، أو تصدقتَ فأبقيت » ورواه مسلم أيضا وزاد عليه : « وما سوى ذلك فذاهبٌ
 وتاركهُ للناس » .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١)

﴿ اعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَاهُ مَصْفُورًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ ٢٠ - الحديد (٥٧)

غَرَّ فَلَئِنَّا يَغْرِهُ غَرًّا : خدعه وأطمعه بالباطل ، يقال : غَرَّ الشيطان ، وغَرَّتْه الدنيا .

﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ : متاعها متاع خداع ، متاع الباطل الفانى . فما هى إلا لهو ولعب لا ثمرة له سوى التعب . قيل : اللعب الاقتناء وما رغب فى الدنيا . واللهو النساء وما ألهى عن الآخرة . « وتفاهر بينكم » بالخلقة والقوة وبالأنسب ، وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ قال : ﴿ إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد ﴾ . ﴿ وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾ لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال ، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة .

ثم ضرب الله تعالى مثلا لها . إنه الزرع الذى يترعرع إذا جاده الغيث والمطر ويعجب به الكفار أى الزراع لأنهم يغطون البذور من الفعل كَفَر : غطى وستر . وقيل الكفار هم الكافرون بالله عز وجل ، لأنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا من المؤمنين ، فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم ومنهم يظهر التعظيم للدنيا وما فيها . « ثم يهيج » هذا النبات أى يجف بعد خضرته ويصفى بعد نضرة « ثم يكون حطاما » أى فتاتا وتبنا - وهكذا الحياة الدنيا منقضية ، ومتاعها خادع زائف .

(١) ورد التعبير أيضا فى ١٨٥ - آل عمران .

﴿ لَكَيْلًا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ٢٣ - الحديد (٥٧)

عن ابن مسعود أن نبي الله ﷺ قال : « لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه (١) وما أخطأه لم يكن ليصيبه » ثم قرأ ﴿ لَكَيْلًا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ أى كى لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم . ذلك أن ما يصيب الإنسان من القحط وقلة الثمار وضيق المعاش أو من الأوصاب والأسقام إلا كان مشبوتا فى اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الله الأرض والنفس وهذا هو ما جاء فى الآية السابقة : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

أى أخبرناكم بذلك لكى لا تأسوا أى لا تحزنوا من الأسى وهو الحزن . يقال : أسى على كذا بأسى أسى : حزن .

﴿ على ما فاتكم ﴾ من نعم الدنيا حزن قنوط .

﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم منها ﴾ فرح بَطَرٍ وأشر ؛ فإن من علم أن ذلك مُقَدَّرٌ أزلًا فى اللوح المحفوظ ، رضى واطمأن وصبر وشكر .

(١) أخطأ الهدف ونحوه : لم يُصِبْه .

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ
 اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا
 الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ١١ - المجادلة (٥٨)

في هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله . قال رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه :
 « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » ، أخرجه أصحاب
 السنن الأربعة من حديث أبي الدرداء رضى الله عنه .

وقول الله عز وجل : ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾ ١١٤ - طه واضح الدلالة فى فضل
 العلم ، لأن الله تعالى لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شىء إلا من العلم .
 قال البخارى : العلم قبل القول والعمل ^(١) ، لقول الله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله »
 فبدأ بالعلم ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، ورثوا العلم ، من أخذ به حظ وافر ، ومن سلك
 طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة . وقال جل ذكره ﴿ إنما يخشى الله من عباده
 العلماء ﴾ وقال ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى
 أصحاب السعير ﴾ وقال ﴿ هل يستوى الذى يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ . وقال النبى ﷺ :
 ﴿ من يرد الله به خيرا يفقهه ﴾ .

ونقل شيئا مما جاء فى « فتح البارى يشرح صحيح البخارى » تعليقا على كلام البخارى .
 « فبدأ بالعلم » أى حيث قال « فاعلم أنه لا إله إلا الله » ثم قال ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ .
 والخطاب ، وإن كان للنبي ﷺ ، فهو متناول لأُمَّته . واستدل سفيان بن عيينة بهذه الآية على
 فضل العلم .

قوله ﴿ وأن العلماء ﴾ بفتح أن ، ويجوز كسرهما ، ومن هنا إلى قوله « وافر » طرف من
 حديث أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان والحاكم مصححا من حديث أبى الدرداء ، ولم
 يفصح المصنف (البخارى) بكونه حديثا . . . وشاهده فى القرآن : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذى
 اصطفينا من عبادنا ﴾ ٣٢ - فاطر .

« ورثوا » بتشديد الراء المفتوحة (ورثوا) أى الأنبياء . ويروى بتخفيفها مع الكسر (ورثوا)
 أى العلماء . ويؤيد الأول ما عند الترمذى وغيره فيه : ﴿ وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا
 درهما ، وإنما ورثوا العلم ﴾ .

(١) قال ابن المنير : أراد به أن العلم شرط فى صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما لأنه
 مصحح للنية المصححة للعمل .

قوله : ﴿ بحظ وافر ﴾ أى نصيب كامل .

قوله : ﴿ ومن سلك طريقا يطلب به علما ﴾ ^(١) نكّر طريقاً ونكّر علماً ليتناول أنواع الطرق الموصلة إلى تحصيل العلوم ، وليندرج فيه القليل والكثير .

قوله : ﴿ سهل الله له طريقا ﴾ أى فى الآخرة ، أو فى الدنيا بأن يوفقه للأعمال الصالحة الموصلة إلى الجنة . وفيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه لأن طلبه من الطرق الموصلة إلى الجنة .

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ٢٨ - فاطر أى يخاف من الله من علم قدرته وسلطانه وهم العلماء ، قاله ابن عباس .

﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ٤٣ - العنكبوت أى الأمثال المضروبة : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ﴾ أى سمع من يعى ويفهم ، وعقل من يميز ، وهذه أوصاف أهل العلم ، فالمعنى لو كنا من أهل العلم لعلنا ما يجب علينا فعملنا به فنجونا .

وقول النبى ﷺ : « من يُرد الله به خيراً يفقهه » كذا فى رواية الأكثر . والفقه هو الفهم ، قال الله تعالى : ﴿ لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ ٧٨ - النساء أى لا يفهمون ، والمراد الأحكام الشرعية .

وفى نهاية هذا الباب ^(٢) نقل البخارى عن ابن عباس قوله :

« كونوا ربانيين حكماً فُهاءً . ويقال الربانى الذى يُربى الناس بصغار العلم قبل كباره . وقد فسر ابن عباس « الربانى » بأنه الحكيم الفقيه ، ووافقه ابن مسعود ؛ وقال الأصمعى والإسماعيلى : الربانى نسبة إلى الرب ، أى الذى يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل ؛ وقال ثعلب : قيل للعلماء ربانيون لأنهم يربون العلم أى يقومون به . والمراد بصغار العلم ما وضّح من مسائله ، وبكباره مادقّ منها . وقيل : يعلمهم جزئياته قبل كلياته ، أو فروعه قبل أصوله ، أو مقدماته قبل مقاصده . وقال ابن الأعرابى : لا يقال للعالم ربانى حتى يكون عالماً معلماً عاملاً .

(١) هذه العبارة جزء من الحديث الذى أوله « وأن العلماء هم ورثة الأنبياء » والذى أخرجه الترمذى . وخرج

هذه العبارة الإمام مسلم أيضاً . لكن البخارى لم يفصح بأنه حديث .

(٢) هو باب « العلم قبل القول والعمل » ورقمه (١٠) فى كتاب : « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » الإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى .

﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ٩ - الحشر (٥٩)

الْخَصَاصَةُ : الفقر والحاجة وسوء الحال . وفعله خَصَّ يَخْصُّ خَصَاصًا وخصاصةً : افتقر .

﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ : أثره إشاراً : اختاره وفضَّله ، ويقال أثره على نفسه . والإيثار : تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية ورغبة في الحظوظ الدينية . وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة . ومفعول الإيثار محذوف ، أى يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم ، لا عن غنى بل مع احتياجهم إليها .

روى الترمذى عن أبى هريرة أن رجلاً بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه ؛ فقال لأمرأته : نومي الصبية وأطفئى السراج وقرِّبى للضيف ما عندك ؛ فنزلت هذه الآية . وورد هذا الحديث فى صحيح مسلم كذلك .

« ولو كان بهم خصاصة » أى ولو كان بهم فاقة وحاجة . حكى عن أبى الحسن الأنطاكى أنه اجتمع عنده ثيف وثلاثون رجلاً بقرية من قرى الرى ، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم ، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام ؛ فلما رفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئاً ؛ إيثارا لصاحبه على نفسه .

انتصر المسلمون فى يوم بنى النضير بلا قتال وغنموا أموال هؤلاء اليهود (١) ، وكان المهاجرون فى دور الأنصار ، فدعا النبى ﷺ الأنصار وشكرهم على ما صنعوه مع المهاجرين حيث أنزلوهم فى منازلهم وأشركوهم فى أموالهم (أى أنزل الأنصار فى منازلهم المهاجرين) ثم قال : « أن أحببتهم قسمت ما أفاء (٢) الله على من بنى النضير بينكم وبينهم (٣) ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم وإن أحببتهم أعطيتهم وخرجوا من دياركم » فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : بل نقسمه (أى الفئ) بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا (٤) ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا

(١) غَنِمَ الغازى فى الحرب : ظَفَرَ بِمالِ عدوه .

(٢) أفاءَ عليه المالُ : جعله قَيْمًا له ، والفَيْءُ : الغنيمة تُنالُ بلا قتال .

(٣) بينكم أبها الأنصار وبين المهاجرين .

(٤) انظر : تفسير القرطبى .

يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » . وأعطى رسول الله ﷺ المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئا إلا ثلاثة محتاجين . قال ابن عباس قال النبي ﷺ للأنصار يوم بنى النضير : « إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم وشاركتموهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم من الغنيمة شيئا » فقالت الأنصار : « بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة ؛ فنزلت : « ويؤثرون على أنفسهم » الآية .

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان ﴾ : هم الأنصار تبوءوا المدينة ، دار الهجرة ، أى استوطنوها ، والتبوء : التمكّن والاستقرار ؛ واعتقدوا الإيمان وأخلصوه . « من قبلهم » أى من قبل المهاجرين فالأنصار استوطنوا المدينة من قبل أن يهاجر المهاجرون إليها .

﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ يعنى لا يحسدون المهاجرين على ما خُصوا به من مال الفئء وغيره . وفيه تقدير حذف مضافين والمعنى : ولا يجدون فى صدورهم مسّ حاجة من فقد ما أوتوا . والحاجة هى كل ما يجد الإنسان فى صدره أنه محتاج إلى إزالة .

﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١) : جاء فى الصحاح : الشح البخل مع حرص . وقال القرطبى : الشح والبخل سواء . والصفة : شحيح ، تقول : رجل شحيح وقوم شحاح وأشحة . وقال الزمخشرى : الشح أن تكون نفس الرجل كزّة حريصة على المنع ، قال الشاعر :

يُمارسُ نفساً بين جنّيه كزّة . . . إذا همّ بالمعروف قالت مهلاً (٢)

وأضيف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها ، ومنه قوله تعالى : « وأحضرت الأنفس الشح » (٣) .

﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ أى من غلب ما أمرته به على ما ركب فى النفس من شح وخالف - بتوفيق الله - ما يغلب عليها من حب المال وبُغض الإنفاق ، ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أى الظافرون . جاء فى تفسير القرطبى أن النبي ﷺ كان يدعو « اللهم إني أعوذ بك من شح نفسى وإسرافها ووساوسها » . وقال ﷺ : ﴿ اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » .

(١) ورد هذا التعبير أيضا فى الآية ١٦ من سورة التباين .

(٢) يصف رجلا بالبخل ، وأنه يعالج نفسه التى بين جنبيه . كزّة : شحيحة منقبضة عن فعل الخير إذا غلبها .

فإذا أراد المعروف دعتة نفسه ثانية إلى البخل وحجته عن البذل ، فكأنها قالت له : أمهل فيطاوعها .

(٣) انظر هذا التعبير ورقمه ١٢٣ .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ - الممتحنة (٦٠)

فَتَنَ الْمَعْدِنَ يَفْتِنُهُ فِتْنًا وَفُتِنًا : صَهَرَهُ فِي النَّارِ لِيُخْتَبِرَهُ وَفُتِنَ فَلَانًا : عَذَبَهُ لِيُحَوِّلَهُ عَنْ رَأْيِهِ أَوْ دِينِهِ .

والفتنة : الاختبار بالنار ، ومن معانيها كذلك : الابتلاء والعذاب . قال حسنين مخلوف :
الفتنة هنا مصدر بمعنى المفتون أى المعذب ، وقَسَّرَ « لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » بقوله : لا
تجعلنا مفتونين مُعَذِّبِينَ بِهِمْ ، بأن تُسَلِّطَهُمْ عَلَيْنَا فَيُفْتِنُونَا أَيْ يَعَذِّبُونَا بِعَذَابٍ لَا نَحْتَمِلُهُ ؛ وَفِي
هَذَا الْمَعْنَى قِيلَ : لَا تُسَلِّطَهُمْ عَلَيْنَا فَيُفْتِنُونَا وَيَعَذِّبُونَا .

وقال القرطبي : « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » أى لا تُظْهِرْ عَدُوْنَا عَلَيْنَا (١) فَيُظَنُّوا أَنَّهُ
عَلَى حَقٍّ فَيُفْتِنُونَا بِذَلِكَ أَيْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِذَا ظَهَرُوا عَلَيْنَا لِأَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ . وَهَذِهِ شَبْهَةٌ كَثِيرًا مَا
تَحِيكُ فِي الصَّدُورِ حِينَ يَتِمَكَّنُ الْبَاطِلُ مِنَ الْحَقِّ ، وَيَتَسَلَّطُ الطَّغَاةُ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ . وَالْمُؤْمِنُ
يَصْبِرُ عَلَى هَذَا ، لَكِنْ هَذَا لَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ أَلَّا يَصِيْبَهُ بَلَاءٌ يَجْعَلُهُ فِتْنَةً وَشَبْهَةً تَحِيكُ فِي
الصَّدُورِ .

(١) أَظْهَرَ فَلَانًا عَلَى عَدُوِّهِ : أَعَانَهُ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) كِبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ

اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٠٦﴾ ٢، ٣ - الصَّف (٦١)

جاء هذا التعبير على امتداد آيتين (١) . والآية الأولى تضمنت استفهاما على جهة الإنكار والتوبيخ ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله . وإذا قال عن نفسه إنه فعل في الماضي ما لم يفعله فإن هذا يكون كذبا وإذا قال سوف يفعل في المستقبل ولا يفعل فيكون هذا خُلْفًا ، والكذب والخلف كلاهما مذموم .

« لِمَ » مكونة من لام الإضافة وما الاستفهامية . وما الاستفهامية دخل عليها حروف جر أخرى غير اللام ، كما في قولك بِمَ ، وفيَمَ ، ومِمَّ ، وَعَمَّ ، وإِلَامَ ، وِعَلَامَ وحُذفت ألف ما الاستفهامية تخفيفا لكثرة استعمالهما معا .

« كِبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » : أن رفع بالابتداء وما قبلها الخبر ؛ وكأنه قال : قولكم ما لا تفعلون مذموم . وقال الكسائي : « أن » في موضع رفع ، لأن « كِبْرٌ » فعلٌ بمنزلة بئس ، و « مَقْتًا » نصب بالتمييز والمعنى : كبر قولهم ما لا يفعلون مقتا . والمقت والمقاتة مصدران ؛ يقال : رجل مَقْتٍ وممقوت إذا لم يحبه الناس .

« عِنْدَ اللَّهِ » إذا ثَبِتَ كِبْرُ مَقْتِهِ عِنْدَ اللَّهِ ، فقد تم كِبْرُهُ وشدته وانزاحت عنه الشكوك . فيل لبعض السلف : حَدَّثْنَا ، فَسَكَّتْ ، ثم قيل له : حَدَّثْنَا ؛ فقال : أتأمرونني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله .

قال ابن كثير في التفسير إن جمهور المفسرين حَمَلَ الآية على أن ناسا من المؤمنين تمنوا فريضة الجهاد أن تفرض عليهم ، فلما فرُضَ الجهاد نكل عنه بعضهم وشق عليهم أمره . فنزلت الآية تعاتبهم على ذلك . ولهذا نرى أن الآية التالية تشير إلى الموضوع المباشر الذي قالوا فيه ما لم يفعله ، وهو الجهاد . وتقرر هذه الآية ما يحبه الله في الجهاد والقتال وما يرضاه فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بِنِيانٍ مَرْصُوصُونَ ﴾ .

ولكن النصوص القرآنية دائما أبعد مدى من الحوادث المفردة التي تنزل الآيات لمواجهةها ، وأشمل لحالات كثيرة غير الحالة التي نزلت بسببها . ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة ، مع اعتبار الحادث الذي تذكره روايات النزول .

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ٤٤ - البقرة ، وهو التعبير رقم ١٣ .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ
يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِاللَّهِ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ٥ - الجمعة (٦٢)

أسفار : جمع سفر ، وهو الكتاب ، سقرت الكتاب أسفره سقرًا : كتبه .
« حُمِّلُوا التَّوْرَةَ » : كَلَّفُوا حَمْلَهَا وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهَا .

« ثم لم يحملوها » أى لم يعملوا بموجبها ولا أطاعوا ما أمروا به فيها ، ومنه ما ورد فيها
من نعت النبي ﷺ فلم يؤمنوا به .

﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ أى مثلهم فى عدم الانتفاع بما فى التوراه كمثل الحمار فى
عدم انتفاعه بما يحمل من كتب كبيرة ، فهو لا يدرى ما فيها ولا يدرك قيمته لأنه لا فهم له .
أما هم فلهم عقول تفهم لكنهم لم يستخدموها ، ومن ثم فهم أسوأ حالاً من الحمير . إنها
صورة زريّة بائسه ، ومثل سىء شائن ، لكنها صورة تعبر عن حقيقة صادقة .

فالآية فى ذم اليهود الذين أعطوا التوراة للعمل بها . لكنهم لم يتفهموها ولا عملوا
بمقتضاها ، بل أولوها وحرقوها وبدّلوها .

تذكر الآية أن اليهود قد انتهى دورهم فى حمل أمانة الله فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه
الأمانة التى لا تحملها إلا القلوب الحية المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل . وحمل أمانة
التوراة بما فيها من عقيدة وشريعة يبدأ بالإدراك والفهم والفقه وينتهى بالعمل لتحقيق مدلولها
فى عالم الضمير والواقع - ولكن سيرة بنى إسرائيل ، كما عرضها القرآن الكريم ، لا تدل على
أنهم قدروا هذه الأمانة ، ولا أنهم فقهوا حقيقتها ، ولا أنهم عملوا بها . وكل الذين حملوا
أمانة العقيدة ثم لم يحملوها من مسلمين يقرأون القرآن ولا ينهضون بما فيه إنما مثلهم كمثل
الحمار يحمل أسفارا .

﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾ أى بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات
الله ، على أن التمييز محذوف . ويجوز أن يكون المخصوص بالذم محذوفاً ، والتقدير :
بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء .

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾



١٥ - التَّغَابُن (٦٤)

جاء في تفسير الجلالين : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ لَكُمْ شَاغِلَةٌ عَنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ . «
والله عنده أجر عظيم ﴿ فلا تفوتوه باشتغالكم بالأموال والأولاد .

وقال الشوكاني : إِنَّمَا الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ بَلَاءٌ وَاجْتِبَارٌ وَمِحْنَةٌ يَحْمِلُونَكُمْ عَلَى كَسْبِ الْحَرَامِ
وَمَنْعِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَا تَطِيعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ . « وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » لِمَنْ أَثَرِ طَاعَتِهِ
وَتَرَكَ مَعْصِيَتَهُ فِي مَحَبَةِ مَالِهِ وَوَلَدِهِ .

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ
وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ
لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ٢ ، ٣ - الطلاق (٦٥)

خَرَجَ مِنْ مَقَرِّهِ يَخْرُجُ خُرُوجًا : بَرَزَ مِنْهُ ، وَاسْمُ الْمَكَانِ : مَخْرَجٌ . وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ
هَذِهِ آيَةَ فَقَالَ : « مَخْرَجًا مِنْ شِبْهَاتِ الدُّنْيَا وَمِنْ غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَمِنْ شِدَائِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .
وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنِّي لِأَعْلَمُ آيَةَ لَوْ أَخَذَ بِهَا النَّاسُ لَكَفَّتْهُمْ » ثُمَّ تَلَا آيَةَ فَمَا
زَالَ يَكْرُرُهَا وَيُعِيدُهَا .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَثْمَانَ الصَّدْفِيُّ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ فَيَقِفُ عِنْدَ حُدُودِهِ وَيَجْتَنِبُ مَعَاصِيَهُ
يَخْرُجُهُ مِنَ الْحَرَامِ إِلَى الْحَلَالِ وَمِنَ الضَّيِّقِ إِلَى السَّعَةِ وَمِنَ الْجَنَّةِ إِلَى النَّارِ .
وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مِنْ أَكْثَرِ الْاسْتِغْفَارِ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا وَمِنْ
كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ وَهْبٍ قَالَ يَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى : ﴿ إِذَا تَوَكَّلَ عَلَيَّ عَبْدِي لَوْ كَادَتْهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ
الْمَخْرَجَ ﴾ .

احْتَسَبَ الشَّيْءَ : مَأْخُودٌ مِنْ حَسْبِهِ بِمَعْنَى ظَنَّهُ ، أَوْ مَأْخُودٌ مِنْ حَسْبِهِ بِمَعْنَى عَدَّةٍ .
﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أَيُّ مَنْ حَيْثُ لَا يَظُنُّ وَلَا يَتَوَقَّعُ ، أَيُّ مَنْ وَجْهَةٌ لَا تَخْطُرُ بِبَالِهِ
وَمِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ الْبَرَكَةُ فِي الرِّزْقِ . وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُمَرَ
بْنِ حَصِينٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ كُلَّ مَوْئِنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَّهُ^(١) إِلَيْهَا » .

قَالَ الشُّوْكَانِيُّ : مَنْ يَتَّقِ عَذَابَ اللَّهِ بِامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ وَالْوُقُوفِ عَلَى حُدُودِهِ
الَّتِي حَدَّهَا لِعِبَادِهِ ، يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِمَّا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمَحَنِّ ، وَيَرْزُقُهُ مِنْ وَجْهِ لَا
يَخْطُرُ بِبَالِهِ ، وَلَا يَكُونُ فِي حِسَابِهِ .
حَسْبُهُ اللَّهُ : كَافِيهِ وَكَفِيلٌ بِهِ .

حَسَبٌ : اسْمٌ بِمَعْنَى كَافٍ . وَتَكُونُ اسْمُ فِعْلٍ فِي قَوْلِهِمْ : حَسَبْتُكَ هَذَا أَيُّ اكْتَفَى بِهِ .
﴿ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أَيُّ مَنْ قَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَهُ ، كَفَاهُ مَا أَمَّهُ . رَوَى أَحْمَدُ
وَالْتِّرَمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ

(١) وَكَلَّ إِلَيْهِ الْأَمْرَ يَكِلُهُ وَكَلًّا : سَلَّمَهُ .

أنكم توكلتم على الله حق توكله لرُزقتم كما تُرزق الطير تغدو خماصاً^(١) وتروح بطاناً^(٢)». وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له : « يا غلام إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ورُفعت الأقاليم وجفت الصحف » وقد رواه الترمذى أيضاً .

وقال الربيع بن الخيثم : إن الله تعالى قضى على نفسه أن من آمن به هداه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن أقرضه جازاه ، ومن وثق به نجاه ، ومن دعاه أجاب له . وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ ١١ - التغابن . ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ٣ - الطلاق . ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هُدى إلى صراط مستقيم ﴾ ١٠١ - آل عمران . ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ ١٨٦ - البقرة .

(١) عَدَا يَغْدُو غَدُوًّا : ذهب وانطلق . خماص : جمع خميص وهو مَنْ دَخَلَ بَطْنَهُ فِي جَوْفِهِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ .
(٢) رَاحَتِ الْإِبِلُ وَغَيْرُهَا تَرُوحُ رَوْحًا : أَوْتِ بَعْدَ الْغُرُوبِ إِلَى مَرَاكِهَا . بَطَانٌ جَمْعُ بَطْنٍ وَهُوَ الَّذِي عَظُمَ بَطْنُهُ مِنَ الشَّيْبِ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ٦ - التحريم (٦٦)

وقاه المكروه يقيه وقياً ووقايةً : حماه منه وحفظه أن يناله . والأمر منه للمفرد : قه بزيادة
هاء السكت ، وقوا للجمع .

ووقاية النفس تكون بتترك المعاصي ولزوم الطاعات ، ووقاية الأهل بحملهم على ذلك
بالنصح والتوجيه .

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة . وكما أن المؤمن مكلف بهداية نفسه وإصلاح
قلبه ، فإنه مكلف كذلك بهداية أهله وإصلاح أسرته . فالإسلام دين أسرة ، والبيت المسلم
هو نواة الجماعة المسلمة .

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة ، ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها -
كل فرد فيها يقف على ثغرة لا يُنفذ إليها . وواجب المؤمن أن يؤمن هذه القلعة من داخلها ،
وأن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله .

ففي صحيح الحديث أن النبي ﷺ ، قال « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام
الذي على الناس راع وهو مسئول عنهم والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم » .
وقال عليه السلام : « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ »
(١) . وقال أيضاً : « ما تحل (٢) والدٌ لولدٍ أفضل من أدب حسن » ، وروى عنه ﷺ قوله :
« مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع » رواه أبو
داود .

وعلى الرجل أن يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر . وقد روى
مسلم أن النبي ﷺ قال :

« رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فأيقظ أهله فإن لم تقم رَشَ وجهها بالماء . رحم الله
امرأة قامت من الليل تصلى وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رشت على وجهه من الماء » . وذكر
القشيري أن عمر رضی الله عنه قال لما نزلت هذه الآية : يا رسول الله ، نقى أنفسنا ، فكيف
لنا بأهلينا ؟ فقال : « تنهونهم عما نهاكم الله وتأمرونهم بما أمر الله » .

وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ ١٣٢ - طه ، وقال تعالى لنبيه :
« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ٢١٤ - الشعراء . ويدخل هذا في عموم قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا
عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ ٢ - المائدة .

(١) رواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس .

(٢) تحل فلا يأنهك له تحلاً : تبرع له بشيء . ورد الحديث في تفسير القرطبي .

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ
إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٢ ، ٤٣ - القلم (٦٨)

كشف الساق والتشمير عنها كناية عن اشتداد الخطب وعظم الأمر ، وفي المثل «كشف عن ساقه» وهو مثل يضرب في شدة الأمر ، كقولهم : شَمَّرَتِ الحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا (١) .
والأصل في معنى هذا التعبير أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِدِّ شَمَّرَ عن ساقه ، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة .

﴿يوم يكشف عن ساق﴾ هو يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والكره والشدة والزلازل والبلاء والامتحان .

وقيل : ساق الشيء أصله الذي به قوامه ، كساق الشجرة وساق الإنسان ، ويكون المعنى على هذا : هو يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصلها .

﴿ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ : في يوم القيامة حيث يشتد الكرب ، يدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود ، إما لأن وقته قد فات ، وإما لأنهم يكونون ﴿مهطعين مقنعي رؤوسهم﴾ (٢) وكان أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهول على غير إرادة منهم .

﴿خاشعة أبصارهم﴾ أي ذليلة متواضعة . نصبت على الحال . والفعل خشع معناه رمى ببصره نحو الأرض .

«ترهقهم ذلَّة» : رَهَقَهُ المَكْرُوهُ يَرْهَقُهُ رَهَقًا : غَشِيَهُ . ذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم ووجوههم أشد بياضا من الثلج ، وتسودّ وجوه المنافقين والكافرين حتى ترجع أشد سوادا من القار ، ويكونون في ذلّة مرهقة .

«وقد كانوا يدعون إلى السجود» في الدنيا «وهم سالمون» أي معافون أصحاء . وقال سعيد بن جبير : كانوا يسمعون «حَيَّ عَلَى الفلاح» فلا يجيبون .

(١) قال الشاعر :

وإن شَمَّرَتِ عن ساقها الحربُ شَمْرًا

فتى الحرب إن عضت به الحرب عضها

وقال الراجز :

وَجَدَّتِ الحربُ بكم فَجَدُّوا

قد كشفت عن ساقها فَشُدُّوا

(٢) ٤٣ - إبراهيم .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ

صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (١٩ ، ٢٣ - المعارج (٧٠))

الهِلَعُ فِي اللُّغَةِ : أَشَدُّ الْحِرْصِ وَأَسْوَأُ الْجَزَعِ وَأَفْحَشُهُ .

والفعل هَلَعٌ يَهْلَعُ فهو هَلَعٌ ، وهلوعٌ صيغة مبالغة للتكثير . والمعنى أنه لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي .

وفسر الله الهلوع في الآيتين التاليتين : هو الذي إذا ناله الشرُّ أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله الخيرُ بخل به ومنعه الناس ﴿ إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا ﴾ وقال النبي ﷺ : « شرٌّ ما أعطى العبدُ شحُّه هالِعٌ وجِبْنٌ خالِعٌ » . والعرب تقول : ناقة هلواعة وهلواع إذا كانت سريعة السير خفيفة . وقال ابن كيسان : خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويرضيه ويهرب مما يكرهه ويسخطه . ثم تعبدته الله بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره .

﴿ إذا مسه الشر جزوعا ﴾ : إذا أصابه الضر فزع وانخلع قلبه من شدة الرعب وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير . الجزع : نقيض الصبر ، وهو ضعف النفس عن احتمال ما ينزل بها من مكروه .

﴿ وإذا مسه الخير منوعا ﴾ : إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ومنع حق الله تعالى فيها . ويقال : يمنع أن يبخل بماله ، والمنوع الذي يكثر منه منعُ الفقيرِ خيرَه .

﴿ الذين هم على صلواتهم دائمون ﴾ : يحافظون على أوقاتها وواجباتها ، فيراعون إسباغ الوضوء لها ومواقبتها ويقيمون أركانها ويكملونها بسنتها وآدابها ، ويحفظونها من الإحباط فلا يقتربون الآثام . دائمون من الفعل : دام على الشيء أى واظب عليه .

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿

٢٤ ، ٢٥ - المعارج (٧٠)

المعنى فى أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات .

« حق معلوم » يريد الزكاة المفروضة ، قاله قتادة وابن سيرين وقال مجاهد : حق معلوم غير الزكاة . وعن ابن عباس : صَلَّةٌ رَحِمَ وَحَمَلُ كُلِّ .

والأول أصح ، لأنه وصف الحق بأنه معلوم ، وغيرُ الزكاة ليس بمعلوم . ولعل المعنى أشمل من هذا وأكبر ، وهو أنهم يجعلون فى أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنه حق للسائل والمحروم . والشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقا فى الأموال هو شعور بفضل الله من جهة ، وبأصرة الإنسانية من جهة ، فضلا عن أنه تحرر من ربة الشح ؛ كما أنه ضمانه لتكافل الأمة .

للسائل أى للذى يسأل . وفى « معجم ألفاظ القرآن الكريم » : سأله أى طلب معرفته وإحسانه . والسائل : الطالبُ المعروف والإحسان . روى الإمام أحمد وأبو داود عن النبى ﷺ أنه قال : « للسائل حق وإن جاء على فرس » .

« فى أموالهم حق » أى جزء مقسوم أفرزوه للسائل والمحروم .

والمحروم هو الذى لا يجد ما يدفع حاجته وهو متعفف لا يسأل الناس .

وقال الزمخشرى فى « الكشاف » : هو الذى يتعفف عن السؤال ، فيُحسبُ غنيا فيُحرَم . وقالت أم المؤمنين عائشة هو المُحَارِف (١) الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرّة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطنُ له فيتصدّق عليه » .

(١) المُحَارِف : المحروم الذى يطلب فلا يُرزق ، وهو خلاف المُبارك .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ

عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠﴾ - نوح (٧١)

غَفَّرَ يَغْفِرُ غَفْرًا وَمَغْفِرَةً

وَعُفْرَانًا . وَأَصْلُ الْغَفْرِ التَّغْذِيَةُ وَالسُّتْرُ فَالْمَادَى فِيهِ هُوَ السُّتْرُ وَالْبَاسُ مَا يَصُونُ مِنَ الدَّنَسِ (١) .

ومنه غَفَّرَ اللهُ ذُنُوبَهُ أَى سَتَرَهَا وَعَفَا عَنْهُ . وهو - جل ثناؤه - الغفور الغفار ، وهما من أبنية المبالغة ومعناهما الساترُ لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم .

استغفر : طلب الغفر والغفران . « إنه كان غفارا » : ترغيب منه فى أن يتوب العبد .

« يرسل السماء عليكم مدرارا » : فى هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الرزق . وكلمة مدرار معناها كثيرة الدر وتسكاب المطر . والفعل درت السماء أو السحابة : نزل منها المطر غزيرا متواصلا متتابعًا ، وأصله : درت ذات اللين تدرُّ وتدرُّ درًا ودُرورًا : نزل من ضرعها اللين غزيرا .

وفى القرآن الكريم مواضع تكرر فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله ، وبين تيسير الأرزاق وعموم الرخاء . قال تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ ٥٢ - هود . قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ٩٦ - الأعراف . وقال عن أهل الكتاب : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ٦٦ - المائدة . وقال : ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَتَّبِعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ ٣ - هود .

هذه القاعدة التى تربط بين الاستغفار والاستقامة وبين الرزق قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها المتمثلة فى وعد الله وفى سنة الحياة .

كما أن الواقع العملى يشهد بتحققها على مدار القرون ؛ فما من أمة اتقت الله وعبדתه وأقامت شريعته وحققت العدل والأمن للناس جميعًا ، إلا فاضت فيها الخيرات ومكن لها الله فى الأرض واستخلفها فيها بال عمران وبالصلاح .

(١) وتقول العرب : اصبغ ثوبك بالسواد فهو أغفَرُ للدنس ، أى أحْمَلُ له وأغْطى له .

أطعمهم نوح فى الرزق الوفير الميسور إذا استغفروا ربهم ، وأن هذا الرزق سيأتى لهم من أسبابه التى يعرفونها ويرجونها ، وهى المطر الغزير الذى تنبت به الزروع وتسيل به الأنهار ، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التى يحبونها- وهى البنين- والأموال التى يطلبونها .
والاستغفار لابد وأن يكون عن إخلاص وإقلاع عن الذنوب ، وهو الأصل فى الإجابة .
﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ أى يرسل ماء السماء ، ففيه إضمار . وقيل : السماء المطر ، أى يرسل المطر . قال الشاعر :

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ رَعَيْنَاهُ وإن كانوا غضابا

« مدرارا » منصوب إما على أنه نعت لمصدر محذوف ، أى إرسالاً مدرارا . وإما على أنه حال من السماء ، ولم يؤنث لأن مفعالا لا يؤنث (تقول امرأة مئناث ومذكارة) .
« يُرسل » جُزِمَ لكونه جواب الأمر (استغفروا) .

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾

٣- الجن (٧٢)

جَدَّ يَجِدُّ جَدًّا : عَظُمَ .

والجدُّ في اللغة : العظمة والجلالة . وفي الحديث : « تبارك اسمك وتعالى جدك » . ومنه قول أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جدّفي عيوننا .

فمعنى جد ربنا : عظّمته وجلاله ، قاله عكرمة ومجاهد وقتادة .

وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه .

وقال أنس بن مالك والحسن : غناه ؛ وفي الحديث : « ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ قال أبو عبيد والخليل : أي ذا الغنى منك الغنى ، إنما تنفعه الطاعة .

وكلها إشعارات من اللفظ تناسب المقام . والمعنى الإجمالي هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله - سبحانه - وبِعظّمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة أو ولدا .

الصاحبة : الزوجة .

والولد : كل ما وُكِدَ (ويطلق على الذكر والأنثى والمثنى والجمع) .

كانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءته مع صهر من الجن ! فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة . وكانت الجن حرية أن تفخر بهذه المصاهرة الخرافية لو كان يشبه أن تكون ! فهي قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهي في تصورات المشركين ، وكل تصور يشبه هذه التصورات ممن زعموا أن لله - سبحانه - ولدا في أي تصور وفي أية صورة .

ومعنى الآية : وأنه تعالى جلال ربنا أن يتخذ صاحبة وولدا للاستئناس بهما والحاجة إليهما ، والرب يتعالى عن ذلك كما يتعالى عن الأنداد النظراء .

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (١٧)

السَّمَاءُ مَنْفَطْرُهُ بِهِ كَانَ وَعَدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٧ ، ١٨ - المزمّل (٧٣)

شَابَ فَلَانٌ يُشِيبُ شَيْبًا وَشَيْبَةً : ابيضُّ شعْرُهُ . ويقال : شَابَ الشَّعْرُ وَشَابَ الرَّأْسُ ، فَهُوَ شَائِبٌ وَأَشْيَبٌ ، وَالْجَمْعُ : شَيْبٌ (بِكسْرِ الشَّيْنِ) .

وَأَشَابَ الْكِبْرُ أَوْ الْحَزَنُ أَوْ الْخَوْفُ فَلَانًا : هَرَمَهُ وَبَيَّضَ شَعْرَهُ .

« الولدان » : الصبيان .

« يجعل الولدان شيبا » : هذا مثل في الشدة . يقال في اليوم الشديد : يوم يُشِيبُ نَوَاصِي الْأَطْفَالِ ؛ وَالْأَصْلُ أَنَّ الْهَمُومَ وَالْأَحْزَانَ إِذَا تَفَاقَمَتِ وَاسْتَدَّتْ عَلَى الْإِنْسَانِ ، أَسْرَعَ فِيهِ الشَّيْبُ . قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :

وَالْهَمُّ يُخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيَهْرَمَ

فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ . وَفِيهَا تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ؛ أَي كَيْفَ تَتَّقُونَ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا إِنْ كَفَرْتُمْ . « يَوْمًا » مَفْعُولٌ بِـ « تَتَّقُونَ » .

﴿السَّمَاءُ مَنْفَطْرُهُ بِهِ﴾ أَي مُتَشَقِّقَةٌ لِشِدَّتِهِ ، مِنْ الْفِعْلِ انْفَطَرَ الشَّيْءُ أَي تَشَقَّقَ . وَمَعْنَى « بِهِ » فِيهِ ، أَي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِهَوْلِهِ . وَقِيلَ بِهِ أَي لَهُ أَي لِدَلِّكَ الْيَوْمِ ، يُقَالُ : فَعَلْتَ كَذَا بِحَرَمَتِكَ وَحَرَمَتِكَ وَالْبَاءُ وَاللَّامُ وَفِي مُتَقَارِبَةٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أَي فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقِيلَ : بِهِ أَي بِالْأَمْرِ الَّذِي جَعَلَ الْوِلْدَانَ شِيبًا .

فَالسَّمَاءُ ، مَعَ عَظَمَتِهَا وَإِحْكَامِهَا ، تَتَّصِدِعُ وَتَتَدَاعَى مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ - فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهَا مِنْ الْخَلَائِقِ ؟ وَالْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ : كُلُّ مَا فَوْقَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ وَغَيْرِهَا مِمَّا أَظْلَكَ وَعَلَكَ .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (١) ١٧ - القيامة (٧٥)

جمعه : أى جمع القرآن فى صدرك بحيث لا يذهب ولا يتفلس شىء منه عليك . تكفل الله أن يجمعه فى صدر نبيه ﷺ .

وفى رواية للإمام أحمد : فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما قرأه . وفى رواية للبخارى : فكان النبى إذا أتاه جبريل بعد ذلك أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل . الآية تطمئن الرسول إلى أن أمر هذا الوحي موكول إلى صاحبه - جل شأنه - ودوره ، ﷺ ، هو تلقيه وإبلاغه ، وسوف يجده فى صدره منقوشاً ثابتاً .

﴿ قرآنه ﴾ جريانه على لسانك ، أى قراءتك له أى القرآن . قال الفراء : القراءة والقرآن مصدران ، قرأ الكتاب يقرؤه قراءةً وقرآنًا : تلاه أى نطق بكلماته المكتوبة .

وقال حسنين مخلوف : معنى قرآنه أن تقرأه بلسانك متى شئت ومثله قوله تعالى فى الآية ٦ من سورة الأعلى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ أى القرآن يا محمد فنعلمكه ، نقرئك القرآن على لسان جبريل فتحفظه ولا تنساه - فلا للنفى لا للنهى .

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ٩ - الحجر . وقوله : ﴿ إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ﴾ ٧٧ ، ٧٨ - الواقعة . وقوله : ﴿ بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ ﴾ ٢١ ، ٢٢ - البروج .

أَسْدَى الْإِبِلُ يُسَدِّيهَا : أهملها .

وهو سُدَى : مُهْمَلٌ ، يستوى فيه الواحد وغيره . يقال : إبل سُدَى أى ترعى بلا راع ، وامرؤ سُدَى .

قال الشاعر :

فأقسم بالله جهْد اليمين ما ترك الله شيئا سدى

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى » مهملًا فلا يُبعث ولا يُجازى .

والمقصود هنا إثبات المعاد والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد . فالإنسان لا يترك في قبره سدى لا يُبعث ، بل هو مأمور منهى في الدنيا ، محشور إلى الله في الدار الآخرة . ولهذا قال في الآية التالية مستدلا على الإعادة (أى البعث) بالابتداء (أى بدء الخلق) :

« ألم يك نطفة من منى يمينى » .

« أيحسب الإنسان » : أَيْظَن ، والاستفهام إنكارى .

قال ابن زيد فى تفسير « أن يترك سدى » أى أن يُخلى مهملًا فى الدنيا فلا يُؤمر ولا يُنهى . وقيل : أيحسب أن يترك فى قبره فلا يُبعث ، والظاهر أن الآية تعم الحالين كما قال ابن كثير .

كانت الحياة فى نظر الناس حركة لا علة لها ولا هدف : أرحام تدفع وقبور تبلع ، وبين هاتين لهو ولعب وزينة وتفاخر ، ومتاع قريب من متاع الحيوان . وكان بعيدا عن تصورهم أن يكون هناك ناموس وراء هدف ، ووراء الهدف حكمة ، وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يميز الإنسان عن الحيوان هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات ، وبوجود الهدف والغاية من وجوده ومن الوجود كله . وهذه اللمسة « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » توجه للقلب كى يتلفت ويستحضر الروابط والصلات ، والأهداف والغايات ، والعلل والأسباب التى تربط وجوده بالوجود كله ، وبالإرادة المدبرة لهذا الوجود .

﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ ٢١ - الْإِنْسَانُ (٧٦)

قرأ ابن سيرين ومجاهد وأبو حيوة وابن أبي عبلة: «عليهم» بدلا من «عليهم»، وهى قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة (١) - أى عليهم ثيابُ سندس .

قال الفراء وابن عطية: «عليهم» بمعنى فوقهم - أى فوقهم ثياب سندس .

وقال الزجاج وأبو حيان: «عليهم» اسم فاعل، من عَلَا الشئُ يُعَلُو، وهو عال وهى عالية، ونصب على الحال من الهاء والميم فى «ويطوف عليهم» أى على الأبرار (٢)، وعاليهم أى عاليا الأبرار ثيابُ سندس (أى أن الثياب تعلو الأبرار) .

قرأ نافع وحزمه وابن محيصن «عليهم» بسكون الياء وكسر الهاء .

«عليهم ثياب سندس خضر»: هذا التعبير القشيب دوما ما برح يلمع ويتلأأعلى مر الأزمان تلألؤ الماسة الفريدة الخلابة .

السندس: مَارَقٌ من الديباج (٣) أى رقيق الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي الأبدان . أى أن لباس أهل الجنة السندسُ، وهو الحرير الرفيع الرقيق، والإستبرق وهو ما غلظ من الحرير، وهى كلمة فارسية معربة .

ومعنى التعبير: يعلوهم ويُجَمَلُ أبدانهم ثياب من رقيق الحرير، وثياب أخرى فوقها من غليظ الحرير .

وفى التعبير ثلاث قراءات:

قرأ نافع وحفص برفع «خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ» على أن «خضر» نعت للثياب (فالثياب جمع والنعت يتبع المنعوت إفراداً وجمعا)، و«إستبرق» معطوف على «ثياب» .

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى بجرّ «خضر وإستبرق» على أن خُضْرُ نعت لسندس، وإستبرق معطوف على سندس ويكون المعنى: ثياب سندس وإستبرق .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بجرّ خُضْرُ نعتاً لسندس ورفَعُ إستبرق عطفاً على ثياب لكن سندس مفرد فكيف يمكن أن يوصف بالجمع: خضر؟ قيل فى الرد على هذا إن سندس اسم جنس وأجاز الأخفش وصف اسم الجنس بالجمع على استقباح له، مثل قولهم: أهلك الناس الدينارُ الصَفْرُ والدرهمُ البِيضُ .

(١) قاله الشوكانى فى «فتح القدير» .

(٢) السياق هو: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾ الآيات من ١٩ إلى ٢١ .

(٣) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير .



﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿١﴾ ﴾

٦ ، ٧ - النبأ (٧٨)

يمتد هذا التعبير عبر آيتين .

المهاد : الفراش ، والمهاد : المهد للسير ، والمهاد : اللين كالمهد . وفعله : مهد الفراش يهدّه مهْدًا : بسطه ووطّاه . وجعل الأرض مهادا للحياة - وللحياة الإنسانية بوجه خاص - شاهدًا لا يُمارى في شهادته بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر . فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الحياة لتعيش في الأرض - الاختلال هنا أو هناك لا يجعل الأرض مهادا .

فمثلا يكسو الماء ثلاثة أرباع قشرة الأرض ، وهو ماء المحيطات الذى يتبخر منه ما يتبخر ليسقط مطرا تكون به الحياة . ومن فوق المحيطات واليابسة كلها يوجد محيط من الهواء يدعى الجو الذى - لولاه - ما كان على الأرض حياة ، فالهواء يقف حائلا دون وصول أشعة الشمس القوية التى تقضى على الحياة ، وإنما يسمح لبعضها فقط بالنفاذ إلى الأرض ، وهذا البعض هو الذى يؤدى إلى تبخر ماء البحر ليسقط بعد ذلك مطرا تعيش بيماهه الكائنات الحية . و ٧٨٪ من الغلاف الجوى للأرض نيتروجين تحتاجه كل الكائنات الحية لأجل الغذاء . و ٢١٪ من هذا الغلاف هو غاز الأوكسجين اللازم للتنفس وللاشتعال ، ولوزادت نسبته على ذلك لما أمكننا السيطرة على النار ولتحولت من أداة نافعة وأساسية في حياتنا إلى حدائق تدمر كل شىء .

وجاذبية الأرض لو قلت عما هي عليه الآن لتحول مَشَى الإنسان عليها إلى قفز . وتحدث قوة جاذبية القمر فى البحر حركتى المد والجزر اللتين تحفظان توازن كرتنا الأرضية وتجعلانها تدور بنفس السرعة دائما . فى ضوء الشمس تأخذ النباتات الخضراء غاز ثانى أوكسيد الكربون من الهواء ، وبطريقة عجيبة تحتفظ بالكربون غذاء لها وتنثف الأوكسجين لتتنفسه الكائنات الحية (٢) .

﴿ والجبال أوتادا ﴾ : الجبال أشبه شىء بأوتاد الخيمة ، تثبت الأرض وتحفظ توازنها - وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار فى البحار ونسب المرتفعات فى الجبال ، وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض والتقلصات السطحية ، وقد يكون لأنها تشغل

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تمدكم ﴾ فى ١٠ - لقمان وفى ١٥ - النحل .

(٢) انظر كتاب : Between Earth and Space ، لمؤلفه كلايد أور (Clyde Orr) .

الأرض فى نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين ، وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد- وكم من قوانين وحقائق مجهولة أشار إليها القرآن الكريم ، ثم عرف البشر طرفا منها بعد مئات السنين .

كتاب « الأرض : Earth » مرجع دراسى أساسى فى كثير من جامعات العالم . ومن مؤلفيه البروفسور فرانك برس (Press) الرئيس الحالى لأكاديمية العلوم فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان فى السابق المستشار العلمى للرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر (Carter).

يقول هذا الكتاب إن الجبال لها جذور تحت الأرض ، وأن هذه الجذور متغلغلة إلى أعماق كبيرة فى باطن الأرض . ولقد أثبتت العلوم الحديثة أن هذه الجذور يمكن أن تتغلغل فى باطن الأرض أطوالا تعادل ارتفاعات الجبال فوق سطح الأرض العديد من المرات . وعلى هذا فإن الكلمة المناسبة لوصف الجبال هى كلمة « أوتاد » ذلك أن الوتد المدقوق جيدا يكون معظمه مختفيا تحت الأرض . وينبئنا تاريخ العلم أن البشرية لم تعرف بوجود جذور عميقة للجبال إلا فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر- هذا عن شكل الجبال .

أما عن دورها الهام فى الحفاظ على استقرار قشرة الأرض ومنع الأرض من أن تميل وتضطرب فإن القرآن الكريم أشار إلى ذلك فى الآية ١٥ من سورة النحل وفى الآية ١٠ من سورة لقمان : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾ . ولم تبدأ البشرية فى معرفة دور الجبال كرواسى تثبت الأرض إلا فى أواخر الستينيات من هذا القرن العشرين (١) .

(١) انظر كتاب : Earth تأليف برس وسيفر . وكتاب Earth Science تأليف : تاربوك (Tarbuck) ولو لجنس (Lutgens) .

﴿ يَقُولُونَ أَتِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا

نَخْرَةً ﴿ ١٠ ، ١١ - النازعات (٧٩)

يقال : رجع فلان في حافرته وعلى حافرته ، أى طريقه التى جاء فيها فحفرها بمشيه ؛ ثم كُنِيَ به عن الرجوع إلى الحالة الأولى وهى الحياة .

فمنكرو البعث إذا قيل لهم إنهم سيبعثون ، يكون جوابهم : أُنْرَدُ إلى الحياة التى كنا فيها ؛ يقولون ذلك منكرين للبعث ومتعجبين منه ، ويضيفون : أئذا صرنا عظاما بالية نُردُّ ونُبْعَثُ ، وهو معنى قولهم : ﴿ أئذا كنا عظاما نخرة ﴾ . والاستفهام هنا بمعنى الإنكار . نَخِرَ العظمُ : بَلَى وَتَفَتَّتْ .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴾ ١٧ - التكوير (٨١)

عَسَّ فلانُ يَعُسُّ عَسًا : طاف بالليل يكشف عن أهل الرِّيِّية (المشكوك فيهم والمتهمين) ويحرس الناس .

عَسَسَ اللَّيْلُ : أَقْبَلَ بِظِلَامِهِ . وَعَسَسَ الذَّنْبُ : طَافَ بِاللَّيْلِ .

ولفظ عسَس مؤلف من مقطعين : عس ، عس . وهو يوحى بجرسه بحياة الإنسان فى هذا الليل وهو يعس فى الظلام بيده أو برجله لا يرى ! وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير رائع .



تنفس أى انشق وانفلق . وأصل التنفس : خروج النفس من الجوف ، فجعل الروح والنسيم الذى يقبل بإقبال الصبح نفساً له . فالصبح حى يتنفس ، أنفاسه النور والحياة والحركة التى تدب فى كل حى .

وربما لا تحوى اللغة العربية - بكل مآثوراتها التعبيرية - نظيراً لهذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ! ثم يجيء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة . وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى : ﴿والليل إذا عسعس^(١) . والصبح إذا تنفس ﴾ ثروة شعورية وتعبيرية ، فوق ما يشير إليه من حقائق كونية .

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾

٦ - الانشقاق (٨٤)

الكدح هو العمل والسعى والكسب .

يقول محمد عبده : يا أيها الإنسان إنك مُجد في السير إلى ربك ، وكل خطوة في عملك هي في الحقيقة خطوة إلى أجلك . فكل جهد وتعب يحدث في قُوى الإنسان أثر ضعف ، ولا يزال الضعف يتبع بعضه بعضا حتى ينتهى إلى الموت الذى لا محيد عنه . وهناك لقاء الله .

وفي الظلال : يا أيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض ، تحمل عبثك ، وتجهد جهدك لتصل فى النهاية إلى ربك ، فإليه المرجع . . يا أيها الإنسان إنك كادح حتى فى متاعك فأنت لا تبلغه فى هذه الأرض إلا بجهد وكد . وحقيقة الكدح هي المستقرة فى حياة الإنسان ثم النهاية فى آخر المطاف إلى الله . . يا أيها الإنسان إنك لا تجد الراحة فى الأرض أبدا : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد »^(١) . التعب واحد فى الأرض والكدح واحد . وإن اختلف لونه وطعمه . أما العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك : فواحد إلى عناء ، وواحد إلى نعيم .

« يا أيها الإنسان » : نداء علوى للإنسان الذى ميزه ربه بالإنسانية ، بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه وأطوع لأمره من الأرض والسماء ، وقد نفخ فيه من روحه ، وأودعه القدرة على الاتصال به ، وتَلَقَّى قَبَسٍ من نوره والتطهر به والارتفاع به إلى عليين .

(١) الآية الرابعة من سورة «البلد» . والكَبْدُ : الشدة والعناء ، والجهد والكد والكفاح والكدح .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ (١) ﴾ (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿ (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿

٧-١٠ - الشمس (٩١)

تكشف هذه الآيات عن طبيعة النفس الإنسانية . فالإنسان - بطبيعة تكوينه من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه (٢) - مزدوج الطبيعة ومزود باستعدادات متساوية للخير والشر . فهو قادر على التمييز بينهما وعلى توجيه نفسه إلى أى منهما ، وهذه القدرة كامنة فى كيانه . قال محمد عبده : إن تمام تسوية النفس أن وهبها العقل الذى يميز بين الخير والشر . فالله يقسم فى الآيات السابقة من أول السورة بالشمس والقمر والنهار وبالليل وبالسماء وبالأرض ، وبالنفس ويتسوية خلقها بما ركب فيها من قوى باطنة وظاهرة وحدد لكل قوة وظيفة تؤديها وألف لها الجسم الذى تستخدمه من أعضاء ؛ وأنه جلت قدرته عرفها طريق الفجور والمعصية وطريق التقوى والطاعة - يقسم سبحانه بكل هذه المخلوقات : « قد أفلح من زكَّاهَا . وقد خاب من دسَّاهَا » .

فمن زكى نفسه أى طهرها من الكفر والمعاصى وأصلحها بالصالح من الأعمال ، وذلك بتسمية استعداد الخير فيها وتغليبها على استعداد الشر ، فقد أفلح وفاز . ومن دسَّى نفسه أى أغواها وأفسدها بأن خبأ وأضعف استعدادها وقدرتها على مقاومة الشر فقد خاب وخسر . والفعل دسَّاهَا أصله دَسَّسَهَا من التدسيس وهو إخفاء الشيء فى الشيء ، فأبدلت سينه ياءً ، مثل قولهم فى تقصص : تقصَّى . ولذلك قيل فى معنى الآية « وقد خاب من دسَّاهَا » : خاب من دس نفسه فى المعاصى . وفى شرح المفردات زيادة توضيح .

« وما سواها » أى وتسويتها باعتبار « ما » مصدرية . وقيل المعنى : ومن سواها باعتبار « ما » بمعنى « من » وهو الله عز وجل . وسوى بمعنى هبأ ، وقيل : سوى خلقها وعدلها . « ألهمها » : ألقى فى روعها ولقنها . الفجور : الانسياق إلى المعاصى فى غير ما اكترت . والتقوى : الخشية والخوف من الله وامتنال أوامره واجتناب نواهيه . وقال حسنين مخلوف فى تفسير هذه الآية « فألهمها فجورها وتقواها » : عرفها ما ينبغى لها أن تأتى أو تذكر من خير أو شر بحيث تميز رشدتها من غيرها . « زكَّاهَا » : أصل الزكاة النمو والزيادة . ومنه زكا الزرع إذا كثر ريعه . وأيضاً زكا فلانٌ : صلح . وزكى الشيء : أصلحه وطهره .

(١) وقريب منه قوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ ٣ الإنسان ، وقوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى بينا له طريقى الخير والشر ، والنجد : الطريق المرتفع ، هذه الآية هى العاشرة من سورة البلد .

(٢) قال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ ٢٨ ، ٢٩ - الحجر ، وقال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ ٧١ ، ٧٢ - ص .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنِيسِرْهُ

لِّلْيسْرِ ﴿٥٦١﴾ ٥ ، ٦ ، ٧ - الليل (٩٢)

أعطى: أعطى حق الله تعالى الذي عليه، أو بذل أى أنفق فى سبيل الله مما عنده من الفضل (والفضل ما بقى من الشىء وزاد على الحاجة).

اتقى: تجنب محارم الله ومعاصيه.

« وصدق بالحسنى »: أيقن بلا إله إلا الله. ولا يكون التصديق بالحسنى إلا إذا صدر عنه أثره الذى لا ينفك عنه وهو بذل المال واتباع المعاصى - لذا قدمهما فى الذكر. والحسنى هى لا إله إلا الله فى قول الضحاك وابن عباس. وقال القرطبي: هى الخلف والعوض من الله تعالى على عطاء من يعطى ويتقى. وقيل الحسنى: العاقبة الحسنة وهى مؤنث الأحسن (١).

« فسنيسرهُ لليسرى »: اليسرى مؤنث الأيسر، وفعله يَسِرُ الشىءُ يُيسِرُ يسراً: سهلاً وأمكن. وَيَسِرُّ فلاناً لكذا: هبأه ووقفه. ومعنى التعبير: فسنيسته ونوقفه إلى ما يؤدى به إلى اليسر والراحة، وهى الأعمال الصالحة التى تورث الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة. وقيل فى معنى التعبير: فسنرشده لأسباب الخير والصلاح حتى ييسر عليه فعلها.

وفى فضل البذل والعطاء ما ورد فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً ».

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنِيسِرْهُ

لِّلْعُسْرَىٰ ﴿٥٦٢﴾ ٨ ، ٩ ، ١٠ - الليل (٩٢)

بخل: أى بماله فلم يؤد حق الله فيه. أو لم ينفق منه فى سبيله. استغنى: زهد فيما عند الله، كأنه مُستغن عنه سبحانه! فلم يتقه. أو استغنى بنعيم الدنيا عن نعيم العقبى.

« وكذب بالحسنى » أى كذب بلا إله إلا الله، أو كذب بالخلف والعوض عما أنفق. والعسرى: الأمر الصعب الشديد، وفعله عَسَرَ الأمرُ والزمانُ يُعَسِرُ عَسراً: صعب واشتد. « فسنيسرهُ للعسرى » أى نهية للخصلة التى تؤدى إلى عُسْرٍ وشدة، وهى الأعمال السيئة التى تورث الخسران فى الدنيا والآخرة. وقيل المعنى: وأما من بخل فسنخذله وثنعه اللطف والتوفيق حتى تكون الطاعة أعسر شىء عليه.

وأصل التيسير: التهيؤ والتسهيل. ويكون فى الخير والشر، ومنه ما فى الحديث: «اعملوا وسددوا وقاربوا فكل ميسر لما خلق له» رواه عبدالله بن الإمام أحمد بسند حسن.

(١) وقال مجاهد: الحسنى هى الجنة لقوله تعالى: « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ٢٦ - يونس.

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿﴾ ٧ ، ٨ - الزلزلة (٩٩)

ذَرَّةٌ: كان المفسرون القدامى يقولون إنها الهباءة التي ترى في ضوء الشمس، فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة. ونحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس. أما الذرة فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر.

والتعبير مثل ضربه الله تعالى أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة. وهو مثل قوله تعالى: ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ٤ - النساء.

وقال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿ وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ ٨ - الإنسان كان أحدهم يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة (واحدة الجوز، هي أيضاً الشربة الواحدة من الماء). وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالنظرة ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر؛ فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يعطوه، وتحذرهم من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر.

وفي صحيح البخاري: « اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة » وأيضاً: « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المُسْتَسْقَى (١) ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ». وروى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال: « إياكم ومُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ (أى الصغائر) فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكته » وروى عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من مثقال ذرة.

« خيراً » و « شراً » : تمييز ، ويجوز أن تكونا بدلين من « مثقال ذرة » .

والمؤمن يرتعش وجدانه أمام ذلك الميزان الدقيق الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر. وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي، قلوب مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب.

(١) طالب السُّقْيَا من الماء هو المستسقى .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٦﴾ ٦، ٧، ٨ - العاديات (١٠٠)

طُبِعَ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ كَفْرَانِ النِّعْمَةِ ، وَعَلَىٰ حُبِّ الْمَالِ .

« لكنود » : لكفورٌ جَحودٌ لَنعم الله ، وهو جواب القسم في الآيات السابقة : ﴿والعاديات ضبحا . . .﴾ . قال الحسن في شرح هذا التعبير عن الإنسان : يذكر المصائب وينسى النعم . وقال أبو بكر الواسطي : الكنود الذي يتفق نعم الله في معاصي الله . وقال الترمذي : الذي يرى النعمة ولا يرى المنعم - وكلها أقوال ترجع إلى معنى الكفران والجحود (١) .

والفعل كَنَدَ يَكْنُدُ كَنُودًا أى كفر النعمة وجحدها ، فهو كَنُودٌ ، وامرأة كَنُودٌ أيضا وكُنُودٌ . وقيل : الكنود من كَنَدَ الحبل إذا قطعه ، كأنه يقطع ما ينبغى أن يواصله من الشكر لمن أنعم عليه .

« وإنه على ذلك لشهيد » : والله عز وجل ثناؤه على ذلك الكنود والجحود من بن آدم (في الآية السابقة) لشهيد ؛ وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : « وإنه » أى الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع . قال ابن كثير : وإن الإنسان على كونه كنودا لشهيد أى شهيد بلسان حاله ، فذلك ظاهر عليه في أقواله وأفعاله (بمعنى أن الكثير منها يفتقر إلى الإقرار والعرفان بفضل الله عليه ، بل ويتنافى مع العرفان والإقرار بفضل الله عليه) .

« وإنه لحب الخير لشديد » : الخير هنا هو المال (٢) . لشديد أى لقوى في حبه للمال مُجد في طلبه متهالك عليه . قال عديّ :

ماذا تُرَجِّى النفوسُ من طَلَبِ الـ خَيْرِ وَحُبِّ الْحَيَاةِ كَارِبُهَا (٣)

وقيل : لشديد أى لبخيل ، ويقال للبخيل : شديد ومتشدد ، ويكون المعنى على هذا أن الإنسان يبخل بالمال لفرط حبه له وحرصه عليه .

(١) وقيل : إِنَّمَا سَمَّيْتُ كَنُودَةً كَنُودًا لِأَنَّهَا جَحَدَتْ أَبَاهَا . والأرضُ الكنود هي التي لا تنبت شيئا .

(٢) قال ابن زيد : سَمَّى اللَّهُ الْمَالَ خَيْرًا ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ شَرًّا وَخَيْرًا ؛ وَلَكِنَّ النَّاسَ يَعْدُونَهُ خَيْرًا فَسَمَاهُ اللَّهُ خَيْرًا لِذَلِكَ .

(٣) كَارِبُهَا : غَامُهَا ؛ مِنْ كَرَبَ الْأَمْرُ : اشْتَدَّ عَلَيْهِ .

﴿ وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾

٣، ١ - العصر (١٠٣)

وهذا تعبير آخر من التعبيرات التي تتحدث عن الإنسان وطبيعته ونقاط ضعفه وسبل تقويمها^(١)، ويمتد ليشمل سورة بأكملها هي سورة العصر.

والعصر هو الزمان مطلقا يقسم الله به إذ تقع فيه حركات الناس وأعمالهم. وقيل: هو الوقت المعروف الذي تجب فيه صلاة العصر. وقيل: هو قسم بصلاة العصر لفضلها لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور. والمشهور هو القول الأول.

« إن الإنسان لفى خسر » أى فى غبن وهلكة. أقسم تعالى على أن الإنسان لفى خسارة وهلاك إلا الذين استثناهم. إنها حقيقة ضخمة تؤكدنا السورة: فالإنسان، على امتداد جميع العصور، ليس أمامه إلا منهج واحد للربح، وليس له إلا طريق واحد للنجاة - هو طريق الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والصبر - وكل ما عدا ذلك ضياع وخسار.

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » والإيمان هو اتصال هذا الكائن الإنسانى الفانى الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلى الباقي الذى صدر عنه الوجود. والانطلاق حيثئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير، ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الأباد التى لا يعلمها إلا الله.

ثم إن مقومات الإيمان هى بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة - فالتعبد لإله واحد يرفع الإنسان عن العبودية لسواه، فلا يذل لأحد، ولا يحنى رأسه لغير الواحد القهار.

ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله. ثم برقابة الله على الضمائر وإطلاعه على السرائر. وهناك التبعة على حرية الإرادة وشمول الرقابة، وما تثيره فى حس المؤمن من يقظة وحساسية.

ومن إحياءات الإيمان الارتفاع عن التكالب على أعراض الدنيا واختيار ما عند الله - وهو خير وأبقى - والتنافس على ما عند الله يرفع ويظهر وينظف.

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير الذى ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وهو المحور الذى تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة - ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يقوم على أساس الإيمان بالله: ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد

(١) ومن هذه التعبيرات أيضا التعبير رقم ٥٤٧، ورقم ٥٦٠، ورقم ٥٦٤.

اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرّون مما كسبوا على شيء ﴿١٨﴾ - إبراهيم ، وفي سورة
النور ﴿٣٩﴾ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ﴿٣٩﴾
الآية ٣٩ . وهى نصوص صريحة فى إهدار قيمة العمل كله مالم يستند إلى الإيمان - الإيمان
الذى يجعل للعمل دافعا موصولا بمصدر الوجود ، وهادفا متناسقا مع غاية الوجود .

«وعملوا الصالحات» أى الأعمال التى تكون نافعة لنفسك ولأهلك ولقومك وللناس
أجمعين ، بعيدا عن أن تضر أحدا إلا لكف ضرر أعظم منه .

قال ابن كثير : استثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا
الصالحات بجوارحهم .

« وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » : أوصى فلانا بالشىء ؟ أمره به وفرضه عليه . وأوصى
به فلانا : استعطفه عليه .

« وتواصوا بالحق » : أوصى بعضهم بعضا ، وحث بعضهم بعضا على التمسك بالحق ؛
ومنه الثبات على الإيمان بالله وكتبه ورسله والعمل بشريعته .

« وتواصى بالحق ضرورة لأن النهوض بالحق عسير والعقبات كثيرة منها : هوى النفس
ومنطق المصلحة وتصورات البيئة من حولك وطغيان الطغاة . والتواصى تذكير وتشجيع
وإشعار بالقربى فى الهدف والأخوة فى العبء ، فيحس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه
ويشجعه ويقف معه . ومن خلال لفظ التواصى تبرز صورة الأمة أو الجماعة المتضامنة
المتضامنة .

« وتواصوا بالصبر » : أوصى بعضهم بعضا بالصبر عن المعاصى التى تميل إليها النفس
بالطبيعة البشرية ؛ والصبر على الطاعات التى يشق على النفوس أداؤها ؛ والصبر على البلايا
التي تصيب الناس ويصعب على النفوس احتمالها .

« وتواصى بالصبر ضرورة . فالقيام على الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من
أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . لا بد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير ، والصبر على
الأذى والمشقة وعلى تبجح الباطل وعلى طول الطريق .

« وفى جعل التواصى بالصبر قرينا للتواصى بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه ،
ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ١٥٣ - البقرة .

ذكر الطبرانى من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله بن حصن قال : كان
الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة
العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر ! وقال الشافعى : لو تدبر الناس هذه السورة
لوسعتهم .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ

يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ٤ - ٧ - الماعون (١٠٧)

يتكون هذا التعبير من كلمتين اثنتين الجناس بينهما يكاد يكون تاما، إلا أنهما متضادتان في المعنى: فبينما تعنى الأولى المنع، تعنى الثانية العون.

«الماعون» اسم المفعول من أعان يعين أى ساعد، وأعانه وعاونه بمعنى.

وقيل: الماعون أصله معونة، والألف عوض من الهاء؛ حكاها الجوهري. والمعونة والعون: الإمداد بالقوة والآلات والأسباب الميسرة للأمر.

ذكر الزجاج وأبو عبيدة والمبرد أن الماعون فى الجاهلية هو كل ما فيه منفعة. وقال ابن مسعود هو اسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك مما يتعاوره الناس (أى يتداولونه) بينهم كالمح والماء أيضا، فقد روى عن ابن عباس أن الماعون هو العارية (١).

وروى عن على رضى الله عنه أن الماعون هو زكاة المال؛ رواه الضحاك أيضا عن ابن عباس. وقال سعيد بن المسيب: الماعون المال بلسان قريش.

وقال قطرب: أصل الماعون من القلة، والمعن: الشيء القليل؛ تقول العرب: ماله سَعَةٌ ولا مَعَةٌ، وهو مثل يضرب لمن لا مال له، والسعنة الشيء الكثير والمعنة الشيء القليل. فسمى الله عز وجل الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعونا لأنه قليل من كثير.

والذين هم عن صلواتهم ساهون هم الذين يؤخرونها عن وقتها الأول إلى وقتها الآخر دائما أو غالبا، وهم الذين يغفلون عن أدائها بأركانها وشروطها، وهم الذين يغفلون عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فهم يؤدون أقوالها وأفعالها بلا استحضار للمعاني فى القلوب. ومن هنا لا تنشأ الصلاة آثارها فى نفوس هؤلاء الساهين، فهم يمنعون الماعون، أى المعونة والبر والخير عن إخوانهم فى البشرية.

والذين هم عن صلواتهم ساهون يصلون رياء للناس لا إخلاصا لله، وفى الإسلام لا تغنى مظاهر العبادات والشعائر ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار فى القلب تدفع إلى العمل الصالح. ولو كانوا يقيمون الصلاة حقا لله ما منعوا العون عن عباده.

(١) العارية: ما تعطيه غيرك على أن يردده إليك.

الصَّمَدُ : من أسماء الله الحسنی

« الله الصمد » أى الذى يُصمَدُ إليه فى الحاجات أى يُقصد، من الفعل : صَمَدَه وصَمَدَ إليه يَصْمَدُ صَمَدًا وصُمودًا : قصده . ومثله قوله تعالى : ﴿ ثم إذا مسكم الضرُّ فإليه تجأرون ﴾ ٥٣ - النحل .

وقال أهل اللغة : الصمد السيد الذى يُصمد إليه فى النوازل والحوادث . وقال قوم : الصمد الدائم الباقى الذى لم يزل ولا يزال .

وقال أبو هريرة : إنه المستغنى عن كل أحد والمحتاج إليه كلُّ أحد . وقال السدى : إنه المقصود فى الرغائب ، والمستعانُ به فى المصائب .

خرَّج مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة فشق ذلك عليهم وقالوا : أينما يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » وقوله الله الواحد الصمد كناية عن : قل هو الله أحد . وثبت فى الصحيحين ، البخارى ومسلم ، قول النبى ﷺ إن سورة « قل هو الله أحد » تعدل ثلث القرآن . قال بعض العلماء إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الإسم الذى هو « الصمد » فإنه لا يوجد فى غيرها من السور ، وكذلك « أحد » . وفى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال : « إن الله جل وعز جزءاً القرآن ثلاثة أجزاء فجعل « قل هو الله أحد » جزءاً من أجزاء القرآن . لهذا قيل إن القرآن أنزل أثلاثاً ، ثلثاً منه أحكام ، وثلثاً منه وعد ووعيد ، وثلثاً منه أسماء وصفات ، وقد جمعت « قل هو الله أحد » الأسماء والصفات .

أهم المراجع

محمود بن عمر الزمخشري
الراغب الأصفهاني
أبو بكر محمد السجستاني
الإمام القرطبي
الإمام إسماعيل بن كثير
عبدالله بن أحمد النسفي
جلال الدين المحلي وجلال
الدين السيوطي
الشوكاني
الشيخ حسنين مخلوف
الشيخ حسنين مخلوف
الاستاذ سيد قطب
مجمع البحوث الاسلامية
محمد فؤاد عبدالباقي
مجمع اللغة العربية بالقاهرة
ابن منظور
مجمع اللغة العربية بالقاهرة
مجمع اللغة العربية بالقاهرة
ابن حجر العسقلاني
محمد محمد عتريس إبراهيم
محمد محمد عتريس إبراهيم

- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل
وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
- المفردات في غريب القرآن
- تفسير غريب القرآن
- تفسير القرطبي
- تفسير القرآن العظيم
- تفسير القرآن الجليل
- تفسير الجلالين
- فتح القدير
- صفوة البيان لمعاني القرآن
- كلمات القرآن
- في ظلال القرآن
- التفسير الوسيط
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
- معجم ألفاظ القرآن الكريم
- لسان العرب
- المعجم الوسيط
- المعجم الوجيز
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري
- شرح ومعاني جزء «عم»
- شرح ومعاني جزء «تبارك»

تم بحمد الله وعونه الانتهاء من
تأليف «معجم التعبيرات القرآنية»
يوم الاثنين الخامس عشر من شهر
شعبان المبارك سنة ١٤١٨هـ الموافق ١٥
ديسمبر ١٩٩٧. صلى الله على سيدنا
محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه
وسلم تسليما كثيرا.

الكشافان

الأول : كشاف التعبيرات القرآنية على أساس الترتيب الأبجدي للكلمة الأولى من التعبير .
الثانى : كشاف التعبيرات القرآنية على أساس الترتيب الأبجدي للكلمة الأساسية فى كل
تعبير .

إرشادات بشأن استخدام الكشافين

- ١ - أورد الكشاف الأول الكلمات الأولى من التعبير كما هى فى المصحف ، وأثبت أمام كل منها رقم تعبيرها ، فالدليل إلى معرفة مكان التعبير هو رقم التعبير وليس رقم الصفحة .
- ٢ - عند ترتيب الكشاف الأول ، لم نجرد أوائل الكلمات من كل الحروف التى لحقت بها ، وإنما جردناها فقط من : أداة التعريف « أل » ، وحرفى العطف : الواو والفاء ، ولا الناهية ، ولا النافية .
- أما فى الكشاف الثانى فقد تم تجريد أوائل الكلمات من كل الحروف .
- ٣ - الكلمات فى الكشافين مرتبة ترتيبا أبجديا حسب النطق ووفق الحروف الأولى للكلمات ودون اعتداد بأصل الكلمة الذى اشتقت منه . أى أن القارئ لن يحتاج إلى رد الكلمة التى يبحث عنها إلى مصدرها ، كما هو الحال بالنسبة لمعجمنا العربى ، وإنما سيجدها فى الكشاف حسب ترتيب حروفها على طريقة المعجم الإنجليزى .
- ٤ - الحرف المشدّد حرف مضعف ويحسب حرفين ، فمثلا « إنَّ » تحتسب همزة ونونا ونونا .
- ٥ - حرف الألف من حروف العلة الثلاثة (الألف والواو والياء) ويأتى ترتيبه بعد الواو وقبل الياء .
- أما حرف الهمزة فترتيبه الأول فى الأبجدية .

أولا : كشاف التعبيرات القرآنية
على أساس الترتيب الأبجدي للكلمة الأولى من التعبير

حرف الهمزة

١٩١	وإذا قلتم فاعدلوا	٥٥٦	أنتنا لمرودون
٣٤٢	فأذاقها الله لباساً	١٥٢	وأتبعوا إليه الوسيلة
٤٤١	وإذا وقع القولُ	٣٧٠	أبصر به وأسمع
٤١٩	أرسلنا رسلاً	١٣	أتأمرون الناس بالبر
١٥٥	فاستبقوا الخيرات	٤٣٧	أتبنون بكل ريع آية
٦٨	استمسك بالعروة	١٨	أتخذنا هزواً
٢٤٧	أسس بنيانه	٢٠٢	أتخذوا دينهم لهواً
٨٨	أسلمت وجهي	٢٤٦	اتخذوا مسجداً ضراراً
٣٨٢	أسمع بهم	٨٠	واتقوا الله ويعلمكم
٣٧٨	واشتعل الرأسُ	٢٢٤	واتقوا فتنة
٣٨٨	اشدد به أزرى	٤٦	وأتموا الحج
٢٦٠	واشدد على قلوبهم	٤٣	وأتوا البيوت من أبوابها
٢٧	وأشربوا في قلوبهم	٢٣٦	اناقلتم إلى الأرض
٤٤٢	وأصبح فؤاد أم موسى	٥٤	وإثمهما أكبرُ
٣٣١	فاصدع بما تؤمر	٤٣٦	وأجعل لي لساناً
٣٩٢	واضطنعتك لنفسي	٣٥٦	وأجلب عليهم
٣٣٠	فاصفح الصفح الجميل	٣٧٣	أحدث لك منه ذكراً
٥١١	أصلح بالهم	١٢٣	وأحضرت الأنفسُ
٤٠٤	أصلحنا له زوجه	٣٨٧	وأحلل عقدةً
٢١٧	وأصلحوا ذات بينكم	٢٢	وأحاطت به خطيئته
٢٧٠	واصنع الفلکَ	٣٧١	وأحيط بشمره
٢٩١	أضغات أحلام	٤٩	أخذته العزةُ
٥٠٧	أضلَّهُ الله على علم	٣٤٨	واخفص لهما
٩٤	واعتصموا بحبل الله	٢١٦	وإخوانهم يمدونهم
٣٩٣	أعطى كلَّ شيء	٥٠	ادخلوا في السلم
٢٢٣	واعلموا أن الله يحول	٧٨	وأذني الأترتابوا
٥٩	واعلموا أن الله يعلم	٤٨٨	إذ القلوب لدى الحناجر
٢٢٥	واعلموا أننا أموالكم	٣١٢	وإذ تأذن ربكم
٢٨٠	اعملوا على مكاتكم	٣٦٠	وإذا أنعمنا على الإنسان
٤٣١	أعمالهم كسراب	٣٨١	إذا قضى أمراً

٥١٣	أم على قلوب أفعالها	١٤٦	فأغرَبْنَا بينهم العداوة
١٦١	أمة مقتصدة	٤٥٣	واغضُضْ من صوتك
٨٣	فأما الذين في قلوبهم	٣٢٢	وأفتدتهم هواء
٣٠٧	فأما الزبدُ	٥٣٤	أقْبِهَذَا الحديد
٥٦١	فأما من أعطى	٢٥	أفتؤمنون ببعض الكتاب
٥٦٢	وأما من بخل	٤٢٣	أفَحَسِبْتُمْ أَنما
٤١٧	أن اصنَع الفلك	٦٦	أفرغ علينا صبرا
٢٦٣	وأن أقم وجهك	٥٠٢	أفَنَضْرِبُ عنكم الذكر
٣٢٦	وأثبتنا فيها	١٥٦	أقسَموا بالله
١٩٩	وأن تشركوا بالله	٤٥٢	وأقصد في مشيك
٦٠	وأن تعفوا أقرب	٧٧	وأقوم للشهادة
٣٨٣	وأذرههم يوم الحسرة	٢٨٣	أكرمي مثواه
٥١٥	أنزل السكينة	٢٠٣	والبلد الطيب
٥٣٥	وأنفقوا مما جعلكم	٥٤٨	والذين في أموالهم
٤٢٨	وأنكحوا الأيامى	٢٦٩	الذين يصدون
٥٢٧	وأن ليس للإنسان	٩	الذين ينقضون
٥٥٠	وأنه تعالى	١١١	والقوا إليكم
٣٤٥	إن أحسنتم	٣٨٩	والأقيتُ عليك
٣٢٠	وإن تعدوا نعمة الله	٥٦٧	الله الصمد
٢٥٨	إن عندكم من سلطان	٢٨٤	والله غالبٌ
٩٨	انقلبتم على أعقابكم	٤٨٤	الله نزل أحسن الحديث
٤١٠	انقلب على وجهه	٤٢٩	الله نور السموات
٧٦	وإن كان ذو عسرة	٥٥٧	والليل إذا عسعس
٣٢٧	وإن من شيء	٣١٦	ألم تر كيف ضرب الله
٣٤٣	إن إبراهيم كان أمة	٥٥٥	ألم تجعل الأرض
٥٤٧	إن الإنسان خلق هلوعا	٢٣٢	إلا تفعلوه
٥٦٤	إن الإنسان لربه لكنود	٢٩٧	إلا حاجة في نفس
٢٧٩	إن الحسنات	٣٤٠	إلا من أكره
٨٧	إن الدين عند الله	٣٠٩	ألا بذكر الله
٣٨٤	إن الذين آمنوا	٢٧٣	ألا بعدا لعاد
٥١٠	إن الذين قالوا	٤٨٥	أليس الله بكاف
١١٨	إن الصلاة كانت	٤٧٥	اليوم نختم
٣٥٢	إن العهد	٤٩٣	إليه يرد
٢٤٩	إن الله اشترى	٤٣٣	أمطرت مطر السوء

٤١٥	فإنها لا تعمى الأبصار	١٨١	إن الله فائق الحب
٤٨٣	إنا أخلصناهم	٣٠٤	إن الله لا يغير
٤٧٣	إنا جعلنا في أعناقهم	٤١٣	إن الله يدافع
٤٦٦	إنا عرضنا الأمانة	٣٤٩	إن المبذرين كانوا
٢٠٤	إنا لنراك في سفاهة	٤٣٩	إن الملوك إذا دخلوا
٤٩٠	إنا لننصر رسلنا	٢٩٣	إن النفس لأمارة
٣٢٤	إنا نحن نزلنا الذكر	٤٤٥	وإن أوهن البيوت
٤١٦	وإن يوماً عند ربك	٤٥٩	إن بيوتنا عورة
١٢٦	وإن يتفرقا	٤٥٠	إن ذلك من عزم
٢٦٤	وإن يميسك	٢٤٤	إن صلاتك سكن
٣٩٦	فأوجس في نفسه	٥٥٢	إن علينا جمعه
٢٧٤	وأوجس منهم	٥٢٥	فإنك بأعيننا
١٦٠	أوقدوا ناراً	٣٩٨	فإن لك في الحياة
١٥٧	أولئك شرُّ مكانا	٥٤٣	إنما أموالكم
١٨٨	وأتوا حقّه	٣٢٥	إنما سكرت أبصارنا
٤٤٤	وآتيناه من الكنوز	٤٧١	إنما يخشى الله
٥٥٣	أيحسب الإنسان	٢٧١	إنه عملٌ غيرُ صالح
٣	وإياك نستعين	٣٣٩	إنه ليس له سلطان
		٣٠١	إنه من يتق

حرف الباء

٤٥٨	وبلغت القلوبُ الحناجرَ	٣٨	بالمعروف
١٥٩	بل يدها مبسوطتان	٢٥٣	وبشر الذين آمنوا
١٦	وباؤوا بغضب	٢٨٢	بل سؤلّت لكم
٤١	باشروهن	٢٨٥	بلغ أشدّه

حرف التاء

٣٦	ولا تتبعوا خطوات	١٧٢	تبتغي نفقا
٣٧٤	تتخذَ فيهم حُسنا	٢٠٥	ولا تبخسوا الناسَ
٩٠	تتقوا منهم تُقاة	٢٧٦	ولا تبخسوا الناسَ
٣٠٢	لا تثريب عليكم	٩٣	تبغونها عوجا
٥٧	ولا تجعلوا الله عرضة	١٤٩	تبوء بائمي
٣٥٠	ولا تجعل يدك مغلولة	١٠٥	فلا تبغوا عليهن
٣٢١	ولا تحسبن الله غافلا	١٢٨	فلا تتبعوا الهوى

٥١٩	لا تقدموا بين يدي الله	٣٠٠	فتحسسوا من يوسف
٣٥١	ولا تقربوا الزنا	٤٦٢	فلا تخضعن بالقول
٥٥	ولا تقربوهن	١٨٣	لا تدرکه الأبصارُ
٣٩١	تقرَّ عَيْنُهَا	٤٢	وتُدلُّوا بها إلى الحكام
٣٤	وتقطعت بهم الأسبابُ	٤٦٠	تدورُ أعينُهُم
٤٢١	فتقطعوا أمرَهُم	٢٢٨	وتذهب رِيحَهُم
٢٠٦	ولا تقعدوا بكل صراط	١٤٨	ولا ترتدوا على أديباركم
٣٥٣	ولا تَقْفُ ما ليس لك	٢٧٨	ولا تركنوا إلى الذين
٣٦٨	ولا تقولن لشيء	٤٧٨	وتركنا عليه في الآخرين
٨١	ولا تكتموا الشهادة	٢٢٩	تراءت الفتنان
١٩٢	ولا تكسب كل نفس	١٦٣	ترى أعينَهُم تفيض
٥٨	لا تُكَلِّفَ نفسٌ	٤٠٧	وترى الأرض هامة
٣٣٦	ولا تكونوا كالتى نقضت	٥٠٨	وترى كل أمة
٤٥	ولا تلقوا بأيديكم	١٩٣	ولا تزرُ وازرةً
١٠٠	ولا تلون على أحد	٣٤٧	ولا تزرُ وازرة
٣٥٤	ولا تَمْشِ في الأرض	٣٣٧	فتزل قدمُ
١٢٥	فلا تملوا كل الميل	٤٢٦	تستأنسوا وتسلموا
٦١	ولا تَنسُوا الفضلَ	٤٩٢	ولا تستوى الحسنةُ
٣٩٥	فتنازعوا أمرَهُم	١٢	ولا تشتروا بآياتى
١١٩	ولا تهنوا فى ابتغاء	١٥٤	ولا تشتروا بآياتى
٥١٤	فلا تهنوا وتدعوا	٤٥١	ولا تصعر خدكُ
٢٢١	فلا تولوهم الأديبارَ	٥١٢	تضع الحربُ أوزارها
٥٢٢	فتولى بركنه	٢٤	تظاهرون عليهم
٦٩	ولا تيمموا الخبيثَ منه	٧٣	تعرفهم بسماهم
١٣٩	فتيمموا صعيداً طيباً	٤٥٥	فلا تغرنكم الحياة الدنيا
		١٣٥	لا تغلوا فى دينكم

حرف التاء

٤٠٨	ثانى عطفه	٦٧	وَبَيَّتْ أَقْدَامَنَا
		١٦٧	ثم الذين كفروا بربهم

حرف الجيم

٤٢٠	وجعلناهم أحاديثاً	٣٣٤	لاجرّم أن الله يعلم
٣٩٤	فجمع كيدَه	١٦٩	وجعلنا على قلوبهم أكنة
٢٩٤	جهزهم بجهّازهم	١١٤	جعلنا لكم عليهم سلطانا
١٣٨	جاء أحدٌ منكم من الغائط	٤٠٢	وجعلنا من الماء كل شيء
		٤٧٤	وجعلنا من بين أيديهم

حرف الحاء

١١٠	حصّرت صدورهم	٢٣٥	حتى يُعطوا الجزية
٢٨٩	حاشَ لله	٢٠٠	حتى يُلجّ الجملُ
٤٧	حاضرى المسجد الحرام	٢٩٢	حصّصَ الحق

حرف الخاء

١٧	خذوا ما آتيناكم بقوة	٤٢٥	الخبِيثات للخبِيثين
٢٩٩	خَلَصُوا نَجِيًّا	٥	ختم الله على قلوبهم
٤٠٣	خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ	١٧٤	وختم على قلوبكم
		٢١٥	خُذْ الْعَفْوَ

حرف الدال

		١٩٦	فَدَلَا هُمَا بِغُرُورٍ
--	--	-----	-------------------------

حرف الذال

٤٩٥	فذو دعاء عريض	٣١١	وذكرهم بأيام الله
١٤٢	ذات الصدور	٢٣١	ذلك بأن الله

حرف الراء

١٠٤	الرجال قوامون	٢	رب العالمين
٢١٢	ورحمتي وسعت	٢٥٩	ربنا اطمس
١	الرحمن الرحيم	٢٠٧	ربنا افتح
٥٣٠	الرحمن علم القرآن	٥٤٠	ربنا لا تجعلنا فتنة
٣٤٤	رددنا لكم	٨٤	ربنا لا تزرغ قلوبنا
٣١٣	فردوا أيديهم	٤٨٧	ربنا وسعت كل شيء
١٣٤	الراسخون في العلم	٤٣٥	رب هب لي
٢٨٦	وراودته	٣٦٦	وربطنا على قلوبهم
		٣٦٩	رجما بالغيب

حرف الزاي

٤٥٧	زَيْن للناس	٦٤	وزاده بسطة
		٤٥٧	زاغت الأبصار

حرف السين

٢٩٥	سنراود عنه أباه	١٤٧	سبل السلام
٤٩٦	سنريهم آياتنا	٣٠	سفه نفسه
٢٥٠	ساعة العسرة	٢١٠	سقط في أيديهم
٣٢	فسيكفيكهم الله	٢١١	سكت عن موسى
		٤٦١	سلقوكم بالسنة

حرف الشين

١٨٥	شياطين الإنس	٢٨٨	شَعَفَهَا حُبًا
		٥٣٣	فشاربون

حرف الصاد

١٢٢	والصلح خير	٣٣	صبغة الله
١٠٦	والصاحب بالجنب	٢٥٢	صرف الله قلوبهم
		٥٥٨	والصبح إذا تنفس

حرف الضاد

٢٦٨	وضائق به صدرك	٣٣٥	وضرب الله مثلاً
٢٧٥	وضاق بهم	١٥	وضربت عليهم الذلة
٢٣٤	وضاقت عليكم	٣٦٥	فضربنا على آذانهم
٢٥١	وضاقت عليهم	٢٨	ضلّ سواء السبيل

حرف الطاء

١٥٠	فطوّعت له نفسه	٢٤١	وطّعت على قلوبهم
		٣١٠	طوبى لهم

حرف الظاء

٤٤٨	ظهر الفسادُ	٩٦	ظلموا أنفسهم
		٢٥٤	وظنوا أنهم

حرف العين

٥١٦	دائرةُ السوء	١١٥	عرَضَ الحياة الدنيا
١٧٦	وعنده مفاخ الغيب	٥٢	وعسى أن تكرهوا
٤٧٧	وعندهم قاصرات الطرف	٥٦٥	والعصر
٥٥٤	عَالِيَهُمْ	٧	وعلى أبصارهم
		٣٣٣	وعلى الله قصد السبيل

حرف الغين

١٥٨	عُلت أيديهم	٣٦٧	عَلَبُوا على أمرهم
-----	-------------	-----	--------------------

حرف الفاء

١٨٢	فالقُ الإصباح	٤٤	والفتنة أشد من القتل
١٧٠	وفى أذانهم وقرأ	٥٣	والفتنة أكبر من القتل
٣١	فى شقاق	٤٨٢	فصلُ الخطاب
٧	فى قلوبهم مرضٌ	٤٦٨	فلا قوت

حرف القاف

٥٤٩	فقلت استغفروا ربكم	١٠٢	وقد أفضى بعضكم
٣٥٨	وقل جاء الحق	٣٧٩	وقد بلغت من الكبر
٣٥٧	وقل رب أدخلني	٢٥٧	قد جاء تكلم موعظة
٣٦٢	قل لئن اجتمعت الإنس	١٨٤	قد جاءكم بصائرُ
٣١٩	قل لعبادى الذين آمنوا	٥٢١	قد علمنا ما تنقص الأرض
٣٥٥	وقل لعبادى يقولوا	٣٢٣	وقد مكروا مكروهم
٤٢٧	وقل للمؤمنات يغضضن	٥١	وقضى الأمرُ
٢٣٨	قل لن يصيبنا	٤٦٤	قضى زيدٌ منها وطرا
٣٦٣	قل لو أنتم تملكون	١٧٣	فقطع دابر القوم

٢٨٧	وقالت هَيْتُ لك	٣٧٦	قل لو كان البحرُ
٣٨٦	قال رب اشرح	٢٦	قلوبنا غُلف
٤٤٣	قال سنشد عضدك	١٣٣	قلوبنا غُلف
٣٩٧	قال فما خطبُك	٤٨٦	قل يا عبادي الذين
٤٤٠	قالوا اطيرنا بك	٢٣	وقولوا للناس حسناً

حرف الكاف

١١٣	كُلما رُدوا إلى الفتنة	٢٥٦	كأنما أغشيت وجوههم
٣٦١	كُل يعملُ	٣٦٤	كبرت كلمةٌ
١٩٨	وكُلوا واشربوا	٣٠٦	كباسط كفيه
١١	وكَلّا منها رَغداً	١٦٨	كَتَبَ على نفسه
٦٥	كم من فئة قليلة	٨٥	كدآب آل فرعون
١٢٧	كونوا قوامين بالقسط	٢٧٧	وكذلك أخذ ربك
١٤٣	كونوا قوامين لله	٢١	كسب سيئة
٣٧٥	كانت أعينهم	٥٢٣	كُلّ امرئ بما كسب
٥٢٦	فكان قاب قوسين	٣٤٦	وكل إنسان أزرماه
٥٥١	فكيف تتقون	٥٢٩	وكل شيء فعلوه
		٩١	كلمة سواء

حرف اللام

٤٩٩	ولمَن انتصر	١٩٧	ولباس التقوى
٥٣١	ولمَن خاف	٣٩٠	ولئصنع على عيني
٥٠٠	ولمَن صَبَرَ	٧٠	ولستُم بأخديه
٤٧٩	فلما بلغ معه السعى	١٦٢	لستُم على شيء
٤٣٨	فلما جاءتهم آياتنا	٤٧٦	لطمسنا على أعينهم
٦٣	ولم يُؤت سعةً	٣٢٩	لعمرك إنهم
١٢٤	ولن تستطيعوا	٢٦١	ولقد بوأنا بني إسرائيل
٩٢	لن تنالوا	٤٨٠	ولقد سبقت كلمتنا
١٢٩	ولن يجعل الله	١٧٨	لكل نبأ مستقر
١٨٠	لهمُ الأمنُ	٣٩	ولكم في القصاص
٢٠٨	ولو أن أهل القرى	٢٢٧	ولكن ليقضى الله
٤٥٤	ولو أن ما في الأرض	٥٣٧	لكي لا تأسوا
٤٩٧	ولو بسط الله	٤٢٢	للجوا في طغيانهم

٢١٩	وَكَيْرَبُطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ	٢٦٢	وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
٥١٧	لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى	٤٠١	لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ
٤٢٤	وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا	٤٨١	وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ
٥٥٧	وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ	١٤٥	وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ
٩٧	وَكَيْمُحِصَّ اللَّهُ	٢٤٨	لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ
٤١١	فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ	١١٦	وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ
٤١٤	وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ	١٠١	وَلْيَخْشَ الَّذِينَ

حرف الميم

٥٣٦	وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا	١٣٧	مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ
٥٢٨	وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ	٥٤٢	مِثْلَ الَّذِينَ حَمَلُوا
٢٩٠	مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا	٣١٥	مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا
٥٠٦	فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ	٣١٧	وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
١١٢	فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ	٢١٤	فَمِثْلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ
٤٠٠	وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ	٥١٨	وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ
٨	فَمَا رَاحَتْ تِجَارَتُهُمْ	١٣٠	مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ
٢٢٢	وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ	٢٩٨	مَعَاذَ اللَّهِ
١٦٤	مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ	٢٩	مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ
٢٤٢	مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ	٣٩٩	وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي
٥٠٩	مَا كُنْتُ بِدَعَا	١٩٥	فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ
٤٩١	وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ	٤٩٨	فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ
٤٦٣	وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ	٣٣٨	مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
٩٩	مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا	٤٨	فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ
٣١٤	وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ	١٥١	مَنْ قَتَلَ نَفْسًا
٢٣٧	فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا	١٠٣	وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
٢٧٢	مَا مِنْ دَابَّةٍ	٨٢	مِنْهُ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ
٢٦٧	وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ	٢٣٩	وَمَنْ يَكْمُرْكَ
٤٤٦	وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا	٥٤٤	وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
١٤٠	مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ	٤١٢	وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ
٤٧٠	وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى	٥٠٥	وَمَنْ يَعْمُرْ
١٢١	وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ	٥٦٣	فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
١٤١	مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِثْقَالِهَا	١٢٠	وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً

حرف النون

١٠٩	نَطْمَسُ وُجُوهاً	٥٢٤	تَتَرَبَّصُ بِهِ
٥٦٠	وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا	٣٢٨	وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ
٢٣٠	نَكْصَ عَلَيَّ عَقْبِيهِ	٥٠٤	نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ
١٩٠	لَا نَكْلَفُ نَفْسًا	٣٧٧	نَدَاءً خَفِيًّا
٣٥٩	وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ	٥٦	نَسَاؤَكُمْ حَرِّثَ لَكُمْ
		٢٠٩	وَنَطْبَعُ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ

حرف الهاء

٣٧٢	وَهِيَ خَاوِيَةٌ	٥٣٢	هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ
٤١٨	هِيَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ	٤٠	هَنْ لِيَأْسَ لَكُمْ
		٤٣٤	وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

حرف الواو

١٧١	وَقُفُوا عَلَيَّ رَبِّهِمْ	٥٠٣	وَجَدْنَا آبَاءَنَا
		١٧٩	وَسَعِ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا

حرف الياء

١٥٣	يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ	٢٤٥	وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ
١٠٨	يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ	٥٣٩	وَيُؤْثِرُونَ عَلَيَّ أَنفُسَهُمْ
٢٠	يُحَرِّفُونَهُ	١٤٤	يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
٧٢	يُحَسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أُغْنِيَاءَ	١٨٩	يَبْلُغُ أَشُدَّهُ
٢٩٦	يُحَاطُ بِكُمْ	٧٥	يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ
٤٧٢	وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ	٨٩	لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ
٤٤٧	يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ	٢٤٣	وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدُّوَابُّ
٣٣٢	وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ	٣١٨	يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
٢٨١	يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ	٢٢٠	وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ
٤٣٠	يَخَافُونَ يَوْمًا	٢٦٥	يَتَنَوَّنُ صُدُورَهُمْ
٣٠٣	يَدْبُرُ الْأَمْرَ	١٣٦	وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومَ
٤٥٦	يَدْبُرُ الْأَمْرَ	١٨٧	يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا
٣٠٨	وَيُدْرِوونَ بِالْحَسَنَةِ	٢٢٦	يَجْعَلُ لَكُمْ فِرْقَانًا
٤٦٥	يُدْنِينَ عَلِيَهُنَّ	١٣٢	لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ

١٧٥	يَقْصُ الْحَقَّ	٤٠٦	يُرد إلى أرذل العمر
١٠	ويقطعون ما أمر الله	٥٣٨	يرفع الله الذين آمنوا
٤	ويقيمون الصلاة	٢٥٥	ولا يرهق وجوههم
١٩٤	فلا يكن في صدرك	٣٥	يريهم الله أعمالهم
١٧٧	يلبسكم شيعة	٧٤	لا يسألون الناس
٥٦٦	ويمنعون الماعون	٤٩٤	لا يسأم الإنسان
١١٧	فيميلون عليكم	٣٠٥	يسبح الرعد بحمده
٥٠١	ينظرون من طرف	٧١	لا يستطيعون ضربا
٣٧	ينعق بما لا يسمع	٢٦٦	يستغشون ثيابهم
١٠٧	ينفقون أموالهم	١٤	يسومونكم سوء العذاب
١٩	يهبط من خشية الله	٤٤٩	يشترى لهوى الحديث
٩٥	يولوكم الأدبار	١٨٦	يشرح صدره
٣٤١	يوم تأتي كل نفس	٢٣٣	ويشف صدور قوم
٤٠٥	يوم ترونها	٢١٣	ويضع عنهم إصرهم
٤٣٢	ويوم يعرض الظالم	٧٩	ولا يضار كاتب
٥٤٦	يوم يكشف عن ساق	٤٠٩	يعبد الله على حرف
٥٥٩	يا أيها الإنسان إنك	٢٠١	يعرفون كلا بسماهم
٥٢٠	يا أيها الذين آمنوا إن	٤٦٧	لا يعزب عنه مثقال
١٦٦	يا أيها الذين آمنوا عليكم	٣٨٥	يعلم السر
٥٤٥	يا أيها الذين آمنوا قوا	٤٨٩	يعلم خائنة الأعين
٥٤١	يا أيها الذين آمنوا لم	٢١٨	إذ يُعشيكم النعاس
١٣١	يا أيها الذين آمنوا لاتخذوا	٢٤٠	ويقبضون أيديهم
١٦٥	يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا	٤٦٩	ويقدفون بالغيب
٣٨٠	يا يحيى خذ الكتاب	٦٢	يقرض الله

ثانيا : كشاف التعبيرات القرآنية على أساس
الترتيب الأبجدي للكلمة الأساسية في كل تعبير

حرف الهمزة

٤٠٧	٢٣٦-٢٣٤	الأرض	٣٤٣	إبراهيم
	٥٥٥-٥٢١		٣٨٢-٣٧٠	أبصر
١١٣		أرْكسُوا	٣٢١-١٨٣	الأبصار
٣٨٨		أزْرَى	٤٥٧-٤١٥	
٣٤٥		أَسَاتَمُ	٣٢٥	أبصارُنَا
٣٤		الأسبابُ	٦	أبصارهم
٥٤٩		استغفروا ربكم	٤٢٧	أبصارهن
٥١٨		استغلظ	٢٣٦	أثقلتُم
٥١٠		إستقاموا	٢٤	الإثم والعدوان
٤٨٦		أسرفوا على أنفسهم	٥٤	إثمُهُمَا
٢٩		أسلم وجهه	١٤٩	إثمي
٨٧		الإسلامُ	٤٨٤	أحسن الحديث
٣٧٨		إشتعل	٣٤٥	أحسنتُم
٢٨٥-١٨٩		أشدّه	٥٣٢	الإحسان
٢٧		أشربوا	٢٩١	أحلام
١٦٥		أشياءَ	٤٢٠	أحاديثَ
١٨٢		الإصباحِ	٢٥٤	أحيط بهم
٢١٣		إصْرهم	٢٧٧	أخذ ربك
٣٩٢		أصطنعتك	٥١٨	أخرج شطئه
٣٣٠		أصفح	٣٨٥	أخفى
٥١١		أصلح	٢٢١-٩٥	الأدبار
٤٠٤		أصلحنا	١٤٨	أدباركم
٢٩١		أضغاثُ	٤٧٣	الأذقان
٤٤٠		أطيرنا بك	٤٧٥	أرجلهم
٢٥٩		أطمس	٤٠٦	أرذل العمر

٥٢٨	أمرنا	١٩١	أعدلوا
٤٢١-٣٦٧	أمرهم	٥١٧	الأعرج
٢٢٧	أمرًا	٥٦١	أعطي واتقى
٥٢٣	أمرىء	٩٨	أعقابكم
٣٦٣	أمسكتكم	٥١٤	الأعلون
٢١٨	أمته	٥١٧-٤٧٠	الأعمى
٨٢	أم الكتاب	٤٧٣	أعناقهم
٥٠٣-٣٤٣	أمة	٥٢٥-٢٧٠	أعيننا
١٦١	أمة مقتصدة	٤٧٦-٣٧٥ - ١٦٣	أعينهم
١٨٠	الأمن	٤٥٣	اغضض
٥٤٣-٢٢٥	أموالكم	٣٢٢	أفئدتهم
٥٤٨-٢٥٩	أموالهم	٢٠٧	أفتح بيننا وبين قومنا
٤٦٦	الأمانة	١٠٢	أفضى
٤٩٣	أننى	٤٧٥-٣١٣	أفواههم
٤٦٦-٤٠٣-٣٦٠	الإنسان	٢٢٠	الأقدام
٥٤٧-٥٢٧-٤٩٤		٦٧	أقدامنا
٥٦٥-٥٦٤-٥٥٩-٥٥٣		٧٧	أقوم
١٢٣	الأنفس	٣٤٠	أكره
٢٨٢-٥٩	أنفسكم	٣١٦	أكلها
٢٥١-٩٦	أنفسهم	١٦٩	أكنة
٣٣٦	أنكاثًا	٧٤	إكحافًا
٤٠٧	اهتزت	٤٦١	ألسنة
٢٠٨	أهل القرى	٣٥٥	التي هي أحسن
٥٣٨	أوتوا العلم	٤١٣-٣٣٩ - ٢٥٣	الذين آمنوا
٣٩٦	أوجس	٣٨٤	الذين آمنوا وعملوا الصالحات
٥١٢	أوزارها	٢٧٨	الذين ظلموا
٥٤٣	أولادكم	٥١٠	الذين قالوا ربنا الله
١٣١-٨٩	أولياء	٣١٥-١٦٧	الذين كفروا
١٨٨	أتوا حقه	٤٨٥	الله
٤٧٨	الآخرين	٣٠٣-٥١	الأمر

٤٤٨	أيدى الناس	٣٦٥-١٧٠	أذانهم
٢١٠-١٥٨-١٤٤	أيديهم	٥١٨	أزره
٤٧٥-٤٧٤-٣١٣-٢٤٠		٥٣٨	آمنوا
٥٧	أيمانكم	٨٢	آيات مُحكّمات
٤٢٨	الأيامى	٤٩٦-٤٣٨	آياتنا
٣١١	أيام الله	١٥٤-١٢	آياتى

حرف الباء

١٦٤	البلاغُ	٥٦٢	بَحَلْ واستغنى
٢٤٧	بنيانَه	٥٠٩	بَدَعَا
٢٤٨	بنيانَهم	٩٢	البرَّ
٤١	باشروهن	١٢٠	بريئا
٥١١	بالهم	٦٤	بَسَطَةَ
٤٤٥	بيت العنكبوت	١٨٤	بصائرُ
٤٧٧	بَيَّضُ	٤٧٠	البصير
٣١٩	بِيعُ	٢٧٣	بُعداً
٤٣	البيوت	٥٠٦	بَكَتِ السماءُ والأرضُ
٤٥٩	بيوتنا	٢٠٣	البلدُ الطيبُ

حرف التاء

٥٢	تُحبوا شيئا	٥٣٧	تَأَسَّوْا
٣٠٠	تَحَسَّسُوا	٣٣١	تَوَمَّرَ
٢١٤	تَحْمَلُ عليه	٢٧٦-٢٠٥	تَبَخَّسُوا
٤٦٢	تَخَضَّعْنَ	١٦٥	تُبَدُّ لَكُمْ
٣٥٤	تَخْرُقُ الأرضَ	١٠٥	تَبْغُوا
٤١٢	تَخْطِفُهُ الطيرُ	٣٥٤	تَبْلُغُ الجبالَ طولاً
٤٣٧	تَخْلُدُونَ	٥٢٠	تَبِينُوا
٤٢	تُدَلُّوا بها	٤١٩	تَتَرَى
٤٦٠	تَدورُ أعينُهُم	٤٣٠	تَتَقَلَّبُ فيه القلوبُ
٤٠٥	تَذْهَلُ	٣٠٢	تَثْرِيبَ
٧٨	ترتابوا	٣٤١	تُجَادَلُ
١٦٥	تَسْوُكُم	٨	تُجَارَتُهُم

٣٥٣	تَقْفُ	٤٢٦	تَسْتَأْسُوا
١٩٧	التَّقْوَى	٤٩١	تَسْتَتِرُونَ
٥٤١	تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ	١٩٨	تُسْرِفُوا
٩٠	تُقَاتَةٌ	٣٢١	تُشَخِّصُ
٢٦٢	تُكْرَهُ النَّاسَ	١٩٩	تُشْرِكُوا بِاللَّهِ
٥٢	تُكْرَهُوا شَيْئًا	٤٥١	تُضَعَّرُ
١٠٠	تَلْوُونَ	٤٠٥	تَضَعُ
٣٥٤	تَمْشُ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا	١٢٤	تَعْدِلُوا
١٣	تَنْسُونَ أَنْفُسَكُمْ	٧٢	التَّعَفُّفُ
٥٥٨	تَنْفَسُ	٦٠	تَعْفُوا
٤٤٤	تَنْوَأُ	٣٣٢	تَعْلَمُونَ
٣٩٥	تَنَازَعُوا	٥٥٠	تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا
٤٥	التَّهْلُكَةُ	١٣٥	تَعْلُوا
٥١٤-١١٩	تَهْنَأُ	٧٠	تُعْمَضُوا فِيهِ
٣٤١	تُوْفَى	٥٣٧	تَفْرَحُوا
١٣٩-٦٩	تَيَمَّمُوا	٥٥	تَقْرَبُونَهُنَّ
		٤٨٤	تَقْشَعْرُ

حرف الثاء

٢٦٦	ثِيَابِهِمْ	٤٩٣	ثَمَرَاتٍ
-----	-------------	-----	-----------

حرف الجيم

٤٨٠	جُنْدَنَا	٥٥٥	الْجِبَالُ
٣٤٨	جَنَاحَ الذَّلِّ	٢٤٧	جُرْفٌ
١٥٦	جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ	٣٣٤	جَرَمٌ
١٣٢	الْجَهْرَ بِالسُّوءِ	٥٤٧	جَزُوعًا
٢٩٤	جَهَّازِهِمْ	٢٣٥	الْجُزْيَةَ
٣٥٨	جَاءَ الْحَقُّ	٤٦٥	جَلَابِيهِنَّ
٥٠٨	جَائِيَةً	٥٥٢	جَمْعَهُ
		٢٠٠	الْجَمْلُ

حرف الحاء

٢٧٩	الحسنات	٢٨٨	حَبًا
٢٩٢	حَصْحَصَّ	١٨١	الحَبِّ
٢٩٢	الحقُّ	٩٤	حَبَّلَ اللهُ
٤٣٥	حُكْمًا	٤٨	الحجِّ
٤٢	الحكَّام	٤٦	الحجِّ والعمرة
٥٤٢	الحمار	٥٣٤	الحديث
٤٥٨	الجناجر	١١٦	جذُرهم
٢٦٣	حنيفًا	٥١٢-١٦٠	الحرب
٢٩٧	حاجة في نفس يعقوب	٥٦	حَرَثَ
٢٨٩	حاش لله	٥١٧-١٩٤	حَرَجَ
٤٧	حاضري	٤٠٩	حَرْفَ
٥٥٦	الحافرة	٤٧٠	والحرور
٤٤٦	الحيوان	١٨٢	حسانا
٥٣٦-٤٥٥ - ٤٤٦	الحياة الدنيا	٣٥	حسرات
٤٤٧	الحى	٤٩٢-٣٠٨	الحسنة
		٣٧٤-٢٣	حُسْنًا

حرف الخاء

٤٢٣	خلقناكم عبثًا	٦٩	الخيث
٣١٩	خلال	٤٢٥	الخيثات
١٤٥	خائنة	١٧٤-٥	خَتَمَ
٤٨٩	خائنة الأعين	٤٥١	خَدَكَ
٤٨٣	خالصة	٢١٥	خُدَّ
٣٧٢	خاوية	١٩	خَشِيَ اللهُ
٢٦٤	خير	٥٣٩	خَصَّاصَةً
٤٦٣	الخيرة	٣٩٧	خَطْبُكَ
١٥٥	الخيرات	٣٦	خُطوات الشيطان
٢٧٤	خيفة	٤٨٢	الخطاب
٣٠٥	خيفته	١٢٠	خطيته
٣٥٦	خيلك	٢٢	خطيته
		٢٩٩	خَلَّصُوا

حرف الدال

٥١٦	دائرةُ السَّوءِ	٨٥	دَابَّ
٢٧٢-٢٦٧	دَابَّةٌ	٥٦٠	دَسَّاهَا
٤٤١	دَابَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ	٤٩٥	دُعَاءٌ عَرِيضٌ
١٧٣	دَابِرٌ	١٩٦	دَلَّاهُمَا
٢٠٢	دَيْتَهُمْ	٢٤٣	الدَّوَائِرَ

حرف الذال

٣٩٩	ذَكَرَى	٢٧٥	ذَرَعًا
١٥	الذَّلَّةُ وَالْمَسْكِنَةُ	١٠١	ذُرِّيَّةٌ ضَعُفًا
١٤٢	ذَاتُ الصَّدُورِ	٥٠٢-٣٢٤	الذَّكْرُ
٢١٧	ذَاتُ بَيْنِكُمْ	٣٠٩	ذَكَرَ اللَّهُ
٤٠٥	ذَاتُ حَمَلٍ	٣٧٣	ذَكَرًا

حرف الراء

٣٠٥	الرَّعْدُ	٣٧٨	الرَّأْسُ
١١	رَعْدًا	١٠٧	رِثَاءَ النَّاسِ
٥٢٢	رُكْنُهُ	٤٠٧	رَبَّتْ
٢٢٢	رَمَيْتَ	٣٥٦	رَجَلِكِ
٥٢٣	رَهِينٌ	٣٦٩	رَجْمًا
١٣٤	الرَّاسِخُونَ	١٠٤	الرِّجَالُ
٢٨٦	رَاوَدْتَهُ	٤٨٧	رَحْمَةً
٥٢٤	رَيْبَ الْمُنُونِ	٣٤٨-١٦٨	الرَّحْمَةُ
٢٤٨	رَيْبَةٌ	٢١٢	رَحْمَتِي
٢٢٨	رَيْحَمٌ	١	الرَّحْمَنِ
٤٣٧	رَيْعٌ	٤٩٧	الرِّزْقُ
		٤٩٠-٤١٩	رُسُلَنَا

حرف الزاي

٣٥١	الزنا	٣٠٧	الزَيْدُ
٣٥٨	زَهَقُ الباطلُ	٥٢٩	الزَيْرُ
٤٠٤	زَوْجَهُ	٤٢١	زُبْرًا
٤٦٤	زَيْدٌ	٥١٨	زَرْعٌ
٨٣	زَيْغٌ	٥٦٠	زَكَاهَا

حرف السين

٤٠٥	سُكَّارِي	٤١١	سَبَبٌ
٥١٥	السُّكَيْنَةُ	٤٣٤	سُبَاتَا
٢٩٠-٢٥٨	سُلْطَانٌ	١٥٧	السَّبِيلُ
١١٤-٩٩	سُلْطَانَا	١٢٩-١١٢-١٠٥	سَبِيلَا
٤٦١	سَلَقَوْكُمْ	٢٤٢	سَبِيلٌ
١١١	السَّلْمُ	٢٦٩	سَبِيلُ اللّٰهِ
٥٠	السَّلْمُ	٥٠٤	سُخْرِيَا
١٧٢	سُلْمَا فِي السَّمَاءِ	٤٧٤	سَدًّا
١٤٧	السَّلَامُ	٥٥٣	سُدِّي
٤٩١	سَمِعْكُمْ	٣٨٥	السَّرُّ
٥	سَمِعَهُمْ	٤٣١	سَرَابٌ
٢٠٠	سَمَّ الخِيَاطِ	٦٣	سَعَةً
١٤	سَوْءُ العَذَابِ	٤٧٩	السَّعْيُ
٥١٨	سُوقَهُ	٣٠	سَعَةً
٢٨٢	سَوَّلَتْ	٢٠٤	سَقَاهَةُ
٢٨	سِوَاءَ السَّبِيلِ	٢١٠	سُقُطٌ
٤٩٣	السَّاعَةُ	٢١١	سَكْتٌ
٥٤٦	سَالِمُونَ	٣٢٩	سَكَّرْتَهُمْ
٢٠١-٧٣	سَيِّمَاهُمْ	٣٢٥	سَكَّرَتْ
٤٩٢-٣٠٨	السَّيْئَةُ	٢٤٤	سَكَنٌ
٢٧٩	السَّيِّئَاتِ	١٨٢	سَكَنَا

حرف الشين

٨٦	الشهوات	١٢٣	الشُّح
٨١-٧٧	الشهادة	٥١٨	شَطْطه
٧٩	شهيد	٢٨٨	شَغَفها
٣٦١	شاكلته	٣٥٩-٢٥٧	شَفَاءٌ
١٦٢	شيء	٣١	شَقاق
٥٥١	شيبا	٣١٢	شَكَرْتَم
١٢١-٧٥	الشیطان	١٨٢	الشَّمْس
١٧٧	شيعا	١٣٦	شَنَان قوم
١٨٥	شياطين		

حرف الصاد

٤٧٦	الصراط	٥٥٨	الصُّبْح
١٣٩	صعيدا طيبا	٥٠٠	صَبْر
٥٠٢	صَفْحا	٦٦	صَبْرًا
١٢٢	الصلح	٣٣	صَبْغَة
١١٨-٤	إِلِلْصَلَاة	٢٦٨-١٩٤	صَدْرِك
٢٤٤	صَلَاتِك	١٨٧-١٨٦	صَدْره
٥٦٧	الصَّمْد	٣٨٦	صَدْرِي
٤٥٣	صَوْتِك	٢٤٥-٢٣٩	الصدقات
١٠٦	الصاحب بالجَنب	٢٣٣	صَدُور قوم مؤمنين
٤٣٥	الصالحين	٢٦٥-١١٠	صَدُورهم
		٢٠٦	صراط

حرف الضاد

٧١	ضَرَبَا	٣٣٥	ضَرَبَ اللهُ مثلاً رجلين
٢٦٤	ضَرُوبٌ	١٥	ضَرَبْت

حرف الطاء

١٠٣	طُولًا	٢٤١	طُبِعَ
١٥٠	طَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ	٥٠١	طَرَفَ خَفَى
٤٤٠	طَائِرُكُمْ	٤٢٢	طَغْيَانَهُمْ
٣٤٦	طَائِرَةٌ	٣١٠	طُوبَى لَهُمْ
٤٢٥	الطَّيِّبَاتِ	٣٥٤	طُولًا

حرف الظاء

٤٣٢	الظالم	٤٧٠	الظل
٣٢١	الظالمون	٤٩٩	ظلمه
		٣٦٢	ظهيرا

حرف العين

٢١٥	العَفْوُ	٤٨٠	عبادنا
٤٩٨	عفا	٣٧٩	عَنِيَا
٢٣٠	عَقِيْبِهِ	٢٧	الْعَجَلُ
٢٠	عَقَلُوهُ	٤٠٣	عَجَلٌ
٥٠٧-٣٥٣	علم	١٤٦	العداوة والبغضاء
١٣٤	العلم	١١٥	عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
٤٧١	العلماء	٥٧	عُرْضَةٌ
١٦٦	عليكم أنفسكم	٢١٥	العُرف
٣٢٩	عَمْرُكَ	٦٨	العُرُوَّةُ الوَثْقَى
٢٧١	عَمَلٌ	٣٧٢	عُرُوشَهَا
٣٣٨	عَمَلٌ صَالِحًا	٤٩	العِزَّةُ
٣٥٢	العهد	٥٠٠-٤٥٠	عَزَمَ الْأُمُورَ
٩	عَهْدَ اللَّهِ	٧٦	عُسْرَةٌ
٩٣	عَوَجًا	٢٥٠	العُسْرَةُ
٤٥٩	عَوْرَةٌ	٥٦٢	العُسْرَى
٢	العالمين	٥٥٧	عَسَعَسَ
٥٥٤	عَالِيَهُمْ	٥٦٥	العَصْرُ
٣٩١	عَيْنَهَا	٤٤٣	عَصَّدَكَ
٣٩٠	عَيْنِي	٤٠٨	عَطْفَهُ

حرف الغين

٣٧٥	غطاء	١٩٦	غُرور
١٣٣-٢٦	غُلْف	٤٥٥	الغُرور
١٣٨	الغائط	٣٣٦	غَزَلْهَا
٢٨٤	غالب على أمره	٦	غشاوة
٤٦٩-٣٦٩	الغَيْب	٢١١	الغَضْبُ
٢١٦	الغَى	١٦	غَضِبَ من الله

حرف الفاء

٤٤٨	الفسادُ	٦٥	فتة
٦١	الفضل	٢٢٩	الفتتان
٤١٧	الفلك	٤٤٢	فؤادُ أم موسى
٤٦٨	فَوْت	٥٤٠-٢٣٢-٢٢٤	فتنة
٤٤٢	فارغا	١١٣-٥٣-٤٤	الفتنة
٥٢٠	فاسقٌ	٢٢٦	فُرْقَانَا
١٨٢-١٨١	فالقُ	٤٠١	فَسَدْنَا

حرف القاف

٢١٩-١٧٤	قلوبكم	٢٥٥	قَتْرٌ
١٣٣-٨٤-٢٦	قلوبنا	١٥١	قتل نفسا
٢٠٩-١٦٩-٨٣-٧-٥	قلوبهم	٣٦٣	قَتُورَا
٣٦٦-٢٦٠-٢٥٢-٢٤١		٤٩٧	قَدْر
١٨٢	القمر	٣٢٧	قدر معلوم
٤٩٤	قَنَوط	٣٣٧	قَدْمٌ
٥٢٦	قَوَسَيْنِ	٢٥٣	قدم صدق
٤٦٢	القول	٥٣٠-٣٦٢-٣٥٩	القرآن
٣١٨	القول الثابت	٥٥٢	قرآنه
٣٨٠-٣٣٦-١٧	قُوَّة	١٢٧	القسط
١٤٣-١٢٧	قَوَّامِينَ	٣٣٣	قَصْدُ السَّبِيلِ
٥٤٥	قُوا أنفسكم وأهليكم	٣٩	القصاص
٤٧٧	قاصراتُ الطرف	٤٦٣	قَضَى اللهُ ورسوله أمرا
٤٣١	قِيعة	٥١٣-٤٨٨-٤٥٨-٤١٥	القلوب

حرف الكاف

٩١	كلمة سواء	٣٧٩	الكبر
٣١٦	كلمة طيبة	٣٨٠-٢٥	الكتاب
٤٥٤	كلمات الله	١١٨	كتابا
٣٧٦	كلمات ربي	٣٤٤	الكرة
٣٨١	كُن فيكون	٢١	كسب
٥٦٤	كنود	٣١٢	كفرتم
٤٤٤	الكنوز	٣٠٦	كفيه
٧٩	كاتب	٢١٤	الكلب
٥٥٩	كادح	٣٣٥	كل
٤٨٨	كاظمين	١٢٥	كل الميمل
١٣١	الكافرين	٣٩٣-١٧٩	كل شيء
٤٨٥	كاف عبده	١٥٣-١٠٨	الكلم
٣٩٤	كيد	٣٦٤	كلمة
		٣١٧	كلمة خبيثة

حرف اللام

٣٨٧	لساني	١٩٧-٤٠	لباس
٤٤٩	لهو الحديث	٣٤٢	لباس الجوع والخوف
٤٨١	لات	٤٣٤	لباسا
٤٠٠	لاعين	٤٢٢	لجوا
٥٥٧-٤٣٤-١٨٢	الليل	٤٣٦	لسان صدق

حرف الميم

٤٥٢	مَشِيك	٨٩	المؤمنون
٥٤٧	المصلين	٢٤٩	المؤمنين
٥٣٧	مصانع	٣٤٩	المبذرين
٥٣٣	مطر السوء	١٥٩	ميسوطان
٣٨	المعروف	٢٦١	مُبوأ صدق
٢٩٨	معاد	١٣٧	مُتجانف
٥٠٤	معيشتهم	٢٣٧	متاع الحياة الدنيا
٣٥٠	مغلولة	٥٦٣-٤٦٧	مثقال ذرة
١٧٦	مفتاح الغيب	٢٨٣	مَواه
٥٤١	مقتا	٤٨٤	مَثانِي
٥٣١	مقام ربه	٣٨٩	مَحَبَّة
٤٧٢	المكر السوء	٢٤٢	المحسين
٣٢٣	مكرهم	٤٥١	مُختال
٢٨٠	مكائتكم	٣٥٧	مُخرج صدق
١٥٧	مكانا	٣٥٧	مُدخل صدق
٤٣٩	الملوك	٥٣٤	مُدهنون
٥٤٧	مُنوعا	١٣٠	مُدبذبين
٤٨١	مَناص	٢٢٣	المرء وقلبه
٣٢٦	موزون	٥٥٦	مَرودون
٢٥٧	موعظة	٧	مرض
١١٨	موقوتا	٤٠٥	مُرُضعة
١٩٥	موازينه	٥١٧	لمريض
٤٠٢	الماء	٥٣٥	مُسْتخَلَقِينَ
٥٦٦	الماعون	٥٢٩	مُسْتَطَر
٢٣٨	ما كتب الله لنا	١٧٨	مُسْتَقَر
٣٠٧	ما ينفع الناس	٢٦٧	مُسْتَوْدَعًا
١٤١	ميثاقه	٤٧	المسجد الحرام
٧٦	ميسرة	٢٤٦	مسجدا
١١٧	قِيْلَةٌ واحدة	٧٥	المس
٤٤٧	المَيْت	١٥	المسكنة
		٣٩٨	مساس

حرف النون

٢٩٣	النفس	٣٦٠	نَفَا بجانبه
٣٠	نفسه	١٧٨	نَبَأٌ
١٩٠	نفسا	٣١٤	تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ
٣٩٢	نفسى	٢٩٩	نَجِيًا
٥٤	نفعهما	٣٧٧	نَدَاءٌ خَفِيًّا
١٧٢	نَفَقَا فِي الْأَرْضِ	٢٩٥	تُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ
٣٣٦	نقضت	٣	نَسْتَعِينُ
٢٠٣	نكدًا	١٠٤	النِّسَاءِ
٢٣٠	نكص	٥٦	نَسَاؤُكُمْ
٤٣٤	النَّهَارَ	٤٣٤	نُشُورًا
٤٢٩	نور السموات والأرض	٢٠٩	نَطْبَعُ
٤٣٤	النَّوْمَ	١٠٩	نَطْمَسَ
١٨١	النوى	٧٦	نَظْرَةً
٢٧٦-٢٠٥	الناس	٣٢٠	نِعْمَةَ اللَّهِ
٢٧٢	ناصيتها	٢١٨	النَّعَاسِ
		٥٦٠-٣٤١-١٩٢-٥٨	نَفْسٍ

حرف الهاء

٢٨٧	هَيَّتَ لَكَ	١٨	هَزُوءًا
٥٣٣	الهيم	٥٤٧	هَلُوعًا
٤١٨	هَيَّاهُ	٣٢٢	هَوَاءَ
		١٢٨	الهُوَى

حرف الواو

١٥٢	الوسيلة	٢٨١	وَجْهٌ أَيْكُمْ
٤٦٤	وَطَّرًا	٢٦٣	وَجْهَكَ
١٧٠	وَقَرًا	٤١٠	وَجْهَهُ
٤٤١	وَقَعَ الْقَوْلُ	٢٥٦-٢٥٥	وَجْوهَهُمْ
١٧١	وَقَفُوا	١٠٩	وَجُوهَا
٥٥١	الولدانَ	٨٨	وَجْهِي
٣٢٨	الوارثونَ	٣٤٧	وَزْرَ
١٩٣	وازره	٤٨٧	وَسَعَتْ
		٥٨	وُسْعَهَا

حرف الياء

١٦٧	يَعْدُلُونَ	٥٣٩	يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
٤٥٦	يَعْرُجُ إِلَيْهِ	٤٩٤	يُثُوسُ
٤٦٧	يَعْزَبُ	٧٥	يَتَخَبَّطُهُ
٥٠٥	يَعِشَىٰ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ	٥١٤	يَتَرَكُمُ
٤٣٢	يَعِضُّ	١٢٦	يَتَفَرَّقَا
٤٢٤	يَعْفُوا	٣٠١	يَتَّقُ
٨٠	يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ	٥٤٤	يَتَّقِ اللَّهَ
٤٢٢	يَعْمَهُونَ	٥٤٤	يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
٢١٨	يُعْشِيكُمُ	٢٦٥	يَتُونُ
٤٢٧	يَغْفُضُنَّ	١٥٣-١٠٨	يُحَرِّفُونَ
٣٠٤-٢٣١	يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ	٢٢٣	يَحْكُوكُ
٢٤٠	يَقْبِضُونَ	٢٩٦	يُحَاطُ بِكُمْ
٤٦٩	يَقْدِفُونَ	٣٨٠	يُحِبِّي
٦٢	يُقْرِضُ اللَّهُ	٢٨١	يُخَلُّ
١٧٥	يَقْضَىٰ الْحَقَّ	٢٣٥	يَدُ
١٠	يَقْطَعُونَ	٣٠٨	يَدْرُؤُونَ
٣٧١	يُقَلِّبُ كَفَايَهُ	٣٥٠	يَدُكُ
٤	يُقِيمُونَ	١٥٩	يَدَاهُ
٥٤٦	يُكْشَفُ عَن سَاقِ	٥١٩	يَدَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
٣٢	يُكْفِيهِمُ اللَّهُ	٢١٩	يُرَبِّطُ
١٧٧	يَلْبَسُكُمْ شَيْعًا	١٢٠	يُرِمُّ
٢٣٩	يَلْمِزُكَ	٧٤	يَسْأَلُونَ
٢١٤	يَلْهَثُ	٣٠٥	يُسَبِّحُ
٩٧	يُمَحِّصُ	٢٦٦	يَسْتَعْشِرُونَ
٤١٤	يَنْصُرُهُ	٥٦١	الْيَسْرَى
٣٧	يَنْعَقُ	١٤	يَسْؤُمُونَكُمْ
١٩	يَهْبِطُ	١٨٦	يَشْرَحُ
١٠	يُوصَلُ	٤١٢	يُشْرِكُ بِاللَّهِ
٣٨٣	يَوْمَ الْحَسْرَةِ	٢٣٣	يَشْفُ
٣١٩	يَوْمَ لَا يُبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالُ	٣٦٨	يَشَاءُ اللَّهُ
٤١٦	يَوْمَا عِنْدَ رَبِّكَ	٣٠١	يَصْبِرُ
٥٥١	يَوْمَا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا	١٨٧	يَصْعَدُ
			يَصْفَحُوا

-

الترقيم الدولي I.S.B.N.

977-5875-02-1

رقم الإيداع ٩٧/١٤٦٦١

تمت الطباعة بالمطبعة العصرية ٧٢٠٦٢٤